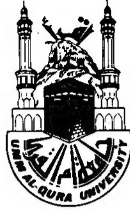
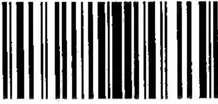
المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي
مكة المكرمة



سلسلة الرسائل العلمية الموصى بطبعها
" ١٨ "



التربية الوقائية في الإسلام

ومدى استفادة المدرسة الثانوية منها

إعداد

خليل بن عبد الله بن عبدالرحمن الحدري

١٤١٨ هـ

ح

جامعة أم القرى ، ١٤١٨ هـ .

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر .

الحدري ، خليل بن عبد الله بن عبد الرحمن

التربية الوقائية في الإسلام ومدى إستفادة المدرسة الثانوية منها ـ جدة .

٧٥٢ ص ١٧ × ٢٤ سم

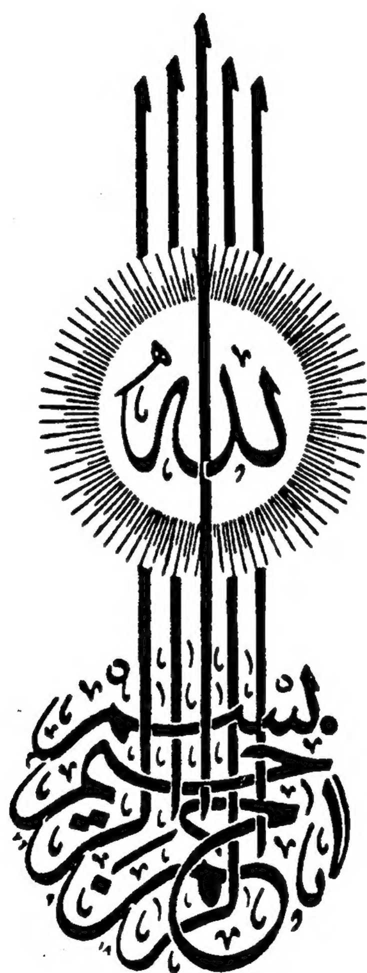
ردمك : ٢ ـ ٢٣٠ ـ ٠٣ ـ ٩٩٦٠

١ ـ التربية الإسلامية أ ـ العنوان

ديوي ٣٧٧,١ ١٨ / ٠٦٤٦

رقم الايداع : ١٨ / ٠٦٤٦

ردمك : ٢ ـ ٢٣٠ ـ ٠٣ ـ ٩٩٦٠


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

أصل هذا العمل رسالة ماجستير بعنوان (التربية الوقائية في الإسلام ومدى استفادة المدرسة الثانوية منها)

كلية التربيـــة بمكة المكرمة : قسم التربية الإسلامية والمقارنة .

أوصت لجنـة المناقشة بطبعها ..

وبالله التوفيق

قال الله تعالى :

﴿ قُلْ تعَالَوْا أتلُ مَا حَرَّمَ رَبُكَمْ عَلَيْكُمْ ألاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تعْقِلونَ ﴾ سورة الأنعام آية ١٥١

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما (د ـ ت) من حديث النعمان ابن بشير رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

﴿ الْحَلاَلُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِيْنِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنِ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَىً ، أَلاَ إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ ، أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ ﴾

ج ١ ص٢٠ ـ ج ٥ ص ٥٠ ـ ٥١

إهداء

إلى والدي المفضال، ثمرة من ثمرات تربيته ، وجنىً من رياض بساتينه ، وعطر من حقول رياحينه ، وشذا من عبقات وروده ، عسى الله أن يبارك له في عمره ، وينسأ له في أجله ، وينفعه بذريته في الدنيا والآخرة .

إلى والدتي الغالية ، التي آثرت فراق فلذة الكبد من أجل الطلب ، والتي كانت تفيض لي من دموعها ساعة اللقاء بعد الفرقة ، عسى الله أن يرزقني برها فيما بقي من العمر ، وأن يرفع درجاتها في الخالدين .

إلى أخي الغالي الأستاذ محمد بن سعد الشريفي لمسة وفاء ، في تعليم كنتَ - من نعومة الأظفار - وراءه ، وفي توجيه كنتَ - في ريعان الشباب - ضياءه، عسى الله أن يجعل ما قدمته لي في موازين أعمالك الصالحة يوم القيامة .

إلى زوجتي الغالية أم عبد الله ، مثال الزوجة الصالحة ، ورفيقة العمر الناصحة ، ثمرة عمل دؤوب كنتِ وراءه بالتشجيع والدعاء ، والبذل والعطاء ، عسى الله أن يبارك في عمرك ، وأنْ يحلك من قلبي محل السويداء .

إلى كل فرد يرجو لنفسه الفلاح في الدنيا والآخرة .

إلى المسئولين عن الأسرة المسلمة الذين يرمون إلى حياة كريمة ملؤها المودة والرحمة ، والسكن والطمأنينة .

إلى القائمين على المحاضن التربوية ، الحريصين على أن تقوم بواجبها الحقيقي تجاه الناشئة .

إلى المسئولين عن المجتمع الحريصين على أمنه واستقراره ، المهتمين بوحدة صفه ، وتماسك لبناته .

إليكم جميعا أهدي هذا العمل التربوي ، كخطوة أولى في مشوار طويل ، أسأل الله أن يسدد فيه الخطوات ، وأن يقيل فيه العثرات ، إنه سميع قريب مجيب الدعوات .

شكر وتقدير

روى الترمذي في سننه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :﴿ **لا يشكر الله من لا يشكر الناس** ﴾ وفيه من رواية أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :﴿ **من لم يشكر الناس لم يشكر الله** ﴾ والحديث بروايتيه صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ج ٢ ص ١٨٥.

وانطلاقا من هذا المبدأ التربوي الإسلامي العظيم ، فإني أتوجه بخالص شكري وعظيم امتناني لجامعة أم القرى التي أتاحت لي فرصة مواصلة دراستي في هذا الصرح الكبير، ممثلة في معالي مدير الجامعة الدكتور / سهيل بن حسن قاضي، ومعالي مديرها السابق الدكتور راشد الراجح وعميد كلية التربية الدكتور / عبدالعزيز بن عبدالله خياط ، وعميدها السابق سعادة الدكتور حسن بن على مختار، وسعادة وكيل عميد كلية التربية الدكتور علي بن عبدالله بردي الزهراني ، وعميد الدراسات العليا الدكتور / أحمد بن ناصر الحمد ، وكل من يقدم العون لطلاب العلم في هذه الجامعة الرائدة.

كما أتوجه بالشكر الجزيل ، والعرفان بالجميل ، للمربي الفاضل ، سعادة الدكتور حامد بن سالم الحربي رئيس قسم التربية الإسلامية والمقارنة بكلية التربية ، جامعة أم القرى والمشرف على هذه الدراسة ، لما أولانيه من رعايه وتوجيه طيلة مدة الإشراف ، مقدرا له تلك المواقف الخالدة ، والتي تدل على نبل تعامله ، ودماثة خلقه ، وقد لمست ذلك في كثير من توجيهاته التي كان يعرضها في صورة المستشير، وبحكمة المربي الخبير، فجزاه الله عني خير مايجزي معلما عن تلميذه .

كما أتوجه بالشكر الجزيل للأستاذين الفاضلين مناقشي هذه الدراسة ، فضيلة الشيخ الدكتور عبد الله بن عمر الدميجي ، عميد كلية الدعوة سابقا بجامعة أم القرى ، وسعادة الدكتور السعيد محمود السعيد عثمان الأستاذ بقسم التربية الإسلامية والمقارنة بجامعة أم القرى .

كما أتقدم بوافر الشكر وعظيم الامتنان لزوجتي الغالية أم عبد الله ، التي كانت الساعد الأيمن لي أثناء عملي في هذه الدراسة ، والتي ضحت بكثير من وقتها وجهدها بل وحتى كثير من حقوقها في سبيل توفير الراحة لي لمواصلة الليل بالنهار حتى تكامل هذا العمل.

كما أشكر أخي المفضال ، المعلم القدير ، والمرب الكبير ، سعادة الأستاذ محمد بن حامد الغامدي ، على ما قدمه لي من نصح وتوجيه ، واستدراك وتنبيه ، فجزاه الله عني خير الجزاء .

كما أتقدم بخالص شكري وعظيم امتناني لأخي الفاضل سعادة الأستاذ محمد بن أحمد محجوب المشرف التربوي في قسم الحاسب الآلي بإدارة تعليم مكة المكرمة ، على ما قدمه لي من عون ومساعدة طيلة إعداد هذه الدراسة التي كتبها الباحث بنفسه .

ولا أنسى في زحمة العرفان بالجميل الألمعي الهمام أخي خالد بن عبد الله الحدري على ما بذله معي من جهد في أواخر إعداد هذه الدراسة ، والله أسأل أن يشرح صدره ، وأن يجعله من الراشدين .

كما أتقدم بالشكر والتقدير لكل من أعارني كتابا ، أو أسدي لي توجيها ، أو شجعني على فكرة ، أو نبهني على خطأ ، أو دلني على تقصير ، ولهم جميعا أسأل الله تعالى أن يجزيهم عني خير الجزاء ، وأن يجعل ما قدموه لي في موازين أعمالهم الصالحة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحة

الفصل الأول

(الفصل التمهيدي ـ خطة البحث)

١ ـ المقدمة

٢ ـ موضوع الدراسة

٣ ـ أهمية الدراسة

٤ ـ أهداف الدراسة

٥ ـ تساؤلات الدراسة

٦ ـ حدود الدراسة

٧ ـ منهج الدراسة

٨ ـ مصطلحات الدراسة

٩ ـ الكتابات والدراسات السابقة

مُقدِّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، أما بعد :

فإن من الأصول التي قامت عليها تربية الإنسان في الإسلام الفطرة السوية التي تؤمن بالله ربا وخالقا ، وتعترف له بالوحدانية ، ذلك أن الله تعالى قد جبل البشرية على التوحيد ، وفطرها على الإيمان ، وبذر في أصل خلقتها ، وفي طبيعة تكوينها معرفة الله سبحانه، قال الله تعالى :﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ سورة الروم آية ٣٠ .

وثبت عنه صلى الله عليه وسلم كما روى ذلك البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتجون البهيمة ، هل تجدون فيها من جدعاء ؟ حتى تكونوا أنتم تجدعونها ، قالوا يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير؟ قال الله أعلم بما كانوا عاملين ﴾ ج ٨ ص١٥٣ .

وفي صحيح مسلم (شرح النووي د ـ ت) قال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل في حديث قدسي طويل :﴿ ... وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزلْ به سلطانا ... ﴾ ج ٩ ص ٩٧

ومع أن الإنسان مفطور على التوحيد ، مجبول على الإيمان ، إلا أنه قد ينحرف عن الفطرة السوية ، والجبلة الإلهية حين يعرض عن الطريق القويم ،

ويتنكب الصراط المستقيم ، فتستهويه الشياطين في الأرض حيران ، وعلى أثر ذلك ينسى الإنسان أصل خلقته ، ويتناسى حقيقة مهمته ، فتنطمس فطرته ، وتتغير مفاهيمه ، وتنتكس أفكاره ، فيرى الحق باطلا ، والباطل حقا ، ويفتقد المعيار الإلهي الدقيق في الحكم على الأقوال والأفعال والتصرفات ، وهذا يحدث عند الناس بنسب متفاوتة ، كل بحسب انحرافه عن فطرته التي فطره الله عليها ، ونتيجة لهذا كله ، يشقى الإنسان في حياته ، وينحدر في أخلاقه ، فيصدق عليه قول الله سبحانه :﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ سورة التين آية ٥

من أجل هذا كان لا بد لهذا الإنسان ـ كي يسير في أحسن تقويم ـ من تربية تقيه وتحافظ عليه ، وتقوم على رعايته ، وتأخذ بحجزه عن التردي في مهاوي الانحراف ، ودركات الضلال ، ليرتفع عما يدنس حياته ، فيحقق مهمته التي خلقه الله من أجلها ، فكانت التربية الإسلامية .

إن رحمة الله بالإنسان لا تقف عند حد ، ولا يوقفها أحد ، كيف لا ؟ ورب العالمين سبحانه يعلم ضعف هذا الإنسان وقصوره ، وما ركّب فيه من ميل إلى مغريات الحياة ومتعها ، وضعفه عن حمل تلك الأمانة التي كلفه الله بها ، حتى غدا التقصير سمة هذا الإنسان .

فقد روى أبو داود في سننه (١٤٠٩هـ) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ﴾، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٤٠٨هـ) ج ٢ ص ٣٠٥ .

ولخطورة المعصية ، وشؤم آثارها على مستقبل حياة الإنسان ، فردا كان أو جماعة ، فقد تدخلت عناية الله سبحانه بهذا الإنسان ، فرسمت له طريق الخير ودعته إليه ، وخطت له طريق الشر وحذرته من مغبة الوقوع فيه ، وسلكت في

ذلك منهجين عظيمي ، تميزت بهما التربية الإسلامية ، يكمن أحدهما في التربية الوقائية ، وذلك بأخذ الاحتياطات والتدابير الشرعية التي تقي من الوقوع في الخطأ، وتمنع من التردي في المحظور ، ويكمن الآخر في التربية العلاجية التي تأتي عقب الوقوع في الخطأ ، والسقوط في هوّة المحظور .

ولقد أولى الإسلام هذين المنهجين عناية فائقة ، فدعا إليهما عبر المصادر التشريعية من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم في مواطن كثيرة ، بعد أن أقفرت كل المناهج التي قطعت صلتها بوحي السماء من الهدى والرشاد في تهذيب وجدان الإنسان ، وتصحيح سلوكه ، وبعد أن أفلست كذلك في إصلاح أحوال المذنبين ، واستصلاح أخلاق العصاة والمجرمين ، فسلكت في ذلك كل السبل والطرائق ، فلم تصغ فطرة ، ولم ترب خلقا ، ولم توجه سلوكا ، ليبقى الإسلام بأسلوبه القرآني ، وطرحه الرباني ، ينمي فطرة الإنسان ، ويستصلح خطأها ، بالوقاية عن الخطأ تارة قبل الوقوع فيه ، وبالعلاج تارة أخرى ، حين يضل الفهم ، وتزل القدم ، ويقع الإثم ، فتفتح له بالتوبة آفاقا من الأمل في تغيير الواقع لاتخطر على البال ، وذلك حين يعتقد المذنب الشارد أن له ربا يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن كثير ، بل ويفرح بتوبة العبد أشد من فرح من رأى الهلاك بعيني رأسه ثم عبقت أنفاسه برائحة الحياة .

ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تبعث التوبة في شعور العبد قربه من ربه ، حين يعلم أن له ربا عظيما ، ومعبودا كريما ، يتجاوز كرمه العفو إلى المحبة ، ومن أحبه الله كان له سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سأل ربه ليعطينه ، ولئن استعاذه ليعيذنه .

كما أن الإسلام قد رتب على ولوج هذا الباب من الآثار الدنيوية والأخروية ما يشحذ همة العبد للتوبة عن مقارفة الذنوب ، والندم على ما سلف من ارتكاب

المخالفات والآثام ، ليعيش الإنسان حياته الدنيوية في أحسن تقويم ، مستقيم الفطرة، طاهر السريرة ، يقوم بدوره في خلافة الأرض كما يريد ربه ومولاه ، لا كما يريد شيطانه وهواه ، وهنا تكمن قيمة الحياة ، ويعرف الإنسان منزلته العظمى بين مخلوقات الله التي تملآ هذا الكون الرحب الفسيح ، وليتبوأ في الآخرة ما يصبو إليه من جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

إن المتأمل في حال كثير من الأفراد والأسر والمجتمعات ، وحال بعض المؤسسات التربوية في العالم الإسلامي ليرى حجم الخلل في كثير من جوانب الحياة ، وما من شك أن من أعظم أسباب هذا الخلل هو التفريط في جانب الوقاية وذلك بتعدي حدود الله تعالى وانتهاك محارمه .

من هنا حاول الباحث - بعد النظر في هذين الجانبين الوقائي والعلاجي - أن يفرد الجانب الأول وهو الجانب الوقائي بالبحث والكتابة لأهميته وعظم أثره على الأفراد أنَّى كانت مواقعهم ، وعلى المؤسسات كلها على وجه العموم ، والتربوية منها على وجه الخصوص ، ليعلم الناس جميعا على اختلاف مشاربهم ، وتنوع مذاهبهم ، أن اتباع منهج الإسلام - على الكتاب والسنة بفهم السلف - في إصلاح النفس ، وتقويم انحرافها ، هو المنهج الوحيد لبلوغ سعادة الدنيا والآخرة ، وأن اتباع غيره من المناهج الوضعية ، والحلول البشرية ، والدعوات الشرقية أو الغربية ، ما هو إلا العمى والضلال ، والتخبط والضياع ، وصدق الله إذ يقول :﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ سورة آل عمران آية ٨٥ .

وقد وصف رسوله صلى الله عليه وسلم الناجين من الهلاك في الدنيا والآخرة بأنهم السائرون على هديه صلى الله عليه وسلم وعلى هدي صحابته رضوان الله عليهم أجمعين ، فقال كما روى ذلك الترمذي في سننه من حديث

عبد الله بن عمرو رضي الله عنه في وصف الفرقة الناجية والطائفة المنصورة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿ ما أنا عليه وأصحابي ﴾ ج ٥ ص ٢٦ ، والحديث حسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٤٠٨هـ) ج ٢ ص ٣٣٤.

والله أسأل أن يجعل هذا الموضوع نواة خير ومعلمة هدى ، للمساهمة في حمل الناس على الإسلام ، ودعوتهم إليه ، باعتباره الدين الإلهي الوحيد ، والمنهج الرباني الفريد ، الذي يسلك بالنفس الإنسانية أقوم الطرق وأعظمها ثمرة في عاجل أمرها وآجله ، ليس ذلك في جوانبها التربوية فحسب ، بل في جوانب حياتها كلها، ليتحقق للأمة المسلمة موعود الله في قوله تعالى: ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ سورة النور آية ٥٥

والله المستعان وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

موضوع الدراسة :

شهدت الحياة الدنيا ـ منذ أن أهبط الله تعالى أبانا آدم عليه السلام إلى يومنا هذا ـ تعاقب أمم كثيرة ، كانت كل أمة تسكن في جزء من الأرض ، وتحمل رسالة خاصة ، تقوم بدورها المنوط بها، ثم ما تلبث أن يطويها الزمن ، ويسدل على أنقاضها الستار ، ليفتح الستار مرة أخرى على ميلاد أمة جديدة ، تقوم بالدور ، ثم ترحل وفقا لسنن الله في الأمم والشعوب ، قال الله تعالى :﴿ ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ سورة الأعراف آية ٣٤ .

وهكذا تعاقب على ظهر الأرض تسع وستون أمة ، كانت كل أمة تقوم بدروها ثم ترحل ، حتى تهيأت الأرض كلها لميلاد أمة جديدة ، خاتمة المنهج ، عالمية الرسالة ، خالدة المبادىء ، لتكمل في تعداد الأمم سبعين أمة ، ولتكون ـ في ميزان الله تعالى ـ أكرم الأمم على الإطلاق ، تلك هي أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، والتي وصفها صلى الله عليه وسلم بقوله كما روى ذلك الإمام أحمد في مسنده (١٩٣١هـ) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :﴿ أنتم وفيتم سبعين أمة أنتم آخرها وأكرمها على الله ﴾ ج٥ ص ٥ ، قال ابن القيم في زاد المعاد (١٤٠٧هـ) ((وهو حديث حسن رواه الترمذي وابن ماجة وصححه الحاكم ووافقه الذهبي)) ج ١ ص ٤٥ .

وقد حدد رب العالمين سبحانه مكمن الخيرية في هذه الأمة بقوله :﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ... ﴾ سورة آل عمران آية ١١٠

وبما أن الله سبحانه قد أراد لهذه الأمة أن تكون عالمية في رسالتها ، تسك في قطاع عريض من الأرض ، وكتب لها الخلود أبد الدهر ، كان لا بد لها من منهج إلهي رباني ، يتناسب مع عالميتها واتساعها وخلودها ، فأنزل سبحانه عليها

المصدرين الأساسين وجعل في التمسك بهما نجاة للعبد من الضلال في كل جانب من جوانب حياته ، وهو ما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الحاكم في مستدركه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدي كتاب الله وسنتي ، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض ﴾ والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٠٦هـ) ج ١ ص ٥٦٦ .

ولقد ورد في هذين المصدرين ما يعين المربين على القيام بوظيفتهم العظمى تجاه هذا الإنسان الذي هو محور التربية الإسلامية ، فَبَيَّنَا أنه كائن مكرم ، وأن الله سبحانه قد خلقه لحكمة ، وهيأه لقبول الحق والعمل به ، وهداه النجدين ، فجعله إما شاكرا وإما كفورا ، كما فصل هذان المصدران ما في هذا الإنسان من الضعف والقصور ، وما ركب فيه من الميل إلى المتع والشهوات ، فقال سبحانه :﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ... الآية ﴾ سورة آل عمران آية ١٤ .

كما أن القرآن الكريم لم يكتف بمجرد عرض هذه الحقيقة ولكنه أتبع ذلك بأسلوب التهوين من أمر الدنيا ، ثم الموازنة بين نعيم الدنيا والآخرة حين دعا الإنسان إلى الترفع عن ثقلة الأرض ، فبيَّن في الآية نفسها أن هذه الشهوات متاع قليل ، وعرض زائل ، فقال عقب عرض هذه الشهوات مباشرة :﴿ ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ ثم أعقب ذلك بنقلة هائلة إلى العالم الأخروي فقال :﴿ والله عنده حسن المآب ﴾ وجعل هذا الحسن مبهما لتذهب النفس في تصوره كل مذهب ، وهذا كله من أساليب التربية الوقائية في القرآن الكريم ، فهي تقلل من شأن الدنيا ، وتعظم من شأن الآخرة ، شحذا للهمم ، وتحريكا للعزائم ، وقاية للنفس من التعلق بالغرور من المتاع ، ثم أعقب ذلك بعرض موجز لبعض النعيم السرمدي الخالد في

جنات عدن فقال سبحانه :﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد ﴾ سورة آل عمران آية ١٥ .

كما أن الله سبحانه قد بين ضعف هذا الإنسان ، فقال جل شأنه :﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا﴾ سورة النساء آية ٢٨ .

وأخبر رسوله صلى الله عليه وسلم ، أنه لابد لهذا الإنسان من مواقعة الخطأ، إلا من عصمه الله تعالى ، فقال صلى الله عليه وسلم :﴿ كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ﴾ سبق تخريجه ص ٣ .

من أجل هذا وذاك حرص الإسلام عبر مصادره التشريعية بادىء ذي بدء أن يقي الإنسان من الوقوع في الخطأ ، فوضع له من الحواجز والسدود ، والموانع والحدود ، ما يحول بينه وبين المخالفة ، وكان ذلك بأساليب متنوعة ، وطرائق متفرعة ، تأخذ بمجامع القلوب ، فتقود هذه النفس إلى طريقها الصحيح ، الذي رسمه لها خالقها وبارئها والعالم بما يصلحها وما يصلح لها ، وهذا ما أطلق عليه الباحث [التربية الوقائية] والتي أخذت من النهج التربوي الإسلامي مساحة كبيرة جدا .

يقول يكن في كتابه التربية الوقائية في الإسلام (١٤١٢هـ) ما خلاصته : إن من يتمعن في النهج التربوي الإسلامي يجد أن التركيز إنما ينصب على البناء الوقائي للفرد والمجتمع ، وعلى تقوية المناعة المكتسبة لدى الناس تداركا للأمور ، وتحوطا منها ، واتقاءً لشرها قبل وقوعها . ص ٣٩ .

كل ذلك لتسير هذه النفس في توازن عظيم في كل جانب من جوانب الحياة ، وفي هذا المعنى يقول محمد قطب في كتابه منهج التربية الإسلامية (١٤٠٩هـ) :

((والتوازن ـ وهو سمة من سمات الإنسان الصالح ـ معنى واسع شامل ، يشمل كل نشاط الإنسان ، فهو توازن بين طاقة الجسم وطاقة العقل وطاقة الروح ، توازن بين ماديات الإنسان ومعنوياته ، توازن بين ضرورياته وأشواقه ، توازن بين الحياة في الواقع والحياة في الخيال ، توازن بين الإيمان بالواقع المحسوس والإيمان بالغيب التي لا تدركه الحواس ، توازن بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية ، توازن في النظم الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية ، توازن في كل شيئ في الحياة)) ج ١ ص ٢٧ ـ ٢٨ .

ثم إن الإنسان حين يتخطى تلك الحواجز التي وضعها الشرع المطهر ، ويقع فيما حذره الله منه ، ونهاه عنه ، فإن منهج الإسلام التربوي لا يتركه يسبح في أودية اليأس والقنوط ، فيزداد عتوّه ، ويتمادى في ضلاله وإفساده وطغيانه ، بل يفتح له باب الأمل في تصحيح واقعه ، متبعا في تربيته الجانب الأخر وهو جانب العلاج ، بدعوته إلى التوبة عما بدر منه ، زارعا في قلبه شدة فرح الله سبحانه بتوبة عبده ، مبينا له كرم ربه سبحانه ، وهو يمحو ما علق بعبده من المآثم ، بل ويبدل له تلك السيئات التي اقترفتها يداه إلى حسنات ، عندما ينثني الشارد على ربه ، ويعود الهارب عن مولاه ، ليبدأ صفحة جديدة مملوءة بالهدى والرشاد .

من أجل هذا سيكون موضوع الدراسة هو : التربية الوقائية في الإسلام ومدى استفادة المدرسة الثانوية منها .

وسيحاول الباحث وضع النقاط على الحروف فيما يتعلق بالمجالات التي يمكن أن تستفيد من التربية الوقائية، مركزا على كيفية استفادة المدرسة الثانوية منها.

وما هذه الخطوة إلا مساهمة من الباحث ـ على قلة البضاعة وضعف الصناعة ـ في الدعوة إلى قيام مجتمع مسلم مثالي تعتبر الأسرة والمدرسة من أعظم ركائزه الأساسية على الإطلاق ، وسيزداد الأمر ـ إن شاء الله ـ وضوحا وبيانا من خلال تساؤلاته .

أهمية الدراسة :

جاء المصدران الأساسيان كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم لتربية النفوس تربية شاملة ، وتزكيتها تزكية كاملة كي تقوم بوظيفتها في الحياة ، قال تعالى على لسان خليله إبراهيم عليه السلام في دعوته الخالدة ، وهو يناجي ربه ومولاه كما جاء في القرآن الكريم :﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ سورة البقرة آية١٢٩ ، فهاهي الآية الكريمة قد حصرت المهمة التربوية لرسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاث قضايا هامة في حياة الأمة ألا وهي التلاوة ، والتعليم ، والتزكية ، ولتحقيق ذلك جاء المنهج التربوي الإسلامي على جانبين :

الأول : تلك التشريعات الواردة في كتاب الله وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم التي تحذر من الانحراف عن جادة الصواب ، مبينة أسباب الانحراف ، مفصلة أثاره الخطيرة في عاجل الأمر وآجله ، مع عدم وقوفها على بيان سبب الانحراف وآثاره ، بل وضعت إلى جانب ذلك التدابير الوقائية التي تسهم في اتقائه والحذر منه ، وهي ما أطلق عليه الباحث بالتربية الوقائية .

والثاني : تلك التشريعات التي تأتي عقب الوقوع في الخطأ في ساعة ضعف بشري ، واستسلام للشيطان والهوى والنفس الأمارة بالسوء ، فتقوم على استصلاح الخطأ وتقويم الانحراف ، وتسدل الستار على الماضي بعجره وبجره ، وسيئاته وآثامه ، وتفتح باب الأمل لمستقبل جديد حافل بالخير والصلاح ، وتنمي الإرادة الخيرة ، وكل ذلك يتم بالأساليب التربوية الإسلامية التي تلامس شغاف الأفئدة ، وتنفذ إلى سويداء القلوب .

ومن خلال النظر في هذين الجانبين قرر الباحث أن يفرد الجانب الأول منه بالكتابة ، ألا وهو الجانب الوقائي ، الذي يعتبر من وجهة نظر الباحث أهم بكثير من الجانب العلاجي ، وتبرز أهمة هذا الموضوع في النقاط التالية :

١ ـ أن هذا المنهج قد أخذ من التربية الإسلامية مساحة كبيرة ، تفوق تلك المراحل التي جعلها الإسلام للعلاج ، لكون الإنسان قد ولد على الفطرة السوية فهو في حاجة إلى الوقاية أكثر من حاجته إلى العلاج ، يقول يكن في كتابه التربية الوقائية في الإسلام (١٤١٢هـ) :((حتى أصبح اهتمام الإسلام بالجانب الوقائي يفوق بشكل كبير اهتمامه بالجانب العلاجي ، وهذا ما يجعل المنهج الإسلامي متفردا على سائر المناهج ذات المنحى العلاجي المرضي)) ص ١٥ .

٢ـ يسهم في بناء الشخصية الإسلامية بناء وقائيا يصد عنها الشر قبل نزوله ، والبلاء قبل حصوله ، ذلك أن الشر حين يتمكن من القلب يضعف قبوله للحق ، وينهك فيه المناعة ضد كل شهوة أو شبهة .

٣ ـ يعطي تصورا واضحا عن الحكمة العظيمة من مشروعية الحدود في الإسلام ، إذ هي من أعظم الجوانب التي تحقق للمجتمع أمنه واستقراره ، إذ بها تصان الحقوق ، وتحفظ الأنفس والأموال والأعراض والعقول ، وقبل هذا وذاك يصان بها الدين الذي هو سر سعادة الأفراد والمجتمعات في الدنيا والآخرة .

٤ ـ تظهر في مضمون تلك الحكمة الرد على أعداء الإسلام الذين يصفون الإسلام بأنه دين التخلف والرجعية حين يحبس المرأة في المنزل ، ويهين كرامتها بالحجاب ، ويلغي إنسانيتها بعزلها عن مشاركة الرجال ، ويظهر ذلك جليا في الرد على كل من يصف الإسلام بالوحشية والهمجية حين يقتل القاتل ويرجم الزاني ويجلد الشارب .

٥ ـ في التمسك بهذا المنهج توفير لكثير من الوقت والجهد والمال والمعاناة التي يستغرقها المنهج العلاجي ، والعاقل يؤمن بأن درهم وقاية خير من قنطار علاج، وأن الدفع أسهل من الرفع ، وأن اتقاء الفتن والمصائب والمحن قبل نزولها ، أوفر وأيسر من التخلص منها بعد نزولها .

٦ـ كما أن أهميته تبرز حين النظر في واقع الأمة المسلمة في كثير من جوانب حياتها ، وما أصابها من الأمراض والعلل والأوجاع والأسقام ، يوم فرطت في جانب الوقاية ، وتخطت تلك الحواجز التي وضعها الشرع وحذر من مجرد القرب منها مبالغة في وقاية الفرد والمجتمع.

٧ـ كما أن من الأمور الهامة التي جعلت الباحث يتناول هذا الموضوع بالكتابة ، كون هذا الموضوع يستفيد منه كل أفراد المجتمع ، ومن هؤلاء الذين يستفيدون من هذه الدراسة :

أ ـ الفرد في تهذيب وجدانه وإصلاح سلوكه أيّاً كان موقعه من الحياة .

ب ـ المسئولون عن الأسرة ، الحريصون على تنشئتها تنشئة سليمة ، وصيانتها عما يخلخل كيانها ، ويصدع بنيانها.

ج ـ المسئولون عن المدرسة ، الحريصون على أن تقوم بالدور الإصلاحي المرجو منها .

د ـ المسئولون عن المجتمع ، الحريصون على صيانة عما يقوده إلى الدمار في مؤسساتها كلها ، ليظل متماسك اللبنات ، قوي الصف ، مرصوص البنيان .

أهداف الدراسة :

١ـ توضيح مفهوم التربية الوقائية في الإسلام .

٢ـ التعرف على بعض مصادر التربية الوقائية في الإسلام .

٣ـ عرض بعض أساليب التربية الوقائية في الإسلام .

٤ـ تحديد المجالات التي يمكن أن تطبق فيها التربية الوقائية في الإسلام

٥ ـ إعطاء تصور مقترح في كيفية استفادة المدرسة الثانوية من التربية الوقائية في الإسلام .

تساؤلات الدراسة :

يتحدد موضوع الدراسة من خلال التساؤل الرئيس التالي : ما مدى استفادة المدرسة الثانوية من التربية الوقائية ٠

وللإجابة عن هذا التساؤل الرئيس يلزم منه الإجابة عن هذه التساؤلات الفرعية التالية :

س ١ ـ ما مفهوم التربية الوقائية في الإسلام ٠

س ٢ ـ ما مصادر التربية الوقائية في الإسلام ٠

س ٣ ـ ما الأساليب التربوية الوقائية في الإسلام ٠

س ٤ ـ ما مجالات تطبيق التربية الوقائية في الإسلام ٠

حدود الدراسة :

تتفرع التربية إلى مجالات عدة منها العقدية والخلقية والفكرية والمهارية والصحية ، إلى غير ذلك ٠

وسوف تقتصر هذه الدراسة على التربية الوقائية في جانب تربية الشخصية الإسلامية ، تربية خلقية متكاملة ، مركزة على العقيدة كأساس تنطلق منه كل الأعمال والتصرفات ، وعلى الخلق كجانب هام من جوانب بناء هذه الشخصية ٠

على أن تركز الدراسة على المدرسة الثانوية وكيف تستفيد من التربية الوقائية سواء كان ذلك في جانب المعلم أو المنهج أو النشاط ، حرصا على تنشئة الأجيال المسلمة تنشئة سليمة ، ليكونوا أعضاء صالحين مصلحين ، يسهمون في بناء مجتمع مثالي يعرف فيه الإنسان معنى الحياة ، وستقتصر هذه الدراسة على إيراد بعض الأمثلة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهدي سلف الأمة، ذلك أن الأدلة في الكتاب والسنة وهدي السلف التي تضع منهجا للتربية الوقائية أعظم من أن تحصر ، وأكثر من أن تذكر ، وسوف يقوم الباحث ـ بإذن الله ـ بتصنيف هذه النصوص ما يتعلق منها بالعقائد ، وما يتعلق بالأخلاق ٠

منهج الدراسة :

طبيعة الدراسة تحتم على الباحث أن يستخدم المنهج الاستنباطي الذي يهدف إلى إعمال الذهن في ما يتيسر له الوقوف عليه من الآيات والأحاديث وهدي السلف ، بغية استنباط ما يمكن استنباطه من التدابير الوقائية والأساليب التربوية التي تتربى من خلالها الشخصية الإسلامية تربية وقائية تهدف إلى قطع الطريق على الأزمات قبل حدوثها ، وعلى العلل قبل وقوعها ٠

يقول صالح وفوده في كتابهما المرشد في كتابة البحوث التربوية (١٤٠٨هـ) عن هذا المنهج :((هو الطريقة التي يقوم عليها الباحث ببذل أقصى جهد عقلي ونفسي عند دراسة النصوص بهدف استخراج مبادىء تربوية مدعمة بالأدلة الواضحة)) ص٤٣ .

وسوف يستخدم الباحث هذا المنهج لاستنباط بعض التدابير الوقائية التي حفلت بها المصادر الأساسية وهدي السلف في صيانة معتقد وخلق الشخصية الإسلامية ، بالإضافة إلى استنباط بعض الأساليب التربوية التي استخدمها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لتقرير هذا المنهج ٠

مصطلحات الدراسة :

الوقائية :

قال ابن منظور في لسان العرب (١٤١٢هـ) في مادة وقى قوله :((وذكر ابن منظور في لسان العرب (١٤١٢هـ) في مادة وقى قوله:

((ووقى : أي وقاه الله وَقْيا وَوِقاية وواقية : أي صانه . ووقيت الشيء أقيه : إذا صنته وسترته عن الأذى . وتبقَّه وتوَّقه : أي استبق نفسك ولا تعرضها للتلف ، وتحرز من الآفات واتقها ومنه قول مهلهل:

ضربت صدرها إلي وقالت   ياعديا لقد وقتك الأواقي

ووقاه : صانه ، ووقَّاه حماه منه . وفي التنزيل : ﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ... ﴾

والوَقَاء والوِقَاء والوِقَاية والوُقَاية والواقية : كل ما وقيت به شيئا . وفي الحديث : ((من عصى الله لم يقه منه واقية إلاّ بإحداث توبة)) وفي التنزيل : ﴿ وما لهم من الله من واق ﴾ أي من دافع . وتوقيت واتقيت الشيء وتقيته اتقيه ، واتقيه تُقَى وتَقِيَّة وتقاء : أي حذرته ، والاسم التقوى ، ورجل تقي ويجمع أتقياء ومعناه : أنه موق نفسه من العذاب والمعاصي بالعمل الصالح ، وفي الحديث : ((كنا إذا احمر البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم)) أي جعلناه وقاية لنا من العدو قدامنا ، واستقبلنا العدو به وقمنا خلفه وقاية . ج ١٥ ص ٤٠١ ومابعدها

وقال الجوهري في الصحاح (١٤١٤هـ) :((وَقَاهُ الله وِقَايَةً : أي حفظه ، والتَوْقِيَةُ : الكَلاءَة والحِفظ)) ج ٦ ص ٢٥٢٧ .

وقال الزاوي في ترتيب القاموس المحيط (د ـ ت) :((وَقَهُ وَقْياً وَوِقَايَةً وَوَاقِيَةً : صانه ، والتَّوْقِيَةُ : الكلاءة والحفظ ، واتَّقَيْتُ الشيئ حذرته ، والاسم التقوي)) ج ٤ ص ٦٤٨ .

وقال المناوي في التوقيف على مهمات التعاريف (١٤١٠هـ) :((الوقاية : حفظ الشيئ عما يؤذيه ويضره)) ص ٧٣٠ .

وقال الكفوي في الكليات (١٤١٢هـ) :((والاتقاء هو افتعال من الوقاية ، وهي فرط الصيانة وشدة الاحتراس من المكروه ٠٠٠ والمتقي في عرف الشرع : اسم لمن يقي نفسه عما يضره في الآخرة)) ص٣٨ .

ومن خلال ما سبق في تعريف هذا المصطلح تعريفا لغويا يتبين أن المراد منها فرط الصيانة والستر والحماية والكلاءة والحفظ والحذر ، وهو ما يمكن أن تقوم به التربية الوقائية تجاه الفرد والأسرة والمدرسة والمجتمع ٠

الكتابات والدراسات السابقة :

حسب علم الباحث واطلاعه، ومساءلته لمراكز المعلومات والبحوث العلمية، تبين أن هذا الموضوع وبهذا العنوان لم يتطرق له أي باحث من قبل ، وإن كانت المكتبة الإسلامية قد حفلت ببعض الكتابات في جزئيات من الموضوع ، أو تناولته بصورة عامة ، فمن هذه الكتابات :

كتيِّب بعنوان : التربية الوقائية في الإسلام تأليف فتحي يكن وهو من مطبوعات مؤسسة الرسالة ، ويقع في ست ومائة صفحة ، من القطع الصغير ، بين فيه المؤلف المراد بالوقاية والعلاج ، وذكر أن النهج العلاجي مرض مزمن ، ثم ذكر أهمية التربية الوقائية ، وبين منهج الإسلام التربوي من خلال بعض الآيات والأحاديث النبوية ، ثم عرج لنماذج لبعض الآفات وكيفية علاجها ، وقد خلص

في النهاية إلى أهمية التربية الوقائية التي احتلت من الكتاب والسنة مساحة كبيرة ، ودعا القائمين على المحاضن التربوية أن يولوا هذا الجانب أهمية خاصة .

أما الدراسة الحالية فإنها ستتحدث عن تربية الشخصية الإسلامية تربية وقائية في عقيدتها وأخلاقها ، بجمع مادتها واستنباط بعض التدابير والأساليب الوقائية من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وهدي سلف الأمة الأخيار ، والتي يمكن تطبيقها على الأسرة والمجتمع وعلى المدرسة الثانوية باعتبار الدراسة ستركز عليها عن طريق المعلم والمنهج والنشاط .

الفصل الثاني
الإطار المرجعي للتربية الوقائية

١ ـ مفهوم التربية الوقائيـــة

٢ ـ منزلة التربية الوقائية من التربية الإسلامية

٣ ـ التربية الوقائية عند غير المسلمين

٤ ـ تميز التربية الوقائية عند المسلمين

مدخل للفصل :

خلق الله الخلق وفطرهم على التوحيد ، وأنزل لهم العليم الحكيم ـ الذي يعلم ما يصلح عباده وما يصلح لهم ـ منهجا مباركا يحيون به ، ويعيشون حياة كريمة في ظل توجيهاته ، وتعاقب رسل الله تعالى يبلغون الناس ما أنزل إليهم من ربهم ، حتى ختمهم الله تعالى بخير خلقه ، وخاتم رسله ، وأكرم أنبيائه ، محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت رسالته ربانية عالمية خالدة شاملة متوازنة خاتمة ، تتناول ميادين الحياة كلها بالتوجيه والإصلاح ، وتتناول الإنسان في كل جانب من جوانب حياته .

ومن هنا استمدت التربية الإسلامية أصالتها وعمقها وعالميتها وشمولها وخلودها واتزانها من هذه الرسالة الخالدة ، فكانت معطاءة في الخير كلما اقترب الإنسان من معينها العذب الزلال ، ولن تزال هذه التربية قادرة على أن تخرج نماذج عليا من الأفراد والمجتمعات على مر العصور كلما حوّل الناس توجيهاتها المستمدة من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم إلى واقع معاش .

وما من شك أن من أسرار تميز هذه التربية الربانية الخاتمة هو وضعها للتشريعات التي تقوم على صيانة الإنسان ووقايته عن كل ما من شأنه أن يفسد عليه حياته في دنياه وآخرته .

وقد أطلق الباحث على هذه التشريعات التي تحذر الإنسان من الوقوع في الخطأ ، وتمنعه من التردي في المحظور عن طريق الأساليب التربوية الإسلامية المتنوعة [التربية الوقائية] .

ذلك أن المتتبع لمنهج الإسلام التربوي يجده يقوم في أكثر مساحته على الوقاية ، لكون الإنسان مجبول على الإيمان فهو في حاجة إلى الوقاية أكثر من حاجته إلى العلاج .

على أن الإسلام قد ترك جزءا يسيرا من المساحة للعلاج وذلك حين يتخطى العبد هذه الحواجز ، ولا يقف عند هذه الحدود ، فيكون هذا العلاج علاجا له من جانب ، ووقاية له ولغيره من جانب آخر •

إن التربية الإسلامية لا تترك العبد حتى يقع ، ثم تقوم بعد ذلك على إصلاح خطأه ، وتقويم انحرافه ، ولكنها تحميه من الوقوع أولا ، ليظل على الصراط المستقيم ، سليما من الآفات ، معافىً من العلل ، فإذا اختار الغواية بنفسه ووقع في مغبة أعماله التي نهاه عنها الشرع القويم بالأساليب التربوية الناجحة ، قامت ثانيا على إستصلاح خطئه ، وتقويم انحرافه •

وسوف يتحدث الباحث في هذا الفصل من الدراسة عن الإطار المرجعي للتربية الوقائية ، الذي يعطي بإذن الله تعالى تصورا عن النقاط التالية :

أولا : مفهوم التربية الوقائية ، حيث سيجمع الباحث المعاني اللغوية لكلمة [وقاية] ليصوغ منها تعريفا للتربية الوقائية ، يربط بينه وبين التعريفات اللغوية •

ثانيا : منزلة التربية الوقائية من التربية الإسلامية ، عن طريق تقسيم التربية الإسلامية إلى مرحلتين ، المرحلة التي تسبق الخطأ ، وتسمى بالتربية الوقائية ، والمرحلة التي تلي الوقوع في الخطأ ، وتسمى بالتربية العلاجية ، وستتضح منزلة التربية الوقائية من التربية الإسلامية من خلال الحديث عن العقيدة الصحيحة باعتبارها أعظم التدابير الوقائية التي تحول بين العبد وبين المخالفات ، ثم من خلال الحديث عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها ثم من خلال النظر في في نصوص الكتاب والسنة ، وهي ترسم للفرد طريق الخير وتدعوه إليه ، وتبين له طريق الشر وتحذره من الوقوع فيه ، في كل جانب من جوانب حياته •

ثالثا : التربية الوقائية عند غير المسلمين ، وذلك بعرض بعض مواطن الخلل الذي أصاب المعتقدات والأخلاق في المجتمعات الكافرة ، يوم فقدت في حياتها

منهج الوقاية ، بل يوم فتحت الأبواب على مصاريعها للانحراف ، من حيث تظن أنها ترقى بالإنسان وتسعده .

رابعا : تميز التربية الوقائية عند المسلمين عن غيرهم ، وسيتضح ذلك من خلال الموازنة بين العقيدة الإسلامية كأساس للتربية وبين العقائد الضالة المنحرفة ، إضافة إلى ما سيأتي عرضه من صور الانحراف التي تعيشها المجتمعات الكافرة ، يوم لم تكتف بفقدان منهج الوقاية ، بل حين قننت الفساد ، وحمته ودعت إليه ، وأقنعت الناس أن هذا سر تقدم الأفراد والأمم والشعوب

والله أسأل أن يسدد منا القول والعمل ، وأن يجعلنا هداة مهتدين صالحين مصلحين ، وأن يجعل لنا فرقانا نفرق به بين الحق والباطل ، ونورا نمشي به في الناس ، في زمن اختلط فيه الحق بالباطل عند كثير من الناس ، وفقدوا نور الإيمان الذي يكشف عراقيل الطريق وكوارثه ومنزلقاته .

﴿ اللهم رب جبرائيل وإسرافيل وميكائيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب الشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم ﴾ رواه مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) ج ٦ ص ٣٠٣ .

مفهوم التربية الوقائية :

مصطلح الوقاية يعرف كثيرا في عالم الطب ، ويتداول كثيرا على ألسنة المهتمين بهذا الجانب ، فكثيرا ما نسمع :

الوقاية خير من العلاج . درهم وقاية خير من قنطار علاج . للوقاية من الأمراض . الوقاية من شلل الأطفال ، إلى غير ذلك .

ولهذا ذكر عمر في كتابه أمراض الجراثيم بين الوقاية والعلاج في الطب الإسلامي (١٤٠٦هـ) عن أهمية الوقاية في المحافظة على الجسد فقال :((كلنا يعلم أن الوقاية من الأمراض والاحتراز منها خير وسيلة لمكافحة الداء وتجنبه ، وتعتبر بإجماع الكل أنها خير من العلاج ، ومهما كلفت مكافحة الأوبئة واتقاء شرها من أموال فهي أرخص من تعريض الأشخاص للإصابة بالمرض ، ثم القيام بعلاجهم وتعريضهم للهلاك في كثير من الأحيان ، وهذا هو الاتجاه الذي تتبعه الدول المتقدمة في عصرنا الحاضر)) ص ١١ .

لكن هذا المصطلح لا يكاد يكثر استعماله في عالم القلوب والأخلاق ، أو لربما جهل بعض المربين حقيقته ومعناه ، ظنا منهم أن الوقاية لا تكون إلا في عالم الأجساد والماديات ، بينما عالم القلوب والأخلاق أحوج ما يكون إلى معرفة هذا المصطلح ومدلولاته ، إذ لا وزن للجسد حين تفارقه الروح ، ولا قيمة للبدن حين يفقد القلب الذي هو مكان الاعتقاد ومنه تصدر جميع أعمال الجوارح .

وقد ذكر ابن القيم في زاد المعاد (١٤٠٧هـ) الأمراض فقال :((المرض نوعان : مرض القلوب ومرض الأبدان ، وهما مذكوران في القرآن ، ومرض القلوب نوعان : مرض شبهة وشك ، ومرض شهوة وغي ، وكلاهما في القرآن)) ج ٤ ص ٥ .

وإذا كان طب البدن يعتمد في كثير من أطروحاته على الوقاية كما سبق ، فإن طب القلوب من أمراض الشهوات والشبهات يجب أن يعتمد قبل كل شيئ على الوقاية .

لقد سبق في التعريفات اللغوية لمصطلح الوقاية أن المراد منها : فرط الصيانة والحفظ والكلاءة والستر والدفع والحذر ، وما من شك أن النظر إلى هذه الألفاظ المترادفة يدل على أن هناك شيئا صحيحا سليما معافى يحتاج إلى الحفظ والرعاية، والستر والحماية ، وليس هناك من أحد أحوج ما يكون إلى الحفظ والرعاية من الإنسان الذي يولد صفحة بيضاء ، على الفطرة السوية التي هي الإسلام ، فهو يولد صحيحا معافى من أمراض الشهوات والشبهات ، يقر بتوحيد الله تعالى ، وأنه المستحق للعبادة دون سواه ، وهذا ما أكده للناس خالقهم سبحانه وتعالى في كتابه الكريم وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، حين جلّى حقيقة الفطرة ، ووضع لها من التشريعات ما يعين المربين على رعايتها ، مع متابعة هذا الإنسان بالتربية والتوجية مرحلة مرحلة حتى يصل إلى كماله البشري المنشود .

ولهذا يمكن للباحث أن يضع مفهوما للتربية الوقائية من خلال الوقوف على بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي ورد فيها هذا المصطلح بلفظه أو معناه ، إضافة إلى ما سبق عرضه في التعريفات اللغوية السالفة الذكر .

لقد ورد هذا المصطلح في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في آيات كثيرة ، تارة بلفظه ، وتارة بمعناه .

فأما وروده بلفظه فلقد استخدم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هذا المصطلح اللغوي في دعوة الناس إلى الإيمان والعمل الصالح تارة بالدعوة إلى تقوى الله تعالى ، وتارة بالدعوة إلى الوقاية من النار ، وتارة بالدعوة إلى الوقاية من الأعمال السيئة ، التي هي السبب المباشر لغضب الله والنار ، ليكون ذلك كله حفظا لهم من النار ، ووقاية لهم عن كل ما يشين عقائدهم وأخلاقهم.

فمما ورد في القرآن الكريم من الدعوة إلى تقوى الله تعالى قوله سبحانه : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيئ عظيم﴾ سورة الحج آية ١ ، ومما ورد في القرآن الكريم أيضا من الدعوة إلى الوقاية من النار قوه سبحانه :﴿ ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة ... الآية ﴾ سورة التحريم آية ٦ .

ومما ورد في السنة من الدعوة إلى الوقاية من النار ، ما رواه البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ اتقوا النار ثم أعرض وأشاح ، ثم قال : اتقوا النار ، ثم أعرض وأشاح ثلاثا حتى ظننا أنه ينظر إليها ، ثم قال : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة ﴾ ج١١ص ٤٠٠ .

ومما ورد في السنة المطهرة من الدعوة إلى الوقاية من الأعمال السيئة ما رواه مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :﴿ اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم ﴾ ج١٦ص٣٧١ .

وأما وروده بمعناه – الذي هو الحذر وشدة الاحتراس – فقد ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة كثيرا ، ولهذا يمكن استنباط معنى الوقاية عن طريق تحذير الناس من مجرد القرب من الأعمال السيئة كقوله تعالى :﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ سورة الأنعام آية ١٥١

يقول ابن عاشورفي التحرير والتنوير (د – ت) :((وقد نهى عن القرب منها ، وهو أبلغ من التحذير من النهي عن ملابستها لأن القرب من الشيئ مظنة الوقوع فيه)) ج ٥ ص ١٥٩ .

ويقـول سيـد قطب في الظلال (١٤٠٠هـ) :((ولأن هذه الفـواحش ذات إغراء وجاذبية كان التعبير ﴿ ولا تقربوا ﴾ للنهي عن مجرد الاقتراب سدا للذرائع، واتقـاء للجاذبيـة التي تضـعف معـهـا الإرادة ، لذلك حرمت الـنظرة الثانيـة . . . ولذلك كان التبرج ـ حتى بالتعطر في الطريق ـ حراما ، وكانت الحركات المثيرة ، والضحكات المثيرة ، والإشارات المثيرة ، ممنوعة في الحياة الإسلامية النظيفة ، فهذا الدين لا يريد أن يعـرض الناس للفتنة ثم يكلف أعـصابهم عنتا فـي المقاومة ! فـهو دين وقـاية قـبل أن يقـيم الحـدود ، ويوقع العـقوبات ، وهو ديـن حمـاية للضمـائر والمشـاعـر والحواس والجـوارح ، وربك أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبيـر)) ج ٣ ص ١٢٣١ .

ويقـول تعـالى :﴿ ولا تقربوا الـزنا إنه كان فـاحـشة وسـاء سـبـيلا ﴾ سـورة الإسراء آية٣٢ .

يقـول البـقـاعي في نظم الدرر (١٤١٣هـ) :((ولا تقـربوا الزنا : أي أدنى قرب بفعل شيء من مقدماته ولو بإخطاره بالخاطر)) ج ١١ ص٤٠٩ .

وفي صحيح البخاري ومسلم (د – ت) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :﴿ الحلال بين والحرام بين ، وبينهما مشبهات لا يعلمـها كثير من النـاس ، فـمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعـرضـه، ومن وقع في الشـبـهـات كراعـي يرعى حـول الحـمـى يوشك أن يواقعـه ﴾ ج ١ ص ٢٠ – ج ٥ ص ٥٠ ـ ٥١ .

إذن فمن خلال العريفات اللغوية ، ومن خلال ما ورد في الكتاب والسنة من معنى الوقاية لفظا ومعنى يستخلص الباحث للتربية الوقاية مفهوما فيكون :

فـرط صيـانة فطرة الإنسـان وحـمايتـهـا من الانحـراف ، ومـتـابعـة النفس الإنسانية بالتوجيهات الإسلامية الربانية ، عن طريق أخذ الاحـتياطات والتدابير

الشرعية ، التي تمنع من التردي في خبائث العقائد والأخلاق وسائر الأعمال ، ليظل الفرد على الصراط المستقيم ، مهتديا للتي هي أقوم في كل جانب من جوانب حياته .

منزلة التربية الوقائية من التربية الإسلامية :

إن الحديث عن منزلة التربية الوقائية من التربية الإسلامية يوقفنا أمام سلسلة متصلة الحلقات ، وهي العقيدة ، التربية الإسلامية ، التربية الوقائية .

فالحلقة الأولى : هي العقيدة الإسلامية الصحيحة التي كان عليها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الأخيار ، وأتباعه من أهل القرون المفضلة ، بخصائصها الربانية الإيمانية العالمية الشاملة المتوازنة ، وما يقال عن العقيدة من الخصائص يقال عن التربية الإسلامية وما يقال عن التربية الإسلامية يقال عن التربية الوقائية باعتبارها أحد جانبي التربية الإسلامية .

لقد كانت العقيدة الإسلامية بهذه الخصائص الفريدة نبع التربية الإسلامية ، لكون العقيدة الإسلامية توجه سلوك الفرد المسلم في كل حركة وسكنة ، فوق أي أرض وتحت أي سماء ، لتزرع في فؤاده العبودية الحقة لربه الذي خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، وسخر له ما في الأرض جميعا منه تفضلا ومِنَّة .

يقول الزنداني في كتابه توحيد الخالق (١٤٠٩هـ) :((فإذا عرف الإنسان خالقه العظيم واتصل به ، عرف أنه مِلْكٌ لخالقه وحده ، وأنه وحده المستحق للعبادة والطاعة والخضوع ، وبهذا يتحرر المؤمن من كل سلطان غير سلطان الله)) ص ١٠ .

ولأثر العقيدة في تربية المسلم كانت أول اهتمامات الأنبياء جميعا من لدن آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد (، وفي هذا المعنى يقول آل الشيخ في كتابه

فتح المجيد (د ـ ت) ((فكلهم يدعو إلى عبادة الله وينهى عن عبادة ما سواه ، فلم يزل سبحانه يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في قوم نوح الذين أرسل إليهم وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ، إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ، الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب)) ص ١٦ .

فكل نبي يبعث إلى قومه يقول لهم بادئ ذي بدء : ﴿ اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ سورة الأعراف آية ٥٩ .

ولأهمية العقيدة في توجيه سلوك الفرد والمجتمع فقد أخذت من دعوة رسول الله ﷺ عمرا طويلا حتي قر الإيمان في القلوب واستقر التوحيد في الضمائر .

يقول القحطاني في كتابه الولاء والبراء (١٤٠٩هـ) ((ولقد مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاثة عشر عاما يدعو الناس إلى العقيدة ، ويمكنها في نفوس العصبة المسلمة ، مما جعل آثار ذلك تنعكس في أفعالهم الحميدة ، وجهادهم المستمر لنشر كلمة الله في الأرض ، حين قامت دولة المصطفى (في المدينة المنورة)) ص ١٩ .

ثم نزلت الأحكام بعد ذلك تباعا ، بعد أن تهيأت النفوس بسياط العقيدة لاستقبال الأمر والنهي ، وفي هذا يقول الندوي في كتابه ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (١٤٠٤هـ) : ((وانحلت العقدة الكبرى ـ عقدة الكفر والشرك ـ فانحلت العقد كلها ، وجاهدهم الرسول (جهاده الأول فلم يحتج إلى جهاد مستأنف لكل أمر ونهي ، وانتصر الإسلام على الجاهلية الأولى ، فكان النصر حليفه في كل معركة ، وقد دخلوافي السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم ، لا يشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ، ولايجدون في أنفسهم حرجا مما قضى ، ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهى)) ص ٨٧ ـ ٨٨ .

روى البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : ((إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لاندع الخمر أبدا ، ولو نزل لا تزنوا لقالوا : لا ندع الزنا أبدا)) ج ٦ ص ٢٢٨ .

نعم إنها العقيدة يوم استقرت في النفوس جاءت الاستجابة لأمر الله مباشرة، وخرجوا بأوعية الخمر إلى الشوارع يريقون مافيها معلنين توبتهم إلى الله تعالى .

روى أبو داود في سننه (١٤٠٩هـ) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما نزل تحريم الخمر:((انتهينا)) ج ٢ ص ٣٥٠ والحديث صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٤٠٩هـ) ج ٢ ص ٦٩٩ .

مع أن بيوتهم لم تفتش ، ودورهم لم تداهم ، وقد كان في مقدور الواحد منهم أن يخفي الخمر في بيته السنوات تلو السنوات ولايعلم به أحد، لكونه ﷺ (يعلم ما لبيوت المسلمين من الحرمة ، فينهى عن التجسس واستراق السمع ، يتجلى ذلك في قوله سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولاتجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً...﴾ سورة لحجرات آية ١٢ .

ويحذر ﷺ (من تتبّع عورات المسلمين أشد تحذير ، يتجلى ذلك في قوله ﷺ(كما روى ذلك الترمذي في سننه (د – ت) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عوراتهم ، يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته)) ج ٤ ص ٣٣١ ـ ٣٣٢ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٤٠٩هـ) من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه ج ٣ ص ٩٢٣ .

وفي سنن ابن ماجة (د-ت) من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ من ستر عورة أخيه المسلم ستر الله عورته ، ومن كشف عورة أخيه المسلم كشف الله عورته حتى يفضحه بها في بيته ﴾ ج ٢ ص ٨٥٠ ، وهذه الرواية صححها الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٤٠٨هـ) ج ٢ص ٧٩

ولكنها العقيدة التي جعلت الواحد منهم يخرج آنيته بطوعه واختياره فيهريقها في الطريق ، وقد كان يشربها من قبل كما يشرب الماء الزلال .

ذكر الإمام مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث أنس بن مالك (قال :﴿كنت ساقي القوم يوم حرمت الخمر في بيت أبي طلحة وما شرابهم إلا الفضيخ البسر والتمر فإذا مناد ينادي فقال اخرج فانظر فخرجت فإذا مناد ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت قال فجرت في سكك المدينة فقال لي أبو طلحة أخرج فاهرقها فهرقتها)) ج١٣ص ١٥٨ .

يقول الندوي في كتابه ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (١٤٠٤هـ) ((لقد نزل تحريم الخمر والكؤوس المتدفقة على راحاتهم ، فحال أمر الله بينها وبين الشفاه المتلمظة والأكباد المتقدة ، وكسرت دنان الخمر فسالت في سكك المدينة)) ص ٨٨ .

إن استجابة العبد لأمر الله تأتي على قدر عقيدته ، ولهذا كان من الواجب على كل مرب أيا كان موقعه ، أن يهتم بالعقيدة أولاً وآخرا ، إنْ أراد من القلوب أن تستجيب لأمر الله بلا تردد ، أسوة به (وهو يربي العصبة المؤمنة في مكة .

على أن تثبيت العقيدة في النفوس ظل يساير تربية رسول الله لأصحابه حتى بعد أن استقرت الأمور للدولة الإسلامية في المدينة النبوية ، دل على ذلك قول ربنا سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله

والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾ سورة النساء آية ١٣٦ .

والمعنى كما يقول الشوكاني في فتح القدير (١٤٠١هـ) ((أي اثبتوا على إيمانكم وداوموا عليه والخطاب هنا للمؤمنين جميعاً)) ج١ص ٥٢٤ .

وليس في تكرار الدعوة إلى الإيمان في الآية تحصيل حاصل كما يتصوره بعض من لا فقه عنده وقد أكد هذا المعنى الجمل في الفتوحات الإلهية (د ـ ت) فقال :((وهذا محال . ذلك أن المعنى اثبتوا على ما أنتم عليه من الإيمان على حد: ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ و :﴿ يا أيها النبي اتق الله ﴾)) ج ١ ص ٤٣٤ .

ومن هنا كان من أولويات القضايا التي يجب أن يهتم بها المربي هي غرس العقيدة الصافية في القلوب ، لتثمر هداية ورشاداً في كل ميدان من ميادين الحياة .

فإذا استقرت العقيدة في النفوس أصبحت ـ بحد ذاتها ـ أعظم سياج يقي الأفراد والمجتمعات دركات الهلاك والشقاء في الدنيا والآخرة ، كما سنعرف ذلك مستقبلاً إن شاء الله .

وسيورد الباحث ـ إن شاء الله ـ في الفصل الخامس بعض الأمثلة الوقائية في بعض ميادين الحياة والتي يظهر من خلالها أهمية هذا الجانب في وقاية الأسرة والمجتمع ، وصيانتها عن كل ما من شأنه أن ينحرف بهما عن جادة الصواب ، مرجئا الحديث عن الفرد والمدرسة إلى الفصل الأخير من الدراسة .

أما الحلقة الثانية : فهي التربية الإسلامية التي اكتسبت أصالتها وعمقها وخلودها من العقيدة الإسلامية ، فأصبحت تربية أصيلة عميقة خالدة تحمل خصائص العقيدة الإسلامية الصحيحة التي يمكن إيجازها فيما يلي :

أولا : أنها تربية ربانية ، فالفطرة تقر بأن لهذا الكون خالقا ومدبرا ، حتى وإن عاندت في فترات الرخاء، فإنها ما تلبث أن يزول هذا العناد في فترات الشدة ،

وقد حكى الله سبحانه عن فرعون الذي ادعى الألوهية قوله :﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ سورة القصص آية ٣٨ ، وقال ﴿ فقال أنا ربكم الأعلى﴾ سورة النازعات آية ٢٤ .

وحين أغرقه الله تعالى في اليم قال مذعنا مخزيا معلنا تبعيته للضعفاء من بني إسرائيل :﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ سورة يونس آية ٩٠ .

والتربية الإسلامية تسعى عبر مصادرها إلى تعريف الناس بهذا الإله العظيم الخالق المدبر المحيي المميت ، مبينة أن الهدف من الخلق والإيجاد هي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وأن الحياة كلها يجب أن توجه لتحقيق هذا الهدف .

ثانيا : أنها تربية عالمية : فالتربية الإسلامية غير مختصة بقطر أو جنس أو لون أو لغ ، إنها تربية نزلت للناس كافة منذ أن بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم إلى يوم الدين ، كما قال تعالى عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم :﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ... الآية ﴾ سورة سبأ آية ٢٨ .

ثالثا : أنها تربية متوازنة ، بين الجسد والروح ، وبين العقل والعاطفة ، وبين مصالح الدنيا والآخرة ، وبين الإيمان والعمل ، وبين النزعة الفردية والنزعة الجماعية ، إنها لا تغلب جانبا على آخر ، لأنها تتعامل مع الإنسان على أنه وحدة واحدة إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر .

رابعا : أنها تربية شاملة ، لا تحصر الفرد في زاوية من زوايا الحياة ، وتعزله عن بقية جوانبها ، كما أنها لا تجعل الدين علاقة بين العبد وربه يمارسها كيفما يشاء ، ولكنها تزرع في ذهنه أنه عبد لله في أي زمان ومكان ، وفوق أي أرض وتحت أي سماء ، فهي توجهه إلى التي هي أقوم في جوانب الحياة كلها ، كما قال الله تعالى مخاطبا رسوله صلى الله عليه وسلم :﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي

ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ سورة الأنعام آية ١٦٢ - ١٦٣ .

خامسا : أنها تربية توافق الفطرة ، ذلك أن الإنسان حين خلقه الله تعالى أودع في أصل خلقته ، وطبيعة تكوينه بعض الأمور الفطرية النابعة من أعماق النفس الإنسانية ، والتي لا بد أن تشبع وإلا اضطربت حياة الإنسان .

ومن هذه الأمور : أن الإنسان مفطور على حب التدين ، وحب المال ، وحب الميل إلى الجنس الآخر ، إلى غير ذلك ، والتربية الإسلامية لبت للإنسان كل مطالب الفطرة وهذبتها ، فشرعت له الإسلام دينا يروي فطرة التدين في نفسه ، وشرعت له الأنواع المختلفة من الكسب الحلال ، لتلبي في نفسه فطرة حب التملك، وشرعت له الزواج الشرعي النظيف لتلبي في نفسه حب الميل إلى المرأة ، وهكذا الحال في بقية جوانب الفطرة كلها .

وقد زاد النحلاوي في كتابه التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة (١٤٠٨هـ) على هذه الخصائص فقال ما خلاصته :

سادسا : أنها تربية متفائلة إيجابية فعالة تتعامل مع الإنسان على أنه مخلوق مكرم ، يعمر الأرض وفق مراد الله تعالى ، صابرا على ما يعترض حياته من المنغصات ، محتسبا للأجر عند الله تعالى ، كما أنها تدعوه إلى البذل والعطاء ، وتقديم أنواع الخيرات التي لا تقف عند حد ، وخاصة حين تعرض على الإنسان ثواب ما يقدم من خير لنفسه أو لأهله أو للمحتاجين من إخوانه المسلمين ، وماينتظره عند الله تعالى في الآخرة من الفضل العظيم ، وكل هذا ثمرة من ثمرات تعبيد الإنسان لربه تبارك وتعالى .ص ١١٢ .

على أن شريعة الإسلام التي بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشتملت على منهج تربوي فريد يقوم على التلاوة والتزكية والتعليم كما قال

سبحانه على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام :﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ سورة البقرة آية ١٢٩ .

الحلقة الثالثة : التربية الوقائية التي تحمل من الخصائص ما تحمله التربية الإسلامية باعتبارها أحد شقيها، بل باعتبارها الجانب الأكبر من التربية الإسلامية.

وما من شك أن التربية الوقائية قد احتلت من وحي الله المبارك مساحة كبيرة ، لكون الإنسان الذي يتلقى هذه التشريعات الربانية قد فطر على الطاعة ، وجبل على الإيمان ، فكان من واجب التربية أن ترعي هذا الأصل المبارك ، وأن تحافظ عليه منذ أن يكون الإنسان نطفة في رحم أمه ، حتى يلفظ آخر نفس له في الحياة .

إن الأصل في طبيعة الإنسان هو الإيمان بالله تعالى ، وهي الفطرة التي فطر الله الناس عليها فقال جل جلاله :﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ سورة الروم آية ٣٠ .

يقول ابن جرير في تفسيره (١٤٠٠هـ) :((يقول تعالى ذكره : فسدد وجهك نحو الوجه الذي وجهك إليه ربك يا محمد لطاعته وهي الدين ، حنيفا : يقول مستقيما لدينه وطاعته ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، يقول : صنعة الله التي خلق الناس عليها ... قال ابن زيد في قوله : فطرة الله التي فطر الناس عليها، قال : الإسلام مذ خلقهم الله من آدم جميعا يقرون بذلك)) ج٢١ص٢٦.

وقال ابن كثير في تفسيره (١٤٠٦هـ) :((فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم ، الذي هداك الله لها ، وكملها لك غاية الكمال ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها ، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره)) ج ٣ ص ٦٨٨ .

إذن فما دام أن الإنسان مفطور على الإسلام الـذي هو معرفة الله وتوحيده ، فـإن معنى ذلك أن التـشريعـات التي تنزل من السـماء لا بد أن تصـون هذه الفطرة وتحفظهـا من الزلل والانحراف ، سيمـا وأنها مهـددة بذلك ، فقـد تبث عن النبي صلى الله عليـه وسلم كما روى ذلك البـخاري في صحـيحـه (مع الفتح د ـ ت) من حديث أبـي هريرة رضي اللــه عنه قال : قـال رسول الله صلى الله عليـه وسلم ﴿كل مولود يولد علـى الفطرة فأبواه يهودانه وينصـرانه ويمجسانـه تنتج البهـيمة هل ترى فيها جدعاء﴾ ج٣ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ .

وفي رواية مـسلم (شـرح النووي د ـ ت) مـن حـديث أبي هريرة أيضـا أن رسول الـله صلى الله عليه وسلم قـال :﴿ ما مـن مولود إلا يولد على الفطرة فـأبواه يهودانه وينصرانه ويشركانه ٠٠٠ ﴾ ج ١٦ ص ٤٤٧ ـ ٤٤٨ .

وكـما روى الإمـام مسلـم في صحـيحـه (د ـ ت) من حـديث عيـاض بن حمـار رضي اللــه عنه قال : قال رسـول الله (فيمـا يرويـه عـن ربـه عز وجــل : ﴿ ٠٠٠ وإني خلقت عـبادي حنفـاء وإنهم أتتهم الشـياطين فاجتالتـهم عن دينهم وحرمت عليهم ما حللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطانا ٠٠٠ ﴾ سبق تخريجه ص٢ .

فالبيئة تؤثر ـ سلبـا أو إيجابا ـ في تربية الإنسان أيمـا تأثير ، والشياطين تجتال وتتخطف ، وهؤلاء الشياطين لا يرقبون فـي مؤمن إلا ولاذمة ، فهم يقعدون للناس كل مـرصد ، ويقطعـون عليـهم كل طريق خيّـر ، وقد كـشف عن هويتـهم للناس رسول الله (كما روى ذلك ابن ماجـة في سننه (د ـ ت) من حديث عبد الله بن مسـعود رضي الله عنه قال : ((خط لنا رسـول الله خطا ثم قال: هذا سـبيل الله ، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شـماله ، ثم قال : هذه سبـل ، قال يزيد : متفـرقة ، على كل سـبيل منهـا شيطـان يدعو إليـه ، ثم قرأ ﴿ وأن هذا صـراطي مستـقيمـا

فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾)) ج ١ ص ٦ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٤٠٨هـ) ج ١ ص ٧ . والآية في سورة الأنعام ١٥٢ .

وأما أهدافهم فقد كشفها للناس رب العالمين في قوله سبحانه : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ﴾ سورة النساء آية ٢٧ .

على أن إطلاق مصطلح الشياطين لا يقتصر على شياطين الجن فحسب ، بل إن من الإنس من هم أشد وسوسة وأعظم خطرا من شياطين الجن ، سواء كان هؤلاء الشياطين أفرادا ، أو مجتمعات أو هيآت ، أو مؤسسات .

وفي هذا المعنى يقول ﷺ (لأحد أصحابه كما روى ذلك الإمام أحمد في مسنده (د ـ ت) : ((تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن قلت يا رسول الله وللإنس شياطين قال : نعم)) رواه أحمد ج ٥ ص ١٧٨.

فالأسرة والمدرسة والمجتمع والصديق ووسائل الإعلام ، قد تغتال الفطرة في قلب الإنسان ما دامت تزين له الباطل ، وتدعوه إليه مستترة وراء ذلك بزخرف من القول الموهوم ، وبريق من الإصلاح المزعوم ، وصدق الله إذيقول : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴾ سورة الأنعام آية ١١٢ .

وإذا كان الإنسان مخلوقا على هذه الفطرة السليمة الصحيحة السوية التي دلت عليها الآيات والأحاديث الصحيحة ، وإذا كانت الشياطين تقف للإنسان بالمرصاد لتفسد عليه فطرته ، فإن الإنسان في أمس الحاجة إلى الحماية والوقاية والرعاية والصيانة من هذه المؤثرات الخطيرة ، المتمثلة في البيئات المنحرفة ، والشياطين المضللة ، ليظل على التوحيد الخالص والفطرة السوية ، التي تعشق الحق

وتهواه ، وترفض الباطل وتأباه ، فجاءت الشريعة الإسلامية بأوامرها ونواهيها وسائر أساليبها لتحول بين العبد وبين ارتكاب الشرور والمآثم ، صيانة لفطرته وحماية لخلقه ، وكانت أجل وأعظم من أن تترك الإنسان بلا تشريع حتى تتدنس فطرته ، وتنتكس مفاهيمه ثم تقوم بعد ذلك تقوِّم انحرافه ، وتصلح اعوجاجه ، وتصحح مفاهيمه ، ولكنها قطعت السبيل على الشر قبل حدوثه ، وعلى الداء قبل نزوله ، مبقية جزءا من العلاج لفئة شاذة تخطت حواجز الشرع ، فكان لا بد لهذه الفئة من لفتة حانية ، تعيدهم إلى الطريق ، وتبعث في نفوسهم الأمل من جديد ، بدعوتهم إلى التوبة عما وقع منهم ، بالإضافة إلى زرع الثقة في نفوسهم لتصحيح المسار وتعديل السلوك ، وكم عرف الناس قديما وحديثا من النماذج الكثيرة التي وصلت إلى درجة من الإجرام لا يتصورها الإنسان ، فصنعت منهم أناسي أخيارا ضربوا بصلاحهم واستقامتهم على الخير أورع الأمثال .

التربية الوقائية عند غير المسلمين :

التربية في أي مجتمع تنطلق من خلال توجيهات العقيدة التي يدين بها ذاك المجتمع ، وتستمد التربية قوتها وصفاءها وعمقها وأصالتها من خلال ما تمليه تلك العقيدة ، فبقدر صحة العقيدة وصفائها تصح التربية ويصفو منهجها ، وبقدر مافيها من البطلان والغبش ، بقدر ماتضل التربية طريقها ، فتخرج مسخا من البشر، يشقون في الحياة قبل أن تشقى بهم .

ويقصد الباحث بالعقيدة هنا ما ذكره النحلاوي في كتابه أصول التربية الإسلامية (١٤٠٤هـ) حين قال :((هي الأفكار التي يؤمن بها الإنسان ويصدر عنها في تصرفاته وسلوكه)) ص٧٤ .

وقال عزام في كتابه العقيدة وأثرها في بناء الجيل (د - ت) ((هي الضابط الأمين الذي يحكم التصرفات ويوجه السلوك ويتوقف على مدى انضباطها

وإحكامها كل ما يصدر عن النفس من كلمات أو حركات بل حتى الخلجات التي تساور القلب والمشاعر التي تعمل في جنبات النفس ، والهواجس التي تمر في الخيال)) ص٩

إن تعريف النحلاوي وعزام للعقيدة يشمل كل عقيدة يدين بها الإنسان ، صحيحة كانت أم فاسدة ، إذ ما من إنسان في الوجود إلا وله عقيدة يؤمن بها ويصدر عنها في كل عمل يقوم به .

لكن أين العقيدة الصحيحة في هذا الخضم الهائل من المعتقدات والأفكار التي تنتشر في شرق الدنيا وغربها ؟ أين العقيدة التي تلائم الفطرة ، وتسير مع الإنسان تلبي له احتياجاته ورغباته في أسلوب متوازن في كل جانب من جوانب حياته ؟ .

والجواب : إن العقيدة الصحيحة الخالصة النقية التي لا يقبل الله تعالى من أحد غيرها هي العقيدة الإسلامية الصحيحة ، التي تقوم على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتقوم على الإيمان بالقدر خيره وشره .

والباحث ـ بحمد الله ـ يعتقد ومن سويداء قلبه أن العقيدة التي تقوم على هذا الأساس هي العقيدة الصحيحة الصافية التي توجه سلوك المسلم على ظهر هذه الأرض فيما صغر من الأمور وما كبر ، إنها الإسلام الذي قال الله تبارك وتعالى عنه في محكم تنزيله : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ سورة آل عمران آية ٨٥ .

فمن ابتغى غير الإسلام ديناً في العقيدة ، أو العبادة ، أو الاقتصاد ، أو السياسة ، أو الفكر ، أو التربية ، أو التعليم ، أو الإعلام ، أو أي جانب من جوانب الحياة ، فلن يقبل منه ، ولن يسدد ولن يوفق ، وهو في الآخرة من الخاسرين ، وإن ظن أنه يسعد بما في يديه من متاع ، أو بما يملك من حطام ، أو بما يقتني من

معطيات الحضارة ، فإنما ذلك كله استدراج من الله ، قال تعالى : ﴿ فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ سورة الأنعام آية ٤٤ ـ ٤٥ .

وفي هذا المعنى يقول صلى الله عليه وسلم (كما روى ذلك الإمام أحمد في كتاب الزهد (١٤٠٨ هـ) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول لله صلى الله عليه وسلم :﴿ إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنه استدراج ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيئ حتى إذا فرحواْ بما أوتوا أخذناهم بغته فإذا هم مبلسون ﴾ ص ١٨ والآية في سورة الأنعام برقم ٤٤.

إذن فالحديث عن التربية عند غير المسلمين حديث عن العقيدة التي يدين بها كل مجتمع لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر.

والمجتمع الذي لايؤمن بالله ولا باليوم الآخر يفقد النظرة الصحيحة تجاه الكون والإنسان والحياة ، والتربية التي تنطلق في أهدافها ووسائلها وغاياتها وهي تفقد هذه النظرة ، تكون ولا شك تربية قاصرة ، إن لم تكن منحرفة متناقضة متضاربة ، تسخر اليوم مما كتبته بالأمس ، وترفض في الغد ما قعَّدته اليوم ، وهذا عين ما تقوم به الفلسفات التربوية في الغرب كالمثالية ، والواقعية ، والبراجماتية ، والوجودية ، والماركسية ، بكل جزئياتها وتفريعاتها .

وإن المتأمل في حال هذه الفلسفات يرى أن الذي تولى وضع أهدافها ، وحدد غاياتها ، ووضع أسسها ومنطلقاتها ، وصور مناهجها المعرفية ، وقيمها الأخلاقية ، هم الفلاسفة الوضعيين ، والعلماء الطبيعيين ، وقد حصل الصراع بين الفريقين نتيجة لتصوراتهم القاصرة عن الكون والإنسان والحياة والمصير ، مما جعل ما يطرحونه لتربية الإنسان من آراء مرتبطة في ضلال نتائجها وثمراتها بضلالها العقائدي .

يقول الكيلاني في فلسفة التربية الإسلامية (١٤٠٩هـ) :

((وكان من آثار هذا التخبط العقائدي الذي أفرزته الفلسفة الوضعية أن سار العلم وما زال يسير بلا تصور واضح عن غايات الحياة ومقاصدها التي يخدمها ، فتكدست الوسائل بلا أهداف وانعكس ذلك الاضطراب على التربية فتلونت المفاهيم التربوية التي طرحتها الفلسفات التربوية كالمثالية والواقعية والبراجماتية وفروعها عن الحقيقة وطبيعة الإنسان ، وعلاقاته بالوجود من حوله بالظنون التي أفرزتها الفلسفة الوضعية عن الخالق والإنسان والحياة والمصير ٠٠٠ ولم تقف آثار هذا الانحراف الذي أصاب الفلسفات التربوية الحديثة داخل حدود الغرب ، وإنما انتشرت بانتشار الحضارة الغربية إلى أقطار العالمين الثالث والرابع ، ومنها الأقطار العربية والإسلامية التي أخذت تستورد هذه الفلسفات وتطبيقاتها ، فتطرح في معاهدها وكلياتها التربوية محتويات هذه الفلسفات عن الحقيقة والقيم ومناهج المعرفة وعلاقات الإنسان بالخالق والكون والإنسان والحياة والمصير تماما كما تطرحها كل من المثالية المسيحية ، والواقعية المادية ، والبراجماتية النفعية ، والماركسية الملحدة ، والوجودية العبثية)) ص ٨-٩

يقول إيدجارد فور وآخرون في كتاب تعلم لتكون ، ترجمة حنفي بن عيسى (١٩٤٧م) في تقرير لمنظمة اليونسكو :((إن النظام التربوي السائد في البلدان المتقدمة يتميز دائماً ، أو على الأقل في أكثر الأحيان بطابع مزدوج : وهو نظام متخلف عن التقانة من جهة ، كما أنه من جهة ينتقي أفراده بحسب المرتبة الإجتماعية وبخاصة في الدراسات العليا ، وهذا هو النظام نفسه المجلوب في أكثر الأحيان إلى الأقطار المتخلفة بالخصائص السابقة نفسها ، بل إن له عيب آخر وهو أنه غير ملائم للبيئة الثقافية وللوسط الاجتماعي والإنساني)) ص ٧٢

إن إيدجارد فور يصف النظام التربوي في هذه المجتمعات بالازدواجية القاتلة، ويصفه بالتخلف عن التقانة من ناحية أخرى ، فأما الازدواجية القاتلة فإنها

ما تزال تلازم هذا النظام منذ نشأته على قواعد عقدية فاسدة ، وستظل ملازمة له ما دامت هذه أصوله ومنطلقاته ، وأما ما يخص النواحي التقنية فالحق يقال أن هذا النظام قفز في عالم التقنية قفزة هائلة ، لكن العجيب أن هذه القفزة المادية ارتبطت ارتباطا وثيقا بانهيار الأخلاق وانحطاط القيم ، وأصبح التطور المادي مرتهن بالفساد الخلقي ، فكلما ارتفعوا في الجوانب المادية درجة ، كلما انحطوا في دركات الفساد الأخلاقي درجات ٠

إن الفلسفات التربوية المعاصرة هي نتاج تلك الفلسفات القديمة التي ضلت في تربية الإنسان ، ولقد كان هذا الضلال في التعامل مع الإنسان نتيجة لتلك التصورات الضالة عن الكون والإنسان والحياة ، مما كان له أسوأ الأثر على حياة الإنسان ، في تلك المجتمعات التي أخفقت في المحافظة على الشرف والأخلاق .

يقول البِشْرُ في كتابه السقوط من الداخل (١٤١٥هـ) وهو يتحدث على لسان لورانس جولد :((أنا لا أعتقد أن الخطر الأكبر الذي يهدد مستقبلنا يتمثل في القنابل النووية ، أو الصواريخ الموجهة آلياً ، ولا أعتقد أن نهاية حضارتنا ستكون بهذه الطريقة ، إن الحضارة الأمريكية ستزول عندما نكون عديمي الإهتمام وغير مبالين ، وعندما تموت العزيمة على إبقاء الشرف والأخلاق في قلوب الرجال)) ص ٩٤ .

لقد فشلت كل الفلسفات التربوية التي انطلقت من خلال هذه النظرة في إخراج جيل سوي في عبادته وأخلاقه وسلوكه ومعاملاته ، والواقع على مر العصور والأزمان يشهد بذلك .

ونتيجة لفقدان التربية الصحيحة فإن معدل الجرائم في تزايد مستمر ، يدل على ذلك الإحصائيات التي تصدر سنويا عن ارتفاع بمعدل الجرائم في العالم ٠

وحول هذا المعدل المستمر في زيادة الجريمة في المجتمعات الغربية يقول عودة في كتابه التشريع الجنائي في الإسلام (١٤٠٦ هـ):

((وقد وضعت عقوبة الحبس على اختلاف أنواعها لمحاربة الجريمة ، ولكن الإحصائيات التي لا تكذب تدل على أن الجرائم تزداد عاما بعد عام زيادة تسترعي النظر وتبعث على التفكير الطويل ، فقد كان عدد الجنائيات في سنة ١٩٠٦م لايزيد على ٦٨٥٣ جناية ، فإذا به في سنة ١٩٢١م يبلغ ٨٠٠٤ جناية ، ثم يصل في سنة ١٩١٨م - ١٩١٩ م إلى ٦٧٧٩ جناية ، وفي سنة ١٩٦٢ - ١٩٢٧م إلى ٢١٠٨ جناية ، وفي سنة ١٩٣٨ - ١٩٣٩م إلى ٦٨٢٩جناية ، أما الجنح فكان عددها في سنة ١٩٠٦م لا يزيد على ٣٢٨١٠ ، وفي سنة ١٩١٢م أصبح ٩٣٧٤٣ ، وفي سنة ١٩٢٦ - ١٩٢٧ بلغ عددها ١٦٧٦٧٧ جنحة ، وفي سنة ١٩٣٨ - ١٩٣٩م بلغ عدد الجنح ٣٨٢٨٢٨ ، وهكذا في ظرف اثنين وثلاثين عاما بلغ عدد الجنايات ثلاثة أمثال ما كان عليه ، وبلغ عدد الجنح أكثر من أحد عشر مثلا .)) ج ١ ص ٧٣٩

ويقول يالجن في كتابه التربية الإسلامية ودورها في مكافحة الجريمة (١٤٠٨هـ) :((ولقد حدث أن جاء أحد مديري الأمن العام من إحدى الدول الغربية إلى إحدى الدول الإسلامية بهدف الاطلاع على وسائل مكافحة الجريمة ، فذكروا له نفس الوسائل التي تتخذها معظم الدول الغربية ، فقال : نحن أكثر منكم قوة وعتادا واقتصادا وإعدادا لرجال بوليس القمع ومكافحة الجريمة ، ومع ذلك فإن الجرائم تزداد يوما بعد يوم ، وإنني جئت لأجد جديدا أو أقف على آراء وأفكار وعلاجات جديدة لهذا المشكلة الخطيرة التي تهدد أمن الدول والمجتمعات)) ص ٨

وقد ذكر المسلاتي في كتابه أمريكا كما رأيتها (١٤٠٦هـ) بعض الإحصائيات عن ارتفاع معدل الجرائم في بعض البلدان الغربية فقال ما خلاصته : في الولايات المتحدة كل (٢٤)دقيقة تحدث جريمة قتل ، وكل (١٠) ثوان يتم

السطو على بيت ، وكل (٧) دقائق تغتصب امرأة ، ولقد كانت هذه الجرائم فيما مضى أحد سمات الأحياء الفقيرة ، لكنه الآن - ويقصد في الثمانينات - في كل مكان ٠ ص ٢٤٨

ويقول : في عام ١٩٨١م تستقبل السجون على امتدادها في الولايات المتحدة (١٧٠) سجينا كل يوم ، وتبلغ نسبة النساء حوالي ٤٪ وبهذا المعدل فإن الرقم سيتضاعف مرة أخرى بحلول عام ١٩٨٨م ٠ ص ٢٦٥

ويقول : وصلت الجريمة في مدينة نيويورك إلى عدد (٧١٠١٥٣) منها (١٨١٤) جريمة قتل ، و (٢١٠٧٠٣) جريمة سرقة متنوعة مثل الاغتصاب والتهديد ٠ ص ٢٥٠

ويقول : في عام ١٩٨٣م الذين حاولوا الانتحار في أمريكا (٤٠٠,٠٠٠) شخص نفذ العملية منهم (٦٠٠٠) آلاف شخص ٠ ص ٢٢١

ويقول : في دراسة أجريت عام ١٩٣٨م في منطقة فولتن بولاية جورجيا ثبت أن الخمر كانت مسئولة عن ٥١ ٪ من جرائم القتل ، و ٢٠ ٪ من حوادث الانتحار ، و٨٥٪ من حوادث السيارات ذات الأضرار الكبيرة ، و ٦٠٪ من حوادث الحريق ٠ ص ٢٣٩

ويقول : يرى بعض المحللين أن رقم الإصابات بمرض الإيدز قد يصل في الولايات المتحدة إلى حوالي مليون حالة بحلول عام ١٩٩٠م ٠ ص٢٢٢

ويقول : قالت جمعية وقاية استعمال المخدرات إن ٩٠٪ من طلاب المدارس الثانوية جربوا الخمر ، وأن متوسط شرب الخمر للطلاب هو (١٣) سنة ٠ ص٢٣٩ .

ويقول : في خلال سنة ١٩٨٢م كانت هناك في أمريكا مليون حالة طلاق ، وأن العنف العائلي زاد بمقدار ٤٠٤٪ مقارنة بعام ١٩٧٩م ٠ ص ١٠٥

ويقول : في عام ١٩٥٣م وصل نسبة الزوجات اللاتي يمارسن الزنا خارج إطار بيت الزوجية إلى ٢٦ ٪ ، وفي عام ١٩٧٤م زادت النسبة إلى ٤٠ ٪ ، وفي عام ١٩٨٠م زادت النسبة إلى ٥٠٪ ، أما الرجال فيصل أعدادهم إلى ٢٧٪ وذلك بناء على دراسة استمرت سنتين ونشرت في تقرير عام ١٩٨١م .

وما هذا الانحراف والفساد الذي تعيشه المجتمعات الكافرة في كل ميدان من ميادين الحياة ، إلا ثمرة من ثمار التربية المنحرفة ، وما التربية المنحرفة إلا ثمرة من ثمار فقدان الإيمان بالله تعالى .

إن هذه الفلسفات ـ التي قطعت صلتها بوحي السماء ـ تسير بلا هدف سام ومثل أعلى ، إنما تدور في فلك ضيق من المحسوس الملموس ، كل مدرسة تدلي بأهدافها من خلال فلسفتها عن الكون والإنسان والحياة ، فتناقضت هذه الأهداف، وتضاربت تلك الوسائل ، وأنى لفلسفات تربوية متناقضة ، وأهداف متباينة ، أن تصوغ فطرة أو تربي خلقا ؟

يقول النحلاوي في كتابه التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة (١٤٠٨هـ) ((إن مما يلاحظ على الواقع الذي يعيشه العالم اليوم أن المجتمعات البشرية ليست سواء في مثلها العليا ، ولا في عادات العمل والتفكير ودوافع الشعور عند كل منها ، بل إنها لتختلف في ذلك كله اختلافا يبلغ حد التناقض أحيانا ... وإنها لتنتصر لهذا انتصارا يبلغ حد الصراع بكل أنواعه)) ص ٦-٧

وهذا التناقض الذي ذكره النحلاوي يشكو من آثاره جون وايتgohn white فيقول كما ترجم ذلك عنه الكيلاني في أهداف التربية الإسلامية (١٤٠٨ هـ) : ((إن فلاسفة التربية منذ قرون يعملون للوصول إلى تعريف محدد شامل للتربية وأهدافها ولكنهم لم يصلوا بعد إلى شيء ، والسبب أن البحث في تحديد معنى التربية يتضمن كذلك البحث في أهدافها ، والبحث في أهداف التربية يتضمن البحث في معناها)) ص ٢٨ - ٢٩ .

إذن فالتربيـة عند الفلاسفة تسـير خبط عشواء وفق مـا تمليه عقول الفـلاسفة القاصرة، الذين لم يتوصلوا بعد إلى تعريف للتربية، ولم يتفقوا على تحديد أهدافها.

وكلما حاولوا الخروج من هذه الأزمة وقعوا في أزمة أدهى وأمر ، كما فعلت لجنة الإشراف وتطوير المناهج في الولايات المتـحدة الأمريكية عـام ١٩٨٠م حينما حاولت تطوير المناهج فـوقعت في مشكلة تحـديد أهداف التربية العامـة ، والسبب في ذلك كمـا يقول الكيلاني في كتـابـه أهداف التربية الإسـلاميـة (١٤٠٨هـ) ((أن البحث التربوي لم يصل بعـد إلى حل جذري لأزمة الأهداف التربوية ، وأن مضـاعفات هذه الأزمـة ما زالت تتفـاعل على أماكن التطبيق التـربوي والمجتمـعات الفسيحة والسـبب هو الأزمة القائمة في ميدان فلسفة التـربية ، الأم المباشرة المُوَلِّدَة للأهداف التربوية ، وهي أزمة نابعة من الفراغ العقائدي عامة)) ص ٣١.

وسيـعرض الباحث صـورة من هذا الفراغ العـقائدي الذي تعيـشه كثـير من المجتمعات الكافرة المعـاصرة ، وهي الصورة المنحرفة في النظرة إلى الكون والإنسان والحيـاة ، ليتـبين لنا أن فاقـد الشيء لا يعطيه ، وأن العـقيدة يوم أن تضـل وتنحرف تضل على أثر ذلك التربية ، كجانب واحد من جوانب الحياة .

نعم إن تلك السلسلة التي سلف الحـديث عنها عند منزلة التربية الوقـائية من التربية الإسلامية ، وهي : العقيدة ، التربية الإسـلامية ، التربية الوقائية . مفقود تماما لدى المجتمعات التي لا تدين بالإسلام .

فإذا أردنا أن نتحدث عن التربية الوقائية عند غير المسلمين ، فإنما نتحدث عن العقيدة التي يرى الكيلاني أنها سبب الأزمة القائمة في ميدان فلسفة التربية الأم المولدة للأهداف التربوية .

فـأين منشأ الخلل فـي التربيـة الحديثـة المعـاصرة ، التي لـبست لبـوس العلم ، والعلم منها براء ؟ .

إن منشأ الخلل هو في القاعدة العقدية التي انطلقت منها تلك التربية ، ذلك أن أعظم جوانب الضلال في العقائد عند غير المسلمين ، النظرة الخاطئة تجاه الكون والإنسان والحياة .

فالكون على ـ حد زعم هذه الفلسفات ـ خلقته الطبيعة وأوجدته الصدفة ، وحلت الطبيعة العاقلة محل الإله الخالق المدبر . تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

يقول أحد الملاحدة الماديين كما ذكر ذلك أمين في كتابه مبادىء الفلسفة (١٩٧٩م) :((إن الطبيعة تقوم بشؤونها ولاشيء فوق الطبيعة ، وليست الحوادث التي يسميها بعضهم خوارق للعادة ووراء الطبيعة إلا هراء من القول وخطأ في الملاحظة منشؤها اختلاط في العقل وإضلال رجال الدين)) ص١٥١ .

ولقد بُنيت الفلسفات التربوية المعاصرة على مثل هذه المذاهب المادية الملحدة، التي تنكر الخالق العظيم تكبرا وعناداً ، وتنسب الحياة التي تسري في المادة الميتة إلى الطبيعة .

كما نقل أمين أيضا في كتابه مبادئ الفلسفة (١٩٧٩م) كلاما لديمقريطس رأس الماديين قوله :((إن المادة تتركب من جزئيات صغيرة لا نهاية لها تتجمع وتتفرق فتتكون منها الأجسام ، وتلك الجزئيات قد منحت الحركة ، ولم تستمد قوتها من أية قوة أخرى أو أصل آخر وإنما ذلك من طبيعتها)) ص١٥٢ .

لقد كان لضلال المعتقد أثره الواضح في انحراف الفكر والتربية في المجتمعات الكافرة ، مما جعل الفكر الغربي والتربية الغربية تنشأ على هذه النظرة المادية في تفسير الظواهر والأحداث والسلوكيات والتصرفات ، يقول الجندي في كتابه تصحيح المفاهيم (د ـ ت) عن هذه النظرة المادية البحتة :((فأصبحت ـ هذه النظرة ـ القاعدة الأساسية للفكر الغربي كله ، سواء الفكر الديمقراطي الليبرالي ، أو

الإشتراكي الماركسي ، أو الفكر الصهيوني التلمودي القائم وراء المدرسة الاجتماعية والفرويدية والوجودية)) ص ٢٤٩ .

وحين استقر هذا المفهوم في أذهان القوم هناك ، أصبح الإنسان مع الطبيعة - على حد زعمهم - في صراع لا يكاد ينتهي ، تغلبه تارة ويغلبها أخرى ، كل ذلك من أجل تحقيق أكبر قدر ممكن من الحطام والشهوات قبل ساعة الموت المرتقبة .

فماذا كانت النتيجة ؟

لقد كانت النتيجة أن وقفت فكرة مصارعة الطبيعة حجر عثرة في تغير العالم وتطور أخلاقه وانتفاعه بخيرات الأرض وحسن استغلالها ، ومما يدل على ذلك ماقاله رينه دوبوا يت rene dubos في كتابه الحيوانات البشرية (١٩٦٨م) الذي كتب يقول :

((ولن نستطيع تغيير العالم مالم نُقصِ من عقلنا الجماعي المفهوم القائل : إن أهداف الإنسان هي قهر الطبيعة وإخضاع العقل الإنساني . والوصول إلى تغير هذا الاتجاه لن يكون سهلا لأن السعي للسيطرة على الطبيعة وقيام تنمية غير محدودة يثيران جوا يكاد يكون مسكرا ، بينما الإيحاء بالإقتراب من الاستقرار يخلق حالة من التبلد . ولهذا السبب فإننا لن نقدر على تغيير طرائقنا إلا إذا تبنينا أخلاقاً اجتماعية جديدة ، بل دينا اجتماعيا جديدا ، ومهما كان شكل هذا الدين الجديد فإن أصوله يجب أن تكون على وفاق وتناسق بين الإنسان والطبيعة بدل الاندفاع المتهور للسيطرة والاخضاع)) ص ١٩ .

إن هذا الدين الذي يتحدث عنه رينه rene هو الإسلام الذي يجعل العلاقة بين الإنسان والطبيعة علاقة تسخير وتذليل يقول الله عنها في كتابه الكريم : ﴿ وسخر لكم مافي السموات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ سورة الجاثية آية ١٣ .

وقال سبحانه :﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآية لقوم يعقلون * وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآيات لقوم يذّكرون * وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ سورة النحل آية ١٢ ـ ١٤.

وقال سبحانه : ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون * والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون * والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ سورة الزخرف آية ١٠ ـ ١٤ والآيات في هذا المعنى كثيرة كثيرة .

ولعل المتأمل في هذه الآيات يرى أنها اشتملت على أهداف دنيوية يشترك فيها المؤمن والكافر ، والبار والفاجر ، ألا وهي استغلال خيرات هذا الكون لمصلحة الإنسان ، واشتملت أيضا على أهداف أخروية أخرى ينفرد بها المسلم دون غيره ، هي السر الحقيقي من وجود الإنسان.

ثم يبدأ الفارق بعد ذلك بين المؤمن والكافر حول هذا الاستغلال في أمرين :

١- في طريقة استغلال هذه الخيرات وتحقيق هذه الأهداف ، إذ كل يوجه هذه الأهداف ، ويستغل هذه الخيرات وفق ما تمليه عليه عقيدته التي يدين بها .

فالكافر يسخر طاقات هذا الكون لشهواته فحسب ، بلا قيود ولا حدود ، لأن المصلحة هي المعيار الوحيد الذي يحتكم إليه ، ولو أدى ذلك إلى الأنانية والتسلط والقهر والإذلال ، والظلم والجبروت ، بل ولو كان في ذلك دمار البشرية جمعاء ، ما دامت الغاية ـ عندهم ـ تبرر الوسيلة .

يقول الطنطاوي في كتابه صور وخواطر (١٤١٢هـ) ((وأنقل البصر إلى ديار المتمدنين فلا أرى مدنيتهم إلا أظافر من حديد ومخالب من فولاذ كأظافر الوحش ومخالبه ، ولكن الوحش يفترس ليعيش هو ، وهؤلاء يحاربون لئلا يعيش غيرهم ، ووجدتهم استخدموا قوى الطبيعة ولكن في الشر)) ص١١٩ .

إن هذه المدنية البراقة والحضارة الزائفة ساهمت وبشكل واضح جلي في قتل الإنسان في عالم الروح ، حتى أصبح انتكاس فطرته في عالم الروح مرتبط بتطوره في عالم المادة ، فكلما زاد تقدمه المادي والتكنلوجيا كلما زاد انحراف فطرته وأخلاقه ، وهذه نتيجة للجهل المطبق بعلاقة الإنسان بهذا الكون من حوله .

يقول الكيلاني في كتابه فلسفة التربية الإسلامية (١٤٠٩هـ) ((ونحن اليوم نرى آثار القصور في علاقة التسخير في الحضارة المعاصرة ، وسوء تطبيقاتها في العلوم والتكنلوجيا الذرية والهيدروجينية وعلوم الفضاء وهي تتحول على يد الإنسان الذي لا يهتدي بعلاقة التسخير إلى مخاوف وأهوال وأخطار مسخرة على الإنسان تنذر بتدمير حياته كاملة على الأرض بدل أن تكون مسخرة له ترقى به إلى التنعم بنعم الله والرسوخ بمعرفته وشكره)) ص ١٣ .

أما المسلم فإنه يستغل هذه الخيرات فيما ينفع نفسه والآخرين من حوله ، حتى الحيوانات والطيور ، لأنه يتعامل مع هذه الخيرات في عبودية لله رب العالمين محتسبا عظيم الأجر عند الله فيما يقدمه لنفسه وللناس من حوله ، بل حتى فيما يقدمه للطيور والعجماوات التي تشاركه الحياة على ظهر هذه الأرض .

٢ ـ ومن الفوارق أيضاً بين المؤمن والكافر أن الكافر يقف عند هذه الأهداف الدنيوية ، لسان حاله ومقاله يردد ﴿ ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾ سورة ص آية ١٦ .

بينما المؤمن يتخطى هذه الأهداف الدنيوية إلى هدف أعظم ، هو الهدف الأسمى من وجود الإنسان ، ألا وهو شكر الله الذي سخر هذه الأهداف شكرا

يلزم منه القيام له بالعبودية الحقة، التي يقول عنها ابن القيم في كتابه إغاثة اللهفان (د - ت) :((إن الله سبحانه ما خلق الخلق إلا لعبادته ، الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته والإخلاص له ، فبذكره تطمئن قلوبهم ، وتسكن نفوسهم ، وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم ، ويتم نعيمهم ، فلا يعطيهم في الآخرة شيئا هو أحب إليهم ، ولا أقر لعيونهم ، ولا أنعم لقلوبهم : من النظر إليه، وسماع كلامه منه بلا واسطة ، ولم يعطهم في الدنيا شيئا خيرا لهم ولا أحب إليهم ، ولا أقر لعيونهم من الإيمان به ، ومحبته والشوق إلى لقائه ، والأنس بقربه ، والتنعم بذكره)) ج ١ ص ٢٨

هذا الهدف هو الذي عجزت الفلسفات التربوية المعاصرة عن تحقيقه ، وهنا يكمن قصورها وفشلها في إخراج الإنسان الصالح ، وإن حققت تقدما ماديا وتكنلوجيا رهيبا ، لكنها قتلت بهذا التقدم المادي ما بقي في الإنسان من إنسانية .

أما نظرة هذه الفلسفات للإنسان فقد ضلت في معرفة حقيقة وطبيعة تكوينه نتيجة لضلالهم في معرفة خالقه وموجده ، فماذا كانت النتيجة حين أحلوا الطبيعة محل الخالق العظيم؟ .

يقول خليل في كتابه علم النفس الإسلامي العام والتربوي (١٤٠٧هـ) فكانت النتيجة أن ((زيفوا للإنسان تاريخا خياليا جعلوا بدايته الحالة البدائية المنتقلة عن الحالة الحيوانية الخاصة ، واخترعوا من أجل ذلك علما أسموه علم الإنسان الأول (الانثروبولجيا) ملؤوه بالأكاذيب والتخمينات والافتراضات)) ص١٧ .

مما جعل نظرية التطور إحدى المسلمات التي ينطلقون منها في التعامل مع الإنسان في تربيته وتوجيه سلوكه .

إذن فالإنسان - على حد زعمهم - كان حيوانا ثم تطور ، حتى أصبح إنسانا ! .

ولكل عاقل أن يتساءل ! ما دام أن العملية عملية تطور ، فلماذا وقف الإنسان في تطوره عند مرحلة الإنسان ؟ لِمَ لَمْ يستمر في هذه العملية حتى يصب

مخلوقا آخر غير الإنسـان ؟ . هذا سؤال يترك للباحثين التطوريين الملاحدة في هذا المجال الإجابة عليه!.

ولن يُسـتـغـرب أبدا أن تكون الإجـابـة : إن الإنسـان لم يقف عنـد مـرحلة الإنسان بل تطور حتى أصبح هو الله . تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

فـإذا أصبح الإنسـان بفطرته المنحرفـة ، وضـلاله المبين ، هو الله ـ كمـا يزعم الظالمون ـ فكيف يكون حـال البـشرية التي تتـخذ هـذا الإنسان الضـعيف الحـقير الخصيم المبين المفعم بالشهوات معبودا تنفذ له كل أمر ونهي؟٠

إن البشـرية حين تظن أنها تستـغني عن ربها ـ كمـا يزعم الظالمون ـ وأنها بما في يديها من علوم ومعـارف وتقنيات ، تظن أنها قادرة على تدبيـر أمورها ، سوف تنصب نفسـها إلها من دون الله ، لتضع لنـفسها القـوانين الظالمة الجائرة التي يرتبط جورها وقصورها بجور الإنسان وقصوره ٠

إن الإنسـان ليـصـاب بالذهول وهو يسـمع جـرأة الإنسـان على ربه تبـارك وتعالى ، ولكن الذي يشده العقل أكثر وأكثر ، أن تصدر هذه الأفكار من أفواه قوم من بني جلدتنا ، وممن يتكلمون بألسنتنا ، لكنَّ أفكارهم غـربية ، وقلوبهم أجنبية ، يقول سلطان (١٤١٢هـ) في كتابه غزو من الداخل ((فالدكتور محمد خلف الله يقرر أن البشرية لـم تعد في حاجة إلى من يتولى قيادتهـا في الأرض باسم السماء ، فلقد بلغت سن الرشد ، وآن لها أن تباشر شؤونها بنفسها)) ص٥١ .

لقد كان يشاع أن الإنسان منفصل عن الحيوان ،حتى ظهرت نظرية دارون ، فمزجت الإنسان بالحيوان ، حين جـعلت أصل خلقته حيوانا ، ثم تطورت به الحال حتى صار إنسانا .

يقول راجح في كتابه أصول علم النفس (د ـ ت) :((لما ظهر دارون بنظرية التطور ، كان لهذه النظرية أثر عميق في علم النفس ، إذ قضت على الرأي الشائع

بانفصال الإنسان عن الحيوان انفصالا جوهريا ، وهو الرأي الذي تضمنته نظرية ديكارت عن أن الحيوان تحركه الغريزة ، والإنسان يحركه العقل ومن ثم اتجه الباحثون إلى دراسة سلوك الحيوان عسى أن تلقي هذه الدراسة بعض الضوء على سلوك الإنسان)) ص٤٤ ـ ٤٥ .

ومن هنا نشأ الخطأ ، ووقع الخلل ، ذلك أننا إذا أردنا معرفة سلوك الإنسان ـ على حد زعمهم ـ فلا بد من معرفة سلوك الحيوان ، لنطبق على الإنسان ما نطبقه على الحيوان شبرا بشبر وذراعا بذراع ـ مع اختلاف الخصائص والمكونات ـ وهذا ما لا يقول به عاقل.

ذلك أن الإنسان يحركه العقل الذي جعله الله مناط التكليف ، وجعله الفارق بين الإنسان والحيوان ، والحيوان تحركه الغرائز والشهوات ، فكيف يقاس هذا على ذاك ؟ .

يقول سيد قطب في الظلال (١٤٠٠هـ) :((إن الفارق بين الإنسان والحيوان : أن للإنسان إرادة وهدفا وتصورا خاصاً للحياة يقوم على أصولها الصحيحة المتلقاة من خالق الحياة ، فإذا فقد هذا كله فقد أهم خصائص الإنسان المميزة لجنسه ، وأهم المزايا التي من أجلها كرمه الله)) ج ٦ ص٣٢٩٠ .

ولهذا وصف الله في محكم تنزيله الذين يغلبون غرائزهم وشهواتهم على عقولهم بأنهم كالأنعام بل هم أضل فيقول سبحانه : ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ سورة الفرقان آية٤٤

ولا غرابة في أن ينظر للإنسان بمثل هذا المنظار ، ولا غرابة أن تنطلق التربية في المجتمعات الكافرة من مثل هذه النظرة ، فقد برر خليل ذلك في كتابه علم النفس الإسلامي العام والتربوي (١٤٠٩هـ) فقال: ((لأن التطور الإلحادي لأصل الإنسان والذي قال به التطوريون قد أصبح اليوم هو أساس جميع العلوم

الإنسانية وغير الإنسانية وبالتالي أساس علم النفس بجميع مدارسه سواء منها التحليلية أو السلوكية أو الجشطلتية)) ص ٤١ .

ولقد شوهت هذه المدارس صورة الإنسان وما يتعلق به من علوم حينما تعاملت مع النفس الإنسانية بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

بل تأثر بهذه المدارس ودافع عنها بعض من ينتسبون إلى الإسلام ، ويكفي دليلا على فساد نظرية تلك المدارس ومن تأثر بها من أبناء المسلمين ، ما نقله أحمد عزت راجح في كتابه أصول علم النفس (د ـ ت) وهو يدافع عن فرويد ومدرسة التحليل النفسي حين نقل عنهما قولهما عن النفس الإنسانية :((إن الأمراض النفسية تنشأ من كبت الغريزة الجنسية ، فتكون الإباحية الجنسية وقاية من هذه الأمراض [فيقول أحمد راجح مدافعا عن هذه الفرية التي ألصقت بالمدرسة التحليلية على حد زعمه] ((وهذا خطأ وبهتان)) [ثم يبرر الموقف بما هو أشد فضيحة من هذا كله فيقول] : ((إن الذي قالته هذه المدرسة هو أن كبت هذه الغريزة في عهد الطفولة ـ لا في عهد الكبر ـ من العوامل الممهدة لهذه الأمراض النفسية)) ص٩٢ .

وأحمد راجح بموقفه التبريري هذا أوقع نفسه وفرويد ومدرسة التحليل النفسي في فضيحتين لا يقوم لهما قائم :

الأولى: أنه أقر فرويد على مقولته الشهيرة أن الأطفال يتمتعون بغرائز جنسية، يدل عليها عبث الطفل بجهازه التناسلي ، وإحساسه بالمتعة الجنسية وهو يمص ثدي أمه ، يقول البار في كتابه الإيدز وباء العصر (١٤٠٧هـ) :((يزعم فرويد اليهودي : إن حب الطفل لأمه ليس إلا حبا جنسيا محضا ، وأن عملية الرضاعة ليست إلا عملية جنسية ، لأن الغريزة الجنسية تتركز في الطفولة في الشفتين ، ثم تنزل بعد ذلك إلى الأعضاء التناسلية)) ص ٤٥ .

الثانية : إقراره لفرويد أن كبت هذه الغرائز عند الأطفال تمهيد لأمراض نفسية يمكن أن يصاب بها الأطفال في مستقبل الأمر .

هذه مدرسة التحليل النفسي التي نشأت في أحضان اليهود والتي تقول عنها بروتوكولات حكماء صهيون (د ـ ت) ترجمة التونسي :((ولاحظوا أن نجاح دارون darwin وماركس marx ونيتشه nitsche قد رتبناه من قبل ، والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي غير اليهودي سيكون واضحا لنا بكل تأكيد)) ص ١٦٧ .

أما عن مكونات الإنسان فقد ضلت في معرفة ذلك الفلسفات المعاصرة ضلالا مبينا ، حين أطبقت جميعها على أنه مخلوق من الجانب المادي فقط ، وأن سعادته على ظهر هذه الأرض مقرونة بتحقيقه أكبر قدر ممكن من الشهوات والمتع، فحلت الأنانية في قلوب الناس ، وسيطر على الحياة قانون الغاب ، القوي فيهم يأكل الضعيف ، سواء كان هذا على مستوى المجتمعات والشعوب أو على مستوى الأفراد .

يقول الطنطاوي في كتابه صور وخواطر (١٤١٢هـ) :

((وهذا تاريخ الإنسانية كله ، نحِّ منه الأنبياء ومن ساروا على هديهم ، وأصلحوا فساد إنسانيتهم بشرائعهم ثم انظر ماذا بقي ؟ وقل لي أين الإنسان الذي تؤمن به ؟ الإنسان الذي قتل أخاه وتركه في العراء حتى علمه غراب أسود كيف يواري سوءة أخيه ؟ أم الإنسان الذي ارتقى حتى صار يقتل بالقنبلة الذرية الآلاف من النساء والولدان لايجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ولم يذنبوا ذنبا ولا أعلنوا حربا ؟ أم الإنسان الذي استغل هذه الحرب وهي مأتم الإنسانية فأخذ اللقمة من فم المرأة التي سيق زوجها إلى القتال ، والولد الذي أخذ أبوه إلى الحرب حتى إذا ماتوا من الجوع، لبس الحرير ودان بالفجور ورقص على جثثهم في هذا المأتم الباكي ؟ أم

الإنسـان الذي يـخـون عـهـده وينسـى الخبـز والملح على حـين تفي الكلاب ؟ أم الإنسان الذي يجـزع ويضيق صـدره ، ويبيد صـبره على حين تصـبر الحمـير ؟ أم الذي يشقى غيـره ليسعد نفسـه ، على حين يتعامل النمل والنحل على ما فيـه خير الجميع)) ١١٨ - ١١٩ .

لقد أصـبحت الشعارات البـراقة التي ترفع باسم الحرية والمسـاواة ، شعارات جوفاء ، ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب ، لا وجود لها في أرض الواقع البتة .

يقـول النـحـلاوي في كـتـابه التـربـيـة الإسـلامـيـة والمشكـلات المعـاصـرة (١٤٠٨هـ) عن هذه الشعارات ما خلاصته : شعار حرية الشعوب وتقرير مصيرها يقابـله ظلم الشعـوب الضعـيفة ونهب خـيراتهـا بأساليب مـاكرة ملتـوية ، ظاهرها المعاهدات والمؤتمرات والتعاون ، وحقيقتها التهديد والإكراه وتمويه الحقائق .

وشعار الحرص على السلام والدعوة إليه ، يقابله التدخل في شؤون الشعوب الضعيفـة ، على مرأى ومسمع من المؤسسات الدوليـة التي لا تحرك ساكنا ولا ترد مغتصبا أو معتديا .

وقـد يقـابله تحـريك الفتن والإضطرابات لجر الدول الـناشئـة إلى الحـروب الداخلية بغية إضعافها وأخـذ أموالها ثمنا لأسلحة بالية أصبحت الدول الكبرى في غنى عنها .

وشعار حـفظ الصحة العامة يقابل تـعاطي الخمور والتدخين وحمـاية تجارتها وصناعتها واستهلاكها في الأماكن العامة وقد يشترك في هذا الغلمان والصغار .

وشعار حفظ الأسرة يقابله إباحـة الزنا وترويج الشهوات بالدعايات والأفلام الجنسية ترويجا يؤدي إلـى الخيانة الزوجية وتقويض أركان الأسـرة ، وإنجاب مئات الآلاف من الأولاد غيـر الشرعـيين ، بالإضافة إلـى تحريض المرأة على مالا يلـيق بها من أعمال الرجال ، فضاع بذلك بيتها وضاعت أنوثتها وإنسانيتها . ص ١٠ .

وما مؤتمر المرأة الذي عقد في بكين عام ١٩٩٥م بأرض الصين إلا علامة مخزية ، وشعار فاضح في جبين الحضارة المعاصرة التي تسعى جاهدة لهدم الأخلاق وتقويض دعائمها ، يتبين ذلك من خلال الوقوف على بنود الوثيقة التي قدمت للمؤتمر .

نعم هذه هي نتائج فقدان النظرة الصحيحة تجاه الكون والإنسان والحياة ، صراع من أجل الشهوات ، واستنزاف للقدرات في غير ما خلقت له ، والبقاء للأقوى .

إن من الحماقة والسفه في عرف العقلاء من بني الإنسان جميعا على اختلاف مذاهبهم وتنوع مشاربهم ، أن يتعامل الإنسان مع آلة لايعرف كنهها ، ولا يدرك صنعتها ، ولايفقه أجزاءها الأساسية فضلا عن مكوناتها الدقيقة ، وتركيباتها المعقدة .

فإذا كان في الآليات والماديات ـ التي ربما كان التعامل معها سهلا وميسرا لكونها تخضع للجمود والثبات ـ يعتبر سفها وحماقة فماذا يقال عمن يريد أن يتعامل مع هذا الإنسان وهو يجهل كنهه وحقيقته وطبيعته وتكوينه وسر وجوده ؟.

أما نظرة هذه الفلسفات إلى الحياة ، فأمر واضح جلي ، ذلك أن مثل هذه الفلسفات الضالة المنحرفة ليس في قاموسها الإيمان بالله واليوم الآخر ، فهي تعيش مؤمنة بالمحسوس الملموس ، وتنكر ما وراء الغيب ، ولهذا قال الله عنهم : ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ سورة الروم آية ٧

وقال عنهم : ﴿ بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون ﴾ سورة النمل آية ٦٦ .

فالفرد في مثل هذه المجتمعات يعيش ليأكل ويأكل ليعيش ، ولهذا حصروا كل اهتماماتهم في هذه الدار الفانية ، وجعلوها هدفا ، يسخرون كل طاقاتهم وإمكانياتهم من أجلها ، قال الله تعالى :﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ سورة محمد آية ١٢ .

يقول سيد قطب في الظلال (١٤٠٠هـ) في تشبيه الكافر بالبهيمة ((إنه تصوير زري يذهب بكل سمات الإنسان ومعالمه ، ويلقي ظلال الحيوان الشره ، والمتاع الحيواني الغليظ بلا تذوق ، وبلا تعفف عن جميل أو قبيح ، إنه المتاع الذي لا ضابط له من إرادة ولا من اختيار ، ولا حارس عليه من تقوى ، ولا رادع عنه من ضمير)) ج ٦ ص ٣٢٩٠ .

فهم في صراع مرير مع الحياة ، ينظرون إليها وهي تمضي بسرعة مذهلة ، وهم لم يستكملوا كل ما فيها من المتع والشهوات ، فيتكالبون على استنزاف هذه الشهوات بصورة بهيمية ، يعجز العقل عن تصورها . وربما تحقق لهم من هذه الشهوات - بميزانهم هم - شيء كثير لكنه بميزان العقيدة الصحيحة عذابا ودمارا حين ينسلخ من الإيمان والعمل الصالح ، قال تعالى : ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ سورة التوبة آية ٥٥

وهذا العذاب الذي يصيبهم نتيجة إعراضهم عن منهج الله يقول عنه ابن القيم في إغاثة اللهفان (د - ت) :((هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة : بالحرص على تحصيله والتعب العظيم في جمعها ومقاسات أنواع المشاق في ذلك ، فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبر همه ، وهو حريص بجهده على تحصيلها)) ج ١ ص٣٦ .

نعم إن العذاب والدمار ، قرين الكفر والإعراض ، وإن ظن الغِرُّ الجاهل بما في يديه من حضارة ورخاء ، أنها السعادة والثراء ، فإن الله سبحانه إذا فتح للناس

معطيات الحضارة ، وأمسك رحمته عنها ، أشقاها من حيث تعلم أو لا تعلم ، وفي هذا المعنى يقول جل جلاله : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له ن بعده وهو العزيز الرحيم ﴾ سورة فاطر آية ٢

يقول سيد قطب في الظلال (١٤٠٠هـ) :

((فما من نعمة - يمسك الله معها رحمته - حتى تنقلب نقمة . وما من منحة - تحفها رحمة الله - حتى تكون بذاتها نعمة .. ينام الإنسان على الشوك - مع رحمة الله - فإذا هو مهاد . وينام على الحرير - وقد أمسكت عنه - فإذا هو شوك القتاد . ويعالج أعسر الأمور - برحمة الله - فإذا هي هوادة ويسر . ويعالج أيسر الأمور - وقد تخلت رحمة الله - فإذا هي مشقة وعسر . ويخوض بها المخاوف والأخطار فإذا هي أمن وسلام . ويعبر بدونها المناهج والمسالك فإذا مهلكة وبوار !

ولا ضيق مع رحمة الله . إنما الضيق في إمساكها دون سواه . لاضيق ولو كان صاحبها في غياهب السجن أو في جحيم العذاب ، أو في شعاب الهلاك ولا سعة مع إمساكها ولو تقلب الإنسان في أعطاف النعيم ، وفي مراتع الرخاء فمن داخل النفس برحمة الله تتفجر ينا بيع السعادة والرضا والطمأنينة . ومن داخل النفس مع إمساكها تدب عقارب القلق والتعب والنصب والكد والمعاناة)) ج ٥ ص ٢٩٢٢ .

إن هذه الرحمة التي يتحدث عنها سيد قطب رحمه الله قد تخلت عن الحضارة المعاصرة التي ولدت في الغرب ، فشقيت بها الحياة هناك ، وبدأت ومنذ زمن بعيد أنات المنصفين تظهر في ميدان الواقع ، خشية من السقوط المرتقب في هاوية لا نهاية لها .

يقول كارل في كتابه الإنسان ذلك المجهول (١٤٠٩هـ) وهو يكشف عوار تلك الحضارة : ((فللرجل الثري كل الحقوق ، وفي استطاعته أن ينبذ زوجته

الطاعنة في السن ، ويهجر أمه المحتاجة لتقع فريسة الفقر ، ويسرق هؤلاء الذين أمنوه على أموالهم ، كما أن الشذوذ الجنسي آخذ في الانتشار بعد أن طرحت الآداب الجنسية جانبا ، وأصبح المحللون النفسيون يستعرضون حياة الرجال والنساء الزوجية ، ولم يعد هناك خلاف بين الخطأ والصواب والعدل والظلم)) ١٧٧ .

ولو افترض الإنسان أنهم يتمتعون ويسعدون بمعطيات هذه الثورة الصنا عية الهائلة ـ وهذا خلاف الواقع ـ فإن هذه الشهوات تقف بهم عند حد معين اسمه الموت ، ولعمري إن متعا وشهوات تنتهي بأصحابها إلى الموت والفناء ، لا تستحق أن ينفق العمر من أجلها ، ولا أن تصرف الجهود لخدمتها ، ولكنها النظرة القاصرة على الحياة الدنيا ، والغفلة كل الغفلة عن الدار الآخرة ، قال تعالى :﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ سورة محمد آية ١٢ .

يقول الكيلاني في كتابه فلسفة التربية الإسلامية (١٤٠٩هـ) :((لقد تشابهت تلك الفلسفات والعقائد الأخرى في صفة واحدة وهي الفصل التام بين مرحلتين الدنيا والآخرة ولكنها اختلفت بعد ذلك اختلافا كبيرا حول أي المرحلتين يتم فيها بقاء النوع البشري ورقيه ففي حين تتوجه بعضها إلى جنة الآخرة عبر ضباب معتم متخبط من المعرفة والسلوك والقيم ، فإن البعض الآخر قد رفض استمرار السير في هذا الضباب المعتم المضطرب وآثر الإقامة في ـ جنة ـ على الأرض خلال الحياة الدنيا)) ص ٢٥ .

فإذا كانت هذه العقائد والفلسفات تنسب هذا الخلق إلى طبيعة نكرة غير معروفة لاتسمع ولا تبصر ولا تتكلم ، وتنظر إلى الإنسان على أنه حيوان تطور خلقه ، وأجمعت كل هذه الفلسفات على أنه مخلوق مادي بحت ، ونظرت إلى الحياة على أنها مسرح للصراع من أجل امتلاك أكبر قدر ممكن من الشهوات والمتاع ، فلا شك أن التربية ستنحرف نتيجة لانحراف هذه العقائد والفلسفات .

ومن هنا فإن تلك المجتمعات لم تفقد في تربيتها جانب الوقاية فحسب ، بل قننت الفساد بكل صوره وأشكاله ، فقننت التبذل والانحراف باسم الحضارة ، وقننت الظلم والتعسف والسيطرة باسم السلام ، وقننت الإباحية الجنسية العارمة باسم الحرية ، وقننت التبرج والسفور والفجور باسم السياحة ، وقننت التمييز العنصري باسم المساواة ، وأخرجت المرأة من بيتها ـ لتفقد أنوثتها وإنسانيتها ـ باسم الحرص على المجتمع ، الذي لا يتنفس إلا برئة واحدة ، كما يقولون .

فماذا جنت تلك المجتمعات من رفع مثل هذه الشعارات البراقة ، التي تحمل في طياتها السم الزعاف ؟

إليك بعض الحقائق والأرقام التي تشير إلى انحراف الأخلاق ، وانتكاس الفطر ، نتيجة لفقدان منهج الوقاية ، وفتح الأبواب على مصاريعها لتقنين الفساد وحمايته :

ذكر النحلاوي في كتابه التربية الإسلامية ومشكلات العصر (١٤٠٨هـ) بعض هذه الحقائق فقال :

((لقد أصبح من المتعارف عليه عند المجتمعات الغربية أن الفتى أو الفتاة التي لا عشيق لها ولم تدخل حتى سن الثامنة عشرة تجربة جنسية تعتبر شاذة في نظر القوم وعلى الطبيب أن يتساءل عن سر هذا الشذوذ)) ص ٩ .

سبحان الله ! كيف تنتكس الأفهام ، وتنقلب الموازين ، فيصبح السلوك السوي بالبعد عن الرذيلة ومواطنها شذوذا ! وكيف يصبح الشذوذ والانحراف فطرة تنطلق الأبحاث عن طريقها ، ويتعامل مع الإنسان في تربيته من خلالها .

وأين التربية الوقائية من هذا الشذوذ الفاضح ؟ بل أين التربية أصلاً من هذا العبث الذي لا يكاد يصدقه عاقل؟.

وهل هذا هو الإنسان الذي خلقه الله فسواه فعدله في أي صورة ماشاء ركبه ؟ وهل هذا هو الإنسان الذي خلقه الله ليكون خليفة في الأرض ، يستثمر خيراتها ليتقوى بها على أداء مهمته التي خلقه الله من أجلها ؟ هل هذا الإنسان مفطور على الطاعة أم على المعصية ؟ هل الأصل فيه الإيمان أم الفجور ؟ .

إن الأصل في هذا الإنسان هو الإيمان الذي فطره الله عليه ، ولكن الفلسفات التربوية المعاصرة قد شوهت صورة هذا الإنسان ومسخت فطرته التي خلقه الله عليها ، ثم جعلته بهذا المسخ مسرحا للتجارب والأبحاث ، تصل من خلال ذلك إلى نتائج مخزية تنحط بالإنسان إلى دركات الخزي والعار والانحراف، يقول النحلاوي في كتابه التربية الإسلامية والمشكلات المعاصره (١٤٠٨هـ) : ((ولكن الأمم القوية والدول التي تملك زمام قيادة الثقافة العالمية ، ماضية اليوم في بحثها عن الحقائق الإنسانية ، معتبرة أن الإنسان ـ كما يعيش في بلادها ـ هو الإنسان الذي يصلح موضوعاً لهذه الدراسات ، وما علموا أن هذا الإنسان قد انحرف عن فطرته فلم يعد يمثل الإنسان على حقيقته)) ص ٨

إنما هم يتعاملون حقيقة مع بهيمة في مسلاخ إنسان ، لأن الكافر يكفر هذه الفطرة التي خلقه الله عليها ، بمعنى أنه يسترها لكي لا تعرف الحق فتقبله وتنقاد له، ولو أن تلك الدول بحثت ذات اليمين وذات الشمال عن إنسان مستقيم الفطرة ، لم تلوثه أباطيل الكفر وأوضار الجاهلية ، لكانت النتائج غير ذلك .

ولهذا فنحن في غاية الغنى عن تلك الأبحاث الإنسانية التي كان موضوعها الإنسان الغربي بضلاله وانحرافه ، وليس من العدل أن تقدم تلك الأبحاث لأمتنا على أنها نماذج للعلوم الإنسانية ، إلا إذا كنا نعرضها كنموذج للعبث الذي يسمى علما ، وللضياع الذي يسمى حضارة ، وللفساد الذي يسمى تقدما .

إن من الحقائق التي جاء بها القرآن الكريم أن اليهود يقفون وراء كل فساد في الأرض ، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله :﴿ ويسعون في الأرض فسادا ﴾ سورة المائدة آية ٦٤ .

لقد كانت سهامهم توجه إلى الأمميين وهم ـ في نظر اليهود ـ شعوب الأرض كلها من غير اليهود ، وكانت هذه السهام توجه ابتداءً للمسيحيين ، لأنهم في نظر الهود أقوى الشعوب المعاصرة ، فإذا سقطوا سهل إسقاط غيرهم فيما بعد .

وقد أكد هذا العقاد في تقديمه لكتاب بروتوكولات حكماء صهيون ترجمة التونسي (د ـ ت) حين ذكر عن الصحفي الانجليزي شسترتون chesterton قوله : ((وإنني من جهة أخرى لا أعرف أحدا يحاول أن يزعزع عقائد اليهود في دينهم إلا كغرض من أغراض التبشير العامة ، ولكني أعرف كثيرا من اليهود الذين يعملون على تحطيم يقين الأمم بالديانة المسيحية)) ص ٢٠ .

ولقد نجح اليهود في تحطيم الديانة المسيحية ، وإغراق أبنائها في الفساد ، فتحقق لهم مما كانوا يريدون شيئا كثيرا ، ومن ذلك ما جاء في البروتوكول الأول من كتاب بروتوكولات حكماء صهيون (د ـ ت) ترجمة التونسي :((ومن المسيحيين أناس قد أضلتهم الخمر ، وانقلب شبانهم مجانين بالكلاسيكات -clas sics والمجون المبكر الذي أغراهم به وكلاؤنا ومعلمونا وخدمنا وقهرماناتنا في البيوتات الغنية وكتبتنا clerks ومن إليهم ، ونساؤنا في أماكن لهوهم ، وإليهن أضيف من يسمين نساء المجتمع ، والراغبات من زملائهم في الفساد والترف)) ص١٥٩ ـ ١٦٠ .

على أن تدميرهم للامم والشعوب بالفساد في الأرض لا يعرف مسيحيين أو غير مسيحيين ما دامت الغاية عندهم تبرر الوسيلة ، فقد جاء في البروتوكول الرابع عشر :((حينما نمكن لأنفسنا فنكون سادة الأرض لن نبيح قيام دين غير ديننا ... ولهذا السبب يجب علينا أن نحطم كل عقائد الإيمان ، ولو كانت النتيجة المؤقتة لهذا هي إثمار ملحدين)) ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

وجاء في البروتوكول السابع عشر :((ولن يطول الوقت إلا سنوات قليلة حتى تنهار المسيحية بدءا انهيارا تاما ، وسيبقى ما هو أيسر علينا للتصرف مع الديانات الأخرى)) ص ٢٥٤ .

وقد كانت نتيجة هذا التخطيط الماكر الذي بدأ بفساد اليهود في أنفسهم وانتهى بفساد غيرهم أن فقدت المجتمعات الغربية أدنى مقومات الأخلاق ، لأنها لا تملك منهجا وقائيا يحول بينها وبين الفساد ، وكان من صور ذلك ما ذكره البار في كتابه الإيدز وباء العصر (١٤٠٧هـ) من الحقائق المذهلة في انحدار القيم وتهتك الأخلاق في الأسر والمدارس والكنائس والمرافق العامة ، فذكر ماخلاصته : أصبحت وسائل منع الحمل تدرس في الجامعات ، فوجد أن طلبة الثانوية هم الذين يقعون في هذه المشاكل ، فنزلوا بتدريس الجنس ووسائل منع الحمل إلى المدرسة الثانوية ، ثم إلى الابتدائية ، وقد صدرت دراسات متعددة عن مدى انتشار الزنا في العالم بصورة عامة ، وفي الولايات المتحدة بصورة خاصة ، واتضح من تلك الدراسات أن المشكلة واسعة النطاق بشكل لا يتصور ، وتتمثل المشاكل الناتجة عنها فيما يلي في أوروبا والولايات المتحدة والعالم :

* ٧٥ بالمائة من الأزواج يخونون زوجاتهم ، ونسبة أقل من الزوجات يخن أزواجهن في أوروبا والولايات المتحدة .

* ٩٠ بالمائة من غير المتزوجات يمارسن الزنا في أوروبا والولايات المتحدة .

* عدد حالات الإجهاض الجنائي غير الطبي وصل عام ١٩٨٣ إلى ٥٠ مليون طفل في العالم ، وفي الولايات المتحدة أكثر من مليون حالة إجهاض رغم انتشار استخدام وسائل منع الحمل .

* في الولايات المتحدة أكثر من مليون فتاة صغيرة تحمل من الزنا سنويا .

* تقول الإحصائيات الحديثة إن عدد الشاذين في الولايات المتحدة يتراوحون بين ١٨ , ٢٠ مليون. وهناك معابد وكنائس خاصة في الولايات المتحدة تقوم بتزويج الرجال على الرجال والنساء بالنساء في حفلات خاصة .

* خصصت بعض الجامعات في أمريكا منحا دراسية خاصة للشاذين جنسيا ومنها جامعة سير جورج ولليامز .

* ٤٠ بالمائة من الرهبان يمارسون الشذوذ الجنسي ، و٨٠ بالمائة منهم يمارسون الزنا .

* إن منع نكاح المحرمات من الأمهات والأخوات والبنات بل والأبناء ليس إلا من مخلفات الإنسان البدائي ، الذي احتاج إلى إجراء معاهدات واتفاقات تجارية خارج نطاق الأسرة ، فقام عند ذلك بمنع نكاح المحارم ، وبما أن ذلك لم يعد له أية أهمية فإن هذا المنع يصبح أمرا قد عفى عليه الزمن ، وفي هذا المعنى يقول جيمس رامزي أحد الباحثين الأمريكان : إننا نقف اليوم من نكاح المحرمات نفس الموقف المتأخر الذي كنا نقفه منذ مائة عام من العادة السرية ، وقد اكتشفنا أن العادة السرية غير ضارة ولا تؤثر على الصحة ، فإن علينا أن نمارس المزيد من الاتصال الجسدي والجنسي بين أفراد الأسرة ، لأن ذلك يحقق الدفء وسيخفف من السعار الجنسي المحموم في سن المراهقة . ص ٢٤ وما بعدها .

وهنا يقف الباحث مع النقطة الأخيرة ليوازن بينها وبين التربية الوقائية في الإسلام ، وبضدها تتميز الأشياء .

فهذا المؤلف الأمريكي المشهور يعلن موقفه (اليوم) ويقصد باليوم عصر الحضارة والانفجار المعرفي الرهيب في كل العلوم ، ومنها العلوم الإنسانية بكل فروعها وأقسامها ، ويرى أن موقف رفض نكاح المحرمات ، موقف رجعي متأخر عفى عليه الزمن ، كما عفى على موقفهم الساذج المتخلف من العادة السرية ، وعلى المجتمعات الغربية ـ في نظرهم إن كانت تريد الوقاية لناشئتها في سن المراهقة ـ أن تمارس مزيدا من الاتصال الجنسي المحموم ليستقيم أمر العائلة . !!!

أما الإسلام فإنه من جانب يقطع على النفس كل ما يثير الفتنة أو يحرك الغريزة ، ومن جانب آخر يفتح الباب لتلبية هذه الغريزة التي فطر الإنسان عليها بالزواج الشرعي المبارك الذي يحض عليه الشارع الحكيم ويدعو إلى تيسيره ،

ويخبر أنه حين لا يمكن صاحب الدين والخلق منه تكون الفتنة في الأرض والفساد العريض .

* ذكر البشر في كتابه السقوط من الداخل (١٤١٥هـ) حديثا للجنرال المتقاعد هاميلتون هوز ، أحد الذين عانوا هذه الويلات كفرد في مجتمع وضع نظم الحياة على أساس ضال ، وتصور باطل ، ليقول عن الحياة الاجتماعية كجانب واحد من الجوانب التي أصابها الانحراف :

((إن القليل منا يدرك أن بعض الظواهر الاجتماعية التي نعيشها في وقتنا الحاضر قد تؤثر بشكل مباشر على مستقبلنا ، وإن هذه الظواهر الاجتماعية التي لم نعهدها في السابق وباتت مألوفة اليوم وستؤثر على مستقبلنا في الغد : ظاهرة تحول الرجال إلى نساء والنساء إلى رجال ، بدعوى الحرية الشخصية !! إن االإفراط في استعمال الحرية في مجتمعنا تجاوز كل الحدود ، وتخطى كل الأنماط السلوكية التي يمارسها الفرد إلى الإنسان ذاته بتغيير جنسه من ذكر إلى أنثى أو من أنثى إلى ذكر لسباب عاطفية أو لشذوذ جنسي يؤدي به إلى تغيير خَلْقِه . وهذه الظاهرة قد انتشرت في أمريكا وأصبحت تعرضها وسائل الإعلام الأمريكية بكل حريةٍ تخدش بها الحياء العام ، وتصيب المشاهد بالتقزز والاشمئزاز من هذه الفئة التي اختارت تغيير تركيبتها البيولوجية لأسباب ساذجة)) ص ٨٥ .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا يعدهم ويمنيهم ما يعدهم الشيطان إلا غرورا أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا ﴾ سورة النساء آية ١١٧ - ١٢١.

* كما أن من الفضائح المخزية لهذه المجتمعات ما ذكره الناصر ودرويش في كتاب المرأة بين الجاهلية والإسلام (١٤١٣هـ) من ((أن التعليمات صدرت إلى

جـميع مدارس نيـويورك بإنشـاء غـرفـة ولادة في كل مـدرسة !!! وقـد بلغ عـدد الطالبات الحوامل دون زواج في مدارس نيـويورك وحدها : (٢٤٨٧) حاملا في عـام ١٩٦٩م ، وأن البكارة مـفـقـودة البتـة ، ولم تنج الجـامعـات من براثن هذه الاعتداءات ، فـفي استفتاء في جامـعة كاليفورنيـا في بركلي عام ١٩٧٧م ظهر أن خُمْس الطالبات قد تعرضن لنوع من الاعـتداء الجنسي من الأساتذة والمشرفين على الدراسات العليا)) ص ٣٥١ .

سبـحان الله أي فـضائح مخـزية تتخـذها المجتمـعات الغربيـة لحمـاية الأسرة والمجتمع من السعار الجنسي ألعن من هذه؟ وأين منهج الوقاية عند هذه المجتمعات ؟ وعزاؤنا أن الجواب : ليس بعد الكفر ذنب .

إن الإنسـان ليـتـملكه العـجب وهو يسـمع مثل هذه المخـازي التي لا يكاد يصدقها عاقل ، لولا أنها حقائـق كالشمس في رابعة النهار ، لكن العجب ما يلبث أن يزول حين نعلم أن الجنس قد أصبح عقيدة يصدر عنها القوم هناك .

ذكر مـحمـد قطب في كتـابه مذاهب فكرية مـعاصـرة (١٤١٣هـ) أن أحد تلامـذة فرويد يقـول ذات مرة : ((إننا يجب أن نحطـم العقـائد الدينية وينبـغي أن نجعل من الجنس عقيدة)) ص ١١٢ .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون ﴾ سورة المؤمنون آية ٧١.

أمـا منهج الإسلام الوقـائي في حـفظ الأسـرة والمجتـمع ، فللبـاحث معـه في الفصل الخامس ـ إن شاء الله ـ ليلة لا تغيب نجومها .

تميز التربية الوقائية عند المسلمين عن غيرهم :

سر هذا التميز يكمن في العقيدة الإسلامية الربانية التي ارتضاها الله دينا للبشرية إلى يوم الدين، قال تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام.. ﴾ سورة آل عمران آية ١٩ .

ذكر الرازي في تفسيره في معنى الآية قوله :((إن الدين المقبول عند الله ليس إلا الإسلام)) ج ٧ ص ٥٢٢

فقد ارتضى الله للبشرية هذه العقيدة ، وجعلها نعمة تتربع على جميع النعم التي أكرم الله بها عباده، وفي هذا يقول المولى جلت قدرته : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ سورة المائدة آية٣

لقد أكمل الله ـ بعظيم فضله وجود كرمه ـ هذا الدين ، فما من شاردة ولا واردة إلا أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمة منها خبرا ، ليس هذا جانب الشعائر التعبدية فحسب ، بل في كل ميدان من ميادين الحياة بلا استثناء .

إن الذي علم الأمة كيف تقضي الحاجة ، لا يمكن أن يتركها في ميادين العقيدة أو السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع أو التربية أو الإعلام ، دون أن يضع لها في ذلك شرعةً ومنهاجا .

قد يكون هذا التشريع تارة قواعد كلية في الكتاب والسنة ، يندرج تحتها من الجزئيات ما تحتاجه الأمة إلى يوم الدين ، وقد يُفَصِّلُ لها ما قد تحتاجه في بعض الجوانب، ويترك لها الأمر في بعض الجوانب تجتهد فيها، رحمة من الله غير نسيان، للمخطيء في ذلك أجر واحد وللمصيب فيها أجران .

ثم أخبر سبحانه أنه أتم نعمته على عباده ، وهذه النعمة هي نعمة الإسلام ، كما قال ذلك القرطبي في تفسيره (١٣٨٧هـ) حول قوله تعالى : ﴿ وأتممت

عليكم نعمتي ﴾ قال : (أي بإكمال الشرائع والأحكام وإظهار دين الإسلام)) ج ٦ ص ٢٦

وأخبر سبحانه أنه رضي للبشرية الإسلام دينا لسابق علمه سبحانه أن الإسلام بمفهومه الشامل هو سفينة الأمان التي تبحر بالبلاد والعباد في مأمن من الهلاك والشقاء في الدنيا والآخرة .

ولعمري إن دينا هذا شأنه لحري به ، أن يخرج أجيالا تضرب أروع الأمثال في بناء حضارة يعرف الناس فيها معنى الحياة ، حين يكون الإسلام منهجا ودستورا يهيمن على جوانب الحياة كلها .

إن الإسلام في تربيته الوقائية للفرد والأسرة والمدرسة والمجتمع ينطلق من نظرة صحيحة تجاه الكون والإنسان والحياة .

فالكون في نظر الإسلام خلقه الله لحكمة وغاية وسخره للإنسان ينتفع بما فيه من الخيرات ، ويكتشف ما فيه من الأسرار ، التي تدل بدورها على أن لهذا الكون خالقا مدبراً ، تهتدي العقول السليمة إلى معرفته عن طريق آياته الكونية والشرعية ، فيتبين لها الحق الذي أخبر الله عنه في قوله جل ذكره :﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق .. الآية ﴾ سورة فصلت آية ٥٣ .

ففي آياته الكونية يقول جل جلاله : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ سورة فصلت ٥٣ .

وفي آياته الشرعية يقول جل جلاله : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ... ﴾ سورة الإسراء آية ٩

وإن أعظم ما يهدي إليه القرآن معرفة الله بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ، معرفة تتضمن الخضوع والانقياد في كل أمر ونهي ، من غير حرج ولا ممانعة .

أما حين يجهل الإنسان مهمته وسر وجوده على ظهر هذه الأرض ؟ وأين كان قبل أن يأتي إلى هذه الدار ؟ ولماذا جاء إليها ؟ وإلى أين يسير ؟ وماذا يجد بعد الموت ؟ فسوف يشقى على ظهر هذه الأرض ، وسيزداد شقاؤه كلما ازداد جهله ، وتطاول عناده .

إن هذه الأسئلة المحيرة ألقاها بالنيابة عن الحضارة المعاصرة شاعر وصل في تصوره للمبدأ والهدف والمعاد - حين جهل سر وجوده - قاع الضلال وحفر فيه .

يقول إيليا أبو ماضي أحد شعراء الإلحاد في الجاهلية المعاصرة في ديوانه الجداول (١٩٨٢هـ) :

جئت لا أعلم من أين ؟ ولكني أتيت ولقد أبصرت قدامي طريقا فمشيت
وسأبقى سائرا إن شئت هذا أم أبيت كيف جئت كيف أبصرت طريقي ؟
لست أدري
أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود ؟ هل أنا حر طليق أم أسير في قيود ؟
هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود ؟ أتمنى أنني أدري ولكن ..
لست أدري
أتراني قبلما أصبحت إنسانا سويا كنت محوا أو محالا ؟ أم تراني كنت شيئا ؟
ألهذا اللغز حل أم سيبقى أبديا ؟ لست أدري ولماذا لست أدري ؟..
لست أدري ص ١٣٩ - ١٤١

إنها أسئلة غامضة في نظر القوم مفادها :

من أنا ؟ أين كنت ؟ لماذا جئت ؟ إلى أين أذهب ؟ ماذا أجد بعد الموت ؟ .

لقد عجزت الفلسفات التربوية القديمة منها والمعاصرة أن تضع لهذه الأسئلة جوابا ، فصاغت نظرتها لكل شيء ، وهي في منأى عن الحق ، وبُعدٍ عن الصواب، فلم تنتج على مدار التاريخ إنسانا سويا ، ولا مجتمعا مثالياً .

يقول الكيلاني في كتابه فلسفة التربية الإسلامية (١٤٠٩هـ) وهو يتحدث عن تخبط تلك الفلسفات التربوية في تحديد إطار فلسفة التربية بناء على تخبطها في نظرتها العقائدية فيقول ما خلاصته : أولا : اتفقت تلك الفلسفات على تحديد الإطار العام لفلسفة التربية ، فكونوا الإطار من ثلاثة عناصر ، الأول : الحقيقة ، والثاني : المعرفة ، والثالث : القيم والعقائد ، ولكنها اضطربت وتناقضت تناقضا رهيبا في تفسير مضامين كل عنصر ، إذ حصر بعضها الحقيقة في العنصر المادي ، فلا غاية من هذا الوجود ، وليس هناك من قوة عليا تقف وراءه ، وليس هناك عالم وراء الحس ، وقال بعضهم بل لهذا الوجود غاية يمكن معرفتها من خلال دراسة الطبيعة الإنسانية وأحداث التاريخ ، وقال بعضهم إن حقيقة الوجود هي الروح ، وأن الكون المادي ثمرة من ثمرات الكون الروحي ، وقال بعضهم من المحال التعرف على الحقيقة كلها ، وأن معرفة الإنسان محدودة بحدود خبراته فقط .

ثانيا : اختلفت تلك الفلسفات في تعريف فلسفة التربية، وتحديد مضامينها ، ومحورها ، ففي محور العملية التربوية زعمت طائفة أن الطفل هو محورها ، وطائفة رأت أن المحور هي المواد الدراسية ، أما مضامين هذه الفلسفة فقد انقسمت الفلسفات في تحديدها إلى قسمين : قسم ربط تحديد التربية بمفهوم الفلسفة ربطا وثيقا ، وقسم فصل بين الفلسفة والتربية لكون الفلسفة تبحث في الغيبيات والأخلاق التي تتأثر بالأحكام الذاتية والمواقف الشخصية ، ونادى بضرورة ربط التربية بالطرق العلمية التجريبية لا بمنطق الفلاسفة . ص ٣٩ وما بعدها .

أما الإسلام فقد ربط غايات التربية وأهدافها ووسائلها وثمراتها بالعقيدة الإسلامية ربطا مباشرا ، وأبدع كل الإبداع في إعطاء التصور الصحيح عن الحس وما وراء الحس من الغيبيات حين أجاب عن هذه الأسئلة بوحي إلهي مبارك ، لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وصاغ نظرياته التربوية من خلال هذا التصور الصحيح عن عالم الغيب والشهادة .

ففي جواب من أنا ؟ أجاب القرآن عن هذه الحقيقة بقوله : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ سوررة الإسراء آية ٧٠ .

وبقوله : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ سورة التين آية ٤

وبقوله : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي سورة ما شاء ركبك ﴾ سورة الانفطار آية ٦ - ٨

وبقوله ﷺ (كما روى ذلك البخاري في صحيحه (مع الفتح د - ت)ومسلم في صحيحه (شرح النووي د - ت) أن رسول الله ﷺ قال : ﴿ إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث ملكا يؤمر بأربع كلمات ، ويقال له : اكتب عمله ورزقه وشقي أو سعيد ﴾ ج ٦ ص ٣٠٣ ، ج ١٦ ص ٤٢٩

وحين يولد الطفل من بطن أمه فإنما يولد على الفطرة التي تقر بوجود الله ووحدانيته وقد ثبت هذا عنه (كما روى ذلك البخاري في صحيحه (مع الفتح د - ت) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ﴾ ج٣ ص ٢٤٦ .

فالإنسان في نظر الإسلام خيِّر في أصله ، ومستقيم في طبيعته ، ولو ترك وحده بعيدا عن العوامل الخارجية، لنشأ على الفطرة الصحيحة التي فطره الله عليها، ألا وهي الإيمان بالله وحده .

إن الإنسان في نظر الإسلام مخلوق مكرم ، خلقه الله في أحسن تقويم من أصل قريب وأصل بعيد ، جمع الله بين هذين الأصلين في آية واحدة ، فقال جل ذكره : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من

نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لايعلم من بعد علم شيئا... ﴾ سورة الحج آية٥

فأبونا آدم خلقه الله من قبضة من طين ونفخة من روح وهو الأصل البعيد ، وذريته من بعده خلقت من الأصل القريب ، من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ثم أنشأ الله العظام وكساها لحما فإذا الإنسان خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين .

وفي جواب أين كنت ؟ قال سبحانه :﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ سورة البقرة آية ٣٥ ، ٣٦ .

فأبونا آدم كان أول المخلوقين من البشر فضّله الله على سائر المخلوقات بخمس كرامات ، فقد خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسكنه جنته ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شيء .

وحين نهي أبونا آدم عن الأكل من الشجرة وسوس له الشيطان وأغراه بحيلة ماكرة قائلا له : ﴿قال يا آدمُ هَلْ أدُلُّك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ سورة طه آية ١٢٠ .

ولحرص أبينا آدم على الخلود في نعيم الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولكون الشيطان قد أقسم لأبينا آدم أنه له ناصح كما قال سبحانه عنهما في محكم تنزيله :﴿ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾ سورة الأعراف آية ٢١ ، فقد صدّق أبونا آدم عليه السلام هذا القسم لأنه ما تصور أن أحدا يحلف بغير الله كاذبا ، فأكل من الشجرة بغية الخلود فأخرجه الله منها

وأهبطه إلى الأرض ، يقول سبحانه : ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ سورة البقرة آية ٣٨ - ٣٩ .

ثم أخبر سبحانه أن البشرية حين أهبطت إلى الأرض نزل معها منهجا ربانيا مباركا يحمله الأنبياء والمرسلون على مر العصور والأزمان حتى ختموا برسالة محمد صلى الله عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وسلم تسليما كثيرا .

وحين أهبط الإنسان إلى الأرض تكفل الله له بالرزق والهداية - تكرما منه وفضلا - فقال عن كفالة الرزق : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ سورة هود آية ٦ ، وقال في كفالة الهداية لمن أرادها : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾ سورة العنكبوت آية٦٦ ، وقال أيضا: ﴿ لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ سورة النور آية ٤٦ ، وفي جواب لماذا جئت ؟ جاء الأمر واضحا في قوله سبحانه :﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ قال القرطبي في تفسيره : ((أي ليوحدون)) ج ١٧ ص ٥٥ ، والآية في سورة الذاريات برقم ٥٦ ، وبقوله : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ سورة المؤمنون آية ١١٥ .

وفي جواب إلى أين أسير ؟ قال تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ سورة الأنعام آية ٩٤ .

وأجاب عن هذا التساؤل رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى ذلك البخاري في صحيحه (مع الفتح د - ت) من حديث عبد الله رضي الله عنه قال :

((خط رسول الله عليه وسلم خطا مربعا ، وخط خطا في الوسط خارجا منه ، وخط خططا صغارا إلى هذا الذي في الوسط ، وقال : هذا الإنسان ، وهذا أجله محيط به أو قد أحاط به ، وهذا الذي هو خارج أمله ، وهذه الخطط الصغار الأعراض ، فإن أخطأه هذا نهشه هذا وإن أخطأه هذا نهشه هذا)) ج ١١ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .

وفي جواب ماذا أجد بعد الموت ؟ قال تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ سورة الزلزلة آية ٧-٨ ، وقال تعالى :﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ سورة الشورى آية ٧ .

وقال سبحانه : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ سورة النحل آية ٩٧ .

وقال جل ثناؤه :﴿ فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ سورة النازعات آية ٣٧ ـ ٤١ .

يقول خليل في كتابه علم النفس الإسلامي العام والتربوي (١٤٠٧هـ) : ((لقد أعطى الإسلام إجابات قاطعة عن أصل الإنسان ، وعن الغاية من وجوده ، وعن تكوينه وخصائصه ، وحريته ومسؤوليته ، وعن عمله ومصيره وعن علاقته بغيره حسب وضعه في البنية الاجتماعية ، وعن تأثيره وتأثره بالآخرين ، وبالأوضاع الإجتماعية ، وعن تأثيره وتأثره بالأشياء والأحياء ، وعن سلطانه على الأشياء والأحياء ، وعن حدود هذا السلطان ، وكل هذه الموضوعات التي أصبحت اليوم موزعة في الغرب في مجموعة من العلوم المتخصصة في النفس والاجتماع)) ص ٥٦ .

هذا هو الإنسان في نظر الإسلام من مبدئه في عالم الذر حتى قراره الأخير في الجنة أو النار ، مرورا بكل ما يحتاجه في الحياة الدنيا ، وبكل ما من شأنه أن يعينه على تحقيق مهمته العظمى التي خلقه الله من أجلها .

ومن خلال هذه النظرة الصائبة ، والتصور الصحيح عن الإنسان صاغ الإسلام تربيته على وجه العموم ، وتربيته الوقائية على وجه الخصوص لمسايره هذا الإنسان في كل مرحلة ، تحوطه بالعناية تارة وتعالج خطأه إن أخطأ تارة أخرى .

أما الحياة في نظر الإسلام فهي دار أيامها محدودة ، وأنفاسها معدودة ، جعلها الله دار ابتلاء واختبار بما فيها من الزينة والمتاع فقال سبحانه : ﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ﴾ سورة الملك آية ٢ .

وقال أيضا : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ... ﴾ سورة الكهف آية ٧ .

وفيها جعل الله الميزان هو التقوى والعمل الصالح فقال سبحانه : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ سورة الحجرات آية ١٣ .

هذه هي صورة موجزة عن نظرة الإسلام للكون والإنسان والحياة كجانب من جوانب العقيدة ، منها تأخذ التربية الوقائية أصالتها وعمقها وشمولها .

فالعقيدة تتحكم في كل ذرة من حياة الإنسان المسلم ، ذلك أن كل عمل في الإسلام لا توجهه العقيدة ، عمل لا قيمة له في ميزان الله عز وجل ، ولا ينفع صاحبه يوم القيامة ، لكونه عملا قد نزعت منه البركة في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ سورة الفرقان آية ٢٣ .

وإذا كان الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله للبشرية جمعاء ، فإن التربية الإسلامية التي تستمد أصولها وغاياتها من هذا الدين هي التربية التي ارتضاها الله للبشرية كلها .

ولقد احتلت التربية الوقائية من هذا الدين جانبا كبيرا باعتبار أن الإنسان مفطور على الإيمان مجبول على التوحيد ، فهو في حاجة دائما إلى صيانة وحماية ليظل على التوحيد الخالص الذي لا تشوبه شوائب الشرك ، ولا أوضار الجاهلية .

ومن خلال هذه النظرة الصائبة ، والمسلمة الواضحة ، شرع الإسلام عبر مصادره العظيمة منهجا وقائيا ، يتخذ الإحتياطات والتدابير ، التي تقي من الوقوع في الخطأ وتمنع من التردي في المحظور ، بأساليب متنوعة ، وطرائق متفرعة ، ليظل هذا الإنسان على التوحيد الخالص ، وعلى الفطرة السوية ، التي تثمر هداية ورشادا في كل ميدان من ميادين الحياة .

فهي تزكي القلب أولا بمنعه من كل ما يدنسه ثم تعلمه ثانيا ما به زكاته وطهرته ونقاؤه ، ولقد دعا إبراهيم الخليل عليه السلام ربه أن يبعث في الناس نبيا خاما يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة كما حكى الله سبحانه عنه ذلك بقوله :﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ سورة البقرة آية ١٢٩ .

فاستجاب الله تعالى لدعوة إبراهيم غير أنه سبحانه في هذه الاستجابة قدم التزكية على التعليم في الآية التي وردت في سورة الجمعة وهي قوله تعالى :﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ سورة الجمعة آية ٢

إن المتأمل في آية البقرة يجد أن هذه الآية دعاء من إبراهيم الخليل عليه السلام حين توجّه إلى ربه ومولاه أن يبعث في البشرية رسولا منهم تكون مهمته مايلي :

١ - يتلو عليهم آياته .

٢ - يعلمهم الكتاب والحكمة .

٣ - يزكيهم .

وتنطلق كلمات هذا الدعاء ، تشق عنان السماء فتفتح لها الأبواب ، ويستجيب لها العزيز الوهاب ، وتمضي القرون تلو القرون ، وتأتي السنون بعد السنين ، ولم يستعجل خليل الرحمن عليه السلام الإجابة .

وفي هذا درس تربوي عظيم ، ألا يستعجل المربي الثمرة ، وألا يستبطئ الإجابة ، بل عليه يعمل ويبذل السبب مستعينا بالله تعالى في كل أحواله ، محققا الإخلاص والمتابعة ، والثمرة بيد الله ، إن شاء أقر عينه بقطفها ، وإن لم يشأ فما ذلك إلا لحكمة يعلمها سبحانه ، قد يعجز عنها عقل الإنسان .

وتمضي السنون بعد السنين وتأتي إجابة الله لنبيه إبراهيم عليه السلام كما في سورة الجمعة حين بعث في البشرية رسولا منهم ، ليقوم بالمهمات الثلاث السالفة الذكر ، وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام كما روى ذلك الإمام أحمد في مسنده (١٩٣٨هـ) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه :أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((أنا دعوة أبي إبراهيم)) ج٤ ص ١٢٧ ، والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٠٦هـ) ج ١ ص ٣٠٦ .

ولعل المتأمل في الآيتين يلاحظ لطيفة جميلة ، ونكتة رائعة ، ففي آية البقرة وهي دعاء من نبي الله إبراهيم ، وهو بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، يلاحظ أن إبراهيم عليه السلام أخر التزكية إلى الرتبة الثالثة ، ولكنها جاءت في آية الجمعة وهي استجابة الله لنبيه إبراهيم ، في الرتبة الثانية قبل تعليم الكتاب والحكمة، مع أن الإنسان لا يتزكى إلا بهما ، وذلك لشرفها وعلو منزلتها .

ولولا أن التزكية لا تكون إلا بعد التلاوة والتعليم ، ليتزكى الإنسان بما يتلو ويتعلم ، وإلا لقدمت على الجميع لأهميتها ، يقول الألوسي في روح المعاني (١٤٠٨هـ) :((ولعل تقديم الثاني على الأول لشرافته)) ج ١ ص ٣٨٧ ، أي ولعل تقديم التزكية على التعليم لعلو قدرها وشرف منزلتها .

وفي معنى التزكية يقول القرطبي في تفسيره (١٣٨٧هـ) :((قال ابن جريج ومقاتل : أي يطهرهم من دنس الكفر والذنوب ، وقال السدي : أي يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان)) ج ١٨ ص ٩٢ .

ويقول الألوسي في روح المعاني (١٤٠٨هـ) :((يحملهم على ما يصيرون به أزكياء طاهرين من خبائث العقائد والأعمال)) ج١٤ص ٩٣ .

ويقول الرازي في تفسيره (١٤١٠هـ): ((هذه التزكية لها تفسيران: الأول: ما يفعله سوى التلاوة وتعليم الكتاب والحكمة، حتى يكون ذلك كالسبب لطهارتهم ، وتلك الأمور ما كان يفعله عليه السلام من الوعد والإيعاد ، والوعظ والتذكير ، وتكرير ذلك عليهم ، ومن التشبث بأمور الدنيا ، إلى أن يؤمنوا ويصلحوا ، فقد كان عليه السلام يفعل من هذا أشياء كثيرة ، ليقوي بها دواعيهم إلى الإيمان والعمل الصالح . والثاني : يشهد لهم أنهم أزكياء يوم القيامة ... والأول أجود)) ج٤ص٧٤ .

ويقول الشوكاني في فتح القدير (د ـ ت) :((يطهرهم من الشرك وسائر المعاصي)) ج ١ ص ١٤٤ .

هذه هي التزكية في المنهج التربوي الإسلامي ، يقول عنها الألوسي في روح المعاني (١٤٠٨ هـ) : ((وهي إشارة إلى التخلية ، والتعليم إشارة إلى التحلية)) ج ١ ص ٣٨٧ .

فالتزكية تفريغ القلب من كل باطل ، والتعليم بالكتاب والحكمة تحلية بالإيمان والعمل الصالح ، ذلك أن المحل لا يقبل ضدين ، وإلى هذا أشار شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى في كتابه الفوائد (١٤٠٦هـ) عن هذا الأمر تحت عنوان (المحل لايقبل ضدين) ما نصه :

((قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده ، وهذا كما أنه في الذوات والأعيان فهو كذلك في الإعتقادات والإرادات ، فإذا كان القلب ممتلئا

بالباطل اعتقادا ومحبة ، لم يبق فيه لاعتقاد الحق ومحبته موضع ، كما أن اللسان إذا اشتغل بالتكلم لما لا ينفع ، لم يتمكن صاحبه من النطق بما ينفعه ، إلا إذا فرغ لسانه من النطق بالباطل ، وكذلك الجوارح إذا اشتغلت بغير الطاعة، لم يكن شغلها بالطاعة إلا إذا فرغها من ضدها ، فكذلك القلب المشغول بمحبة غيره وإرادته والشوق إليه والأنس به ، لا يمكن شغله بمحبة الله وإرادته والشوق إلى لقائه إلا بتفريغه من تعلقه بغيره ، ولا حركة اللسان إلا بذكره والجوارح بخدمته إلا إذا فرغها من ذكر غيره وخدمته ، فإذا امتلأ القلب بالشغل بالمخلوق والعلوم التي لاتنفع لم يبق فيها موضع للشغل بالله ومعرفة أسمائه وصفاته وأحكامه ، وسر ذلك أن إصغاء القلب كإصغاء الأذن ، فإذا أصغى إلى غير حديث الله لم يبق فيه إصغاء ولا فهم لحديثه ، كما أنه إذا مال إلى محبة غير الله ، لم يبق فيه ميل إلى محبته ، فإذا انطلق القلب إلى غير ذكره لم يبق فيه محل للنطق بذكره كاللسان ، ولهذا في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ((لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعرا)) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الأدب برقم ٩٢ ومسلم في الشعر برقم ٧ ـ ٩، فبين أن الجوفيمتلئ بالشعر ، فكذلك يمتلئ بالشبه والشكوك والخيالات والتقديرات التي لا وجود لها ، والعلوم التي لا تنفع والمفاكهات والمضحكات والحكايات ونحوها .

وإذا امتلأ ا لقلب بذلك جاءته حقائق القرآن والعلم الذي به كماله وسعادته فلم تجد فيه فراغا لها ولا قبولا فتعدته وجاوزته إلى محل سواه ، كما إذا بذلت النصيحة لقلب ملآن من ضدها لا منفذ لها فيه فإنه لا يقبلها ولا تلج فيه لكن تمر مجتازة لا مستوطنة ولذلك قيل :

نزه فؤادك من سوانا تلقنا فجنابنا حل لكل مُنَزَّه

والصبر طِلِّسْم لكنز وصالنا من حل ذا الطِلِّسْم فاز بكنزه . ص ٤٣

فالتزكية تطهير للقلب وتفريغ له من الباطل بكل صوره وأشكاله إن كان به منه شيء ، فإن القلب وعاء يفيض ما فيه من الباطل بقدر ما يصب فيه من الإيمان ، وإن لم يكن فيه من الباطل شيء فإن الإسلام بمنهجه التزكوي يفرض من التشريعات ما يحافظ به على سلامته ووقايته ، لئلا يشبع بالمعصية فيسهل على الفتن اقتحامه والاستيلاء عليه ، فينتكس انتكاسة الكوز المجخي - والعياذ بالله - وفي هذا المعنى يقول الرسول ﷺ كما في صحيح مسلم (شرح النووي د - ت) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : ﴿ تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين ، قلب أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة مادامت السماوات والأرض ، والآخر أسود مرباد كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا ، إلا ما أشرب من هواه﴾ ج ٢ ص٥٣٤

إنها التزكية بمفهومها الشامل في الإسلام تزكية تتناول جوانب الشخصية الإسلامية كلها ، في علاقتها بالخالق والمخلوق ، تزكية تتناول نشاط الإنسان على الأرض ، يقول سيد قطب عن هذه التزكية في الظلال (١٤٠٠هـ):

((وإنها لتزكية وإنه لتطهير ذلك الذي كان يأخذهم به الرسول (، تطهير للضمير والشعور ، وتطهير للعمل والسلوك ، وتطهير للحياة الزوجية ، وتطهير للحياة الاجتماعية ، تطهير ترتفع به النفوس من عقائد الشرك إلى عقيدة التوحيد ومن التصورات الباطلة إلى الاعتقاد الصحيح ، ومن الأساطير الغامضة إلى اليقين الواضح ، وترتفع به من رجس الفوضى الأخلاقية إلى نظافة الخلق الإيماني ، ومن دنس الربا والسحت إلى طهارة الكسب الحلال .. إنها تزكية شاملة للفرد والجماعة ولحياة السريرة وحياة الواقع ....)) ج ٦ ص ٣٥٦٥ .

هذه هي التربية الوقائية التي تستمد عمقها وشمولها وأصالتها من وحي الله المقدس الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، حوّلها رسول الله ﷺ إلى

واقع معاش ، فصنع بها أمة مباركة يقول عنها محمود في كتابه أمثال الحديث (١٤١٣هـ) :((قادت العالم وبهرته ، وغيرت معالمه هذه الفئة القليلة التي رباها محمد ﷺ ، وظهرت هذه الفئة مَثَلٌ يحتذى في فن القيادة الحربية والقيادة السياسية ، وفي التضحية والفداء ، والرحمة والعدالة ، ورعاية الفقير وحماية الضعيف ، وفي كل هذا أخبار ووقائع هي نماذج فريدة ، ومنارات مضيئة في ليل البشرية الطويل)) ص١٣٥ ، ولهذا توجهم رسول الله (بقوله كما روى ذلك البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) ومسلم (شرح النووي د ـ ت) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ... الحديث ﴾ ج ٥ ص ٢٥٨ ، ج١٦ ص ٣١٨ .

وبقوله ﷺ كما روى ذلك البخاري في صحيحه (مع الفتح د – ت) ومسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :﴿ لا تسبوا أصحابي ، لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه ﴾ ج ٧ ص ٢١ ، ج ١٦ ص٣٢٦ .

وهذه التزكية منهج أنزله الله ، وكتب له الخلود أبد الدهر ، منهج كالشمس ليس فيه ألغاز ولا أحاجي ، إنما هو دروس وعبر وأوامر ونواهي ، تأخذ بمجامع القلوب ، ونواصي المجتمعات إلى ما فيه رقيها وحضارتها في كل ميدان من ميادين الحياة بلا استثناء ، وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم : ﴿ تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما ، كتاب الله وسنتي ، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض﴾ سبق تخريجه ص ٥ .

يقول محمود في كتابه أمثال الحديث (١٤١٣هـ) : ((ولازال هذا الوحي قادرا على أن يخرج نماذج تحاكي الأفواج الأول التي تخرجت في مدرسته ، إن آمنا

به إيمانهم ، وتمسكنا به تمسكهم ، وأقمنا حياتنا على منهاجه ، لقد كان ولا يزال قادرا على العطاء ، بل لا صلاح للإنسانية إلا بمعطياته)) ص ١٣٥ .

إن من أسرار هذا التميز للتربية الوقائية في الإسلام أنها تعتمد على الحل الجذري للمشكلات سواء كان هذا ما يتعلق بالأفراد أو المجتمعات ، فهي تسعى بادىء ذي بدء إلى تكوين الإنسان الصالح الذي لا تصلح الحياة إلا بوجوده ، ومن الأفراد الصالحين تتكون الأسر ، ومن الأسر ـ على قلتها أو كثرتها ـ تتكون المجتمعات .

وسوف يأتي الحديث ـ بإذن الله ـ في الفصل الخامس من الدراسة عن الخطوات الجذرية التي يتخذها الإسلام لإيجاد الإنسان الصالح ، والتي تبدأ بحسن اختيار الزوجين ، لكون الأطفال ينشأوون على ما يتربون عليه بين آبائهم وأمهاتهم، بل إن العامل الوراثي في كثير من الأحيان له دور كبير في تكوين شخصية الطفل ، سواء كان ذلك فيما يتعلق بالجسد أو بالحالات النفسية التي يكون عليها الأب أو الأم .

ولهذا ذكر برس في كتابه علم النفس والتربية الحديثة ترجمة أحمد زكي (١٩٥٤م) في تقرير يتحدث عن الجرائم في بعض المجتمعات الغربية :((بأنه كلما زادت خطورة الجرم زاد احتمال وجود أقارب من أرباب السوابق ، وقد تبين من الإحصائيات أن ٦٦٪من المجرمين من عائلات المتهمين بالجرائم الخلقية و٨٢٪من عائلات المجرمين الخطيرين ، وكل هؤلاء يوجد بين أفرادهم سوابق في الإجرام)) ج ٢ ص ٢١ .

ورحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد كان يوصي الأب بحس اختيار المرضعة للولد ، سواء كان المقصد هو اختيار الزوجة باعتبارها مرضعة ولدها حين تنجب ، أو كان المقصد حسن اختيار مرضعة أخرى غير أم

الطفل لسبب أو لآخر ، فقد ذكر قلعه جي في كتابه موسوعة فقه عمر بن الخطاب (١٤٠١هـ) قول عمر :((اللبن يشتبه فلا تسق من يهوديةولا نصرانية ولا زانية)) ص ٣٣٧ .

ثم تأتي حسن العشرة التي يأمر بها الإسلام بين الزوجين لينشأ الطفل في جو من الحب والحنان والإنس والمجتمع الهادىء والحياة الكريمة التي تؤثر في نفسيته ، وتقوم سلوكه ، ثم تأتي التربية المتدرجة وفق خصائص النمو البشري التي تسعى عبر توجيهات الشرع المطهر إلى إيصال الناشىء إلى كماله شيئا فشيئا ، وعندها تصلح الحياة ، ويستقيم أمر الفرد والمجتمع ٠

خاتمة الفصل :

من خلال ما سبق عرضه في هذا الفصل يتضح أن التربية الوقائية في الإسلام تهدف إلى صيانة فطرة الإنسان وملاحقتها بالتوجيهات الإسلامية التي ترسم لها الطريق الآمن من كل شر وبلاء في كل جانب من جوانب الحياة ، ولقد أخذ رسم هذا الطريق الآمن من النهج التربوي الإسلامي مساحة كبيرة جدا ، لكون الإنسان الذي وضع له هذا المنهج قد ولد سليم الفطرة فهو في حاجة إلى الرعاية لتظل فطرته طيبة صافية نقية معطاءة ، على أن الإسلام لم يكتف بمجرد ولادة الطفل على الفطرة السوية ، بل جعل له الإسلام كثيرا من التوجيهات التي تساير حياته مرحلة مرحلة ، تبين له طريق الخير وتدعوه إليه ، وتبين له طريق الشر وتحذره مغبة الوقوع فيه بأساليب كثيرة ومتنوعة لها آثارها العيمقة في الإقناع ٠

كما حاول الباحث في هذا الفصل أن يعطي صورا لحال بعض المجتمعات الغربية التي انطلقت فلسفاتها التربوية انطلاقة غير مهتدية ببصائر الوحي ، مما جعلها تفقد في حياتها منهج الوقاية ، ففتحت الأبواب على مصاريعا للفساد

وخاصة في الجوانب الأخلاقية ليتحول الناس هناك إلى مسخ من البهائم في صورة الآدميين ، وليس ذلك بغريب لأن النظريات التربوية هناك قامت على أطروحات فرويد وأمثاله ممن آلوا على أنفسهم أن يجعلوا من الجنس عقيدة .

إن الفلسفات التربوية المعاصرة ، فقد وضعها بشر منحرفو الفطر ، منتكسو الأفهام ، لا يصلح بأي حال من الأحوال أن يمثلوا الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم ، فضلا عن أن يضعوا له منهجا تربويا يرتقي به نحو كماله المنشود ، وبالتالي فإن هذه الفلسفات لا تصلح لبناء شخصية متزنة سوية ، ولا تصلح أن تكون عالمية ولا شاملة ، وقد أثبتت على مر العصور والأزمان فشلها في إخراج الإنسان السوي و المجتمع المثالي .

وإن المتأمل في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم يرى أن كل آية أو حديث لا يخلو من الحديث عن العقيدة ، إما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، وكل آية في كتاب الله تعالى ، وكل حديث صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو تربية للفرد والمجتمع ، إذ ما من ميدان من الميادين التي طرقتها التربية الإسلامية إلا وغطت التربية الوقائية منه مساحة كبيرة ، وأحاطته بسياج عظيم من الوقاية إحاطة السوار بالمعصم .

كما أن التربية الإسلامية لم تترك خيرا إلا دلت البشرية عليه ، ولا شرا إلا حذرتها منه ، مستخدمة في ذلك أساليب مختلفة ، وطرائق متنوعة ، قد يصل الأمر في بعض الأحيان إلى التحذير من مجرد القرب من المعصية ، لئلا يقع الإنسان فيها ، كما أنها تنهى عن اتباع خطوات الشيطان الذي يقود العبد إلى الانحراف خطوة خطوة ، مبتدئا مع العبد بما سهل من المعاصي حتى يستمرئها ، ثم ينقله إلى غيرها وهكذا حتى يوقعه في الكبائر والموبقات ، بل ربما وصل به الأمر إلى الشركيات والكفريات والعياذ بالله .

إن مثل من يريد الموازنة بين التربية الوقائية في الإسلام وبين التربية الوقائية عند غير المسلمين ، كمثل من يريد الموازنة بين الحي والميت ، وبين الثرى والثريا ، ومعاذ الله أن تكون الموازنة لشك في المنهج الذي تحمله الأمة المسلمة ، ولكنها فرصة لكشف عوار تلك المجتمعات التي أبت أن تذعن لربها ، وأن تستجيب لأمره، وكَشْفِ ما حل بها من المآسي التي عصفت بها في كل ميدان يوم أن أخفقت في وقاية الإنسان ، نتيجة لإخفاقها الذريع في معرفته ، ومعرفة سر وجوده، بل حين قننت له الفساد وسخرت كل إمكانياتها لحمايته .

وإن من أعظم أسرار تميز التربية الإسلامية في منهجها التربوي على وجه العموم ، والوقائي على وجه الخصوص ، هو اعتمادها على المصدرين الربانيين العظيمين ، كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، إضافة إلى هدي سلف الأمة الأخيار الذين طبقوا هذا المنهج في حياتهم فصنعت منهم هذه التربية مجتمعا طيبا مباركا ، ما عرف العالم له مثيلا من قبل ، وكان أفراد هذا المجتمع يضربون في كل خلق رفيع أروع الأمثال التي يحسبها بعض الناس نوعا من المبالغة ، أو ضربا من الخيال .

وسوف يتحدث الباحث في الصفحات القادمة - بعون الله تعالى وتوفيقه - عن هذه المصادر ، وكيف يمكن أن يستنبط منها المنهج التربوي الوقائي ، مبتدئا بالقرآن الكريم ، ثم السنة النبوية المطهرة ، ثم في هدي السلف الصالح رضوان الله تبارك وتعالى عليهم أجمعين .

الفصل الثالث

مصادر التربية الوقائيـــة

أولاً : القرآن الكريم

ثانياً : السنة النبوية المطهـــرة

ثالثاً : هدي السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين .

مدخل للفصل :

بعد أن عرض الباحث في الفصل الثاني من هذه الدراسة مفهوم التربية الوقائية ، ومنزلتها من التربية الإسلامية ، وحاول أن يعطي صورة عن تميز هذه التربية ، يتبين أن من أعظم أسرار هذا التميز هو اعتماد هذه التربية على مصادر عظيمة هي مصادر التشريع في الإسلام ، والتي منها يستمد المسلم منهجه وهو يعيش هذه الحياة في كل ميادينها وبكل جزئياتها .

وسيقتصر الباحث على المصدرين الأساسين وهما كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، على أن يخص الباحث هدي السلف الصالح رضوان الله عليهم في التربية الوقائية بشيئ من الحديث لكون هذا الهدي لا يخلو أن يكون مستنبطا من كتاب الله أو من سنة رسوله ﷺ أو منهما مجتمعين، أو يندرج تحت أصل عام من أصول الإسلام ، أو قاعدة كلية من قواعد هذا الدين .

إن المسلم يعتقد من سويداء قلبه أنه ما من حركة ولا سكنة يعملها الإنسان على ظهر هذه الأرض إلا وللإسلام فيها تشريع إما بالوجوب ، أو الاستحباب ، أو الإباحة ، أو الحرمة ، أو الكراهة ، وأن أحوال الناس في أي جانب من جوانب الحياة - سواء كانت أحوالهم الشخصية ، أو كانت أحوالهم مع غيرهم من البشر أو الجمادات أو الحيوانات - على مستوى الفرد أو الجماعة لا تخرج عن هذه الأحكام الخمسة بأي حال من الأحوال .

فالأحكام جمع حكم والحكم كما يعرفه الزحيلي في كتابه أصول الفقه الإسلامي (١٤٠٦هـ):((هو خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير أو الوضع)) ج ١ ص ٣ .

وقد ذكر الزحيلي في المرجع السابق أن الاقتضاء الوارد في التعريف يراد به ((الطلب سواء كان طلب فعل جازم وهو الإيجاب، أو غير جازم وهو

الندب . وطلب الترك إن كان طلبا جازما فهو التحريم ، وإلا فهو الكراهة . وأما التخيير فهو الإباحة ، وهو استواء الفعل والترك . وأما الوضع فهو خطاب الله تعالى المتعلق بجعل الشيء سبباً أو مانعاً أو صحيحاً أو فاسداً أو عزيمةً أو رخصةً)) ج ١ ص ٤٠ .

فالحكم ـ الذي لا تخرج عنه أحوال الناس وجوبا أو ندبا أو إباحة أو حراما أو مكروها ـ هو خطاب الله كما ورد في التعريف ، وخطاب الله إما أن يكون في القرآن الكريم ، وهو كلام الله الذي أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه كما قال سبحانه :﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ سورة يوسف آية ٣ ، وقوله تعالى :﴿ ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم ﴾ سورة الحجر آية ٧٨ ، والآيات في هذا المعنى كثيرة .

وإما أن يكون هذا الخطاب في السنة النبوية المطهرة التي هي وحي الله تعالى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ، كما قال سبحانه عن نبيه صلى الله عليه وسلم :﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ سورة النجم آية ٣ ـ ٤ .

من حديث المقدام بن معد كرب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه ... الحديث ﴾ ج ٢ ص٦١٠، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٤٠٩هـ) ج٣ ص ٨٧٠ .

وقد جمع الله بين هذين المصدرين في آية واحدة فقال جل ذكره :﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ سورة النساء آية ١١٣ .

فالمراد بالكتاب في الآية هو القرآن الكريم ، والمراد بالحكمة السنة المطهرة ، وكلاهما وحي من الله تعالى ، غير أن القرآن الكريم متعبد بتلاوته بخلاف السنة .

ومن هنا فإن مصادر التشريع في الإسلام هي مصادر التربية الوقائية ، وسوف تقتصر الدراسة على هذين المصدرين ، على أن يخص هدي السلف الصالح رضوان الله عليهم في التربية الوقائية بشيء من الحديث لكونهم أقرب الناس من مشكاة النبوة ، وأعرف الناس بمصلحة الأمة ، شريطة أن يندرج هذا الهدي تحت أصل عام من أصول الإسلام ، أو تحت قاعدة كلية من قواعد هذا الدين ، أو يحقق للفرد أو المجتمع مصلحة ، أو يدفع مفسدة ، وكل ذلك تحت مظلة الكتاب والسنة وأصول الدين العامة وكلياته .

وفي هذا الفصل من الدراسة سوف يعرض الباحث ـ إن شاء الله ـ للحديث عن مصادر التربية الوقائية ، مبتدئا بالقرآن الكريم ، ثم السنة النبوية المطهرة ، ثم هدي السلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين .

أولا : القرآن الكريم :

تعريفه :

ذكر ابن منظور في لسان العرب (١٤١٢هـ) في مادة (قرأ) قوله :((قرأه يقرَؤُهُ ويقرُؤُهُ قَرْءا وقِراءة وقُرآنا ، والقرآن : التنزيل العزيز ، وإنما قدم على ما هو أبسط منه لشرافته ، ويروى عن الشافعي أنه قرأ القرآن على إسماعيل بن قسطنطين وكان يقول : القران اسم وليس بمهموز ، فيهمز قرأت ولا يهمز القرآن ، لأنه اسم كالتوراة والإنجيل . والقرآن مصدر كالغفران والكفران وسمي قرآنا لأنه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض)) ج١ص ١٢٨ - ١٢٩ .

وقال الزركشي في البرهان (١٤٠٨هـ) ((سمي قرآنا لكونه جمع ثمرات الكتب المنزلة السابقة ، وقيل لأنه جمع أنواع العلوم كلها بمعان ، كما قال تعالى ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيئ ﴾ ج ١ ص ٣٤٨ والآية في سورة الأنعام ٣٨ .

وقال الزركشي أيضا في البرهان (١٤٠٨هـ) : ((قال القرطبي : القُرَانُ بغير همز مأخوذ من القرائن لأن الآيات منه يصدق بعضها بعضا ، ويشابه بعضها بعضا ، فهي حينئذ قرائن . قال الزجاج : وهذا القول سهو والصحيح أنه ترك الهمز فيه من باب التخفيف ونقل حركة الهمز إلى الساكن قبلها)) ج ١ص٣٤٩ .

واختلف القائلون بأنه مهموز فقال السيوطي في الإتقان تهذيب بازمول (١٤١٢هـ) :

((قال قوم منهم اللحياني : هو مصدر لـ (قرأت) كالرحجان والغفران سمي به الكتاب من باب تسمية المفعول بالمصدر . وقال آخرون منهم الزجاج : هو وصف على فعلان ، مشتق من القرء ، بمعنى الجمع ، ومنه قرأت الماء في الحوض ، أي جمعته . وحكى قطرب قولا : أنه سمي قرآنا لأن القاريء يظهره

ويبينه من فيه ، آخذا من قول العرب : ما قرأت الناقة سلا قط ، أي ما رمت بولد ، أي : ما أسقطت ولدا ، أي ما حملت قط ، والقرآن يلقطه القارىء من فيه ويلقيه فسمي قرآنا)) ص ١٢ - ١٣ .

وقد أكد ابن القيم في كتابه زاد المعاد (١٤٠٧هـ) ما حكاه قطرب حين قال : ((وأما المهموز فإنه من الظهور والخروج على وجه التوقيت والتحديد ، ومنه قراءة القرآن ، لأن قارئه يظهره ويخرجه مقدرا ومحددا لا يزيد ولا ينقص ، ويدل عليه قوله :﴿ إن علينا جمعه وقرآنه ﴾ ففرق بين الجمع والقرآن ولو كانا واحدا لكان تكريرا محضا)) ج ٥ ص ٦٣٥ ، والآية في سورة القيامة برقم ١٨ .

وقد ذكر الجوهري في الصحاح (١٤٠٤هـ) قوله : ((وجمع القارىء قَرَأَةٌ ، مثال كافر وكفَرة ، وقد يكون القُرَّاء جمعا لقارىء ، ومنه قول الدبيري :

بيضاء تصطاد الغويَّ وتستبي   بالحسن قلب المسلم القُرَّاءِ)) ج ١ ص ٦٥ .

وقال المقري في المصباح المنير (١٤١٤هـ) :((وقد يجمع على قارئون مثل كافرون)) ص ٥٠٢ .

وقد ذكر القطان في كتابه مباحث في علوم القرآن (د - ت) عن صعوبة اجتماع الأفهام على تعريف محدد للقرآن الكريم فقال :((والقرآن الكريم يتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص ، بحيث يكون تعريفه حدا حقيقيا ... ولكن بعض العلماء حاول أن يضع له تعريفا يميزه عن غيره فقال : هو كلام الله المنزل على محمد ﷺ ، المتعبد بتلاوته)) ص ٢٠-٢١.

وعرفه الزرقاني في مناهل العرفان (١٤٠٩هـ) فقال :((هو اللفظ المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم من أول الفاتحة إلى آخر الناس)) ج ١ ص ٢٠ .

وقال أبو شهبه في المدخل لدراسة القرآن الكريم (١٤١٢هـ) :((هو كتاب الله عز وجل المنزل على خاتم أنبيائه بلفظه ومعناه المنقول بالتواتر والمفيد للقطع واليقين المكتوب في المصحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس)) ص٧.

وقال الحسن في كتابه المنار في علوم القرآن (١٩٨٣م) : ((هو كلام الله المعجز المنزل على النبي محمد ﷺ المنقول تواترا والمتعبد بتلاوته)) ص ٧ .

وبنظرة سريعة للتعاريف السابقة يلاحظ أن هناك فروقا في تعريفات العلماء للقرآن الكريم بالزيادة أو النقصان ، وحين يتساءل الإنسان عن سر هذا الاختلاف يجد الجواب عند الإمام الزرقاني في مناهل العرفان (١٤٠٩هـ) حين قال ماخلاصته : اختلفت عبارات أهل العلم في تعريف القرآن الكريم ، فمنهم من أطال في التعريف وأطنب ، ومنهم من اختصر فيه وأوجز ، ومنهم من اقتصد وتوسط ، فالذين أطنبوا ذكروا جميع خصائص القرآن الممتازة فعرفوه بأنه : الكلام المعجز المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته ، والذين اختصروا وأوجزوا في التعريف اقتصروا على ذكر وصف واحد وهو الاعجاز ، ووجهة نظرهم في ذلك بأن الإعجاز هو الوصف الذاتي للقرآن ، وأنه الآية الكبرى على صدق النبي صلى الله عليه وسلم ، والشاهد على أن القرآن كلام الله ، والذين توسطوا منهم عرضوا لإنزال الألفاظ وللكتابة في المصاحف وللنقل بالتواتر فحسب ، ووجهوا رأيهم بأن المقصود هو تعريف القرآن لمن لم يدركه زمن النبوة ٠ ج ١ ص٢١ .

أسماء القرآن الكريم :

أما أسماؤه فقد ذكر السيوطي في الإتقان تهذيب بازمول (١٤١٢هـ) أنها بلغت :((خمسة وخمسين اسما)) ص ١١ .

وذكر الزركشي في البرهان (١٤٠٨هـ) قوله :((وقد صنف في ذلك الحراليّ جزءا ، وأنهى أساميه إلى نيف وتسعين)) ج١ص٣٤٣ .

وذكر الزرقاني في مناهل العرفان (١٤٠٩هـ) ((أن القرآن والفرقان هما أشهر اسماء النظم الكريم ، بل جعلهما بعض المفسرين مرجع جميع أسمائه)) ج١ص ١٧ .

وذكر القطان في كتابه مباحث في علوم القرآن (د ـ ت) قوله ((أشهر هذه الأسماء هما : القرآن والكتاب)) ص٢٢ .

ولعل تسميته بالقرآن لكونه يقرأ بالألسنة ويردد بها ، ولهذا كان بعض الصحابة يتلقاه من رسول الله صلى الله عليه وسلم مشافهة ، دون كتابة ولا تدوين، كما ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فيما رواه البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) ومسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) أنه قال : ((والله لقد أخذت من فِيْ رسول الله صلىالله عليه وسلم بضعا وسبعين سورة...)) ج ٩ ص ٤٦ ، ج ١٦ ص ٢٤٩ .

وأما تسميته بالكتاب فلكونه يكتب في الصحف ويدون بها ، ولهذا كان بعض الصحابة لا يكتفي بتلقيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم معتمدا على حفظه ، بل كان يدونه خشية تفلته ونسيانه .

وقد ذكر القطان في كتابه مباحث في علوم القرآن (د ـ ت) لطيفة جميلة في تسمية القرآن الكريم بالقرآن والكتاب فقال :((وفي تسميته بهذين الاسمين ـ

القرآن والكتـاب ـ إشارة إلى أن من حقـه العناية بحفظه في موضـعين لا في موضع واحد ، أعني أنه يـجب حفظه في الصدور والـسطور جميـعا ، أن تضل إحـداهما فتذكر إحـداهما الأخرى ، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حـتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب ، المنقول إلينا جيلا بعد جـيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة ، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر))
ص٢٢أمـا تسمـيته بـ [المصـحف] فـقد ذكـر الأبيـاري في كتـابه تاريخ القـرآن (١٤١١هـ) أنهـا ((كانت تسـمية متـأخرة جـاءت بعد جـمع القرآن وكـتابتـه ، وكـانت من وضع الناس ،فإنهم يحـكون أن عثـمان ـ رضي الله عنه ـ حين كـتب المصحف التمس له اسما فانتهى الناس إلى هذا الاسم [ثم قال] : وهذا مردود)) ص ١٠١.

ولعل الأبياري رد ذلك بناء على ما قـاله الزركشي في البرهان (١٤٠٨هـ) في سبب تسميته بالمصحف فقال :((لما جمع أبو بكر القرآن قـال : سموه ، فقال بعضـهم : سمـوه إنجيـلا ، فكرهوه ، وقال بعـضهم : سـموه السِّفـر ، فكرهوه من يهود، فقـال ابن مسعود : رأيت فـي الحبشة كتـابا يدعونه المصحف فـسموه به)) ج١ ص ٣٥٣ .

ثناء الله على كتابــه :

أثنى رب العالمين على كتابه الكريم في مواضع كثيرة فمن ذلك على سبيل المثال :

قوله تعالى :﴿ ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ سورة البقرة آية ١ - ٢

قال القرطبي في تفسيره (١٣٨٧هـ) في تفسير هذه الآية :((فكتاب الله تعالى لا شك فيه ولا ارتياب والمعنى : أنه في ذاته حق وأنه منزل من عند الله وصفة من صفاته غير مخلوق ولا محدث وإن وقع ريب للكفار)) ج١ص١٥٩ .

وقال الألوسي في روح المعاني (١٤٠٨هـ) في معنى قوله تعالى : ﴿ لاريب فيه ﴾ قال :((هو الكتاب الكامل الحقيق بأن يخص به اسم الكتاب لغاية تفوقه على بقية الأفراد في حيازة كمالات الجنس حتى كأن ما عداه من الكتب خارج منه بالنسبة إليه)) ج ١ ص ١٠٦ .

وقال الرازي في تفسيره (١٤١٠هـ) :((المراد منه نفي كونه مظنة للريب بوجه من الوجوه ، والمقصود أنه لا شبهة في صحته ، ولا في كونه من عند الله ، ولا في كونه معجزا)) ج ١ ص ٢١ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (د ـ ت) في معنى قوله تعالى :﴿ لا ريب فيه ﴾ ((أي لا شك فيه)) ج ١ ص ٣٣ .

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليذكر أولوا الألباب ﴾ سورة ص آية ٢٩ .

يقول السعدي في تفسيره (١٤١٤هـ) في معنى البركة التي وردت في الآية : أي ((فيه خير كثير ، وعلم غزير ، فيه كل هدى من ضلاله ، وشفاء

من داء ، ونور يستضاء به في الظلمات ، وفيه كل حكم يحتاج إليه المكلفون ، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب ما كان به أجل كتاب طرق العالم منذ أنشأه الله)) ج ٤ ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ .

وقال الشنقيطي في أضواء البيان (١٤١٣هـ) : أي ((كثير البركات من خيري الدنيا والآخرة)) . ج ٧ ص ٣١ .

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ سورة الإسراء آية ٨٨ .

قال ابن كثير في تفسيره (١٤٠٦هـ) :((نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله الله على رسوله لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوا ، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا فإن هذا أمر لا يستطاع ، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له ولا مثال له ولا عديل له)) ج٣ص١٠٢ ـ ١٠٣ .

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ تبارك لذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ سورة الفرقان آية١

يقول القرطبي في تفسيره (١٣٨٧هـ) : مبينا القصد من نزول هذه السورة العظيمة التي تحمل اسم الفرقان العظيم ومبينا سبب تسميته بالفرقان فقال : ((ومقصودها ذكر موضع عظم القرآن ... وفي تسميته فرقانا وجهان : أحدهما : لأنه فرق بين الحق والباطل ، والمؤمن والكافر . والثاني : لأن فيه بيان ماشرع من حلال وحرام)) ج١٣ ، ص ٢ .

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا * قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ﴾ سورة الكهف آية ١ ـ ٢ .

فالآية الكريمة تبدأ بالحمد والثناء على الله الذي أكرم البشرية بأعظم النعم على الإطلاق ألا وهي نعمة إنزال القرآن على صفتين عظيمتين .

أولاهما : قوله تعالى :﴿ ولم يجعل له عوجا ﴾ قال ابن كثير في تفسيره (١٤٠٦هـ) أي ((لم يجعل فيه اعوجاجا ولا زيغا ولا ميلا ، بل جعله معتدلا مستقيما)) ج ٣ ص١١٧ .

وقال السعدي في تفسيره (١٤١٤هـ) :((نفي العوج يقتضي أنه ليس في أخباره كذب ، ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عبث)) ج٣ ص ١٠٩ .

وثانيهما : قوله تعالى :﴿ قيِّما ﴾ والقيِّم كما يقول الجمل في الفتوحات الإلهية (د ـ ت) ((هو المستقيم)) ج٣ص٣ .

قال السعدي في تفسيره (١٤١٤هـ) :((وإثبات الاستقامة يقتضي أنه لايخبر ولا يأمر إلا بأجمل العبارات التي تملأ القلوب معرفة وإيمانا وعقلا ، كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله ، ومنها الغيوب المتقدمة والمتأخرة ، وأن أوامره ونواهيه تزكي النفوس وتطهرها وتنميها وتكملها لاشتمالها على كمال العدل والقسط والإخلاص ، والعبودية لله رب العالمين ، وحده لا شريك له ، وحقيق بكتاب موصوف بما ذكر ، أن يحمد الله نفسه على إنزاله ، وأن يمتدح إلى عباده به)) ج ٣ ص ١٠٩ .

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ﴾ سورة الإسراء آية ٩، قال ابن كثير في تفسيره (١٤٠٦هـ) حول هذه الآية :((يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن بأنه يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل)) ج ٣ ص ٤٤ .

وما أروع ما قاله سيد قطب في الظلال (١٤٠٠هـ) حول هذه الآية ، إذ يقول :

((هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم ، فيشمل الهدى أقواما وأجيالا بلاحدود من زمان أو مكان ، ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق ، وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لاتعقيد فيها ولا غموض ، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة وتطلق الطاقات البشريه الصالحة للعمل والبناء ، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق . ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه ، وبين مشاعره وسلوكه ، وبين عقيدته وعمله ، فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم ، متطلعة إلى أعلى وهي مستقرة على الارض وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله ، ولو كان هذا العمل متاعا واستمتاعا بالحياة . ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة، فلاتشق التكاليف عليالنفس حتى تمل وتيأس من الوفاء .ولا تسهل وتترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار .ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال .ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض: أفرادا وأزواجا وحكومات وشعوبا ، ودولا وأجناسا ، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى ، ولا تميل مع المودة والشنآن ولا تصرفها المصالح والاغراض ، لكونها تقوم على الأسس التي أقامها العليم الخبير لخلقه ، وهو أعلم بمن خلق ، وأعرف بما يصلح لهم في كل أرض وفي كل جيل ، فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم ونظام المال ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولي بعالم الإنسان)) ج ٤ ص ٢٢١٥ .

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون ﴾ سورة الأنبياء آية ١٠.

قال الرازي في تفسيره (١٤١٠هـ) في معنى قوله تعالى: ﴿ فيه ذكركم ﴾ : ((فيه ثلاثة أوجه أحدها : شرفكم وصيتكم • وثانيهما : فيه تذكرة لكم لتحذروا ما لا يحل ، وترغبوا فيما يجب • وثالثهما : ذكر دينكم ما يلزم منه وما لا يلزم لتفوزا بالجنة إذا تمسكتم به)) ج ١١ ص١٤٥ .

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ﴾ سورة النحل آية ٨٩ .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ سورة الأنعام آية ٣٨ .

يقول الشنقيطي في أضواء البيان (١٤١٣هـ) :

((قال المرسي : جمع القرآن علوم الأولين والآخرين ، بحيث لم يحط بها علما حقيقة إلا المتكلم به ، ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خلا ما استأثر الله به سبحانه ، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابه وأعلامهم ، مثل الخلفاء الاربعة ، ومثل ابن مسعود وابن عباس ، حتى قال : لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله ، ثم ورث عنهم التابعون بإحسان ، ثم تقاصرت الهمم وفترت العزائم ، وتضاءل أهل العلم ، وضعفوا عن حمل ما حمل الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه ، فنوعوا علومه، وقامت كل طائفة بفن من فنونه)) ج ٣ ص ٣٠٨ .

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ سورة الأعراف آية ٥٢ .

قال ابن كثير في تفسيره (١٤٠٠هـ) :((أي :على علم منا بما فصلناه به)) ج ٣ ص٥١٩ .

وقال الألوسي في روح المعاني (١٤٠٨هـ) في قوله تعالى :﴿ فصلناه ﴾ أي ((بينا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ مفصلة ... وأما في قوله : ﴿ على علم ﴾ فالمراد : على علم منا بوجه تفصيله ... وتنكيره للتعظيم أي عالمين على أكمل وجه بذلك حتى جاء حكيما متقنا)) ج ٤ ص ١٢٧٠ .

القرآن الكريم منهج حياة :

وبعد أن استعرض الباحث كلام المفسرين في تفسير هذه الآيات التي أثنى فيها المولى على كتابه الكريم يتبين أننا أمام كتاب مبارك لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل م حكيم حميد ، وأن هذا الكتاب فيه كل ما تحتاجه البشرية من الخير في أمور دينها ودنياها .

إن هذا المنهج المبارك ، وهذا الخير العميم ،لم ينزل من السماء لمجرد القراءة فحسب كما هو تصور كثير من المسلمين عن آياته ، إنما هو كتاب تربية وتوجيه يأخذ بمجامع القلوب إلى الخير في كل ميدان ، ولهذا يقول محمد قطب في منهج التربية الإسلامية (١٤٠٩هـ) ((فهو منهج شامل متكامل ، كل جزئية فيه مقصودة ، وكل كلمة فيه بحساب)) ج ١ ص ٧ .

وما إن تتدبر القلوب آياته إلا وتستخرج منها العبر ، إذ كل متخصص يجد فيه بغيته ، وكل باحث يجد فيه نهمته ، العقول في تدبر آياته متفاوته ، وكل يستقي من بحاره على قدر إنائه ، فمستقل ومستكثر .

إن أمر الله سبحانه لعباده أن يتدبروا آيات هذا الكتاب لم تأت عبثا ، ولم تنزل سدى ، ولو لم يكن من وراء هذا التدبر فتح من الله لهذه الأمة ، وسداد وهداية لما كان لهذا الأمر فائدة ، بل إن الذين يقفون عند مجرد الكلمات يصنفون في عداد الأميين ، قال تعالى :﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون ﴾ سورة البقرة آية ٧٨ .

فالأماني في هذه الآية هي الوقوف عند مجرد ظاهر اللفظ دون تدبر المعنى والوقوف على المراد ٠

يقول شيخ الإسلام قدس الله روحه في كتاب : دقائق التفسير ، جمع وتحقيق الجليند (١٤٠٦هـ) متحدثا عن الذين ركبوا سنة من قبلنا من الأمم في فهمهم للكتب المنزلة :((وقوم لا يزيدون على تلاوة النصوص لا يفقهون معناها ، ويدعون أن هذا موجب السمع الذي كان عليه السلف ، وأن الله لم يرد من عباده فهم هذه النصوص ، فهم لا يعلمون الكتاب إلا أماني ، أي : تلاوة ٠ وإن هم إلا يظنون)) ج ١ ص ٢٢٩ .

إن الدعوة إلى تدبر القرآن الكريم ، وفتح أقفال القلوب التي تقف حجر عثرة في طريق تقدم الأمة ورقيها ، من أوجب الواجبات التي ألزم الله بها عباده في قوله تعالى :﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ سورة محمد آية ٢٤ .

يقول الشنقيطي في أضواء البيان (١٤١٣هـ) :((ومعلوم أن من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم أي تصفحها وتفهمها ، وإدراك معانيها والعمل بها ، فإنه معرض عنها ، غير متدبر لها ، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات ، إن كان الله أعطاه فهما يقدر به على التدبر)) ج ٧ ص٤٢٩ .

وليس التدبر وإعمال العقل في آيات القرآن الكريم حكرا على المجتهدين من علماء الأمة كما يقوله بعض المتأخرين من الأصوليين ٠

يقول العلامة الشنقيطي في أضواء البيان (١٤١٣) هـ :((اعلم أن قول بعض متأخري الأصوليين : إن تدبر هذا القرآن العظيم ، وتفهمه والعمل به لا يجوز إلا للمجتهدين خاصة ، وأن كل من لم يبلغ درجة الاجتهاد المطلق بشروطه المقررة عندهم ـ التي لم يستند كثير منها إلى دليل من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس جلي ، ولا أثر عن الصحابة ـ قول لا مستند له من دليل شرعي أصلا ، بل

الحق الذي لا شك فيه أن كل من له قدرة من المسلمين على التعلم والتفهم وإدراك معاني الكتاب والسنة يجب عليه تعلمهما والعمل بما علم منهما)) ج ٧ص٤٣٠.

وبما أن القرآن الكريم كما يقول أبو شهبه في كتابه المدخل لدراسة القرآن الكريم (١٤١٢هـ) ((هو هداية الخالق لإصلاح الخلق ، وشريعة السماء لأهل الأرض ، وهو التشريع العام الخالد الذي تكفل بجميع ما يحتاج إليه البشر في أمر دينهم ودنياهم ، في العقائد والأخلاق ، وفي العبادات ، وفي المعاملات ، المدنية ، والجنائية، وفي الاقتصاد والسياسة والسلم والحرب والمعاهدات والعلاقات الدولية ، وهو في كل ذلك حكيم كل الحكمة ، لا يعتريه خلل ولا انحراف ، ولا تناقض ولا اضطراب)) ص١٠ .

فإن صلاح الأمة ورقيها وتطورها في كل ميدان مرهون بقدر ما تتدبر من آيات ربها ، تدبرا يقصد من ورائه العمل والتطبيق ، ليكون القرآن الكريم منهجا شاملا تصدر الأمة عن تشريعاته في كل شيء .

ولقد كانت أعظم معجزة أتى بها القرآن الكريم أنه دعا العقل إلى التفكر والتدبر ونبذ المنهج الآبائي العقيم الذي يقوم على التقليد والمحاكاة ، من غير وعي ولا بصيرة ، ومن غير دليل ولا تمحيص ، بل لقد وصف القرآن الكريم الذين يعطلون ملكات العقل عن العمل بأنهم أشبه بالحيوانات التي لا تعقل ، فيقول سبحانه : ﴿ . . . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ سورة الفرقان آية٤٤ .

على أن هذا العقل الذي ميز الله به الإنسان عن الحيوان قد طلب منه القرآن الكريم أن يتفكر فيما ينفعه في أمور دينه ودنياه ، ومن هنا فإن الميادين التي دعا القرآن الكريم العقل أن يتبدرها ويعمل ملكاته فيها ميدانان اثنان :

أحدها : ميدان الآفاق . وثانيهما : ميدان الأنفس .

يقول ربنا سبحانه :﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ سورة فصلت آية ٥٣ ويقول سبحانه :﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ سورة الذاريات ٢١ .

يقول أبو شهبة في المدخل إلى دراسة القرآن الكريم (١٤١٢هـ) متحدثا عن عظمة هذا القرآن وكيف دعا إلى التدبر والنظر :((إن القرآن الكريم حينما دعانا إلى الآيات الآفاقية والأنفسية لم يقف بنا عند حد الاعتبار والاتعاظ بالظواهر والصور والأشكال فحسب ، وإنما أراد ـ إلى ذلك ـ استكشاف المستور ، واستكناه الأسرار ، والتقصي عما فيها من عجائب وسنن وخواص ، عن طريق الملاحظة حينا ، والتجارب أحيانا أخرى ، وبذلك يكون القرآن قد فتح أبوابا للعلوم التجريبية منذ أربعة عشر قرنا من الزمان)) ص ١٣ .

وفي عظمة هذا الكتاب المقدس وشموليته وصلاحيته لكل زمان ومكان يقول السيوطي في الإتقان ، تهذيب بازمول (١٤١٢ هـ) :

((إن كتابنا القرآن لهو مفجر العلوم ومنبعها ، ودائرة شمسها ومطلعها ، أودع فيه سبحانه وتعالى علم كل شيء ، وأبان فيه كل هدى وغي ، فترى كل ذي فن منه يستمد ، وعليه يعتمد ، فالفقيه يستنبط منه الأحكام ، ويتخرج حكم الحلال والحرام ، والنحوي يبني منه قواعد إعرابه ويرجع إليه في معرفة خطإ القول من صوابه ، والبياني يهتدي إلى حسن النظام ويعتبر مسالك البلاغة في صوغ الكلام ، وفيه من القصص والأخبار ما يذكر أولي الأبصار ، ومن المواعظ والأمثال ما يزدجر به أولو الفكر والاعتبار ، إلى غير ذلك من علوم لا يقدر قدرها إلا من علم حصرها ، هذا مع فصاحة لفظ وبلاغة أسلوب تبهر العقول وتسلب القلوب ، وإعجاز نظم لا يقدر عليه إلا علام الغيوب)) ص ٢.

إن نظرة سريعة في الآيات السابقة لتزرع في قلب المسلم ثقة لا حدود لها أنه بين يديه كتاب محفوظ من القصور والشك والتناقض ، به قوام العقائد

والأخلاق ، وفيه من الكنوز ما لا يخطر على البال ، يقول الشنقيطي في أضواء البيان (١٤١٣هـ) مثنيا على كتاب ربه ((أكمل كتاب كشف الله به ظلمات الجهل وأسباب العذاب ، وأماط به عن نفائس العلوم وذخائرها الحجاب ، وكشف به عن حقائق الدين وأسراره ومحاسنه النقاب ، وأخلص به العبادة للعزيز الوهاب ، وفتح به لنيل مآرب الدارين الباب ، وأغلق باتباعه والعمل به دون الشر جميع الأبواب ، تحيي بوابل علومه القلوب النيرة أعظم مما تحيى الأرض بوابل السحاب ، يتميز بتدبر آياته الخطأ من الصواب ، والقشور من اللباب ، وتجل ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره عن الوصمة والعاب)) في مقدمة الكتاب .

فالقرآن بهذه الخصائص كما يقول القطان في كتابه مباحث في علوم القرآن (د ـ ت) ((يعالج المشكلات الإنسانية في شتى مرافق الحياة الروحية والعقلية والبدنية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية علاجا حكيما ، لأنه تنزيل الحكيم الحميد ، ويضع لكل مشكلة بلسمها الشافي في أسس عامة تترسم الإنسانية خطاها ، وتبني عليها في كل عصر ما يلائمها ، فاكتسب بذلك صلاحيته لكل زمان ومكان)) ص ١٩ .

وإذا كان هذا هو القرآن الكريم بهذه الخصائص التي لا يمكن أن تكون لكتاب على وجه الأرض فأين الأمة المسلمة عن تشريعاته في كل جانب من جوانب الحياة ، لينقذها مما تعيشه من التخلف والرجعية في سائر المجالات .

إن هذه الأوصاف التي سلف الحديث عنها عن القرآن الكريم لو قيل عشر معشارها في كتاب ألفه بشر في التربية مثلا لتسابق الناس إلى اقتنائه ولأصبح مرجعا لكل باحث ومعلم ومرب ، فكيف بكتاب يثني عليه الذي خلق الكون وأبدعه ، العليم بما يصلح عباده وما يصلح لهم ، الحكيم في خلقه وشرعه ، الذي لا يحيط الناس بشيئ من علمه مهما كانت أفهامهم ، وكيف يكون ذلك وهو الذي خلق العقول ، وأبدع الأفهام !!! .

إن البشرية لو اجتمعت على أن تصوغ كتابا في التربية يهدي الناس إلى مكارم الأخلاق ومعالي الأمور ، ما بلغت عشر معشار ما في القرآن الكريم من الإعجاز اللغوي والعلمي والتشريعي .

قال تعالى :﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ سورة الإسراء آية ٨٨ .

ويقول تعالى :﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾ سورة الفرقان آية ٣٣ .

فهل وعت الأمة في عمومها ، والمربون فيها على وجه الخصوص قدر هذا الكتاب الذي بين أيديهم ؟ وهل تيقن المربون أن سر فلاح الأفراد والأسر والمجتمعات هو في تحويل توجيهات هذا الكتاب إلى واقع معاش ، بعيدا عن الهرطقات والفلسفات التي أشغلت عن العمل بكتاب الله كثيرا ؟

إن القرآن الكريم هو المصدر الأول من مصادر التشريع في الإسلام ، ذلك أن الذي يملك حق التحليل أو التحريم هو الله رب العالمين لا يشاركه في ذلك مَلَكٌ مقرب ولا نبي مرسل ، وفي هذا المعنى يقول سبحانه :﴿ إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين ﴾ سورة الأنعام آية ٥٧ .

ويقول سبحانه :﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالاتعلمون ﴾ سورة الأعراف آية ٣٣ .

ويقول سبحانه :﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾ سورة الأنعام آية ١٤٦ .

كما أنه سبحانه يستنكر على الذين ينصبون أنفسهم آلهة مع الله أو من دونه، فيحلون للناس ما حرم الله ، ويحرمون عليهم ما أحل الله ، ويصفهم سبحانه بالمفترين الظالمين ويتوعدهم سبحانه بالعذاب الأليم فيقول :﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم وإن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ سورة الشورى آية ٢١ .

ويقول أيضا :﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾ سورة يونس آية ٥٩ والآيات في هذا المعنى كثيرة .

وليس من حق أحد ـ كائنا من كان ـ أن يحل ما حرم الله أو يحرم ما أحل الله حتى الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام.

إنما تقتصر مهمتم عليهم السلام على نقل هذه الأحكام إلى الناس كما ذكر ذلك الحكيم الخبير في محكم تنزيله عنهم بقوله :﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ سورة النحل آية ٤٣ .

وقوله سبحانه :﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم ﴾ سورة إبراهيم آية ٤ .

وكقوله سبحانه في حق نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ سورة النور آية ٥٤ .

وقوله :﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ سورة المائدة آية ٦٧ .

فالقرآن الكريم بألفاظه ومعانيه وأحكامه وتشريعاته إنما هو كلام الله الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، أنزله الله على

رسوله صلى الله عليه وسلم وجعله نورا يهدى به مَنِ اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور .

ومن هنا فالقرآن الكريم هو المصدر العظيم الذي يزكي بأحكامه النفوس ويهذب بتشريعاته المجتمعات ، فهو في المقام الأول كتاب تربية وهداية إلى أقوم السبل ، وأحسن الطرق .

يقول سبحانه ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ سورة الجمعة آية ٢ .

ويقول سبحانه :﴿ ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ سورة البقرة آية ١ ـ ٢ .

ويقول سبحانه :﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ سورة النحل آية ٨٩ .

ويقول سبحانه :﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا﴾ سورة الإسراء آية ٩ .

وذكر جل شأنه أن الجن والإنس من عهد آدم إلى يوم القيامة لو اجتمعوا عن بكرة أبيهم ليصوغوا كتابا يضاهي القرآن في عظمة ألفاظه ومعانيه ، وفي روعة أحكامه وتشريعاته ، لما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، يقول عز من قائل مخاطبا عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم :﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ سورة الإسراء آية ٨٨ .

لقد بين للأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ترك لها مصدرين عظيمين وجعلهما منهج حياة لمن أراد النجاة ، وبين عليه الصلاة السلام أن من تمسك

بهـذين المـصـدرين فلن يضل أبـدا ، لن يضل في مـعــتـقـده الذي تنطـلق منه كل تصرفاته وأفعـاله على ظهر هذه الأرض ، لن يضل في شعائره التعبدية التي يتقرب بها إلى اللـه ، لن يضل في قضاياه السـياسـية ولا الاقـتـصادية ولا الاجـتماعـيه ولا التـربوية ولا الفكرية ، لن يـضل في أي جـانب من جـوانب حيـاته مـادام منهـجـه التمـسك بهمـا وَرَدِّ ما يشتـبه عليه فـي فهمـهما إلى فـهم سلف الأمة الأخـيار من الصحـابة الأبرار الذين هم أعلم الناس بهذين المصدرين بعـد رسول الله صلى الله عليه وسلم فـهم تلامذته الذين تربوا على يديه ، وعاشـروا الوحي وهو يتنزل عليه ، أو رد ذلك إلى فهم من جاء بعدهم من أهل القـرون المفضلة الذين أثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى ذلك البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) ومسلم في صحيحه (شـرح النووي د ـ ت) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما قـال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ خـيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ﴾ ج١١ ص ٢٤٤ ، ج ١٦ص ٣٢٠ .

يقـول صلى الله عليـه وسلم :﴿ تركـت فـيكم شـيئين لن تضلـوا بعدهمـا : كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض﴾ سبق تخريجه ص ٥

إن القرآن الكريم والسنة المطهرة هما المصدران اللذان ارتضاهما الله للبشريه منهجا تسير عليه في كل شأن من شؤون حياتها .

وما من شك أن البـشرية حين تجـعل بينها وبين هذا المنهج حـجابا مسـتورا ، سوف تضل الطريق وتفقد التوازن ، وستعاني من التخبط والضياع في كل جانب من جـوانب حيـاتها مـا لايعلمـه إلا الله ، يقول ربنـا سبـحانه :﴿ ... فـمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكري فإن له مـعيشة ضنكا ونحشره يوم القـيامة أعـمى * قال رب لم حـشرتني أعـمى وقد كنت بصـيرا * قـال كذلك أتتك آياتنا فنسـيتهـا وكـذلك اليـوم تنسى * وكذلك نجزي من أسـرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾ سورة طه آية ١٢٣ ـ ١٢٧ .

نعم إن من يعرض عن هدي الله وشرعه في ميدان العقيدة ، تتخطفه الشياطين ذات الشمال وذات اليمين فإذا هو بين طرفي نقيض ما أبعد ما بينهما ، يقول النحلاوي في أصول التربية الإسلامية (١٤٠٣هـ) عن حال الإنسان بين هذين الطرفين :

((يميل إلى جانب الإفراط حينا فيرى أنه أكبر وأعظم كائن في العالم ، وينادي بذلك وقد امتلأ أنانية وغطرسة وكبرياء ، كما نادى قوم عاد :﴿ وقالوا من أشد منا قوة﴾ سورة فصلت آية ١٥ ، وكما نادى فرعون في قومه :﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ سورة القصص آية ٣٨ ، ويربأ بنفسه أن يعتقد أنه مسؤول أمام أحد ، ويتحول إلى متأله يستهدف القهر والجبروت والبطش والظلم والشر والطغيان ، ويميل إلى جانب التفريط حينا آخر فيظن أنه أدنى وأرذل كاءن في العالم فيطأطيء رأسه أمام كل شجر أو حجر أو نهر أو جبل أو حيوان ولا يرى الكرامة إلا في أن يسجد للشمس والقمر والنجوم والنار)) ص ٣١ .

فإذا ما فسد المعتقد فسدت على إثره سائر ميادين الحياة ، وذلك لأن العقيدة هي المحرك الفعال للفرد ، وهي القوة المؤثرة في صدق التوجه ، وهي الطاقة الكبرى التي تقف وراء العمل والإنتاج ، سواء كان ذلك فيما ينفع العبد في أمور دينه أودنياه .

التربية الوقائية في القرآن الكريم :

المتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أنها تعتمد في تربية الإنسان على الوقاية أكثر من اعتمادها على العلاج ، وذلك لأن الإنسان مولود على الفطرة السليمة التي هي الإيمان بالله ، ومن هنا فقد أولى الوحي هذه الفطرة عناية كبيرة فشرع لصيانتها من الشرائع ما يحفظها من الانحراف ويقيها من الانتكاس .

إضافة إلى أن الإسلام قد شرع منهجا علاجيا للنفوس التي تلطخت فطرتها ليطهرها مما علق بها من المآثم ، بالأساليب التربوية الفريدة التي حولت عتاة البشر ممن تمكنت الجاهلية من قلوبهم إلى أفراد صالحين أمضوا بقية حياتهم في دروب الخير ينشدون الفضيلة ، ويبحثون عما يرتقي بهذه النفوس إلى مصاف الأخيار الصالحين من عباد الله ٠

ومن هنا كان على المربين أن يولوا جانب التربية عناية كبيرة كما أولاها القرآن الكريم ، معتمدين في ذلك على تقوية المناعة لدى من يقومون على تربيته سواء كان ذلك في البيت أو المدرسة أو المسجد أو سائر الوسائط التربوية ، مستلهمين هذا الهدي من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة التي تحرص على صيانة الإنسان قبل أن يتمكن الشر من فؤاده فيصعب على المربي حينئذ إصلاحه أو يستحيل ٠

وإن اهتمام المربين أيا كانت مواقعهم بوظيفتهم العظمى التي هي تعبيد الناس لله تعالى هو ما يجب أن يكون في موقع الصدارة من الأعمال والمهمات ، اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فقد بعثه الله مربيا في زمن كان الناس فيه يحتاجون إلى مؤسسات صناعية وتجاريه وصحية وإدارية ، فأعرض صلى الله عليه وسلم عن هذا كله واتجه إلى ميدان التربية ليصلح القلوب التي خيم عليها الظلام ردحا من الزمن ، وضرب بأطنابه في كل زاوية ، فغرس العقيدة في نفوس أصحابه فكانت أعظم أسباب الوقاية من كل ما يفت العزيمة أو يصرف عن الطريق ، حتى أن بعضهم كانت تعرض عليه أموال الدنيا ليترك دينه فلا يقبل ، وكان الآخر يرمى في القدور وهي تغلي بالزيت فلا يزيده ذلك إلا صلابة في الحق وثباتا عليه ٠

ثم كانت آيات الوحي تتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقرؤها على أصحابه ويعلمهم كيف يعملون بها ، فكان يتعلمون العلم والعمل ، وفي هذا

المعنى يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كما ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره تحقيق الوادعي (١٤١٤هـ) :((كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن ، وقال أبو عبدالرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا)) ج ١ ص ١٢.

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يولي الميدان التربوي جل اهتمامه لأن هذا الميدان هو الذي يصنع المجتمع كله ، إذ هو الذي يخرج للأمة العالِم والمجاهد والطبيب والمهندس والتاجر والإداري ، فإذا تربت هذه النماذج في هذا الميدان تربية قرآنية رأيت سائر الميادين رحمة على الأفراد والمجتمعات في الدنيا والآخرة .

لقد كان صلى الله عليه وسلم يبني النفوس بما يتنزل عليه من الآيات ، فزرع الإيمان في القلوب حتى قبل أن تتلفظ الألسنة بآيات القرآن العظيم ، يقول جندب ابن عبد الله رضي الله عنه كما روى ذلك ابن ماجة في سننه (د ـ ت) : ﴿ كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ونحن فتيان حزاوره ، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن ، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانا ﴾ج ١ ص ٢٣، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٤٠٨هـ) ج١ص ١٦ .

فلما ارتفع منسوب الإيمان في قلوبهم أتوا بالعجائب ، فهذا التاجر الذي فتحت عليه الكنوز والأموال يقارن بين ربح الدنيا والآخرة فرأى أن ربح الآخرة خير وأبقى فقال بالأموال هكذا وهكذا ولسان حاله يقول:

بغض الحياة وحب الله أخرجني ... وبيع نفسي بما ليست له ثمنا
إني وزنت الذي يبقى ليعدله ... ما ليس يبقى فلا والله ما اتزنا

ذكر الطبري في الرياض النضرة (١٤٠٨هـ) أن قافلة قدمت من الشام في وقت جدب وقحط ومجاعة ألمت بالناس وكانت القافلة لعثمان بن عفان رضي الله عنه فتسابق التجار لشرائها ، فقال لتجار المدينة : ((كم تربحوني على شرائي من الشام ؟ قالوا : العشرة اثني عشر ، قال قد زادوني ، قالوا : العشرة أربعة عشر ، قال : قد زادوني ، قالوا : العشرة خمسة عشر ، قال : قد زادوني ، قالوا : من زادك ونحن تجار المدينة ؟ قال : زادني بكل درهم عشرة ، عندكم زيادة ؟ قالوا : لا ، قال : فأشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة)) ج ٢ ص٣٨ .

وهذا المجاهد يوم أتقنت تربيته في هذا الميدان خرج بسيفه يتبختر به أمام صفوف المشركين ولسان حاله يقول :

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما
تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما

ذكر الإمام مسلم في صحيحه (شرح النووي د - ت) موقف عمير بن الحمام في معركة بدر حين قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه في أرض المعركة: ﴿ قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض قال : نعم ، قال : بخ بخ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يحملك على قولك بخ بخ ؟ قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها ، قال فإنك من أهلها ، فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة ، قال : فرمى بما كان معه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قتل﴾ ج ١٣ ص ٥٠

وقد ذكر ابن كثير في البداية والنهاية (١٤٠٦هـ) أنه رضي الله عنه كان يقاتل وهو يقول :

ركضا إلى الله بغير زادي إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفاد

غير التقى والبر والرشاد ج ٣ ص ٢٧٧ .

وهكذا الحال في كل النماذج التي تربت في ميدان التربية القرآنية فضربت للبشرية بعطائها أروع الأمثال .

إن الميدان التربوي هو أساس الميادين كلها ، وبقدر ما يقدم له من جهود بقدر ما تضمن كل أمة مستقبلها ، وتسابق غيرها في كل ميدان ، فأين نحن اليوم من هذا الميدان ونحن نحمل رسالة سماوية أعلنت عالميتها من اليوم الأول بقول الحق جل ذكره :﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ سورة الأنبياء آية١٠٧ .

أين نحن وفي أيدينا من الطاقات القيادية والعلمية والفكرية والتربوية التي تربت على القرآن ما تعجز الأرحام أن تأتي بمثلها .

والجواب أمتنا مغيبة ، وطاقاتنا معطلة ، وجهودنا مبعثرة ، وميداننا التربوي لايزال في منأى عن التربية القرآنية، وإن كان الخير في أمتنا إلى يوم الدين، ولكن :

ولم أر في عيوب الناس شيئا كنقص القادرين على التمام

ومع أن هذا الميدان لا يزال يُحال بينه وبين ما يشتهي ، إلا أن بشائر الفرج تلوح في الأفق ، وموعود الله لهذه الأمة بالتمكين آت لا محالة :﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون * إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين ﴾الأنبياء آية١٠٥ ـ ١٠٦ .

إن معنا القرآن فحسب ، القرآن الذي لا يزال يغذي في الأمة حيويتها وشبابها منذ أن بدأت بحفنة من الرجال حول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن ينزل عيسى بن مريم في آخر الزمن فيقتل الدجال ويكسر الصليب ويضع الجزية حاكما في الناس بشريعة محمد ﷺ وعلى سائر الأنبياء والمرسلين .

إن القرآن الكريم هو المصدر الأول من مصادر التربية الوقائية ، قد حمل بين دفتيه من التدابير الوقائية التي تقي من الخطأ ، وتمنع من الزلل شيئا كثيرا ، إما أن

تكون هذه التدابير صريحة مباشرة ، وإما أن تكون هذه التدابير غير مباشرة ، كالحديث عن الله وأسمائه وصفاته، أو الحديث عن الآخرة ، أو عن الأمم السابقة ، كل ذلك لتظل القلوب متعلقة بربها فتظل محافظة على فطرتها كلما تزكت بآيات الله والحكمة .

إن أمة قد كتب الله لها الخلود ، وجعل رسالتها رسالة عالمية ، في أمس الحاجة إلى كتاب يتناسب في أحكامه وتشريعاته مع خلودها واتساعها وعالمية رسالتها ، فكان هذا القرآن الذي نسخ الكتب السماوية السابقة وهيمن عليها ، يقول صلى الله عليه وسلم كما روى ذلك الطبراني في معجمه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:﴿ أعطيت مكان التوراة السبع الطوال ، وأعطيت مكان الزبور المئين ، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني ، وفضلت بالمفصل﴾ والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٠٦هـ) ج ١ ص ٢٤١ .

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن القرآن الكريم لم يترك شاردة ولا واردة فيها صلاح للبشرية في أمر دينها ودنياها إلا وجعل فيه تشريعا ، لا يخلو هذا التشريع من أمرين :

١ ـ إما أن يكون هذا التشريع قد نص عليه في هذا الكتاب المقدس نصا مباشرا .

٢ ـ وإما أن يدخل تحت أصل عام أو قاعدة كلية من قواعد هذا الدين ، يقوم العلماء الربانيون باستنباط حكم الله وتبيينه للناس ، فقد ذكر السيوطي في الاتقان ، تهذيب بازمول (١٤١٢هـ) أن ابن برجان كان يقول :((ما قال النبي صلى الله عليه وسلم من شيء فهو في القرآن أو فيه أصله قرب أو بعد ، ففهمه من فهمه ، وعَمِه عنه من عَمِه ، وكذا كل حكم به أو أمرقضى به ، وإنما يدرك الطالب من ذلك بقدر اجتهاده وبذل وسعه ومقدار فهمه)) ص ٤٨ .

ولعل المتتبع لآيات الكتاب الكريم يجد فيها من الآيات التي تتعلق بالتربية الوقائية حظا وافرا سواء ما يتعلق منها بالفرد أو الأسرة أو المدرسة أو المجتمع ٠

إن المعاصي لا تقع من العبد إلا بوسوسة الشيطان وتضليله ، ولكي يتقي الإنسان الوقوع في الشرور والمآثم ، بين القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أن الشيطان عدو لابن آدم يتربص به الدوائر ليوقعه في المعصية التي بها شقاؤه في الدنيا والآخرة ، فقال سبحانه :﴿ ٠٠٠ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ سورة فاطر آية ٦ .

وقال سبحانه مبينا عداوة الشيطان وذريته لبني آدم :﴿ ٠٠٠ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ﴾ سورة الكهف آية ٥٠

وبعد أن بين القرآن الكريم عداوة الشيطان لبني آدم أخبر أن الشيطان قد أقسم بعزة الله ليجنِّدنَّ كل طاقاته وجنوده لإغواء الناس عن صراط الله المستقيم ، قال تعالى مبينا إصرار إبليس في ذلك :﴿ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ سورة ص آية٨٢ .

ثم بين القرآن الكريم أن الشيطان لا يوقع العبد في الغواية دفعة واحدة ، ولكن طريقته في الإغواء تسير خطوة خطوة ، فإذا كسب الخطوة الأولى أوشك أن يوقع العبد في الخطوة الثانية وهكذا ، قال الله تعالى :﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ سورة البقرة آية ٢٠٨ .

على أن القرآن الكريم في حمل الناس على الخير وتحذيرهم من الشر لم يقف بهم عند التحذير من الشيطان وأساليبه ، ومكره وألاعيبه ، بل شرع لهم من الشرائع ما يصحح السلوك ويهذب الوجدان ، والأمثلة على ذلك كثيرة جدا ٠

أمثلة التربية الوقائية للفرد في القرآن الكريم :

ففي الوقـاية من الشرك كجانب من جـوانب العقيـدة التي يدين بها المسلم ، وفي الوقاية من تضييع الصلاة والتهاون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كجانب من جوانب العبادة التي شرعها الإسلام ، وفي الوقاية من الكبر وتصعير الخد للناس كـجانب من جـوانب الخلق السيء ، قص الله عـلينا من نبـأ لقـمـان الحكيم وهو يوصي ولده مبتدئا بالعقيدة ثم العبـادة ثم الأخلاق فيقول :﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يـا بني لا تشـرك بالله إن الشـرك لـظلم عظيم ووصـينا الإنـسـان بوالديه حملته أما وهنا على وهن وفصـاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير وإن جاهداك على أن تشـرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعـهما وصـاحبهمـا في الدنيا معروفـا واتبع سبيل من أناب إليّ ثم إليّ مـرجعكم فأنبئكـم بما كنتم تعملون يا بني إنها إن تك مثقـال حبة من خردل فتكن في صخـرة أو في السموات أو في الأرض يأتي بها الله إن الله لطيف خبيـر * يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبـر على ما أصابك إن ذلك من عـزم الأمور * ولا تصعـر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الـله لايحب كل مختال فـخور واقصد في مشـيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ سورة لقمان آية ١٣ - ١٩ .

إن المتأمل في هذه الوصايا العظيمة يرى أن الوصـية ببر الوالدين بعد التحذير من الشرك لم تأت على لسان لقمان الحكـيم إنما ذكرها الله سبحانه في وسط هذه الوصـايا وقاية من جـريمة العقـوق ، فكأن معنى الأمـر : إن كان لقـمان وهو بـشر يوصي ولده بالحذر من الشرك وترك العبادة وسوء الخلق فإن الله رب البشر يوصي عبـاده ببر الوالدين ويقـرن طاعتـهما بطاعـته سبحانـه . كل ذلك صيانة لحقهـما ووقاية لهـما من العقـوق ، حتى وإن جاهدا العبد على الشرك بالله والتـعدي على توحيـده - سبحانه - فـإنه يوصي بهما خيرا ويؤكد سبـحانه على مصـاحبتهـما في الدنيا بالمعروف .

يقول سيد قطب في الظلال (١٤٠٠هـ) :((وفي ظل نصيحة الأب لابنه يعرض للعلاقة بين الوالدين والأولاد في أسلوب رقيق ، ويصور هذه العلاقة صورة موحية فيها انعطاف ورقة)) ج ٥ ص ٢٧٨٨ .

وفي تربية الفرد ليتقي سبل الغواية التي تعيشها المجتمعات الكافرة عموما والمجتمعات الغربية على وجه الخصوص علَّم المولى جلت قدرته المؤمن كيف يسأل ربه الثبات على الصراط المستقيم ، وكيف يسأله أن يجنبه طريق اليهود الذين عرفوا الحق وحادوا عنه ، وطريق النصارى الذين عبدوا الله على جهل وضلال فقال سبحانه : ﴿ إهدنا الصراط المستقيم صراط الين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ سورة الفاتحة آية ٦ ـ ٧ .

وفي ضبط اللسان عن العبارت الموهمة التي تفتح باب سوء وإن كان المقصد منها حسنا ، يقول سبحانه :﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم ﴾ سورة البقرة ١٠٤ .

وفي صيانة جناب رب العالمين ، وصيانة حرمات الدين ، نهي القرآن الكريم عن سب آلهة المشركين ، مع أن سب آلهة المشركين أمر محمود إلا أنه ينهى عنه صيانة لرب العالمين أن تناله ألسنة المشركين بسوء فيقول ربنا سبحانه :﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ﴾ سورة الأنعام آية١٠٨ .

وفي وقاية المعتقد والعبادة والفكر من الانحراف أمر سبحانه بتوحيد مصدر التلقي ، ونهى عن تقديم أي أمر على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فقال سبحانه :﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ﴾ سورة الحجرات آية ١ .

أمثلة التربية الوقائية للأسرة في القرآن الكريم :

ففي المحافظة على الاسرة من نار وقودها الناس والحجارة عن طريق تأديب الأسرة وحملها على الخير يقول ربنا سبحانه :﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ماأمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ سورة التحريم آية ٦ .

وفي بناء الأسرة بناء سليما ترعى فيه الحقوق وتصان فيه العلاقات ، ليثمر ذرية مباركة طيبة تقوم بمهمتها في عمارة الأرض كما يريد الله رب العالمين يقول سبحانه : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم ﴾ سورة النور آية٣٢ .

وفي صيانة أخلاق الأسرة ، وحملها على أحسن الآداب شرع ربنا سبحانه ثلاثة أوقات في الليل والنهار وسماها عورات ، وأمر الولي أن يربي الخدم والأطفال على الاسئذان عند إرادة الدخول في مثل هذه الأوقات ، لئلا تقع عين الخادم أو الطفل على عورة لا يصح أن تكشف له أو يطلع عليها فقال سبحانه :﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ٠٠٠﴾ سورة النور آية٥٨ .

أمثلة التربية الوقائية للمدرسة في القرآن الكريم :

يمكن للمدرسة أن تستفيد من القرآن الكريم في وقاية ناشئتها من الانحراف، ففيما يتعلق بالرجل الأول في العملية التربوية وهو المعلم يأمره القرآن أن يكون قدوة للطلاب في سلوكه وتعامله وقاية لمن تحت يده من من الناشئة من التفلت والانحراف حين يرون في المربي انحرافا عن المنهج القويم فيقول سبحانه :﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ سورة الاحزاب آية ٢٨ .

ويقول :﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تعلمون ﴾ سورة الصف آية٢ ـ ٣ .

وفيما يتعلق بالمنهج الدراسي في تأليفه وتنظيمه وتطويره ليتوافق مع منهج الإسلام في الصغيرة والكبيرة ، فتتربى من خلال فقراته الناشئة تربية متكاملة بعيدة عن التناقض والقصور ، فتصب المناهج كلها في مصب واحد وهو تكوين الشخصية المسلمة في جوانب الحياة كلها ، يقول سبحانه :﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلم أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ سورة الأنعام آية ١٦٢ .

وبما أن غاية المعرفة هي عبادة الله كما يريد سبحانه كانت أول آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الغار يتعبد :﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ سورة العلق آية ١ ، فكان توجيه القراءة باسم الله وقاية للمعرفة من الانحراف حين تكون باسم النفس أو القبيلة أو الحزب أو الوطن .

أمثلة التربية الوقائية للمجتمع في القرآن الكريم :

يقصد الباحث بالمجتمع هنا اسم جنس يشمل كل مجتمع مسلم على وجه الأرض مخاطب بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، مطالب بالسير في ركاب الصالحين من أهل القرون المفضلة .

وقد ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من التدابير الوقائية التي تسهم بدور كبير في حفظ المجتمع شيئا كثيرا ، فمن ذلك على سبيل المثال لا الحصر :

في الحفاظ على تماسك المجتمع ووحدة صفه ، ووقاية له من التصدع والانهيار يقول سبحانه: ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ... الآية ﴾ سورة آل عمران آية ١٠٣ .

ويقول تعالى :﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ سورة المائدة آية ٢ .

كما دعا القرآن الكريم إلى أخذ العبرة والعظة من الأمم السالفة التي تفرقت واختلفت فحل بها الشقاء والهلاك في الدنيا والآخرة ، يقول سبحانه :﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ سورة آل عمران آية ١٠٥ .

وفي وقاية المجتمع من الانحراف وانتشار الفساد نزلت آيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كقوله تعالى :﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ سورة آل عمران آية ١١٠ .

وقوله تعالى :﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ٠٠٠٠ ﴾ سورة آل عمران آية١٠٤ .

وقوله تعالى :﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ سورة المائدة آية ٧٨ - ٧٩ .

وفي وقاية المجتمع من الجريمة نزلت آيات الحدود كقوله تعالى :﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون ﴾ سورة البقرة آية ١٧٩ .

ومن هنا كان القرآن الكريم المصدر الأول من مصادر التربية الوقائية ، فهو يقي الفرد والمجتمع الخطأ قبل وقوعه إما بصورة عامة كالحديث عن أسماء الله وصفاته أو عن الجنة والنار أو عن الأمم الماضية وكيف عذبها الله وأسباب ذلك ٠ وإما أن يحمل القرآن منهجا وقائيا مباشرا عن طريق الأساليب التربوية التي سيأتي الحديث عنها إن شاء الله تعالى ٠

ثانيا : السنة النبوية المطهرة :

تعريفها في اللغة :

ذكر الجوهري في الصحاح (١٤١٤هـ) في مادة سنن قوله : ((السَّنَنَ : الطريقة ٠ يقال : استقام فلان على سَنَنٍ واحد ٠ وجاءت الريح سَنَائِن : إذا جاءت على طريقة واحدة لا تختلف ٠ والسُّنَّةُ : السيرة ٠ قال الهذلي :

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها　　　فأول راض سنة من يسيرها))

ج ٥ ص ٢١٣٨

وذكر ابن منظور في لسان العرب (١٤١٢ هـ) في تعريف السنة قوله : ((هي السيرة حسنة كانت أو قبيحة ، وقد تكرر في الحديث ذكر السنة وما تصرف منها ، والأصل فيه الطريقة والسيرة ، وإذا أطلقت في الشرع فإنما يراد بها ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ونهى عنه وندب إليه قولا وفعلا مما لم ينطق بها لكتاب العزيز ، ولهذا يقال في أدلة الشرع : الكتاب والسنة أي القرآن والحديث)) ج ١٣ ص ٢٢٥ .

تعريف السنة في الشرع :

أما تعريفها في الشرع فمختلف بحسب اختلاف التخصصات الشرعية ، فتعريفها عند المحدثين يختلف عن تعريفها عند الأصوليين ، وتعريفها عند الأصوليين يختلف عن تعريفها عند الفقهاء ٠

والإحاطة بمثل هذه التعريفات لطالب العلم تقيه بإذن الله من الوقوع في الخطأ ، وتجنبه القول على الله بغير علم ٠

فما تعريف السنة إذن عند هؤلاء العلماء من أهل التخصصات الشرعية ؟ وما تعريف السنة الذي يريده الباحث ، تعريفا تعتمد عليه التربية الوقائية وهي تستنبط تدابيرها من هذه السيرة العطرة ؟ ٠

يقول ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٤٠٣ هـ) : ((الحديث النبوي هو عند الإطلاق ، ينصرف إلى ما حُدِّث به عنه بعد النبوة : من قوله وفعله وإقراره ، فإن سنته ثبتت من هذه الوجه الثلاثة)) ج ١٨ ص ٦ - ٧ .

والسنة التي ثبتت من هذه الوجوه الثلاثة التي ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية، تختلف في تعريفها من حيث اختلاف التخصصات الشرعية .

فماذا قيل عن السنة عند المحدثين ، وعند الأصوليين ، وعند الفقهاء ؟ .

يذكر الخطيب في كتابه أصول الحديث (١٤٠٩هـ) في تعريفات السنة عند هؤلاء العلماء ما خلاصته : أن السنة عند المحدثين هي : كل ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أوخلقية أو سيرة ، سواء كان ذلك قبل البعثة كتحنثه في غار حراء أم بعدها .

وهي في اصطلاح علماء أصول الفقه : كل ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير مما يصلح أن يكون دليلا لحكم شرعي .

وهي في أصطلاح الفقهاء : كل ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن من باب الفرض ولا الواجب . ص ١٩ .

ولعل الملاحظ في تعريف المحدثين ، يرى أن هذا التعريف تدخل فيه الواجبات والمندوبات باعتبارها من سنته صلى الله عليه وسلم ، فالصلاة وهي من أركان الإسلام ، سنة سنها للأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خاطب أمته بقوله كما روى ذلك البخاري في صحيحه (مع الفتح د - ت) من حديث مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ وصلوا كما رأيتموني أصلي ﴾ ج ٢ ص ١١١ .

وهكذا الحال في كل عبادة حملها للأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يبلغ عن ربه أوامره ونواهيه ، سواء كانت من قبيل الواجبات ، أو من قبيل المندوبات .

إن تعريف المحدثين يعطي تصورا جليا كيف يكون صلى الله عليه وسلم قدوة تقاس جميع الأقوال والأفعال والأحوال على قوله وفعله وحاله أخذا من قوله تعالى :﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ سورة الأحزاب آية ٢١ .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى (١٤٠٣هـ) : ((وقد يدخل فيها - أي في السنة - بعض أخباره قبل النبوة ، وبعض سيرته قبل النبوة ، مثل تحنثه بغار حراء ، ومثل حسن سيرته ، لأن الحال يستفاد منه ما كان قبل النبوة من كرائم الأخلاق ومحاسن الأفعال)) ج ١٨ ص ١٠

ومن هنا كانت سنته صلى الله عليه وسلم هي المصدر الثاني من مصادر التشريع في الإسلام ، لا يقبل الله ممن أنكرها ولم يؤمن بها صرفا ولا عدلا ، وهو في الآخرة من الخاسرين .

إذا عُلم هذا فإن السنة النبوية المطهرة هي المصدر الثاني من مصادر التربية الوقائية باعتبارها قد اشتملت على تدابير وقائية عظيمة من شأنها أن تحفظ الشخصية الإسلامية من الانحراف .

وهنا لفتة يجب أن يتنبه لها كل باحث مسلم يُعنى بالتنقيب عن المسائل العلمية ، سواء كانت هذه المسائل في التربية الإسلامية أو في غيرها ، وهي أصل أصيل في كيفية التعامل مع الوحي سواء كان ذلك في القرآن الكريم أو السنة النبوية ، ألا وهي ضرورة التعامل مع الفكرة أو القضية أو المسألة المطروحة بمبدأ الإحاطة والشمول ، المبدأ الذي يقوم على لَمِّ شتات الفكرة أو المسألة ، وجمع مايتعلق بها من معلومات ، ليخرج الباحث المسلم عن هذه الفكرة بتصور واضح ، وحكم دقيق ، بناء على إحاطته بكل جزئياتها ، ووقوفه على كل ملابساتها .

وحين يفقد الباحث هذا المبدأ فإنما يُسْلِم نفسه للخطأ والقصور ، أو التناقض والاضطراب ، وهذا ما يرفضه الإسلام ويستهجنه ، ويعده عيبا في منهجية الباحث، وقصورا في فهمه وإدراكه .

فكم من مجادل عن فكرة نظر إليها صاحبها من منظور ضيق ليثبتها ، وفي جزئياتها التي لم يحط بها ما ينقضها من أساسها ، ويبطلها من جذورها .

وكم من مسألة أراد صاحبها إثباتها مستدلا عليها بآية منسوخة ، أو حديث ضعيف ، أو لا أصل له ، أو أنزل دليله - ولو كان صحيحا - على غير الواقع الذي تتحدث عنه المسأله أو الفكرة ، أو استدل على ذلك بقصة باطلة ، أو حكاية مكذوبة ، فضَلَّ وأضَلَّ .

ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن كثير في تفسيره (١٤١٤هـ) أن الصباغ نقل في كتابه الشامل حكاية عن العتبي قال :

((كنت جالسا عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فجاء أعرابي فقال : السلام عليك يا رسول الله ، سمعت الله يقول :﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ﴾ وقد جئتك مستغفرا لذنبي ، مستشفعا بك إلى ربي . ثم أنشأ يقول :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه   فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه   فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي فغلبتني عيني ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقال : ﴿ يا عتبي إلحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له)) ج ٣ ص ٤١٩ .

هذه قصة نقلها ابن كثير في تفسيره عن الصباغ في كتابه الشامل ، ولو أن مسلما قرأ هذه القصة ولم يشبعها بحثا وتخريجا لضل في هذه القضية وأضل الناس وشَّرع لهم زيارة قبر النبي صلى الله عليه بعد وفاته حين تقع منهم الذنوب والخطايا ، ليستغفروا الله عند القبر ، ويطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لهم ، لتنزلق على أثر ذلك الأمة في عقيدتها في منزلق خطر يفتح باب شر لا يغلق .

ولكن الباحث المسلم حين يقف على سبب نزول الآية ، ويقرأ ما قاله جمهرة المفسرين من علماء السلف ، أو على أقل تقدير يقف على ما قاله الذهبي عن العتبي الذي ذكر هذه الحكاية ، لما فعل ما فعل .

يقول الإمام الذهبي في السير (١٤٠٤هـ) : ((قال أسلم بن عبد العزيز : أخبرني ابن عبد الحكم ، قال : أُتيتُ بكتب حسنة الخط ، تدعى [المستخرجة] من وضع صاحبكم محمد بن أحمد العتبي فرأيت جلها كذوبا ... وقال ابن الفرضي : جمع المستخرجة وأكثر فيها من الروايات المطروحة والمسائل الشاذة)) ج ١٢ ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

هذا هو العتبي الكذاب صاحب الرؤيا الكاذبة ، التي اتخذها بعض الناس مصدرا من مصادر التشريع في الإسلام ودليلا على جواز إتيان قبر الرسول صلى الله عليه وسلم بعد وفاته وسؤاله المغفرة للمذنبين ، ومن هنا يتضح الأمر في خطورة العمى أو التعامي عن منهج الإحاطة والشمول عند مناقشة فكرة ، أو بحث مسألة .

ومن هذا المنطلق ، فإن الوقوف على تعريف العلماء للسنة ، من الأهمية بمكان ، لأن الجهل بهذا التعريف قد يوقع في القول على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم بغير علم ، فلو أن أحد الناس سئل عن السنة - بتعريف المحدثين - حول مسألة من المسائل هي من الواجبات فأفتى فيها بتعريف الفقهاء ، لَضَلَّ وأَضَلَّ .

ومن هنا كان من أوجب الواجبات على كل من يتصدر لتعليم الناس وتربيتهم ، أن يكون على بينة كيف يتعامل مع السنة ، وما الأصول التي يتبعها في ذلك ، فإذا أتقن هذا الفن ، زال عن ذهنه الغبش ، وانكشف الغطاء ، و ميز بين الحق والباطل ، فإذا هو يضع الأحكام في مواضعها .

وما أحرى المعلم في هذا الجانب وخاصة في المرحلة الثانوية ، عند طرحه لقضية من القضايا ، أو مسألة من المسائل أن يعد لها الإعداد الجيد ، سواء كان هذا الإعداد ذهنيا أم كتابيا ، فيجمع ما يتعلق بالمسألة التي يريد طرحها ، مما يكون عونا له على تجلية أمرها ، وكشف سترها ، وقاية لعقول الناشئة من أن تنحرف في فكرها ، أو تختلط في مفاهيمها من جهة ، ومن جهة أخرى وقاية لنفسه من أن تفقد فيه الثقة حين يستشهد بحديث لا أصل له ، أو بآية منسوخة ، أو بقصة باطلة ، سيما إذا تكرر منه هذا ، وأصبح ديدنه على هذا المنوال .

كما أن من الأمور التي لا بد أن يدركها طالب العلم في مسألة الأخذ بالسنة التفريق بين أفعاله صلى الله عليه وسلم التي يقصد منها التشريع ، وأفعاله التي هي من قبيل العادة ، وأفعاله التي هي من قبيل الفطرة التي فطر الإنسان عليها .

وفي هذا كله وقاية من تشتت القلوب وتفرق الكلمة الذي يكون نتيجة لعدم الإلمام بمثل هذه المسائل حين تطرح للناس على أنها من الدين وهي ليست كذلك .

السنة في القرآن الكريم :

ورد ذكر السنة في القرآن الكريم في مواضع كثيرة ، وأخبر سبحانه أن نبيه صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى .

يقول ربنا سبحانه في معرض امتنانه على رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما﴾ سورة النساء ، آية ١١٣ .

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسيره (١٤١٤هـ) : ((ثم امتن عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال ، وعصمته له ، وما أنزل عليه من الكتاب وهو القرآن والحكمة وهي السنة)) ج ٢ ص ٤٩٧ .

وقد خاطب الله سبحانه أمهات المؤمنين مذكرا لهن بعظيم فضله ، وكريم منَّه عليهن ، وهن يشاهدن الحكمة في بيوتهن ، ويتأدبن بها آناء الليل وأطراف النهار ، إذ يقول سبحانه :﴿ وأذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ سورة الأحزاب آية ٣٤ .

يقول الإمام الطبري في تفسيره (١٤٠٠هـ) : ((يقول تعالى ذكره لأزواج نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : واذكرن نعمة الله عليكن بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة ، فاشكرن الله على ذلك واحمدنه عليه ، وعني بقوله واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله ، واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات كتاب الله والحكمة ، ويعني بالحكمة ما أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحكام دين الله ، ولم ينزل به قرآن وذلك السنة)) ج٢٢ص ٨ .

على أن هذه المنة العظيمة بإنزال الكتاب والحكمة ، لم تقتصر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا على أزواجه الطاهرات ، بل تعدت هذه المنة إلى الأمة كلها ، إذ منَّ سبحانه بإنزال هذين المصدرين لتهتدي الأمة بهما في كل صغيرة وكبيرة من شؤون الحياة ، وتستقيم على أثر توجيهاتهما الشخصية الإسلامية في كل جانب من جوانب حياتها ، وفي هذا يقول سبحانه :﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم ﴾ سورة البقرة ، آية ٢٣١ .

فقوله صلى الله عليه وسلم ، وفعله ، وإقراره لما يراه من تصرفات أصحابه ووصفه الخَلْقي والخُلُقي قبل البعثة أو بعدها ، هي أعظم نعم الله على نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى أزواجه وعلى المؤمنين ، ذلك أن حياته صلى الله عليه وسلم إنما هي مثال للحياة الكريمة التي يوجهها وحي الله من السماء ، وقد سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خلقه صلى الله عليه وسلم فقالت كما روى ذلك مسلم

في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) حين سألها حكيم بن أفلح فقال :﴿ يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : ألست تقرأ القرآن ؟ قلت بلى ، قالت فإن خلق نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن ﴾ ج٦ ص ٢٧٢

ومع أن حياته صلى الله عليه وسلم كانت مثال السيرة العطرة ، والنفسية الرائعة ، والشخصية العظيمة ، التي ترعاها توجيهات السماء ، إلا أنه ما سلم من كيد الخائنين ، ولا سهام الحاقدين ، بغية هز شخصيته ، وتفريق الناس من حوله ، حرصا على إطفاء ما جاء به من الحق الذي أنكرته قلوب لا تعي ، وأعين لا تبصر ، وآذان لا تسمع ، وفي هذا درس تربوي عظيم لكل مُـربٍ يحمل دينه ، ويبلغ دعوته ، أن يحذو حذوه ، ويصبر صبره ، إذ لا بد له من الأذى ، ولا فكاك له من الابتلاء ، حكمة بالغة ، وسنة جارية ، وفي هذا كله وقاية من الخور والضعف والاستكانة .

ولهذا خاطب رب العالمين رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من بعده إلى يوم الدين بقوله جل جلاله :﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾ سورة البقرة آية ٢١٤ .

ويقول جل جلاله :﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ سورة محمد آية ٣١ .

ولهذا تعرض رسول الله صلى اله عليه وسلم لصنوف من الأذى لا تطيقها الصم الصلاب فلم تفت من عضده ، ولم تثنه عن عزمه ، بل مضى صابرا محتسبا حتى أظهر الله دينه ، وأعلى كلمته .

ذكر البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) ومسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) قول ورقة بن نوفل عقب خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم

من الغـار خـائفا وجـلا وهو يقف مع خـديجـة رضي الله عنهـا ، يقص على ورقـة خبره، ويشكو إليـه عجره وبجره ـ أي همـومه وأحزانه ـ فيقـول ورقة :﴿ يا ليتني فيـها جـذعا ، يا ليتني أكـون حيـا إذ يخرجك قومك ! فـقال النبي صلى اللـه عليه وسلم أومخرجي هم ؟ فقـال نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي﴾ ج ١ ص ٢٣ ، ج ٢ ص ٥٥٨ .

لقد كان الخبر صدمة عنيفة ، وفاجعة عظيمة ، لم يملك أن سمعها صلى الله عليه وسلم إلا أن قـال متعـجبا : أومـخرجي هم؟ ٠ ثم ماذا كـانت النتيجـة ؟ لقد أظهر الله دينه ، ونصر رسـوله ، وأعلى كلمته ، وأما المبطلون فقـد خسروا ، وماتوا بغيظهم ، وتبقى العاقبة للمتقين في صراع الحق مع الباطل إلى يوم الدين ٠

لقـد اتهم الأفـاكـون رسـول الله ﷺ بالضـلالـة فـرد الله سبحـانه عليـهم بقوله:﴿ والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ سورة النجم آية ١-٢

واتهموه ﷺ بالزور في لسانه فرد الله زورهم بقوله سبحانه :﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ سورة النجم ، آية ٤ ـ ٥ .

واتهـموه ﷺ في فـؤاده فـرد سـبـحانـه عليهم بقـوله : ﴿ مـا كذب الفـؤاد مارأى ﴾ سورة النجم ، آية١١.

واتهموه ﷺ في بصـره ، فرد اللـه عليهم بقـوله سـبحـانه:﴿ مـازاغ البصـر وماطغى ﴾ سورة النجم ، آية ١٧ .

واتهموه ﷺ في عـقله ، فرد الله عليـهم بقوله :﴿ ومـاصاحـبكم بمجنون ﴾ سورة القلم ، آية ٦ .

وصفـوه بالطيش والافـتراء ، والشـعر والكهـانة ، والسحـر والخيـانة ، فقـال سبحانه مشيدا بخلقه معظما لسيرته ، مزكيا لسريرته ﴿ وإنك على خلق عظيم ﴾ سورة القلم ، آية ٤

يقول سيد قطب رحمه الله في الظلال (١٤٠٠هـ) :

((وتتجاوب أرجاء الوجود بهـذا الثناء الفريد على النبي الكريم ، ويثبت هذا الثناء العلوي في صميم الوجود ، ويعجز كل قلم ، ويعجز كل تصور عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود ، وهي شهادة من الله ، في ميزان الله ، لعبد الله ، يقول له فيها : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ ومدلول الخلق العظيم هو ماهو عند الله ، مما لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين ، ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمد صلى الله عليه وسلم تبرز من نواحي شتى : تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال ، يسجلها ضمير الكون وتثبت في كيانه ، وتتردد في الملأ الأعلى إلى ما شاء الله . وتبرز من جانب آخر من جانب إطاقة محمد صلى الله عليه وسلم لتلقيها وهو يعلم من ربه هذا ، قائل هذه الكلمة ماهو؟ ما عظمته ؟ ما دلالة كلماته ؟ ما مداها ؟ ما صداها ؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة التي يدرك هو منها ملا يدركه أحد من العالمين .

إن إطاقة محمد صلى الله عليه وسلم لتلقي هذه الكلمة من هذا المصدر وهو ثابت ، لا ينسحق تحت ضغطها الهائل - ولو أنها ثناء - ولا تتأرجح شخصيته تحت وقعها وتضطرب .. تلقيه لها في طمأنينة وفي تماسك وفي توازن .. هو ذاته دليل على عظمة شخصيته فوق كل دليل)) (ج ٦ ص ٣٦٥٦)

لقد كانت سيرته ﷺ ميزانا يفرق بها بين الخير والشر ، والحق والباطل ، والهدى والضلال ، والسنة والبدعة ، فعلى قوله ﷺ تقاس الأقوال ، وعلى فعله تقاس الأفعال ، بل لقد سُدت أبواب الجنة إلا من بابه ، وأوصدت كل الطرق إلا من طريقه .

يقول ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد (١٤٠٧ هـ) حول متابعته ﷺ واتباع سنته: ((والمقصود أن بحسب متابعة الرسول ﷺ تكون الهداية والفلاح

والنجاة ، فالله سبحانه علق سعادة الدارين في متابعته ، فلأتباعه الهدى والأمن والفلاح والعزة والكفاية والنصرة والولاية والتأييد وطيب العيش في الدنيا والآخرة، ولمخالفيه الذلة والصغار والخوف والضلال والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة)) ج ١ ص ٣٧ .

إن الوقوف على سيرته صلى الله عليه وسلم ، يزيد من ثبات الداعية والمربي لما يلقى في طريق دعوته إلى الله من الأذى، ولما يجد من صدود الناس وإعراضهم، فكان من الأهمية بمكان أن تتلمس القلوب سنته في الدعوة ، وطريقته في التبليغ ، وصبره ومصابرته على أذى قومه .

إن تلك الاتهامات الخطيرة التي ألصقت - زورا وبهتانا - برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما تزال تلاحق الذين يحملون سنته ويبلغون دينه ، وإن دفاع القرآن عنه صلى الله عليه وسلم دفاع عمن يحمل هديه ويبلغ شريعته ، وفي ذلك وقاية للنفوس من الأسى الذي يعتصر النفوس وهي تسمع الغمز لورثته وحملة رايته .

وما من شك أن الناشئة المسلمة حين تدرك هذه القضية وتتربى عليها من نعومة أظفارها ، تنشأ معتزة بنبيها ، مفتخرة برسولها ، حريصة على اقتفاء أثره ، لتهتدي في الدنيا إلى الحياة الكريمة التي ينشدها كل عاقل ، وتسلم في الآخرة من الشقاء والذلة والصغار الذي يلحق المخالفين لأمره ، المتنكبين طريقه ، المعرضين عن شريعته .

هذه هي السنة في القرآن الكريم ، يبين المولى جلت قدرته أنه أنزلها عليه ، وأمر الناس باتباعه ، ودافع عنه من اتهامات الأفاكين المضللين ، وفي هذا كله دروس وعبر لأتباعه من حملة الحق إلى يوم الدين .

منزلة السنة من القرآن الكريم :

يتربع القرآن الكريم على قمة مصادر التشريع في الإسلام ، ثم تأتي السنة النبوية المطهرة عقب القرآن مباشرة لتكون المصدر الثاني من حيث الاعتبار ، لأنها مبينة للقرآن الكريم وموضحة له ، وكلاهما وحي من الله تعالى يجب متابعتهما والعمل بما ورد فيهما .

يقول الشوكاني في كتابه إرشاد الفحول (١٤١٢هـ) : ((وقد اتفق من يعتد به من أهل العلم على أن السنة المطهرة مستقلة بتشريع الأحكام ، وأنها كالقرآن في تحليل الحلال وتحريم الحرام)) ص ٦٨ .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتكلم في قضايا التشريع إلا بما يوحيه إليه ربه ، قال تعالى :﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ سورة النحل آية ٤٤ .

يقول الجمل في الفتوحات الإلهية (د ـ ت) في تفسر هذه الآية :((يعني أنزلنا عليك يا محمد الذكر الذي هو القرآن ـ وإنما سماه ذكرا لأن فيه مواعظ وتنبيها للغافلين ـ لتبين للناس ما نزل إليهم ، يعني ما أجمل إليك من أحكام القرآن، وبيان الكتاب يطلب من السنة ، والمبين لذلك المجمل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم)) ج ٢ ص ٥٧٢ .

إن السنة النبوية المطهرة ترجمة حقيقية لما يرد في القرآن الكريم من توجيهات، إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الخلق امتثالا لأمر ربه ، فكان صلى الله عليه وسلم قرآنا يمشي على الأرض تقرأ في سلوكه وأخلاقه ما أدبه الله به في القرآن من الأوامر والنواهي والتوجيهات والتشريعات ، ولقد سئلت أمنا عائشة رضي الله عنها عن خلقه صلى الله عليه وسلم فأعطت للأمة جوابا شافيا ، في عبارة موجزة بليغة نفيسة ، مشيرة إلى مصدر الأخلاق الذي يبقى للأمة أبد

الدهر إن أرادت أن تسلك أقوم السبل في تهذيب أخلاقها، فقالت رضي الله عنها: ﴿ كان خلقه القرآن ﴾ سبق تخريجه ص ٧٣ .

ولقد أبلغت رضـي الله عنها في الجواب ، فلم تقل كـان يقول كـيت ويفعل كيت ، بل قالت :﴿ كـان خلقه القرآن ﴾ ومعنى ذلك : إقرأ القرآن تجـد أخلاقه ، وابحث في ثنايا الكـتاب تقف علـى سلوكه ، لتـرى الهـدي النبـوي الكريم الذي ترعـاه توجيهـات السمـاء ، ثم إنهـا رضي الله عنها أرادت أن تعطي للناس تـصورا لمادة الخلق الكريم ، الذي يصلح مصدرا للخلق الفاضل ، والسلوك الحميد ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

إن المربين والمعلمين حين يدركون هذه القضية ، يزدادون ثقة لا خدود لها أن بين أيديهم منهجا تربويا عظيما يرقى بالنفس الإنسانية في سلوكياتها وأخلاقها إلى أعلى الدرجـات ، ذلك أن الوحي الذي صنع خلق مـحمـد بن عبـد الله صلى الله عليه وسلم لا يزال غضا طريا بين أيدينا ، يغذي في النفس كـمالها البشري المنشود حين تُخَلَّى من كل شيء سوى الوحي ، ثم تُحَلَّى به .

لقد اخـتار الله سبـحانه محمـدا صلى الله عليه وسلم من بين البـشر جميـعا ليكون ترجمانا للقرآن في أقواله وافعاله وسائر سلوكه وتصرفاته .

يقول الغزالي في كتابه فقه السيرة (١٤٠٢هـ) : ((إن الله اختاره ليتحدث باسـمـه ويبلغ عنه ، فـمن أولى منه بمراد اللـه فيـمـا قـال ؟ ومن أولى منه بتـحـديد المسلك الذي يتواءم مع دلالات القرآن القريبة والبعيدة ؟)) ص٣٤ .

ومن هذا المنطلق ، أمر الله سبحانه بطـاعة رسوله صلى الله عليه وسلم طاعة مطلقة ، من غيـر قيد ولا شرط ، بل لقد قـرن سبحانه طاعة رسـوله صلى الله عليه وسلم بطاعـتـه في مـواضع كثيـرة من كـتـابه الكريم ، تارة بصيغـة الأمـر ، وتارة بالحـديث عن ثواب الطائعين ، وتارة بمدح الطائعين ، وتارة بذكـر أحوال العـاصين

لأمره ، المخالفين لسنته ، المتبعين لغير هديه ، وما ينالهم من العنت والشقاء في الدنيا والآخرة .

ففي صيغة الأمر وردت آيات كثيرة تأمر بطاعته صلى الله عليه وسلم كما في قوله تعالى :﴿ قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ سورة آل عمران ، آية ٣٢ .

وكما في قوله تعالى :﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾ سورة الأنفال ، آية ٢٠ .

وفي ذكر ثواب الطائعين يقول سبحانه :﴿ ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ﴾ سورة النساء ، آية١٣ .

ويقول سبحانه :﴿ ومن يطع الله و رسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ سورة الأحزاب ، آية ٧١ .

ويقول سبحانه :﴿ ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾ سورة النساء ، آية ٦٩ .

وفي مدح الطائعين يقول سبحانه :﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ سورة النساء ، آية ٨٠ .

ويقول سبحانه :﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون﴾ سورة النور ، آية ٥١ .

وفي ذكر أحوال العاصين لأمره المخالفين لسنته يقول سبحانه :﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين ﴾ سورة النساء ، آية ١٤ .

ويقول سبحانه :﴿ ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾ سورة الأحزاب ، آية ٣٦ .

ويقول سبحانه :﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ سورة النور ، آية ٦٣ .

يقول القرطبي في تفسيره (١٣٨٧هـ) في معنى الفتنة التي تصيب المخالفين لأمره : ((هي القتل ، أو الزلازل والأهوال ، أو سلطان جائر يسلط عليهم ، أو الطبع على القلوب بشؤم مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم)) ج١٢ص ٣٢٣.

ويقول الشوكاني في فتح القدير (د ـ ت) : ((والفتنة هنا غير مقيدة بنوع من أنواع الفتن))ج ٤ ص ٥٨ .

ويقول السعدي في تفسيره في تفسير هذه الفتنة (١٤١٤هـ) : ((هي الشرك والشر)) ج ٣ ص ٣٩٤ .

ولعل ما قاله الشوكاني في تفسير هذه الفتنة هو الذي يميل إليه الباحث ، لأنه يشمل ما قاله هو ، وما قاله غيره من المفسرين ، ويشمل غير ذلك من الفتن التي ربما وقعت للفرد في دينه أو نفسه أو ماله أو عرضه ، أو ربما وقعت للمجتمع فيفتن بالكوارث والنكبات ، أو بالحروب والقلاقل ، أو بالأزمات الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية أو الفكرية ، أو غير ذلك مما لم يكن يخطر للناس على بال فإذا توعد الله سبحانه المخالفين لأمره وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالعقوبة وهم ربما خالفوا بعض ما أمر الله به أو أمر به رسوله صلى الله عليه وسلم ، فكيف بمن لم يذعن لأمر الله أو أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالكلية ؟ .

لقد أخبر ربنا سبحانه أن علامة محبته هي طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فيما أمر ، واجتناب ما نهى عنه وزجر ، فقال سبحانه :﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفرلكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ سورة آل عمران ، آية ٣١ .

ونفى سبحانه الإيمان عمن لم يرض بحكم رسوله صلى الله عليه وسلم في أي حادثة تقع ، أو في أي أمر تحتاجه الأمة في أي ميدان من ميادين حياتها ، إذا قامت الحجة في ذلك وبانت المحجة ، يقول سبحانه :﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ سورة النساء ، آية ٦٥ .

فإذا اعتقد أن حكم غير رسول الله خير من حكم رسول الله في هذه القضية وعدل عن حكم رسول الله لهذا الأمر فهو الكفر الصراح الذي يقول الله سبحانه عنه: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ سورة المائدة، آية ٤٤ .

وإذا اعتقد أن حكم رسول الله خير من حكم غيره ، ولكن عدل عنه لشهوة في نفسه ، فهو الظلم والفسوق الذي يقول الله عنه :﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ سورة المائدة ، آية ٤٥ ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فألئك هم الفاسقون ﴾ سورة المائدة ، آية ٤٧ .

إذن فالمخرج من الكفر والظلم والفسوق ، هو التسليم لأمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، تسليما لا يجد الإنسان معه حرجا ولا ضيقا .

يقول الشنقيطي في الأضواء (١٤١٣هـ) حول تفسير الآية التي تدعو إلى النزول عند حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم والتسليم بذلك : ((فقد أقسم تعالى في هذه الآية الكريمة بنفسه الكريمة المقدسة ، أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع الأمور ، ثم ينقاد لما حكم به ظاهرا وباطنا ، وسلَّم تسليما كليا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة)) ج ١ص٢٩٤ .

إذا عُلم هذا فإن لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع القرآن الكريم أحوالا لا بد من معرفتها لطالب العلم ، وإلا طاش السهم ، وضل الفهم ، وانحرفت الأمة على إثر ذلك عن الصراط المستقيم .

إن الأمة لا يمكن أن تفهم كتاب ربها وهي في منأى عن سنة نبيها صلى الله عليه وسلم ، وحين تظن أنها تستطيع ذلك تنحرف إلى هاوية من الضلال ليس لها نهاية ، وفي هذا المعنى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى ذلك الإمام أحمد في مسنده (١٣٩٨هـ) من حديث المقدام بن معد يكرب الكندي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل ينثني شبعانا على أريكته يقول عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه﴾ ج٤ ص ١٣١ .

يقول الشوكاني في إرشاد الفحول (١٤١٢هـ) : ((وقد ذكر الأوزاعي رحمه الله أن الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب)) ص ٦٩ .

والسبب في ذلك واضح جلي فإن كتاب الله سبحانه لا يمكن فهمه والإفادة منه كما يريد ربنا سبحانه إلا بمعرفة السنة التي تبين مجمله ، وتوضح مبهمه ، وربما جاءت في بعض الأحيان بأحكام لم تذكر في القرآن الكريم .

ومن هنا فإن للسنة مع القرآن الكريم أحوالا هي كما يلي :

الحالة الأولى : الموافقة : وذلك بأن يأتي القرآن الكريم بحكم من الأحكام ، وتأتي السنة سواء أكانت سنة قولية أم فعلية موافقة لهذا الحكم الذي جاء به القرآن الكريم ، فيكون هذا من باب توارد الأدلة في مسألة واحدة .

يقول الأشقر في كتابه الواضح في أصول الفقه (١٤١٢هـ) : ((وحكم هذا النوع أنه تطبيق لدلالة القرآن وتأكيد لها ، وهو ما يسمى بيان التقرير)) ص٩٢ .

ومن أمثلة هذا النوع تحذير الرسول صلى الله عليه وسلم من الشرك في قوله صلى الله عليه وسلم كما روى ذلك البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت)

ومسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ اجتنبوا السبع الموبقات، وذكر منها : الشرك بالله﴾ ج ٥ ص ٣٩٣ ، ج٢ص٤٤٤-٤٤٥ .

فقد جاء هذا التحذير موافقا لتحذير القرآن الكريم من هذه الجريمة الشنعاء إذ يقول سبحانه :﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ سورة المائدة ، آية ٧٢ والآيات في هذا المعنى كثيرة .

الحالة الثانية : تفسيره وبيان مجمله : فقد وردت في القرآن الكريم أحكام مجملة ، عامة ، مطلقة ، وجاءت السنة المطهره لتفسر مجمله ، وتخصص عامه ، وتقيد مطلقه .

فمن أمثلة تفسير مجمله أن الأمر بالصلاة جاء في القرآن مجملا في قوله سبحانه :﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ سورة البقرة ، آية٤٣ .

وجاءت السنة فبينت أوقات الصلاة بداية ونهاية ، وبينت أركانها وواجباتها وسننها بل وحتى عدد ركعاتها ، وذلك حين قال صلى الله عليه وسلم لأمته : ﴿ وصلوا كما رأيتموني أصلي ﴾ سبق تخريجه ص ٧٠ .

فقام الصحابة رضي الله عنهم ينقلون عنه صلى الله عليه وسلم ما يرونه ، حتى أنهم رضي الله عنهم نقلوا للأمة دقائق المسائل التي كان يفعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاته .

ومن أمثلة ذلك أن الأمر بأداء الزكاة جاء مجملا في القرآن كما في قوله تعالى : ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ سورة البقرة ، آية ٤٣ .

وجاءت السنة المطهرة ففصلت الأموال التي تجب فيها الزكاة ، وفصلت مقاديرها ووقت إخراجها .

ومن أمثلة ذلك أن الأمر بالحج فقد ورد الأمر به في القرآن مجملا كما في قوله تعالى :﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾ سورة آل عمران ، آية ٩٧ .

وجاءت السنة المطهرة ففصلت هذا الإجمال حين نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم لصحابته في حجة الوداع بقوله كما روى ذلك مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم :﴿ لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه ﴾ ج٩ص٥٠

ومن أمثلة ما ورد في القرآن الكريم من العموميات ، وجاءت السنة تخصص هذا العموم ، قوله تعالى بعد ذكر المحرمات من النساء :﴿ وأحل لكم ما وراء ذلكم ﴾ سورة النساء ، آية ٢٤ .

فإن هذا العموم مخصص بقوله صلى الله عليه وسلم كما روى ذلك البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) ومسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث جابر رذي الله عنه قال :﴿ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها ﴾ البخاري ج ٩ ص ١٦٠ ومسلم ج ٩ ص٢٠١

ومن أمثلة ما ورد في القرآن الكريم مطلقا وجاءت السنة بتقييده قوله تعالى: ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾ سورة المائدة ، آية ٣٨ .

فإن هذا الإطلاق جاء مقيدا في السنة بالقطع من الرسغ لا من المرفق ولا من الكتف .

وفي مثل هذه المعاني ذكر الإبراهيم في كتابه المدخل إلى أصول الفقه (١٤٠٩هـ) فقال : ((إن السنة النبوية تكمل بعض الفرائض التي تثبت بنص

قرآني ، ومن أمثلة ذلك حكم اللعان ، فقد ثبت أصله بالقرآن الكريم ، وجاءت السنة لتزيد على حكم الملاعنة وجوب التفريق بين الزجين بعدها)) ص ٤٥ .

ولعل الإبراهيم يقصد بتكميل السنة للقرآن الكريم بيان بعض الجزئيات التي جاءت في القرآن الكريم مجملة كما سبق .

الحالة الثالثة : نسخ السنة للقرآن ، وإن خالف في ذلك بعض الأئمة كالإمام الشافعي رحمه الله ، إلا أن رأي الجمهور على أن السنة تنسخ القرآن إذ كلاهما وحي من الله تبارك وتعالى .

يقول الزحيلي في كتابه أصول الفقه الإسلامي (١٤٠٦هـ) : ((قرر الجمهور أن السنة قد تأتي ناسخة للقرآن ومثلوا له بحديث ﴿ لا وصية لوارث ﴾ ص٤٦٣ ، وقد بوب البخاري في صحيحه (مع الفتح د - ت) في كتاب الوصايا بقوله : ((باب لا وصية لوارث ، ثم ساق الحديث)) ج ٥ ص ١٢٧

وقد روى الحديث أبو داود في سننه (١٤٠٩هـ) ج ٢ ص ٧٢١ و صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٤٠٩ هـ) ج ٢ ص ٥٥٤ .

فإنه نسخ آية الوصية للوارث وهي قوله تعالى :﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين﴾ سورة البقرة ، آية ١٨٠.

الحالة الرابعة : أن تأتي السنة بحكم سكت عنه القرآن الكريم ، كتحريم لحوم الحمر الأهلية ، وتحريم لبس الذهب للرجال ، وتحريم الجمع بين المرأة وعمتها ، والمرأة وخالتها .

يقول الأشقر في كتابه الواضح في أصول الفقه (١٤١٢هـ) مبينا حاجة القرآن إلى السنة :

((ومن هنا يتبين أمران : الأول : عدم صحة ما ذهبت إليه طائفة من الناس ، سموا أنفسهم بـ (القرآنيين) زعموا أن المرجع الوحيد في الإسلام هو القرآن ، وأن

المسلمين ليسوا بحاجة إلى السنة النبوية ، بدعوى أن جميع ما يطلب معرفته من المسلم موجود في القرآن ، وعملوا تركيبة دينية هي جديدة على الدين ، إذ أنها لا تستمد شيئا من السنة حتى أعداد الركعات ، وتفصيل الزكوات ، ونحو ذلك .

الثاني : أن القرآن إذا كان بيِّنا في تشريع ما ، بحيث لا يكون فيه إجمال أو خفاء فيجوز العمل به دون الرجوع إلى السنة وهذا كثير في القرآن .

ومن أجل ذلك ينبغي على طلبة العلم أن يدرسوا أحكام القرآن ، ويتعودوا استفادة الأحكام منه مباشرة ، والاحتجاج بآياته ، والاحتكام إليه . ويجعلوا السنة بالمكانة التي جعلها الشرع فيها : خادمة تابعة للقرآن ، شارحة له ، وموضحة ومخصصة ، وليست ملغية له ولا مبطلة)) ص ٩٤ .

وليس معنى هذا أن ما ما ورد في السنة من أحكام سكت عنها القرآن لا علاقة لها بالقرآن الكريم ، وليس معنى أن السنة مستقلة بتشريع الأحكام ، أن لا صلة لها بالقرآن الكريم ، بل إن الأحكام التي جاءت بها السنة ، أصولها في القرآن الكريم ، كما قرر ذلك الإمام الشاطبي في الموافقات (د ـ ت) إذ يقول :

((فلا تجد في السنة أمرا إلا والقرآن قد دل على معناه دلالة إجمالية أو تفصيلية ، وأيضا فكل ما دل على أن القرآن هو كلي الشريعة وينبوع لها ، فهو دليل على ذلك ، لأن الله قال :﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ وفسرت عائشة ذلك بأن خلقه القرآن ، واقتصرت في خلقه على ذلك فدل على أن قوله وفعله وإقراره راجع إلى القرآن ، لأن الخلق محصور في هذه الأشياء ، ولأن الله جعل القرآن تبيانا لكل شيء ، فيلزم من ذلك أن تكون السنة حاصلة فيه في الجملة ، لأن الأمر والنهي أول ما في الكتاب ، ومثله قوله تعالى :((ما فرطنا في الكتاب من شيء)) ج ٤ ص ١٢ ـ ١٣ والآية في سورة الأنعام برقم ٣٨ .

التربية الوقائية في السنة النبويـــة :

بعد أن عرض الباحث منزلة السنة النبوية من القرآن الكريم وأنها موافقة له ، أو مفسرة لمجمله ، أو مثبتة لحكم ليس فيه ، يتضح جليا أنها تحمل من التدابير الوقائية شيئا كثيرا .

فلقد حملت السنة النبوية المطهرة منهجا وقائيا كبيرا واسع المساحة ، فما تكاد ترى جانبا من جوانب الحياة ، إلا وضعت السنة للأفراد أو المجتمعات فيه من التدابير الوقائية ما يصونهم عن الزلل ، ويحفظهم من الخطل .

يقول يكن في كتابه التربية الوقائية في الإسلام (١٤١٢هـ) : ((والمتتبع لخطوات النبوة عبر السيرة والسنة ، يجدها ذاخرة بالتدابير الوقائية على كل صعيد مما يؤكد أن عملية التربية في الإسلام تهدف إلى قطع الطريق على العلة قبل حدوثها ، وتقي الأفراد والمجتمع منها قبل وقوعها ، وبذلك تبقى البيئة الإسلامية معافاة من الأمراض والعلل والمشكلات والآفات التي تفتك بسائر البيئات الأخرى)) ص ٤٣ .

ذلك أن الآفات والعلل إذا انتشرت ، استحال علاجها أو قلَّت جدواه ، أو على أقل تقدير ربما كلف من الجهد والوقت والمال شيئا كبيرا .

وحين نتتبع ما ورد في سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم من التدابير الوقائية التي تقطع الطريق على الخطأ قبل وقوعه ، وعلى العلة قبل حدوثها ، نجد في ثناياها ما لا يمكن حصره ، للفرد والأسرة والمجتمع ، تارة بالتأسيس وتارة بالوقاية ، ومن ذلك على سبيل المثال :

أمثلة التربية الوقائية للفرد في السنة النبويـــة :

ففي وقايــة العقـيدة من الانحراف روى البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) ومسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ﴾ ج ١ ص ٥٣٢، ج ٥ ص ١٥ .

وروى مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عِليه وسلم :﴿ لعن الله من ذبح لغير الله ﴾ ج ١٣ ص ١٥٠ .

كما بوَّب البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) بقوله : ((لا يقول ماشاء الله وشئت)) ج ١١ ص ٥٣٩

وفي وقايــة الخُلُق من الانحراف روى البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) ومسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث حارثة بن وهب الخزاعي رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله صلى الله عليه وسلم يقول :﴿ ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبرَّه ، ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر ﴾ ج٨ ص ٢٦٢ ، ج ١٧ ص ١٣٩.

ورى مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ... الحديث ﴾ ج ٢ ص ٤٤٩ - ٤٥٠ .

وفي وقاية العقل من الانحراف نزل تحريم الخمر وما في حكمها في عشرات المواضع من الكتاب والسنة، ومما ورد في السنة مارواه الترمذي في سننه (د – ت) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ﴿ لعن رسول الله صلى الله عليه

وسلم في الخمر عشرة عاصرها ومعتصرها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه وساقيها وبائعها وآكل ثمنها والمشتري لها والمشتراة له ﴾ ج ٣ ص ٥٨٩ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ج ٢ ص ٢٧ .

وما رواه النسائي في سننه (١٤٠٧هـ) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر ﴾ ج ٨ ص ٣١٨ ، والحديث صححه الألباني في صحيح النسائي (١٤٠٩هـ) ج ٣ ص ١١٤ .

وفي وقاية الفكر من الانحراف أمر صلى الله عليه وسلم بتوحيد مصدر التلقي ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده (١٣٨٩هـ) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : إن عمر بن الخطاب أتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه النبي صلى الله عليه وسلم فغضب ، فقال : أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب !! والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيئ فيخبروكم بحق فتكذبوا به ، أو بباطل فتصدقوا به ، والذي نفسي بيده لو أن موسى صلى الله عليه وسلم حيا ما وسعه إلا أن يتبعني ﴾ ج٣ص٣٨٧ .

وفي وقاية الجسد من الأمراض والعلل ندب صلى الله عليه وسلم إلى التخفيف من الطعام والشراب فقال كما روى ذلك الترمذي في سننه (د - ت) من حديث مقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :﴿ ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محاله فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه ﴾ ج ٤ ص ٥٠٩ - ٥١٠ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٤٠٨هـ) ج ٢ ص ١٨٢

كما أن في إيجاب السنة للطهارة والغسل ، وندبها إلى ممارسة أنواع من الرياضة البدنية وقاية للجسد من الأمراض والأسقام ، بالإضافة إلى ما فيها من إعداد القوة التي أمر الله بها في قوله جل جلاله :﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ... الآية ﴾ سورة الأنفال آية ٦٠ .

إن الإسلام يبني تربيته لأتباعه في كل جانب من حوانب الحياة على الوقاية من الشر قبل نزوله ودفعه قبل وقوعه ، قولا وعملا .

وإن من اهتمام الإسلام بالصحة الخاصة للفرد والعامة للمجتمع النهي عن دخول السليم على المريض مرضا معديا وقاية من انتشار المرض ، فقد روى البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) ومسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لا يوردن ممرض على مصح ﴾ البخاري ١٠ص ٢٤١ومسلم ج ١٤ص ٤٦٦ .

وفي قصة طاعون عمواس ما يؤكد اهتمام الإسلام بجانب الوقاية حفاظا على المصلحة العامة للمجتمع ، فقد روى البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) ومنسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال : ((إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرع ، لقيه أمراء الأجناد ـ أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ـ فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام ، قال ابن عباس : فقال عمر : ادع لي المهاجرين الأولين ، فدعاهم فاستشارهم ، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بأرض الشام ، فاختلفوا ، فقال بعضهم : قد خرجنا لأمر ، ولا نرى أن ترجع عنه ، وقال بعضهم : مع بقية الناس وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء ، فقال : ارتفعوا عني ، ثم قال : ادع لي من كان هاهنا من مشيخة قريش من

مهاجرة الفتح ، فدعوتهم فلم يختلف عليه منهم رجلان ، فقالوا : نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء ، فنادى عمر في الناس : إني مُصَبِّحٌ على ظهر، فأصبحوا عليه ، فقال أبو عبيدة بن الجراح : أفرارا من قدر الله ؟ فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ! نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت إن كانت لك إبلا هبطت واديا له عدوتان : إحداهما خصبة والأخرى جدبة ، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ؟ وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟ قال : فجاء عبد الرحمن بن عوف ـ وكان متغيبا في بعض حاجته ـ فقال : إن عندي في هذا علما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :﴿ إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ، قال فحمد الله عمر ثم انصرف﴾ البخاري ج ١٠ ص ١٧٩ ومسلم ج ١٤ ص ٤٦٠ ـ ٤٦٢ .

وهذا عين ما تسلكه الدول الكبرى المتقدمه في ميدان الطب ، وهو مايطلقون عليه بالمصطلح الطبي [الحجر الصحي] .

يقول عمر في كتابه أمراض الجراثيم بين الوقاية والعلاج (١٤٠٦هـ) : ((ومن ذلك يتبين هدي الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في إرشادنا لاتقاء شر الأمراض والوقاية منها والحمية ضدها ، ويبرز لنا هذا الأساس الأول الذي عرفه العالم في عزل الشخص المريض عن السليم ، تجنبا لانتشار المرض ، وهذا ما يقوم به الأطباء اليوم في كل أنحاء المعمورة لعزل كل المرضى بأمراض معدية في أماكن منفصلة ، حرصا منهم لحصر الداء في نطاق محدود)) ص ١٤ .

أمثلة التربية الوقائية للأسرة في السنة النبوية :

روى مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث جابر رضي الله عنه قال : ﴿ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أطال الرجل الغيبة أن يأتي أهله طروقا ﴾ ج ١٣ص ٧٦ .

وقد عللت إحدى الروايات في صحيح مسلم (شرح النووي د ـ ت) النهي عن ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم :﴿ لئلا يتخونهم ويتلمس عثراتهم ﴾ ج ٣١ ص ٧٧ .

وروى مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها﴾ ج ٩ ص ٢٥٩ .

وروى كما روى ذلك البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) من حيث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لاتباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها ﴾ ج ٩ ص ٣٣٨ .

وروى البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) ومسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ إياكم والدخول على النساء ، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله : أفرأيت الحمو ؟ قال : الحمو الموت﴾ البخاري ج ٩ ص ٣٣٠ ومسلم ج ١٤ ص ٤٠٣ .

وفيما يخص تربية الأولاد روى أبو دواود في سننه (١٤٠٩هـ) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر

وفرقوا بينهم في المضاجع﴾ ج ١ ص ١٨٧ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٤٠٩هـ) ج ١ ص٩٧ .

وفي الفصل الخامس من هذه الدراسة سوف يتتبع الباحث المنهج الوقائي لبناء الأسرة المسلمة في الكتاب والسنة والذي يبدأ منذ أن يكون الزواج فكرة في ذهن الزوجين ، على أن يستمر هذا المنهج يلاحق الأسرة بالتربية الوقائية مابقيت الأسرة على قيد الحياة .

أمثلة التربية الوقائية للمجتمع في السنة النبوية :

في وقاية المجتمع من الهلاك أقام النبي صلى الله عليه وسلم الحد على المخزومية التي سرقت وغضب غضبا شديدا حين شفع فيها أسامة بن زيد ، فقد روى ذلك البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) ومسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : إن قريشا أهمتهم المرأة المخزومية التي سرقت ، فقالوا من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن يجترىء عليه إلا أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم :﴿ أتشفع في حد من حدود الله ، ثم قام فخطب فقال : يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم إنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها ﴾ البخاري ج ١٢ ص ٨٧ ومسلم ج ١١ ص ١٩٩ .

في وقاية المجتمع من انتشار العصبيات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى ذلك البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر حين عير بلالا :﴿ يا أبا ذر أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية ﴾ ج ١ ص ٨٤ .

وروى مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه ﴾ ج ١٢ص ٤٨٤ .

وفي وقايته من الغش والاحتيال روى مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ من غشنا فليس منا ﴾ ج ٢ ص٤٦٨ .

على أن السنة النبوية المطهرة قد تجاوزت التحذير من المحرمات الصريحة إلى ما يشك فيه مما يتردد بين الحلال والحرام ، فقد روى البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) ومسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) : عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات كراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب ﴾ ج ١ ص ١٢٦ ، ج ١١ ص ٣٠ .

وفي رواية أخرى ذكرها البخاري (د ـ ت) : عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهة ، فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك ، ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان ، والمعاصي حمى الله ، من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه ﴾ ج٣ص٠٧

وفي سنن أبي داود (١٤٠٩هـ) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :﴿ إن الحلال بين ، وإن الحرام

بين ، وبينهما أمور مشتبهات أو مشتبهة وسأضرب لكم في ذلك مثلا : إن لله حمى وإن حمى الله ما حرم ، وإنه من يرع حول الحمى يوشك أن يخالطه ، وإن من يخالط الريبة يوشك أن يجسر ﴾ ج ٢ ص ٢٦٣، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٤٠٩هـ) ج ٢ ص ٦٤٠ - ٦٤١ .

وقد ذكر البخاري في صحيحه (د - ت) كلام حسان بن أبي سنان عن المشتبهات بقوله : ((ما رأيت أهون من الورع ، دع ما يريبك إلى ملا يريبك)) ج ٣ ص ٧٠ .

يقول ابن حجر رحمه الله في الفتح (د - ت) :

((وحاصل مافسر به العلماء الشبهات أربعة أشياء: أحدها : تعارض الأدلة ، ثانيها : اختلاف العلماء وهي منتزعة من الأولى ، ثالثها : أن المراد بها مسمى المكروه لأنه يجتذبه جانبا الفعل والترك ، رابعها : أن المراد بها المباح ، ولا يمكن قائل هذا أن يحمله على متساوي الطرفين من كل وجه ، بل يمكن حمله على مايكون من قسم خلاف الأولى ... ونقل ابن المنير في مناقب شيخه القباري عنه أنه كان يقول : المكروه عقبة بين العبد والحرام ، فمن استكثر من المكروه تطرق إلى الحرام ، والمباح عقبة بينه وبين المكروه ، فمن استكثر منه تطرق إلى المكروه . قال ابن حجر وهذا منزع حسن ... ثم قال : ولا يخفى أن المستكثر من المكروه تصير فيه جرأة على ارتكاب المنهي في الجملة ، أو يحمله اعتياده ارتكاب المنهي غير المحرم على ارتكاب المنهي المحرم إذا كان من جنسه ، أو يكون ذلك لشبهة فيه وهو أن من تعاطى ما نهى عنه يصير مظلم القلب لفقدان نور الورع فيقع في الحرام ولو لم يختر الوقوع فيه)) ج ١ ص ١٢٧ - ١٢٨ .

فأي صيانة للأفراد والمجتمعات أعظم من ترك مالابأس به مخافة ما به بأس؟ .

وهل يمكن أن يواقع الإنسان ما حرمه الله عليه وهو يتورع من الوقوع في الشبهات ؟ .

إن الحديث قد بين أن هناك أشياء واضحة الحرمة في شريعة الله سبحانه لا يشك في تحريمها عاقل ، وأخر واضحة الحلّ لا يشك عاقل في أنها مما أحله الله لعباده ، فالحرام ترفضه الفطر السوية ، ولا تقبله العقول السليمة ، والحلال على العكس من ذلك ، ولكن تبقى الأمور التي تردد بين الحل والحرمه ، فالشبهة عليها تحوم ، وحولها تدور ، فإذا تربت النفوس على البعد عن هذه المشبهات ، كانت عن المحرمات أبعد ، وأما إذا تخطت حاجز الشبهات ، فهي من الحرام قاب قوسين أو أدنى ، ذلك أن الذي يخالط الريبة يوشك أن يجسر ، ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يقع فيما استبان ٠

ومن أمثلة ذلك أيضا ما رواه الإمام أحمد (١٣٨٩هـ) رحمه الله في مسنده : عن الحسن بن علي سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم وريحانته رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ﴾ ج ١ ص ١٦٨ ورواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ٠

يقول ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١٤١٢هـ) : ((ومعنى هذا الحديث يرجع إلى الوقوف عند الشبهات واتقائها ، فإن الحلال المحض لا يحصل للمؤمن في قلبه منه ريب ـ والريب : بمعنى القلق والاضطراب ـ بل تسكن إليه النفس ، ويطمئن به القلب ، وأما المشتبهات فيحصل بها للقلوب القلق والاضطراب الموجب للشك)) ص ٢٨٠ .

إن ما ورد في السنة من التدابير الوقائية أشهر من أن يذكر ، وأكثر من أن يحصر ، فما من ميدان من ميادين الحياة على الإطلاق إلا وللسنة معه منهج وقائي عظيم ، يحول بين الفرد وبين الانزلاق في حمأة الآثام والمخالفات التي تجني عليه المتاعب والويلات في الدنيا قبل الآخرة ٠

إن السنة النبوية المطهرة قد وضعت التدابير الوقائية التي تخص الفرد في جوانب حياته المختلفة ، في جانب العقيدة ، وفي العبادة ، وفي الأخلاق ، وفي

السلوك ، وفي المعاملات ، وكذلك المجتمع في جوانب حياته المختلفة ، السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والتربوية ، والتعليمية ، والإعلامية ، وباختصار في كل جانب من جوانب الحياة على الإطلاق .

وسوف يقوم الباحث بتصنيف بعض ما ورد في السنة النبوية المطهرة من التدابير الوقائية فيما يخص الأسرة والمجتمع وسيكون ذلك في الفصل الخامس من هذه الرسالة إن شاء الله .

ثالثا : هدي السلف الصالح : رضوان الله عليهم أجمعين :

يحسن بالباحث قبل أن يتحدث عن هدي السلف واستنباط ما يخص جانب التربية الوقائية من هذا الهدي المبارك ، أن يعطي تصورا عن المراد بالسلف الصالح ، ثم يعقبه بالحديث عن هديهم وماذا يراد به ، ثم يعرض لمقامهم الرفيع ومنزلتهم العظيمة التي توجهم بها الإسلام ، ليتبين كيف يكون هديهم مصدرا من مصادر التربية الوقائية .

المراد بالسلف :

ذكر الجوهري في الصحاح (١٤٠٤هـ) في مادة سلف قوله : ((سَلَفَ يَسْلُفُ سَلَفاً ، مثال طَلَبَ يَطْلُبُ طَلَباً : أي مضى . والقوم السُلَّاف : المتقدمون ، وسَلَفُ الرجل : آباؤه المتقدمون ، والجمع أسلَافٌ وسُلَّافٌ . والتسليف أيضا : التقديم . والسالفة : ناحية مقدمة العنق من لدن معلق القرط إلى قَلْتِ الترقوة . والسالف والسليف : المتقدم والسلوف : الناقة تكون في أوائل الإبل . وسُلَافَةُ كل شيء عَصَرَتَه : أوله)) ج ٤ ص ١٣٧٦ .

وقال ابن منظور في لسان العرب (١٤١٢هـ) :

((والسَّلَفُ والسَّلِيفُ والسُّلْفَةُ : الجماعة المتقدمون ، وقوله تعالى : ﴿ فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين ﴾ أي جعلناهم سلفا متقدمين ليتعظ بهم الآخرون .

قال الزجاج : سُلُفا جمع سليف : أي جمعا قد مضى ، ومن قرأ سُلَفا فهو جمع سُلْفة أي عصبة قد مضت .

والسَّلَف : من تقدمك من آبائك وذوي قرابتك الذين هم فوقك في السن والفضل ، واحدهم سالف ، ومنه قول طفيل الغنوي يرثي قومه :

مضوا سلفا قصد السبيل عليهم وصرف المنايا بالرجال تقلب

وقيل : سلف الإنسان من تقدمه بالموت من آبائه وذوي قرابته ، ولهذا سمي الصدر الأول من التابعين السلف الصالح ، ومنه حديث مذحج : نحن عباب سلفها : أي معظمها وهم الماضون منها . والسالفة أعلى العنق . وقيل السُّلاَّف والسُّلاَفة من كل شيء : خالصه)) ج ٩ ص ١٥٨ - ١٥٩ .

والسؤال الذي يطرح نفسه : ماذا يعني الباحث بالسلف الذين يمكن أن يُجعل هديهم مصدرا من مصادر التربية الوقائية؟

هناك اختلاف للعلماء في المراد بالسلف ، وقد كان هذا الاختلاف بينهم لاعتبارات متعددة منها اللفظ والتاريخ والمعتقد ، وقد جمع السيلي في كتابه العقيدة السلفية (١٤١٣هـ) هذه الاختلافات فنقل ما خلاصته : الذين اعتبروا الناحية اللفظية قالوا هم المتقدمون الماضون من الآباء وذوي الفضل ، والذين اعتبروا الفترة الزمنية التاريخية قالوا هم الذين عاشوا قبل القرن الخامس الهجري ، والذين اعتبروا الناحية العقدية قالوا : هم الصحابة والتابعون وتابعوهم والعلماء العاملون بالسنة وطرائقها قولا وعملا واعتقادا ظاهرا وباطنا . ص ٢٥ - ٢٧ .

أما أبو زهرة في تاريخ المذاهب (د - ت) فقال في تعريف السلف ماخلاصته : هم الذين ظهروا في القرن الرابع الهجري ، وتنتهي آراؤهم إلى احمد بن حنبل الذي أحيا عقيدة السلف ، ثم تجدد ظهورهم في القرن السابع على يد

شيخ الإسلام ابن تيمية ، ثم انتهى ظهورهم إلى القرن الثاني عشر على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية ٠ ص٢١١ .

على أن البعض يرى عدم اقتصار إطلاق مصطلح السلف من الناحية اللغوية أو التاريخية أو على طائفة دون أخرى من أهل الإسلام ، ويرى أن هذا المصطلح لا بد أن يكون عاما يدخل فيه كل من تمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقد ذكر السيلي في كتابه العقيدة السلفية (١٤١٣هـ) ذلك وقال : ((السلف هم الرعيل الأول من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان ممن هم بكتاب الله عاملون ، وبسنة رسوله متمسكون ، وبتحصيل الأحاديث وتمييز صحيحها من ضعيفها يعتنون ، وما ثبت من النصوص فهم عنه لا يعدلون ، وهم له مطبقون ، مع الفهم للمعنى والتفويض في الكيف)) ص ٣٢ .

أما مراد الباحث من السلف : فهم الصحابة والتابعون وتابعو التابعين ، وهم أهل القرون المفضلة الذين عناهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :﴿ خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ﴾ البخاري ، د ـ ت ، ج ٥ ص ٣ .

ولعل نظرة فيما سبق عرضه في مادة سلف ، يتبين أن هذه الكلمة تحمل جملة من المعاني منها : مقدمة الشيء ، وأعلاه ، وخالصه ٠

وهذه المعاني اللغوية الثلاثة ، يمكن أن تطلق على السلف الذين هم أهل القرون المفضلة، فهم المتقدمون من هذه الأمة، السابقون إليالإسلام والإيمان والخير ، وهم أعلى الناس منزلة بعد الأنبياء والمرسلين ، وهم لب الأمة وخلاصتها ٠

المراد بهدي السلف :

ذكر ابن منظور (١٤١٢هـ) في مادة هدي قوله :

((فلان يهدي فلانا : يفعل مثل فعله ويسير سيرته • وفي الحديث : ﴿ واهدوا بهدي عمار ﴾ أي سيروا بسيرته وتهيأوا بهيأته • وما أحسن هديه أي هيأته وسكونه • وفلان حسن الهدي والهدية : أي الطريقة والسيرة • وما أحسن هِدْيَتَه وهَدْيَه أيضا ، بالفتح أي سيرته ، والجمع هَدْيٌ • وما أشبه هديه بهدي فلان: أي سمته • أبو عدنان : فلان حسن الهدي وهو حُسْنُ المذهب في أموره كلها ، وقال ريادة بن زيد العدوي :

ويخبرني عن غائب المرء هَدْيُه كفي الهَدْي عما غيَّب المرء مخبرا))

ج ١٥ ص٣٥٦

وذكر الجوهري (١٤٠٤ هـ) قوله : ((يقال ما أحسن هِدْيَتَه وهَدْيَتَه أي سيرته• ويقال هَدَى هَدْي فلان أي سارسيرته ، وفي الحديث : واهدوا هدي عمار)) (ج ٦ ص ٢٥٣٤) .

ومن خلال ما مضى فإن المراد من هدي السلف ، هي تلك الأقوال والأفعال والأخلاق والسير التي كان عليها أهل القرون المفضلة ، والتي اقتبسوا معالمها من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم •

منزلة السلف الصالح في الإسلام :

لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين صفوة الناس ، وخيرة الخلق ، بعد الأنبياء والمرسلين ، اختارهم رب العالمين لصحبة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فنصر الله بهم دينه ، وأعلى بهم سنة نبيه صلى الله عليه وسلم •

يقول المروزي في كتابه السنة (١٤٠٨هـ) عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم :((فهم حجة الله على خلقه بعد رسوله صلى الله عليه وسلم يؤدون عن الرسول صلى الله عليه وسلم ما أدى إليهم لأنه بذلك أمرهم فقال : ﴿ليبلغ الشاهد منكم الغائب﴾فمضوا على منهاج نبيهم حكم القرآن وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم)) ص ١٥ .

ثناء القرآن الكريم عليهم :

ولهذا أثنى رب العالمين سبحانه عليهم في مواضع كثيرة من كتابه تارة بمجموعهم وتارة بذكر بعضهم ، فمما قال سبحانه في الثناء عليهم بمجموعهم : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ سورة الفتح آية ٢٩ .

وقال سبحانه عنهم :﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ﴾ سورة التوبة آية ١٠٠ .

وقال سبحانه عنهم :﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾ سورة الأحزاب آية ٢٣ والآيات في هذا المعنى كثيرة .

وأما ما ذكر سبحانه عن بعضهم فكقوله تعالى :﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون﴾ سورة الزمر آية ٣٣ .

ذكر ابن جرير في تفسيره (د ـ ت) : ((أن عليا رضي الله عنه قال في الذي جاء بالصدق محمد الله صلى الله عليه وسلم ، والذي صدق به قال أبو بكر رضي الله عنه)) ج ٢٤ ص ٣ .

وذكر هذا المعنى أيضا القرطبي في تفسيره (١٣٨٧هـ) ثم قال : ((إن ذلك عام في كل من دعا إلى توحيد الله عز وجل)) ج ١٥ ص ٢٥٦ واختاره ابن جرير رحمه الله .

ومن ذلك قول الله تعالى في حق بعض الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه . . . الآية ﴾ سورة الزمر آية ٩ .

قال القرطبي في تفسيره (١٣٨٧هـ) :((واختلف في تعيين القانت هاهنا فذكر يحي بن سلام أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال ابن عباس في رواية الضحاك عنه : هو أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وقال ابن عمر هو عثمان رضي الله عنه ، وقال ومقاتل إنه عمار بن ياسر ، وقال الكلبي : إنه صهيب وأبو ذر وابن مسعود ، وعن الكلبي أيضا أنه مرسل في كل من كان على هذه الحال)) ج ١٥ ص ٢٣٩ .

ومن ذلك قول الله تعالى في حق صهيب الرومي رضي الله عنه :﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد ﴾ سورة البقرة آية ٢٠٧ .

فقد ذكر ابن كثير في تفسيره بتحقيق الوادعي (١٤١٤هـ) قوله :((قال ابن عباس : وأنس وسعيد بن المسيب وأبو عثمان النهدي وعكرمة وجماعة : نزلت في صهيب بن سنان الرومي ، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله ، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل ، فتخلص منهم وأعطاهم ماله ،

فأنزل الله فيه هذه الآية ، فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة فقالوا له: ربح البيع ، فقال : وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم ، وما ذاك ، فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية ، ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له :﴿ ربح البيع صهيب ﴾ ج ١ ص ٤٥٥ - ٤٥٦ .

ثناء رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم :

وأما ثناء رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه الثلة المباركة فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه (مع الفتح د - ت) ومسلم في صحيحه (شرح النووي د - ت) من حديث عبدالله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته ﴾ ج ٥ ص ٢٥٩، ج ١٦ ص ٣١٩ .

وروى البخاري في صحيحه (مع الفتح د - ت) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ لا تسبوا أحدا من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مدَّ أحدهم ولا نصيفه ﴾ ج ٧ ص ٢١، وفي رواية مسلم (شرح النووي د - ت) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ لا تسبوا أصحابي ، لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيبه ﴾ ج١٦ص ٣٢٦ .

ومن ذلك ما رواه الترمذي في سننه (د - ت) عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأنصار :﴿ لا يحبهم إلا مؤمن ، ولا يبغضهم إلا منافق ، فمن أحبهم فأحبه الله ، ومن أبغضهم فأبغضه الله ﴾ ج ٥ ص ٦٦٩ والحديث صححه اللباني في صحيح سنن الترمزي (١٤٠٨هـ) : ج ٣ ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

وروى البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) ومسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) عن أنس رضي الله عنه قال : مر أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من الأنصار ، وهم يبكون ، فقال ما يبكيكم ؟ قالوا ذكرنا مجلس النبي صلى الله عليه وسلم منا ، فدخل على النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك ، قال : فخرج النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد عصب على رأسه حاشية برد ، قال : فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك اليوم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :﴿ الأنصار كرشي وعيبتي والناس سيكثرون ويقلون ، فاقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم ﴾ البخاري ج ٧ ص١٢١ ومسلم ج ١٥ ص٣٠١ .

وروى الترمذي في سننه (د – ت): عن محمد بن سعد عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ من يرد هوان قريش أهانه الله ﴾ ج ٥ ص٦٧١ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٤٠٨هـ) ج٣ ص ٢٤٧ .

هؤلاء هم الصحابة الأبرار ، والسلف الأخيار ، يذكرون في القرآن الكريم في عشرات المواضع ، ويتردد ذكرهم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سياق المدح والوصاية بهم أحياء وأمواتا ، فأي منزلة أسنى من هذه المنزلة ، وأي رفعة أغلى من هذه الرفعة ؟

إنها عناية الله سبحانه بهذه الطائفة المباركة ، وهذه الثلة المؤمنه ، التي ضحت بكل غال ونفيس ، وآثرت الآخرة على الأولى فكان لها ما أرادت ، وفي مثل هذه الهمم التي تخور أمامها الصم الصلاب ، يقول القائل :

أعطوا ضريبتهم للدين من دمهم   والناس تزعم نصر الدين مجانا

ذكر البغوي في شرح السنة (١٤٠٣هـ)قوله :كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول : ((إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد

فاصطفاه لنفسه ، فابتعثه برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد بعد محمد فوجد قلوب أصحابه خير القلوب ، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون عن دينه ، فما رأى المسلمون حسنا فهو عند الله حسن وما رأوا سيئا فهو عند الله سيء)) ص ٢١٤ - ٢١٥ .

وقد روى الإمام أحمد في مسنده (١٣٨٩هـ) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامي فيكم فقال : ﴿ استوصوا بأصحابي خيرا ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ... الحديث ﴾ ج ١ ص ١٨، والحديث قال عنه الذهبي في السير :(١٤٠٥هـ) ((أخرجه أحمد والطيالسي والترمذي وابن ماجة وسنده قوي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي)) ج ٧ ص ١٠٢ .

يقول خالد في كتابه رجال حول الرسول (١٤٠٦هـ) : ((ألا إن التاريخ لم يشهد رجالا عقدوا عزمهم ونواياهم على غاية تناهت في العدالة والسمو ، ثم نذروا لها حياتهم على نسق تناهى في الجسارة والتضحية والبذل كما شهد في أولئك الرجال حول الرسول صلى الله عليه وسلم)) ص ١٠ .

ثم يلي الصحابة في الخيرية التابعون ثم تابعوهم الذين توّجهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهادة نبوية ، تخترق حجب الزمن ، وتتجاوز أقطار الدنيا، لتعلن في البشرية جمعاء خيرية هذه الطائفة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى ، فقد روى البخاري رحمه الله في صحيحه (د ت) :عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ﴾ سبق تخريجه ص ٩٠ .

هؤلاء هم السلف أبر الناس ، وأكرم الخلق ، كرمهم رب العالمين فجعلهم أقرب الناس من مشكاة النبوة ، فنهلوا من معين الوحي عذبا زلالا ، لم تلوث صفاءه جاهلية وثنية ، ولا بدعة محدثة ، فكانوا على الحنيفية السمحة ، يعيشون

حياتهم على مثل البيضاء ، ليلها ونهارها سواء ، يعبدون الله على بصيرة ، ويُعَبِّدون الناس له على بصيرة ، منهاجهم قول الحق جل ذكره :﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ سورة يوسف آية ١٠٨ .

فهم أهل البصيرة في العقيدة ، والعبادة ، والخلق ، والمعاملة ، والفكر ، والتصور ، والشعور ، والجمال . وبعبارة موجزة : إنهم أهل البصيرة في كل شيء، وليس معنى هذا أنهم معصومون من الخطأ ، فكل يؤخذ من كلامه ويرد إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى .

إذا عُلم هذا فإن زرع محبة السلف الصالح رضوان الله عليهم في نفوس أبناء المسلمين ، واجب شرعي ، وعلى المدرسة في هذا الجانب مهمة عظيمة ، وعلى المربي في ذلك مسؤولية كبيرة ، فالمناهج تملأ بالموضوعات التي تتحدث عن السلف وما كانوا عليه من كرائم الأخلاق والأفعال والبطولات ، والمعلم الناجح يبتكر الطرائق والأساليب التي تحبذ الناشئة في هذا الهدي المبارك ، ليرسخ في أذهانهم أن النجومية إذا أطلقت فإنما تحمل على أولئك الأخيار ، وأن البطولات حين تذكر إنما تنصرف إلى أولئك الأبرار ، وحين تقصر الهمم عن ذلك يبقى ذكر السلف رضوان الله عليهم مجرد مساحات فارغة تملأ بها الصفحات ، وعبارات براقة تتشدق بها الألسنة ، والناشئة تتلقى هذه المعلومات على أنها كلمات جوفاء تحشى بها الأذهان ، ثم تفرغ في أوراق الامتحان ، لتبقى العقول فارغة من الخير ، والقلوب مقفرة من الرشاد ، فتصاب الأمة في ناشئتها التي هي أغلى ما تملك .

ومن خلال ما سبق عرضه عن هدي السلف ، ومن خلال ما وصفهم الله به في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، يتضح الأمر بجلاء أن هديهم رضوان الله عليهم مصدر من مصادر التربية الوقائية في الإسلام ، ما دامت تهيمن عليه وتظلله توجيهات وحي الله المقدس .

التربية الوقائية في هدي السلف رضوان الله عليهم :

سوف يعرض الباحث لبعض هديهم في بعض جوانب حياتهم ، ذلك الهدي المبارك الذي لا يخلو أن يكون تأويلا لآية ، أو استنباطا من حديث ، أو يندرج تحت أصل عام من أصول الأسلام ، تُحقق به مصلحة، أو تُدفع به مفسدة، وفق مقاصد الشرع المطهر .

لقد كانوا رضي الله عنهم من أكثر الناس حيطة في دينهم ، وكانوا أعظم الناس اتقاء للشرور ، فكانوا يضعون بينهم وبين الحرام والمخالفة دروعا من الوقاية ، قد تصل في بعض الأحيان إلى ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس ، وكان بعضهم يسأل عن الشر مخافة أن يقع فيه ، فهذا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه الصحابي الجليل يكثر من الأسئلة في جانب الشر ، على قاعدة :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الخير يقع فيه

فقد روى البخاري في صحيحه في كتاب الفتن (د ـ ت) : عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني ، فقلت يا رسول الله : ﴿ إنا كنا في جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم ، قلت : وهل بعد هذا الشر من خير ؟ قال : نعم وفيه دخن ، قلت وما دخنه ؟ قال : قوم يهدون بغير هديي ، تعرف منهم وتنكر ، قلت : فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم ، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها ، قلت : يا رسول الله صفهم لنا ، فقال : هم من جلدتنا ويتكلمون بألستنا ، قلت : فماذا تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم ، قلت ، فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك﴾ ج ٩ ص ٦٥ .

لقد كانوا رضوان الله عليهم يربون أنفسهم ، ويربون الناس من حولهم على مبدأ الوقاية من الخطأ ، والحذر من الزلل ، حتى غدت كلماتهم ومواقفهم في هذا الجانب زادا تحيا به النفوس ، ونورا تسير على بريق لمعانه القلوب ، وستبقى هذه الكلمات والمواقف في ضمير الأمة حيَّة ، ما بقي الليل والنهار .

ومع ذلك فهم بشر يصيبون ويخطئون ، ويطيعون ويذنبون ، ولكن الذي يميزهم عن غيرهم أنهم حين يقعون في المعصية يبادرون بالتوبة النصوح ، وليس على ذلك دليلا أروع من قصة الغامدية التي وقعت في الزنا ثم جاءت تائبة منيبة ، فقد روى مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث بريدة رضي الله عنه قال : جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة من غامد من الأزد فقالت يا رسول الله طهرني ، فقال : ويحك ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه ، فقالت : أراك تريد أن تردني كما رددت ماعز بن مالك ، قال : وما ذاك ؟ قالت : إنها حبلى من الزنا ، فقال أنت ؟ قالت : نعم ، فقال لها : حتى تضعي ما في بطنك ، قال : فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت ، قال : فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : قد وضعت الغامدية ، فقال : إذن لا نرجمها وندع ولدها صغيرا ليس له من يرضعه ، فقام رجل من الأنصار فقال : إلي رضاعه يا نبي الله ، قال فرجمها﴾ وفي رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ﴾ وفي رواية ﴿ لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ﴾ ج١١ص ٢١٤ ـ ٢١٦ .

وإذا كان هذا هو حال من تزل به القدم منهم ، فما حال غيره من السابقين الذين قال الله عنهم :﴿ والسابقون السابقون * أولئك المقربون * في جنات النعيم *ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ﴾ سورة الواقعة آية ١٠ ـ ١٤ .

لقد كانوا يضعون بينهم وبين الخطأ أسوارا من الوقاية ، ويربون من تحت أيديهم على الوقاية من الخطأ مهما كانت صورته ، فهذا عمر بن الخطاب وعبد الله

بن مسعود رضي الله عنهم أجمعين يعطون من يتعلم عندهم قواعد في الوقاية وهم يأخذون بحجز الناس عن التردي في المآثم ، فقد ذكر ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١٤١٢هـ) : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول لأصحابه : ((دعوا الربا والريبة ، يعني : ما ارتبتم فيه وإن لم تتحققوا أنه ربا ٠٠٠ وكان ابن مسعود يفتي من يسأله عن أمر فيه شبهة فيقول له : ما تريد إلى ما يريبك وحولك أربعة آلاف لا تريبك)) ص٢٨٠ .

هكذا كان المربون الناجحون يربون أتباعهم ، فإن مجرد شك الإنسان في أمر ما باعثا له على تركه ، مخافة الوقوع في المأثم الذي نهى الله عنه ، وهذا هو الورع الذي ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه عليه ٠

لكن هاهنا مسألة يحسن التنبيه عليها ألا وهي مراعاة الفروق الفردية في إعطاء مثل هذه القواعد حين الحديث عن الشبهات ، فليس من الحكمة عند المربي أن ينهى غيره عن المكروه وهو يعلم من حالة أنه يغوص في الحرام إلى فروع أذنيه ٠

وحول هذه المسألة يقول ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١٤١٢هـ) :

((وهاهنا أمر ينبغي التفطن له وهو أن التدقيق في التوقف عن الشبهات إنما يصلح لمن استقامت أحواله كلها ، وتشابهت أعماله في التقوى والورع ، فأما من يقع في انتهاك المحرمات الظاهرة ، ثم يريد أن يتورع عن شيء من دقائق الشبه فإنه لا يحتمل له ذلك ، بل ينكر عليه ، كما قال ابن عمر لمن سأله من أهل العراق عن دم البعوض: يسألوني عن دم البعوض وقد قتلوا الحسين ، وسمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول :﴿ هما ريحانتاي من الدنيا ﴾)) ص ٢٨٣،والحديث راوه (البخاري مع الفتح د ـ ت) ج ٧ ص ٩٥ .

وذكر ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١٤١٢هـ) أيضا لطيفة ثانية رائعة مفادها : ((أن رجلا سأل بشر بن الحارث عن رجل له زوجة ، وأمه تأمره

بطلاقها ، فقال : إن كان برّ أمه في كل شيء ، ولم يبق من برها إلا طلاق زوجته فليفعل ، وإن كان يبرها بطلاق زوجته ثم يقوم بعد ذلك إلى أمه فيضربها فلا يفعل)) ص ٢٨٣ .

فهذا بشر الحافي رحمه الله يعطي لمن يستفتيه في بر والدته بطلاق زوجته مبدأ من مبادىء التربية وهو مراعاة الفروق الفردية ، مع ما تتضمنه هذه الفتوى من الدعوة إلى بر الوالدة والإحسان إليها .

إنها دعوة لبر الوالدين ، ووقاية من العقوق بأسلوب رائع ، يحمل النفس على المراجعة والمحاسبة ، خشية التقصير في هذا الحق الذي أوجبه الله سبحانه وتعالى للوالدين .

نعم إن الورع عن الحرام درجات ، فأولها درجة الورع عن الحرام المحض الذي لا يعذر أحد من الخلق بمقارفته ، ثم تأتي الدرجة الثانية وهي درجة الورع عما يستحب تركه وإن لم يكن حراما ، وثالث هذه الدرجات درجة الورع عن بعض ما أحله الله خشية الوقوع فيما حرمه الله ، وآخر هذه الدرجات وهي درجة الصديقين ، الورع عن كل أمر ليس لله تعالى .

يقول ابن قدامة في منهاج القاصدين (١٤١٥هـ) : ((إن الورع له أول وغاية ، وبينهما درجات في الاحتياط ، فكلما كان الإنسان أشد تشديدا ، كان أسرع جوازا على الصراط ، وأخف ظهرا ، وتتفاوت المنازل في الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات في الورع ، كما تتفاوت دركات النار في حق الظلمة بحسب درجات الحرام ، فإن شئت فزد في الاحتياط ، وإن شئت فترخص ، فلنفسك تحتاط ، وعليها تترخص)) ص ١٣٥ .

لقد كان السلف رضي الله عنهم يتجاوزون وضع القواعد الوقائية بالألفاظ والمواعظ إلى العمل والتطبيق .

فقد ذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه بدائع التفسير (١٤١٤هـ ، جمع يسري السيد محمد) قوله: ((وعَمَّى الصحابة بأمر عمر رضي الله عنه قبر دانيال، وأخفوه عن الناس ، ولما بلغه أن الناس ينتابون الشجرة التي بايع تحتها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه قطعها)) ج٢ص ١٢٠ .

فالصحابة رضي الله عنهم أخفوا قبر دانيال أحد أنبياء بني إسرائيل وقاية للأمة من أن تنحرف في عقيدتها ، حين تظن أن في زيارة هذا القبر قربة تتقرب بها إلى الله ، فتتخذه مزارا ما تلبث مع مرور الأيام والليالي أن تتخذه وثنا يعبد ، بفعل مكر الشيطان وتلبيسه ، كما فعل مع قوم نوح ، حين أمرهم في الخطوة الأولى أن يصوروا صالحي قومهم بعد وفاتهم ليكون ذلك دافعا لهم على النشاط في العبادة كلما رأوهم ، فكان مدخل الشيطان عليهم من باب الحرص على العبادة ، ففعلوا ذلك بنية طيبة ومقصد حسن ، ولكن كم من مريد للخير لا يصيبه .

وتعاقبت الأيام والليالي ، وجاءت الخطوة الثانية من خطوات الشيطان في ذرية هؤلاء القوم ، إذ وسوس لهم الشيطان أن آباءكم كانوا يمطرون وتتنزل لهم الخيرات بتقديمهم القرابين لهؤلاء الأولياء الصالحين ، فعبدوهم من دون الله ، وبدأ العد التنازلي في قضايا الشرك الذي لم يقف عند حد .

وما فعل عمر رضي الله عنه في الشجرة حين قطعها إلا وقاية للأمة من أن تنحرف في عقيدتها انحراف قوم نوح .

وهنا يثور تساؤل مفاده : هذه الشجرة التي أمر عمر رضي الله عنها بقطعها ماذا كان الصحابة رضي الله عنهم وهم أبر الخلق يفعلون عندها ؟ هل كانوا يصلون إليها كما يفعل بعض الجهلة اليوم من المسلمين ؟ أم كانوا يذبحون عندها لغير الله ، ويدعونها من دون الله كما يفعل بعض القبوريون اليوم في شرق العالم الإسلامي وغربه ؟ كلا لم يكونوا رضي الله عنهم يفعلون من ذلك شيئا ، إنما كانوا

يستظلون بظلها ، وإذا حضرت الصلاة صلوا لله تحتها ، فخشي عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يلقي الشيطان في قلوب بعض من يراهم أو يتسامع بخبرهم فتنة، فأمر بقطعها ، سدا لذريعة الشرك ، وحفاظا على توحيد الأمة من الانحراف .

وفي الوقاية من الانحراف في جانب العبادة ، ذكر القرطبي في كتابه البدع والنهي عنها (١٤١٦هـ) ثم ساق السند إلى أبي حفص المدني قال : ((اجتمع الناس يوم عرفة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم يدعون بعد العصر ، فخرج نافع مولى ابن عمر ، فقال : أيها الناس إن الذي أنتم عليه بدعة ، وليست بسنة ، إنا أدركنا الناس ولا مثل هذا ، ثم رجع فلم يجلس ، ثم خرج الثانية ففعل مثلها ثم رجع)) ص ٩٣ .

إن العواطف الإيمانية جياشة إذا تحركت في صدور المؤمنين ، وإنها ما لم تضبط بضوابط الشرع الحنيف أوقعت أصحابها في الغلو والتنطع ، وفتحت الباب على مصراعيه للمحدثات ، التي لم يأذن بها الله .

وما موقف نافع رضي الله عنه من الناس وهم يدعون عشية عرفة في مسجد رسول الله إلا وقاية للأمة من أن تنحرف في عبادتها ، فيضيع الحق في غمرة الباطل ، وتندثر السنة بين ركام البدع والمحدثات ، وعندها تختلط أفهام الناس ، وتندرس معالم الدين الصافية التي تركت بيضا نقية لا يزيغ عنها إلا هالك .

وهذا أبو هريرة رضي الله عنه يكتم بعض الأحاديث خشية على الأمة من الفتنة ، فقد ذكر البخاري في صحيحه (د ـ ت) ثم ساق السند إلى أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : ((حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين فأما أحدهما فبثثته ، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم)) ج ١ ص ٤١ .

وهذا الوعاء الذي كتمه أبو هريرة رضي الله عنه هو ما يتعلق بأئمة الجور ، وأمراء السوء من السلاطين الظلمة كأمثال يزيد بن معاوية ومن سار على طريقه واقتفى أثره .

يقول ابن حجر رحمه الله في الفتح (د ـ ت) : ((وحمل العلماء الوعاء الذي لم يبثه على الأحاديث التي فيها تبيين أسامي أمراء السوء ، وأحوالهم وزمنهم، وقد كان أبو هريرة يكني عن بعضه ولا يصرح به خوفا على نفسه منهم ، كقوله : أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان ، يشير إلى خلافة يزيد بن معاوية لأنها كانت سنة ستين من الهجرة ، واستجاب الله دعاء أبي هريرة فمات قبلها بسنة)) ج ١ ص ٢١٦ .

إن هذا الحديث منهج عظيم في وقاية المجتمع من الفتن والاضطرابات التي ربما عصفت بالأمة حين يذكر أمراء السوء ذكرا ليس فيه مصلحة للأمة ، بل ربما كان في إعلان ذلك عواقب وخيمة على الأفراد والمجتمعات ، إذ به تتفرق الصفوف ، وتختلف القلوب ، ويكثر الهرج ، وتضيع الحقوق ، وتحل الشحناء والبغضاء فلا يستفيد من ذلك إلا الأعداء .

يقول الذهبي في السير (١٤٠٥) معلقا على حديث أبي هريرة : ((وهذا دال على جواز كتمان بعض الأحاديث التي تحرك فتنة في الأصول أو الفروع ، أو المدح والذم ، أما حديث يتعلق بحِلٍّ أو حرام فلا يحل كتمانه بوجه ، فإنه من البينات والهدى)) ج٢ص٥٩٧ .

ومقصد الذهبي رحمه الله من هذا ، حلول اللعنة على من يكتم الحق بعدما تبين ، مصداقا لقول الحق جل ذكره :﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون* إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ﴾ سورة البقرة آية ١٥٩ ـ ١٦٠ .

كما أن التابعين وتابعيهم رحمهم الله جميعا قد نالوا من المنزلة ما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يثني عليهم كما سبق في قوله صلى الله عليه

وسلم :﴿ خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ... ﴾ سبق تخريجه ص ٩٠ .

كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أوصى بهم خيرا ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده (١٣٩٨هـ) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامي فيكم فقال :﴿ استوصوا بأصحابي خيرا ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ... الحديث ﴾ سبق تخريجه ص ٩٨٩١ .

ولقد كانوا تلاميذ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تربوا على أيديهم ، فكانوا رحمهم الله في الخير قدوات .

ولقد اشتملت سيرهم على كثير من التدابير الوقائية التي تصون الشخصية الإسلامية من الانحراف في كل جانب من جوانب حياتهم .

وسوف يسوق الباحث أقوالا وأفعالا لثلاثة منهم ممن ترجم لهم الإمام الذهبي في السير (١٤٠٥هـ) فيها من التدابير الوقائية ما فيها ، وأولهم :

* التابعي الجليل عطاء بن أبي رباح الذي ولد في خلافة عثمان رضي الله عنه فقد كان يقول :((إن الرجل ليحدثني بالحديث فأنصت له كأني لم أسمعه ، وقد سمعته قبل أن يولد)) ج ٥ ص ٨٦ .

وكلام عطاء يدل على حسن خلقه أثناء حديثه مع الآخرين أو حديث الآخرين معه ، فها هو ينصت كأنه لم يسمع الحديث من قبل ، وقاية لنفسية المتحدث أن يقاطعه ويقول قد سمعته ، وربما أثار في نفس صاحبه حرجا وضيقا .

وإذا كان هذا هديهم في أمر بسيط كهذا فكيف يتعاملون مع مدلهمات القضايا ومعضلات الأمور .

* وثانيهم عامر بن عبدالله بن الزبير رحمه الله قال الذهبي :((قال مصعب : سمع عامر المؤذن وهو يجود بنفسه، فقال :خذوا بيدي ، فقيل : إنك عليل ، قال : أسمع داعي الله فلا أجيبه ؟ ! فأخذوا بيده ، فدخل مع الإمام في المغرب ، فركع ركعة ثم مات)) ج ٥ ص٢٢٠ .

إن في هذه الحادثة لعبرة ، فهاهو عامر بن عبد الله بن الزبير يعيش سكرات الموت التي تذهل فيها العقول ، ويصاب فيها الإنسان في أعز ما يملك وهي روحه التي بين جنبيه ، ومع ذلك يأمر الناس أن يحملوه يوم سمع داعي الله يهز الأرض بناء الله الخالد ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، وما من شك أن هذه الحادثة تحمل من التدابير الوقائية في المحافظة على الصلاة في جماعة ، لأولاده وأصحابه وكل من عايش الحادثة مع عامر أو سمعها أو قرأها إلى يوم الدين ٠

إن في هذه الحادثة وقاية للمتهاونين في أمر صلاة الجماعة وهو يرفلون في أثواب الصحة والعافية ، ويتململون على فرش الحرير ، فإذا كان عامر بن عبد الله بن الزبير وهو ابن ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل هذا ، فأين المساكين ممن هم دونه في الفضل والسابقة ؟٠

* وثالثهم سليمان بن طرخان رحمه الله فقد ذكر الذهبي عنه وهو يجيب من يسأله عن رخص العلماء فقال :((لو أخذت برخصة كل عالم اجتمع فيك الشر كله)) ج ٦ ص ١٩٨ .

وفي هذا وقاية لمن يتتبع رخص العلماء هروبا من الجدية في طلب الرشاد ، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير ، ولأن ذلك ربما قاد صاحبه إلى الزندقة والعياذ بالله ٠

خاتمة الفصل :

من خلال ما سبق يتبين أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هما المصدران الأساسيان للتربية اوقائية ، إضافة إلى هدي السلف الصالح رضوان الله عليهم ، والذي يندرج تحت هذين الأصلين العظيمين الذين هما منهج حياة كامل ، وأن هدي السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين كان ترجمة حية لما ورد فيهما من التشريع المحكم الذي أنزله اللطيف الخبير الذي يعلم مايصلح عباده ومايصلح لهم .

إن مصادر التشريع في الإسلام يقصد منها سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، وسعادة الإنسان في هاتين الدارين مرهون باتباع ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم قد اشتملتا على منهج وقائي عظيم ، يقوم على غرس العقيدة الصافية الصحيحة في النفوس ، فتكون أعظم سياج يحول بين العبد وبين مقارفة الخطأ وبين الوقوع في المحظور ، ثم صيانة هذه العقيدة بصورة دائمة وصفة مستمرة ، على أن يصاحب تأسيس العقيدة وغرسها في النفوس التشريعات الإلهية التي تربي الشخصية المسلمة في كل جانب من جوانبها ، وكل ذلك يأتي على صورتين :

إما أن تكون هذه التشريعات التي تصوغ الفطرة وتربي الشخصية المسلمة في هيئة كليات وقواعد عامة يندرج تحتها من الجزئيات شيئ كثير مما يتعلق بحياة الناس في أمور دينهم ودنياهم .

وإما أن تأتي تفصيلية تناقش في بعض الأحايين بعض المسائل الدقيقة التي يحتاجها الناس في أمور دنياهم وآخرتهم .

على أن مصادر التربية الوقائية في الإسلام قد تميزت في وقايتها للإنسان من الخطأ ، وسلكت في ذلك مسالك رشيدة تقوم على تبيين الخطأ وتجليته وتعريته ، ثم تبين آثاره على البلاد والعباد في الدنيا والآخرة ، ثم تحذر من مواقعته ، بل قد يصل

الأمر في بعض الأحيان إلى النهي عن مجرد القرب منه ، وذلك بتحريم كل مايفضي إليه من الأسباب والوسائل .

والمربون ـ أيا كانت مواقعهم في البيت أو المدرسة ، أو عبر أي وسيط من الوسائط التربوية ، في أمس الحاجة إلى تتبع هذه التشريعات الإلهية ، والتوجيهات الربانية بالبحث والتنقيب ، بغية عرضها على الناس وتربية الناس عليها ، لتتلافى الأمة المسلمة ـ التي هي في مجموعها الأفراد ـ الأوجاع والأسقام والعلل التي تصيبها في كثير من جوانب حياتها ، نتيجة لتفريطها في منهجها الوقائي مما يجعلها تنشغل بالعلاج الذي استنزف وقتها وجهدها ومالها وكل طاقاتها وأخرها عن الركب وقد أمرت أن تقوده .

إن هذا المنهج الوقائي العظيم قد حفل به كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وفهمه السلف الصالح فساروا عليه ، مما جعلهم في كثير من الأحيان يدعون ما لا بأس به مخافة ما به بأس .

هذه هي مصادر التربية الوقائية ، كتاب الله سبحانه ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهدي السلف رضوان الله عليهم ، ولقد اشتملت هذه المصادر على كثير من الأساليب التربوية المؤثرة ، التي تسهم بدور كبير في التربية والإقناع ، لكونها لم تقتصر على أسلوب واحد ، ولم تأت على صورة واحدة ، ولكنها وردت في هذه المصادر بأساليب متنوعه ، وطرائق متفرعة ، سيتحدث عنها الباحث في الفصل التالي من هذه الدراسة بإذن الله .

الفصل الرابع

(من أساليب التربية الوقائية)

القدوة

ضرب المثل

القصة

الترغيب والترهيب

الأحداث

المداعبة

مدخل للفصل :

لا يمكن للأهداف التربوية أن تتحقق ، وأن تؤتي ثمارها ، ما لم يكن هناك وسائل تربوية جيدة تحقق هذه الأهداف .

وبما أن غاية التربية في الإسلام هي إيجاد المسلم الصالح ، والمجتمع السوي الناجح ، الذي يحقق عبر هذه الحياة مهمته الكبرى التي خلقه الله من أجلها ، فإن الإسلام قد شرع عبر مصادره العظيمة الوسائل التربوية المناسبة لتحقيق هذه الغاية .

وبنظرة في هذه الأساليب التي شرعها الإسلام ، نجد أنها لم تأت على صورة واحدة ، إنما جاءت متنوعة ومختلفة ، تغزو القلب وتنفذ إلى خلجاته ، فتصنع منه آلة خيِّرة ، موجهة لسلوك خيِّر .

إن أساليب التربية الوقائية في الإسلام لم تأت على صورة واحدة ، لأنها لو جاءت كذلك لربما كانت قليلة الفائدة ، ضعيفة الأثر ، ذلك أن الشيء إذا تكرر على النفس ، أصابها من جراء تكراره السآمة والملل .

ومن هنا جاءت هذه الأساليب على صور شتى ، فتارة تأتي في صورة قدوة ، يحمل للناس ما يريد من الخير بسلوكه ومواقفه ، مربيا بأفعاله قبل أقواله ، وتارة تأتي في صورة أمر صريح أو نهي صريح لكل ما فيه صلاح للإنسان في عاجل الأمر أو آجله ، سواء علم الحكمة من ذلك أم لم يعلم ، وتارة تأتي في صورة مثل يضرب يقرب ما يغيب عن الذهن من المعاني حتى تكون حاضرة قريبة يطبق عليها السامع ما طبقه على المثال مما يكون له أبلغ الأثر في الإقناع ، وتارة تأتي في صورة قصة تذكر تحمل من الأحكام والمعاني والعبر ما تستنبطه النفوس دون حاجة إلى البيان والإيضاح ، وتارة تأتي في صورة ترغيب أو ترهيب لكل خلق جميل أو قبيح يراد حمل الناس عليه أو تحذيرهم منه ، وتارة تأتي في صورة حدث يقع

فيصاغ على أثره موعظة تنفذ إلى القلب المهيأ لاستقبال التوجيه والتذكير، بل إن الإسلام ليجعل من المداعبة أسلوبا فريدا في التربية والتوجيه دون جرح للمشاعر أو إها ار للكرامات ، إلى غير ذلك من الأساليب الكثيرة التي حفل بها كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

إن الإسلام يرى أن نبل الوسيلة من نبل الهدف ، ومن هذا المنطلق حرص الإسلام عبر مصادره العظيمة ، أن يقرر هذه الأساليب التي توافق تركيبة الإنسان ، وتلائم فطرته ، وكيف لا يكون الأمر كذلك ، والذي شرع هذه الأساليب هو اللطيف الخبير الذي يعلم ما يُصلح الإنسان وما يصلح له .

وسوف يحاول الباحث - بإذن الله - أن يلقي الضوء بشيء من التفصيل على كل أسلوب من هذه الأساليب في النقاط التالية :

أولا : مفهومه .

ثانيا : أنواعه .

ثالثا : منهج الإسلام في تقريره .

رابعا : التربية الوقائية من خلاله .

خامسا : آثاره التربوية .

أولا : القــدوة :

يتربع على قمة الأساليب التـربوية المؤثرة في العملية التربوية أسلوب القدوة ، ذلك الأسلوب الناجع ، الذي يترجم الكلمات إلى مـواقف ، ويحول العبارات إلى سلوكيات وأخلاق ، فتتربى النفوس من خلاله تربية صحيحة مؤثرة .

ولهذا حرص الباحث أن يجعلها أول الأساليب التربوية الوقائية ، إذ لا قيمة لما يأتي بعدها من الأساليب حين تُفقَـد ، وسوف يتحدث الباحث ـ بإذن الله ـ في الصفحات القـادمة عن مفهوم القدوة ، وبيان أنواعـها ، وعرض منهج الإسلام في تقـريرها ، وكيف تتم التـربية الوقـاية من خـلالها ، ثم يختـم الحديث بذكـر آثارها التربوية .

مفهوم القدوة :

ذكر ابن منظور في لسان العرب (١٤١٢هـ) في مادة قدا قوله :((القَدْوُ : أصل البناء الذي يتشعب منه تصريف الاقتـداء ، يقال : قِدْوة وقُدْوة لما يقتدى به ، والقُدْوة والقِدْوة: الأسوة)) ج ١٥ ص ١٧١ .

وذكر الجـوهري في الصحاح (١٤٠٤هــ) في مادة قدا قـوله : ((القِدْوَة : الإسـوة ، يقـال : فلان قِدْوَة يُقْتَدَى به ، وقد يضم فيقال : قُـدْوَة وقِدْوَة وقِدَة)) ج ٦ ص ٢٤٥٩ .

وقـال الأزهري في تهـذيب اللغـة (د ـ ت) : ((الـقَـدْو : أصل البناء الذي ينشـعب منه تصـريف الاقـتداء ، ويقـال : قِـدْوَة وقُدْوَة لما يـقتـدى به)) ج ٩ ص ٢٤٤ .

إذن فالقـدوة والأسوة شيء واحد ، ولهـذا يصح أن يقال اقـتدى به فكان له أسوة .

والقدوة الصالحة كما يراها الباحث : مثال من الكمال النسبي المنشود ، يثير في النفس الإعجاب ، فتنجذب إليه انجذابا شديدا ، وتتأثر به تأثرا عميقا ، يرسخ فيها القناعة التامة به ، والحب الكامل له ٠

وهذا ما ينطبق على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو على مستوى البشر أعظمهم منزلة ، وأعلاهم قدرا ، حيث كانت حياته صلى الله عليه وسلم مثار إعجاب العدو والصديق ، مما جعل القلوب ـ الصادقة في بحثها عن الحق ـ تنجذب إليه وتحبه وتتأثر به ، لكونها قد اقتنعت أنه أكرم الخلق في سيرته وسريرته ٠

أنواع القدوة :

من خلال التأمل في كتاب الله وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم وفي أحوال الناس يرى الباحث أن القدوة على نوعين :

أولهما : القدوة الصالحة : وهي التي تتخذ الإسلام بمفهومه الشامل منهجا وسلوكا ٠

وثانيهما : القدوة السيئة : وهي التي تكون عكس ذلك تماما ، وهي التي لاتتشرف بحمل الإسلام ، ولا تعتز بأن تنتسب إليه ، فضلا عن أن تكون قدوة تحمل الناس عليه ، وتدعوهم إليه ٠

والقدوة الصالحة كما يراها الباحث تنقسم إلى قسمين اثنين :

القسم الأول : القدوة المطلقة ، وهي الاقتداء برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وسائر تصرفاته ، ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بعث للناس إلا ليقتدى به ، وليطاع طاعة مطلقة من غير قيد ولا شرط ، لكونه صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، كما قال الله سبحانه عنه : ﴿ وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى ﴾ سورة النجم آية ٣-٤

ولكون الاقتداء به صلى الله عليه وسلم ، والسير على طريقه ، هو النجاة الحقيقية للعبد من خزي الدنيا وعذاب الآخرة فقد أمر ربنا سبحانه بطاعته وامتثال أمره ، بل قرن سبحانه طاعة رسوله بطاعته في مواضع كثيرة من كتابه ، ووعد سبحانه من أطاعة وسلك طريقه بالهداية والرشاد في الدنيا والآخرة ، وتوعد من عصاه وخالف أمره ، بأن يجعل عاقبة أمره في الدنيا إلى بوار ، وأن يجعل مصيره في الآخرة إلى النار .

لقد اختار الله رسوله صلى الله عليه وسلم ليكون القدوة الحسنة في أقواله وأفعاله وسائر تصرفاته ، كي تستلهم الشخصية الإسلامية - التي ترجو الفلاح في دينها ودنياها - سلوكها من هذه القدوة .

يقول الله سبحانه مخاطبا كل مؤمن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ سورة الأحزاب آية ٢١ .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة للناس ، وكان إذا أمر بأمر كان من أسرع الناس تنفيذا له ، وإذا نهى عن أمر كان من أبعد الناس عنه ، فكان بذلك قدوة يقتفى ، ومثالا يحتذى .

ولو أنه صلى الله عليه وسلم كان ينهى عن الشرك ويواقعه ، أو يأمر بالبر وحسن الخلق ولا يأتيه ، لما استجابت له النفوس الأبية التي عشعش الكبر والعناد والجبروت في رأسها ردحا من الزمن ، حتى اقتلعه - برحمة الله - تأثير القدوة الصالحة .

وسوف يلقي الباحث الضوء على هذه الشخصية العظيمة ، شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي ارتضاه الله إماما للبشرية ، وقدوة للإنسانية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وكيف استطاع في فترة من الزمن قصيرة جدا

ـ وبكل المقـاييس ـ أن يغير مـجـريات التـاريخ ، وأن يؤلف القلوب على مـحـبتـه والإيمان به ، بل تجاوز ذلك كله إلى التـضـحـيـة من أجله ، ومن أجل سنتـه ودينه بالغـالي والنفيس ، حـتى أسـتـقر هديه مـيزانا يـفرق به بين الحق والبـاطل ، والخيـر والشر ، والحسن والقبيح ، وما كـان ذلك ليتحقق لو لم يكن صلى الله عليه وسلم قدوة للناس في أقواله وأفعاله وسائر تصرفاته .

لقد ورد في القـرآن الكريم آيات كـثـيرة يخاطب الله فـيها رسـوله صلى الله عليه وسلم باعتـباره المبلغ عن ربه أوامره ونواهيه ، وكان مما ورد في كـتاب الله عز وجل قوله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾ سورة القصص آية ٦٨ .

فـفي هذه الآية الكريمة يخبـر ربنا سبـحانـه أنه يخلق ما يشـاء من مخلوقـاته الكثيرة ويختار منها طائفة يميزها على غيرها من بقية المخلوقات ، سواء كانت أمكنة أو أزمنة أو أعيانا أو أشخـاصا ، وذلك لعلمه سبحانه بأن تلك الطـائفة التي اختارها هي الخليقة بالاجتـباء ، الحرية بالتكريم والاصطفاء ، وقد يدرك العقل حـقيقة ذلك وقد لا يدركه .

يقول ابن القـيم في زاد المعاد (١٤٠٧هـ) : ((فـذوات ما اختـاره واصطفاه من الأعيان أو الأماكن أو الأشخاص وغيرها مشـتملة على صفات وأمور قائمة بها ليست لغيرها ، ولأجلـها اصطفاها الله ، وهو سبحانه الذي فضلـها بتلك الصفات وخصها بالاختيار ، فهذا خلقه ، وهذا اختياره)) ج ١ ص ٥٣ .

ولهذا كان من بين ما اختاره الله واصطفاه من الناس رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ليكون خاتم النبيين ، ورسول رب العالمين.

وسر اختـياره سبحانه لعبده ورسوله محمد صلى الـله عليه وسلم ، إنما كان ذلك لعلمـه سبـحـانه بما أودع في هذه الشـخصية الفـذة في تاريخ الإنسـان ، من

محاسن الأقوال ، ومكارم الأخلاق ، الأمر الذي بوّأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المنزلة العظيمة التي لايمكن أن تكون لبشر إلا له صلى الله عليه وسلم .

يقول القرطبي في تفسيره (١٣٨٧هـ) : ((قال ابن عباس : والمعنى وربك يخلق ما يشاء من خلقه ، ويختار منهم من يشاء لطاعته . وقال يحي بن سلام : والمعنى ، وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار من يشاء لنبوته . وحكى النقاش : أن المعنى وربك يخلق ا يشاء من خلقه يعني محمدا صلى الله عليه وسلم ، ويختار الأنصار لدينه)) ج١٣ ص ٣٠٥ .

وقد نزلت هذه الآية جوابا على المشركين المعترضين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مُدَّعين أن الله لا يرسل الرسل بطوعه واختياره .

يقول الإمام الواحدي في أسباب النزول (د ـ ت) : ((قال أهل التفسير نزلت جوابا للوليد بن المغيرة حين قال فيما أخبر الله تعالى أنه لا يبعث الرسل باختياره)) ص ١٩٢ .

وإن كانت العبرة في هذه الآية بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقرر ذلك الأصوليون في كتبهم ، فإن الله عز وجل خلق مخلوقات كثيرة واختار منها بعضها ففضلها على غيرها ، وميزها على سائر جنسها بحكمة بالغة وقدرة نافذة ، فتبارك الذي يخلق ما يشاء ويختار .

يقول ابن القيم في زاد المعاد في هذا المعنى (١٤٠٧ هـ) ما خلاصته : أن الله خلق سبع سموات ، واختار السابعة منها فجعلها مقرا للمقربين من ملائكته ، وميزها على غيرها فاختصها بالقرب من كرسيه وعرشه ، ولو لم يكن إلا قربها منه سبحانه ، وخلق سبحانه الجِنان واختار منها الفردوس وجعل سقفَها عرشُه سبحانه، وخلق الملائكة الكرام واختار منهم جبريل وميكائيل وإسرافيل ، وخلق الأنبياء جميعا من ولد آدم واختار منهم الرسل ، واختار من الرسل أولي العزم ، واختار من

أولي العزم الخليلين إبراهيم ومحمدا صلى الله عليهما وآلهما وسلم ، وخلق سبحانه بني آدم واختار منهم ولد إسماعيل ، واختار من ولد إسماعيل بني كنانة ، واختار من ولد كنانة قريشا ، واختار من قريش بني هاشم ، واختار من بني هاشم سيد ولد آدم محمدا صلى الله عليه وسلم ، وخلق سبحانه الأمم واختار منها أمة محمد صلى الله عليه وسلم فجعلها خير الأمم وأكرمها ، وخلق سبحانه الأماكن والبلدان واختار منها البلد الحرام فجعلها موطنا لرسوله صلى الله عليه وسلم ومناسك لعباده . ص ٤٢ وما بعدها

ومن جملة هذا الاختيار ، اختيار الله سبحانه - من البشرية جمعاء - محمدا صلى الله عليه وسلم ليكون في ميزان الخلق جميعا سيد ولد آدم ولا فخر ، وأكرم من مشت به قدم على الأرض ، فقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، واستأمنه سبحانه على وحيه ، وحمّله رسالة السماء إلى أهل الأرض ، وجعله سفيرا بينه وبين عباده ، فكان - وبحق القدوة الصالحة - ، والأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا .

لقد كان صلى الله عليه وسلم مثال الشخصية الإنسانية الكاملة ، والخلق الإسلامي النبيل ، إذ كان يستلهم مادة خُلقه وتربيته من وحي المبارك الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ومن هذا المنطلق جعله الله قدوة للناس ، على قوله تقاس الأقوال ، وعلى فعله تقاس الأفعال ، من زعم أنه يهتدي بغير هديه ، أو يسعد في غير دينه ، أو يدخل الجنة من غير طريقه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا ، وهو في الآخرة من الخاسرين .

إن هذه الشخصية العظيمة في تاريخ الإنسان ، قد تولت رعايتها العناية الإلهية منذ الصغر ، حيث وجدها رب العالمين يتيمة فآواها ، وضالة فهداها ،

وعائلة فأغناها ، فكانت هذه الشخصية العظيمة محفوظة بحفظ الله قبل البعثة وبعدها ، وكانت أبعد ما تكون عن الزلل والخطل ، مصونة عما يخدش الكرامة أو يعبث بالحياء .

لقد عاشت هذه الشخصية العظيمة ثلاثا وستين سنة ما أثر عنها في يوم من الأيام كلمة بذيئة ، أو خلق فاحش ، أو سلوك غير متزن ، لاقبل البعثة ولا بعدها .

يقول الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، كما روى ذلك البخاري في صحيحه (د ـ ت) : ((لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا ، وكان يقول :﴿ إن من خياركم أحسنكم أخلاقا ﴾ ج٤ ص٢٣٠.

ويقول الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري رضي الله عنهما كما روى ذلك الإمام البخاري في صحيحه (د ـ ت) : ((كان النبي صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها)) ج ٤ ص٢٣٠ .

ويقول أنس بن مالك رضي الله عنه كما روى ذلك مسلم في صحيحه (د ـ ت) : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أخذ أبو طلحة رضي الله عنه بيدي فانطلق بي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله : إن أنسا غلام كيّس فليخدمك ، قال : فخدمته في السفر والحضر ، والله ما قال لي لشيء صنعته ، لم صنعت هذا هكذا ؟ ولا لشيء لم أصنعه : لم لم تصنع هذا هكذا ؟)) ج ٢ ص ٣٥٢

وروى الإمام مسلم في صحيحه من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال : بينا أنا أصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ عطس رجل من القوم ، فقلت : يرحمك الله ، فرماني القوم بأبصارهم ، فقلت : واثكل أمّياه ! ما شأنكم تنظرون إلي ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، فلما رأيتهم

يصمتونني ، لكنيُ سكت ، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبأبي هو وأمي ، ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه ، فوالله ما كهرني ولا نهرني ولاضربني ولا شتمني ! قال: إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن ، أو كما قال رسول الله ﷺ)) ج٢ص٧٠

ويظهر مدى حسن خلقه ، وحسن تعليمه ، ورفقه ورحمته بأصحابه ، في الحديث الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه (دت) حين بال أعرابي من أصحابه - حديث عهد بإسلام في ناحية من نواحي المسجد فهمَّ الصحابة به سوءا فقال لهم صلى الله عليه وسلم :﴿ دعوه واهريقوا على بوله سجلا من ماء أو ذنوبا من ماء فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين ﴾ ج ١ ص٦٥ .

إنها الشخصية التي ترعاها عناية الله بكرة وعشيا ، منذ أن كانت في عالم الذر حتى غادرت هذه الدار.

يقول الله سبحانه في معرض امتنانه على رسوله صلى الله عليه وسلم :﴿ ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك * الذي أنقض ظهرك * ورفعنا لك ذكرك ﴾ (سورة الشرح الآيات ١ - ٤) .

إنها الشخصية العظيمة التي شهد لها رب العالمين من فوق سبع سموات بقوله جل ثناؤه :﴿ وإنك لعلى خلق عظيم﴾ سورة القلم آية ٤ .

ولقد كان من خصال هذا الخلق الكريم ما نبأنا الله به في قوله سبحانه : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ سورة آل عمران ١٥٩ .

وبقوله سبحانه:﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ سورة الأنبياء آية ١٠٧.

وبقوله سبحانه :﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ سورة التوبة ، آية ١٢٨ .

إن كل فرد في الأمة - أنّى كان موقعه - مطالب باتباعه صلى الله عليه وسلم، واقتفاء أثره ، ذلك أن سعادته في الدنيا والآخرة مرهونة بذلك ٠

لقد كان صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة للناس في كل جانب من جوانب الحياة ، فإذا تفكر الناس في أحوال القادة والمصلحين ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يضرب بقيادته وصلاحه أروع الأمثال ٠

المصلحون أصابعٌ جُمعت يدا   هي أنت بل أنت اليد البيضاء

وإذا تجول الناس في ساحات التربية ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتربع على عروش المربين ، فهو المربي الكريم ، والمعلم العظيم ، الذي ربى أتباعه على تعشق الفضيلة بصورة لم يعهد تاريخ البشرية الطويل لها مثيلا ٠

أتطلبون من المختار معجزة   يكفيه شعب من الصحراء أحياه

وحين يتجول الناس في ساحات الوغى ، يجدون رسول الله صلى الله عليه وسلم الشجاع الذي لا يقاس به عنتره ، وإذا بحثوا في ساحات الخطباء المصاقيع ألْفَوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الخطيب الذي لا يقارن به سحبان ، وإذا داروا على موائد الكرماء فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم الكريم الذي لا يقارن به حاتم ، وإذا بحثوا في أخلاق الأزواج فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم الزوج الكريم ، والمعاشر الحميم ، وإذا نقبوا عن ر افة الأباء ورحمتهم ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم الأب الرحيم والراعي الناصح ٠

من أجل هذا كله جعله رب العالمين قدوة في كل شيء ، يرفع للعبد ذكره في الدنيا والآخرة على قدر محبته واتِّباعه ، ويخلد له الذكر السيء حين يستكبر عن طاعته فيما أمر ، ويواقع ما نهى عنه وزجر ٠

ثانيهما : القدوة المقيَّدة ، التي تُتَّبع ويقتدى بها في المعروف ليس إلا ، ويدخل في هذا النوع الاقتداء بالصحابة رضوان الله عليهم ، والاقتداء بالعلماء الربانيين ، والاقتداء بالوالدين ، والاقتداء بالمعلم ٠

لقد قيد الشارع الحكيم الاقتداء بهذه الأنواع من الناس في المعروف ، والسبب في ذلك أنهم ليسوا معصومين من الخطأ ، فهم بشر يصيبون ويخطئون ، والمسلم يروِّض نفسه على الاتباع في الحق ، وترك الاتباع في الباطل .

ومن هذا المنطلق أكد النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :﴿ إنما الطاعة في المعروف ﴾ ج٩ص ٧٩ .

كما رغَّب الشارع الحكيم في أن يكون الإنسان قدوة في الخير ، وحذره من أن يكون قدوة في الشر ، فقد روى مسلم في صحيحه باختصار المنذري (١٤١٢هـ) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :﴿ من سن في الإسلام سنة حسنة فلها أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء ﴾ ص١٤٥ ـ ١٤٦ .

إن الطاعة والاقتداء لا يكونان إلا في الحق والمعروف ، أما حين يكون المنكر والباطل ولو من رجل خيِّر قدوة ، فإن المسلم يوطن نفسه على المفارقة التي يتميز بها عن غيره .

وهذه هي الوسطية التي هي إحدى مرتكزات العملية التربوية في الإسلام ، فإن الإسلام لا يلغي حسنات القدوة المحسن لخطأ وقع فيه ، ولا يقرر خطأ القدوة المخطيء وإن أصاب في بعض الجوانب ، إنما الحق الذي يجب أن تتربى عليه الشخصية الإسلامية ، هو قبول الحق من أي أحد كائنا من كان ، ورفض الخطأ أنَّى كان مصدره .

منهج الإسلام في تقرير جانب القدوة :

لقد أولى الإسلام جانب القدوة اهتماما عظيما ، إذ لم يقف الأمر عند نزول القرآن الكريم هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، بل صَاحَبَ القرآن نبيا رسولا قدوة من بني الإنسان ، يترجم تشريعاته إلى واقع معاش ، فيرى الناس في سلوكه وسائر تصرفاته أوامر القرآن ونواهيه ، فإذا رأى الناس بشرا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق يمتثل هذه الأخلاق ، ويعمل بهذه التوجيهات ، سهل عليهم الاقتداء والمتابعة ، بل يتعدى الأمر ذلك كله إلى أن يعتقد كل واحد منهم أنه مخاطب بهذا الوحي ، مأمور باتباعه ، كما خوطب به النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، فيكون قدوة لغيره .

القرآن الكريم وتقرير مبدأ القدوة :

إن القرآن الكريم يقرر عبر آياته المباركة أسلوب القدوة ، حين يدعو إلى الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطاعته فيما يأمر وينهى ، طاعة مطلقة، قال الله تعالى :﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ سورة الأحزاب آية ٢١ .

يقول ابن كثير في تفسيره (١٤٠٦هـ) :((هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله ، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب ، في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل)) ج ٣ص ٧٥٦ .

ويقول محمد قطب في منهج التربية الإسلامية (١٤٠٩هـ) :((إن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليست شخصية عصر ولا جيل ولا أمة ولا مذهب ولا بيئة ، إنها آية كونية للناس كافة وللأجيال كافة ... فهو للعالمين كلهم ، وللناس كافة ، في جميع الأزمان من لدن مبعثه ، وفي جميع الأجيال ، وفي كل الأرض ، آية باقية لا تذهب ولا تنقص ولا تزول)) ج١ص١٨٤ .

كما أن من الأمور التي تشير إلى تقرير الإسلام لأسلوب القدوة ، ما خاطب الله به نبيه صلى الله عليه وسلم ، في قوله بعد أن ذكر الأنبياء من قبله :﴿ أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده ﴾ سورة الأنعام آية ٩٠ .

فلقد روى البخاري في صحيحه (د ـ ت) أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما سئل أفي سورة [ص] سجده فقال :((نعم ، ثم تلا ﴿ ووهبنا ٠٠٠ إلى قوله: فبهداهم اقتده ﴾ ثم قال هو منهم ، وفي رواية مجاهد قال : قلت لابن عباس : فقال : نبيكم صلى الله عليه وسلم ممن أُمر أن يَقْتَدي بهم)) ج ٦ ص٧٢ .

على أنه صلى الله عليه وسلم قد نُهي أن يكون كصاحب الحوت وهو يونس بن متى حين نادى وهو مكظوم في بطن الحوت ، قال الله تعالى :﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم * لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ﴾ سورة القلم آية ٤٨ ـ ٤٩ .

يقول ابن جرير في تفسيره (١٤٠٠هـ) :((يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فاصبر يا محمد لقضاء ربك وحكمه فيك ، وفي هؤلاء المشركين بما أتيتهم به من هذا القرآن وهذا الدين ، وامض لما أمرك به ربك ، ولا يثنيك عن تبليغ ما أمرت بتبليغه تكذيبهم إياك وأذاهم لك ، ولا تكن كصاحب الحوت الذي حبسه في بطنه وهويونس بن متى صلى الله عليه وسلم فيعاقبك ربك على تركك تبليغ ذلك ، كما عاقبه فحبسه في بطنه)) ج٢٩ ص ٢٨ .

سبحان الله !! إنها نكتة لطيفة تقرر مبدأ قبول الحق من أي أحد ، وترك الخطأ أنَّى كان مصدره ، فهاهو رب العالمين يأمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بيونس بن متى في موطن ، وينهاه عن المتابعة له ، والاقتداء به في موطن آخر ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم خطاب لأمته من بعده إلا ماخصه الدليل ٠

كما أن من الأمور التي تشير إلى خطورة القدوة حين تكون اتباعا في الشر ، أو تقليدا في الباطل على غير وعي ولا بصيرة ، ما حكاه الله تعالى عن الكفار في قوله :﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ×وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ سورة الزخرف آية ٢٣ ـ ٢٤ .

قال القرطبي في تفسيره (١٣٨٧هـ) في معنى هذه الآية :((فيه مسألتان ، الأولى : قوله ﴿ على أمة ﴾ أي على طريقة ومذهب ، الثانية : قوله ﴿ وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ أي نهتدي بهم ، وفي الآية الأخرى ﴿ مقتدون ﴾ أي نقتدي بهم ، والمعنى واحد ... وفي هذا دليل على إبطال التقليد ، لذمه إياهم على تقليد آبائهم وتركهم النظر فيما دعاهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم)) ج ١٦ص ٧٤ ـ ٧٥ .

وبنظرة سريعة فيما سبق عرضه يتبين أن الإسلام يولي جانب القدوة عناية كبيرة ، إما بالدعوة إلى الاقتداء بالأخيار الصالحين كما هو الخطاب الموجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بنبي الله يونس في سجدة سورة ص ، وكما في قوله تعالى :﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ﴾ سورة الممتحنة آية ٤ وإما بالدعوة إلى الاقتداء بعبدالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، كما سبق ، وإما بالتحذير من حمل المنهج الآبائي العقيم ، الذي يدعو إلى السير على هدي الآباء الضالين ، والاقتداء بما كان عليه الأجداد المنحرفين ، بغير دليل ولا برهان ، قال تعالى:﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا أولوا كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ سورة البقرة آية ١٧٠ ، والآيات في تأصيل مسألة الاقتداء كثيرة جدا .

السنة وتقرير مبدأ القدوة :

حفلت السنة النبوية المطهرة بكثير من الأحاديث والمواقف التي تقرر مبدأ القدوة ، عن طريق الدعوة إلى الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبكل من دعا الناس إلى خير ، أو حملهم على هدى ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر :

* ما رواه أبو داود في سننه (١٤٠٩هـ) عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ، ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقال قائل يارسول الله ! كأن هذه موعظة مودع ، فماذا تعهد إلينا ؟ فقال : ﴿ أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة ، وإن عبدا حبشيا ، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ﴾ ج ٢ ص ٦١١، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٤٠٩هـ) ج ٣ ص ٨٧١ .

* ما رواه البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاهموه انتزاعا ، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم ، فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون ﴾ ج ٩ ص ١٢٣ .

إن العلم المجرد لا يغني عن صاحبه شيئا ، ولقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الناس ضلوا عن الطريق الحق حين فقدوا القدوات من العلماء الأخيار الذين يلبسون العلم جلباب العمل ، فكان هذا الحديث الذي يشير إلى منزلة العلماء القدوات في كل مجتمع .

* ما رواه ابن ماجة في سننه (د ـ ت) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في خطبته :﴿ أما بعد فإن خير الأمور كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة ﴾ ج ١ ص ١٧ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٤٠٨هـ) ج ١ ص ٤١ .

* ما رواه مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث المنذر بن جرير عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :﴿ من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء ﴾ ج٧ص١٠٧ ـ ١٠٨ .

*ما رواه البخاري في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿ وصلوا كما رأيتموني أصلي﴾سبق تخريجة ٧٠ .

* ما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لتأخذوا عني مناسككم ﴾ سبق تخريجه ص ٨٠ .

* ما رواه الترمذي في سننه (د ـ ت) من حديث حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر ﴾ ج ٥ ص ٩٦٥ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٤٠٨هـ) ج ٣ ص ٢٠٠ .

والأحاديث في وجوب اتباع السنة والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من أن تحصر ، وأشهر من أن تذكر .

السلف وتقرير مبدأ القدوة :

* روى الإمام أحمد في مسنده (د ـ ت) عن وبرة رحمه الله قال : أتى رجل ابن عمر فقال : أيصلح أن أطوف بالبيت وأنا محرم ؟ قال : ما يمنعك من ذلك ؟ قال : إن فلانا ينهانا عن ذلك حتى يرجع الناس من الموقف ، ورأيته كأنه مالت به الدنيا ، وأنت أعجب إلينا منه ، قال ابن عمر : حج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة ، وسنة الله تعالى ورسوله أحق أن تتبع من سنة ابن فلان إن كنت صادقا))ج٢ ص ٥٦ .

* ذكر الشاطبي في الاعتصام (١٤٠٦هـ) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأرضاه أنه قال: ((اتبعوا آثارنا ولا تبتدعوا فقد كفيتم)) ج ١ ص ٧٩ .

* وذكر أيضا أن عدي بن أرطاه كتب إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يستشيره في بعض القدرية ، فكتب إليه عمر رضي اللـه عنـه يقـول : أما بعد : ((فإني أوصيك بتقوى الله ، والاقتصاد في أمره ، واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وترك ما أحدث المحدثون فيما قد جرت سنته وكُفُوا مؤنته ، فعليك بلزوم السنة ، فإن السنة إنما سنها من قد عرف ما في خلافها من الخطأ والزلل والحمق والتعمق ، فارض لنفسك بما رضي به القوم لأنفسهم ، فإنهم على علم وقفوا ، وببصر نافذ قد كفوا ، وهم كانوا على كشف الأمور أقوى ، وبفضلٍ كانوا فيه أحرى ، فلئن قلتم أمرٌ حدث بعدهم ، ما أحدثه بعدهم إلا من اتبع غير سننهم ، ورغب بنفسه عنهم ، إنهم لهم السابقون ، فقد تكلموا منه بما يكفي ، ووصفوا منه ما يشفي ، فما دونهم مقصر ، وما فوقهم محصر ، لقد قصر عنهم آخرون فغلوا ، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم)) ج١ص ٥٠ .

* ذكر القرطبي في كتابه البدع والنهي عنها (١٤١٦هـ) قول حذيفة بن اليمان رضي الله أنه قال : ((اتقوا الله يا معشر القراء ، خذوا طريق من كان قبلكم ، والله لئن استقمتم لقد سبقتم سبقا بعيدا ، ولئن تركتموه يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيدا)) ص ٣٦ . والآثار في هذا كثيرة جدا .

التربية الوقائية من خلال القدوة :

ما يشك عاقل في أن تربية الشخصية تربية إسلامية صحيحة ، تحتاج إلى مثل أعلى ، يكون قدوة فيما يعتقده ويدعو إليه ، وما من شك أيضا أن الأزمات التي تعيشها الأمة على وجه العموم ، والتربية على وجه الخصوص كثيرة جدا ، ويتربع على رأس هذه الأزمات أزمة القدوة .

نعم إن الأمة اليوم في أمس الحاجة إلى القدوة الصالحة في كل ميدان ، القدوة التي تدعو إلى صفاء المعتقد ، ووضوح المنهج ، القدوة التي تدعو إلى أداء الشعائر ، وهي من أحرص الناس على أدائها ، القدوة التي تدعو إلى مكارم الأخلاق وهي تعيش الأخلاق جملة وتفصيلا ، القدوة التي تدعو إلى التضحية والبذل والعطاء وهي التي تترجم الكلمات إلى مواقف ، القدوة التي تتحدث عن الفضائل وهي منبع الفضائل وميدانها

إن الشخصية الإسلامية في العصور المتأخرة قد تجشأت من كثرة التلقين والتوجيه الذي لم يؤد دروه المطلوب لكون الذي يقدمه ـ في أغلب الأحيان ـ يفقد أعظم أساليب التربية وأكثرها أثرا ألا وهي القدوة الصالحة .

لقد كان من الأحداث العظام التي مرت في تاريخ أمتنا المجيد ، غزوة الأحزاب ، التي يصور الله تبارك وتعالى حال المؤمنين فيها تصويرا عجيبا ، ينبيء عن كرب شديد ، فيقول سبحانه :﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا * إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾ سورة الأحزاب آية ٩ ـ ١١ .

وحين أحدق الخطر بالمدينة النبوية ، وأقبلت جيوش الكفر تزحف من كل مكان ، تريد أن تجتث دين الله من أصوله ، أشار سلمان الفارسي رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرورة حفر الخندق، صدا لهجوم المشركين، فوافق رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه المشورة المباركة المسددة ، وانطلقت السواعد الفتية تحفر الأرض ، وتنقل التراب .

يقول الشامي في كتابه من معين السيرة (١٤٠٥هـ) :((إن الخندق الذي يحفره المسلمون ، ليس ساقية ماء ، وإنما هو في العمق بحيث لا يستطيع من وقع فيه أن يخرج منه ، وفي العرض بحيث لا يستطيع الفارس اقتحامه ، ولذا فقد استغرق العمل فيه وقتا غير يسير ، صبر فيه المسلمون على التعب والمشقة ، كما صبروا على الجوع ، وكان عليهم مع هذا أن ينجزوا العمل قبل مجيء المشركين)) ص ٢٧٠ .

وفي هذا الموطن العجيب تجلت آثار القدوة الصالحة فكانت وقاية للصحابة من الخور والكسل ، سيما وأن الظروف قاسية جد قاسية ، فالبرد شديد ، والجوع يقطع البطون ، والتعب والعناء يهد القوى ، فقد روى الترمذي في سننه (د ـ ت) من حديث أبي طلحة قال : ((شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجوع ، ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر ، فرفع رسول الله صلى الله عليه عن بطنه حجرين)) ج ٤ ص ٥٠٦ ، وبنحوه ذكر ابن حجر في الفتح (د ـ ت) ج ١٥ص ٢٧٩ .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتكلم ببنت شفة ، لأن القدوة في مثل هذا الموطن هي التي تتحدث ، لقد رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إزاره ، فإذا مقابل كل حجر يربطه الصحابي على بطنه حجرين على بطن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن لسان الحال يقول إن كنتم تربطون حجرا فأنا أربط حجرين اثنين .

ترى لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكيء على أريكته يأكل ويشرب والناس في الخندق يحفرون ، في جوع وبرد شديدين ، أكان هذا الأمر هين على النفوس ، حتى وإن لم تنطق بكلمة ؟ يقول الندوي في السيرة النبوية (١٣٩٩هـ) :((وعمل رسول الله صلى الله عليه في حفر الخندق ترغيبا للمسلمين في الأجر وعمل معه المسلمون فيه فدأب فيه ودأبوا ، وكان البرد شديدا ، ولا يجدون من القوت إلا ما يسد الرمق ، وقد لا يجدونه)) ص٢٠٨ .

لقد تجلت آثار القدوة الصالحة في زاوية أخرى من زوايا هذا الموطن ، وهو موطن تعفير الجسد بتراب الخندق ، فقد روى البخاري في صحيحه (د - ت) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال : رأيته صلى الله عليه وسلم ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه ، وكان كثير الشعر)) ج ٥ ص ١٤٠ .

ويقول رزق الله أحمد في كتابه السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (١٤١٢هـ) :((وشارك جميع المسلمين في الحفر ، لا فرق بين غني وفقير ، ومولى وأمير ، وأسوتهم في ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذي حمل التراب حتى اغبر بطنه ، ووارى التراب جلده)) ص ٤٤٧ .

لقد كان صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة لأمته في مثل هذا الموطن وفي غيره من المواطن ، الأمر الذي جعل أصحابه رضوان الله تعالى عليهم يتسابقون في اتباعه والاقتداء به ، وهذا ما سهَّل على نفوسهم طاعته وتنفيذ أمره .

إن جانب الوقاية الذي أخذ من سنته صلى الله عليه وسلم مساة كبيرة ، كان يتجلى في أقواله وأفعاله ، فقد كان القدوة الرائعة في ذلك ، وكان صلى الله عليه وسلم من أبعد الناس عن المحرمات التي ينهى عنها ، وكان إذا دعا إلى البعد عن الشبهات ، كان صلى الله عليه وسلم من أشد الناس حذرا ، وإذا رابه أمر كان من أكثر الناس حيطة .

روى البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : ﴿ ما خيِّر النبي صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يأثم فإذا كان الإثم كان أبعدهما منه ﴾ ج ٨ ص ١٩٨ ـ ١٩٩ .

لقد كان صلى الله عليه وسلم يأخذ باليسير من الأمور ، وقاية للأمة من العنت والمشقة ، فإذا كان الخيار في الإثم ، كان صلى الله عليه وسلم من أبعد الناس عنه .

لقد كان صلى الله عليه وسلم يُلبس الأقوالَ جلبابَ العمل ، وهذا هو السر الأكبر في تأثيره صلى الله عليه وسلم على القلوب .

روى الإمام البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهه ، فمن ترك ما شُبِّه عليه من الإثم ، كان لما استبان أترك ، ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم ، أوشك أن يواقع ما استبان ، والمعاصي حمى الله ، من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه ﴾ ج ٣ ص ٧٠ .

إن هذا أمر نظري يحتاج إلى واقع يطبق فيه ، وإلا كانت مجرد كلمات لاتتجاوز الآذان ، لكنه صلى الله عليه وسلم أتبع هذا التنظير التطبيق .

فقد روى البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : مر النبي صلى الله عليه وسلم بتمرة مسقوطة فقال :﴿ لولا أن تكون صدقة لأكلتها ﴾ وفي رواية :﴿ أجد تمرة ساقطة على فراشي﴾ ج ٣ ص٧١ .

إن الذي يمنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أكل هذه التمرة ، أن الله حرم عليه وعلى أهل بيته الصدقة ، وقد خشي صلى الله عليه وسلم أن تكون التمرة التي رآها على الأرض من تمر الصدقة ، مع أنها ربما لا تكون من تمر

الصدقة ، وليس عليه حرج إن أكلها ، ولكنها الحيطة والحذر ، واتقاء ما لا بأس به مخافة ما به بأس .

إنها العظمة التي تقف بالرجل القدوة عند مبدأ : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ سورة هود آية ٨٨، حياء من الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وخوفا من المقت الكبير الذي يلحق الذين يقولون ما لا يفعلون .

وما أجمل بالوالد في منزله ، والمعلم في مدرسته ، والموظف في مكتبه ، والحاكم في سلطانه أن يكون قدوة لمن تحت يده ، أسوة لغيره في فعل الخير حين يفرضه أو يدعو إليه ، وفي ترك الشر حين ينهى عنه أو يحذر منه ، ذلك أن الكلمات تظل هامدة باردة ميته حتى تغذيها القدوة ، فيسهل على النفوس تقبلها والعمل بها بلا حرج ولا ممانعة .

إن ميادين الحياة كلها في أمس الحاجة إلى قدوات ، يتجاوزون مجرد ترتيب العبارات ، وتنميق الكلمات ، إلى العيش في واقع تعبر عنه المواقف ، لتخلد في الأذهان عبرا تبقى على مر العصور والأزمان .

فالأمة المسلمة في أمس الحاجة إلى القائد المسلم القدوة ، وإلى القاضي المسلم القدوة ، وإلى المجاهد المسلم القدوة ، وإلى الطبيب المسلم القدوة ، وإلى المهندس المسلم القدوة ، وإلى الاقتصادي المسلم القدوة ، وإلى السياسي المسلم القدوة ، وإلى الإعلامي المسلم القدوة ، وأعظم من هذا كله تبقى الأمة في أمس الحاجة إلى المعلم المسلم القدوة ، والحاجة إليه أكثر من الحاجة إلى غيره ، إذ هو الذي يصنع هؤلاء جميعا ، فهو الأصل وهم الفروع ، وإذا تأسس الأصل على تقوى من الله ورضوان ، آتت الفروع أكلها كل حين بإذن ربها ، وإن أُتي البنيان من القواعد خر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون .

ولو أن هذه النماذج في الأمة تحمست لرسالتها العالمية ، وجعلت نصب عينها ألا تتبنى قضية سوى الإسلام ، واستشعرت أنها في موقع المسؤولية أمام

ربها ، ثم أمام العالم أجمع ، فكانت في الخير قدوات ، وفي الهدى أسوات ، ومارست كل قدوة تخصصها الذي تحتاجه الأمة وهي تحمل مبدأ القدوة ، وسلكت فيه أسلوب [الوقاية خير من العلاج] ، لتغيرت أحوال الأمة في جميع ميادينها ذلك أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

خذ مثالا على خطورة القدوة حين تفقد ، وتصور آثارها .

هذان الوالدان ، عليهما مسؤولية كبيرة تجاه أبنائهم ، إذ تكمن هذه المسؤولية في ضرورة حملهم على الخير وتربيتهم عليه ، ولن يتحقق ذلك حتى يكون الوالدان قدوة صالحة لأبنائهم في كل شيء ، لكن ما الحال حين تغيب هذه القدوة ؟ .

يقول محمد قطب (١٤٠٩هـ) في كتابه منهج التربية الإسلامية :

((مرة واحدة يجد أمه تكذب على أبيه أو أباه يكذب على أمه ، أو أحدهما يكذب على الجيران .. مرة واحدة كفيلة بأن تدمر قيمة [الصدق] في نفسه ولو أخذا كل يوم وكل ساعة يرددان على سمعه النصائح والمواعظ والتوصيات بالصدق ! مرة واحدة يجد أمه أو أباه يغش أحدهما الآخر أو يغشان الناس في قول أو فعل .. مرة واحدة كفيلة بأن تدمر قيمة [الاستقامة] في نفسه ولو انهالت على سمعه التعليمات ! مرة واحدة يجد في أحد من هؤلاء المقربين إليه نموذجا من السرقة كفيلة بأن تدمر في نفسه قيمة [الأمانة] ، وهكذا في كل القيم والمباديء التي تقوم عليها الحياة الإنسانية السوية)) ج ٢ ص ١١٨ .

وهكذا الحال في المعلم ، فإن الطالب يقضي مع معلميه وأساتذته ساعات طويلة من النهار ، يسمع ويرى ، ويراقب ويرصد ، ليوازن بين المثال والواقع ، وبين النظر والتطبيق ، فإذا اكتسى العلم جلباب العمل كانت القدوة المؤثرة ، التي تربى بسلوكها وأخلاقها ومواقفها قبل أن تربي بكلماتها وعباراتها وألفاظها ، لتنشأ على إثر هذه التربية أجيالا تستحق وبجداره مسمى [الأجيال المسلمة] .

وحين لا يكون الأمر كذلك يحصل الفصام النكد بين ما يتعلمه الطالب من أساتذته ، وبين ما يراه من سلوكياتهم وأخلاقهم داخل المدرسة وخارجها .

إن الطالب يرى في أساتذته على مدار ساعات النهار التي يقضيها بينهم نماذج مختلفة ، ونوعيات متباينه ، في الأقوال ، والأفعال ، والهيآت ، والاهتمامات، والتصورات ، والمباديء ، والأفكار ، والمشاعر ، والخلجات ، كلهم بلا استثناء قدوات ، ولكن ربما ليسوا جميعا قدوات في الخير ، فكم من قدوة في الشر يهدم ما يبنيه الآخرون ، سيما إذ اتخذ التعليم مهنة لبث فكر منحرف ، أو تنفيس عن حقد دفين على الفضيلة ، أو ربما على أقل تقدير حين يُتَّخَذُ التعليم مطية لكسب عرض زائل ليس للنفس همٌّ سواه .

وقل مثل ذلك في بقية جوانب الحياة ، حين تفقد القدوة الصالحة المصلحة التي تتخذ في حياتها مبدأ ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ سورة هود ، آية ٨٨ .

إنه من المحال أن تستقل مؤسسة من المؤسسات التربوية النظامية منها وغير النظامية بالتربية ، وإنه من الجهل العميق أن نتصور أنه من الممكن أن تعمل مؤسسة من هذه المؤسسات بمعزل عن الأخرى في تربية الشخصية الإسلامية ، إذ الجميع كل متكامل يصب في قالب واحد ، حين يقوم كلٌّ بدوره وفق توجيهات الإسلام، وبقدر ما تتخلف جهة عن دورها المنوط بها بقدر ما تصاب الشخصية الإسلامية في تربيتها ، لتبوء تلك الجهة بإثمها وإثم كل من كانت سببا في انحرافه ، وفي هذا المعنى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ذكر ذلك الإمام مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) :﴿ من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء ﴾ سبق تخريجة ص ١٠٦ .

والحديث يشير إلى أهمية القدوة في التربية فيرغب في أن يكون الناس قدوات في الخير، واضعا في الحساب أجر من اقتدى بهذا الخير، فيكتب الله للقدوة الذي أحياه بعد أن اندثر ، ونشره بعد أن انطمر ، أجره وأجر من عمل به إلى يوم القيامة ، ويرهب الناس أن يكونوا قدوات في الشر ، واضعا في الحساب عقوبة من سنَّ هذا الشر فيكتب الله عليه وزره ووزر من عمل به إلى يوم القيامة .

الآثار التربوية للقدوة :

ما هناك شك أن أسلوب القدوة هو أنجح الأساليب التربوية فاعلية ، وأعظمها أثرا ، بل إن تأثيره في بعض الأحايين أكثر من تأثير الأمر والنهي والموعظة، بل ربما كان تأثيرها أكثر من تأثير الضرب والحبس والقتل .

روى البخاري في صحيحه (د ـ ت) في سياق قصة الحديبية حين صد المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيت ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه :﴿ قوموا فانحروا ثم احلقوا قال ـ الراوي ـ فوالله ما قام منهم رجل ، حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت أم سلمة : يا نبي الله أتحب ذلك ؟ أخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك فيحلقك ، فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك ، نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غمًّا ﴾ ج٣ص٢٥٧ .

سبحان الله هذا رسول الله يأمر المرة والمرتين والثلاث فلا يستجاب له ! ومِنْ مَنْ ؟ من كبار الصحابة ، لماذا ؟ حين غابت عن أذهانهم القدوة الفاعلة المؤثرة في ذاك الموقف ، لكنه ما إن حَلَّ وحلق ، حتى حلوا وحلقوا بلا حرج ولا ممانعة .

وإذا كان هذا هو حال الصحابة مع رسولهم صلى الله عليه وسلم فكيف بمن هو دونهم في الفضل والسابقة ؟ مع أنهم رضوان الله عليهم ما كانوا يمتنعون عن

ذلك رغبة في مصالح خاصة ، أو شهوات ذاتية ، أو استكبارا عن تنفيذ أمره ، وإنما كان ذلك حرصا منهم على دخول مكة لأداء العمرة التي طالما تلهفت نفوسهم الزكية لها ، وتحديا للمشركين الذين كان الصحابة ـ حسب تصورهم ـ لا يرضون الدنية في دينهم بالعودة إلى المدينة وأعداء الله يشاهدون ، سيما وأن الزمن زمن تشريع ، وربما نزل من السماء توجيه لهم بدخول مكة لأداء العمرة أو مقاتلة المشركين .

إن التربية بالقدوة أسلوب تربوي إسلامي أصيل ، بدأه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وربى أتباعه على ذلك ، فلما رأوه صلى الله عليه وسلم ، قدوة فيما يأتي وما يذر ، أحبوه من سويداء قلوبهم ، وتسابقوا إلى متابعته وتنفيذ أمره ، واستلهموا هذا الهدي من سلوكه ، فكانوا في الخير قدوات ، وفي الهدى والرشاد أسوات .

فهذا خليفته الأول ، وصاحبه في الغار ، أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه ، يتولى خلافة المسلمين بعده ، فيرتقي المنبر خطيبا في الناس يقول لهم كما روى ذلك ابن كثير بسند صحيح في البداية والنهاية (د ـ ت):((أما بعد أيها الناس : فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع إليه حقه إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا خذلهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله)) ج٥ ص٣٠١.

إنها كلمات قلائل عليها آثار التربية النبوية ، مملوءة بالصدق ، ممزوجة بالإخلاص ، تزينها القدوة الصالحة التي تدعو الناس إلى الخير ، وهي تعاهد الله أن تكون أول الساعين إليه والمطبقين له .

وهكذا تتابعت القدوات الصالحة التي تربت في مدرسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخلدت لها في العالمين ذكرا حسنا .

ويأتي بعد الخليفة الراشد أبي بكر ، أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فحمل الراية ، وأكمل البناء ، وسار على الطريق ، فصنع للمسلمين في خلافته حضارة قامت على أسس من الدين الصحيح الذي وضع لبناته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت حديث القاصي والداني والعدو والصديق .

ولا غرابة من ذلك ، فقد وافق القرآن رأي عمر في مواضع عدة ، ولا غرو فلو كان في الأمة محدثا لكان عمر ، إنه عمر الذي وافق الحق قلبه ولسانه .

يقول أبوالعينين في البحث الذي قدمه لمكتب التربية العربي (١٤٠٩هـ) :

((تربى عمر في مدرسة النبوة ، وكانت آثارها في نفسه قوية ، انطبعت على كل سلوكه ، تعلم منها الإيمان والإخلاص والصدق ، وتعلم منها تحمل المسئولية بصدق ، وتفانى من أجلها ، اتخذ من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا أعلى وقدوة ، فكان قويا في الله ، عادلا تربويا من طراز رفيع ، وكان هذا منطلق اهتماماته التربوية)) ص ٣١ .

خطب يوم تولى الخلافة خطبة بليغة عظيمة أرسى فيها قواعد الحكم العادل، والمنهجية الصادقة ، وكان مما قال ما ذكره ابن الجوزي في صفة الفوة(١٤٠٦هـ) : ((اللهم إني شديد فليِّني ، وإني ضعيف فقوني ، وإني بخيل فسخني)) ج١ص ٢٨٠ .

وكان بعد خلافته إذا أراد أن يأمر الناس بأمر جمع أهله ليعرض عليهم مايريد أن يبلغ الناس به ليكونوا أول الممتثلين له .

فقد روى الطبري في الرياض النضرة (د ـ ت) عن سالم بن عبد الله بن عمر قال : ((كان عمر إذا نهى الناس عن أمر دعا أهله فقال : إني نهيت الناس عن كذا وكذا ، وإنما ينظر الناس إليكم نظر الطير للحم ، فإن وقعتم وقع الناس ، وإن هبتم

هاب الناس ، وإنه والله لا يقع أحد منكم في شيء نهيت الناس عنه إلا أضعفت له العقوبة لمكانه مني)) ج ٢ ص ٣٠٨ .

وروى أيضا : ((أن عمر جاءته برود من اليمن ففرقها على الناس بردا بردا ، ثم صعد المنبر يخطب ، وعليه حلة منها ، فقال : اسمعوا رحمكم الله ، فقام إليه رجل من القوم ، فقال : والله لا نسمع ، والله لا نسمع ، فقال : ولم يا عبد الله ؟ قال : لأنك يا عمر تفضلت علينا بالدنيا ، فرّقت علينا بردا بردا ، وخرجت تخطب في حلة منها ، فقال : أين عبد الله بن عمر ؟ فقال : ها أنا يا أمير المؤمنين ، فقال : لمن أحد هذين البردين اللذين علي ؟ قال : لي ، فقال للرجل : عجلت علي ياعبدالله ، إني كنت غسلت ثوبي الخلق ، فاستعرت ثوب عبد الله ، قال : الآن نسمع ونطيع)) ج ٢ ص ٣٣٢ .

سبحان الله !! ما هذا التحول العجيب في مواقف الرجل ، يحلف بالله وقد اشتاط غضبا ألا يسمع ولا يطيع ، ويقول بعد لحظات بلا حديد ولا سياط : الآن نسمع ونطيع ، إنه سلطان القدوة المؤثر الذي لا يعادله على وجه الأرض سلطان .

وقال مرة من على المنبر كما ذكر ذلك الطبري في تاريخ الرسل والملوك (د - ت) :((إني حريص على ألا أدع حاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض ، فإذا عجز ذلك عنا تأسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف ، ولوددت أنكم علمتم من نفسي مثل الذي وقع فيها لكم ، ولست معلمكم إلا بالعمل)) ج ٣ ص ٥٨٤.

ولقد كانت أفعاله أبلغ في التأثير من أقواله ، فقد علّم الناس بالعمل ، وحملهم على ما يريد من أمور الخير بالقدوة ، ولهذا ذكر المحب الطبري في الرياض النضرة (١٤٠٥هـ) أن عمر لما ولى أمور المسلمين ((ظل على حاله في لباسه وزية وأفعاله وتواضعه ولم تبطره النعمة ، ولا استطال على مؤمن بلسانه)) ج٢ص ٣١٤ .

وذكـر ابن سـعد في الطبقـات (د ـ ت) كلمات لعـمـر يقرر فـيهـا مبـدأ القـدوة وكـيف يؤثر ، فـكان يقـول لنفـسـه :((والله بني الخطـاب لتـتقين الله أو ليعذبنك . . . وقـال مرة : إن الناس لم يزالوا مستقـيمين ما استقـامت لهم أئمتهم وهداتهم . . . إلى أن قـال : الرعيـة مؤديـة إلى الإمام مـا أدى الإمام إلى الله فـإذا رتع رتعوا)) ج ٣ ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣ .

إن القدوة عنـصر فعـال في نجاح العـملية التـربوية ، لكون النفس تسكن إلى ماتدعى إليه حين ترى الداعي يمتثل ذلك .

وحين تفقد القـدوة فيردد المربي ما لا يفعل ، لا تصل توجـيهاته إلى القلب ، ولا تستجيب له الأفهام ، لأنه بذلك قد أفقد الثقة في نفسه حين يتخلى عن مبادئه التي يدعو إليهـا ، إذ لو كانت حقا ـ في نظر الآخرين ـ لكان أول السـابقين إليها ، والمنفذين لها .

ومن هذا المنطلق حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أن يكـون قدوة فيما يأتي وما يذر ، فكان لا يأمر بأمر إلا كان أول الممتثلين له ، وكان لا يدعو إلى خلق كـريم إلا كـان أعظم الناس تمـسكا به ، بل لقـد كـان الصـحـابة رضي الـله عنهم يقـرؤون في سـائر تصرفـاته ـ من أقـوال وأفـعال ـ أخـلاق الإسـلام التي وردت في الكتاب والسنة . فـاستقى الصحابه رضي الله عـنهم منه صلى الله عليه وسلم هذا المبدأ الذي يعتبر أهم أساليب التـربية في الإسلام ، ولهذا يمكن للباحـث أن يلخص آثار القدوة في النقاط التالية :

١ـ محبة الناس للإنسان القدوة .

٢ـ القناعة التامة بما يطرحه ويدعو إليه .

٣ـ الامتثال والتطبيق لما يدعو إليه بدون حرج ولا ممانعة .

وهكذا كـان قصب السـبق للتـربية الإسـلاميـة في تقـرير هذا المبدأ التـربوي العظيم لما له من الأثر الواضح في حمل الناس على الخيـر وبعدهم عن الشر ، على إختلاف أعمارهم وأجناسهم سواء كانوا أطفالا أو شبابا أو كهولا رجالا أو نساء.

ثانيا : ضرب المثل

من أساليب التربية الوقـائية في الإسلام أسلوب ضرب المثل ، ذلك الأسلوب التـربوي الأمثل في حـمل النفس على الخير ، أو تحـذيرها من الوقوع في الشـر عن طريق تـقـريب المعنى الذي ربما يـغيب عـن الذهن في صـورة قـريبـة من الحس تستـحضرها الـعقول ، وتتـصورها الأفهـام ، كل ذلك في قوالب أدبيـة ، وأساليب بلاغية ، تخاطب الوجدان والعقل والعاطفـة على حد سواء ، فإن كان الإسلام عبر مصدريه يدعو إلى أمر ويرغب فيه ، فإنه يضرب له بمثل من الأمثال التي ترتاح لها النفوس وتطمئن لهـا الأسماع ، وإن كان الإسلام يريد التنفيـر من أمر مشين ، فإنه يضرب لـذلك بمثال تقشـعر منه النفـوس ، وتنفر منه الـطبائع ، وإن كان يريـد بيان حقيقة من الحـقائق فإنه يستخدم هذا الأسلوب المؤثر ، فتتـضح صورة ما يريد بيانه وضوحا لا التباس فيه ، وفي هذا حمل للنفس على الإيمان به ، والقناعة بأثره .

وفي كلا الحالتين يصل بين المعنيين بـحبل من التشبيه البـديع ، تظهر الحكمة من ذلك في نهاية المثل المضروب ، أو تترك للعـقل يستنبطها ، فيكون هذا أوقع في النفس وأبلغ في التأثير .

يقـول الترمـذي في كتـابه الأمثـال (د ـ ت) :((فمن تدبيـر الله لعبـاده أن ضرب لهم الأمـثال من أنفسـهم لحاجتـهم إليها ليـعقلوا بها فـيدركوا مـا غاب عن أبصارهم وأسـماعهم الظاهرة ، فمن عـقل الأمثال سـماه الله تعالى في كتـابه عالما لقـوله تعالى :﴿ وتلك الأمـثال نضـربهـا للناس وما يعـقلها إلا العـالمون ﴾ ص ٢ ، والآية في سورة العنكبوت برقم ٤٣ .

يقول النحلاوي في أصول التربية الإسلامية : (١٤٠٣ هـ) مبينا أثر ضرب الأمثال :((والأمـثال القرآنية والنبوية سلاح بلاغـي ، عاطفي ، عقلي ، بليغ الأثر ، عظيم النتائج ، جمُّ الفائدة)) ص ٢٥٤ .

وإذا كان هذا هو تأثير الأمثال حين تضرب فلا بد من تعريفها ، والوقوف على أنواعها في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وكيف تساهم في وقاية الشخصية الإسلامية من الانحراف ، ثم عرض أثارها التربوية .

مفهوم المثل :

ذكر الأزهري في تهذيب اللغة (١٩٦٧ م) في تعريف المثل قوله : ((قال الليث : المثل : الشيء الذي يضرب مثلا فيجعل مثله)) ج ١٥ ص ٩٥ .

وذكر الجوهر في الصحاح (١٤٠٤هـ) في تعريف المثل قوله :((مثل : كلمة تسوية ، يقال : هذا مِثْلُهُ ومَثَلُه كما يقال شِبهُه وشَبَهُه . والمثل ما يضرب به من الأمثال . ومثل الشيء أيضا صفته)) ج ٥ ص ١٨١٦ .

وقال المناوي في التوقيف على مهمات التعاريف (١٤١٠هـ) :((المثل عبارة عن قول في شيء قولا في شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره . وقال الحرالي : المثل : أمر ظاهر للحس ونحوه يعتبر به أمر خفي يطابقه فيفهم معناه باعتباره)) ص ٦٣٦ .

وقال ابن زكريا في معجم مقاييس اللغة (١٣٩٩هـ) :((مثل : الميم والثاء أصل صحيح يدل على مناظرة الشيء للشيء ، وهذا مثل هذا أي نظيره ، والمثل والمثال في معنى واحد ، وربما قالوا مثيل كشبيه)) ج ٥ ص ٢٩٦ .

وقال القطان في كتابه مباحث في علوم القرآن (د - ت) :((المثل هو إبراز المعنى في صورة رائعة موجزة لها وقعها في النفس ، سواء كانت تشبيها أو قولا مرسلا ، وهذا الضابط أليق بتعريف المثل في القرآن)) ص ٢٨٣ .

ومن خلال ما سبق عرضه عن المثل يتبن أن المثل : أسلوب من أساليب الكلام يؤتى به لعرض حقيقة من الحقائق أو للربط بين أمرين أحدهما غائب عن

الذهن والآخر محسوس متخيل في الذهن وذلك لتقريب ما غيب عن الذهن من المعاني بصورة بلاغية موجزة تنفذ إلى أعماق النفس مثيرة للعواطف والوجدان .

أنواع الأمثال :

والقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وهما أعظم مصدرين على وجه الأرض لتربية الإنسان تربية صحيحة ، قد اشتملا على هذا الأسلوب التربوي الفريد ، الذي ينفذ إلى خلجات النفس الإنسانية فيصون فطرتها الخيرة ، ويعالج خطأها الطاريء ، وفق هدي سماوي رباني ، أنزله لتربية هذه النفس رب العالمين ، الذي يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

وقد وردت الأمثال في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على أنواع ، ذكر منها القطان في كتابه مباحث في علوم القرآن (د ـ ت) ما معناه :

النوع الأول : الأمثال الصريحة ، وهي التي وردت في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم بألفاظ المثل الصريحة سواء كانت عرضا لحقيقة ، أو تقريبا للمعنى في ذهن السامع بقصد الترغيب أو الترهيب أو كانت للمدح أو خلاف ذلك ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون * ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ سورة إبراهيم آية ٢٤ ـ ٢٦ .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نار ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها ، فجعل الرجل يزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها ﴾ والحديث في مختصر صحيح مسلم للمنذري (١٤١٢هـ) ص ٧٠٤ ، تحقيق الألباني .

النوع الثاني : الأمثال الكامنه أو الخفية وتختلف عن سابقتها أنها لم يصرح فيها بلفظ المثل ، وإنما شُبِّه فيها أمر غائب عن الحس بأمر مشاهد ترغيبا أو ترهيبا ، فمن ذلك قوله تعالى :﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث * وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ سورة القارعة آية ٤ ـ ٥ .

فقد شبه المولى جلت قدرته حال الناس يوم القيامة في العرصات وهو أمر مغيب عن الحس بأمر مشاهد وهو الفراش المبثوث .

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم كما روى ذلك مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ تجدون الناس كإبل لا يجد الرجل فيها راحلة ﴾ ج١٦ ص ٣٣٥ .

النوع الثالث : الأمثال المرسلة ، وهي التي لم ترد بلفظ المثل ولا التشبيه لكنها تجري مجرى الأمثال ، ومن ذلك قوله تعالى :﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ سورة هود آية ٨١ وكقوله تعالى : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة ﴾ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ والآية في سورة البقرة برقم ٢٤٩ .

وهذه الأنواع السالفة الذكر من الأمثال تنقسم إلى قسمين ، خلاصتها كما يقول البيانوني في كتابه ضرب الأمثال في القرآن (١٤١١هـ) :

١ـ الأمثال الموجزة أو السائرة ، وهي التي تشتمل على ألفاظ قليلة ولكنها تحوي من المعاني شيئا كثيرا . كقوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إن من البيان لسحرا ﴾ وفي رواية : ﴿ إن بعض البيان سحر ﴾ والحديث في صحيح البخاري (مختصر الزبيدي ١٤٠٩ هـ) ج ٢ ص ٤٦٣ .

وما من شك أن أكثر كلامه صلى الله عليه وسلم إنما كان إيجازا لكونه صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الكلم .

٢ـ الأمثال القياسية ، وهي التي تعرض الفكرة عن طريق التشبيه والتمثيل لتقريب المعقول من المحسوس ، أو أحد المحسوسين من الآخر ، ويجمع هذا النوع بين عمق الفكرة وجمال التصوير ، بهدف التأديب والتهذيب ٠ ص ٢٣ .

وقد ذكر الميداني في أمثال القرآن (١٤١٢هـ) تقسيما آخر للأمثال خلاصته: أن الأمثال تنقسم إلى قسمين هما : التمثيل البسيط والتمثيل المركب ، فالتمثيل البسيط : هو تمثيل مفرد بمفرد ، كتمثيل من لا ينتفع بالعلم بالحمار الذي يحمل الكتب ولا ينتفع بها ، قال تعالى ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا٠٠٠﴾ سورة الجمعة آية ٥

وكتمثيل الوحي بالغيث والقلوب بالأرض ، في الحديث الذي خرجه البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث أبي موسى رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :﴿ مثل ما بعثني الله من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه ف دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به ﴾ ج١ص ٣٠ .

والتمثيل المركب : هو الذي يقدم على شكل لوحة تصور أكثر من مفرد ، ووجه الشبه فيه لا يكون مأخوذا من مفرد بعينه ، بل يكون مأخوذا منه ومن غيره ، أو من الصورة العامة ، كتمثيل الإنفاق في سبيل الله بالحبة التي ألقيت في أرض طيبة ، فأنبتت سبع سنابل ٠

والتمثيل المركب ، إما أن يكون على شكل عناصر مفردة متلاقية ، تقابل أمثالها في الممثل له ، وإما أن يكون على شكل وحدة مركبة متداخلة تعطي

بجملتها وجه الشبه دون ملاحظة التقابل الجزئي بين مفردات المثل ومفردات ما ضرب له المثل ، ولكن ربما يكشف التحليل الدقيق رجوع بعض أمثلة هذا القسم الثاني إلى القسم الأول ، ولا يدرك ذلك إلا من وهبه الله دقة ملاحظة ، وقدرة على تحليل المركبات إلى عناصرها البسيطة ٠ ص٢٣ .

الأمثال في القرآن الكريم :

لقد ذكر المولى جلت قدرته في القرآن الكريم أنه يضرب الأمثال ، فقال سبحانه :﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ سورة الحشر آية ٢١ .

وقال سبحانه :﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ سورة العنكبوت آية ٤٣ .

وقال سبحانه :﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء * تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ سورة إبراهيم آية ٢٤ ـ ٢٥ .

وقال سبحانه :﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ سورة الرعد آية ١٧ .

وقال سبحانه :﴿ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ﴾ سورة إبراهيم آية ٤٥ .

وقال سبحانه :﴿ وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا ﴾ سورة الفرقان آية ٣٩ .

وحين يستعرض المتدبر للقرآن الكريم الآيات التي ضربت فيها الأمثلة يقف على أمرين اثنين :

أولهما : أن الله سبحانه يبين في بعض الآيات الحكمة من ضرب الأمثلة ، ففي سورة الحشر مثلا ، يبين ربنا سبحانه الحكمة من ضرب المثل بالجبل لو نزل عليه القرآن الكريم بقوله :﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ فقد ذكر سبحانه أنه لو كان من مهمة القرآن الكريم في هذه الحياة أن يقرأ على الجبال لتصدعت من خشية الله حين تسمعه ، بل لو كانت الحكمة من نزول القرآن ، أن يقرأ على الأرض لتقطعت حين تسمعه ، ولنطق الموتى حين يقرأ عليهم ، كما قال سبحانه :﴿ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ﴾ سورة الرعد آية ٣١ .

يقول ابن كثير في تفسيره (١٤٠٦هـ) :((أي لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها ، أو تقطَّع به الأرض وتنشق ، أو تكلم به الموتى في قبورها ، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره ، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك ، لما فيه من الإعجاز ، الذي لا يستطيع الإنسان والجن عن أخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ، أو بسورة من مثله)) ج٢ص ٧٩٧ .

ولكن القرآن ما نزل لذلك ، وإنما نزل ليقرأ على الناس فهم المكلفون بقراءته وتدبر آياته والعمل بما فيه ، وتحكيمه ، والتحاكم إليه .

فإذا استشعر المؤمن حال هذه المخلوقات الهامدة الميتة لو خوطبت بالقرآن ، استحيى من ربه عز وجل أن يُقرأ عليه كلامه وهو مكلف به ثم لا يتأثر لذلك ولا يخشع ، ثم يبين سبحانه الحكمة من ضرب هذا المثل بقوله في نهاية الآية ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ سورة الحشر آية ٢١ .

فالحكمة ظاهرة بينة لعلهم يتفكرون فيقارنون بين أنفسهم ـ وهم المكلفون ـ وبين المخلوقات الهامدة الميتة غير المكلفة ، فيقدروا القرآن حق قدره ، ويعظموه حق

تعظيمه ، فتسكن عند سماعه نفوسهم ، وتخشع عند تلاوته قلوبهم ، وتعمل بمقتضى توجيهاته جوارحهم ، فتستقيم على أثر ذلك أقوالهم وأفعالهم ، بل وحتى مشاعرهم وخلجات قلوبهم .

وثانيهما : ألا تنص الآية على الدعوة إلى التفكر والاعتبار ساعة ضرب المثل، كما في قوله سبحانه : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ سورة العنكبوت آية ٤٣ .

فقد بين ربنا سبحانه أنه يضرب الأمثال للناس ، وأخبر سبحانه أنه لا يعقلها ولا يدرك المراد منها إلا العالمون ، وفي ذلك دعوة للعقل أن يعمل ويفكر ويقيس ويقارن ساعة سماعه للمثل ، ليصل إلى النتيجة التي سيق المثل من أجلها ، فيستنبطها ويهتدي إليها ، دون أن يذكرها القرآن الكريم ، فإذا ضرب المثل ولم يهتد العقل إلى الحكمة من ذلك ، فهو الجهل الذي يخاف عواقبه المؤمن الصادق .

ذكر ابن كثير في تفسيره (١٤٠٦هـ) أن عمرو بن مرة قال :((ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني ، لأني سمعت الله تعالى يقول : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ ج ٣ ص ٦٦٠ .

ولهذا ذكر ابن القيم في كتابه أعلام الموقعين (د ـ ت) قوله :((فالأمثال شواهد المعنى المراد ، وهي خاصية العقل ولبه وثمرته)) ج ١ ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠ .

لقد زعم المنافقون ـ بقلة تفكيرهم وضيق أفقهم ـ أن الله سبحانه أجل من أن يضرب الأمثال بالمخلوقات الحقيرة كالبعوضة والذباب والعنكبوت والحمار والكلب فرد الله عليهم بقوله :﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ﴾ سورة البقرة آية٢٦ .

يقول ابن جرير في تفسيره (١٤٠٠هـ) من كلام قتادة رحمه الله :((إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، أي إن الله لا يستحيي من

الحق أن يذكر منه شيئا ما قل منه أو كثر ، إن الله حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت قال أهل الضلالة ما أراد الله من ذكر هذا فأنزل الله :﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها﴾ ج ١ ص ١٣٨ .

ولم يقل أعداء الله ذلك تعظيما لربهم وإجلالا له ـ وإن أخطأت أفهامهم في إصابة المراد ـ ولكنهم ينكرون ذلك حين بلغ الغيظ مبلغه ، عندما كشف القرآن الكريم أحوالهم فشبههم تارة بالذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون ، وتارة بصيِّب فيه ظلمات رعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت .

إن لضرب الأمثال خاصية عجيبة في كشف ما تحمله رؤوس أهل الجاهلية من عقول لا تعمل ، وقلوب لا تعي ، وآذان لا تسمع .

يقول العلواني في كتابه الأمثال في الحديث النبوي (١٤١٤هـ) وهو يحكي حال المشركين وشدة تأثير المثل عليهم حين ذكر الله عجز آلهتهم عن خلق الذباب ، بل عن استرداد ما أخذه الذباب من موائدهم :

((وهم يدخلون على الآلهة ويرون الذباب عليها ، ولو وقف على وجه أحدهم لطرده ، ويرون الأصنام غير قادرة على ذلك ، ويتردد صدى الآية الكريمة في آذانهم شاؤوا أم أبوا ، وتشتعل نار الغيظ في نفوسهم ، ويتمنون لو لم يكن الذباب قد خلق ، أما وقد خلق ، فيا حبذا لو كانت الأصنام قادرة على التصرف معه . . . وإذن لما كان بوسع المسلمين أن يتسلطوا عليهم بهذا السوط الذي ألهب ظهورهم ، إلا أن شيئا من ذلك لم يكن ، فهاهم المسلمون يقرعون آذانهم بما لا تهوى ، فما عساهم أن يفعلوا . . . فلما أوصدت في وجوههم كل هاتيك المنافذ، عمدوا إلى الانتقاص من ضرب الله الأمثال بالأشياء الحقيرة ، غير أن الله سبحانه لم يدعهم يستردون أنفاسهم بما عللوا أنفسهم به فقد فنَّد ما ذهبوا إليه بقوله :﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها . . . ﴾ ص ٦٢ .

الأمثال في السنة النبوية المطهرة :

لقد كان المربي الأسوة ، والمعلم القدوة ، رسول الله صلى الله عليه وسلم يستخدم هذا الأسلوب في تربيته لأصحابه ، بل كان يكثر من ذلك ، فقد روى الإمام أحمد (د ـ ت) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال :((عقلت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف مثل)) ج ٤ ص ٢٠٣ .

ومعنى ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستخدم ضرب الأمثال في كلامه كثيرا لعلمه صلى الله عليه وسلم ما للأمثال من أثر تربوي واضح في حمل الناس على الخير ، وتنفيرهم من الشر ، صيانة لفطرهم من الزلل ، ووقاية لهم من الوقوع في الخطأ .

يقول ابن المقفع في كتابه الأدب الصغير (١٣٨٠هـ) :((إذا جعل الكلام مثلا كان ذلك أوضح للمنطق ، وأبين في المعنى ، وأنقى للسمع ، وأوسع لشعب الحديث)) ص ٤٠ ـ ٤١ .

ويقول الزمخشري في الكشاف (١٣١٨هـ) : ((ولضرب العرب الأمثال ، واستحضار العلماء المثل ، شأن ليس بالخفي في إبراز غيبيات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى تريك المتخيل في صورة المتحقق ، والمتوهم في صورة المتيقن ، والغائب كأنه شاهد ، وفيه تبكيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجامح الأبي ، وقد أكثر الله في كتابه المبين، وفي سائر كتبه من الأمثال)) ج١ص١٤٩.

ولمثل هذه المعاني وغيرها أكد الإمام الشافعي رحمه الله كما ذكر ذلك السيوطي في الإتقان (د ـ ت) : أن معرفة الأمثال مما يجب على المجتهد في علوم القرآن . ج ٢ ص ١٢٣١ .

يقول عبد المجيد في كتابه نظرات فقهية وتربوية في أمثال الحديث (١٤١٣هـ) :((والأمثال من أبلغ الوسائل في البيان والإقناع ، ولهذا أكثر منها

النبي صلى الله عليه وسلم ونوع فيها ، وضرب للفكرة الواحدة أكثر من مثل)) ص ١٢٠ .

وغالبا ما كان يضرب لهم الأمثلة بما هو معروف لديهم أو يشاهدونه ، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه (د ـ ت) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالصفة فقال :﴿ أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو إلى العقيق فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم ولاقطع رحم ، فقلنا يا رسول الله ، كلنا يحب ذلك ، قال : أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله خير له من ناقتين، وثلاث خير من ثلاث، وأربع خير له من أربع ، ومن أعدادهن من الإبل﴾ ج ٢ ص ١٩٧ .

إن النفس الإنسانية تميل إلى ما ترى ، وتتعلق بما تشاهد ، فالنوق من أنفس الأموال عند العرب ، ومن أحب المتاع الذي يملك ، والعربي يفاخر بملكه للنوق ويبذل في تحصيل ذلك أنفس الأموال ، فكيف وهو يُعرض عليه ناقة عشراء ، يملكها بلا ثمن ، إلا مجرد الذهاب إلى وادي بطحان أو إلى وادي العقيق ، فلما تعلقت النفوس بهذا الأمر ، أخبر صلى الله عليه وسلم أن مجرد ذهاب المسلم إلى المسجد يتعلم آية خير له من ناقة ، وآيتين خير له من ناقتين ، وثلاث خير من ثلاث، عندها تستشعر النفوس قيمة تعلم القرآن ، وفي ضرب هذا المثل دعوة إلى العلم والتعلم والفقه والتفقه ، الذي يعد أعظم سبل الوقاية من الانحراف .

على أن النبي صلى الله عليه وسلم وهو يضرب الأمثال ، كان يستخدم في ذلك طرائق متعدده ، فتارة يضرب مثالا بالعبارة ، كما روى ذلك ابن ماجة في سننه (د ـ ت) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :﴿ ما أنا والدنيا ! إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح تركها ﴾ ج ٢ ص ١٣٧٦ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٤٠٨هـ) ج ٢ ص ٣٩٤ .

وتارة يضرب مثالا بالإشارة ، فقد روى البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث سهل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ وأنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا ، وأشار بالسبابة والوسطى ، وفرج بينهما شيئا ﴾ ج ٧ ص ٦٨ .

وتارة يعطي مثالا للمعنى الذي يريد بيانه بالصورة ، وهي ما يسميه التربويون اليوم بوسائل الإيضاح ، فقد استخدم صلى الله عليه وسلم هذا النوع من التمثيل ، بالخط على الأرض تارة ، وبالحجر تارة ، وبالعصا تارة أخرى . فقد روى البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال :﴿ خط النبي صلى الله عليه وسلم خطوطا فقال : هذا الأمل وهذا أجله وبينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب ﴾ ج ٨ ص ١١١ .

وروى ابن أبي الدنيا في كتابه قصر الأمل (١٤١٦هـ) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال : ﴿ أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أعواد فغرز عودا بين يديه ، والآخر إلى جنبه ، وأما الثالث فأبعده ، وقال : تدرون ما هذا ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ! قال : هذا الإنسان وهذا الأجل وذاك الأمل يتعاطاه ابن آدم ، ويختلجه دون الأمل ﴾ ص ٣١ قال الحافظ العراقي في تخريجه لهذا الحديث إسناده حسن .

وروى الإمام أحمد في مسنده (١٣٨٩هـ) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث حصيات فوضع واحدة ، ثم وضع الأخرى بين يديه ، ورمى بالثالثة فقال : هذا ابن آدم ، وهذا أجله ، وذاك أمله الي رمى بها ﴾ ج ٣ ص ٢٦٥ .

التربية الوقائية بضرب الأمثال :

في ثنايا القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة عشرات الأمثال يضربها الله للناس للترغيب في أعمال الخير ، أو الترهيب من أعمال الشر ، وقاية للشخصية الإسلامية من الانحراف في عقيدتها وأخلاقها .

ولهذا جاءت التدابير الوقائية في الكتاب والسنة بهذا الأسلوب التربوي المؤثر في عشرات المواضع ، منها على سبيل المثال:

*في وقاية الإنسان من الشرك الذي هو أكبر الكبائر على الإطلاق ورد في القرآن الكريم قوله تعالى :﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ سورة الحج آية ٣١ .

إنه تصوير قرآني عجيب لحال المشرك الذي ينفلت من عرى التوحيد ، وتشبيه له بحال من خر من السماء على أم رأسه في هاوية لا يدرك لها قعر .

وهنا وقفة مع كلمة [خَرَّ] وأخرى مع كلمة [السماء] وثالثة مع كلمة [تخطفه] ورابعة مع كلمة [الطير] وخامسة مع كلمة [تهوي] وسادسة مع كلمة [الريح] وسابعة مع كلمة [سحيق] فلم يقل رب العالمين سقط ، أو نزل ، أو وقع ، إنما قال سبحانه خر وفي الكلمة ما فيها من الانفلات العجيب ، والتردي الرهيب ، ومن أين ؟ من السماء ليذهب العقل في تصور العلو كل مذهب ، فإن المسافة بين السماء والأرض لا يكاد يتصورها العقل ، إنه علو بعيد بعيد ، يخر منه الإنسان يتقلب على رأسه وقدميه فتتمزق أوصاله قبل أن يصل إلى الأرض ، نعم تتمزق أوصاله لأن هناك من يرصده من الطير ، الطير التي لم يوضح القرآن ماهيتها ليذهب العقل في تصورها كل مذهب ، تتخطفه بمخالبها بلا هون ولا رفق ولا لين ، أو تهوي به الريح في مكان سحيق ، نعم إنها الريح لا الرياح ، الريح التي لم ترد في القرآن إلا عذابا عنيفا على المعرضين المكذبين الضالين ، فتهوي به في سرعة

مذهلة في مكان لم يقل عنه القرآن أنه بعيد بل سحيق ، وفي الكلمة ما فيها من هول السقطة ، وبشاعة النهاية .

وبعودة إلى الآية ، وبتتبع ألفاظها ، يقف المسلم على كلمات تدل على هول الحدث وفظاعة المنظر: يخر ، السماء ، تخطفه ، الطير ، تهوي ، الريح ، سحيق .

إنه تصوير عجيب مؤثر ، يزلزل الكيان ، ويهز القلوب ، لتقي الشرك وتحذره بكل صوره وأنواعه ، لأن المشرك يسقط من العلو الذي كان فيه ـ يوم أن كان على التوحيد الخالص ، والفطرة السوية ـ فتتشتت أفكاره ومشاعره بين الآلهة التي جعلها أنداد لله ، أو تهوي به ريح الشرك والعذاب على أم رأسه في مكان سحيق ، وليس هناك من مكان سحيق بأشد وأبعد من نار جهنم وساءت مصيرا. وتأكيدا لهذا المعنى يضرب الله سبحانه مثلا لمن وصل إلى هذا الحال من المشركين ، فيقول: ﴿ ضرب الله مثلا عبدا مملوكا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ سورة الزمر آية ٢٩ .

* في وقاية الشخصية الإسلامية من أن تنحرف عن الصراط المستقيم يقول سبحانه في محكم تنزيله :﴿أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم﴾ سورة الملك آية ٢٢ .

إنه تشبيه مثير للانتباه ، ملفت للنظر ، إذ يصور رب العالمين في كتابه الكريم من ينحرف عن الصراط المستقيم ، كمن يمشي مكبا على وجهه ، في منظر يثير التقزز والاشمئزاز .

يقول سيد قطب رحمه الله في الظلال (١٤٠٠ هـ) :

((هو الذي يعثر في طريقه فينكب على وجهه ، ثم ينهض ليعثر من جديد ، وهذه كتلك ، حال بائسة تعاني المشقة والعسر والتعثر ولا تنتهي إلى هدي ولا خير

ولا وصول ، وأين هي من حال الذي يمشي مستقيما سويا في طريق لا عوج فيه ولا عثرات ، وهدفه أمامه واضح مرسوم .

إن الحال الأولى هي حال الشقي المنكود الضال عن طريق الله ، المحروم من هداه ، الذي يصطدم بنواميسه ومخلوقاته ، لأنه يعترضها في سيره ، ويتخذ له مسارا غير مسارها ، وطريقا غير طريقها ، فهو أبدا في تعثر وأبدا في عناء ، وأبدا في ضلال .

والحال الثانية هي حال السعيد المجدود المهتدي إلى الله ، المستمتع بهداه ، الذي يسير وفق نواميسه في الطريق اللاحب المعمور ، الذي يسلكه موكب الإيمان والحمد والتمجيد ، وهو موكب هذا الوجود كله بما فيه من أحياء وأشياء)) ج ٦ ص ٣٦٤٤ .

* في الوقاية من الغيبة يقول سبحانه :﴿ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه﴾ سورة الحجرات آية ١٢ .

* في الوقاية من مجالسة أهل الفساد يقول صلى الله عليه وسلم كما روى ذلك البخاري في صحيحه (مختصر الزبيدي ١٤٠٩هـ ، تحقيق الألباني) : ﴿ مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير ﴾ ج ٢ ص ٤٥١ .

* في الوقاية من الانطواء عن الناس والبعد عن الخير يقول صلى الله عليه وسلم كما روى ذلك أبو داود في سننه (١٤٠٩هـ):﴿ فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية﴾ ج ١ ص ٢٠٥ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٤٠٨هـ) ج ١ ص ١٠٩ .

* في الوقاية من الكبر بادعاء الإنسان ما ليس له أو يقدر عليه يقول صلى الله عليه وسلم كماروى ذلك البخاري في صحيحه (مع الفتح د - ت) من

حديث أسماء رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿ المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور ﴾ ج ٩ ص ٣١٧ ، وهو في صحيح مسلم أيضا .

* في الوقاية من التشدق بالكلام الذي يعد خصلة ذميمة يقول صلى الله عليه وسلم كما روى ذلك الترمذي في سننه (د ـ ت) والحديث صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٤٠٩هـ) ج ٣ ص ٩٤٤ : ﴿ إن الله عز وجل يبغض البليغ من الرجال ، الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها ﴾ ج ٥ ص ١٣٠ .

* في الوقاية من الدنيا والغرور بحطامها ، وفي الدعوة إلى الاستعداد للآخرة بالعمل الصالح يقول صلى الله عليه وسلم كما روى ذلك الإمام مسلم في صحيحه (د ـ ت) : ﴿ ما مثل الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع ﴾ ج١٧ ص ١٩٢ .

* في الوقاية من انفلات الغريزة الجنسية فيما حرم الله يقول صلى الله عليه وسلم كما روى ذلك البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) : ﴿ يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء ﴾ ج ٩ ص ١١٢ .

* في الوقاية من الشح والبخل في البذل ، ومنه إعتاق الموالي ، روى الترمذي في سننه (د ـ ت) يقول صلى الله عليه وسلم : ﴿ مثل الذي يعتق عند الوت كمثل الذي يهدي إذا شبع ﴾ قال المباركفوري في (تحفة الأحوذي د ـ ت) ج٦ ص ٣١٦ ، وقال أبو عيسى حديث حسن صحيح .

* في الوقاية من القطيعة والدعوة إلى التعارف الذي يحقق الألفة والمودة والمحبة، يقول صلى الله عليه وسلم كما ذكر ذلك المنذري في مختصر صحيح

مسلم (د - ت) :﴿ كانت الأرواح جنودا مجنده ، فما تعارف منها ائتلف ، وماتناكر منها اختلف ﴾ ج ٨ ص ٤١ - ٤٢ .

وليس المجال يتسع لذكر ما ورد في الكتاب والسنة من الأمثال التي تحمل التدابير الوقائية في كل ميدان ، ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق .

وبالجملة فإنه لا يكاد يُرى خلق مشين إلا والإسلام يجعل بين العبد وبينه أسوارا من الوقاية ، مستخدما في ذلك جملة من الأساليب الوقائية ، ومنها ضرب المثل ، وكذلك الحال فيما يستحسنه الإسلام من الأخلاق الحميدة سواء كانت أقوالا أو أفعالا ، فإن الإسلام يدعو إليها ويحببها إلى النفوس بضرب أمثلة تحث على التخلق بها تعبدا لله رب العالمين .

الآثار التربوية لضرب الأمثال :

ورد في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ذكر الآثار التربوية لضرب الأمثال ، ذلك أن المعنى الذي تريد الآية الكريمة أو الحديث الشريف أن تتناوله بترغيب أو ترهيب فيما يخص جانب العقيدة أو الخلق أو غيرها من الجوانب، قد لا يكون متخيلا في الذهن بصورة تبعث على القيام به إن كان مما رغب الشارع الحكيم فيه ، أو تبعث على النفور منه إن كان مما نهى عنه وحذر منه، أو ربما كانت الحقيقة التي يراد عرضها غير متخيلة في الذهن ، فيضرب لذلك بمثل قريب من الذهن ويترك للسامع المقارنة بين الحالين ، ليهتدي إلى الحكمة التي سيق المثل من أجلها ، ويتحقق ذلك بصورة مؤثرة ، تحرك مشاعر النفس ، وتفتح مغاليق الذهن ، مع ما في ذلك من جودة العبارة ، وحسن التصوير، وبلاغة الأسلوب ، وقوة التأثير .

يقول النحلاوي في كتابه أصول التربية الإسلامية وأساليبها (١٤٠٣) في الحديث عن الأمثال القرآنية النبوية وما تحققه من الأهداف التربوية ما معناه : لم

يكن ضرب الأمثال في القرآن والسنة مجرد عمل فني يقصد من ورائه الرونق البلاغي فقط ، بل إن لها غايات نفسية تربوية حققتها نتيجة لنبل المعنى وسمو الغرض ، ومن أهمها : تقريب المعنى إلى الأفهام ، وإثارة الانفعالات المناسبة للمعنى وتربية العواطف الربانية ، وتربية العقل على التفكير الصحيح والقياس المنطقي السليم ، وتحريك الوجدان لتقوى إرادته على فعل الخيرات وترك المنكرات، فيستقيم على أثر ذلك سلوكه وسائر تصرفاته، وفي هذا سعادة الأفراد والمجتمعات، مما يساعد على بناء حضارة مثلى تظهر في جنباتها مظاهر الخير والعدل ، وتختفي على أثر ذلك معالم الظلم والشر والطغيان . ص ٢٤٩ ومابعدها.

ويقول عبد المجيد في كتابه نظرات فقهية وتربوية في أمثال الحديث (١٤١٣هـ) :((للمثل في الكلام مكانة هامة ووظيفة لا تنكر فائدتها ، فله تأثير عجيب في الآذان ، وتقرير غريب لمعانيها في الأذهان ، قال إبراهيم النظام : يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكفاية ، فهو نهاية البلاغة)) ص٨٣ .

ويقول الميداني في مجمع الأمثال (١٤٠٨ هـ) : ((وقد أثر عن ابن المقفع قوله : إذا جعل الكلام مثلا كان أوضح للمنطق ، وآنف للسمع ، وأوسع لشعب الحديث)) ج ١ ص ٨ .

ويقول العسكري (١٤٠٨هـ) في الحديث عن الأمثال إذا اشتمل عليها الكلام :((فإن ذلك يزيد المنطق تفخيما ، ويكسبه قبولا ، ويجعل له قدرا في النفوس ، وحلاوة في الصدور ، ويدعو القلوب إلى وعيه ، ويبعثها على حفظه ، ويأخذها باستعداده لأوقات المذاكرة ، والاستظهار به أوان المجادلة في ميادين المجادلة ، والمصاولة في حلبات المقاولة ، وإنما هو في الكلام كالتفصيل في العقد ، والتنوير في الروض ، والتسهيم في البرد)) ج ١ ص ٩ - ١٠ .

وخلاصة هذه الآثار :

١ ـ تقريب المعاني الغائبة عن الأفهام ، كقوله تعالى :﴿ وحور عين * كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ سورة الواقعة آية٢٢ ـ ٢٣ .

٢ ـ الترغيب في فعل خير حث الشارع الحكيم عليه ، كقوله تعالى :﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون ﴾ سورة إبراهيم آية ٢٤ ـ ٢٥ .

٣ ـ الترهيب من عمل مشين حذر الشارع الحكيم من إتيانه ، كقوله تعالى : ﴿ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ سورة إبراهيم آية ٢٦ .

٤ ـ عرض حقيقة من الحقائق لترسيخها في الذهن ، كقوله تعالى :﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ سورة الرعد آية ١٧ .

٥ ـ تدريب العقل على التفكير السليم ، وتربيته على القياس المنطقي الجيد ، كقوله تعالى :﴿ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا ﴾ سورة الرعد آية ٣١ .

٦ـ قوة التأثير والإقناع عند عرض فكرة ، أو بيان قضية ، أو تقرير مبدأ ، كقوله تعالى :﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين ﴾ سورة الأنبياء آية ١٠٤ .

٧ ـ حمل النفس على الخير عن طريق الثناء على بعض الأعمال التي يحبها الله ، أو عن طريق المدح لمن سطروا بأعمالهم خيرا ، وتمثيل ذلك بأحسن الأوصاف ، كقوله تعالى :﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ﴾ سورة الفتح آية ٢٩ .

٨ ـ التنفير من بعض الأعمال التي لا يحبها الله ، عن طريق ذمها وتمثيلها بأخبث الأوصاف ، كقوله تعالى :﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ سورة الجمعة آية ٥ .

وقد زاد الميداني في كتابه (أمثال القرآن الكريم (١٤١٢هـ) على هذه الثمانية ثلاثة آثار هي :

٩ ـ إثارة محور الطمع أو الرغبة ، و محور الخوف والحذر لدى المخاطب ، كقوله تعالى :﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ سورة البقرة آية٢٦١ .

١٠ ـ تدريب العقل على اختصار الفكرة في أقل عبارة ممكنة ، كقوله تعالى : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾ سورة النور آية ٣٩ .

١١ ـ إيثار تغطية المقصود من العبارة بالمثل تأدبا في اللفظ واستحياء ، كقوله تعالى: ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ ص ٦٠ ، والآية في سورة البقرة برقم ١٨٧ .

ثالثا :القصة

من أساليب التربية الوقائية في الإسلام أسلوب عرض القصة ، ذلك الأسلوب التربوي الفاعل الذي يعرض حدثا من الأحداث ، له بداية ونهاية ، تتخلله مواقف وحلقات تشد الانتباه ، وتحرك العواطف ، وتوقظ الحس ، فما يكاد ينتهي موقف من مواقف هذا الحدث ، أو حلقة من حلقاته ، إلا والنفس تتلهف لمعرفة النتيجة ، فتأخذ النفس من كل موقف عبرة ، ومن كل حلقة ذكرى ، قبل أن تخرج من القصة بكاملها بالعبرة والعظة التي سيقت القصة من أجلها .

إن القصة التي ترد في القرآن الكريم أو في السنة النبوية المطهرة ، لها أثرها البالغ في تربية النفس ، وحملها على الخير ، لكونها ترد في هذين المصدرين للتشريع الذي يقصد منه سعادة البشرية في دنياها وأخراها .

والفرق بين القصص الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وبين القصص الفنية الأدبية التي يحكيها البشر فرق كبير ، كما بين الثرى والثريا ، فإن النوع الأول وحي الله عز وجل إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، فمنه ما تكلم الله به وهو القرآن الكريم ، ومنه ما أوحى معناه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهي السنة النبوية المطهرة ، وكلاهما تشريع إلهي ، أما النوع الثاني وهي القصص الأدبية الفنية فإنها من تأليف بشر ، اختمرت حلقاتها في الذهن ، فسرح بها الخيال، وتأثرت بحبك فصولها العواطف ، والفرق بين النوعين كما يقول الشريف في كتابه التربية الإسلامية وقضية التفكير العلمي (١٤١٢هـ) :((كما بين الخالق والمخلوق)) ص ٢٤٥ .

وإذا كانت هذه هي منزلة القصة في التربية الوقائية في الإسلام فلا بد من الوقوف على تعريفها وأنواعها ، وكيف تتحقق التربية الوقائية من خلالها ؟ ثم عرض آثارها التربوية .

مفهوم القصة :

ذكر الرازي في كتابه مختار الصحاح (د ـ ت) في تعريف القصة قوله : ((مأخوذة من قص : أي تتبع الأثر)) ٢٤٩ .

وذكر ابن منظور في لسان العرب (١٤١٢هـ) في مادة قصص قولـه : ((والقِصَّة الخبر ، وهو القصص ، وهي الأمر والحديث ، والقَصَص : الخبر المقصوص ، والقاص الذي يأتي بالقصة على وجهها كأنه يتتبع ألفاظها ومعانيها)) ج٧ ص ٧٤ .

والقصة من وجهة نظر الباحث : حادثة وقعت ، لها بداية ونهاية ، مرتبطة بأسباب ونتائج ، تتخللها دروس وعبر ، يهفو إليها السمع ، وينجذب إليها الذهن، ويتحرك لها الفؤاد ،، ويتأثر منها الوجدان .

وقد وردت مادة قصص في القرآن الكريم في مواضع كثيرة ، فمن ذلك قوله تعالى :﴿ إن هذا لهو القصص الحق﴾ سورة آل عمران آية ٦٢ .

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف ﴾ سورة القصص آية ٢٥ .

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ سورة يوسف آية ٣ .

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ سورة غافر آية ٧٨ .

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ تلك القرى نقص عليك من أنبائها ﴾ سورة الأعراف ١٠١ .

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ سورة الكهف آية ١٣ والآيات في هذا المعنى كثيرة .

ووردت القصة في السنة النبوية المطهرة كثيرا كقصص بني إسرائيل ، ومنها قصة أصحاب الغار ، وقصة الراهب والغلام والساحر ، ومن القصص التي وردت في السنة أيضا قصص الصحابة رضي الله عنهم كقصة كعب بن مالك حين تخلف عن رسول الله في غزوة تبوك ، وغيرها كثير .

ثناء الله على القصص الواردة في كتابه الكريم :

لقد أثنى رب العالمين على القصص التي يوردها في كتابه ، ففي سورة آل عمران ، فَنَّد سبحانه أباطيل النصارى الذي نسبوا الولد إليه مُدَّعين أن عيسى ابن الله ، فبين سبحانه أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، ثم ختم الآيات في ذلك بقوله سبحانه :﴿ إن هذا لهو القصص الحق ﴾ سورة القصص آية ٦٢ .

وفي سورة يوسف عليه السلام أثنى رب العالمين في صدر السورة على هذا القصص بقوله جل ذكره :﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ سورة يوسف آية ٣ .

ليبعث في نفسية نبيه صلى الله عليه ونفسية كل مؤمن يفتتح هذه السورة ، أنه أمام أحسن القصص التي يعرض أحداثها اللطيف الخبير ، الذي لا أحد أحسن منه قيلا ، ولا أصدق منه حديثا ، وفي نهاية السورة يؤكد سبحانه الثناء على هذا القصص فيقول :﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ سورة يوسف آية ١١١ .

وفي سورة الكهف يثني رب العالمين على قصصه وهو يعرض حال الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم هدى ، فيقول :﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ سورة الكهف آية ١٣ .

أنواع القصة :

يرى الباحث أن القصص في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على نوعين :

النوع الأول : القصص المشاهدة : ومنها القصص المتعلقة بالحوادث التي وقعت في زمن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، كالغزوات ، وحادثة الإفك ، وقصة كعب بن مالك وغيرها ، فهي بالنسبة للصحابة رضي الله عنهم قصص مشاهدة ، يرون أصحابها ، ويشاهدون أماكنها ، وإن كانت بالنسبة لمن بعدهم قصص غيبية .

يقول شديد في كتابه منهج القصة في القرآن (١٤٠٤هـ) :

((وهذا النوع من القصص ، يعالج أحداث السيرة من واقع حياة الجماعة المسلمة ، وبخاصة في العهد المدني ، فيحكي لهم قصة معركة خاضوها ، أو حكاية موقف عاشوه ، لا لمجرد التسجيل التاريخي ، ولكن للعبرة والعظة والتوجيه، فيصور لهم تلك الأحداث في صورة تبرز موطن القوة والضعف ، وأسباب النصر والهزيمة ، وتكشف عن الخواطر وهمسات الصدور ، ويقلبها ويناقشها وهي معروضة في النور ، ويردها إلى أصولها ودواعيها ، فتتم العبرة م تلك الأحداث ، وتتم التربية في ظلها وفي حرارتها ، مما يكسب الجماعة المسلمة مزيدا من الخبرة والقوة والنضوج ... وكان من الطبيعي أن يتخلل هذا النوع من القصص بعض توجيهات القرآن المباشرة ، إتماما للعبرة وتحقيقا للهدف التربوي)) ص ٣٧ - ٣٨ .

النوع الثاني : القصص الغيبية : وهي إما أن تكون قصصا للأنبياء وقعت في الماضي كقصة آدم ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى وعيسى ويونس ، أو قصصا لغير الأنبياء ممن لم تثبت نبوتهم ، كقصة أصحاب الكهف ، وأصحاب الأخدود ، وذي القرنين ، أو تكون حديثا عن الأمم السالفة من أطاع منهم ومن كفر .

وإما أن تكون قصصا غيبية حاضرة ، كالحديث عن الله سبحانه ، فإنه موجود ولكنه يدخل ضمن دائرة الغيب ، وكذلك الجن والملائكة ، وإما أن تكون غيبية مستقبلية ومنها ما يجري في عرصات القيامة من الأمور التي أخبر عنها رب العالمين في كتابه أو نبيه صلى الله عليه وسلم في سنته .

ثم إن هذه القصص الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، تتنوع بحسب الموضوع الذي تعالجه ، وحسب الفكرة التي تريد تربية الناس عليها ، فتارة تأتي في لمحة سريعة قصيرة ، وتارة في عرض متوسط ، وتارة بإسهاب مطول ، ولهذا يمكن تقسيمها من هذا الاعتبار إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ القصة القصيرة : وهي التي ترد في القرآن الكريم أو في السنة النبوية المطهرة بعرض سريع تاركة للعقل أن يتصور أبعادها ، وأن يتفكر في أحداثها ، ليصل إلى العبرة التي سيقت القصة من أجلها ، ومثال هذا النوع من القصص ، قصة نبي الله إلياس عليه السلام في دعوته لقومه ، حيث عرض القرآن الكريم هذه القصة في عشر آيات قصيرات ، بعد أن أنهى الحديث عن موسى وهارون عليهما السلام ، ليعرض في لمحة سريعة ، قصة نبي الله إلياس عليه السلام ، الذي أنكر على قومه عبادة البعل قائلا لهم :﴿ أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين * الله ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ سورة الصافات آية١٢٥ ـ ١٢٦ .

ثم عرضت الآيات تكذيبهم له ، وإعراضهم عن دعوته ، ليعدهم الله بالحضور غدا بين يديه ليحاسبهم على هذا التكذيب والإعراض والصد والجحود ، مستثنيا من ذلك عباده المخلصين ، ثم ختم القصة بالثناء بصيغة التسليم على هذا النبي المبارك ، الذي أحسن وكان من المؤمنين .

وفي القصة ما فيها من التدابير الوقائية التي تعرض التهديد بالمثول بين يدي الله في عرصات القيامة لثلة مجرمة دعاها نبيها فلم تجب ، وذلك وقاية للنفس أن تتمرد على دعوة نبيها محمد صلى الله عليه وسلم ، فتكون من المحضرين .

٢ ـ القصة المتوسطة : ومثالها ما قصه الله سبحانه في سورة النمل عن قصة الهدهد والنملة وبلقيس مع نبي الله سليمان عليه السلام ، فقد أخذت هذه القصة من الأيات ما يقارب تسعا وعشرين آية ،حيث بدأت القصة بذكر الفضائل والمكرمات التي أكرم الله بها نبييه داود وسليمان ، ثم ذكر سبحانه ميراث سليمان من أبيه داود ومن هذا الميراث علم منطق الطير ، ثم صورت الآيات جنود سليمان وهي تحشر أمامه من الجن والإنس والطير ، ثم عرضت لوقفة نبي الله سليمان عليه السلام ، وهو يسمع كلام النملة تخاطب بني جنسها منادية وآمرة ومحذرة ومعتذرة ، وتبسم نبي الله من ذلك ، ثم عرضت الأيات نبي الله سليمان عليه السلام وهو يتفقد الطير فلا يجد الهدهد ماثلا بين يديه فيتهدده بالذبح أو العذاب ما لم يأت ببينة ، ثم عرض القرآن الكريم حال الهدهد وهو يبدي سبب تأخره ، وهو ما رآه في أرض اليمن من حال ملكة سبأ وقومها ، وموقف نبي الله سليمان منها ومن قومها ، مما جعلها تعتنق دين سليمان وتقول متأسفة ﴿ رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ سورة النمل آية ٤٤ .

٣ ـ القصة الطويلة : وهي التي ترد في القرآن الكريم مطولة ، ومثالها قصة نبي الله يوسف عليه السلام ، فقد عرض القرآن الكريم هذه القصة فاستغرقت السورة كلها ، تخللتها من المواقف والعبر والدروس التربوية ما يمكن أن يفنى العمر قبل أن يستكملها ، سواء كان ذلك فيما يخص جانب التربية الوقائية أو غيرها .

يقول سيد قطب رحمه الله في الظلال (١٤٠٠هـ) :

((إن القصة تعرض شخصية يوسف عليه السلام ، وهي الشخصية الرئيسية في القصة ، عرضا كاملا في كل مجالات حياتها ، بكل جوانب هذه الحياة ، وبكل استجابات هذه الشخصية في هذه الجوانب وفي تلك المجالات . وتعرض أنواع الابتلاءات التي تعرضت لها تلك الشخصية الرئيسية في القصة ، وهي

ابتلاءات متنوعة في طبيعتها ، وفي اتجاهاتها : ابتلاءات الشدة وابتلاءات الرخاء . وابتلاءات الفتنة بالشهوة ، والشهوة بالسلطان ، وابتلاءات الفتنة بالانفعالات والمشاعر البشرية تجاه شتى المواقف وشتى الشخصيات . ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والفتن كلها نقيا خالصا متجردا في وقفته الأخيرة ، متجها إلى ربه بذلك الدعاء المنيب الخاشع)) ج ٤ ص ١٩٥١ - ١٩٥٢ .

وخلال عرض القرآن الكريم لهذه القصة يقف المسلم على ألوان من العبر والمواقف التي تشد الانتباه وتستهوي الفؤاد ، وتوقظ الضمير ، وتؤثر في المشاعر ، مع ما فيها من التدابير الوقائية الكثيرة التي تتربى من خلالها الشخصية الإسلامية تربية تصون حياتها عن الزلل في مختلف الجوانب .

على أن القرآن الكريم في عرضه للقصة - كنوع واحد من الأساليب التربوية الناجحة التي حفلت بها التربية الإسلامية - يستخدم في ذلك طرائق مشوقة ، فتارة يعطي تصورا عاما عن القصة كعرض موجز ، ثم يبسط الحديث حولها كما هو الحال في قصة أهل الكهف ، فقد عرض موجز القصة في أربع آيات فقط هي قول الله تعالى :﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا * إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا * فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا * ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ﴾ سورة الكهف الآيات ٩ - ١٢ .

ثم يأتي بعد ذلك تفصيل القصة بعرض ما فيها من استنكار ما كان عليه قومهم من الضلال ، ثم اعتزالهم هذا المجتمع ، وفرارهم إلى الكهف ، وصحبة الكلب لهم ، ونومهم في الكهف ، ومدة نومهم ، وخروجهم من الكهف ، وعثور قومهم عليهم ، وبناء المسجد عليهم .

وقد تبسط القصة مفصلة من أولها تفصيلا دقيقا ، وقد تكون في مشهد واحد ، وقد تتجزأ في عدة حلقات ، يأخذ كل موقف حلقة منفصلة ، بما فيها من الدروس والعبر ، ثم تجمع كل حلقة مع الأخرى ، فتتكون قصة متكاملة بأحداثها المشوقة ، وعبرها المؤثرة .

وقد يعرض القرآن الكريم القصة مبسوطة في مكان ، مختصرة في مكان آخر والعكس ، وقد تتكر القصة الواحدة في القرآن كثيرا ، كقصة نبي الله موسى عليه السلام ، فهي من أكثر قصص القرآن تكرارا ، حيث وردت في القرآن في أكثر من ثمانين موضعا ، لكنها في جميع المواضع مختلفة العرض من حيث الطول والقصر بل و حتى في الألفاظ والعبارات والجمل ، ومن الأمثلة في ذلك ما قصه الله سبحانه في كتابه الكريم ، من ظلم فرعون لبني إسرائيل ، فقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى :﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ سورة البقرة آية ٤٩ .

وفي موضع آخر يقول سبحانه :﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ سورة إبراهيم آية ٦ .

فإن المتأمل في الآيتين لا يكاد يرى بينهما فرقا ، بينما الفرق واضح جلي ، سببه عدم وجود حرف الواو في الآية الأولى في قوله تعالى :﴿ يذبحون ﴾ ووجوده في الآية الثانية في قوله تعالى :﴿ ويذبحون ﴾ ففي الآية الأولى يبين سبحانه أن العذاب الذي كان يلقاه قوم موسى هو تذبيح الأبناء، واستحياء النساء، بينما ورد في الآية الثانية أن تذبيح الأبناء واستحياء النساء نوع آخر غير سوء العذاب الوارد في الآية ، وهذا الأمر هو أحد أسرار بلاغة القرآن ، وعظمته وإعجازه .

التربية الوقائية من خلال القصة :

إن المتتبع لأسلوب القصة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، يجدها مليئة بالتدابير الوقائية ، التي تحمي الشخصية الإسلامية من الانحراف في عقيدتها وأخلاقها ، بل وفي جوانب حياتها المختلفة ، سواء كان هذا الأمر هو المحصلة النهائية من سوق القصة ، أو غير ذلك من التدابير الوقائية التي يمر بها المتأمل وهو يتفكر في فصول القصة وأحداثها .

ففي قصة نبي الله إلياس عليه السلام ، السالفة الذكر ، من التدابير الوقائية التي تعرض التهديد للمكذبين بالمثول بين يدي الله تعالى في عرصات القيامة ، لتنال عقوبة تكذيبها وانحرافها ، وذلك وقاية للنفس من أن تتمرد على دعوة نبيها محمد صلى الله عليه وسلم فتكون من المحضرين .

وفيها أيضا من التدابير الوقائية الثناء على نبي الله المربي إلياس عليه السلام ، الذي صبر على أذى قومه ، حتى جعل الله له منهم فرجا ومخرجا ، وفي ذلك دعوة للمربي أن يصبر على ما يلقى من الأذى في سبيل دعوته التي نذر نفسه لها ، ووقاية له من أن يمل الطريق ، ويسأم الكفاح ، من أجل الحق الذي يحمله ، وفيها أيضا ثناء على المخلصين من المؤمنين الذين اتبعوه وآمنوا بالنور الذي أنزل معه ، وفي هذا دعوة للناس وشحذ للنفوس ، أن تسلك مسالك الصالحين ، وأن تتقي أخلاق المعاندين المعرضين .

وفي قصة نبي الله سليمان عليه السلام من التدابير الوقائية ما يلي :

١ - في وقاية العقيدة من الانحراف نسب سبحانه الملك الذي أوتيه آل داود إلى نفسه ، لئلا يتوهم أن هذا الملك أوتوه على علم عندهم ، وهذا مزلق خطير من مزالق العقيدة .

٢ـ في الوقـاية من سـوء الظن بالناس من غـيـر برهان ، عـرضت الآية درسـا تربويا عظيمـا للنملة وهي تحذر قـومها من تحطيم سليمان وجنوده لهن ، مـحسنة الظن بهم ، معتذرة لهن بقولها :﴿ وهم لا يشعرون ﴾ سورة النمل آية ١٨ .

٣ـ في الوقاية من ظلم الآخرين بغير حـق ، عرضت الآية درسا تربويا عظيما لنبي الله سليـمان وهو يـتهـدد الهدهد أن يذبحـه أو يعذبـه أو يأتي ببينة تعـفيـه من العقـوبة بسبب تأخـره ، قال تعـالى على لسان نبي الله سليـمان :﴿ لأعذبـنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ سورة النمل آية ٢١ .

٤ـ في وقـاية الأفراد والمجـتـمعـات من التـصدع والانهـيـار نتيـجـة لانتشـار الشائعات ، تعرض الآية درسا تربويا عظيما لنـبي الله سليمان في تثبته بعد أن أدلى الهدهد بحجته :﴿ قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾ سورة النمل آية ٢٧ .

٥ـ في الوقاية من الانفراد بالرآي الذي ربمـا أورث ندما في العواقب ، يعطي القـرآن الكريم درسا تربويا في الدعـوة إلى المشـورة ﴿ قالت يا أيهـا الملأ أفتـوني في أمري مـا كنت قاطعة أمـرا حتى تشهـدون ﴾ (سورة النمل آية ٣٢) مع أنهـا أعقل منهم رأيا ، وأكثر سدادا ، بدليل أنهم أشاروا عليـهـا برأي غير سديد فلم تقبله حين قالوا لها :﴿ نحن أولوا قـوة وأولوا بأس شديد ﴾ فلما أعادوا الأمر إليـهـا قالت لهم :﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفـسدوها وجعلـوا أعزة أهلها أذلة وكـذلك يفعلون ﴾ سورة النمل آية ٣٤ .

٦ـ في الوقـاية من الخطأ ساعـة إصدار الأحكام لا بد من فـقه واقع المسـألة ، فقد وصفت بلقيس الملوك بالفساد والظلم لعلمها بواقعهم .

أما قصـة يوسف عليه السلام ، فـإن المحصلة النهائية منهـا ، هي اليقين المطلق الذي لا يخـالطه شك أن الصبـر والتقـوى من أعظم سبل الوقـاية للعبد في الحـياة الدنيا وفي الآخرة .

على أن هناك من التدابير الوقائية التي اشتملت عليها القصة في بعض جزئياتها شيئا كثيرا ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر :

١- في حمل النفس على الثقة المطلقة بهذا المنهج الذي بين يديها ، وفي وقايتها من الريب ، أو الشك وفقدان الثقة ، أكد سبحانه أن قصص القرآن هي أحسن القصص ، قال تعالى :﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾سورة يوسف آية ٣ .

٢- في الوقاية من الحسد درس تربوي عظيم يستفاد من نبي الله يعقوب وهو يوصي ولده ألا يقص رؤياه على إخوته ، قال تعالى :﴿ يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا ﴾ سورة يوسف آية ٥ .

٣- في الوقاية من الوقوع في حبائل الشيطان يصور نبي الله يعقوب الشيطان أنه عدو ، والعدو من شأنه أن يتربص بعدوه الدوائر ، قال تعالى :﴿ إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ سورة يوسف آية ٥

٤- في الوقاية من الفاحشة عرض القرآن الكريم التجاء يوسف إلى ربه متعوذا به من أن يكله إلى نفسه طرفة عين ، قائلا :﴿ معاذ الله إنه أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ﴾ سورة يوسف آية ٢٣ .

ومنه إلحاحه على ربه أن يصرف عنه هذا الكيد بقله :﴿ وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ سورة يوسف آية ٣٣ .

٥- في الوقاية من ظلم الآخرين واتهامهم بغير دليل ، أمر سبحانه بالتثبت ، فقال تعالى :﴿ إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ سورة يوسف آية٢٦ - ٢٧ .

٦- في وقاية النفس من التأثر بالبيئات الملوثة في عقائدها ، وأخلاقها وأفكارها ، ذكر سبحانه تفضيل السجن والوحدة بالهروب عن هذه المستنقعات الأخلاقية فقال :﴿ رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه ﴾ سورة يوسف آية ٣٣ .

٧- في حمل النفس على الخير ، ودعوتها إلى العلم الذي يقيها بعد عون الله من التأثر بالمناهج المنحرفة ، ذكر سبحانه أن سبب هذا العلم الذي أوتيه يوسف هو ترك تلك الملل المنحرفة والمناهج الضالة ، فقال تعالى :﴿ ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون * واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴾ سورة يوسف آية٣٧ - ٣٨ .

٨- في وقاية النفس من اليأس والقنوط ، أمر سبحانه بالأخذ بالأسباب فقال سبحانه على لسان يعقوب عليه السلام :﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ سورة يوسف آية ٨٧ .

٩- في الوقاية من العين التي تورد الجمل القدر ، والرجل القبر يقول يعقوب عليه السلام لبنيه :﴿ يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ﴾ سورة يوسف آية ٦٧ .

١٠- في وقاية النفس من كيد الأعداء وتربصهم ، قال سبحانه :﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ سورة يوسف آية ٩٠ .

١١- في حمل النفس على المسامحة ، وفي وقايتها من الحقد والغل ، يقول سبحانه:﴿ وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾ سورة يوسف آية ١٠٠ .

وليس الباحث في هذه النقطة بإزاء استقصاء كل ما ورد في هذه القصص من التدابير الوقائية ولكنها نماذج في ذلك .

وخلاصة القول كما يقول الزحيلي في كتابه القصة القرآنية (١٤١٣هـ) :

((وتتفق القصة القرآنية مع أهداف القرآن التربوية الكبرى ، الذي جاء هداية للناس ، وتبيانا وتفصيلا لكل شيئ ، وتنبيها للإنسان من الغفلة والرقود ، والتحذير من أخطار الحياة ، وتصويب الآداب والسلوك ، وإيقاظ مشاعر الود والحب والخير، وتصحيح العقيدة ، وغرس بذور الإيمان بالله ربا وإلها واحدا لا شريك له ، وإبعاد الإنسان في حياته كلها من البلوغ إلى الشيخوخة عن مهاوي الانحراف والسقوط ، والتغلب على عوامل اليأس والقنوط ، والدفع إلى الحياة الإيجابية بهمة لا تعرف الكلل ، وعزيمة لا مجال فيها للملل والكسل ، وعطاء لا يفتر ، وتجديد وإنتاج مستمر لا ينقطع)) ص ١٥ .

وإذا كانت القصة تحمل هذه الأهداف وتحتوي على مثل هذه الغايات ولها من التأثير على القلوب والعقول ما لا يخطر على البال ، فإن المربين في حاجة إلى الإفادة منها في تحقيق مثل هذه الأهداف التربوية ، وغرس مثل هذه القيم الأخلاقية التي ذكرها الزحيلي آنفا ، وما يقال عن القصة في القرآن يقال عن القصة في السنة النبوية المطهرة ، إذ هي وحي الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولها من الأهداف والغايات ما تتطلع إليه القصة في القرآن الكريم .

الآثار التربوية للقصة :

للقصة آثار تربوية عظيمة ، قد لا تتحقق في غيرها من الأساليب التي جاءت بها التربية الإسلامية ، يقول النحلاوي في أصول التربية الإسلامية (١٤٠٣هـ) : ((والقصة القرآنية النبوية ، تمتاز بميزات جعلت لها آثارا نفسية وتربوية بليغة محكمة ، بعيدة المدى على مر الزمن ، مع ما تثيره من حرارة العاطفة، ومن حيوية النفس ، فتدفع الإنسان إلى تغيير سلوكه وتجديد عزيمته ، بحسب مقتضى القصة ، وتوجيهها وخاتمتها ، والعبرة منها)) ص ٢٣٤ .

إن النفس الإنسانية بطبيعتها تهفو إلى هذا اللون من الكلام ، فتجد في عرضه مادة تشبع عواطفها ، وتحرك مكامن الشعور فيها ، فلا تمل سماعه ، ولا يشرد بها التفكير ساعة عرضه، بل إنها لتنتقل معه، كلمة كلمة، حتى آخر عبرة .

يقول القطان في كتابه مباحث في علوم القرآن (د - ت) :((الحادثة المرتبطة بالأسباب والنتائج ، يهفو إليها السمع ، فإذا تخللتها مواطن العبرة في أخبار الماضين كان حب الاستطلاع لمعرفتها من أقوى العوامل على رسوخ عبرتها في النفس)) ص٣٠٥ .

إن الإسلام وهو دين الله الخالد ، قد جعل من أنجع أساليب التربية ، أسلوب القصة التي يهفو إليها الكبير والصغير والذكر والأنثى ، والذكي المفرط في الذكاء، والمتوسط في ذكائه وقدراته العقلية ، إنهم جميعا بلا استثناء تستهويهم القصة ، وتستثيرهم أحداثها ، وتؤثر في نفوسهم مواقفها .

على أن القصة في القرآن الكريم أو في السنة النبوية المطهرة ، يتخللها مواقف للتوجيه والتربية ، وليست قصصا عقيمة مجردة هدفها إمتاع الأسماع فحسب ، يقول محمد قطب في كتابه منهج التربية الإسلامية (١٤٠٩هـ) : ((والقرآن الكريم يستخدم القصة لجميع أنواع التربية والتوجيه التي يشملها منهجه التربوي : تربية الروح ، وتربية العاطفة ، وتربية الجسم ، والتوقيع على الخطوط المتقابلة في النفس ، والتربية بالقدوة ، والتربية بالموعظة ، فهي سجل حافل لجميع التوجيهات ، وهي كذلك - على قلة عدد الألفاظ المستخدمة في أدائها - حافلة بكل أنواع التعبير الفني ومشخصاته)) ج ١ ص ١٩٤ .

على أن القرآن الكريم أو السنة النبوية المطهرة وهما يستخدمان القصة في التربية والتوجيه ، يستخدمان أروع العبارات في الدلالة على المراد ، خذ مثلا حين قص القرآن الكريم علينا قصة يوسف عليه السلام ، وموقفه من امرأة العزيز حين

راودته عن نفسه ، فإن القرآن الكريم لم يعرض لصورة تلك المراودة ، هل كانت متجملة ؟ كيف كان ملبسها ؟ ماذا كان نوع طيبها ؟ ولم يحدثنا عن قامتها الممشوقة ، ولا عن شعرها الحريري ، ولا عن سعة عينيها ، وبهاء خديها ، لم يعرض القرآن الكريم لشيء من ذلك ، إنما صوَّر الحدث بعبارة مؤدبة لا تخدش الحياء ، ولا تثير الغرائز ، ولا تحرك الشهوات ، فقال :﴿ وغلقت الأبواب وقالت هيت لك﴾ ولو حدث أن عرض القرآن صورة تلك المراودة بعبارات مثيرة ، لكان هناك تناقض بين القصة وأهدافها ، ولكنه الكتاب المقدس الذيلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

يقول محمد قطب في كتابه منهج التربية الإسلامية (١٤٠٩هـ) :

((كما أن هناك نقطة بارزة أخرى في القصص القرآني ، وهو يعرض قصص الفاحشة ، إنه لا يعرضها لإثارة تلذذ القارىء أو السامع بمشاعر الجنس المنحرفة ، كما تفعل القصص الواقعية والطبيعية في المذاهب الحديثة الضالة ، فلحظة الجنس ـ منحرفة أو غير منحرفة ـ لا تستأهل الوقوف عندها بأكثر من مجرد الذكر . إنها ليست هي الحياة ، إنها عارض يعرض في الحياة ويُقْضَى ، يقضى ليفسح المجال لأهداف الحياة العليا الجديرة بالتحقيق)) ص ١٩٩ .

ولقد ذكر المولى جلت قدرته للقصة آثارا عظيمة في كتابه ، وعلل الحكمة من إيراد التشريع الذي يريد بيانه للناس في صورة قصة ، فكان من هذه الآثار :

١ـ التفكر وإعمال العقل ، قال الله تعالى بعد أن عرض قصة العالم الضال بلعام بن باعوراء الذي آتاه علما لم ينتفع به :﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ سورةالأعراف آية١٧٦ .

وقال في موطن آخر بعد ما قص من حال قوم لوط وكيف أهلكهم مخاطبا في ذلك قريشا لتعمل عقلها في نتائج الإعراض والصد والتمادي في الكفر والجحود :﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون﴾ سورة الصافات آية ١٣٧ ـ ١٣٨ .

٢ـ تثبيت الفؤاد ، قال تعالى :﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ سورة هود آية ١٢٠ ، فقد بين سبحانه الحكمة من قصص أنباء الرسل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، مبينا أن سر ذلك هو تثبيت الفؤاد ليواجه الشدائد والمحن بثبات وتؤده ، كما واجهها من كان قبله من الرسل الذي اصابهم في ذات الله من الأذى ما يفت الصم الصلاب .

يقول سيد قطب في الظلال (١٤٠٠هـ) :

((ففي الوقت الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعاني من الوحشة والغربة والانقطاع في جاهلية قريش ـ منذ عام الحزن ـ وتعاني منه الجماعة المسلمة هذه الشدة ، كان الله سبحانه يقص على نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم قصة أخ له كريم ـ يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين ـ وهو يعاني صنوفا من المحن والابتلاءات : محنة كيد الإخوة : ومحنة الجب والخوف والترويع فيه ، ومحنة الرق وهو ينتقل كالسلعة من يد إلى يد على غير إرادة منه ، ولا حماية ولا رعاية من أبويه ولا من أهله ، ومحنة كيد امرأة العزيز والنسوة ، وقبلها ابتلاء الإغراء والشهوة والفتنة ، ومحنة السجن بعد رغد العيش وطراوتة في قصر العزيز ، ثم محنة الرخاء والسلطان المطلق في يديه وهو يتحكم في أقوات الناس وفي رقابهم وفي يده لقمة الخبز التي تقوتهم ، ومحنة المشاعر البشرية وهو يلقى بعد ذلك إخوته الذين ألقوه في الجب ، وكانوا السبب الظاهر

لهذه المحن والابتلاءات كلها ، هذه المحن والابتلاءات التي صبر عليها يوسف عليه السلام وزاول دعوته إلى الإسلام من خلالها ، وخرج منها كلها متجردا خالصا آخر توجهاته وآخر اهتماماته في لحظة الانتصار على المحن جميعا وفي لحظة لقاء أبويه ولم شمله وفي لحظة تأويل رؤياه وتحققها كما رآها)) ج ٤ ص ١٩٥٠ .

إن في ثنايا قصة يوسف عليه السلام سلوة لكل محزون ، وتثبيتا لكل مفتون، وإنها لتزرع في الفؤاد ، ثباتا أمام كل محنة ، ويقينا بالخلاص من كل فتنة، إنها لتزيد المسلم أمام كل ابتلاء عقيدة بأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، ولا يصلح عمل المفسدين .

يقول الخالدي في كتابه مع قصص السابقين في القرآن (١٤٠٩ هـ) : ((ومسلمو هذا الزمان أحوج ما يكونون لتحقيق هذا الهدف القرآني من قصصه ، نحن أحوج ما نكون إلى أن نثبت بقصص القرآن أفئدتنا ، ونحقق الطمأنينة لقلوبنا، ونرسخ على طريق الحق مواقعنا ، ونثبت عليها أقدامنا ، نحن أحوج الناس إلى هذا لكثرة المثبطات والمعوقات والمغريات ، التي تميز بها هذا العصر ، واشتداد المعركة بين الحق والباطل ، وهجمة أهل الباطل الشرسة ضد جنود الحق ، وغياب الوجود الإسلامي الواقعي المتمثل في مجتمع وكيان ونظام)) ص ٢٧ .

٣ـ أخذ العبرة والعظة ، قال تعالى :﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾ سورة يوسف آية ١١١ .

وإن المتأمل لهذه الآية لتظهر له الحكمة من سوق القصص ، فالحكمة هي أخذ العبرة ، و ليس من الحق أن تكون القصة بحد ذاتها هدفا تشنف به الآذان ، وتملأ به المجالس ، وليس من الحق أن تقف الأسماع عند مجرد اللفتات البلاغية ، التي تشتمل عليها القصة ، إن المراد إلى جانب هذا كله أخذ العبرة التي تتأثر بها مجريات الحياة ، وتستقيم على آثارها السلوك والأخلاق في كل ميدان من ميادين الحياة .

رابعا : الترغيب والترهيب

هذا الأسلوب هو أحد أساليب التربيـة الوقائية الإسـلاميـة ، ذلك أن الخالق جلت قدرته ، حين خلق هذه النفس ، أنزل لتـربيتها في كتابـه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم هذا الأسلوب التربوي الأمثل الذي يتعامل مع هذه النفس المفطورة على السعـادة البالغـة حين تقطف ثمرة عـملها ، وتجني ثواب جـهدها ، ومفـطورة أيضا على الخوف والفزع مما يهدر جهدها ، أو يقلق راحتها في عاجل أمرها أو آجله .

وبما أن هذا الأسلوب قد ارتضاه للتربية رب العالمين الذي يعلم من خلق وهو اللطيف الخبيـر ، فـلا بد من إلقاء الضـوء عليـه ، عن طريق تعـريفه ، وأقـسامـه ، ومنهج القـرآن والسنة في تقريره ،، وكـيف تتم التربيـة الوقائيـة من خلاله ثـم ذكر آثاره التربوية .

أولا : مفهوم الترغيب :

ذكـر ابن منظـور في لسـان العــرب (١٤١٢ هـ) في مادة رغب قـوله : ((رَغِبَ يَرْغَبُ رَغْبـةً : إذ حـرص على الشيء ورغب فـيـه . والرَّغْبَـة : السـؤال والطمع . ورَغَّبه : أعطاه ما رغب ، قال ساعدة بن جؤية :

لقلت لدهـري إنـه هـو غزوتـي وإني وإن رَغَّبْتَني غيـر فاعـل

والرغيبة من العطاء : الكثير والجمع الرغائب ، قال النمر بن تولب :

لا تغضبن على امـريء في مالـه وعلى كرائم صلب مالك فاغضب

ومتى تصبك خصاصة فارج الغنى وإلى الذي يعطي الرغائب فارغب

وقال الكلابي : الرَّغَائب ما يُرغَب فيه من الثواب العظيم . ج ١ ص ٢٢٤ - ٤٢٣ .

وقال البستاني في كتابه الوافي (١٩٨٠م) : رَغِبَ فيه رَغْباً ورُغْباً ورَغْبَةً : أحبه وأراده بالحرص عليه)) ص ٢٢٦ .

وقال ابن زكريا في معجم مقاييس اللغة (١٩٨٠م) : ((رَغِبَ ، الراء والغين والباء ، أصلان أحدهما طلب الشيء ، والآخر

سعة في شيء ، فالأول ، الرغبة في الشيء : الإرادة له ، رغبت في الشيء ، فإذا لم ترده قلت : رغبت عنه)) ج ٢ ص٤١٤ - ٤١٦ .

وقال الفيروزابادي في القاموس المحيط (د - ت) :((والرغيبة : الأمر المرغوب فيه ، والعطاء الكثير)) ج ١ ص ٧٤ .

وقال الجوهري في الصحاح (١٤٠٤هـ) :((رغبت في الشيء إذا أردته ، رَغْبَة ورَغَبًا بالتحريك ، وارتغبت فيه مثله)) ج١ص ١٣٧ .

وقد عرفه النحلاوي في أصول التربية الإسلامية (١٤٠٣هـ) بأنه :((وعد يصحبه تحبيب وإغراء ، بمصلحة أو لذة أو متعة آجلة مؤكدة خيِّرة ، خالصة من الشوائب ، مقابل القيام بعمل صالح ، أو الامتناع عن لذة ضارة ، أو عمل سيء ابتغاء مرضاة الله ، وذلك رحمة من الله لعباده)) ص ٢٨٧ .

ويزيد الباحث على هذا التعريف بأنه : وعد يصحبه تحبيب وإغراء بمصلحة أو لذة أو متعة عاجلة أو آجلة ، أو كلاهما معا ... إلى آخر التعريف .

فقد زاد الباحث في هذا التعريف [المصلحة العاجلة] التي يجنيها الإنسان المسلم نتيجة عمل قدمه ، أو جهد قام به ، أو ربما جمع الله للإنسان بين خيري الدنيا والآخرة ، وقد تكون هذه المصلحة أو اللذة مادية أو معنوية ، ذلك أن الإسلام حين شرع أسلوب الترغيب للمؤمنين ، لم يقصره على المصالح الأخروية ، التي سماها النحلاوي [المصالح الآجلة] ، فيكدح الإنسان ويتعب ، ويعمل

وينصب على أمل أن يجد ثوابا في الآخرة - وإن كان متحققا - لا ، بل إن الإسلام يجعل عواقب عمل الإنسان الخيِّر في الدنيا حياة طيبة ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، وهذه هي المصلحة العاجلة ، وهذه هي اللذة المؤكدة الخيِّرة الخالية من الشوائب ، إضافة إلى ما يدخر الله للعبد المؤمن في الأخرة من النعيم السرمدي في جنة عرضها السموات والأرض .

ويمكن للباحث أن يصوغ للترغيب مفهوما مختصرا فيكون : وعد من الله بالجزاء العاجل أو الآجل أو كلاهما على فعل مأمور أوترك محظور ، وسوف يوضح الباحث - إن شاء الله - هذه المعاني حين الحديث عن أقسام الترغيب والترهيب .

ثانيا : مفهوم الترهيب :

ذكر ابن منظور في لسان العرب (١٤١٢هـ) في مادة رهب قوله :((رَهِبَ بالكسر ، يَرْهَب رَهْبَةً ورُهْباً بالضم ، ورَهَباً بالتحريك ، أي خاف ، ورَهِبَ الشيء رَهْباً ورَهَباً ورَهْبَةً : أي خافه . وتَرهَّبَ غيره إذا توعده . وأَرْهَبَه ورَهَّبه واسْتَرْهَبَه : أخافه وأفزعه)) ج ١ ص٤٣٦ .

وقال الفيروزابادي في القاموس المحيط (د - ت) :((أرهبه واسترهبه : أخافه ، وتَرَهَّبَه : توعده ، والمرهوب الأسد)) ج١ ص ٧٦ .

وقال الأزهري في تهذيب اللغة (د - ت) :((قال الليث : رهبت الشيء رهبا ورهبة : أي خفته)) ج ٦ ص٢٩٠ .

وقال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة (١٩٨٠هـ) :((رهب ، الراء والهاء والباء ، أصلان ، أحدهما يدل على خوف ، والآخر يدل على دِقَّة وخِفَّة)) ج ٢ ص ٤٤٧ .

وقد عرفه النحلاوي في أصول التربية الإسلامية (١٤٠٣هـ) :((بأنه وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على اقتراف إثم أوذنب ، مما نهى الله عنه أو التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به ، أو هو تهديد من الله يقصد به تخويف عباده ، وإظهار صفة من صفات الجبروت والعظمة الإلهية ، ليكونوا دائما على حذر من ارتكاب الهفوات والمعاصي)) ص ٢٨٧ .

ويمكن للباحث أن يصوغ له مفهوما فيكون : وعيد عاجل أو آجل أو كلاهما على ترك مأمور ، أو فعل محظور .

على أن المأمور به حين يطلق فإنما يراد به الواجب ما لم ترد قرينة تصرفه عن الوجوب ، إذ لا عقوبة على من خالف المسنون أو المستحب ، وإذا أطلق المحظور فإنما يراد به المحرم ما لم ترد قرينة تصرفه عن التحريم ، إذ لا عقوبة على من فعل المكروه ، كما يقرر ذلك الأصوليون في كتبهم .

أقسام الترغيب والترهيب :

الترغيب والترهيب في نظر الباحث على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ما كان ثوابه أو عقابه عاجلا في الدنيا ، فإن العبد حين يحسن مع ربه سبحانه أو مع نفسه أو مع الآخرين ، فإنه موعود بأن يعجل الله له الثواب والأجر ، سواء كان هذا الثواب ماديا أو معنويا ، وهو ما يسميه التربويون اليوم بالحوافز .

فمحبة الله للعبد الصالح الذي يجمع في عمله بين الإخلاص لله سبحانه ، وبين المتابعة لرسوله صلى الله عليه وسلم ، إنما كان هذا ثوابا عاجلا في الدنيا ، يستدل عليه بمحبة الناس ، والقبول الذي يجعله الله للعبد الصالح عند أهل الأرض، والذي هو نتيجة حتمية للعبادة الصحيحة ، التي عليها شرطا العبادة ،

الإخلاص لله ، والمتابعة لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فقد ورد في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه (د ـ ت) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إن الله يحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، فينادي جبريل في أهل السماء ، إن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء فيجعل الله له القبول في أهل الأرض﴾ ج ٨ ص ١٧.

وهذا حافز معنوي للعبد أن يتقرب إلى الله بالفرائض والنوافل لتتحق له هذه المحبة التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ إن الله قال من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ﴾ ج ٨ ص ١٣١ .

وقد يكون الثواب ماديا عاجلا ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يرغب في الجهاد في سبيل الله ، والثبات في موطن النزال ، بجائزة عاجله للمجاهد ، تحفز همتَّة ، وتشد من أزره ، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه (د ـ ت) من حديث أبي قادة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه ﴾ ج ٥ص١٤٨ .

على أن المقصد الأول للمجاهد في سبيل الله ، هو القتال لتكون كلمة الله هي العليا ، وليست السلب والغنيمة ، ذلك أن الله أغنى الشركاء عن الشرك ، وأن من عمل عملا أشرك مع الله فيه غيره تركه الله وشركة ، وإنما السلب والغنيمة

حافز مادي معجل للعبد في الدنيا بالإضافة إلى ما يدخره الله سبحانه للمجاهد من الدرجات العالية في الجنة .

القسم الثاني : ما كان ثوابه آجلا مدخرا للعبد المؤمن عند ربه سبحانه ، يوفيه إياه حين يقدم عليه أحسن ما يكون الوفاء ، ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه (د ـ ت) من حديث الصحابي الجليل جابر بن سمرة في قصة ابن الدحداح ، قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابن الدحداح ثم أتي بفرس عري فعقله رجل فركبه فجعل يتوقص به ونحن نتبعه نسعى خلفه ، قال : فقال رجل من القوم : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ كم من عذق معلق أو مدلى في الجنة لابن الدحداح أو قال شعبة: لأبي الدحداح ﴾ ج ٣ص ٦٠-٦١.

قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم (د ـ ت) في شرحه لهذا الحديث ، وبيان سبب هذا الأجر العظيم الذي ناله ابن الدحداح في الجنة :((أن يتيما خاصم أبا لبابة في نخلة ، فبكى الغلام ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أعطه إياها ولك بها عذق في الجنة ، فقال : لا ، فسمع بذلك أبو الدحداح فاشتراها من أبي لبابة بحديقة له ، ثم قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ألي بها عذق إن أعطيتها اليتيم ؟ قال : نعم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كم من عذق معلق في الجنة لأبي الدحداح)) ج ٧ ص ٣٧ ـ ٣٨ .

القسم الثالث : ما جمع الله فيه للعبد بين الثواب العاجل والآجل ، فيتحقق له خيري الدنيا والآخرة ، زيادة في تفضل الله وكرمه على عبده ، ومن ذلك قوله تعالى :﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ سورة النحل آية ٩٧ .

فقد أطلق المولى جلت قدرته الحياة الطيبة ، ولم يقيدها بنوع معين من الأجر، مبالغة في العطاء والكرم ، سواء كان ذلك العطاء ماديا من رزق حلال أو خلافه، أو سواء كان ذلك رزقا معنويا من السعادة وانشراح الصدر والأنس بالله .

قال الإمام الرازي في تفسيره (١٤١٠هـ) ((هذه الآية للوعد بالخيرات ، والمبالغة في تقرير الوعد من أعظم دلائل الكرم والرحمة ، إثباتا للتأكيد وإزالة للتخصيص)) ج ٢٠ ص ١١٤ .

وقد اختلفت إجابات المفسرين حول تحديد هذه الحياة الطيبة هل هي في الدنيا ؟ أم في القبر ؟ أم في الآخرة ؟

فذكر الرازي في تفسيره (١٤١٠هـ) لمعنى الحياة الطيبة قوله :((قال القاضي : الأقرب أنها تحصل في الدنيا ، بدليل أنه تعالى أعقبه بقوله :﴿ ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ ولا شبهة في أن المراد ما يكون في الآخرة)) ج ٢٠ ص ١١٤ .

وإذا كان الترغيب على ثلاثة أقسام فإن الترهيب على ثلاثة أقسام أيضا :

القسم الأول : ما كانت عقوبته معجلة للعبد في الدنيا ، ومن أمثلة ذلك ، عقوبة الله المعجلة لأكَلَةِ الربا ، بزوال بركة ما يجمعونه من الأموال ، قال تعالى : ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لايحب كل كفار أثيم﴾سورة البقرة آية ٢٧٦.

قال ابن جرير في تفسيره (١٤٠٠هـ) :((يعني عز وجل بقوله : يمحق الله الربا ، ينقص الله الربا فيذهبه ، ثم ساق السند إلى ابن عباس ، يمحق الله الربا ، قال : ينقص ، وهذا نظير الخبر الذي روي عن عبدالله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : الربا وإن كثر فإلى قل)) ج ٣ ص ٦٩ .

وقال الألوسي في تفسير هذه الآية (١٤٠٨هـ) :((أي يذهب بركته ، ويهلك المال الذي يدخل فيه)) ج ٢ ص ٥١ .

إنها العقوبة العاجلة التي تحل بأموال المرابين ، فيرون بأعينهم آثارها في الدنيا علي ما يجمعونه من الأموال المحرمة .

القسم الثاني : ما كانت عقوبته مؤجلة للعبد في الآخرة ، وربما كانت أغلب المعاصي من هذا القسم ، فإن الله عز وجل يمهل ولا يهمل ، فإذا لقي العبد ربه يوم القيامة جازاه بما قدمت يداه في الدنيا ، وأخر له العقوبة في الآخرة ، ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن ماجة في سننه (د - ت) من حديث ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ لأعلمن أقواما من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضا فيجعلها الله عز وجل هباء منثورا ، قال ثوبان : يا رسول الله ! صفهم لنا ، جلِّهم لنا ،أن نكون منهم ونحن لا نعلم ، قال : أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم ، ويأخذون من الليل كما تأخذون ، ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها ﴾ ج ٢ ص ١٤١٨ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١٤٠٨هـ) ج ٢ ص ٤١٧ .

القسم الثالث : ما يجمع الله للعبد بين العقوبتين العاجلة والآجلة ، ومن ذلك قوله سبحانه :﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى *قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ سورة طه آية ١٢٤ - ١٢٦ .

قال ابن كثير في تفسيره (١٤٠٦هـ) في معنى المعيشة الضنك :((أي ضنكا في الدنيا ، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضيق حرج لضلاله ، وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء ، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك ، فلا يزال في ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة)) ج ٣ ص ٢٧٠ .

ولعل المتدبر في الآية يرى أن المعيشة الضنك لم تحدد بنوع من العيش ، إنما هو إطلاق لكل ما من شأنه أن ينغص على أهل الإعراض حياتهم ، حين تنكبوا الطريق ، ولم يشكروا نعمة ربهم الذي خلقهم ، وسخر لهم ما في الأرض جميعا منه .

ولقد اختلفت إجابات المفسرين في تحديد الحياة الضنك التي توعد الله بها المعرضين ، فقال بعضهم في الدنيا ، وقال بعضهم في القبر ، وقال بعضهم في الآخرة ، وقد جمع بين هذه الأقوال ابن القيم رحمه الله في (بدائع التفسير ، جمع : يسري السيد محمد ١٤١٤هـ) فقال :((والصحيح أنها في الدنيا ، وفي البرزخ، فإن من أعرض عن ذكره الذي أنزله، فله من ضيق الصدر ، ونكد العيش ، وكثرة الخوف ، وشدة الحرص والتعب على الدنيا ، والتحسر على فواتها قبل حصولها وبعد حصولها ، والآلام التي في خلال ذلك ما يشعر به القلب لسكرته ، وانغماسه في السكر ، فهو لا يصحو ساعة إلا أحس وشعر بهذا الألم ، فَبَادَرَ إلى إزالته بسكر ثان ، فهو هكذا مدة حياته)) ج٣ص ١٧٢ - ١٧٣ .

ثم قال رحمه الله :((فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم في دنياه وفي البرزخ ويوم معاده)) ج ٣ ص ١٧٤ .

فالمعرض عن شريعة الله ، السالك غير منهج الله الذي رسمه لعباده ، في عقيدته و عبادته و سلوكه ومعاملته و تربيته وتعليمه وتصوره وفكره واقتصاده وسياسته ، موعود بأن يجمع الله له بين العقوبتين العاجلة في الدنيا بضيق العيش وشقاءه ، والآجلة في الآخرة حين يبعث من قبره مطموس العينين ، يتخبط لا يدري أين يتجه ، كما تخبط في الدنيا ، حين أعرض عن الهدى وتنكب الطريق .

يقول ابن كثير (١٤٠٦هـ) في تفسير قوله تعالى :﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ قال :((يبعث إلى النار أعمى البصر والبصيرة)) ج ٣ ص ٢٧١ .

ومما ورد في السنة من الجمع بين العقوبتين ما رواه الترمذي في سننه من حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في

الآخرة من البغي وقطيعة الرحم﴾ قال المباركفوري في التحفة (د ـ ت) : (هذا حديث صحيح ٠ ج ٧ ص ٢١٤)

ومن هنا كان على المربين أن يفيدوا من هذا الأسلوب ، في تربيتهم لمن تحت أيديهم ، تارة بالترغيب العاجل أو الآجل لمن أحسن وأجاد ، وتارة بالترغيب العاجل أو الآجل في حق من أساء وقصَّر، وتارة يكون التذكير بما يجمع الله للإنسان بين الجزاءين في الدنيا والآخرة ، إن خيرا أو شرا ٠

منهج الإسلام في تقرير أسلوب الترغيب والترهيب :

ورد هذا الأسلوب في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم كثيرا ، على أن القرآن الكريم حين أوردهما لم يكد يفصل بينهما ، فإذا ذكر الترغيب أعقبه مباشرة بذكر الترهيب ٠

وإن المتتبع لآيات الكتاب الحكيم يجد الترغيب والترهيب قرينان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، ومن الأمثلة على ذلك :

قوله تعالى :﴿ فأما من طغى * وآثر الحياة الدنيا * فإن الجحيم هي المأوى * وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هي المأوى ﴾ (سورة النازعات آية ٣٧ ـ ٤١ .

وقوله تعالى :﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار﴾ سورة الرعد آية ٣٥ .

وقوله تعالى :﴿ إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم ﴾ سورة الانفطار آية ١٣ ـ ١٤ .

والآيات في هذا المعنى كثيرة ٠

ولعل السر في ذلك ، أن في الفصل بينهما خطورة عظيمة في تربية الشخصية الإسلامية ، فإن المربين حين يطرقون جانب الترغيب في كل توجيه أو

تعليم متناسين تماما جانب الترهيب ، فإنما يفتحون بابا للإرجاء لا يسد ، فيظل المؤمن يرجو ما عند الله ، معتمدا على حسن الظن بالله ، فيتقاعس عن أداء الواجبات ، أو يتجرأ على انتهاك المحرمات ، أو لربما حمل على أثر ذلك عقيدة ضالة ، حين يعتقد أن الله لا يعذب أحدا مهما كانت الأسباب ، وفي هذا المعتقد من الخطورة ما فيه ، لأن فيه تكذيب لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، فقد وعد الله الكفار نار جهنم ، ولعن رسولُه صلى الله عليه وسلم أصنافاً من الناس ، حتى وإن كانوا من أمته صلى الله عليه وسلم ، وأخبر أنه يجاء بطائفة من أمته يوم القيامة، فيذادون عن الحوض كما تذاد غرائب الإبل ، فيقول صلى الله عليه وسلم كما روى ذلك البخاري في صحيحه (د ـ ت) :﴿ يا رب أصحابي فيقال : إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك ﴾ ج٨ ص١٤٨ .

يقول ابن القيم في مدارج السالكين (د ـ ت) ، تهذيب العربي :((ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف ، فإن غلب عليه الرجاء فسد . وقال غيره : أكمل الأحوال : اعتدال الرجاء والخوف وغلبة الحب ، فالمحبة هي المركب ، والرجاء حادٍ ، والخوف سائق ، والله الموصل بمنّه وكرمه)) ص ٢٧٢ .

إن الرجاء قرين الترغيب ، فإنك حين تُرَجّي إنسانا فإنما ترغبه فيما عند الله ، وحين ترهبه وتخيفه ، فإنما تنذره عقوبة الله تعالى.

وقد ذكر ابن القيم في مدارج السالكين ، تهذيب العربي (د ـ ت) عن الرجاء قوله :((والرجاء ثلاثة أنواع : نوعان محمودان ، ونوع غرور مذموم ، فالأولان : رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله ، فهو راج لثوابه ، ورجل أذنب ذنوبا ثم تاب منها ، فهو راج لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه ، والثالث : رجل متماد في التفريط والخطايا ، يرجو رحمة الله بلا عمل ، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب)) ص٢٩٧ ـ ٢٩٨ .

وحين يظل المربي يطرق جانب الترهيب الذي يورث الخوف فحسب، متناسيا جانب الرجاء ، فإنه ربما أورث ، في من يتربى تحت يديه قنوطا من رحمة الله ، ويأسا من جوده وإحسانه .

لكن منهج القرآن والسنة في الترغيب والترهيب ألا يُفصَل بينهما ليكون المؤمن على جناحين يطير بهما ، جناح الخوف وجناح الرجاء ، أو جناح الترغيب وجناح الترهيب ، فيسير نحو ربه سيرة متوازنة ، يحدوه الرجاء فيما عند الله ، والخوف من عقابه .

يقول ابن القيم في المدارج ، تهذيب العربي : (د - ت) :((القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر ، فالمحبة رأسه ، والخوف والرجاء جناحاه ، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران ، ومتى قطع الرأس مات الطائر ، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر)) ص ٢٧٢ .

ويقول أيضا :((فكل محبة فهي مصحوبة بالخوف والرجاء ، وعلى قدر تمكنها من قلب المحب يشتد خوفه ورجاؤه ، لكن خوف المحب لا يصحبه وحشة ، بخلاف خوف المسيء ، ورجاء المحب لا يصحبه علة ، بخلاف رجاء الأجير ، وأين رجاء المحب من رجاء الأجير ؟ وبينهما كما بين حاليهما)) ص ٢٩٩ .

يقول محمد قطب في منهج التربية الإسلامية (١٤٠٩هـ) :((والخوف والرجاء بقوتهما تلك وتشابكهما واختلاطهما بالكيان البشري كله في أعماقه ، يوجهان في الواقع اتجاه الحياة ، ويحددان للإنسان أهدافه وسلوكه ومشاعره وأفكاره ، فعلى قدر ما يخاف ونوع ما يخاف ، وعلى قدر ما يرجو ونوع مايرجو، يتخذ لنفسه منهج حياته ، ويوفق بين سلوكه وبين ما يرجو وما يخاف)) ج ١ ص ١٢٧ - ١٢٨ .

إن بين الخوف والرجاء في التربية الإسلامية تلازم كبير ، لا يكاد ينفك أحدهما عنالآخر ، وهذه أحدى مميزات الإسلام في تربيته التي تساير الإنسان في فطرته التي فطره الله عليها .

وإن كان العلماء قد ذكروا أنه في حال السراء يغلب العبد المؤمن جانب الخوف على جانب الرجاء وفي حال الضراء يغلب جانب الرجاء على جانب الخوف ، فإنما ذلك استنادا منهم على الحديث الذي رواه أبو داود في سننه (١٤٠٩هـ): عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل موته بثلاث قال : ﴿ لا يموت أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله ﴾ ج ٢ ص ٢٠٦، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن أبي دواد (١٤٠٩هـ) ج ٢ ص ٢٠٦ .

قال العظيم آبادي في عون المعبود (١٣٩٩هـ) :

((أي لا يموت أحدكم في حال من الأحوال إلا في هذه الحالة ، وهي حسن الظن بالله بأن يغفر له ... قال الخطابي : إنما يحسن الظن بالله من حسن عمله ، فكأنما قال أحسنوا أعمالكم يحسن ظنكم بالله ، فمن ساء عمله ساء ظنه ، وقد يكون أيضا حسن الظن بالله من ناحية جهة الرجاء وتأميل العفو . وقال الرافعي في تاريخ قزوين : يجوز أن يريد به الترغيب في التوبة والخروج من المظالم ، فإنه إذا فعل ذلك حسن ظنه ورجا الرحمة ... وقال النووي في شرح المهذب : معنى تحسين الظن بالله تعالى أن يظن أن الله يرحمه ، ويرجو ذلك بتدبر الآيات والأحاديث الواردة في كرم الله تعالى وعفوه وما وعد به أهل التوحيد ، وما سيبدلهم من الرحمة يوم القيامة ، كما قال سبحانه وتعالى في الحديث الصحيح : أنا عند ظن عبدي بي ، هذا هو الصواب في معنى الحديث وهو الذي قاله جمهور العلماء)) ج ٨ ص ٣٨٢ - ٣٨٣ .

يقول ابن القيم في المدارج (د - ت) ، تهذيب العربي :((ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء ، وعند الخروج من الدنيا يقوي جناح الرجاء على جناح الخوف ، هذه طريقة أبي سليمان وغيره)) ص٢٧٢.

وليس معنى ذلك ، أن يلغي المؤمن في حال حياته أحد الجناحين ويعيش في سيره إلى ربه بجناح واحد ، فإنه حين يعتمد على جناح الخوف فحسب ، يورد نفسه موارد اليأس والقنوط ، فيصدر والعياذ بالله خاسرا من كل خير ، قال الله تعالى :﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الخاسرون﴾ سورة يوسف آية ٨٧ .

وحين يعتمد على جناح الرجاء فحسب ، يورد نفسه موارد الظنون والأماني، التي هي رؤوس أموال المفاليس ، قال الله تعالى عن أهل الكتاب: ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ سورة البقرة آية ١١١ .

إن أعمال الناس تأتي على قدر ظنونهم بالله تعالى ، فمن أساء الظن أساء العمل ، ومن أحسن الظن أحسن العمل ، وإن من إساءة الظن بالله ، أن يظل العبد يتشدق بحسن ظنه بربه وهو عاكف على محارمه ينتهكها في الليل والنهار ، بالإعلان والإسرار .

فإن قوما أساؤوا الظن بالله فأساؤوا العمل ، فذمهم الله في محكم تنزيله فقال :﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون * وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين * فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين * وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ﴾ سورة فصلت آية ١٩ ـ ٢٥ .

يقول ابن قدامة في مختصر منهاج القاصدين (١٤١٥هـ) ما خلاصته :
ينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة ، برجاء صاحب الزرع ، فإن من يختار لزرعه أرضا طيبة ، ويلقي فيها حبا جيدا ، ويسأل الله حفظها ، يسمى فعله هذا رجاء ، وإن ألقى البذر في أرض سبخة ، وانتظر بعد ذلك حصادا فإن فعله هذا يسمى حمقا وغرورا ، وكذلك العبد إذا بث بذر الإيمان ، وسقاه ماء الطاعات ، وطهر القلب من أشواك الأخلاق والرذائل ، وسأل الله الثبات وحسن الخاتمة ، كان انتظاره لذلك رجاء محمودا ، باعثا على الخير والإيمان ، وإن قطع بذر الإيمان عن تعهده بماء الطاعات ، أو ترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق ، وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة كان ذلك حمقا وغرورا ٠ ص ٤٤٠ ـ ٤٤١ .

التربية الوقائية من خلال الترغيب والترهيب :

ما من فلسفة تربوية لأي مجتمع من مجتمعات الأرض ، إلا وهي تنطلق من خلال نظرتها للكون والإنسان والحياة ، وبقدر ما تكون النظرة صحيحة صائبة ، بقدر ما تكون التربية صحيحة خيِّرة منتجة ، بما تشتمل عليه من الأساليب النافعة المؤثرة التي تحقق ذلك ٠

والتربية الإسلامية هي التربية الوحيدة التي تنطلق في أصولها وغاياتها وأهدافها ووسائلها من خلال نظرة صحيحة تجاه الكون والإنسان والحياة ٠

ومن هنا جاءت أساليبها التربوية محققة للأهداف والغايات التي خلق الكون والإنسان والحياة من أجلها ٠

ومن جملة ذلك تلك الصورة الصحيحة التي أعطاها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة عن الحياة الدنيا ، ما حقيقتها ، ولماذا جاء الإنسان إليها ، وكم هي مدة بقائه فيها ، وهل لها نهاية ، وماذا يعقبها ، وأعطاه أيضا تصورا عن الآخرة ، وأخبره أنه يجازى في تلك الدار بناء على ما قدم من العمل في هذه ٠

وبعد أن أعطى الإسلام للإنسان إجابات قاطعة لمثل هذه التساؤلات ، ووضع له المنهج الذي يسير عليه ليفوز في الدنيا والآخرة ، حمَّله ـ بعد ذلك كله ـ مسؤولية عمله ، وما قد يقع منه من تصرفات .

ومن هنا شرع الإسلام عبر مصادره أسلوب الترغيب والترهيب ، بغية إيجاد الإنسان الصالح المصلح ، القوي الأمين ، الذي يكون خليفة في الأرض ، يعمرها وفق مراد الله سبحانه ، وعلى شريعتة ، حملا للنفس على الخير ، ووقاية لها من الوقوع في المخالفات .

ولهذا امتلأت مصادر التشريع في الإسلام بالتدابير الوقائية بأسلوب الترغيب والترهيب ، الذي يقتلع بتأثير الخوف والرجاء ، ما في النفس الإنسانية من وساوس الشيطان ومكره وتضليله .

فمن الأمثلة في ذلك :

*في الوقاية من الشرك ، الذي هو أعظم خطر يهدد العقيدة ، ويحبط العمل، ويخلد في النار ، قال المولى جلت قدرته :﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به وغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ﴾ سورة النساء آية٤٨ .

وقال سبحانه :﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ سورة المائدة آية ٧٢ .

وقال سبحانه مخاطبا نبيه محمد صلى الله عليه وسلم :﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ سورة الزمر آية ٦٦ .

* وفي الوقاية من ضعف الإيمان عن طريق التكاسل في الطاعات ، أو اليأس من كثرة الخطيئات ، أو التكذيب بآيات الله ، جاء الترغيب والترهيب من الله في

قوله :﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ سورة التغابن آية٩ - ١٠ .

* وفي الوقاية من محق بركة الرزق جاء الترغيب في الإيمان والتقوى والترهيب من التكذيب والإعراض فقال تعالى :﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ سورة الأعراف آية ٩٦ .

* في حمل النفس على التقوى ، التي هو رأس كل خير ، وسد منيع أمام كل شر وبلاء ، يقول سبحانه مرغبا في الجنة مبينا من هم أهلها :﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا ﴾ سورة مريم آية ٦٣ .

* وفي الوقاية من الربا الذي يورث من المفاسد الدينية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية ، مالا يخطر على البال جاء الترهيب من ذلك بلعن من يأكله أو يسهل أمره للناس أو يكتب عقوده ومعاهداته ، أو يشهد على ذلك ، فقد روى مسلم في صحيحه (شرح النووي د - ت) من حديث عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ لعن الله آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه ، وقال هم سواء ﴾ ج ١١ ص ٢٩ - ٣٠ .

* وفي الوقاية من الفساد في الأرض بأي صورة من صوره ، وفي الوقاية من قطيعة الأرحام جاء الترهيب بلعن من يفعل ذلك ، وفي ذلك يقول المولى جل ذكره :﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ سورة محمد آية ٢٢ - ٢٣ .

الآثار التربوية لأسلوب الترغيب والترهيب :

ما من شك أن لهذا الأسلوب أثرا عظيما في تربية الشخصية الإسلامية ، والذي يزيد المسلم ثقة بذلك ، هو ورود هذا الأسلوب في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ذلك أن الذي خلق الإنسان هو الذي شرع لتربيته أسلوب الترغيب والترهيب ، وقرن بينهما في كتابه الكريم في مواطن كثيرة .

يقول الميداني في الأخلاق الإسلامية (١٤١٣هـ) :((لا ينكر الأثر الكبير الذي يتم بتحريك محوري الطمع والخوف في النفس الإنسانية ، بالترغيب والترهيب ، والتشجيع والإكراه والمكافأة ، والتثبيط بالإهانة والعقوبة عند الضرورة، إنه طريق مؤثر وفعال جدا ، ومولد لحافز ذاتي داخل النفس الإنسانية)) ج ١ ص ٢٠٥ .

إن النفس الإنسانية مشبعة بعواطف كثيرة، منها الحب ، والخوف ، والرجاء ، والخشوع ، وهذا الأسلوب التربوي يغذي في النفس الإنسانية هذه العواطف .

فالترغيب يفتح للنفس باب الرجاء في الثواب العاجل أو الآجل أو كلاهما ، والترهيب يقطع على النفس طريقها إلى الشرور ، حين تعلم بما أعد الله لها من العقوبة العاجلة أو الآجلة أو كليهما ، إن هي تركت الحبل على الغارب ، في انحدارها نحو هذه الشرور ، وهذا وذاك يورثان في النفس الشعور بالخشوع لله رب العالمين ، والسير في الطريق الذي رسمه لعباده المؤمنين ، عندها تحس النفس بقربها من ربها فتمتلىء محبة له حين أكرمها بهذا الدين الذي به سعادتها وكمالها في الدنيا والآخرة .

يقول النشمي في كتابه معالم في التربية (١٤٠٠هـ) :((ولقد استخدم الإسلام أسلوب الترغيب والترهيب كوسيلة تربوية لا يمكن أن يصل إليه منهج من مناهج البشر ، لأنه توجيه ينبني على حاجة النفس الفطرية ، وما ترغبه النفس وما

ترهبه ، وهذا أمر خفي على بني الإنسان ، فقد يتوهم الإنسان أمرا يخافه وينفر منه وفيه في ذات الوقت مصلحة ، قد لا يدركها في نظره القريب ، وقد يتوهم أمرا يرغبه ويتقرب منه وفيه في ذات الوقت مضرة قد لا يدركها في نظره القريب)) ص ٢٠٧ .

إن لهذا الأسلوب التربوي أثره الواضح في صياغة شخصية المسلم ، صياغة متزنة، تحرك في نفسه مكامن الخير، وتحميه من التردي في حيل الشيطان وألاعيبه. ومن هذه الآثار :

١ـ غرس العقيدة الإسلامية الصحيحة في قلب الإنسان ، والتي تثمر استقامة حسنة ، وسلوكا قويما في كل جانب من جوانب الحياة.

٢ـ صياغة الشخصية الإسلامية صياغة تقوم على الموازنة بين جناحي الخوف والرجاء ، الذين هما ركنا السير إلى الله تعالى عبر هذه الرحلة الطويلة التي يقطعها الإنسان إلى الدار الآخرة .

٣ـ تربية العواطف الربانية التي خلقها الله في هذه النفس كعاطفة الحب والخوف والرجاء والخشوع.

٤ـ إثارة الحوافز الذاتية ، التي تكوّن سدا منيعا يحول بين العبد وبين مقارفة ما حرم الله عليه سواء كان ذلك في الجلاء أو الخفاء ، قال الله تعالى ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ سورة الملك آية ١٢ .

خامسا : التربية بالأحداث

يرى الباحث أن التكامل بين النظر والتطبيق في العملية التربوية هو الأسلوب الأمثل للتربية ، وأنه ما من تربية يحصل فيها هذا، إلا حققت أهدافها ، وأبدعت في نتاجها وعطائها .

وإذا كان هذا هو شأن التربية ، فإن الأساليب التربوية التي تستغل المواقف للتربية والتوجيه ، تؤثر تأثيرا بالغا ، وهذا ما ينطبق على الأحداث ، فإن التربية بالحدث أسلوب من أنجع الأساليب في العملية التربوية الإسلامية ، إذ يتزامن مع التربية باللفظ والعبارة ، معايشة الحدث ، فتسمع الأذن ، وترى العين ، أو تتذكر ما رأت فتتعامل مع الحدث من خلال تصور مسبق على وعي وبصيرة .

إن السمع والبصر وهما من أقرب المنافذ إلى القلب حين يشتركان في استقبال التربية والتوجيه ، يكون لهما أبلغ الأثر على القلب ، وحين تعرض الأذن عن السماع ، وتتولى العين عن المشاهدة ، فأنى للقلب أن يستجيب ؟ .

ولهذا ذكر الله سبحانه حال قوم نوح وهم يضربون في الإعراض نموذجا ما سبقوا إليه ، فقال عنهم على لسان نبيه نوح عليه السلام :﴿ وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلو أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ﴾ سورة نوح آية ٧ .

قال الإمام القرطبي في تفسيره (١٣٨٧هـ) :((قال ابن عباس جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا يسمعوا كلامه . فاستغشاء الثياب إذن زيادة في سد الآذان حتى لا يسمعوا)) ج ١٨ص ٣٠٠ .

وقال السعدي (١٤١٤هـ) :((جعلوا أصابعهم في آذانهم حذر سماع ما يقول لهم نبيهم نوح عليه السلام، واستغشوا ثيابهم، أي تغطوا بها غطاء يغشاهم ، بعدا عن الحق وبغضا له)) ج ٥ ص ٣٠٦ .

وقال سيد قطب في الظلال (١٤٠٠هـ) :

((وإصرارهم على الضلال يبرز من ثنايا ملامح الطفولة البشرية العنيدة ، تبرز في وضع الأصابع في الآذان وستر الرؤوس والوجوه بالثياب ، والتعبير يرسم بكلماته صورة العناد الطفولي الكامل ، وهو يقول إنهم جعلوا أصابعهم في آذانهم ، وآذانهم لا تسع أصابعهم كاملة ، إنما هم يسدونها بأطراف الأصابع ، ولكنهم يسدونها في عنف بالغ ، كأنما يحاولون أن يجعلوا أصابعهم كلها في آذانهم ، ضمانا لعدم تسرب الصوت إليها بتاتا ، وهي صورة غليظة للإصرار والعناد ، كما أنها صورة بدائية لأطفال البشرية الكبار)) ج ٦ ص ٣٧١٢ .

وبما أن للتربية بالحدث في الإسلام هذه المنزلة ، فلا بد من ذكر مفهومها ، و صورها ، وكيف تتم التربية الوقائية من خلالها، وذكر بعض آثارها التربوية .

مفهوم الأحداث :

الأحداث في اللغة : ذكر ابن منظور في لسان العرب (١٤١٢هـ) في مادة حدث قوله : ((الحديث : نقيض القدم ... والحدوث كون الشيء لم يكن ، وأحدثه الله فحدث ، وحدث أمر أي وقع ... وحَدَثان الدهر وحَوَداثه : نُوَبُه ، وما يحدث منه ، واحدها حادث ، وكذلك أُحداثُه ، واحدها حَدَثٌ)) ج ٢ ص١٣١ وما بعدها .

وقال الجوهري في الصحاح (١٤٠٤هـ) :((والحدوث كون الشيئ لم يكن)) ج ١ ص ٢٧٨ .

إذن فمن خلال ما تقدم يمكن للباحث أن يصوغ مفهوما للأحداث فيكون : الأحداث جمع حدث ، والحدث موقف طارئ يمر بالإنسان يثير الفرح أو الحزن أو يجلي حقيقة تثير المشاعر ، وتحرك العواطف .

صور الأحداث :

بعد أن تأمل الباحث بعض الأحداث التي وردت في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم يرى أنها جاءت على ثلاث صور :

الصورة الأولى : إما أن تواكب الموعظة الحدث في ساعة واحدة ، فتسمع الأذن الموعظة ، وتعيش النفس مع الحدث ، وهذه هي أبلغ صور التأثير ، وأعظمها فائدة ، فإن النفوس في تلك الساعة تكون مهيأة تماما لاستقبال التوجيه ، فاتحة لكل المنافذ التي تصل إلى القلب .

يقول شديد في كتابه منهج القرآن في التربية (د ـ ت) : ((ولا يؤثر في النفوس شيء كما تؤثر فيه التربية في ظل التجارب والأحداث ، حيث تكون القلوب متفتحة للتوجيه ، والنفوس مهيأة للانطباع)) ص ٣٣٤ .

ومن أمثلة ذلك ، ما رواه مسلم في صحيحه (د ـ ت) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بالسوق داخلا من بعض العالية ، والناس كنفتيه فمر بجدي أسك ميت فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال : ﴿ أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ فقالوا ما نحب أنه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ قال : أتحبون أنه لكم ؟ قالوا والله لو كان حيا كان عيبا فيه لأنه أسك فكيف وهو ميت ؟ فقال : فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم ﴾ ج ٨ ص ٢١٠ - ٢١١ .

ترى أي أثر لهذه الكلمات التي صورت هوان الدنيا على الله تعالى أعظم من هذا الأثر ، وهم ينظرون إلى هذا الجدي الأسك ، ويسمعون قَسَمَه صلى الله عليه وسلم وهو الذي لا يكذب ، بأن الدنيا أهون على الله من هذا عليكم .

إنها فرصة المربي الناجح ، والمعلم الذكي ، الذي يستغل الحدث ، وقد تهيأت بسببه القلوب لاستقبال التوجيه ، فيصوغ على أثر ذلك عبارة تنفذ إلى

القلب لتعالج حدثا ، الناس في أمس الحاجة إلى التوجيه فيه ، حتى ولو أدى ذلك إلى القَسَم بالله على ذلك ، لأنها فرصة للتربية والتوجيه لا تعوض .

إن في هذا الحدث الذي ربى عليه الصلاة والسلام عليه أصحابه وقاية للنفوس من التعلق بالدنيا وزخرفها ، والركون إلى متاعها الزائل ، وتناسي المهمة التي خُلق العباد من أجلها .

ومن أمثلة ذلك أيضا : ما رواه البخاري (د ـ ت) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قدم على النبي صلى الله عليه وسلم سبي ، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي إذا وجدت صبيا في السبي ، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ أترون هذه طارحة ولدها في النار ، قلنا : لا ، وهي تقدر على أن لا تطرحه ، فقال لله أرحم بعباده من هذه بولدها ﴾ ج ٨ ص ٩ .

سبحان الله ! أي تصور لرحمة الله عز وجل أعظم من تصوير هذا الحدث ؟ لقد هيأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أذهان صحابته بهذا السؤال: أترون هذه طارحة ولدها في النار ؟ سبحان الله ! إن حنان الأم فوق هذا كله ، إن الأم تفدي وليدها بنفسها من أدنى نزلة برد ، أو لفحة حر ، فكيف يعقل أن تلقى بولدها في النار ؟ إن حنان الأم الفطري على أولادها يغلب كل حنان بشري ، وإن مما لا يمكن أن يتصوره العقل أن تطرح الأم فلذة كبدها في النار ، فيحترق أمامها وهو يصرخ يا أماه ، يا أماه .

إن مجرد بكاء الطفل حتى ولو فقد لعبته يقطع نياط عروق قلب الأم ، فكيف يعقل أن تدهده على أم رأسه في النار ؟ إن العقول لا تتصور ذلك ، وإن النفوس لا تطيق ذلك .

فلما استبعد الصحابة ذلك قائلين : لا ، وهي تقدر ألا تطرحه ، عندها قال المربي العظيم صلى الله عليه وسلم : ﴿ لله أرحم بعباده من هذه بولدها ﴾ وفي

غمرات هذا الحدث المؤثر ، استشعر الصحابة رضوان الله عليهم سعة رحمة الله سبحانه بعباده ، الأمر الذي يجعلهم يتسابقون لطاعته ، واتباع أمره ، قد استلت من قلوبهم مشاعر اليأس والقنوط من رحمة الله ، وهم يتربون على مثل هذا الحدث ، وهذا لعمري من أعظم سبل الوقاية التي تقي العبد أن يقنط من رحمة الله التي وسعت كل شيء ، بل هي دعوة للنفوس الشاردة على ربها أن تؤوب ، فالرحمة مشرعة الأبواب لا يحرمها إلا محروم .

الصورة الثانية : أن تأتي الموعظة بعد الحدث لتشتمل على التوجيهات والتشريعات التي كان من المفروض أن تُتَّخَذ ، وفيها من الدروس التربوية ما يفيد في المستقبل ، ولا شك أن في ذلك من التأثير والإقناع ما فيه ، ومن أمثلة ذلك :

ما ورد في كتاب الله تعالى عقب معركة أحد حين عايش الصحابة أحداث المعركة ، وأصابهم من جراء مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ما أصابهم ، وخرجوا من المعركة وهم لا يزالون يتذكرون أحداثها ، نزلت الآيات في أعقاب ذلك ، وقد اشتملت على توجيهات ربانية كريمة ، لامست شغاف القلوب ، وأعطت دروسا للمستقبل ظلت عالقة بالأذهان دهرا طويلا ، بل ظلت تساير الصحابة كلما قرؤوا القرآن ، وكانت دروسا لمن بعدهم إلى يوم الدين ، كما أن تلك التوجيهات التي نزلت عقب المعركة كشفت أحوال المنافقين ، وأعطت تصورا لمن همَّ بالفشل من المؤمنين لولا عناية الله وولايته ، وتحدثت عن بطولات بعضهم ، وفرار البعض الآخر .

على أن القرآن الكريم وهو يعلق على تلك الأحداث الجسام في حياة الأمة ، لم يعنف ، ولم يهاجم ، ولم يوبخ ، لأن الموطن لا يحتمل ذلك ، فالأمر خطير ، والمصاب جلل ، والشهداء كثر ، والجراحات تنزف ، والقلوب كلمى .

والنفوس في هذا الموطن تحتاج إلى تربية علاجية ، تكون فيما بعد تربية وقائية لكل مؤمن إلى قيام الساعة ، فنزلت الآيات من السماء تعالج الموقف معالجة

تربوية بالمواساة تارة ، والإشادة بالبطولات تارة أخرى ، والتنبيه على آثار المعاصي والآثام تارة ثالثة ، حتى إن المولى جلت قدرته أعلن عفوه وصفحه عمن أساء وقصر ، فقال جل جلاله :﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفى الله عنهم إن الله غفور رحيم ﴾ سورة آل عمران ١٥٥ .

إن في كل جزئية من جزئيات هذا الحدث عبرة ، وفي كل موطن من مواطنه درسا ، وفي كل زاوية من زواياه تربية ، وفي كل آية نزلت تعالج الموقف وقاية .

وإذا كانت هذه معالجة القرآن للأحداث الجسام في معركة أحد ، فإن معالجة القرآن الكريم للأحداث في غزوة بدر الكبرى كانت على النقيض من ذلك تماما ، فقد كان النصر حليف المؤمنين في تلك الغزوة ، بل كان نصرا مؤزرا ، سماه الله في كتابه [يوم الفرقان] ذهب ضحيته صناديد الكفر ، واندحرت فيه الجاهلية العامة أبد الدهر ، وعاد من عاد من المشركين يجرون أذيال الخيبة ، وقد خلّفوا وراءهم في القليب جيفا منتنة ، واستقبلوا خزيا وعارا لا يقوم له الدهر .

يقول الغزالي في فقه السيرة (١٤٠٢هـ) :((ولقي مثل هذا المصير الفاجع سبعون صنديدا من رؤوس الكفر بمكة ، دارت عليهم كؤوس الردى فتجرعوها صاغرين ، وسقط في الأسر سبعون كذلك ، وفر بقية التسعمائة والخمسون يروون لمن خلفهم أن الظلم مرتعه وخيم ، وأن البطر يجر في أعقابه الخزي والعار ... وفتح المسلمون عيونهم على بشاشة الفوز تضحك لهم خلال الأرض والسماء ، لأن هذا الظفر المتاح رد عليهم الحياة والأمل والكرامة ، وخلصهم من أغلال ثقال)) ص ٢٣٠ .

ورغم هذا النصر المؤزر على الأعداء في بدر ، إلا أن القرآن لم يناقش قضية بدر كما ناقش قضية أحد .

إن نشوة النصر يجب ألا تطغى على المعتقد والمبادىء والقيم ، فيُظَن أن النصر كان بالنفوس الأبية ، والسواعد الفتية ، لا وألف لا ، إنما كان النصر من عند الله العزيز الحكيم ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ، ولهذا نزل القرآن يعالج قضية بدر بعد نشوة النصر ، بقول الحق جل ذكره : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾ سورة آل عمران ، آية ١٢٣ .

كما حذر القرآن الكريم في أعقاب النصر المؤزر على الأعداء من خطورة النظر إلى الدنيا ، والتفرق بسببها ، واختلاف الكلمة من أجلها ، بعبارات فيها عتاب شديد ، وزجر أكيد لمن بذلوا دماءهم من أجل مبادئهم الخالدة .

يقول أحمد في كتابه السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (١٤١٢هـ) : ((نبه الله المؤمنين إلى حقيقة هامة وهي ألا يجعلوا حب المال يسيطر عليهم عند النظر في قضاياهم الكبرى التي قامت على أساس النظرة الدينية وحدها ، مهما كانت الحال والظروف ، ولهذا عالج القرآن تجربة رؤية الغنائم مع الحاجة والفقر واختلافهم فيها ، ومسألة الأسرى بوسائل تربوية دقيقة كما في قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ ص ٣٦٥ ، والآية في سورة الانفال برقم١

وقل مثل ذلك في معاتبة القرآن للمؤمنين في شأن الأسرى ، فقد غلبت الآراء التي تشير باستبقائهم لينتفع بهم ، ولم يكن هذا بالرأي الذي أشار به القرآن، فقد كان الحق في قتلهم وجعلهم عبرة لمن بعدهم ، سيما وأن هذه المعركة هي الأولى بين جحافل الكفر الضالة ، وبين القلة المؤمنة من أهل الحق ، وفي هذا يقول سبحانه :﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ سورة الأنفال آية٦٧ ـ ٦٨ .

ومن هنا نخلص إلى أن القرآن الكريم ربى بالحدث في غزوتي بدر وأحد ، وقد كانت الدروس التربوية الدقيقة في المعركتين مختلفتين.

وفي هذا للمربين دروسا تربوية أن يحسنوا التعامل مع المواقف التي تصدر ممن يتربى على أيديهم ، فليست الأحداث التي تقع تصلح لأن يكون علاجها على مستوى واحد ، فإن الظروف والملابسات تختلف من موقف لموقف ، ومن إنسان لإنسان ، وما يصلح لهذا لا يصلح لذاك ، والعاقل هو الذي يعرف خير الخيرين وشر الشرين.

الصورة الثالثة : أن تسبق الموعظة الحدث ، فيدخل الإنسان التجربة ، ويعايش الحدث على بصيرة ، مهتديا بتلك التوجيهات الإلهية ، والتشريعات الربانية ، ولا شك أن لهذه الصورة تأثيرا بالغا في النفوس ، ذلك أن النفس تعيش الحدث بتصور مسبق عن كل جزئياته وأحداثه ، فتربط بين ما كانت تسمعه وبين ما تعيشه ، ولا شك أنها تتربى من خلال ذلك تربية جيدة تبعث فيها الثبات والحكمة والرشاد .

ومن أمثلة هذه الصورة : ما قصه الله تعالى علينا في سورة البقرة من قصص بني إسرائيل ، في فترة من الزمن أعقبت دعوة موسى عليه السلام .

يقول الله تعالى :﴿ ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين * وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنّى يكون له الملك عليناونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم

والله يؤتي ملكه من يشاء والله ذو الفضل العظيم * وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين * فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين * ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين * تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين ﴾ سورة البقرة آية ٢٤٦ ـ ٢٥٢ .

يقول ابن كثير في تفسيره تحقيق الوادعي (١٤١٤هـ) محددا زمن وقوع هذه القصة :((وكان ذلك في زمان داود عليه السلام ، كما هو مصرح به في القصة ، وقد كان بين داود وموسى ما ينيف عن ألف سنة)) ج ١ ص٥٥٣ .

أما مختصر القصة فقد ذكر ابن كثير في تفسيره تحقيق الوادعي (١٤١٤هـ) ما خلاصته : قال وهب بن منبه وغيره : كان بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام على طريق الاستقامة مدة من الزمن ، ثم غيروا وبدلوا ، فسلط عليهم أعداؤهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأسروا خلقا كثيرا ، وأخذوا منهم بلادا كثيرة ، ولم يكن أحد يقاتلهم إلا غلبوه ، وذلك أنهم كانوا عندهم التوراة والتابوت الذي ورثوه عن أسلافهم ، حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب ، واخذوا التوراة من أيديهم ، ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل وانقطعت النبوة من أسباطهم ، حتى ولدت امرأة منهم بغلام فسمته [شمويل] فلما بلغ أشده أوحى

الله إليه وأمره بالدعوة إليه وتوحيده ، وقد طلب منه بنو إسرائيل أن يقيم لهم ملكا يقاتل بهم عدوهم ، فقال لهم هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ، قالوا وما لنا ألا نقاتل وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ، لكنهم ما وفوا بما وعدوا بل نكل عن الجهاد أكثرهم)) ج١ ص ٥٥٤ .

لقد اختار الباحث المثال لهذه الصورة التي قصها القرآن من قصص بني إسرائيل ، لورودها في كتاب الله أولا ، ولأن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد في شرعنا ما يرده ، كما يقرر ذلك الأصوليون ، ثم إن الحكمة ضالة المؤمن أنا وجدها فهو أحق الناس بها ، ولأن الله قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم في آخر آية في القصة :﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين ﴾ سورة البقرة ٢٥٢ .

يقول ابن جرير في تفسيره (١٤٠٠هـ) في معنى الآية :((وإنك يا محمد لمن المرسلين ، يقول : إنك لمرسل متبع في طاعتي وإيثار مرضاتي على هواهم ، فسالك في ذلك من أمرك سبيل من قبلك من رسلي الذين أقاموا على أمري ، وآثروا رضاي على هواهم ، ولم تغيرهم الأهواء ومطامع الدنيا ، كما غير طالوت هواه ، وإيثاره ملكه على ما عندي لأهل ولايتي ، ولكنك مؤثر أمري كما آثره المرسلون الذين قبلك)) ج ٢ ص٤٠٥ .

إذن فإن من أسباب إيراد القصة تربية رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته على مثل هذه المعاني التي وردت في هذا الحدث العظيم ، وهي تربية للأمة كلها إلى يوم الدين ، إذ أن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم خطاب لصحابته ، وللأمة من بعده إلا ما خصه الدليل ٠

لقد طلب هؤلاء القوم من نبيهم أن يرسل لهم ملكا يقاتلون معه في سبيل الله ، فلما أرسل الله طالوت ملكا وخرج بهم للقتال في سبيل الله ، أعطى

توجيهاته لمن معه قائلا لهم :﴿ إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده ﴾ سورة البقرة آية ٢٤٩ .

إنها توجيهات تربوية للناس وهم في أمس الحاجة إليها ، بعد أن قطعوا الصحراء وأصابهم من جراء ذلك ظمأ شديد ، وسوف يقدمون على نهر يجري ، وهم في أمس الحاجة إلى قطرات تُبَلُّ بها نحورهم ، ولكنه الابتلاء من الله تعالى في هذا الوقت العسير ، ليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب .

لقد قال لهم نبيهم إنما تنهون عن الشرب اختبارا من الله لكم ، فإن علم صدقكم وإيمانكم يسر لكم دخول القرية ، ونصركم على عدوكم ، وإن أخفقتم في هذا الامتحان ولم تصبروا ، فلستم مني ولست منكم ، وما هي إلا فترة من الزمن قصيرة وإذا الناس يقدمون على النهر ، قد يبست أشداقهم من شدة الظمأ ، فلما رأوا النهر انقسموا إلى فريقين :

فريق همج رعاع ، ما عرف حقيقة الأمر ، وما أدرك سر الابتلاء ، لأنه فقد التربية الصحيحة التي تحفظ صاحبها - بعد رحمة الله - من الانتكاس والخور ، وهم الكثرة الكاثرة من الجيش ، وليس هذا موطن الحديث عنهم ، فإن هؤلاء ليسوا أهلا لأن يتحدث عنهم .

لكن الحديث عن الفريق الآخر ، وهم الذين أدركوا سر الابتلاء ، وأيقنوا أنه مرحلة ما تلبث أن تزول ، وأن الجنة سلعة غالية ، لولا مثل هذه المواطن لما عرف الصادق من الكاذب ، ولا تميز المؤمن من المنافق .

لقد كان هؤلاء القلة ما يقارب الثلاثمائة رجل ، لما روى البخاري في صحيحه (د - ت) من كلام البراء بن عازب رضي الله عنه قال :((كنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا النهر معه ، ولم يجاوز معه إلا مؤمن ، ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا)) ج ٥ ص ٩٤ .

وفي هذا درس تربوي عظيم ، أن العبرة في كل شيء ليست بالكم على حساب الكيف والنع ، ولو كان الأمر كذلك لتساءلنا عن الكثرة الكاثرة من جيش طالوت ، أين هم ساعة المحنة ؟ .

والجواب ، لقد عكفوا على شهواتهم مع الماء البارد ، والظلال الوارف ، فباعوا دنياهم وآخرتهم بشربة ماء .

أما الأبطال فقد خاضوا غمار النهر وإن كانوا قلة ، لكنها قلة نصر الله بها دينه ، وأخزى بها الكفر وأهله من قوم جالوت .

إن هؤلاء قلة قليلة ، كانوا يتلقون تربية صافية على يد نبيهم الذي أرسل إليهم ، فلما جاءت الأزمات ، وادلهمت المعضلات ، تكشفت للناس معادنهم ، فإذا الذهب الخالص الذي يبرق مع شعاع الشمس ، ولا يزداد مع قوة الضوء إلا بريقا ولمعانا .

لقد خرجوا من النهر واستقبلوا عدوا يفوقهم في العدد والعدة ، حتى إنهم قالوا :﴿ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ فرد عليهم العلماء الربانيون ، موضحين بأن النصر لا يكون بالعدد والعدة فحسب ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرةبإذن الله والله مع الصابرين ﴾ على أنهم حين برزوا للقتال ما نسوا أعظم الأسلحة التي يختص بملكها المؤمنون من عباد الله ، ألا وهو الدعاء وخاصة في مثل هذا الموطن العصيب ، قال الله تعالى عنهم :﴿ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ فجاءهم موعود الله بالنصر ﴿ فهزمزهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ ثم وجه الله الخطاب لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن ساق عليه القصة بقوله :﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾ سورة البقرة آية ٢٥٢ .

إنه حدث وقائي هائل ربى هذه الطائفة على الثبات عند المصائب في هذا الموطن وفي غيره من مواطن الفتن والبلاء ، وهي تربية وقائية لكل من قرأ هذه الحادثة في كتاب الله تعالى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أن يصبر ساعة البلاء ، فإنها مرحلة ما تلبث أن تزول ، ثم تكون العاقبة للمتقين .

إن المؤمن حين تحل به ساعة البلاء في نفسه أو ماله أو عرضه ، يرجع بذاكرته إلى أحداث هذه القصة العجيبة ، فتكون له زادا في محنته ، وعونا له على الصبر والثبات ، وفي هذا وقاية له من الخور والاستكانه ، والضعف والانهزام ، أما حين تغيب هذه المعاني عنه ، فأنّى له الثبات في مثل هذا الموطن الذي يعز فيه الثبات .

التربية الوقائية من خلال الأحداث :

يمر الإنسان على ظهر هذه الأرض بكثير من الحوادث التي تساهم في صنع شخصيته ، وصياغة فكرة ، وتربية ثقافته ، وتنمية خبرته ، ولا يكاد يمضي على الإنسان يوم من الأيام إلا وهو يمر بهذه الأحداث ، قد تكون أحداثا مفرحة ، وقد تكون أحداثا محزنة ، والمربي الناجح هو الذي يستغل هذه الأحداث في التربية استغلالا ذكيا ، ينفذ من خلاله إلى القلوب فيصنع منها ما يريد .

ولنا في كتاب الله عز وجل وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم عبرة ، في استغلال كل حدث للتربية والتعليم والتوجيه ، سواء كان هذا الحدث مما يشق على النفس فتحتاج معه إلى التربية على الصبر والتحمل ، أو كان مما تسر به النفس فتتربى من خلاله على الشكر لله الذي أنعم وأسدى ، شكرا يقر به القلب ، وينطق به اللسان ، وتعمل به الجوارح .

وإن المتأمل لتربية القرآن الكريم والسنة النبوية بالأحداث التي واجهة عبد الله ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، في العهدين المكي والمدني يجد الطرائق التربوية في ذلك تختلف .

إن الأحداث التي مرت بالعصبة المؤمنة في مكة كانت أحداثا شاقة عسيرة ، واجه فيها الصحابة رضوان الله عليهم الظلم بكل ألوانه ، والطغيان بكل أنواعه ، فكان من الأهمية بمكان أن تربى النفوس على العقيدة الصافية ، وعلى الصبر والتحمل في مواجهة هذا السيل الهادر من الظلم والجبروت ، تارة بالقدوة ، وتارة بالموعظة ترغيبا وترهيبا ، وتارة بالقصة ، وهلم جرا ٠

ففي تسلية القلوب وتثبيتها على ما تلقى من البلاء كان الصحابة رضوان الله عليهم يرون في رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبر والتحمل لأذى المشركين ، فيشحذ هذا من هممهم ، ويقوي من عزائمهم ، وتارة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر على بعضهم وهم يعذبون تحت السياط في حرارة الشمس فيقول لهم كما ذكر ذلك ابن حجر في الإصابة (١٤١٥هـ) مثبتا لقلوبهم ، زارعا لليقين في أفئدتهم :﴿ صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة﴾ ج ٤ ص ٤٧٣ .

وتارة يقوي من عزائمهم بذكر أحوال من أوذي في الله من الأمم السابقة ، فقد روى البخاري في صحيحه (د ـ ت) قال جاء خباب بن الأرت رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان متوسدا بردة في ظل الكعبة فقال : يا رسول الله : ألا تدعو الله لنا ؟ فقعد وهو محمر وجهه ، فقال :﴿ لقد كان مَنْ قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت ، ما يخاف إلا الله ، زاد بيان والذئب على غنمه ﴾ ج ٥ ص ٥٦ ـ ٥٧ .

في هذه الفترة الحالكة من تاريخ الأمة كان القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، يستغلان الأحداث لتربية النفوس على تحمل الأذى في سبيل الدعوة إلى الله ، حتى يصلب عودها وتقوى شوكتها ٠

أما في العهد المدني فقلد صلب عود الدعوة ، واستقر حالها ، وتكونت دولة الإسلام في المدينة النبوية ، فكانت النفوس في حاجة إلى أن تتربى على مواجهة الخصوم ، ورد كيد المعتدين ، ونشر الدعوة على نطاق أوسع ، القرآن في يد ، والسيف في اليد الأخرى ، امتثالا لقول الحق جل ذكره :﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ سورة التوبة آية ٢٩ وقوله تعالى :﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ﴾ سورة الأنفال آية ٣٩ .

وما غزوة بدر الكبرى إلا دليل على فهم الصحابة لهذه المرحلة من عمر الإسلام ، مرحلة القوة في مواجهة المشركين .

ولهذا ذكر ابن إسحاق في كتابه السيرة النبوية (١٤٠٩هـ) أن سبب غزوة بدر عير كانت لقريش قادمة من الشام تريد مكة ، فقال لأصحابه :((هذه عير قريش ، فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكوها)) ج ٢ ص ٢٩٥ .

وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٨٧هـ) من رواية أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول اله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة : ((إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة ، فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير ، لعل الله يغنمناها ؟ قلنا : نعم ، فخرج وخرجنا معه)) ج ٦ ص ٧٣ - ٧٤ .

إن الموقف يعبر عن قوة دولة الإسلام في المدينة النبوية ، فهاهي ثلة من المؤمنين قليلة العدد ، خرجت تريد مهاجمة المشركين القافلين من بلاد الشام ومعهم ألف بعير ، محملة بكل ألوان الطعام واللباس والذهب والفضة ، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يضرب قريشا في اقتصادها ضربة موجعة ، فخرج بأصحابه وكان ما كان .

ومن خلال ما سبق عرضه فإن الإسلام عبر مصدريه يعطي دروسا تربوية في كيفية التربية بالأحداث ، لعظم أثرها في النفوس ، وقوتها في تهيئة القلوب لاستقبال التربية والتوجيه .

وسيكتفي الباحث بعرض مثال واحد للتربية بالأحداث مستنبطا ما يشتمل عليه من التدابير الوقائية ، سواء كان هذا هو المحصلة النهائية من الحدث ، أو غير ذلك من التدابير التي يشتمل عليها الحدث في بعض جزئياته .

والمثال الذي سيعرضه الباحث هو : حادثة الإفك ، والقصة بتمامها في مختصر صحيح مسلم (١٤١٢هـ) للمنذري ، وخلاصتها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قفل راجعا من غزوة المريسيع ، وقريب من المدينة نزل المسلمون للراحة ، ونزلت أم المؤمنين رضي الله عنها من هودجها لبعض شأنها ، فلما عادت افتقدت عقدا لها فذهبت تبحث عنه ، وارتحل الجيش وتركها نسيانا ، فمكثت في مكانها حتى مرَّ بها الصحابي الجليل صفوان بن المعطل فحملها على بعيره ، وقدم بها المدينة بعد دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستغل عبد الله بن أبي هذا الحدث فأشاع في المدينة قصة الإفك ، واغتم لهذا الحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يثق في زوجه العفيفة ، وفي صفوان الذي شهد بدرا ، وكادت الفتنة تقع بين الأوس والخزرج حين وجهت أصابع الاتهام إلى واحد من قوم سعد بن عبادة ، ولكن رسول الله هدأ الأمر وفوَّت على المنافقين هذه الفرصة ، وخرجت عائشة بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لتمرض في بيت أبيها ، وهناك علمت بخبر الإفك ، فأصابها من جراء ذلك ما أصابها، وفارق النوم عينيها، ومرضت شهرا كاملا حتى نزلت براءتها من السماء)) ص ٥٦٦ .

ولقد اشتملت هذه القصة على كثير من التدابير الوقائية ، التي تتربى من خلالها الشخصية الإسلامية في جوانب حياتها ، تربية صحيحة تأخذ بحجز هذه النفس كي لا تتردى في مهالك تشقى بها ويشقى بها المجتمع .

إن منهج الوقاية الذي هو المحصلة النهائية من القصة هو حفظ اللسان عن الخوض في الشائعات ، وقاية للمجتمع من الفتن ، وصيانة للأعراض من أن تهان ، وحفظا للكرامات من أن تهدر .

وفي الآيات التي نزلت للتربية بهذا الحدث من التدابير الوقائية ما يلي :

* في وقاية المجتمعات من الانهيار والتصدع بين سبحانه أن الشر الذي يقع بالأمة ، قد يكون من خطط المنافقين المندسين في صفوف المسلمين ولهذا بيّن سبحانه أن الذين جاؤوا بالإفك ، ودبروا المكيدة ، إنما هم ممن يدعي الإسلام فيقول سبحانه : ﴿ إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم ﴾سورة النور آية ١١ .

× في الوقاية من التسخط على القضاء والقدر والذي يعد منزلقا خطيرا من مزالق العقيدة ، يخبر سبحانه أنه لا يقدر شرا محضا فيقول سبحانه :﴿ لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ﴾سورة النور آية ١١ .

* في الوقاية من أن يكون الإنسان قدوة سيئة يقول سبحانه :﴿ والذي تولى كبره منهم له عذاب أليم﴾ سورة النور آية ١١ .

* في الوقاية من سوء الظن بالناس الذي يورث الشحناء ، ويقطع أواصر المحبة والألفة بين المؤمنين ، يقول سبحانه :﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا ﴾ سورة النور آية ١٢ .

* في الوقاية من نشر الأخبار المؤذية ، يعاتب الله المؤمنين الذين وقعوا في نشر الخبر بغير تثبت فيقول سبحانه :﴿ إذ تلقونه بألسنتكم ﴾ مع أن التلقي لا يكون إلا بالأذن ، ولكن لسرعة نقل الخبر فكأنه جاوز الأذن إلى اللسان مباشرة .

* في الوقاية من عرض الأخبار العارية عن الدليل يقول سبحانه :﴿وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم﴾سورة النورآية ٥١

* في الوقاية من إيذاء المؤمنين يأمر سبحانه بحفظ اللسان عن الخوض في أخبار الشائعات فيقول :﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ﴾ سورة النور آية ١٧ .

* في وقاية المجتمعات المسلمة من حرب الشائعات في مستقبل أمرها يحذر سبحانه من العودة إلى مثل هذه المنزلقات الخطيرة ، فيقول سبحانه :﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ﴾سورة النور آية ١٧ .

* في وقاية الأفراد والمجتمعات من انتشار طرق الفساد يتوعد الله سبحانه الذين يحبون نشر الفواحش في أوساط البيئات المسلمة النظيفة بالعذاب الأليم فيقول :﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ﴾ سورة النور آية ١٩ .

الآثار التربوية للأحداث :

للحدث أثره التربوي في بناء النفس المؤمنة ، وقد اشتملت مصادر التشريع في الإسلام على هذا النوع من الأساليب ، ولعل من أعظم الأدلة على ذلك أن الله تعالى لم ينزل القرآن على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم جملة واحدة ، إنما نزل مفرقا حسب الحوادث والوقائع ، فتارة يتزامن مع الحدث توجيه وتربية ، وتارة تأتي التوجيهات عقب الحدث ، وتارة تسبق التوجيهات الحدث ، ليعيشه المسلم على بصيرة وبينه ، وكل هذا يحدث في جو من التأثر والانفعال .

يقول محمد قطب في كتابه منهج التربية الإسلامية (١٤٠٩هـ) :((ومزية الأحداث على غيرها من وسائل التربية أنها تحدث في النفس حالة خاصة هي أقرب للانصهار ، إن الحادثة تثير النفس بكاملها ، وترسل فيها قدرا من حرارة التفاعل والانفعال يكفي لصهرها أحيانا ، أو الوصول بها إلى قرب الانصهار ، وتلك حالة لا تحدث كل يوم في النفس ، وليس من اليسير الوصول إليها ، والنفس في راحتها وأمنها وطمأنينتها مسترخية ، أو منطلقة في تأمل رخي)) ج١ ص ٢٠٨ .

إن منهج القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يستغل هذه الحالة التي تمر بها النفس الإنسانية ، وهي تعيش أوج انفعالها وتأثرها ، فيربيها تربية تتمكن من القلب، فيظهر أثر ذلك في حياة الأفراد والمجتمعات .

ولقد ذكر رب العالمين سبحانه الحكمة من نزول القرآن منجما حسب الحوادث فقال :﴿ وقال الذين كفروا لولا نل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ﴾ سورة الفرقان آية ٣٢ .

يقول ابن جرير في تفسيره (١٤٠٠هـ) :((ويعني بقوله لنثبت به فؤادك لنصحح به عزيمة قلبك ، ويقين نفسك ، ونشجعك به)) ج ١٩ ص ٨ ، فالسر في إنزاله مفرقا كما يقول ابن جرير ، تصحيح عزيمة القلب ، ويقين النفس ، وملء الفؤاد بالشجاعة في حمل الرسالة الخالدة ، التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال وفي مواجهة الناس على اختلاف مشاربهم في الأعراض ، وتنوع أساليبهم في الإيذاء ، ومن هنا كان من حكمة الله البالغة ألا ينزل القرآن جملة واحدة ، لئلا تثقل النفس بحمله دفعة واحدة ، ولئلا تصعب قراءته مرة واحدة ، سيما وأنه نزل على أمي لا يقرأ ولا يكتب ، ثم إن هذا الكتاب المبارك نزل لحل كل معضلة تقع ، أو سؤال يطرح ، أو قارعة تحل ، والمعضلات والقوارع والأسئلة لا تأتي على الناس دفعة واحدة .

يقول سيد قطب في الظلال (١٤٠٠هـ) حول هذه الآية :((ولقد جاء القرآن الكريم بنمهج كامل للحياة كلها ، وجاء في الوقت ذاته بمنهاج للتربية يوافق الفطرة البشرية على علم بها من خالقها ، فجاء لذلك منجما وفق الحاجات الحية للجماعة المسلمة ، وهي في طريق نشأتها ونموها ، ووفق استعدادها الذي ينمو يوما بعد يوم في ظل المنهج الإلهي التربوي الفريد)) ج٥ ص٢٥٦٢ .

ولقد ملىء القرآن الكريم والسنة النبوية المظهرة بالأحداث التي تربت عليها العصبة المؤمنة ، وما زالت تتربى عليها ـ في كل عصر ـ كل عصبة آمنت بهذا الوحي وصدقت به .

يقـول شديـد في كتـابه منهج القـرآن في التـربيـة (د ـ ت) :((وبهذا كـان أسلوب تنزيله أسـاسا لنجـاح التربيـة وعمق أثرها في النفـوس ، فقد جـعل من كل هزيمة عبـرة ، ومع كل درس نصرا ، ولكل مـوقف تحليلا ، كـما كان بنـاؤه مظهرا رائعا للخلود ، جعله صالحا للسير مع كـل نفس موجها لكل جيل ، بانيا لكل أمة ، لِتَماثُلِ النفوس ، وتَشَابُهِ الأحداث)) ص ٣٣٥ .

ويقول النشمي في كتابه معـالم في التربية (١٤٠٠هـ) :((وقد لازم القرآن الكريم الجمـاعة المسلمـة من أول نشأتها حـتى قيـام الدوله المسلمة بأسلوب التـربية بالأحـداث ، ولعل هذا من الحكم الربانيـة في إنزال القـرآن منجمـا ليـتربى الرعيـل الأول ، وكل رعيل بعده وسط أحداث مـتكررة في كل جماعة أو فرد ، فيسـتفيد من العـلاج الرباني في كل حادثة ، وله أن يقـيس عليهـا ، فالعـبرة بعمـوم اللفظ لا بخصوص السبب)) ص ١٨٨ .

ولعل من أبرز المواقف التي تربت على أحداثها الأمة تربية عـميقة جد مؤثرة كمـا سبق ، حادثة الإفك ، التي تولى كـبرها عبـدالله بن أبي بن سلول لعنه الله ، فقد نشر في المدينة شائعة بأن سبب تأخر أم المؤمنين عائشة عن مرافقة الركب حين عاد الجيش من من غـزوة المريسيع ، أنها كانت على اتفـاق مع صفوان بن المعطل ، وأنها فعلت معه الفاحشة .

إنها طعنة المنافقين ـ لعنهم الله ـ في عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باتهام أمنا عائشة بنت أبي بكر الصديق بأنها فعلت الزنا مع صفوان بن المعطل .

إن في هذه الحـادثة ، سـلوة لكل من طعن في عـرضـه ، فـإنه إن حـصل له ذلك، فـقـد طُعِن رسول اللـه صلى الله عليـه وسلم ، وهو أشـرف الخلق ، وطُعِنت زوجتـه العفيـفة الطاهرة ، التي نزلت براءتهـا من فوق سبع سموات ، كـما أن في الآيات التي نزلت تعـالج قـضـية الشـائعـات ، منهج وقـائي عظيم ، للقـضـاء على

الشائعات التي تزلزل الجبال من أصولها ، فضلا عن القلوب الغافلة ، والنفوس البريئة ، ويكفي أن المدينة النبوية ماجت بالفتنة التي دبرها المنافقون شهرا كاملا ، وأعلنت حالة الطوارىء في المدينة ، وكاد الصحابة في المسجد يقتتلون بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأخر الوحي في النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحل الأمر ويقطع دابر الفتنة ، ومضى على ذلك شهر كامل ، وذهب ضحية هذه الفتنة العمياء بعض الصحابة الأخيار الذين وقعوا في نشر الخبر قبل نزول منهج الوقاية ، والذي أعطى فيما بعد منهجا ربانيا صحيحا في التعامل مع الشائعات .

يقول شديد في كتابه منهج القرآن في التربية (د ـ ت) :((ونزلت سورة النور أحوج ما تكون الأمة إليها ، كلها تربية وكلها استجاشة للمشاعر ، وارتفاع بمقاييس الحياة ، وتطهير للمجتمع من الفاحشة والفساد ، وبراءة لأم المؤمنين الطاهرة النقية ، ووعيد لمن تولى كبرهذا الحديث بالعذاب الأليم)) ص ٣٣٩ ، وفي هذه الآيات التي أعطت للمسلم تصورا صحيحا في كيفية التعامل مع الشائعات ، يقول الله تعالى :﴿ إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم .لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم * لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين * لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون * ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم * إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم * ولولا إذ سمعتموه قلتم مايكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم * يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين * ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم * إن

الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم ﴾ سورة النور ، الآيات ١١ - ٢٠ .

فها هي الآيات البينات تضع المنهج الوقائي في التعامل مع الشائعات ، التي تعد من أخطر الأمور التي تهدد كيان المجتمعات ، وتفري قلوب الأفراد . وخلاصة القول في الآثار التربوية للأحداث ما يلي :

١ - ندرة وقوعها مما يجعلها تتفاعل مع الإنسان فتثير كيانه ومشاعره وأحاسيسه .

٢ - قوة تأثيرها في النفس سواء كان الحدث مما يثير البهجة والفرحة ، أو يثير الهموم والأحزان ، أو يبعث على الخوف والوجل .

٣ - تهيؤ القلب لاستقبال التوجيه مهما كان غلظه وقساوته .

٤ - تربية الأمة على الدروس والعبر التي تستفيدها من الأحداث التي تمر بها في حياتها .

سادسا : التربية بالمداعبة :

لا يقتصر الإسلام في تربيته لأتباعه على الأساليب التي ذكرت آنفا ، كأسلوب القدوة ، أو ضرب الأمثلة ، أو الترغيب والترهيب ، أو القصة ، أو الأداث ، بل إن من أنجح أساليب التربية أحيانا أسلوب المداعبة الذي يقصد من ورائه التحبب إلى النفوس ، في جو من الأنس والسرور الذي يبهج الصدر ، فيسهل على القلب استقبال التربية والتوجيه بانشراح كبير .

وإذا كانت المداعبة تحمل هذا الأثر في النفوس ، فلا بد من تحديد مفهومها ، وذكر أقسامها ، وعرض منهج الإسلام في تقريرها ، وكيف تتم التربية الوقائية من خلالها ، ثم بيان آثارها التربوية .

مفهوم المداعبة :

ذكر ابن منظور في لسان العرب (١٤١٢هـ) في مادة دَعَبَ قوله :

((داعَبَه مُداعَبَةً : مازحه ، والاسم الدُّعابةُ ، والمُداعَبة : الممازحة ، وقال : الدُّعَابَة : المزاح ، والدُّعْبُبُ : المَزَّاح ، وأَدْعَبَ الرجل : أي قال كلمة مليحة ، قال الطِّرِمَّاح :

واستطربت ظُعْنُهُم لما احزألَّ بهم مع الضحى ناشط من دَاعِبَات دَدِ

يعني اللواتي يمزحن ويلعبن ويدأددْن بأصابعهن . وقال الليث : فأما المُدَاعَبَة : فعلى الاشتراك كالممازحة ، اشترك فيه اثنان فأكثر .)) ج ١ ص ٣٧٥ - ٣٧٦ .

أما في الاصطلاح فالمداعبة كما عرفها ابن حجر في الفتح (د - ت) :

((هي الملاطفة في القول بالمزاح وغيره)) ج ١٠ ص٥٢٦ .

والمداعبة والمزاح شيء واحد ، وقد عرف الشاويش في تعليقه على صحيح سنن ابن ماجة (١٤٠٨هـ) المزاح بأنه :((كلام يراد به المباسطة بحيث لا يفضي إلى أذى ، فإن بلغ به الأذى فهو السخرية)) ج ٢ ص ٣٠٤ .

وخلاصة القول في مفهوم المداعبة :

هي استغلال بعض المواقف بقول أو فعل ، يدخل السرور على الآخرين ، دون جرح للمشاعر أو إهدار للكرامات ، وإذا اشتملت على مواقف تربوية ، كانت أكثر فائدة ، وأعظم أثرا .

أقسام المداعبة :

يرى الباحث أن المداعبة تنقسم - من حيث الجواز وعدمه - إلى قسمين :

أولا : ما كان مباحا لا يوقع في معصية ، ولا يشغل عن طاعة ، على ألا يكثر منه المسلم ، فيطغى على الجدية التي هي الأصل في حياته ، وقد يكون المازح مأجورا على مزاحه إذا أحسن النية ، وكان مقصده من مزاحه مصلحة شرعية .

يقول ابن حجر في الفتح (د - ت) :((فإذا صادف مصلحة مثل تطييب نفس المخاطب ، ومؤانسته فهو مستحب)) ج١٠ص٥٢٧ .

ومن هذا الباب كان مزاحه صلى الله عليه وسلم ، وكان مزاح صحابته من بعده ، وإن كان الصحابة رضوان الله عليهم قد تجاوزوا المزاح بالقول إلى الفعل ، فقد علل ذلك العودة في كتابه الترويح التربوي (١٤١٤هـ) بقوله :((ويستفاد من ذلك أن المربي القائد يُلزَم بما لا يُلزَم به سائر الأفراد ، حفاظا على مكانته أن تبتذل بمزاح مضاد ، وحفاظا على أفراده في أن يتسبب في إحراجهم ، بأفعال يصعب الاعتذار منها))ص ٩٤ .

ثانيا : ما كان منه محرما ، يخدش الحياء ، ويجرح الكرامة ، ويثير الحفيظة ، وهو المعني بحديث الرسول ﷺ الذي رواه أبو داود في سننه (١٤٠٩هـ) من حديث يزيد بن سعيد رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :﴿ لا يأخذن أحدكم متاع أخيه لاعبا ولا جادا ﴾ ج ٢ ص ٧١٩ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٤٠٩هـ) ج ٣ ص ٩٤٤ .

يقول ابن حجر في الفتح (د ـ ت) كلاما ما معناه : المنهي عنه في المزاح ما كان فيه إفراط أو مداومة ، لأنه يشغل عن ذكر الله ، وعن التفكر في مهمات الدين ، ويقسي القلب ، ويزرع الحقد ، ويسقط المهابة والوقار ، ثم نقل عن الغزالي قوله : من الغلط أن يتخذ المزاح حرفة ، وكان هذا رده على من يتخذ مزاحه صلى الله عليه وسلم دليلا ثم قال معلقا على ذلك : حال هذا كحال من يدور مع الريح حيث دار . ج ١٠ ص ٥٢٦ .

منهج الإسلام في تقرير مبدأ التربية بالمداعبة :

لقد اختصت السنة النبوية بتقرير هذا المبدأ ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي لا ينطق عن الهوى ، ولا يقول إلا حقا ، يداعب أصحابه ويمازحهم ، ويدخل السرور على أنفسهم ، ولقد حفلت السنة النبوية المطهرة بكثير من الحوادث التي تقر هذا الأسلوب المحبب إلى النفوس ، والذي لا يكاد يخلو من تأديب وتهذيب ، وتلطيف وتمليح ، يزيل الملل ، ويذهب السآمة ، ويعين على الطاعة ، ويدخل السرور إلى النفس .

على أن هذا المزاح لم يكن به ما يخدش الحياء ، أو يجرح الكرامة ، إنما كان خاليا من الإثم والتهتك ، بعيدا عن الشتائم والسباب ، لأن الإسلام يهذب من سلوك المسلم حتى في مواطن المزاح.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يداعب أصحابه ما بين الفينة والأخرى ، ولعل من أبرز المواقف في ذلك ، ولربما كان هذا الموقف من أول المواقف التي داعب فيها الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه ، ما رواه الإمام أحمد في مسنده (د ـ ت) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قالوا : يارسول الله إنك تداعبنا! فقال صلى الله عليه وسلم :﴿ إني لا أقول إلا حقا ﴾ ج ٢ ص ٣٦٠، والحديث صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٤١٥هـ) ج ٤ ص ٣٠٤ .

لقد تعجب الصحابة رضوان الله عليهم من هذه المما زحة ، وثار في أنفسهم هذا السؤال ، بعد أن عادوا بأذهانهم إلى الجدية التامة في حياته صلى الله عليه وسلم ، ثم عايشوا ممازحته ، فانبعث من نفوسهم هذا السؤال ، فكان جوابه صلى الله عليه وسلم فيه جانب تربوي كبير ، إذ لم يقل صلياالله عليه وسلم : نعم، إنما كان جوابه متضمنا للإقرار بجواز الممازحة ، وزاد على ذلك بقوله : إني لا أقول إلا حقا ، ومعنى هذا أن المزاح بالباطل لا يجوز ، لأنه يناقض حينئذ التربية الصحيحة التي هي هدف الإسلام .

على أن مزاحه صلى الله عليه وسلم لم يتعد القول إلى الفعل لأنه حينئذ يصل بصاحبه إلى المزاح المذموم الذي نهى عنه الشارع الحكيم ، يقول العودة في كتابه الترويح التربوي (١٤١٤هـ) :((من الملاحظ أن مزاح الرسول ﷺ كان لايتعدى القول إلى الفعل كما كان لا يتعدى الصدق إلى غيره)) ص ٩١ .

وسوف يسوق الباحث جملة من القصص الطريفة اللطيفة التي مازح فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهله وأصحابه ، وبعض القصص التي مازح السلف فيها بعضهم بعضا ، وكان لذلك كله أبلغ الأثر في نفوسهم ، لنقف على منهج الإسلام في تقرير أسلوب المداعبة ، وليكن هذا زادا للمربين من بعده في استخدام هذا الأسلوب التربوي المؤثر بضوابطه الشرعية .

أولا : مداعبته صلى الله عليه وسلم لأهله :

لقد كان رسو الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الأزاوج في معاملة أهله ، كيف لا وهو الذي يقول لأصحابه كما روى ذلك ابن ماجة في سننه (د - ت) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله صلى الله عليه وسلم قال :﴿ خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي ﴾ ج ١ ص٦٣٦، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١٤٠٨هـ) ج ١ص ٣٣٤ .

ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يعمل مع أهله في مهنة البيت حتى تحضر الصلاة ، فإذا حضرت الصلاة لم يقدم عليها شيئا ، فقد روى البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث الأسود قال : سألت عائشة رضي الله عنها ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في أهله ؟ قالت : كان في مهنة أهله ، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة)) ج ٨ ص ١٧ .

ومن الأمثلة على حسن معاشرته صلى الله عليه وسلم لأهله ما كان يداعب به زوجاته ، ويداعب به أولاد بناته ، مدخلا بذلك السرور على أنفسهم .

١ـ أخرج الإمام أحمد في مسنده (١٣٨٩هـ) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت :((خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم ، في بعض أسفاره ، وأنا جارية لم أحمل اللحم ، ولم أبدن ، فقال للناس : تقدموا فتقدموا ثم قال لي : تعالى حتى أسابقك ، فسابقته فسبقته ، فسكت عني حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت خرجت معه في بعض أسفاره فقال للناس : تقدموا فتقدموا ، ثم قال : تعالي حتى أسابقك فسابقته فسبقني ، فجعل يضحك ويقول : هذه بتلك)) ج ٦ ص ٣٩ والحديث صححه الألباني في الإرواء (١٤٠٥هـ) ج ٥ ص ٣٢٨.

سبحان الله ! إن السفر مجهد مضني ، والنفوس فيه متعبة ، وإدخال السرور على الناس وخاصة الزوجة في مثل هذا الموطن من العشرة الحسنة ، بل هي من كريم الطبع ، وحسن الخلق .

٢ـ روى ابن ماجة في سننه (د ـت) من حديث عروة بن الزبير رضي الله عنه قال : قالت عائشة : ما علمت حتى دَخَلَتْ عليَّ زينب بغير إذن ، وهي غضبى ، ثم قالت : يا رسول الله : أحسبك إذا قَلَبَتْ لك بنية أبي بكر ذُرَيْعتيها ، ثم أَقْبَلَتْ عليَّ ، فأعرضتُ عنها ، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ دونك فانتصري ﴾ فأقبلتُ عليها حتى رأيتها وقد يبس ريقها في فمها ، ما ترد علي شيئا ،

فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم وجهه يتهلل)) ج ١ ص ٦٣٧ ، والحديث صححه الألباني في السلسلة (١٤١٥هـ) ج ٤ ص ٤٧٧ .

٣ـ أخرج الإمام أحمد في مسنده (١٣٨٩هـ) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : جاء أبوبكر يستأذن على النبي صلى الله عليه وسلم ، فسمع عائشة وهي رافعة صوتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأذن له ودخل فقال : يا ابنة أم رومان ! وتناولها ، أترفعين صوتك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : فحال النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبينها ، قال : فلما خرج أبو بكر جعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول لها يترضاها : ألا ترين أني قد حلت بين الرجل وبينك ؟ قال : ثم جاء أبو بكر فاستأذن عليه فوجده يضاحكها ، قال : فأذن له ، فدخل فقال له أبوبكر : يا رسول الله :أشركاني في سلمكما كما أشركتماني في حربكما)) ج٤ص ٢٧٢ .

٤ـ روى أبو يعلى في مسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بحريرة قد طبختها له ، فقلت لسودة والنبي صلى الله عليه وسلم بيني وبينها : كلي ، فأبت ، فقلت : لتأكلن أو لألطخن وجهك ، فأبت ، فوضعت يدي في الحريرة ، فطليت وجهها ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، فوضع بيده لها ، وقال لها : إلطخي وجهها ، فلطخت وجهي فضحك النبي صلى الله عليه وسلم لها)) قال الهيثمي في المجمع : ((رجاله رجال الصحيح خلا محمد بن عمرو بن علقمة وحديثه حسن)) ج ٤ ص ٣١٦ .

٥ـ ذكر الذهبي في السير (١٤٠٥هـ) عن عمير بن اسحاق قال : كنت مع الحسن فلقينا أبوهريرة ، فقال : أرني أقبِّل منك حيث رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبِّل ، فقال بقميصه فقبَّل سرَّته)) ج ٣ ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ ورواه الطبراني وابن حبان والحاكم وصححه ووافقه الذهبي .

ثانيا : مداعبته صلى الله عليه وسلم لأصحابه :

١ـ كان صهيب الرومي رضي الله عنه كثير المزاح ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلاطفه ويدخل السرور على نفسه ، وكان يأكل تمرا وبه رمد فقال النبي صلى الله عليه وسلم له كما روى ذلك ابن ماجة في سننه (د – ت): ﴿ أتأكل التمر وبك رمد ؟ ! فقال يا رسول الله : إنما أمضغ على الناحية الأخرى فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴾ ج ٢ ص ١١٣٩ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٤٠٨هـ) ج٢ص ٢٥٣ .

لقد راعى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحالة التي كان عليها صهيب رضي الله عنه ، فقد كان مصاب في عينيه بالرمد ، وهو في حاجة إلى المواساة والملاطفة التي تدخل السرور على نفسه ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يأكل التمر : أتأكل التمر وبك رمد ! سبحان الله ! وما دخل أكل التمر بالرمد؟ وهل الإنسان يأكل بفمه أم بعينه ؟ وليس في سؤاله صلى الله عليه وسلم إلا الحق ، فإنه مجرد استفهام لا يغير الحقيقة ، فكان جواب صهيب وقد كان مزاحا ، يحمل دعابة جميلة ، قال : يا رسول الله : إنما أمضغ على الناحية الأخرى، سبحان الله ! وما دخل المضغ على أحد الجانبين بالرمد في العين ، ولكنها سرعة البديهة ، التي أجابت على قدر السؤال ، فإذا حق لنا أن نقول : ما العلاقة بين أكل التمر وبين الرمد في السؤال ، جاز لنا أن نقول : وما العلاقة بين الرمد وبين الأكل على أحد الجانبين من الفم ، على أن صهيبا رضي الله عنه حين قال ما قال، فإنه لم يقل إلا حقا، فإنه عند الأكل إنما كان يمضغ على أحد جانبيه .

٢ـ كان من بين الصحابة الذين اشتهروا بكثرة المزاح والدعابة نعيمان البدري رضي الله عنه ، فقد ذكر ابن حجر في الإصابة (١٤١٥هـ) :((أن أعرابيا دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وأناخ ناقته بفنائه ، فقال بعض الصحابة للنعيمان :

لو عقرتها فأكلناها ، فإنا قد قرمنا إلى اللحم ، فخرج الأعرابي وصاح : واعقراه يا محمد ! فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال : من فعل هذا ؟ قالوا : النعيمان ، فأتبعه يسأل عنه حتى وجده قد دخل دار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب ، واستخفى تحت سرب لها فوقه جريد ، فأشار رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم حيث هو ، فقال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : الذين دلوك لي يا رسول الله هم الذين أمروني بذلك ، فجعل يمسح التراب عن وجهه ويضحك ، ثم غرمها للأعرابي)) ج ٦ ص ٣٦٧.

فهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم يشيرون على النعيمان رضي الله عنه بعقر الناقة ليأكلوا منها ، فلما كُشِفَ أمره دلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه ، فاستخرجه صلى الله عليه وسلم من بين الأعواد ومسح التراب عن وجهه وهو يضحك متعجبا من فعله رضي الله عنه ، وجرأته على ناقة الأعرابي ، وقد عالج صلى الله عليه وسلم الموقف بغرم ناقة الأعرابي من ماله .

٣- ومن المواقف العجيبة في حياته صلى الله عليه وسلم وهو يمازح أصحابه موقفه من العجوز الصالحة الصوامة القوامة ، فقد روى الترمذي في الشمائل (١٤١٣هـ اختصار وتحقيق الألباني) أن عجوزا أتت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله : أدع الله أن يدخلني الجنة ، فقال : ﴿ يا أم فلان ، إن الجنة لا تدخلها عجوز ، فولَّت تبكي ، فقال : ((أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز ، ، إن الله تعالى يقول : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء * فجعلناهن أبكارا عربا أترابا ﴾ سورة الواقعة آية ٣٥ ـ ٣٦، والحديث في الشمائل ص ١٢٨ .

فهاهو رسول الله صلى الله عليه وسلم يمازح هذه العجوز الصالحة، قائلا لها: يا أم فلان : وهذا من حسن أدبه صلى الله عليه وسلم في إدخال السرور على الناس ، فإن تكنية الإنسان مما يدل على التقدير والاحترام الذي أمر به الإسلام .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يقرر حقيقة من حقائق الآخرة ، وهو النعيم الخالد لأهل الجنة ، في إنشاء النساء إنشاء ، وجعلهن عربا أترابا .

٤ ـ ذكر ابن حجر في الإصابة (١٤١٥هـ) مزاح أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم معه صلى الله عليه وسلم فقال : ((قال الزبير : وكان النعيمان لا يدخل المدينة طرفة ـ أي طعاما ـ إلا اشترى منها ثم جاء بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقول ها أهديته لك ، فإذا جاء صاحبها يطلب نعيمان بثمنها ، أحضره إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : أعط هذا ثمن متاعه ، فيقول : أولم تهده لي ، فيقول إنه والله لم يكن عندي ثمنه ، ولقد أحببت أن تأكله ، فيضحك ، ويأمر لصاحبه بثمنه)) ج ٦ ص ٣٦٦ .

ومن هنا يخلص الباحث إلى أن أسلوب الممازحة والمداعبة من الأساليب التي قررتها التربية الإسلامية ، وجعلت فيها من الدروس التربوية ، والتدابير الوقائية، ما هو كفيل بصياغة الشخصية الإسلامية ، صياغة متزنة ، في كل جانب من جوانب حياتها .

ثالثا : مداعبة السلف الصالح بعضهم لبعض :

كان الصحابة رضي الله عنهم أجمعين يرون في رسول الله صلى الله عليه وسلم روح الدعابة والابتسامة والمرح ، فأخذوا هذا عنه صلى الله عليه وسلم ، فكان بعضهم يلاطف بعضا ويداعبه .

ذكر الهيثمي في المجمع (١٤٠٨هـ) وعزاها إلى الطبراني عن قرة ، قال قلت لابن سيرين :((هل كانوا يتمازحون ؟ قال : ما كانوا إلا كالناس)) ج ٨ ص ٨٩، وهذه صور من مداعبة بعضهم لبعض :

١ـ أخرج الإمام مسلم في صحيحه (د ـ ت) بألفاظ مختلفة ، من حديث علي رضي الله عنه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية عليهم علقمة

بن مجزز ، وأنا فيهم ، فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق ، استأذنه طائفة فأذن لهم ، وأمَّر عليهم عبد الله بن حذافة ، وكان من أهل بدر ، وكانت فيه دعابة ، فبينا نحن في الطريق ، فأوقد القوم نارا يصطلون بها ، ويصنعون عليها صنيعا لهم ، إذ قال : أليس لي عليكم السمع والطاعة ؟ قالوا : بلى ، قال : فإني أعزم عليكم بحقي وطاعتي إلا تواثبتم في هذه النار ، فقام ناس ، فتحجزوا ، حتى إذا ظن أنهم واقعون فيها ، قال : أمسكوا ، إنما كنت أضحك معكم ، فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكروا ذلك له ، فقال : ﴿ من أمركم بمعصية فلا تطيعوه﴾ وفي رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :﴿ لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة ﴾ ج ٦ ص ١٥ - ١٦ .

وإن كانت مداعبة بعضهم لبعض في بعض الفترات تتعدى القول إلى الفعل، فقد روى البخاري رحمه الله في صحيحه (د - ت) من حديث بكر بن عبد الله قال : كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يتبادحون بالبطيخ ، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال)) ص ٦٦ .

إن النفوس حين تكون في عظمتها كهذه النفس فلا مانع أن يتعدى مزاحها القول إلى الفعل الذي يحقق من ورائه فائدة ، فإن هذا التبادح بالبطيخ فيه فائدة التعود على الرمي الذي أمر به صلى الله عليه وسلم وفسر القرآن به ، في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ سورة الأنفال آية ٦٠ .

فقد قال صلى الله عليه وسلم في تفسير القوة في هذه الآية كما روى ذلك الإمام مسلم في صحيحه (د - ت)فقال في تفسير القوة :﴿ ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ﴾ ج ٣ ص ٥٢ .

٢- ذكر ابن حجر في الإصابة (١٤١٥هـ) أن أبا بكر رضي الله عنه خرج تاجرا إلى بصرى ومعه نعيمان وسويبط بن حرملة رضي الله عنهما ، وكلاهما

بدري ، وكان سويبط على الزاد ، فقال له نعيمان : أطعمني ، قال : حتى يجيء أبوبكر ، وكان نعيمان مضحاكا مزاحا ، فراح إلى ناس جلبوا ظهرا ، فقال : ابتاعوا مني غلاما عربيا فارها ، قالوا : نعم ، قال : إنه ذو لسان ، ولعله يقول أنا حر، فإن كنتم تاركوه لذلك فدعوني لا تفسدوه عليّ ، قالوا : بل نبتاعه ، فابتاعوه منه بعشر قلائص ، فأقبل بها يسوقها، وقال: دونكم هذا هو، فقال سويبط: هو كاذب أنا رجل حر !! قالوا: قد أخبرنا خبرك ، فطرحوا الحبل في رقبته فذهبوا به ، فجاء أبوبكر فأُخبر ، فذهب هو وأصحابه إليهم فردوا القلائص وأخذوه ، ثم أخبروا النبي صلى الله عليه وسلم فضحك هو وأصحابه منها حولا كاملا)) ج ٣ ص ١٨٥، والقصة رواها الإمام أحمد في مسنده. (د - ت) ج ٦ ص ٣١٦ .

٣- وإذا كان بعض الصحابة قد اشتهر بالمزاح فإن التابعين قد اشتهر بعضهم بالمزاح على جلالة قدرهم ، وعلو منزلتهم ، فهذا التابعي الجليل سليمان بن مهران الأعمش ، الذي يقول عنه الذهبي في السير (١٤٠٥هـ) ما خلاصته : هو الإمام شيخ الإسلام ، شيخ المقرئين والمحدثين ، علامة الإسلام ، من كبار العباد ، لم تفته تكبيرة الإحرام قريبا من سبعين سنة)) ج٦ص٢٢٧ - ٢٢٨ .

كان هذا التابعي الجليل صاحب دعابة لطيفة ، ونكتة خفيفة ، في بعضها ن الدروس التربوية ما لا يخفى ، فمن ذلك :

١ - أنه قال مرة من المرات وهو يسعُل ، بلغني أن الرجل إذا نام حتى يصبح - يعني لم يصل - توركه الشيطان فبال في أذنه، وأنا أرى أنه قد سلح في حلقي الليلة.

٢ - خرج الأعمش فإذا بجندي ، فسَخَّرَه ليخوض به نهرا ، فلما ركب الأعمش - يعني على ظهر الجندي - قال الأعمش :((سبحان الذي سخر لنا هذا)) فلما توسط به الأعمش قال :((وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين)) سورة المؤمنون آية ٢٩ .

٣ ـ قرأ عليه حسين بن واقد ، وقال : قرأت على الأعمش ، فقلت له : كيف رأيت قراءتي ؟ قال : ما قرأ عليَّ عِلْجٌ أقرأ منك .

٤ ـ سأل أبو داود الحائك الأعمش : ما تقول يا أبا محمد في الصلاة خلف الحائك ؟ فقال : لا بأس بها على غير وضوء ، قال : وما تقول في شهادته ؟ قال : تقبل مع عدلين .

٥ ـ كان للأعمش ولد مغفل ، فقال له : اذهب فاشتر لنا حبلا للغسيل ، فقال : ياأبه : طول كم ؟ قال عشرة أذرع ، قال : في عرض كم ؟ قال : في عرض مصيبتي فيك . ج ٦ ص ٢٢٦ وما بعدها . .

لقد كانوا رحمهم الله إلى جانب ما هم عليه من العلم والعبادة والزهد والورع ، على قدر كبير من التودد إلى الناس ، وإدخال السرور عليهم ، متأولين قول الرسول صلى الله عليه وسلم كما روى ذلك ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إن من أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك المؤمن سرورا ، أو تقضي عنه دينا ، أو تطعمه خبزا ﴾ والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع (١٤٠٦ هـ) : ج ١ ص ٢٤٧ .

التربية الوقائية من خلال المداعبة :

في التربية بالمداعبة بعض الجوانب الوقائية التربوية التي لها أثرها في تربية النفوس ، سواء كان ذلك هو المحصلة النهائية من الدعابة ، أوكانت هذه الجوانب الوقائية في بعض مواقفها وأحداثها .

إن النفس ـ وهي تعافس ضيعات الحياة ـ يصيبها من الفتور ما يصيبها ، فَيَبْلَى الإيمان في صدر العبد كما يبلى الثوب على ظهره ، وفي هذا المعنى يقول رسول

الله صلى الله عليه وسلم كما روى ذلك الطبراني في معجمه والحاكم في مستدركه ، من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:﴿ إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم ﴾ والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٠٦هـ) ج١ص٣٣٠ .

بل ربما تنكر للعبد قلبُه في فترة من الفترات ، وهذه طبيعة النفس البشرية ، والعبد ما بين الفينة والأخرى في حاجة إلى أن ينفض عنه غبار الغفلة ، وصدأ القلب ، بالترويح عن نفسه وعمن حوله ، حملا للنفس على الخير ، ووقاية لها من الملل ٠

روى الإمام مسلم في صحيحه (د ـ ت) من حديث حنظلة رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا فذكر النار ، قال ثم جئت إلى البيت ، فضاحكت الصبيان ولاعبت المرأة ، قال : فخرجت فقلت : يا أبا بكر، فذكرت ذلك له فقال : وأنا قد فعلت ما تذكر ، فلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت يا رسول الله : نافق حنظلة ، فقال : مه ؟ فحدثت بالحديث ، فقال أبو بكر : وأنا قد فعلت مثل ما فعل ، فقال :﴿ يا حنظلة : ساعة وساعة ، ولو كانت تكون قلوبكم كما تكون عند الذكر لصافحتكم الملائكة حتى تسلم عليكم في الطرق ﴾ج ٨ ص ٩٥ .

وقد ذكر النووي في شرح صحيح مسلم (د ـ ت) في شرحه لحديث مامعناه : حنظلة الأسيدي هو أحد كتَّاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد خشي على نفسه النفاق بمعافسة الأزاج والأولاد والضيعات ، فقد كان يحصل له الخوف في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم وذلك بالمراقبة والفكر والإقبال على الآخرة ، فإذا خرج اشتغل بالزوجة والأولاد ومعاش الدنيا ، وقد خشي أن يكون ذلك نفاقا فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم أنها ساعة وساعة ٠ ج ١٧ص ٧٣.

وذكر المباركفوري في التحفة (د ـ ت) في بيان معنى الساعة : ((أي ساعةٌ كذا ، وساعةٌ كذا ، يعني لا يكون الرجل منافقا بأن يكون في وقت على الحضور ، وفي وقت على الفتور ، ففي ساعة الحضور تؤدون حق ربكم ، وفي ساعة الفتور تقضون حظوظ أنفسكم)) ج ٧ ص ٣١٨ .

إن الساعة الأولى التي حددها رسول صلى الله عليه في الحديث : هي ساعة للعبادة يؤدي فيهما العبد ما أوجبه الله عليه من الحقوق ، وساعة يمشي في مناكب الأرض يأكل من رزق الله ويبتغي من فضله ، يدل على ذلك حديث حنظلة الأسيدي رضي الله عنه ، فإنه ذكر أنه يقضي ساعة في المسجد يتعلم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم شرائع الإسلام ، ثم يقضي الساعة الثانية بين الزوجة والأولاد والضيعات ، وفي هذا رد على الذين يظنون أن الساعة الثانية التي ذكرت في الحديث هي ساعة اللهو المحرم ، والعبث الباطل الذي وردت نصوص الشرع بتحريمه .

ومن حديث حنظلة نخلص إلى أن معافسة الزوجة والأولاد يدخل فيه جانب الدعابة والممازحة ، بتخصيص وقت لهم ، وهومن اللهو المباح الذي نص عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله كما روى ذلك الإمام أحمد في مسنده (د ـ ت) : ﴿ ليس من اللهو إلا ثلاث ، ملاعبة الرجل امرأته ، وتأديبه فرسه ، ورميه بقوسه ﴾ ج٤ ص١٤٦ .

وخلاصة القول إن النفس في حاجة إلى أن يكون لها فسحة في الحلال ، وفرجة في المباح ، حتى يكون ذلك وقاية لها من الملل والسآمة ، وحفزا لها على النشاط والحيوية في استقبال أعمال جديدة بها يؤدي العبد حق ربه عليه .

وإذا اشتملت الدعابة على توجيه وتربية ، كانت أعظم أثرا وأكثر فائدة ، وكانت إلى جانب سعادة العبد في الدنيا أجرا له عند الله عز وجل في الآخرة .

وفي قصة خوات بن جبير رضي الله عنه ما يجلي هذه الحقيقة ، والقصة كما رواها الطبراني في المعجم الكبير (١٤٠٠هـ) :عن خوات بن جبير رضي الله عنه قال : نزلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مَرَّ الظهران ، فخرجت من خبائي ، فإذا نسوة يتحدثن فأعجبنني ، فأخذت حلة لي من حبرة فلبستها ، ثم جلست إليهن ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبته فقال : يا أبا عبد الله : ما يجلسك إليهن ؟ فهبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله : جمل شرد لي أبتغي له قيدا ، قال خوات : فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فألقى رداءه ودخل الأراك ، فقضى حاجته ثم توضأ وجاء ، فقال : يا أبا عبد الله ما فعل شراد جملك ؟ ثم ارتحلنا فجعل لا يلحقني في منزل إلا قال لي : يا أبا عبد الله ما فعل شراد جملك ؟ قال : فتعجلت المدينة ، فتجنبت المسجد ومجالسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما طال ذلك تنحيت ساعة خلوة المسجد ، فجعلت أصلي ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بعض حجره ، فجاء يصلي ، فصلى ركعتين خفيفتين ، ثم جاء فجلس ، وطوّلت رجاء أن يذهب ويدعني ، فقال صلى الله عليه وسلم طوّل يا أبا عبد الله ما شئت فلست بمصرف حتى تنصرف، فقلت والله لأعتذرن لرسول الله ولأبردن صدره، قال: فانصرفت ، فقال : السلام عليك يا أبا عبد الله ما فعل شراد جملك ؟ فقلت والذي بعثك بالحق ما شرد ذلك منذ أسلم ، فقال عليه الصلام والسلام : رحمك الله مرتين أو ثلاثا ، ثم أمسك عني فلم يعد))ج ٤ ص ٢٠٣، والقصة بطولها في مجمع الزوائد للهيثمي (١٤٠٨هـ) ج ٩ ص ٤٠١ .

إن في قصة خوات بن جبير للمربين دروسا وعبرا ، وذلك بما تشتمل عليه من الجوانب الوقائية العظيمة التي لا غنى للمربي الناجح عنها ، ومن ذلك :

١ - في وقاية النفس من الإصرار والعناد ، شرع الإسلام جانب الرفق في النصيحة ، لما له من الأثر الواضح في تغيير السلوك ، وتصحيح الخطأ ، فهذا رسول

الله صلى الله عليه وسلم يرى خواتا بين النساء بعد نزول آية الحجاب بدليل أنه أنكر عليه ذلك ، فلم يعنفه صلى الله عليه وسلم بقول ولا فعل ، إنما سلم عليه أولا، ثم كنّاه ثانيا ، ثم لاطفه في الحديث ثالثا ، فكان لهذا الأسلوب أبلغ الأثر في قلب خوات ، الذي لم يعد بعدها إلى مجالسة النساء أبدا ، كما ذكر ذلك الطبراني في معجمه .

إن على المربين أن يعقلوا حقيقة أن الرفق ما كان في شيء إلا زانه ، وما نزع من شيء إلا شانه ، وأن المربي الناجح هو الذي لا يلجأ إلى الشدة في النصح إلا بعد أن يستنفد كل ما في جعبته من وسائل الرفق واللين ، وحين لا يجدي ذلك فقد شرع الإسلام العقوبة التي هي أحدى الوسائل التربوية الإسلامية ، وهي وسيلة علاج ناجحة تؤتي ثمارها حين لا يحقق اللين ثماره .

٢ ـ في الوقاية من الكذب شرع الإسلام المعاريض ، التي يلجأ إليها عند الحاجة الماسة لئلا يقع الإنسان في الكذب المحرم ، فهذا خوات بن جبير رضي الله عنه ، يعرض بالجمل الذي شرد عليه ، وإنما كان يقصد نفسه رضي الله عنه ، ذلك أن المرأة قيد للرجل عن الحرام ، قال الله تعالى عن النساء :﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ سورة البقرة آية ١٨٧ .

ولهذا بوّب البخاري في صحيحه (د ـ ت) بابا قال فيه : بابٌ المعاريض مندوحة عن الكذب ، ثم قال : وقال إسحاق :﴿ سمعت أنسا مات ابن لأبي طلحة ، فقال : كيف الغلام ؟ قالت أم سليم هدأت نفسه ، وأرجو أن يكون قد استراح وظن أنها صادقة ﴾ ج ٨ ص ٥٧ ـ ٥٨ .

٣ ـ في وقاية النفس من تبلد الإحساس ، لم يكثر رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوات بن جبير من المعاتبة ، لأن كثرة المساس تبطل الإحساس ، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في تربيته لأصحابه يتخولهم بالموعظة خشية

السآمة ، فقد روى البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث أبي وائل رحمه الله قال :﴿ كان عبد الله يُذَكِّر الناس في كل خميس ، فقال له رجل يا أبا عبدالرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم ، قال : أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أُمِلَّكُم ، وإني أتخولكم بالموعظة ، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا بها مخافة السآمة علينا ﴾ ج ١ ص ٢٧ .

وفي رواية الإمام مسلم (د ـ ت) عن شقيق رحمه الله قال كنا جلوسا عند باب عبد الله ننتظره فمر بنا يزيد بن معاوية النخعي فقلنا أعلمه بمكاننا فدخل عليه فلم يلبث أن خرج علينا عبد الله فقال : ﴿إني أخبر بمكانكم فما يمنعني أن أخرج إليكم إلا كراهية أن أُمِلَّكُم ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتخولنا بالموعظة في الأيام مخافة السآمة علينا ﴾ ج ٨ ص ١٤٢ .

ولهذا كان من الواجب على المربي أن يعي هذه الحقيقة ، فإن الإنسان حين يحدث كل يوم عن الموت أو عن النار ، أو حتى عن الجنة وما أعد الله لأهلها ، ربما فقدت النفوس ـ عليكثرة ذلك ـ الإحساس ، ولكن التخول والاقتصاد يؤتي ثماره ، وهذا ما وعاه السلف رضوان الله عليهم عن نبيهم صلى الله عليه وسلم ، فقد كان عبد الله بن مسعود يعظ الناس ويذكرهم بالله ، وهم يطلبون منه المزيد ، فيمتنع مع أنهم رضي الله عنهم من أبعد الناس عن السآمة والملل من ذكر الله ، ولكنها الوقاية التي تدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس .

الآثار التربوية للمداعبة :

أسلوب المداعبة من أنجع الأساليب التربوية التي لها أبلغ الأثر في تربية النفوس ، كما أنها تعد من حسن الخلق ، وسماحة النفس ، وكرم الطبع ، ولين الجانب ، ومحبة الآخرين .

إن المربي الناجح هو الذي يسخر كل طاقاته وإمكانياته لخدمة رسالته التي يحملها ، حتى وهو يداعب غيره ويلاطفه ، حين يستغل هذه الفرصة التي تتهيأ فيها النفوس لاستقبال النصيحة ، وهذا ما أدركه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يربي أصحابه بآيات الله والحكمة ، فقد كان يداعبهم ويمازحهم ويدخل السرور على أنفسهم ، حتى ثار في أنفسهم العجب من ممازحته صلى الله عليه وسلم لهم ، فقال قائلهم : إنك تداعبنا يا رسول الله ! فكان الجواب يتضمن تقرير هذا المبدأ ، مع زيادة في الجواب تبين أن صاحب الرسالة وهو يداعب غيره من زوجة وأهل وولد وصديق لا يتنازل عن مبادئه التي يحملها ، فلا يكون جادا في مواطن الجد ، متهتكا في مواطن المزاح ، بل إن مواطن المزاح والمداعبة لتستغل في التوجيه والتربية والإصلاح ، استغلالا يجعل الحياة كلها لله تعالى .

إن المحصلة النهائية من الدعابة تكمن فيما يلي :

١- إدخال السرور على النفس .

٢- تزيل الملل الذي ربما يعلق بالنفس نتيجة لما قد يعترض الإنسان في حياته من الهموم والأحزان .

٣- تبعث على النشاط والمرح والضحك الذي يغير روتين الحياة .

٤- تثير في النفس محبة الناصح والراحة النفسية عند لقائه .

٥- تَقَبُّل النصيحة والموعظة والتربية بنفسية منشرحة .

على أن القصة التي ترد وفيها من صور المداعبة ما فيها ، تشتمل على جوانب تربوية أخرى ، يحددها طبيعة الشخص والموقف والملابسات والظروف التي تصنع هذا الحدث .

لقد اشتملت قصة خوات بن جبير رضي الله عنه على جوانب تربوية بالإضافة إلى أنها أسلوب رائع من الأساليب التي تشرح الصدر وتثير مكامن السرور في النفس . ومن هذه الآثار

١ـ التعامل مع الإنسان في تربيته على أنه عرضة للوقوع في الخطأ .

٢ـ التعامل مع الإنسان على أنه كائن له غرائز وشهوات .

٣ـ نظرة الإسلام إلى الإنسان على أنه غير معصوم من الخطأ .

٤ـ دعوة المسلم إلى حسن المظهر ، ليكون في وجوه الناس كأنه شامة .

٥ـ الحذر من الكذب الذي يهدي إلى الفجور ، ثم إلى النار .

٦ـ التعريض في الحديث حين لا يريد الإنسان الإدلاء بالحقيقة لمصلحة ما ، فإن في المعاريض لمندوحة عن الكذب .

٧ـ التكرار ـ المعتدل ـ في عرض أسلوب التربية والتوجيه لتتحقق الفائدة المرجوة منه .

٨ـ الدعاء للمسلم المخطيء وتكرار ذلك .

٩ـ الحذر من التكرار الممل الذي يبعث السآمة في النفس ، أو لربما كان سببا في تبلد الإحساس .

خاتمة الفصل :

من روعة الإسلام في تربيته لأتباعه ، أنه ما جعل طرائق التربية وأساليبها على صورة واحدة ، ربما تملها النفوس ، وتسأمها القلوب ، إنما جعل لذلك أساليب متعددة ، وطرائق متجددة ، فتارة يربي بالقدوة التي هي من أعظم الأساليب التربوية على الإطلاق لكونها ترسل إلى الغير رسالة صامتة أن هذا هو الحق وأن تطبيقه ليس بالأمر المستحيل ، بل هو في متناول الجميع ، وفي مقدور كل أحد ، وليست الأمة اليوم في حاجة إلى شيئ أكثر من حاجتها إلى قدوات في كل ميدان .

وتارة يربي بالقصة التي ترسل إلى الآخرين رسالة مؤثرة بما تشتمل عليه من الدروس والعبر والمواقف ، مع ما تشتمل عليه من قوة التأثير ، حين تشد الانتباه ، وتحرك الوجدان ، وتثير الانفعال وتحدث الإقناع .

وتارة يربي بضرب الأمثال حين يربط بين معنيين أحدهما غائب عن النفس والآخر حاضر مشاهد ، فتقريب صورة الغائب عن الحس إلى عالم المحسوس المشاهد مثيرة العقل والقلب والعاطفة على حد سواء .

وتارة يربي بالأحداث فيستغل كل حدث يقع ليعطي فيه صورة مؤثرة من التربية والتوجيه تظل تعلق بخفايا النفس فترة طويلة من الزمن .

وتارة يربي بالترغيب والترهيب في موازنة مدروسة ، لتقارن النفس حين تسمع الخير ونتائجه وآثاره ، ثم تنتقل إلى الجانب الآخر فتسمع الشر ونتائجه وآثاره ، لتقارن بين الحالين ، وتارة يربي بالمداعبة التي تدخل السرور إلى النفس وتمهد الطريق للنصح والتوجيه في أسلوب محبب ، وقد يدعو الإسلام إلى التربية بالعقوبة حين تستنفد كل الوسائل التربية السالفة الذكر ، فجعل للوالد سلطة في ضرب أولاده ، وجعل للزوج سلطة في ضرب الزوجة ، وجعل العقوبات والتعازير لكل من تسول له نفسه العدوان على الأفراد أو المجتمعات وكل ذلك بالضوابط الشرعية التي قررها الإسلام .

إلى غير ذلك من الأساليب الكثيرة التي حفلت بها التربية الإسلامية ، وإنما كان السر في ذلك حسب تصور الباحث حتى لا تمل النفس ، ويتبلد إحساسها حين يتكرر عليها أسلوب واحد من هذه الأساليب التي ذكرت آنفا ، فتفقد على أثر ذلك تربيتها الصحيحة .

إن الأمة بكل أفرادها ومؤسساتها في أمس الحاجة إلى التربية الوقائية في جوانب حياتها كلها بلا استثناء ، لتظل سليمة من العلل ، خالية من الأمراض ، لتقوم بمهمتها التي أخرجها الله للناس من أجلها .

فالمدرسة في أمس الحاجة إلى عرض ما تقدمه للناشئة من تعليم وتربية باستخدام هذه الأساليب المتنوعه التي تسهم بدور كبير في إقناع الشبيبة المسلمة

بما يملى عليها من الحق ، بل إن هذه الأساليب لتربي في النفس القدرة على التفكير ، والنظر في عواقب الأمور ، فتتربى على أسلوب التحليل والتركيب والتقويم ، دون أن تقتصر على أسلوب الحفظ والتلقين المجردين .

والوالد في منزله في حاجة ماسة إلى تربية أولاده على الخير وإقناعهم بتعاليم الإسلام - حتى وإن كانوا صغارا - عن طريق عرض ما تستوعبه قلوبهم وأفهامهم من هذه الحقائق بهذه الأساليب العظيمة التي تميزت بها التربية الإسلامية .

والدعاة إلى الله تبارك ةتعالى وهم يخاطبون الناس من فوق أي منبر ، أو في أي مكان أو زمان في أمس الحاجة إلى أن يدركوا أهمية دعوة الناس عبر هذه الأساليب التي ملئت بها مصادر التشريع في الإسلام .

ووسائل الإعلام على اختلاف أنواعها مسئولة أمام الله تعالى عن عرض حقائق الإسلام على أبناء دينها وعلى غيرهم من أمم الأرض بهذه الأساليب والطرئق التي تسهم بدور كبير ي إقناع الناس بأن التمسك بأحكام الإسلام هو الحل الأمثل ، وهو المنهج الرائد الذي يبلغ بالفرد والأسرة والمجتمع سعادة الدنيا والآخرة.

هذه بعض الأساليب التربوية التي حاول الباحث أن يعرض لها في هذا الفصل من الدراسة ، أما في الفصل التالي من الدراسة - بإذن الله - فسوف يعرض الباحث لبعض المجالات التي يمكن أن تستفيد من التربية الوقائية ، وهي الأسرة والمجتمع .

الفصل الخامس

(من مجالات تطبيق التربية الوقائية)

أولا : الأسرة

١ - اختيار الزوجين

٢ - المعاشرة الحسنة

٣ - تربية الأولاد

ثانيا : المجتمع

١ - الدعوة إلى الله

٢ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

٣ - تطبق حدود الله

مدخل للفصل :

للتربية الوقائية في الإسلام مميزات كثيرة، من أعظمها أن هذه التربية واقعية في أهدافها ، وأساليبها ، ومجالات تطبيقها .

إنها ليست مثالية في الذهن ، ولا خيالية في التصور ، لأنها لم تكن من وضع فيلسوف متربع في برجه العاجي ، لا يمكن تطبيقها في أرض الواقع ، ولامن وضع تربوي قاصر تتحكم فيه العواطف وتستبد به النزوات ، جاهل بمناطق شاسعة من عالمه الداخلي المعقد ، غير محيط بما يجري من حوله ، فضلا عما يدور في الكون كله من تقلبات وأحوال ، غير مدرك بما يصلح نفسه وما يصلح لها ، غير عالم بمن يطيعه في السر أو حتى في العلانية .

لا .. إن الذي أنزل منهج التربية في الإسلام عبر آيات القرآن العظيم ، والسنة النبوية المطهرة ، هو رب العالمين الذي يقول مادحا نفسه ، مدللا على أحديته ، مبينا أن له الكمال المطلق في كل شيء ، داعيا العقول والأفهام أن تتفكر في عظيم خلقه ، وسعة علمه واطلاعه :﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ سورة الملك آية ١٤ .

والتربية الوقائية التي هي الشق الأكبر من التربية الإسلامية ، مجال تطبيقها في أربعة ميادين رحبة :

أولها : ميدان الأسرة .

ثانيها : ميدان الفرد

ثالثها : ميدان المدرسة .

رابعها : ميدان المجتمع .

فالفرد يحتاج الوقاية في عقيدته ، وعبادته ، وأخلاقه ، ومعاملته ، وتعليمه ، وإعلامه ، وثقافته ، وفكره ، وسياسته ، واقتصاده ، وسلمه ، وحربه ، وجسده ،

وروحه ، وفي كل هذه الجوانب من حياته يحتاج إلى أن يقال له : درهم وقاية خير من قنطار علاج والدفع أسهل من الرفع ٠

والأسرة تحتاج إلى الوقاية في بنائها الذي يشمل ، اختيار الزوجين ، ومايتبع ذلك من أساليب وقائية يتخذها الإسلام قبل عقد النكاح ، ثم المعاشرة الحسنة حين يرتبط الزوج بزوجته ، إضافة إلى تربية الأولاد ، وفي كل جانب من هذه الجوانب تحتاج الأسرة إلى أن يقال لها : درهم وقاية خير من قنطار علاج ، والفدفع أسهل من الرفع ٠

والمدرسة كي تقوم بمهمتها تحتاج إلى جوانب وقائية ، فيما يخص ، المعلم ، والطالب ، والمنهج ، والنشاط ، وفي كل جانب من هذه الجوانب تحتاج المدرسة إلى أن يقال لها : الدفع أسهل من الرفع ، والوقاية خير من قنطار علاج ٠

والمجتمع المسلم كي يضطلع بمهمته يحتاج إلى تدابير وقائية تقوم بدورها في صيانته وحمايته من الانهيار والتصدع ومنها : جانب الدعوة إلى الله على علم وبصيرة ، وجانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجانب إقامة الصلاة ، وجانب إيتاء الزكاة ، وجانب التعاون على البر والتقوى ، وجانب توحيد مصدر التلقي ، وجانب تطبيق الحدود الشرعية ، وغيرها من الجوانب الكثيرة ، ولسان حال هذه الجوانب يقول : درهم وقاية خير من قنطار علاج ٠

إن هذه المجالات ، الأسرة ، والفرد ، والمدرسة والمجتمع ، حين تيمم وجهها نحو كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وهدي سلف الأمة الأخيار ، فتستنبط من ذلك التدابير الوقائية التي شرعها الإسلام ، وتسعى إلى تطبيقها على أرض الواقع ، سيتحقق على أثر ذلك من الخير شيئا كثيرا ، وستحمي هذه المجالات، وتصان عن المخاطر ليقوم كل مجال بدوره المنوط به ، لتصب هذه الجهود كلها في نهاية المطاف في إناء واحد ، تتحقق على أثر ذلك الحياة الطيبة التي وعد

الله بها عباده الصالحين ، ويتحقق على أثر ذلك الفوز العظيم بالنعيم الخالد الذي جعله الله ميراثا للمتقين من عباده .

وسيقوم الباحث ـ بإذن الله ـ في هذا الفصل من الدراسة ، بعرض مجالين اثنين من هذه المجالات التي يمكن أن تستفيد من التربية الوقائية ، وهما الأسرة والمجتمع .

وسيكون الحديث عن التدابير الوقائية للأسرة في ثلاثة جوانب :

أولهما : جانب جانب اختيار الزوجين .

ثانيهما : جانب المعاشرة بالمعروف .

ثالثهما : تربية الأولاد .

أما المجتمع فسيكون الحديث عنه في التدابير الوقائية التالية :

أولهما : جانب الدعوة إلى الله تعالى .

ثانيهما : جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ثالثهما : جانب تطبيق الحدود الشرعية .

وسيكون الحديث عن المدرسة ـ بإذن الله ـ في الفصل الأخير من الدراسة ، والذي يحمل عنوان : التصور المقترح لاستفادة المدرسة الثانوية من التربية الوقائية، إذ المدرسة الثانوية هي إحدى المجالات الرحبة لتطبيق التربية الوقائية ، وسيكون الحديث عن مدى استفادتها من التربية الوقائية حديثا مطولا ، ومن هنا حرص الباحث أن يخصص لها الفصل الأخير من الدراسة ، أما بالنسبة للفرد فهو المعني بالتربية داخل أروقة الأسرة والمدرسة والمجتمع .

أولا : الأسرة

قد يثور في الأذهان تساؤل عن سبب البدء بالحديث عن الأسرة ، مع أن الأولى أن يسبق ذلك الحديث عن الفرد ، باعتباره نواة الأسرة وأساسها ٠

وجوابا عن هذا التساؤل : يرى الباحث أن الفرد هو نتاج الأسرة وثمرتها ، وبقدر ما تتشكل شخصيته في الأسرة ، بقدر ما يتوفر على المربين - فيما بعد - كثير من الجهد والوقت ، في إكمال مسيرته التربوية ٠

إن من المحال في أنظار الناس اليوم ، مؤمنهم وكافرهم ، بارهم وفاجرهم ، أن يوجد - بعد أبينا آدم وعيسى بن مريم عليهما السلام - فرد لم يخرج من بين أب وأم ، ومعنى هذا أن الفرد لابد أن يمر بهذا المحضن فتتشكل فيه شخصيته ٠

فإذا تلقى الفرد بين الأبوين تربية صحيحة نظيفة مستقيمة ، نشأ نشأة مباركة، وامتد به العمر فتزوج وأسس أسرة طيبة ، يخرج منها أفراد صالحون ، يشكلون مجتمعا مثاليا يتحقق على يديه العز والتمكين لأمة الإسلام ٠ وهكذا دواليك ٠

يقول سويد في كتابه منهج التربية النبوية للطفل (١٤١٢هـ) :((الطفل أول ما يرى في الوجود منزله وذويه ، فترتسم في ذهنه أصول صور الحياة مما يراه من حالهم وطرق معيشتهم ، فتتشكل نفسه المرنة ، القابلة لكل شيء ، المنفعلة بكل أثر ، بشكل هذه البيئة الأوى)) ص ٢٥ .

ومن هنا قرر الباحث أن يكون بدء الحديث في مجالات تطبيق التربية الوقائية من الأسرة ، ومشوار ألف ميل يبدأ بخطوة ٠

على أن الحديث عن الأسرة سيكون حديثا مطولا باعتبارها ذات علاقة وطيدة بالمدرسة ، وذات صلة وثيقة بالتربية ، كما أنها أحد المرتكزات المهمة التي

يقوم عليها المجتمع ، وبقدر ما تصلح الأسرة وتعي مهمتها في الحياة ، بقدر ما يصلح المجتمع ويحقق المثالية المنشودة في نطاق البشر .

مفهوم الأسرة :

قال ابن منظور في لسان العرب (١٤١٢هـ) في مادة أسر :((الأُسْرة : الدرع الحصينة ، وأسرة الرجل : عشيرته ورهطه الأدنون لأنه يتقوى بهم ، والأسرة: عشيرة الرجل وأهل بيته)) ج ٤ ص ١٩ ـ ٢٠ .

ومن خلال هذا التعريف اللغوي يتبين ، أن أسرة الرجل بمثابة القوة له ، وهي سبب في حمايته وصيانته عن كل ما يسوؤه ، كما أن الدرع للفارس سبب في حمايته من كل ما يسوؤه من ضربات السيوف وطعنات الرماح .

والباحث يرى أن مفهوم الأسرة حين يطلق فإنما يراد به : قرابة الرجل وأهل بيته ممن تلزمه نفقتهم من أب وأم وزوجة وولد .

إن الأسرة في الإسلام لا يمكن تكوينها ألا عن طريق الزواج الشرعي ، الذي أكرم الله به أهل الإسلام ، من لدن آدم عليه السلام ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

على أن الأسلام وهو يسعى بأتباعه إلى تكوين الأسر فإنما يهدف من وراء ذلك إلى أمور ، لا بد من استحضارها في الأذهان حين يقدم المسلم على مثل هذه الخطوة . ومنها :

١ـ العبودية المطلقة لله رب العالمين ، بامتثال أمره وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، الذي فيه الحث على الزواج والأمر به.

٢ـ التأسي بالأنبياء والمرسلين إذ ما بعث الله نبيا إلا كان له أزواجا وذرية كما قال تعالى :﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ﴾ سورة الرعد آية٣٨ .

٣ـ بقاء النوع البشري الذي هو ثمرة الزواج ٠

٤ـ إيجاد الحياة الكريمة التي قوامها الراحة النفسية والطمأنبينة القلبية ٠

٥ـ تكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، في نسائها وذريتها ٠

٦ـ إرواء الغريزة الجنسية التي هي فطرة فُطِرَ الإنسان عليها ٠

٧ـ إرواء غريزة الحب بين الزوج والزوجة ، وبين الزوجين والأولاد ٠

٨ـ حفظ الفرد والمجتمع من الانحراف ، ذلك أن الغريزة حين تُخلق فطرة في العبد، ثم لا يكون هناك مصرف شرعي لها ، تقع الكوارث الأخلاقية التي تجر على أثرها الويلات والنكبات للأفراد والمجتمعات ٠

٩ـ المحافظة على الأنساب من اختلاط المياه وتداخل الأسر ٠

١٠ـ إيجاد نسل طيب مبارك وتربيتة على الإسلام تربية صحيحة ٠

إن الزواج في الإسلام بناء قد يستمر مئات السنين ، والمسلم حين يتصور هذا الأمر فإنه يحسن الخطوة الأولى في تأسيس هذا البناء على تقوى من الله ورضوان، لأن البناء إن لم يتأسس على ذلك فهو مهدد بالانهيار٠

ولتحقيق هذه الأهداف شرع الإسلام كثيرا من التدابير الوقائية التي تسهم في بناء الأسرة المسلمة ، والتي يمكن استنباطها من كتاب الله تعالى ، ومن سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ومن سير سلف الأمة الأخيار رضوان الله عليهم ، فكانت كما يلي :

التدابير الوقائية لحفظ الأسرة المسلمة :

أولا : حسن اختيار الزوجين على أساس من الدين ٠

إن عملية اختيار الزوجين تقوم على شقين اثنين ، الشق الأول : اختيار الزوج لزوجته ، والشق الثاني : هو اختيار الزوجة لزوجها٠

ولهذا كانت الخطوة الأولى في تأسيس البيوت في الإسلام ، تبدأ باختيار الزوجة لزوجها ، واختيار الزوج لزوجته ، ومعنى هذا أن الإسلام يجعل الاهتمام بتكوين الأسرة منذ أن يكون الزواج فكرة في ذهن الزوجين .

فالزوج مطالب بالبحث عن ذات الدين ، التي هي وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والزوجة مطالبة بالبحث عن صاحب الدين والخلق ، وهذه لعمري من أعظم التدابير الوقائية التي تقي الأسرة من الضياع والانهيار والتصدع .

فقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى ذلك البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك ﴾ ج ٧ ص ٩.

يقول ابن حجر في الفتح باختصار العدوي (١٤١٤هـ) :((والمعنى أن اللائق بذي الدين والمروءة ، أن يكون الدين مطمح نظره في كل شيء ، لا سيما فيما تطول صحبته ، فأمره النبي صلى الله بتحصيل صاحبة الدين الذي هو غاية البغية)) ج٤ص ٥٢ .

وقد روى مسلم في صحيحه (شرح النووي د – ت) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة ﴾ ج ١٠ ص ٣١٠ .

على أن الإسلام يبيح للمسلم أن يبحث عن ذات الجمال والمال والحسب ، بعد أن يكون هدفه الأول في زوجته الصلاح والدين والخلق ، لأن في هذا عونا له على إحصان نفسه واستقرار حياته .

يقول ابن حجر في الفتح باختصار العدوي (١٤١٤هـ) :((قال القرطبي : معنى الحديث أن هذه الخصال الأربع هي التي يرغب في نكاح المرأة من أجلها ،

فهو خبر عما في الوجود من ذلك ، لا أنه وقع الأمر بذلك ، بل ظاهره إباحة النكاح لقصد كل من ذلك ، لكن قصد الدين أولى)) ج ٤ ص ٥٢ .

وحين يتخلف الدين فلا قيمة للحياة الأسرية ، ذلك أن الدين هو الذي يوجهها نحو أقوم الأخلاق ، وأنبل السلوك ، فإذا فقدت الدين فقدت الأخلاق والمروءة والكرامة ، سيما مع وجود العوج الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في المرأة .

ولقد ذكر رب العالمين في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، أن الصور الجميلة بلا إيمان لا قيمة لها ، يقول سبحانه :﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تُنكِحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾ سورة البقرة آية ٢٢١ .

وروى البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال : مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ ما تقولون في هذا ؟ قالوا : حري إن خطب أن يُنكح ، وإن شَفَعَ أن يُشفَّع ، وإن قال أن يُستَمع ، قال ، ثم سكت ، فمر رجل من فقراء المسلمين ، فقال ما تقولون في هذا ؟ قالوا : حري إن خطب ألا يُنكح، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال ألا يستمع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا خير من ملء الأرض مثل هذا ﴾ ج ٧ ص ٩-١٠.

إن فساد القلب لا يصلحه جمال الهيئة ، ولا حسن الطلعة ، فقد فضح الله المنافقين أهل القلوب المريضة بقوله تعالى :﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسنده ... ﴾ سورة المنافقون آية ٤

وقد روى البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) ومسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم :﴿ إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ، وقال اقرؤوا : فلا نقيم لـه يوم القيامة وزنا ﴾ ج ٨ ص ٤٢٦ ، ج ١٨ص ١٣٥ والآية في سورة الكهف١٠٥ .

إن ذات الدين ضرورة ملحة لبناء أسرة سوية ، ذلك أن الطفل يقضي مع أمه من الوقت أكثر مما يقضيه مع أبيه ، فكان من حقه على أبيه أن يختار له رفيقة عمر صالحة ، تربيه على مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأقوال والأفعال .

يقول الماوردي في كتابه نصيحة الملوك (١٩٨٨م) :((واختيار الزوجة حق للولد على أبيه ، أخذا من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : فمن أول حقوق الولد أن ينتقي أمه ، ويتخير قبل الاستيلاد منهن الجميلة الشريفة الدينة العفيفة العاقلة لأمورها ، المرضية في أخلاقها ، المجربة بحسن العقل وكماله ، المواتية لزوجها في أحواله)) ٢٠٩ .

إن الزواج في الإسلام لا يقف عند مجرد العلاقة الجنسية بين الزوجين ، بل إن وراء هذه العلاقة أسرة وذرية ، قد تستمر بعد الزوجين عشرات السنين ، وإذا كان من أهداف الزواج التي سلفت ، هي إيجاد نسل طيب مبارك ، فلا بد لتحقيق هذا الهدف من حسن الاختيار .

ذكر علوان في كتابه تربية الأولاد في الإسلام (١٤٠١هـ) :

((أن رجلا جاء يشتكي إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عقوق ابنه ، فأحضر عمر الولد وأنّبه على عقوقه لأبيه ونسيانه لحقوقه ، فقال الولد : يا أمير المؤمنين : أليس للولد حقوق على أبيه ؟ قال : بلى ، قال : فما هي يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : أن ينتقي أمه ، ويحسن اسمه ، ويعلمه الكتاب (أي القرآن) قال الولد : يا أمير المؤمنين : إن أبي لم يفعل شيئا من ذلك ، أما أمي فإنها زنجية كانت لمجوسي، وقد سماني جُعَلاً (أي خنفساء) ولم يعلمني من الكتاب حرفا واحدا ، فالتفت

عمر إلى الرجل ، وقال له : جئت إلي تشكو عقوق ابنك وقد عققته قبل أن يعقك، وأسأت إليه قبل أن يسيء إليك)) ج ١ ص ١٢٨ .

وللباحث مع هذه القصة وقفات تربوية :

الأولى : دعوة الإسلام إلى بر الوالدين ، وتعزير القاضي لمن يخل بهذا الحق، حين يرفع الأمر إليه .

الثانية : أن الجزاء من جنس العمل ، فقد كانت نتيجة الإهمال في التربية عقوقا في الكبر ، وما ربك بظلام للعبيد .

الثالثة : خطورة سوء اختيار الأم ، التي يلتصق بها وليدها مرحلة طويلة من مراحل العمر ، وهي مرحلة الطفولة .

الرابعة : ضرورة اختيار أحسن الأسماء للمولود ، فهذا الأب الذي أنكر عليه عمر ، ترك كل الأسماء الحسنة التي تضيق بها الدنيا ، واختار لولده اسما قبيحا ، فكان هذا الاسم قالبا لـلمعنى ، فقد سماه جُعْلاً ، والجُعْلُ كما يقول الجاحظ في كتاب الحيوان (١٤٠٨هـ) ((من أنواع الحشرات... وله طبع غريب عجيب ... فإنه إذا دفن في الورد مات في العين ، وفنيت حركاته كلها ، وعاد جامدا تارزا ، ولم يفصل الناظر إليه بينه وبين الجعل الميت ما أقام على تأمله ، فإذا أعيد إلى الروث عادت إليه حركة الحياة من ساعته)) ج ٣ ص ٣٤٩ .

الخامسة : ضرورة تعليم الطفل وتربيته من الصغر على أخلاق الإسلام وآدابه، وقاية له من العقوق والانحراف عند الكبر.

إن هذا الأب الذي ذكره ابن القيم في تحفته كان يطعم ولده ويسقيه ، ويلبسه ويؤويه ، ولكنه ما قال له يوما من الدهر ﴿ يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾ سورة لقمان آية ١٦ .

بمعنى أن لم يؤدبه ، إنما كان يتصور أن من أعظم حقوق ولده عليه ، أن يملأ بطنة بشتى أنواع المأكولات والمطعومات ، ناسيا أو متناسيا أمر الله في وقايته من النار ، فكانت النتيجة أن شب الغلام عن الطوق ، وخرجت آثار تلك المطاعم والمشارب عضلات يفتلها الشاب على أبيه ، وكما يدين العبد يدان ، وما ربك بظلام للعبيد .

إن هذه ثمرة من ثمرات سوء اختيار المربية ورفيقة العمر ، وإذا كان المثل يقول: قل من تصاحب أقل لك من أنت ، فكيف بصحبة سيئة ، تدوم عمرا طويلا، ينشأ في أحضانها الطفل من نعومة أظفاره ، لا شك أن الأثر ينتقل إلى الطفل ، فينطبع بصفات السوء التي رضعها مع اللبن من أمه ، إلا أن يتداركه الله برحمته ، وما ذلك على الله بعزيز .

إن لنا في نبي الله زكريا لقدوة حسنة ، حين تقدمت به السن ، واشتاق إلى الولد ، فدعا ربه قائلا كما حكى القرآن عنه ذلك :﴿ رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾ سورة آل عمران ٣٨ .

لقد اشترط على ربه في طلبه أن تكون الذرية طيبة ، فلبى الله له ما سأل وأعطاه ما تمنى ، قال تعالى :﴿ وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين * فاستجبنا له ووهبنا له يحي وأصلحنا له زوجه﴾ سورة الأنبياء آية ٨٩-٩٠ .

يقول ابن كثير في تفسيره (١٤١٤هـ) :((لما رأى زكريا عليه السلام أن الله تعالى يرزق مريم عليها السلام فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ، طمع حينئذ في الولد ، وكان شيخا كبيرا قد وهن منه العظم ، واشتعل رأسه شيبا ، وإن كانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقرا ، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خفيا ٠٠٠ ومعنى ﴿ ذرية طيبة ﴾ أي ولدا صالحا)) ج٢ص ٤٣ .

إن الإسلام يحرص على وقاية الأسرة ، فيرسم لها الطريق الأمثل ، لبناءٍ أصيلٍ ثابتِ الأركان ، تتحقق على أثره تلك الأهداف التي ذكرت آنفا ، ولكن حين لا يأخذ المسلم بهذا الأمر التربوي الوقائي الإسلامي ، فإنه يشقى بالأسرة قبل أن تشقى به .

قال الله تعالى :﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾ سورة فاطر آية ٢ .

يقول سيد قطب في الظلال (١٤٠٠هـ) :((المال والولد ، والصحة والقوة والسلطان .. تصبح مصادر قلق وتعب ونكد وجهد ، إذا أمسكت عنها رحمة الله ، فإذا فتح الله أبوب رحمته ، كان فيها السكن والراحة والسعادة والاطمئنان ... إلى أن يقول : ويمنح الله الذرية ـ مع رحمته ـ فإذا هي زينة في الحياة الدنيا وفرح واستمتاع ، ومضاعفة للأجر في الآخرة بالخلف الصالح الذي يذكر الله ، ويمسك رحمته فإذا الذرية بلاء ونكد وعنت وشقاء وسهر بالليل وتعب بالنهار)) ج ٥ ص ٢٩٢٢ .

وما ذكر آنفا هو الشق الأول من عملية الاختيار الأمثل ، ألا وهو اختيار الزوج لزوجته وفق ما أوصى به الشارع الحكيم .

أما الشق الثاني فهو اختيار الزوجة لزوجها ، وفق وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل كما في الحديث الذي رواه الترمذي في سننه (د ـ ت) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض ﴾ ج ٣ ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٤٠٨هـ) ج ١ ص ٣١٤ .

قال المباركفوري في التحفة (د ـ ت) :((وذلك لأنكم إن لم تزوجوها إلا من ذي مال أو جاه ، ربما يبقى أكثر نسائكم بلا أزواج ، وأكثر أزواجكم بلا نساء، فيكثر الافتتان بالزنا ، وربما يلحق الأولياء عار ، فتهيج الفتن والفساد ، ويترتب عليه قطع النسب ، وقلة الصلاح والعفة)) ج ٤ ص ٢٠٤.

وانظر إلى لفتة جميلة في هذا الحديث ، فقد جمع الحديث بين الدين والخلق، لأن العبد قد يكون ديِّناً ، ولكنه في جانب الخلق الذي تحتاجه الحياة الزوجية ، قد يكون مقصرا ، مما يضفي على الحياة الزوجية شيئا من الكدر .

وكنموذج لصلاح الزوجين ، وتأثير ذلك على الأطفال والذرية ، ترجم الذهبي للصحابية الجليلة ، أم سليم بنت ملحان ، الرميصاء ، التي كانت تحت مالك بن النضر فمات عنها ، وتزوجها من بعده أبو طلحة زيد بن سهل الأنصاري، فولدت له أبا عمير وعبدالله .

وفي قصة هذا الزواج ما يثير العجب ، فقد ذكر الذهبي في السِّيَر (١٤٠٥) ما خلاصته : قال أنس بن مالك رضي الله عنه : خطب أبو طلحة أم سليم ، فقالت ، إني قد آمنت فإن تابعتني تزوجتك ، فقال فأنا على مثل ما أنت عليه ، فتزوجته أم سليم وكان صداقها الإسلام ، وقيل أنها قالت له حين خطبها : إني لا أتزوج مشركا ! أما تعلم يا أبا طلحة أن آلهتكم ينحتها عبد آل فلان ؟ وإنكم لو أشعلتم فيها نارا لاحترقت ؟ قال : فانصرف وفي قلبه ذلك ، ثم أتاها وقال : الذي عرضت علي قد قبلت ، فتزوجها على الإسلام ، وأقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم :﴿ جاءكم أبو طلحة وغرة الإسلام بين عينيه﴾ وفي ذات يوم ثَقُل ابنٌ لأم سليم ، فخرج أبو طلحة إلى المسجد ، فمات الغلام ، فهيأت أم سليم أمره ، وقالت : لا تخبروه ، يعني زوجها أبا طلحة ، فلما عاد من غيبته صنعت له عشاءه فتعشى ، ثم أصاب منها تلك الليلة ما يصيب

الرجل من زوجته ، فلما كان من آخر الليل قالت له : يا أبا طلحة : ألم تر إلى آل أبي فلان استعاروا عارية فمنعوها ؟ يعني عن أهلها حين طلبوها ، فقال : ما أنصفوا ، فقالت : إن الله أعطانا هذا المولود عارية ثم قبضه ، فاسترجع وحمد الله ، فلما أصبح غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآه قال :﴿ بارك الله لكما في ليلتكما ﴾ فحملت بعبدالله فحنكه رسول الله صلى الله عليه وسلم وسماه ، وكبر هذا الغلام حتى رأى الناس له سبع بنين كلهم قد ختم القرآن ٠ ج ٢ ص ٣١٠-٣١١ .

إن هذه نتيجة حتمية لصلاح الأسرة واستقامتها على أمر الله ، فكان الجنى توفيق من الله وهداية ، وتسديد ورعاية ، ولا بد من وقفة تربوية مع القصة واستخلاص بعض ما فيها من اللطائف التربوية ، ومن ذلك :

* تحول المرأة الصالحة إلى داعية ومصلحة ، هدى الله على يديها أبا طلحة ، الذي أصبح بعد إسلامه سيدا من سادات المسلمين.

* اعتزازها بإيمانها ، ووقوفها عند حدود ربها ، حين قالت له : إني لا أتزوج مشركا ، امتثالا لقول الله تعالى :﴿ ولا تُنكِحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ﴾ سورة البقرة آية ٢٢١ .

* روعة فهمها للقرآن ، واستنباطها من آياته طريقة التفكير الجيد ، والإقناع السليم ، فقد قالت له :

أما تعلم يا أبا طلحة أن آلهتكم ينحتها عبد آل فلان ، وكان هذا الأسلوب الجميل في الإقناع تأوّلا لقول الله تعالى :﴿ أتعبدون ما تنحتون * والله خلقكم وما تعملون ﴾ سورة الصافات آية ٩٥ ـ ٩٦ .

ثم إن استخدامها لكلمة [عبد آل فلان] وعبارة [لو أشعلت فيها نار لاحترقت] جميلة جدا في تحقير آلهة المشركين ، وهي زيادة قوية في الإقناع ، إذ

المعنى كيف تعبد يا أبا طلحة آلهة من خشب نحتها عبد أسود أنتم تحتقرونه وتزدرونه وتأنفون من مجالسته ، أو الأكل معه ؟ هذا في الصانع ، أما المصنوع فإنها خشبة لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ولا تملك ضرا ولا نفعا ، بل لو أشعلت فيها نار لاحترقت .

فتفتق ذهن الرجل على هذه الكلمات العجيبة المستلهمة من الوحي ، وأدبر وصدى كلمات المرأة العاقلة ينفذ من أذنيه ، فيزلزل كيانه من الداخل ، وصال عقله وجال متفكرا في حال هذه الآلهة البئيسة ، فعاد مسرعا وغرة الإسلام بين عينيه .

* رجاحة عقلها ، وثبات قلبها ، حين فقدت وليدها ، فلم تلطم خدا ، ولم تشق جيبا ، ولم تنتف شعرا ، ولم ترفع صوتا ، بل كانت على العكس من ذلك تماما ، فقد هيأت وليدها فغسلته وكفنته وطيبته ، واسقبلت زوجها أحسن ما يكون الاستقبال ، وصنعت له عشاءه ، وتجملت له فواقعها تلك الليلة ، وأخبرته الخبر من آخر الليل .

* دهاؤها وسرعة بديهتها ، فقد روى النسائي في سننه (١٤٠٧هـ) قول أم سليم رضي الله عنها لأبي طلحة من رواية أنس رضي الله عنه أنها قالت : ((والله ما مثلك يا أبا طلحة يرد ، ولكنك رجل كافر ، وأنا امرأة مسلمة ، ولايحل لي أن أتزوجك ، وإن تسلم فذاك مهري ، وما أسألك غيره ، فأسلم فكان ذاك مهرها)) قال ثابت وهو الرواي عن أنس : ((فما سمعت بامرأة قط كانت أكرم مهرا من أم سليم : الإسلام ، فدخل بها فولدت له)) ج ٦ ص ١١٤، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن النسائي (١٤٠٩هـ) ج ٢ص ٧٠٣.

لقد استمالت رضي الله عنها قلب الرجل بقسمها أن مثله لا يرد ، ثم كنّته ثانيا ، ثم دعته ثالثا لدينها ، فشرح الله صدره للإسلام على يديها .

ولقد كان بمقدورها رضي الله عنها أن تقول : لا والله لا أتزوجك ، أو تعرض عنه على أقل تقدير ، ولكنها المرأة التي تحمل هم أمة ، وتعيش واقع رسالة ، فكان لا بد من استغلال هذا الحدث لصالح الإسلام ٠

إن هذا كله يدل دلالة قاطعة على أن صلاح الزوجة ، وحسن استقامتها ، وفهمها لدينها فهما صحيحا ـ بعد توفيق الله ـ كفيل بأن يجعلها تقدم مثل هذه الأعمال التي ربما عجز عنها كثير من الرجال ٠

لقد كانت ثمرة الصلاح والاستقامة التي كانت عليها أم سليم رضي الله عنها وزوجها الصحابي الجليل أبو طلحة ، أن أبدلها الله عز وجل بذاك المولود الذي مات ، مولودا آخر سمته عبدالله ، عاش حياة حميدة ، توَّجها بسبعة أبناء كلهم استدرجوا كتاب الله في صدورهم ٠

ومن هنا كان على الأزواج ، وأولياء أمور النساء أن يعوا هذه الحقيقة ، ألا وهي حسن الاختيار للزوج والزوجة ، كجانب وقائي عظيم من جوانب البناء الأسري الجيد ، لتُخرِجَ الأسرة للمجتمع أجيالا يكونون رحمة على أنفسهم وأسرهم ومجتمعاتهم وأمتهم ٠

ثانيا : عرض الإنسان موليته على أهل الخير :

هذه صورة من صور الوقاية في بناء الأسرة ، وهي أن يبادر الولي حين يريد تزويج ابنته ، فيبحث لها عن الرجل الصالح ، الذي يبني بمعاونتها بيتا مسلما ، يقيم شعائر الله ، ولا يتعدى حدوده ، الأمر الذي يجعل التوفيق والسعادة والخير والهداية ترفرف على جنبات هذا البيت ٠

والأصل في ذلك ما رواه البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، حين تأيمت

حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمي ، وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتوفي بالمدينة ، فقال عمر بن الخطاب : أتيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة ، فقال : سأنظر في أمري ، فلبثت ليالي ثم لقيني ، فقال : قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا ، قال عمر : فلقيت أبا بكر الصديق ، فقلت : إن شئت زوجتك حفصة بنت عمر ، فصمت أبو بكر فلم يرجع إليَّ شيئا ، وكنت أَوْجَدُ عليه مني على عثمان ، فلبثت ليالي فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنكحتها إياه ، فلقيني أبو بكر فقال : لعلك وَجَدْتَ علي حين عَرَضْتَ علي حفصة فلم أرجع أليك شيئا ؟ قال عمر : قلت نعم ، قال أبوبكر : فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت علي إلا أني كنت علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرها فلم أكن لأفشي سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو تركها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلتها)) ج ٧ ص ١٨ .

لقد اعتاد الناس حين يريدون تزويج أبنائهم الذكور ، أن يبحثوا لهم عن الأصلح من البنات ، ولا يلامون في ذلك ، ولكن هذا الحرص ربما اختفى عند الكثير من الناس حين يريدون تزويج بناتهم ومن تحت أيديهم من النساء ، مع أن البنت أكثر حاجة إلى أن تجد الرجل الصالح الذي يعاشرها بالمعروف .

ولهذا ربما بقي الرجل قابعا في بيته ، وتحت يده من النساء ممن هن في سن الزواج ، فلا يكون البدار منه إلى عرضهن على أهل الخير ، وقد تقف دون ذلك تلك العادات والتقاليد التي درج عليها المجتمع ، أو نشأت عليها القبيلة أو الأسرة ، والتي ربما يُظن أن في ذلك عارا ومنقصة ، أو حطا من قدر الأسرة أو الفتاة ، والحق أن ذلك ليس منقصة ولا عارا ، إذ لو كان الأمر كذلك لما فعلها الفاروق الذي يعتبر من أشد أمة محمد صلى الله عليه وسلم غيرة .

على أن الإنسان حين يريد عرضِ ابنته للزواج ، فإنه مطالب بالتحري فيمن يعرضها عليه ، إذ ليس كل أحد يصلح أن تعرض عليه المرأة ، ولهذا بوَّب البخاري

في صحيحه (د ـ ت) تحت كتاب النكاح بقوله :((باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير)) ج ٧ ص ١٧ .

يقول ابن حجر في الفتح باختصار العدوي (١٤١٤هـ) :((وفيه عرض الإنسان ابنته وغيرها من مولياته على من يعتقد خيره وصلاحه ، لما فيه من النفع العائد على المعروضة عليه ، وأنه لا استحياء من ذلك ، وفيه أنه لا بأس بعرضها عليه ولو كان متزوجا ، لأن أبا بكر كان حينئذ متزوجا)) ج ٤ ص ٦٨ .

على أن عرض الإنسان موليته على أهل الخير ، إما أن يكون صراحة كما فعل عمر رضي الله عنه مع أبي بكر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين ، وإما أن يكون بطريقة غير مباشرة ، حين لا يستطيع الإنسان ذلك خشية أن يُظن بابنته سوءا أو عيبا ، وذلك عن طريق إرسال من يثق به من أهل الخير إلى من يريد تزويجه .

بل وحتى المرأة فإن الإسلام قد أباح لها أن تعرض نفسها على الرجل الصالح، وقد بوب البخاري في صحيحه (د ـ ت) بقوله : باب عرض المرأة نفسها على أهل الخير ، ثم ساق السند إلى ثابت البناني رحمه الله قال :((كنت عند أنس وعنده ابنة له ، قال أنس : جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرض عليه نفسها ، قال يا رسول الله : ألك بي حاجة ؟ فقالت بنت أنس : ما أقل حياءها ، واسوأتاه واسوأتاه ! قال : هي خير منك رغبت في النبي صلى الله عليه وسلم فعرضت عليه نفسها)) ج ٧ ص ١٧ .

وفي هذا الأمر من الوقاية ما فيه ، فإن الرجل الخيِّر أقرب من غيره إلى بناء أسرة سوية ، تقوم بمهمتها التي تكونت من أجلها ، والتي سبق الحديث عنها في أهداف تكوين الأسرة المسلمة .

ثالثا : النظر إلى المخطوبة :

من حرص الإسلام على سلامة البناء الأسري ووقايته ، سن النظر إلى المخطوبة ، والأصل في ذلك حديث سهل بن سعد رضي الله عنه ، فقد روى البخاري في صحيحه (د ـ ت) عن سهل بن سعد أن امرأة جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله جئت لأهب لك نفسي فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصعد النظر إليها وصوبه ، ثم طأطأ رأسه ، فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئا جلست ... الحديث)) ج ٧ ص ١٩ .

وحديث المغيرة رضي الله عنه ، فقد روى ابن ماجة في سننه (د ـ ت) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ((أنه خطب امرأة فقال النبي صلى الله عليه وسلم :﴿ اذهب فانظر إليها فإنه أجدر أن يؤدم بينكما ﴾ فأتيت امرأة من الأنصار، فخطبتها إلى أبويها ، فكأنهما كرها ذلك ، قال : فسمعت ذلك المرأة وهي في خدرها ، فقالت : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك أن تنظر فانظر ، وإلا فأنشدك ، كأنها أعظمت ذلك ، قال فنظرت إليها فتزوجتها ، فذكر من موافقتها)) ج ١ ص ٦٠٠ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٤٠٨هـ) ج ١ ص ٣١٤ .

وقد نقل الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٤٠٨هـ) كلام الترمذي في تعيقه على هذا الحديث فقال :((قال أبو عيسى : هذا حديث حسن . وقد ذهب بعض أهل العلم إلى هذا الحديث وقالوا : لا بأس أن ينظر إليها ما لم ير منها محرما ، وهو قول أحمد وإسحاق ، ومعنى قوله ﴿ أحرى أن يؤدم بينكما﴾ قال : أحرى أن تدوم المودة بينكما)) ج ١ ص ٣١٥ .

ولعل قصد أبي عيسى رحمه الله تعالى من قوله ((ما لم ير منها محرما)) أي ما يزيد عن حدود النظرة الشرعية ، مما حرمه الله تعالى ، ويدخل في ذلك ما

يفعله بعض الناس اليوم من التهاون في مسألة النظر ، حتى أن البعض يسمح للرجل أن يجالس موليته ، ويأذن لها أن تسافر معه من بلد إلى بلد وهي بعد لم تكن في عصمته ، أو لربما خلا بها المرة تلو المرة ، أو خرج بها ذات اليمين وذات الشمال ، ليختبر أخلاقها كما يزعمون ، وهذه التصرفات ولا شك من الأمور التي تحطم أسوار الوقاية ، وتفتح الباب على مصراعيه للفساد المستطير ، بل إن هذه التصرفات المحرمة تناقض الهدف الأساسي الذي شرع النظر من أجله .

ومن الأدلة على مشروعية النظر إلى المخطوبة ، ما رواه ابن ماجة في سننه (د ـ ت) عن محمد بن سلمة قال : خطبتُ امرأة ، فجعلتُ أتخبأ لها ، حتى نظرتُ إليها في نخل لها ، فقيل له : أتفعل هذا وأنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :﴿ إذا ألقى الله في قلب امرىء خطبة امرأة فلا بأس أن ينظر إليها﴾ ج ١ ص ٥٩٩ .

قال السندي في شرح سنن ابن ماجة (د ـ ت) :((فالنظر إلى الأجنبية لقصد النكاح جائز)) ج ١ ص ٥٧٤ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٤٠٨هـ) ج ١ ص ٣١٣ .

إن الإسلام لو بنى الزواج على غير النظر إلى المخطوبة ، ثم رأى الخاطب بعد العقد زوجته فلم تعجبه ، لربما نفر منها ، ولربما كان ذلك سببا في طلاقها ، ولحصل من وراء ذلك مفاسد كثيرة ، فشرع الإسلام النظر ليتم الأمر على وضوح وبينة ، وفي هذا وقاية من المشاكل التي ربما تنشأ في أعقاب ذلك .

رابعا : المعاشرة بالمعروف :

لم يقف الإسلام في تربيته الوقائية عند مجرد حسن الاختيار ، أو عرض الإنسان موليته على أهل الخير ، أو النظر إلى المخطوبة فحسب ، بل تابع الأسرة في

كل جزئية من جزئيات حياتها ، حتى في داخل أروقتها ، فجعل لها المولى سبحانه آية تأمر الأزواج بحسن العشرة ، ليدخل تحت عموم هذه الآية كل تصرف من الزوج فيه إدخال السرور على زوجته ، وفق الضوابط الشرعية .

قال الله تعالى :﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ سورة النساء آية ١٩ .

إن الأمر في الآية الكريمة للوجوب ، وهو موجه إلى الأزواج فهم المأمورون أن يعاشروا زوجاتهم بالمعروف .

قال القرطبي في تفسيره (١٣٨٧هـ) :((أي على ما أمر الله به من حسن المعاشرة ، والخطاب للجميع ، إذ لكل أحد عِشْرَةٌ زوجا كان أو وليا ، ولكن المراد بهذا الأمر في الأغلب الأزواج ... وذلك توفية حقها من المهر والنفقة ، وألا يعبس في وجهها بغير ذنب ، وأن يكون منطلقا في القول ، لا فظًّا ولا غليظا ، ولامظهرا ميلا إلى غيرها)) ج ٥ ص ٩٧ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١٤١٤هـ) :((أي طيبوا أقوالكم لهن ، وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم ، كما تحب ذلك منها فافعل أنت بها مثله ... ثم قال : وكان من أخلاقه صلى الله عليه وسلم أنه جميل العشرة ، دائم البشر ، يداعب أهله ، ويتلطف بهم ، ويوسعهم نفقته ، ويضاحك نساءه)) ج ٢ ص ٢٨٦ .

إن هذه الآية الكريمة التي تأمر بمعاشرة النساء بالمعروف ، قد جمعت كل بر وخير ، وحذرت من كل شر وضير ، فالزوج مطالب بحسن عشرته لزوجته ، بالتزام الأدب في الأقوال والأفعال والتصرفات التي تدخل السرور على النفس ، واجتناب كل ما يجرح الفؤاد ، ويثير الحفيظة ، وقاية للأسرة من كل ما من شأنه أن يزعزع كيانها ، ويقوض دعائمها .

على أن الأمر لا يقف عند مجرد حسن القول والفعل ، بل حتى في الهيئة والشكل ، فإن الزوج مطالب بأن يتجمل لزوجته ، في جسده ، وملبسه ، ورائحته، فلا ترى منه إلا ما يسر النظر، ويبهج الفؤاد .

وحول هذا المعنى يقول رب العالمين سبحانه :﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ﴾ سورة البقرة آية ٢٢٨ .

فإذا كانت الزوجة مطالبة بالتجمل لتظهر حسنة الهيئة أمام زوجها ، فإنها تريد من زوجها مثل الذي يريد منها ، ولهذا ذكر الرازي في تفسيره (١٤١٠هـ) أن ابن عباس رضي الله عنه كان يقول :((إني لأتزين لامرأتي كما تتزين لي)) ج ٦ ص ١٠١ .

وذكر ابن كثير في تفسيره (١٤١٤هـ) أنه رضي الله عنه كان يقول : ((إني لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي لأن الله يقول :﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ﴾ ج ١ ص ٥٠٠ والآية في سورة البقرة برقم ٢٢٨ .

لقد وضع الشرع المطهر تحت المعاشرة بالمعروف بعض التدابير الوقائية التي من شأنها أن تحفظ على الأسرة تماسكها ، وهي صور أمر بها الشرع الكريم وحث عليها ومن ذلك :

أ. معرفة خصائص المرأة :

خلق الله الخلق وأودع فيهم من الخصائص ، والأحوال ، والأسرار ما يتميز به بعضهم عن بعض ، والمرأة وإن كانت قسيمة الرجل في التكاليف والمسئولية ، إلا أن لها من الخصائص ما يميزها عن الرجال .

إن الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، والإنسان في أمس الحاجة إلى فهم ما تختص به المرأة من الأحوال ، ليتعامل معها على بينة ، فيضع الأمور في مواضعها

، ويزن الأشياء بموازينها الصحيحة الدقيقة ، حفاظا على جو الأسرة ، وتجنبا لما قد يجره الجهل بحال المرأة من الخلافات والنزاعات التي تورث نكد العيش ومرارة الحياة .

ومن خلال استعراض الباحث لبعض ما ورد في السنة من الأحاديث المتعلقة بالمرأة ، حاول أن يستخلص منها ما يمكن أن يسمى بخصائص المرأة ، ومنها :

١ـ العوجُ الجِبِلّيُّ في المرأة :

إن المرأة مهما بلغ صلاحها فلا بد أن يكون فيها شيء من العوج ، يدل على ذلك ما رواه البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ استوصوا بالنساء خيرا فإنهن خلقن من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيرا ﴾ ج ٧ ص ٣٤ .

لقد شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم المرأة بالضلع ، وبين عليه السلام أن أعوج ما في الضلع أعلاه ، وكذلك المرأة أعوج ما فيها أعلاها وهو رأسها الذي فيه العقل واللسان .

قال ابن حجرفي الفتح (د ـ ت) :((فيه إشارة إلى أنها خلقت من أعوج أجزاء الضلع ، مبالغة في إثبات هذه الصفة لهن ، ويحتمل أن يكون ضرب ذلك مثلا لأعلى المرأة ، لأن أعلاها رأسها ، وفيه لسانها الذي يحصل منه الأذى)) ج ٩ ص ٢٥٣ .

والحديث يشير إلى أن الزوج أو الولي إن أتى يقيم الضلع ويعدله كسره ، وإن تركه وأهمله ضل أعوجا ، فما الحل إذن ؟ .

إن في ذلك إشارة لطيفة إلى ضرورة التقويم والتعديل باتخاذ الوسطية في التربية ، الوسطية الشرعية التي لا يُشد فيها لدرجة الكسر ، ولا تترك لدرجة العوج

والانحراف ، وهذا يكون باستخدام الرفق واللين واستمالة القلب ، وهي ثمرة من ثمار المعاشرة الحسنة .

يقول ابن حجر في الفتح باختصار العدوي (١٤١٤هـ) :

((كأن فيه رمزا إلى التقويم برفق بحيث لا يبالغ فيه فيكسر ، ولا يتركه فيستمر على عوجه ... ويؤخذ منه أن لا يتركها على الاعوجاج إذا تعدت ماطبعت عليه من النقص إلى تعاطي المعصية بمباشرتها أو ترك الواجب ، ، وإنما المراد أن يتركها على اعوجاجها في الأمور المباحة ، وفي الحديث الندب إلى المداراة لاستمالة النفوس وتأليف القلوب ، وفيه سياسة النساء بأخذ العفو منهن ، والصبر على عوجهن ، وأن من رام تقويمهن فاته الانتفاع بهن ، مع أنه لا غنى للإنسان عن امرأة يسكن إليها ويستعين بها على معاشه ، فكأنه قال : الاستمتاع بها لا يكون إلا بالصبر عليها)) ج ٤ ص ٩٨ .

على أن الحديث السابق ليس فيه تنقص للمرأة بأنها خلقت من ضلع أعوج ، وإنما هو مراعاة لحالها ، ووصية من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتعامل معها ، وفق هذا المنظور الذي بينه رب العالمين على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم .

وما من شك أن الإنسان حين يجهل هذه القضية ، ألا وهي قضية خَلْقِ المرأة من ضلع ، مطالبا إياها أن تكون مثالا في الكمال ، فإنما يطلب منها شيئا مستحيلا، قد جبلها الله على خلافه ، مما يضفي على الحياة العائلية جوا تعكره الخلافات التي تنشأ في أعقاب هذا المفهوم الخاطيء .

والإسلام يعطي للزوج هذا التصور الصحيح عن المرأة ، ليتعامل معها على وضوح من هذا الأمر الفطري الذي جبلت عليه ، وقاية للأسرة من التصدع والانهيار ، وقطعا للمشاكل التي يحدثها طلب الكمال في المرأة .

٢ـ الغيرة الجِبِلِّيّة في المرأة :

هذه أحدى الخصائص التي أودعها الله سبحانه في قلب المرأة ، وإن كانت في قلوب الرجال كذلك ، إلا أنها في قلب المرأة أكثر هيجانا وثورانا ، بفعل العواطف الجياشة التي تختلج في صدرها .

أما الغيرة المنضبطة في قلوب الرجال فهي خلق إسلامي رفيع ، يدل على الشرف وكمال الرجولة ، لكونه تصان به الحرمات ، وتحفظ به الأعراض ، وقد كان هذا الخلق سمة من سمات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما روى البخاري في صحيحه (د ـ ت)من حديث سعد بن عبادة رضي الله عنه أنه قال : لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :﴿ أتعجبون من غيرة سعد ، لأنا أغير منه ، والله أغير مني ﴾ ج ٧ ص ٤٥ .

وفيه أيضا من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر :﴿ إن بني هشام بن المغيرة استأذنوا في أن ينكحوا ابنتهم على بن أبي طالب ، فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن ، إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي ، وينكح ابنتهم ، فإنما هي بضعة مني يريبني ما أرابها ، ويؤذيني ما آذاها ﴾ ج ٧ ص ٤٧ .

ولقد كانت غيرته صلى الله عليه وسلم على ابنته فاطمة البتول رضي الله عنها ، لأن عليا رضي الله عنه خطب بنت أبي جهل ، ولا يمكن أن تجتمع بنت خير خلق الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وبنت عدو الله أبي جهل تحت زوج واحد .

روى ابن ماجة في سننه (د ـ ت) أن المسور بن مخرمة أخبره أن علي بن أبي طالب خطب بنت أبي جهل ، وعنده فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما سمعت بذلك فاطمة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : إن قومك

يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك ، وهذا علي ناكحا ابنة أبي جهل ، قال المسور : فسمعته حين تشهد ثم قال :﴿ أما بعد فإني قد أنكحت أبا العاص بن الربيع ، فحدثني فصدقني ، وإن فاطمة بنت محمد بضعة مني ، وأنا أكره أن تفتنوها ، وإنها والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبدا ﴾ ج ١ ص ٦٤٤ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٤٠٨هـ) ج ١ ص ٣٣٨ .

إن الغيرة على الأهل من سمات الرجال ، وهي صفة محمودة عند الله تعالى ، وخاصة حين تكون الريبة ، أما حين لا يكون لها مبرر فإنها صفة مذمومة ينهى عنها الشرع ، ويحذر منها لما لها من الآثار السيئة في دمار البيوت وتفريق الأسر .

روى ابن ماجة في سننه (د – ت) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ من الغيرة ما يحب الله ، ومنها مايكره الله ، فأما ما يحب الله فالغيرة في الريبة ، وأما ما يكره فالغيرة في غير ريبة ﴾ ج ١ ص ٦٤٤، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٤٠٨هـ) ج١ص ٣٣٧ .

إن الغيرة التي يقصد الباحث الحديث عنها ، هي الغيرة التي خلقها الله تعالى في قلب المرأة ، لحكمة يعلمها سبحانه ، الغيرة التي جُبلت عليها المرأة ، الغيرة التي يحتاج الأزواج إلى معرفتها ، وحسن التعامل مع المرأة التي ركبت فيها هذه الخصلة ، ليتجنبوا ما يثيرها مما لا خير فيه ولا فائدة منه ، من الأقوال والأفعال والتصرفات ، وقاية للبيوت المسلمة من الفرقة والشتات .

لقد كان نساء النبي صلى الله عليه وسلم وهن صفوة النساء ، وأمهات المؤمنين ، يغرن على رسول الله صلى الله عليه وسلم غيرة شديدة ، تصل في بعض الأحيان إلى أنهن يهجرنه صلى الله عليه وسلم اليوم والليلة ، كما روى ذلك

البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين راجعته زوجته ، فأنكر عليها ، فقالت : ((ولم تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ليراجعنه ، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل)) ج٩ص٢٧٨ .

ومع ذلك كان يدرك صلى الله عليه وسلم هذه الخصلة في قلوب النساء ، فيراعي ما يحدث من المرأة من الخلل والتقصير الذي يحدث ساعة الغضب ، وبفعل الغيرة .

فقد روى الإمام مسلم في صحيحه (شرح النووي د - ت) عن عروة أن عائشة زوج النبيصلى الله عليه وسلم حدثته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من عندها ليلا ، قالت : فغرت عليه ، فجاء ، فرأى ما أصنع فقال :﴿ ما لك يا عائشة ؟ أغرت ؟ فقلت : ومالي لا يغار مثلي على مثلك ؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقد جاءك شيطانك ؟ قالت : يا رسول الله : أومعي شيطان قال : نعم ، قلت : ومع كل إنسان ؟ قال : نعم ، قلت : ومعك يا رسول الله ؟ قال : نعم ، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم ﴾ ج ٧١ ص ٤٦١ ، وقد ذكر النسائي في سننه (١٤٠٧هـ) رواية أخرى في سبب غيرة أمنا عائشة رضي الله عنها مفادها أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : التمست رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأدخلت يدي في شعره ، فقال :﴿ قد جاءك شيطانك﴾ فقلت : أما لك شيطان ؟ فقال :﴿ بلى ولكن الله أعانني عليه فأسلم ﴾ والرواية صححها الألباني في صحيح سنن النسائي (١٤٠٩هـ) ج ٣ ص ٨٣١ .

لقد أدخلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها يدها في شعره صلى الله عليه وسلم لترى هل ابتل شعره من الماء في أثر غسل عند إحدى زوجاته فتثور ثائرتها ، أم أن ذلك لم يحدث فتهون على نفسها فُجاءة الحدث .

سبحان الله ! ولم كل هذا ؟ إن الموقف كان لا يتعدى نتيجتين اثنتين ، إما يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بات عند إحدى زوجاته ، وأتى ما أحل الله له ، وليس في ذلك من ضير ، فإن المرأة كما تحب أن تعطى حقها من المبيت ، فإن ضرتها تحب ذلك أيضا ، وإما ألا يكون صلى الله عليه وسلم أتى ما أحل الله له ، فلم التحقيق في الأمر ، والتأكد بإدخال اليد في الشعر للتأكد من ذلك ؟

إنها الغيرة التي تخرج المرأة في بعض أحيانها عن رشدها ، فتجعلها تستنكر حتى في بعض الأحيان ما أحل الله تعالى .

لكن ما دور الأزواج حين تهيج عواصف الغيرة في صدور النساء ؟ هل هو مقابلة الغضب بالغضب ، والشدة بالشدة؟.

والجواب يحدده رسول الله صلى الله عليه وسلم في موقفه من أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، فقد كان موقفه صلى الله عليه وسلم من هذا الحدث موقفا عجيبا ، حيث داعبها صلى الله عليه وسلم مراعيا غيرتها ، قائلا : قد جاءك شيطانك ؟ فردت قائلة : أما لك شيطان ؟ فكان رده صلى الله عليه وسلم ردا لطيفا مؤدبا معلنا أن له شيطان ولكنه أسلم .

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت :﴿ ألا أحدثكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعني ؟ قلنا بلى ! قالت : لما كانت ليلتي التي كان النبي صلى الله عليه وسلم عندي ، انقلب فوضع رداءه ، وخلع نعليه ، فوضعهما عند رجليه ، وبسط طرف إزاره على فراشه ، فلم يلبث إلا ريثما ظن أني قد رقدت ، ثم انتعل رويدا ، وأخذ رداءه رويدا ، ثم فتح الباب رويدا ، وخرج وأجافه رويدا ، وجعلت درعي في رأسي ، فاختمرت وتقنعت إزاري ، وانطلقت في أثره ، حتى جاء البقيع فرفع يديه ثلاث مرات ، وأطال القيام ثم انحرف ، فأسرع فأسرعت ، فهرول فهرولت ،

فأحضر فأحضرت ، وسبقته فدخلت ، وليس إلا أن اضطجعت ، فدخل فقال : ما لك يا عائش حشيا رابية ؟ قالت : قلت لا شيء ، قال : لتخبرني ، أو ليخبرني اللطيف الخبير ، قلت : يا رسول الله : بأبي أنت وأمي فأخبرته الخبر ، قال : فأنت السواد الذي رأيت أمامي ؟ قلت : نعم ! قالت : فلهدني لهدة في صدري أوجعتني ، قال : أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله ؟ قالت : مهما يكتم الناس يعلمه الله نعم ، قال : فإن جبريل أتاني حين رأيت فناداني فأخفى منك ، فأجبته وأخفيته منك ، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك ، وظننت أنك قد رقدت ، فكرهت أن أوقظك ، وخشيت أن تستوحشي ، فقال إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم ﴾ ج٧ص ٤٨ .

وللباحث مع هذا الحديث وقفات تربوية :

الأولى : دعوة الإسلام إلى حسن الأدب ، وروعة المعاشرة للأهل ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ينسل من الفراش ، دون أن يؤذي أهله ، ليجيب داعي الله تعالى .

الثانية : دعوة الإسلام إلى الشجاعة ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يهرول مسرعا يلاحق السواد الذي أمامه ، وهو لا يدري أن السواد هي زوجه الحصان ، أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها .

الثالثة : العلم القطعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب ، إذ لو كان كذلك لعلم بحال عائشة رضي الله عنها ، وهي تسير في أثره ، ولعلم بها وهي تجري أمامه ، عائدة إلى المنزل ، وفي هذا صيانة لعقيدة المؤمن ، حين يوحد الله توحيد الربوبية ، باعتقاده الجازم أن لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله .

الرابعة : دعوة الإسلام المرأة إلى التزام الحجاب حين الخروج من المنزل ، حتى ولو كان الخروج في الليل ، تحسبا لمواجهة الرجال ، وسدا لذريعة الفتنة ،

فهذه أُمُّنا عائشة رضي الله عنها تخرج في الظلام متحجبة ، لدرجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يميزها وهي تجري أمامه .

الخامسة : مراعاة حال المرأة الغيور وملاطفتها ، لتنطفيء هذه الجذوة التي تتقد في صدرها ما بين الحين والآخر ، ومن ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين أدرك زوجه الطاهرة في البيت ، دللها في ندائه بقوله : ما لك ياعائش حشيا رابية ؟ .

قال النووي في شرح صحيح مسلم (د ـ ت) :((وحشيا : بفتح الحاء المهملة وإسكان الشين المعجمة مقصور معناه ، وقد وقع عليك الحشا ، وهو الربو والتهيج الذي يعرض للمسرع في مشيه ، والمحتد في كلامه ، من ارتفاع النفس وتواتره ، يقال : امرأة حشياء وحشية ورجل حشيان وحشش : قيل أصله من أصاب الربو حشاه . وقوله رابية : أي مرتفعة البطن)) ج ٧ ص٤٨ .

السادسة : زرع العقيدة في قلب المرأة وتذكيرها ما بين الفينة والأخرى برقابة الله واطلاعه ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لتخبرني أو ليخبرني اللطيف الخبير .

السابعة : التأديب بالزجر والردع ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يلهدها في صدرها ، حتى أوجعتها لهدته صلى الله عليه وسلم .

الثامنة : الاعتذار للأهل حين يصدر الخطأ ، أو حين يُظن أنه خطأ ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يخطيء ، بل أحسن كل الإحسان ، حين انسل من الفراش رويدا ، خشية من إيذاء زوجه الكريمة في نومها ، ومع ذلك يعتذر صلى الله عليه وسلم بقوله : فكرهت أن أوقظك ، وخشيت أن تستوحشي .

إن على الولي ، وخاصة الزوج أن يراعي ال الغيرة في زوجته ، وأن يعلم أن هذه جبلة خلق الله المرأة عليها ، وعليه أن يحسن التعامل معها حين تثور في نفسها

براكين الغيرة ، فيمتص الغضب بالاعتذار والملاطفة ، مع التوجيه والتربية ، وفي هذا ـ بإذن الله ـ وقاية لما قد تحدثه الغيرة من العواقب الوخيمة على البيوت ، من الفرقة والخلاف الذي ربما كانت نهايته الطلاق .

٣ ـ نقصان العقل والدين :

هذه الخصيصة الثالثة التي اختص الله بها المرأة ، ألا وهي نقصان العقل والدين ، وقد يستاءل الإنسان عن معنى نقصان العقل ، ونقصان الدين .

والجواب عن هذا التساؤل ، جاء على لسان الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ، فيما روى ذلك مسلم في صحيحه (د ـ ت) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال صلى الله عليه وسلم :﴿ يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار ، فإني رأيتكن أكثر أهل النار ، فقالت امرأة منهن جزلة : وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار ؟ قال تكثرن اللعن وتكفرن العشير ، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن ، قالت يا رسول الله : وما نقصان العقل والدين ؟ قال : أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل ، فهذا نقصان العقل ، وتمكث الليالي ما تصلي وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين ﴾ ج ١ ص ٦١ .

قال النووي في شرح مسلم (د ـ ت) :((قال الإمام أبو عبد الله المازري رحمه الله : قوله صلى الله عليه وسلم : أما نقصان العقل ، فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل تنبيه منه صلى الله عليه وسلم على ما وراءه ، وهو ما نبه الله عليه بقوله :﴿ أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ﴾ أي أنهن قليلات الضبط ، وأما وصفه صلى الله عليه وسلم النساء بنقصان الدين لتركهن الصلاة والصوم في زمن الحيض ... وإذا ثبت هذا علمنا أن من كثرت عبادته زاد إيمانه ودينه ، ومن نقصت عبادته نقص دينه)) ج ٢ ص ٤٢٧ .

إن خفة الضبط عند المراة يدل على نقصان عقلها ، ولهذا أمر رب العالمين أن يكون في مقابل شهادة الرجل ، شهادة امرأتين ، لأن الشهادة تحتاج إلى دقة في النقل ، وشهادة المرأة الواحدة لا تكفي ، وقد علل الله الحكمة بقوله :﴿ أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ﴾ سورة البقرة آية ٢٨٢ .

ومن هنا كان على الرجل أن يراعي هذا الضعف في المرأة بهذا النقصان الجبلي في العقل .

كما أن نقصان الدين في المرأة بسبب تركها للصلاة والصيام ، ذلك أن المرأة إذا حاضت حرم عليها الصوم والصلاة .

سبحان الله ! إن المراة حين تترك الصلاة يوما وليله وهو أقل مدة الحيض كما يذكر ذلك الفقهاء ، أو خمسة عشر يوما وليله وهو أكثره ، أو ستة أيام وهو أغلبه ، إن المرأة حين تترك الصلاة خلال هذه المدة ، وتترك الصيام أيضا إن كانت صائمة، ينقص إيمانها ، وفي نقص هذا الإيمان آثار سلبية على حياتها ، تحتاج معه إلى الرعاية والعناية ، وتحمل الرجل على أن يعطف عليها ، ويصبر على تقصيرها ، ما دام ذلك لم يصل إلى درجة انتهاك الحرمات ، وإغضاب رب الأرض والسموات.

وهنا وقفة تربوية هامة خلاصتها : إذا كانت المرأة تتأثر في إيمانها حين تترك العبادة فترة من الزمن قصيرة ، تركاً يعذرها الله فيه ، فكيف بمن يترك العبادة ، من صلاة وصيام ، الأيام والليالي ، والأشهر والسنوات ، وبغير عذر ، لا شك أن الإيمان في قلبه قد غاب نجمه وأفل ، ولم يبق له إلا الشياطين تعبث بقلبه وروحه وعقله في أودية من الضلال ، لا يهنأ على أثر ذلك بحياة ، ولا ينعم بقربه من الله ، إلا أن يتداركه الله برحمتة ، قال تعالى :﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ﴾ سورة الزخرف آية ٣٦ ..

إن معرفة الرجل بهذا النقص في المرأة ، يحمله على مراعاتها ، ومراعاة ما قد يصدر منهـا من تقصير ، ويشحـذ من همته أيضـا إلى أن يحاول تعـويضها مـا قد يفوتها من الخير ، وفي هذا كله وقاية للأسرة من التصدع والانهيار .

ب ـ عدم غياب الرجل عن بيته كثيرا :

إن وجود الرجل في بيته بقـرب أهله ، من الأهمية بمكان ، ليكون قدوة لهم يرون في أقـواله وأفعـاله أخـلاق الإسلام حيناً ، ويسـمعـون منه التـوجيـه والتربيـة المبـاشـرة حينـا آخر ، زارعـا في قلوبهم مـخـافـة الله تعـالى ، التي هي أعظم سبل الوقاية، وفي هـذا القرب شعـور بالأمن والطمأنينة ، وفـيه وقاية لـهـم من الانحراف في أخلاقياتهم وتصرفاتهم .

ذكر ابن أبي الدنيا في كتابه العيال (١٤١٠هـ) :

((عن سلمان بن جبير مولى ابن عباس وقد أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما زلت أسمع حـديث عمر هذا ، فإنه خرج ذات ليلة يطوف بالمدينة ، وكـان يفعل ذلك كـثيـرا ، فمـر بامرأة مـغلق عليهـا بابها ، وهي تـقول : فاستمع لها عمر :

تطاول هذا الليل تسري كواكبه	وأرّقنـــي ألا حبيبا ألاعبــــــه
فوالله لولا الله لا شيء غـــيره	لحرك من هذا السريـر جوانـبـه
يلاعبني طورا وطورا كأنمــــا	بدا قمر في ظلمة الليل حاجبه
ولكنني أخشى رقيبا موكــــلا	بأنفاسنا لا يقفر الدهـر كاتبـــه

ثم تنفست الصعداء وقالت : أهان على ابن الخطاب وحشتي ببيتي ، وغيبة زوجي ، وقلة نفقـتي ؟ فقال لهـا : رحمك الله فلما أصبـح بعث لها نفقة وكـسوة وكتب إلى عامله يسرح لها زوجها)) ج ٢ ص ٦٨٤ ـ ٦٨٥ .

لقد ظهر في هذه القصة عاطفة هذه المرأة الجياشة تجاه راعي بيتها حين فقدته ، وظهر أيضا أثر التربية العقدية في حفظ نفسها عن الحرام ، خوفا من الله الذي يطلع على السرائر ويعلم الخفيات .

إن المسلم مطالب ألا يغيب عن بيته كثيرا ، وإن نابه أمر فليسعجل الرجوع إلى أهله ، ذلك أن بعض الأسر ما فسدت أخلاقها ، إلا حين غاب عنها الولي الناصح .

روى مسلم في صحيحه (د ـ ت) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ السفر قطعة من العذاب يمنع أحدكم نومه وطعامه وشرابه ، فإذا قضى أحدكم نهمته من وجهه فليعجل إلى أهله قال نعم ﴾ ج ٦ ص ٥٥ .

قال النووي في شرح صحيح مسلم (د ـ ت) : ((النهمة بفتح النون وإسكان الهاء : هي الحاجة ، والمقصود في هذا الحديث استحباب تعجيل الرجوع إلى الأهل بعد قضاء شغله ، ولا يتأخر بما ليس له بمهم)) ج ١٣ص ٧٥ .

إن الإنسان مطالب أن يلبي حقوق أهله، ومن حقوقهم أن يكون قريبا منهم، يطعم جائعهم ، ويكسو عاريهم ، ويداوي مريضهم ، ويؤدب مخطئهم ، والمعنى أن يعطي كل ذي حق حقه ، وعليه إن ألمت به حاجة للسفر أن يؤوب حين انتهائه امتثالا لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم .

ج ـ النهي عن طروق الأهل ليلا :

قد يغيب الرجل عن بيته لسفر أو غيره ، ثم يقدم على أهله ، وقد جعل الإسلام من التدبير الوقائية ، ألا يطرق الرجل على أهله بالليل ، وفي ذلك من الحكم العظيمة ما لا يخفى .

روى البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : ﴿ نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرق أهله ليلا ﴾ ج ٣ ص ٩

وفي رواية في الفتح باختصار العدوي (١٤١٤هـ) : ﴿ كان النبي صلى الله عليه وسلم يكره أن يأتي الرجل أهله طروقا ﴾ ج٤ص ١٣٠ .

وفي رواية أخرى ﴿ إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلا ﴾ ج ٤ ص ١٣٠ وفي صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ((أن رسول الله صلى الله علسه وسلم كان لا يطرق أهله ليلا وكان يأتيهم غدوة أو عشية)) ج٦ ص ٥٥

وقد ذكر ابن حجر في الفتح باختصار العدوي (١٤١٤هـ) شرحه للعلة في ذلك بما خلاصته : أن الطروق المنهي عنه هو القدوم على الأهل بعد غيبة على غرة ، لأن الزوج قد يرى من زوجته ما يكره ، فقد تكون الزوجة على غير استعداد لمقابلة زوجها من التنظيف والتزين ، مما قد يكون سببا في نفرته منها ، وإما أن يجدها على حالة غير مرضية ، فلا يحل له أن يتخونها ويتلمس عثراتها . ج ٤ ص ١٣٠ ـ ١٣١ .

إلا أذا أعلمها بقدومه من قبل فإن هذا لا يدخل فيما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن لم يعلمها فإنه يتريث حتى يعلم أهله بقدومه ، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سفر توجه إلى المسجد فصلى فيه ركعتين ، وما ذلك إلا ليعلم أهله صلى الله عليه وسلم بقدومه .

إن الإسلام يجعل النهي عن طروق الأهل بالليل بعد غيبة وعلى غرة ، وسيلة من الوسائل الوقائية التي تحفظ تماسك البيت ، وتمنع ما قد يكون سببا في نفرة أحد الزوجين من الآخر ، إما بعدم استعداد المرأة لمقابلة الزوج الغائب عن بيته فترة من الزمن ، وإما بتخونهم وتلمس عثراتهم .

على أن الإسلام لا يقر الخبث ، بل يجعل الجنة حرام على الديوث الذي يقر الخبث في أهله ، فقد روى النسائي في سننه (١٤٠٧هـ) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ ثلاثة لا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة العاق لوالديه ، والمرأة المترجلة ، والديوث ﴾ ج ٥ ص ٨٠ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن النسائي (١٤٠٩هـ) ج ٢ ص٥٤١ .

ولكن المقصد من ذلك ألا يتخون الرجل أهله ، ويتلمس أحوالهم على غفلة منهم ، ليرى هل خانوه في غيبته أم لا ، وقد نهى الشارع الحكيم عن ذلك أشد النهي ، وحرمه أشد التحريم ، لما له من العواقب الوخيمة في إفساد الرعية .

فقد روى أبو داود في سننه (١٤٠٩هـ) من حديث معاوية رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم ﴾ ج ٢ ص ٦٨٩، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٤٠٩هـ) ج ٣ ص ٩٢٤ .

أما إذا رأى الإنسان ما يسوؤه في عرضه فقد جعل الإسلام لذلك من الحلول ما تزخر به كتب الفقه ، كاللعان ونحوه .

ولكن الإسلام يحب الستر ويدعو إليه ، وينهى عن التجسس ، واستراق السمع ، وتتبع العورات ، حرصا منه على أن تظل القلوب صافية ، لا يكدرها سوء الظن بالناس ، ولا يعكر صفوها اتهام الآخرين والوقيعة في أعراضهم .

إن الإسلام يتعامل مع الناس بما يظهر من أحوالهم ، موكلا سرائرهم إلى الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره أن يقال في أحد شيئا ، حتى يخرج إلى أصحابه وهو سليم الصدر ، فقد روى الترمذي في سننه (د-ت) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

﴿ لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئا ، فإني أحب أن أخرج أيكم وأنا سليم الصدر ﴾ ج ٢ ص ٦٨١، والحديث ذكره الألباني في ضعيف سنن أبي داود (١٤١٢هـ) ص ٤٧٨ ، وله شواهد من طرق أخرى عند الترمذي وأحمد .

قال الشافعي في دليل الفالحين (د ـ ت) معلقا على هذا الحديث : ((والحديث فيه الحث على الستر وإقالة ذوي الهيئات عثراتهم ... فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر أي وذلك إنما يتحقق عند عدم سماع ما يؤثر في النفس حرارة أو أثرا ما بحسب الطبع البشري)) ج ٨ ص ٣١ .

ولقد استفاد الصحابة رضوان الله عليهم هذا الخلق من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان ديدنهم في التعامل مع الناس بما يظهر من أحوالهم ، اما سرائرهم فإنهم يوكلونها إلى الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وفي هذا المعنى روى أبو داود في سننه (١٤٠٩هـ) أن رجلا قال لابن مسعود : ((هذا فلان تقطر لحيته خمرا ! فقال عبد الله : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به)) ج ٢ ص ٦٨٩ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٤٠٩هـ) ج ٣ ص ٩٢٥ .

إن هذا كله من صور الوقاية التي يتخذها الإسلام لصيانة حقوق الأسر والأفراد والمجتمعات ، والمحافظة عليها ، لتظل معطاءة في الخير ترفرف على جنباتها المحبة والألفة والمودة .

د. المداعبة والممازحة :

هذه من الأمور التي تطرد الملل ، وتؤلف القلوب ، وتضفي على البيت شيئا من المرح ، وتدخل عليه شيئا من السرور ، ولقد كان هذا خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زوجاته ، وقد بوّب لها البخاري في صحيحه (د ـ ت)

بـ : باب حسن المعاشرة مع الأهل ، ثم ساق السند إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : ((جلس إحدى عشرة امرأة ، فتعاهدن وتعاقدن ألا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئا ، قالت الأولى : زوجي لحم جمل غث على رأس جبل ، لا سل فيرتقى ولا سمين فينتقل ، قالت الثانية : زوجي لا أبث خبره ، إني أخاف ألا أذره، إن أذكره أذكر عجره وبجره ، قالت الثالثة : زوجي العشنق ، إن انطق أطلق ، وإن أسكت أعلق ، قالت الرابعة : زوجي كليل تهامه ، لا حر ولا قر ، ولا مخافة ولا سآمة ، قالت الخامسة : زوجي إن دخل فهد ، وإن خرج أسد ، ولا يسأل عما عهد ، قالت السادسة : زوجي إن أكل لف ، وإن شرب اشتف ، وإن اضطجع التف ، ولا يولج الكف ، ليعلم البث ، قالت السابعة : زوجي غياياء أو عياياء ، طباقا ، كل داء له داء ، شجكِ أو فلكِ أو جمع كلا لكِ ، قالت الثامنة : زوجي المس مس أرنب ، والريح ريح زرنب ، قالت التاسعة : زوجي رفيع العماد ، طويل النجاد ، عظيم الرماد ، قريب البيت من الناد ، قالت العاشرة : زوجي مالك ، وما مالك ؟ مالك خير من ذلك ، له إبل كثيرات المبارك ، قليلات المسارح ، وإذا سمعن صوت المزهر ، أيقن أنهن هوالك ، قالت الحادية عشرة : زوجي أبو زرع ، فما أبو زرع ؟ آنس من حلي أذني ، وملأ من شحم عضدي ، وبجحني فبجحت إلى نفسي ، وجدني في أهل غُنَيْمَة بشق ، فجعلني في أهل صهيل وأطيط ، ودائس ومنق ، فعنده أقول فلا أقبح ، وأرقد فأتصبح ، وأشرب فأتقمح ، أم أبي زرع ، فما أم أبي زرع ؟ عكومها رداح ، وبيتها فساح ، إبن أبي زرع ، فما ابن أبي زرع ؟ مضجعه كمسل شطبه ، ويشبعه ذراع الجفرة ، بنت أبي زرع ، فما بنت أبي زرع ؟ طوع أبيها ، وطوع أمها ، ومليء كسائها ، وغيظ جارتها ، جارية أبي زرع ، فما جارية أبي زرع ؟ لا تبث حديثنا تبثيثا ، ولا تنقث ميرتنا تنقيثا ، ولا تملأ بيتنا تعشيشا ، قالت : خرج أبو زرع والأوطاب تمخض ، فلقي امرأة معها ولدان

لها ، كالفهدين يلعبان من تحت خصرها برمانتين ، فطلقني ونكحها ، فنكحت بعده رجلا سريا ، ركب شريا ، وأخذ خطيا ، وأراح علي نعما ثريا ، وأعطاني من كل رائحة زوجا ، وقال كلي أم زرع ، وميري أهلك ، قالت : فلو جمعت كل شيء أعطانيه ، ما بلغ أصغر آنية أبي زرع ، قالت عائشة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ كنت لك كأبي زرع لأم زرع ﴾ ج ٧ ص ٣٤ - ٣٦ .

وبما أن في الحديث ألفاظ غريبة فإن بيانها من الأهمية بمكان ، وقد ذكر ابن حجر في الفتح باختصار العدوي (١٤١٤هـ) شرح هذه الألفاظ فقال ما خلاصته : قوله :(قالت الأولى : زوجي لحم جمل غث) والغث الهزيل الذي يستغث من هزاله أي يستترك ويستكره •

(على رأس جبل) أي كثير الضجر ، شديد الغلظة ، يصعب الرقي إليه •

(لا سهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقل) أي لا الجبل سهل فلا يشق ارتقاؤه لأخذ اللحم ولو كان هزيلا ، ولا اللحم سمين فيتحمل المشقة صعود الجبل لأجل تحصيله ، وقيل في تشبيهها له بالجبل إشارة إلى سوء خلقه وكبره وبخله •

(قالت الثانية : زوجي لا أبث خبره ، إني أخاف ألا أذره) أي أخاف ألاأترك من خيره شيئا •

(عجره وبجره) أي عيوبه الظاهرة وأسراره الكامنة ، والمعنى أنه كثير المعايب ، متعقد النفس عن المكارم •

(قالت الثالثة : زوجي العشنق) أي الطويل المذموم الطول •

(إن أنطق أطلق وإن أسكت أعلق) أي إن ذكرت عيوبه فيبلغه طلقني ، وإن سكت عنها فأنا عنده معلقه ، لا ذات زوج ولا أيم•

(قالت الرابعة : زوجي كليل تهامه لا حر ولا قـر ، ولا مخافة ولا سآمة) أي لا شر فيـه ، وقد ضربوا المثل بليل تهامـة في الطيب ، والمعنى لا أخاف منه ولا أسأم من عشرته من طيبه وجميل عشرته .

(قالت الخـامسـة : زوجي إن دخل فهـد ، وإن خرج أسـد ، ولا يسأل عـما عهـد) هذه العبارة أما أن يراد بهـا المدح أو الذم ، فالمدح أنه إذا دخل عليهـا البيت كان مثـل الفهد في حيـائه ولينه وقلة شره ، وإذا خرج كان بين الناس كـالأسد في الشجاعة والإقدام

أما إن أرادت الذم ، فتشبيهه بالفهـد في وثوبه عليها ساعة الجماع كالوحش لا يداعب ولا يلاعب ، أو أنه يـضربهـا ، وإذا خـرج زاد شـره فكان كـالأسـد في الشدة .

(زوجي إن أكل لف) أي كـثيـر الأكل يلفـه لفـا ، (وإن شـرب اشـتف) الاشـتـفاف في الشـرب اسـتـقـصاؤه ، (وإن اضطـجع التف) أي تلفف بكسـائه وأعرض عن أهله ، (ولا يولج الكف) أي لا يمد يده ليعلم مـا هي عليه من الحزن فيزيله ، (ليعلم البث) أي الحزن .

(قالت السابعـة : زوجي غياياء أو عياياء ، طبـاقاء ، كل داء له داء ، شجك أو فلك أو جـمع كـلا لك) أي وصـفتـه بالحـمق والتناهي في سـوء العـشـرة فهـو يضربهـا ، وربما كسر بعض أعـضائها ، أو شـق جلدها أو أوجعهـا بالكلام أو اخذ مالها ، او جمع بين هذه كلها .

(قـالت الثـامنة : زوجي المس مس أرنب ، والريح ريـح زرنب) أي حـسن الخلق ، لين العريكة ، طيب الرائحة ، والزرنب نبت طيب الريح .

(قالت التاسعة : زوجي رفيع العمـاد) بيته مرتفع ليراه الأضياف وهي كناية عن الكرم ، (طويل النجاد) النجاد حمالة السيف ، وتقصد أنه طويل القامة ، وأنه

شجاع ، (عظيم الرماد) أي لا تنطفئي ناره وهو يقري أضيافه ، (قريب البيت من الناد) والناد مجلس قومه ، أي أن مجالسهم تعقد قريبا من بيته لاستشارتهم له وأخذ رأيه .

(قالت العاشرة : زوجي مالك ، وما مالك ؟ مالك خير من ذلك ، له إبل كثيرات المبارك ، قليلات المسارح ، أذا سمعن صوت المزهر أيقن انهن هوالك) أي كثير الثروة والكرم وتقديم القرى للأضياف ، حيث يستقبل أضيافه وهو يغني لهم ، لدرجة أن الإبل صارت إذا سمعت صوت الحداء والغناء ، ربطت بينه وبين النحر .

(قالت الحادية عشرة : أنس من حلي أذني) أي ملأ أذنيها من حلي الذهب واللؤلؤ ، (فبجحت) أي فرحها ففرحت ، أو عظها فعظمت وافتخرت ، (فجعلني في أهل صهيل) أي في أهل خيل ، (وأطيط) أي إبل ، فنقلها من شظف العيش إلى الثروة الواسعة ، (وأشرب فأتقنح) تشير إلى عزتها عنده ، وكثرة الخير لديها ، (عكومها رداح ، وبيتها فساح) تمدح أم زوجها بأنها كثيرة الآلات والأثاث والقماش واسعة المال ، كبيرة البيت ، (مضجعه كمسل شطبة ، وتشبعه ذراع الجفرة) تمدح ابن زوجها من غيرها بأنه خفيف الوطأة ليس ثقيلا عليها ، وأنه يشبع عندها بالأكل اليسير ، (وملء كسائها) تمدح بنت أبي بأنها كاملة الشخصية ، ناعمة الجسم ، (وغيظ جارتها) أي تغار منها جارتها لكثرة ما عندها من الخير ، (لا تبث حديثنا تبثيثا) تمدح جارية أبي زرع وأرادت المبالغة في براءتها من الخيانة ، (ولا تملأ بيتنا تعشيشا) أي تنظفه ، ولقي كناسته ، (وميري أهلك) أي أوسعي عليهم بالطعام واهدي لهم منه ، (كنت لك) أي في سابق علم الله . ج ٤ ص ٩٩ - ١٠٣ .

وفي مجمع الزوائد (١٤٠٩هـ) للهيثمي شرح لبعض ألفاظ الحديث ومنها ((العياياء : العنين ، والطباقاء : المطبق على الحمق ، والدائس والمنق : أي الغنم ، وأتقنح : أي تشرب حتى تروى وترفع رأسها ، وأتصبح : أي تنام الصبحة ، والمسل : القشرة ، والشطبة : السعفة الخضراء ، والجفرة : ما له أربعة أشهر من أولاد الماعز ، ركب سريا : أي الفرس التي تجد في السير ، والعكوم الأحمال التي فيها الأمتعة)) ج ٤ ص ٣١٧ وما بعدها .

وليس الباحث في هذا المقام بصدد شرح الحديث ، والوقوف على كل كلمة فيه ، ولكن الهدف من ذلك ، هو سوق هذه القصة التي تبين حسن معاشرة النبي صلى الله عليه وسلم لزوجاته ، فها هو صلى الله عليه وسلم يعطي زوجه عائشة رضي الله عنها من وقته جزأ ، يسمع منها خبر بعض النسوة اللاتي تعاقدن على ألا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئا .

سبحان الله ! رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي يحمل هم الأمة كلها، المكلف بإبلاغ هذا الدين لثقلين الإنس والجن ، النبي العظيم الذي يقول الله له :﴿ إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا ﴾ سورة المزمل آية ٥ .

النبي العظيم الذي كلف بأعظم مهمة في تاريخ البشرية الطويل ، المهمة التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال ، ومع ذلك يجد متسعا في وقته أن يحادث زوجاته ، ويمازحهن ويسمع منهن قصصا يتابعها بشغف ، ويعلق على أحداثها ، مبينا موقفه مما ذكر في القصة من أمور ، قائلا لعائشة في نهاية المطاف : أنا لك يا عائشة كأبي زرع لأم زرع !!!

إن في مثل هذه المسامرة والمداعبة وقاية من الملل ، الذي ربما يصيب النفس مع معافسة ضيعات الحياة ، وخاصة في جانب المرأة ، إذ تحتاج معه إلى وقت تروح

فيه عن نفسها مع زوجها وأولادها ، ليتغير روتين الحياة ، ويدب النشاط في النفوس من جديد ، فتستقبل عملا جديدا ، بهمة وحركة وحيوية ونشاط .

وقد ذكر ابن حجر في الفتح باختصار العدوي (١٤١٤هـ) جملة من الفوائد في هذا الحديث فقال :

وفي هذا الحديث من الفوائد غير ما تقدم : حسن عشرة المرء أهله بالتأنيس والمحادثة بالأمور المباحة ، ما لم يفض ذلك إلى ما يمنع ، وفيه المزح أحيانا ، وبسط النفس به ، ومداعبة الرجل أهله ، وإعلامه بمحبته لها ، ما لم يؤد ذلك إلى مفسدة تترتب على ذلك ، من تجنيها عليه وإعراضها عنه ، وفيه منع الفخر بالمال ، وبيان جواز ذكر الفضل بأمور الدين ، وإخبار الرجل أهله بصورة حاله معهم ، وتذكيرهم بذلك ، لا سيما عند وجود ما طبعن عليه من كفر الإحسان ، وفيه ذكر المرأة إحسان زوجها ، وفيه إكرام الرجل بعض نسائه بحضور ضرائرها بما يخصها به من قول أو فعل ، ومحله عند السلامة من الميل المفضي إلى الجور ، وقد تقدم في أبواب الهبة جواز تخصيص بعض الزوجات بالتحف واللطف إذا استوفى للأخرى حقها، وفيه جواز تحدث الرجل مع زوجته في غير نوبتها ، وفيه الحديث عن الأمم الخالية ، وضرب الأمثال بهم اعتبارا ، وجواز الانبساط بذكر طرف الأخبار ومستطابات النوادر تنشيطا للنفوس ، وفيه حض النساء على الوفاء لبعولتهن ، وقصر الطرف عليهم ، والشكر لجميلهم ، وفيه جواز وصف النساء ومحاسنهن للرجل ، لكن محله إذا كن مجهولات ، والذي يمنع من ذلك وصف المرأة المعينة بحضرة الرجل، أو أن يذكر من وصفها ما لا يجوز للرجال تعمد النظر إليه)) ج ٤ ص ١٠٣ .

على أن وصف النساء للرجال وإن كن مجهولات فإنه يمنع منه حين يحرك فتنة ، سدا للذريعة ، ومنعا من المفسدة .

ومن حسن معاشرته صلى الله عليه وسلم لأهله مزاحه مع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، فقد روى البخاري في صحيحه (د ـ ت) :من حديث أن المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إني لأعلم إذا كنت عني راضية ، وإذا كنت علي غضبى ، قالت : فقلت : من أين تعرف ذلك ؟ فقال : إذا كنت علي راضية فإنك تقولين : لا ورب محمد ، وإذا كنت غضبى قلت : لا ورب إبراهيم ، قالت : قلت : أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك ﴾ ج ٧ ص ٤٧ .

هـ ـ العفو والمسامحة :

هذه من أعظم الأمور التي يكسب بها المرء قلب عدوه اللدود ، فضلا عن كسب قلب زوجته ، وسائر أهله ، والأصل في ذلك قول الله تعالى :﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ سورة فصلت آية ٣٤ .

ولقد كان هذا خلقه صلى الله عليه وسلم مع زوجاته وسائر أهله ، ومن حسن معاشرته صلى الله عليه وسلم لأهله ، عفوه ومسامحته لهن ، ما لم تنتهك حدود الله ، فقد روى البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ((كان النبي صلى الله عليه وسلم عند بعض نسائه ، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام ، فضربت التي النبي صلى الله عليه وسلم في بيتها يد الخادم فسقطت الصحفة فانفلقت ، فجمع النبي صلى الله عليه وسلم فلق الصحفة ، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة ، ويقول : غارت أمكم ، ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند التي هو في بيتها ، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كُسِرت صحفتها ، وأمسك المكسورة في بيت التي كَسَرَت)) ج ٧ ص ٤٦ .

وقد روى النسائي في سننه (١٤٠٧هـ): ((أن التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتها هي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، وأن التي كُسِرت صحفتها هي أم سلمة رضي الله عنها)) ج ٧ ص ٧٠-٧١، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن النسائي (١٤٠٩هـ) ج ٣ ص ٨٣١ .

إن فهم طبيعة المرأة وما ركب في قلبها من الغيرة ، سبب من أسباب وقاية البيوت من المشاكل ، وصيانتها من النزاعات ، التي ربما تتحول في بعض الأحيان إلى شقاء كبير .

إن الغيرة فطرة فطر الله النساء عليها لا تستطيع المرأة مهما كان صلاحها أن تضبط مشاعرها تجاه هذه القضية ، والعلم بذلك سبب في تحمل ما قد يأت من المرأة من عوج وتقصير .

وفي هذه الحادثة التي بين أيدينا ، ما يدل على مسامحة النبي صلى الله عليه وسلم لمن كسرت صحفتها من نسائه ، وحسن تعامله مع الموقف ، فلم يقبح ، ولم يضرب ، ولم يهجر ، وفي نفس الوقت لم يضع حق التي كُسِرت صحفتها .

إن الصحفة حين كُسِرت أمامه ، وتناثر الطعام منها بين يديه ، في فترة ربما كان فيها الجوع يعصر بطنه ، لم يخرجه ذلك كله عن شعوره ، ولم يفقد على أثر ذلك أعصابه ، بل قام صلى الله عليه وسلم ، بحنان الزوج ، ورأفة المربي ، يجمع الطعام بيده الشريفة ، ويعلق على الحدث بقوله : غارت أمكم ، وفي هذه الكلمة من الدعابة ما فيها ، ثم أخذ صحفة صحيحة من بيت زوجه عائشة رضي الله عنها التي تعدت على الصحفة بالإتلاف ، ودفعها مع الخادم إلى بيت أم سلمة التي كُسِرت صحفتها ، ليضرب بذلك مثالا في العدل ، حتى في موطن المزاح والمداعبة والصبر والتحمل ، وهذه صورة من صور الخلق النبوي الكريم الذي يقول الله عنه :﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ سورة القلم آية ٤ .

خامسا : القرار في البيت :

من التدابير الوقائية التي شرعها الإسلام لحفظ الأسرة ، لفتته الحانية إلى المرأة، ودعوته لها إلى أن تقر في بيتها ، قرارا يقطع عنها دابر الفتنة ، ويحول بينها وبين الشرور والمصائب ، ويحفظ لها كرامتها وحياءها .

وليس معنى هذا أن الإسلام يدعو إلى كبت حرية المرأة ، ومصادرة كرامتها، وإلغاء إنسانيتها ، فيحبسها وراء أربعة جدران ، وإنما المراد أن تظل جوهرة مصونة ، يتجدد لها حياؤها ، وتحفظ لها كرامتها ، ما دامت بعيدة عن الرجال .

إن المتتبع لمنهج الإسلام ، يرى عظمته في التعامل مع المرأة ، فها هو رب العالمين يجعل لها في كتابه الكريم سورتين ، سورتي النساء ومريم ، بل ويضرب بالمرأة الصالحة مثالا في القدوة والصلاح والخير ، داعيا كل امرأة إلى أن تقتفي أثر هؤلاء الصالحات القانتات الحافظات للغيب بما حفظ الله ، قال الله تعالى : ﴿ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ﴾ سورة التحريم آية ١١ .

إن الإسلام يرى أن المرأة قسيمة الرجل في التكاليف الشرعية ، إلا ما تختص به المرأة بحكم طبيعة خلقها ، وسر تكوينها ، وهي قسيمة الرجل كذلك في الأجر والثواب الذي وعد الله عباده المؤمنين ، قال الله تعالى :﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ سورة الأحزاب آية ٣٥ .

كما أن الإسلام يأمر بالإحسان إليها أما وأختا وزوجة وبنتا وجدة وعمة وخالة ، ويكفي مثالا على ذلك ، أن الله قرن بر الأم بتوحيده ، حين أوصى عباده

المؤمنين في آيات كثيرة ، ومنها ما ورد في أول الوصايا العشر في سورة الأنعام ، فقال جل جلاله :﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ﴾ سورة الأنعام آية ١٥١ .

ولا شك أن أحد الأبوين هي الأم ، ولقد أوصى بها صلى الله عليه وسلم في الحديث ثلاثا ، فقد روى البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله من أحق بحسن صحابتي ؟ فقال :﴿ أمك ، قال ثم من ؟ قال : أمك، قال ثم من ؟ قال أمك ، قال : ثم من ؟ قال : ثم أبوك ﴾ ج ٨ ص ٢ .

زاد مسلم في صحيحه (د ـ ت) بعد قوله : ثم أبوك ، ﴿ ثم أدناك أدناك ﴾ ج ٨ ص ٢ .

إن ما ورد في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، من الدعوة إلى الإحسان إلى المرأة أيا كان موقعها في الأسرة كثير جدا ، وهذا دليل على حرص الإسلام على حفظ المرأة وصيانة كرامتها ، بعد أن كانت في الجاهلية الأولى ، تباع كما يباع سقط المتاع ، ويتعامل معها كما يُتعامل مع الدابة ، بل وصل الأمر في احتقارها وازدرائها إلى أن وئدت وهي حية ، قال تعالى :﴿ وإذا الموؤودة سئلت بأي ذنب قتلت ﴾ سورة التكوير آية ٨ ـ ٩ .

حتى جاء الإسلام ، فأنقذها مما كانت تعيشه من الظلم والجبروت الذي لايرحم ، فجعل منها إنسانا محترما ، له كرامته وقدره وسموه .

والإسلام ينظر إلى المرأة على أنها عماد أصيل في الأسرة المسلمة ، مراعيا في ذلك أن العمود حين يسقط تسقط على أثره أروقة الأسرة ، ويتحطم بنيانها .

وفي وقاية الأسرة من الضياع أمر القرآن الكريم المرأة المسلمة أن تقر في بيتها، قال الله تعالى :﴿وقرن في بيوتكن ﴾ سورة الأحزاب آية ٣٣ .

إن هذا الخطاب لنساء النبي صلى الله عليه وسلم ، يدل على ذلك صدر الآية الكريمة التي قبلها :﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا * وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ سورة الأحزاب آية ٣٢ - ٣٣ .

فقد عطف الأمر بالقرار في البيت على الأمر بالقول المعروف ، على أن الخطاب الموجه إلى نساء النبي صلى الله عليه وسلم موجه إلى نساء المؤمنين جميعا، إلا ما كان خاصا بنساء النبي صلى الله عليه وسلم .

إن الهدف من النهي عن الخضوع بالقول ، والأمر بالقول بالمعروف ، والأمر بالقرار في البيت ، المقصود من هذا كله هو ، حفظ كرامة المرأة ، وصيانتها عن كل ما من شأنه أن يلطخ سمعتها ، ويشوّه حياءها ، ويدنس عفافها ، وهذه كلها لا تحتاجها نساء النبي صلى الله عليه وسلم فحسب ، بل تحتاجها كل مسلمة على وجه الأرض ، فكانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ومن هنا كان الأمر عاما يشمل نساء النبي صلى الله عليه وسلم ونساء المؤمنين، يؤيد ذلك قول الله تعالى في نفس السورة :﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما﴾ سورة الأحزاب آية٥٩ .

فإن توجيه المرأة أن تدني عليها من جلبابها صيانة لها عن الإيذاء ، عمّ نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، وعمّ غيرهن من نساء المؤمنين بدلالة الآية الكريمة ، وما ينطبق على هذه الآية من الأحكام ، ينطبق على الآية السابقة ، التي تنهى عن الخضوع بالقول ، وتأمر بالقول المعروف ، وتعطف على ذلك بلزوم البيت ، وتنهى عن تبرج الجاهلية ، لأن الهدف من الآيتين واحد ، وهو صيانة كرامة المرأة عن الابتذال ، وحفظا لها من الإيذاء ، على أنه لم يرد ما يخصص ذلك بنساء النبي صلى الله عليه وسلم .

يقول القرطبي في تفسيره (١٣٨٧هـ) مـا خلاصته : معنى الآية الأمر بلزوم البيت ، وإن كان الخطاب لنساء النبي صلى الله عليه وسـلم ، فإن غيرهن يدلن فيه بالمعنى ، وهذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء ، فكـيف والشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن ، ونهيهن عن الخروج إلا لضرورة وقـد ذكر الثعلبي وغيره أن عائشة رضي الله عنها كانت تبكي حتى تبل خمارها حين تقرأ هذه الآية ، وذلك بسبب سفرها أيام الجمل ، وذكر أن سودة رضي الله عنها قيل لها لم لا تحجين ؟ قالت قد حججت واعتمرت وأمرني ربي بالقرار في بيتي ، قال الراوي فوالله ما خرجت من بيتها إلا إلى قـبرها ، وذكـر أن ابن العربي قـال : مررت على ألـف قرية فمـا رأيت أعف من نساء نابلس ، فإني أقمت بهـا مدة ما رأيت امـرأة في طريق نهارا إلا يوم الجـمعـة ، يخرجن حـتى يمتليء بهن المسـجد ، ثم يعـدن إلى بيوتهن إلى الجـمعـة الأخرى، وقد رأيت بالأقصى حرائر ما خرجن من معتكفهن حتى استشهدن فيه . ص ١٧٩ وما بعدها .

على أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى بالاتبـاع ، فقد كن النساء في عهده يخرجن ويبعن ويشترين ويسافرن ، وما كان بفعله نساء نابلس والأقصى إنما هي المبالغـة في تعظيم أمر الله تعـالى ، والمرأة قد تمر بها فـترات تضطر فيـها إلى الخروج من المنزل لمصلحة دينيـة أو دنيوية ، فإذا فوتت على نفسـها هذه المصالح ، بحـجة القـرار في البيـت ، فقـد أخطأت في فهم الآيـة الكريمة ، والمسلم مأمـور بالاعتدال في كل أمر من أمور حياته .

أما حين تكثر الفتن ويظهر الشر ، فإنه يتأكد على المرأة أن تقر في بيتها ، وألا تخرج إلا لحاجة ، وإن خرجت لحاجة ، فإنهـا مأمورة بأن تتقي الله في خروجها ، فلا تتزين ولا تتطيب ولا تتبرج تبرج الجاهلية الأولى.

تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كما روى ذلك البخاري في صحيحه (مع الفتح ، د ـ ت) ((لو أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدث النساء بعده لمنعهن كما منعت نساء بني إسرائيل ، فقلت لعمرة : أومنعهن ؟ قالت : نعم)) ج ٢ ص ٣٤٩ .

وفي رواية مسلم (مع النووي د ـ ت) :((لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ما أحدثه النساء لمنعهن المسجد ، فقلت لعمرة : أنساء بني إسرائيل منعن من المسجد ؟ قالت : نعم)) ج ٤ ص ٤٠٨ .

وإذا كان هذا في مثل ذاك الزمن الذي لا يزال حديث عهد بنبوة ووحي ، فماذا يقال في مثل هذا الزمن الذي كثرت فتنه ، وادلهمت مصائبة ، وأصبحت فيه الفتن تموج موج البحار ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

إن المرأة المسلمة مطالبة بلزوم بيتها ، لأن في خروجها من غير حاجة فرصة للشيطان لا تعوض ، فقد روى الترمذي في سننه (د ـ ت) من حديث عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :﴿ المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان ﴾ ج ٣ ص ٤٧٦، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٤٠٨هـ) ج ١ ص ٣٤٣ .

ذكر المباركفوري في التحفة (د ـ ت) ما معناه : الاستشراف رفع البصر للنظر إلى الشيء وبسط الكف فوق الحاجب ، والشيطان يستغل هذا الخروج فيزين المرأة في أنظار الرجال ، فيغويها ويغوي بها . ج ٤ ص ٣٣٧ .

وقد روى الطبراني في المعجم الكبير: ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسناد حسن ﴿ النساء عورة ، وإن المرأة لتخرج من بيتها وما بها بأس ، فيستشرفها الشيطان ، فيقول : إنك لا تمرين بأحد إلا أعجبته ، وإن المرأة لتلبس ثيابها فيقال : أين تريدين ؟ فتقول : أعود مريضا ، أو أشهد جنازة ، أو أصلي في

مسجد ، وما عبدت امرأة ربها مثل أن تعبده في بيتها ﴾ والحديث صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٠٩هـ) ج ١ ص ٢٠٩ .

قال المنذري في الترغيب والترهيب (١٣٨٨هـ) :((يستشرفها الشيطان : أي ينتصب ويرفع بصره إليها ويهم بها ، لأنها قد تعاطت سببا من أسباب تسلطه عليها وهو خروجها من بيتها)) ج ١ ص ٢٢٨ .

وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٠٩هـ) في تعليقه على هذا الحديث :((هذا في شيطان الجن فما بالك في شيطان الإنس ، لا سيما شياطين إنس هذا العصر الذي نحن فيه ، فإنه أضر على المرأة من ألف شيطان ، لأن أغلب شبان هذا الزمان لا مروءة عندهم ، ولا دين ، ولا شرف ، ولا إنسانية ، يتعرضون للنساء بشكل مفجع ، وهيئة تدل على خساسة ودناءة وانحطاط ، فعلى ولاة الأمر إن كانوا مسلمين أن يؤدبوا هؤلاء الفسقة الشررة والوحوش الضارية)) ج١ص ٢١٠ .

والباحث يرى أن الشيخ الألباني حفظه الله وأمد في عمره ، ربما رأى في بعض البلدان مثل هذه الصور ، ولكنها ولله الحمد في البعض الآخر ما وصلت إلى هذه الصورة ، فلا يزال الخير في أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم الدين ، بل لا يزال بعض الفسقة حين يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر في مثل تلك الحال ، يستحيي ويقلع ، بل ربما كانت تلك النصيحة سببا في توبته وإقلاعه ، وتحوله إلى مصاف الأخيار من عباد الله ، والله المستعان .

إن الأمر بقرار المرأة في بيتها منهج وقائي عظيم في حفظ الأسرة من الضياع ، وحماية عمودها من الشرور والفتن والآثام ، الأمر الذي ينعكس أثره الإيجابي لا على أفراد الأسرة كلها فحسب ، بل على المجتمع كله ، والأمة كلها ، فما الفرد إلا نواة الأسرة ، وما الأسرة إلا نواة المجتمع ، وما المجتمع إلا نواة الأمة كلها .

سادسا : الحجاب الشرعي :

من أعظم أسباب وقاية الأسرة من الانحراف ، أمر المرأة بالحجاب الشرعي ، الذي يهدف إلى إخفاء كل ما من شأنه أن يثير مرضى القلوب ، وعبيد الشهوات ، سواء كان الحجاب هو دار المرأة التي أمرت بالقرار فيها ، كما قال سبحانه :﴿ وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ﴾ سورة الأحزاب آية ٥٣ ، أو كان تبذل المرأة في لباسها عند الخروج من بيتها ، وبُعدها عن كل ما يثير الفتن ، ويحرك الغرائز ، من الطيب والتكسر واللين في القول ، وأعظم من هذا كله كشف الوجه الذي هو محل النظر ، ومجمع الزينة في المرأة، على الرأي الراجح من أقوال أهل العلم .

إن المرأة قد تخرج من بيتها بدرع وخمار يستر جميع أجزاء جسدها ، بما في ذلك الوجه والكفين ، ومع ذلك تكون متبرجة ، وذلك حين تخرج متطيبة في ثيابها ، متغنجة في مشيتها ، لينة بالقول في حديثها .

فما الحجاب الشرعي إذن ؟

هل هو لزومها لبيتها ، وقرارها في خدرها ؟ أم هو ستر المرأة لجسدها كله عند إرادتها الخروج من بيتها ؟ أم ماذا ؟ .

إن من الأهمية بمكان عند إرادة تعريف الحجاب أن يُبتعد عن السطحية في التعريف الذي يُظن أنه ستر الجسد ومنه الوجه والكفين.

والجوا عن تعريف الحجاب الذي يراه الباحث هو ما أجاب عنه المقدم في كتابه عودة الحجاب (١٤١٠هـ) حيث يقول في تعريفه :((الحجاب لفظ ينتظم جملة من الأحكام الشرعية الاجتماعية المتعلقة بوضع المرأة في المجتمع الإسلامي ، من حيث علاقتها بمن لا يحل لها أن تظهر زينتها أمامهم)) ج ٣ ص ٧١ .

والحجاب الذي يأمر به الشرع المطهر ، والذي أشار إليه المقدم في تعريفه ، هو كل ما يستر المرأة ، عن الرجال ، ولا يثير انتباههم إليها ، ولا يحرك في نفوسهم عند رؤيتها فتنة .

وما من شك أن المرأة في مثل هذا الزمن ، حين تمر بالرجال كاشفة لوجهها ، أو متطيبة في جسدها وثيابها ، أو لابسة كعبا يرتفع عن الأرض بمسافة ، فتتكسر في مشيتها ، وتتغنج في خطواتها، أو تخالط الرجال ، أو تصافحهم ، أو تخلو بأحدهم ممن ليس من محارمها ، أو تنظر إليهم نظر ريبة ، أوتحادثهم بصوت ناعم رقيق ، فيه لين وميوعة متعمدة ، إنها حين تفعل هذه الأمور ، أو تفعل أحدها ـ ولو كانت ملتزمة بغيره مما ذُكِر أو لم يُذكر ـ تكون متبرجة ، واقعة في الإثم ، محطمة لأسوار الوقاية التي جعلها الإسلام بين الناس وبين الغرائز المحرمة ، والشهوات الضالة ، فتختفي الحكمة من مشروعية الحجاب ، وعندها لا يصح أن يقال والحال ما ذكر ، هذه امرأة متحجبة الحجاب الشرعي ، إلا عند أهل التفكير السطحي ، الذين لا يدركون من الأمور إلا ظواهرها فحسب .

لقد أمر الإسلام بالحجاب الشرعي الذي يستر المرأة عن عيون الذئاب البشرية ، وجمع إلى ذلك جملة من النواهي التي هي حواجز وقائية لا يكون الحجاب حجابا شرعيا في غيابها . ومنها :

١ـ النهي عن خروج المرأة متعطرة ، فقد روى أبو داود في سننه (١٤٠٩هـ) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :﴿ أيما امرأة استعطرت ثم مرت على الرجال ليجدوا ريحها فهي زانية ﴾ ج ٢ ص ٤٧٨ والحديث صححه الوادعي في كتابه الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٤١٥هـ) ج ٢ ص ٩ .

وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تمس المرأة طيبا إذا أرادت الخروج من بيتها ، خشية من وقوع الفتنة التي تثور في قلوب الرجال ساعة مرور المرأة بعطرها الفواح ، الذي ربما صور الشيطان ـ الذي استشرفها حين خرجت من بيتها ـ أن هذا بريدها إلى الرجال ، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه ، مختصر المنذري (د ـ ت) من حديث زينب رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيبا ﴾ ص٧٢ .

بل إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنكر على امرأة خرجت من بيتها وهي متطيبة ، فقد روى الإمام عبدالرزاق بن همام الصنعاني في مصنفه (١٩٣١هـ) قال :((خرجت امرأة في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه متطيبة ، فوجد ريحها ، فعلاها بالدرة ، ثم قال : تخرجن متطيبات فيجد الرجل ريحكن ؟ وإنما قلوب الرجال عند أنوفهم ، أخرجن تفلات)) ج ٤ ص ٣٧٠ - ١٧٣ .

فها هو أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لا يكتفي بمجرد الإنكار باللسان ، وإنما حمل الدرة على المرأة ليضربها لخطورة ما فعلته ، مع أنها ربما كانت لا تقصد الفتنة ، ولكن الفتنة واقعة لا محالة ، سواء قصدت ذلك أو لم تقصده .

٢- النهي عن ضرب المرأة برجلها عند الخروج ، والأصل في ذلك قول الله تعالى :﴿ ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾ سورة النور آية ٣١ .

سبحان الله ! إن القرآن الكريم يرشد المرأة المسلمة إذا أرادت الخروج من بيتها أن تتقي الله في مشيتها ، وقاية للرجال من فتنتها .

لقد كانت المرأة قديما تتحلى بالخلخال ، وهو نوع من الذهب تلبسه المرأة على قدمها ، فإذا سارت في الطريق أحدث صوتا ، ربما تحركت لأجله القلوب المريضة ، فنهاها الإسلام عن ذلك .

يقول ابن كثير في تفسيره (١٤٠٦هـ) :((كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت لا يعلم صوتها ، ضربت برجلها الأرض ، فيسمع الرجال طنينه ، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك ، وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستورا فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي دخل في هذا النهي)) ج ٣ ص٤٥٧ .

وهنا لفتة جميلة في الآية وهي أن الآية لم تقيد الزينة بصوت الخلخال ولم تنص الآية عليه ، بل إنها جاءت عامة في كل ما من شأنه أن يحرك قلوب الرجال، حتى ولو كان ذلك بالكعب العالي الذي تلبسه المرأة ، فيُسمع له صوتا ربما كان أشد فتنة من صوت الخلخال .

إن لبس الكعب العالي الذي انتشر في أوساط نساء المسلمين اليوم ، ما هو إلا سلوك دخيل على سلوك الإسلام النظيف ، ذلك أن لبسه كان من سمات نساء أهل الكتاب ، يفعلنه من باب الفساد في الأرض بفتنة الرجال ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده (١٣٨٩هـ) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :﴿ كانت امرأة من بني أسرائيل قصيرة تمشي مع امرأتين طويلتين ، فاتخذت رجلين من خشب ، وخاتما من ذهب ، مغلفا بطين ، ثم حشته مسكا ، وهو أطيب الطيب ، فمرت بين المرأتين ، فلم يعرفوها فقالت بيدها هكذا ﴾ وفي رواية ﴿ فكانت إذا مرت بالمجلس حركته فنفخ ريحه ﴾ ج ٣ ص ٤٠ والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٠٦هـ) ج ٤ ص ١٥٩ .

وقد روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت :﴿ كان الرجال والنساء من بني إسرائيل يصلون جميعا ، فكانت المرأة إذا كان لها خليل تلبس القالبين - وهما نعل من خشب - تطوّل بهما لخليلها فألقى الله عليهن الحيض فكان ابن مسعود يقول : أخرجوهن من حيث أخرجهن الله ﴾ رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح وهو في مجمع الزوائد (١٤٠٨هـ) ج ٢ ص ٣٥ .

٣- النهي عن خضوع المرأة بالقول ، لما فيه من تحريك القلوب المريضة التي ربما تعلقت بالمرأة لمجرد سماع صوتها الرخيم ، والأصل في ذلك قول الله تعالى : ﴿ ولا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض ﴾ سورة الأحزاب آية ٣٢ .

سبحان الله ! هذا خطاب للطاهرات العفيفات نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمهات المؤمنين ، يأمرهن الله ألا يخضعن بالقول ، ولا يلنَّ في الكلام، وقاية من طمع من كان في قلبه مرض المعصية والشهوة ، وإذا كانت القلوب تتعلق بالصوت الندي ، حتى ولو كان صوت أمهات المؤمنين ، نهى الله عن الخضوع به مخافة الفتنة ، ولا شك أن النهي لغيرهن من باب أولى .

وهنا لفتة جميلة في الآية الكريمة ، فإنها حين نهت المؤمنات أن يتكسرن في الكلام ، ويلنَّ فيه ، لم تحرم عليهن الكلام الذي لا بد منه فقالت :﴿ وقلن قولا معروفا ﴾ سورة الأحزاب آية ٣٢، فلم تحرم الآية على المرأة الكلام لكونه ضرورة لا بد منها ، ولكنها حرمت أن يُسخَّر القول ليكون فتنة تجر على أثرها خراب الأفراد والأسر والمجتمعات .

٤ـ النهي عن الاختلاط مع الرجال الأجانب ، والأصل في ذلك قول الله تعالى : ﴿ وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ سورة الأحزاب آية ٣٣ .

وقوله صلى الله عليه وسلم كما روى ذلك البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت : ((كان يسلم فينصرف النساء فيدخلن بيوتهن من قبل أن ينصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم)) ج ١ ص٢١٥ .

وما ثبت في صحيح البخاري (د ـ ت) عن ابن جريج رحمه الله قال : ((أخبرني عطاء إذ منع ابن هشام النساء الطواف مع الرجال ، قال : كيف يمنعهن وقد طاف نساء النبي صلى الله عليه وسلم مع النساء ؟ أي غير مختلطات بهن ، قال قلت : أبعد الحجاب أو قبل ؟ قال : إي لعمري لقد أدركته بعد الحجاب ، قال قلت كيف يخالطن الرجال ؟ قال : لم يكن يخالطن ، كانت عائشة رضي الله عنها تطوف حجرة ـ أي ناحية ـ وفي رواية حجزة ـ أي محجوز بينها وبين الرجال

بشوب - من الرجال ، لا تخالطهم ، فقالت امرأة : انطلقي نستلم يا أم المؤمنين ، قالت : انطلقي عنك وأبت ، يخرجن متنكرات بالليل فيطفن مع الرجال ، ولكنهن كن إذا دخلن البيت قمن ، أي وقفن حتى يدخلن حال كون الرجال مخرجين منه حتى يدخلن وأخرج الرجال)) ج ٢ ص ١٨٧ .

إن الاختلاط بكل صوره وأشكاله من أعظم صور الفساد ، ومن أكثر أسباب البلاء والفتنة ، والآيات والأحاديث والآثار في تحريمه كثيرة جدا ، والمجال لا يتسع لسردها كلها ، أو حتى بعضها ، ولكن فيما ذكر غنية .

إن الإسلام يحرم الاختلاط حتى في أماكن العبادة ، ويدعو المرأة أن تجتنب مجالسة الرجال ، بل ويرغب المرأة أن تصلي في بيتها ، ويخبرها أن صلاتها في بيتها خير لها من صلاتها في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده (د - ت)من حديث أم حميد الساعدية رضي الله عنها ، أنها جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إني أحب الصلاة معك ، فقال :﴿ قد علمت أنك تحبين الصلاة معي ، وصلاتك في بيتك خير لك من صلاتك في حجرتك ، وصلاتك في حجرتك خير لك من صلاتك في دارك ، وصلاتك في دارك خير لك من صلاتك في مسجد قومك ، وصلاتك في مسجد قومك خير لك من صلاتك في مسجدي ﴾ والحديث صححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين ج٢ص ٢٩ .

وإذا كان الإسلام ينهى عن الاختلاط حتى في أماكن العبادة ، فإن ذلك دلالة على أن تحريمه في غيرها من باب أولى .

إن تحريم الاختلاط أسلوب وقائي من أساليب الإسلام في تجفيف منابع الفتنة ، وطريقة من طرائقه الكثيرة التي تئد الفتنة في مهدها قبل أن يتفاقم خطرها ، ويستعر شررها ، فتأتي على الأخضر واليابس ، وتجر على الأفراد والأسر والمجتمعات من الويلات ما لا يعلمه إلا الله .

٥ـ النهي عن مصافحة المرأة الأجنبية ، والأصل في ذلك هَدْيُهُ صلى الله عليه وسلم ، فقد روى البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في مبايعة النبي صلى الله عليه وسلم للنساء ، قالت :﴿ ولا والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة ، ما يبايعهن إلا بقوله : قد بايعتك على ذلك ﴾ ج ٨ ص ٦٣٦ .

وما رواه الطبراني في معجمه من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له ﴾ والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٠٦هـ) ج ٢ ص ٩٠٠ .

بل لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبايع النساء على الإسلام لا يمد يده إليهن ولا يصافحهن ، فقد ذكر الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤١٥هـ) من حديث أميمة بنت رقيقة رضي الله عنها أنها قالت :((أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسوة نبايعه على الإسلام، فقلن يا رسول الله ! نبايعك على ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيك في معروف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ فيما استطعتن وأطقتن ﴾ قالت : فقلن : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ، هلم نبايعك يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ إني لا أصافح النساء ، إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة ﴾ ج ٢ ص ٦٣ .

إن مجرد ملامسة الرجل لجسد المرأة عن طريق المصافحة والقبض على اليد ، يحدث فتنة عظيمة ، تتحرك على أثرها النفوس ، وتثور العواطف ، ويتحرك الشيطان ليوقع في القلوب مرض الشهوة الذي يحدث فسادا عظيما .

ولهذا حرم الإسلام هذا البـاب ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أطهر الخلق لا يصافح النساء ، حتى في حال مبايعتهن له صلى الله عليه وسلم .

٦ـ النهي عن الخلوة بالمرأة الأجنبية ، والأصل في ذلـك ما رواه البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث عبـدالله بن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم :﴿ لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي مـحرم فـقام رجل فقـال : يا رسول الله امرأتي خـرجت حاجـة واكتتبت في غزوة كذا وكـذا ، قال ارجع فحج مع امرأتك ﴾ ج ٧ ص ٤٨ .

وما رواه أحـمد في مسنـده من حديث عامـر بن ربيعة رضي الـله عنه قال : قال رسـول الله صلى الله عليه وسلـم :﴿ لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الـشيطان ثالثهـما ﴾ ج ٣ ص ٤٤٦ والحديث صـححه الألبـاني في صحيح سنن التـرمذي (١٤٠٩هـ) ج ١ ص ٣٤٣

وما رواه البخـاري في صحيحـه (د ـ ت) من حديث عقبـة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله صلـى الله عليه وسلم قال:﴿ إياكم والدخـول على النساء ، فـقال رجل من الأنصـار : يا رسول اللـه ! أفرأيت الحـمو ؟ قـال : الحمـو الموت ﴾ ج٧ص ٤٨ .

إن أيسر الطـرق لاقتراف جـريمة الزنا التي بها دمـار البلاد والعـباد ، وضيـاع الأسر ، واختلاط الأنساب ، هو الخلوة بالمرأة الأجنبية .

يقول سيد قطب في الظلال (١٤٠٠هـ) :

((إن الميل الفطري بين الرجل والمرأة مـيل عمـيق في التكوين الحـيوي ، لأن الله قد ناط به امتداد الحياة على هذه الأرض ، وتحقـيق الخلافة لهذا الإنسان فيها ، فهو ميل دائم يسكن فترة ثم يعود ، وإثارته في كل حين تزيد من عرامته ، وتدفع به

إلى الإفضاء المادي للحصول على الراحة ، فإذا لم يتم هذا تعبت الأعصاب المستثارة ، وكان هذا بمثابة عملية تعذيب مستمرة ، ! والنظرة تثير ، والحركة تثير ، والضحكة تثير ، والدعابة تثير ، والنبرة المعبرة عن هذا الميل تثير ، والطريق المأمون هو تقليل هذه المثيرات ، بحيث يبقى هذا الميل في حدود الطبيعة ، ثم يلبى تلبية طبيعية ، وهذا هو المنهج الذي يختاره الإسلام ، مع تهذيب الطبع ، وشغل الطاقة البشرية بهموم أخرى في الحياة ، غير تلبية دافع اللحم والدم فلا تكون هذه التلبية هي المنفذ الوحيد)) ج٤ص٢٥١١ - ٢٥١٢ .

إن منهج الإسلام الذي يحرم المثيرات هو المنهج الوقائي الذي أخذ من التربية الإسلامية أكثر المساحة ، المنهج الذي يئد الشرور في مهدها ، قبل أن يستفحل أمرها ، ويتفاقم خطرها ، فيصعب بعد ذلك علاجها أو يستحيل .

إن المرأة حين تلزم خدرها ، وتقر في بيتها ، أو تلجئها الحاجة فتخرج متحجبة من أخمص قدميها إلى مشاش رأسها ، لا يظهر منها شيء حتى الوجه والكفين ، غير متطيبة ولا متغنجة ، ولا ملينة للكلام ، تكون بعيدة عن كل ما من شأنه أن يعرضها للفتن أو يعرض غيرها من الرجال ، وفي هذا من الوقاية ما فيه .

يقول سيد قطب في الظلال (١٤٠٠هـ) :((هذا التحشم وسيلة من الوسائل الوقائية للفرد والمجتمع ، ومن ثم يبيح القرآن تركه عندما يأمن الفتنة ، فيستثني المحارم الذين لا تتوجه ميولهم عادة ولا تثور شهواتهم)) ج ٤ ص ٢٥١٣.

وإن الأمة المسلمة في عمومها والعاملين في حقل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على وجه الخصوص ، في أمس الحاجة إلى فقه هذه المسألة ، وذلك بضرورة الدعوة إلى الله ، ونشر الخير بين الناس أولا، وخاصة فيما يخص توعية المرأة في أمور دينها ، كأسلوب وقائي ، لأن المرأة حين تدرك سر مشروعية الحجاب تتجنب السفور والتبرج بكل صوره وأشكاله ، فتصنع حول نفسها سياجا متينا ، يحول

بينهـا وبين أن تَفتن أو تُفتن ، ويـبقى العلاج لقلة قليلـة تتعـدى حدود الله وتنتـهك محارمه.

إن دعوة المرأة للحجـاب لا يعني تعطيل دورها في الحياة ، أو إلغاء حـريتها ، أوتحجيم مـهمتهـا على ظهر هذه الأرض ، ولكن ذلك يعني صيـانة الأفراد والأسر والمجتـمعـات من الكوارث الأخلاقـية ، التي عـصفت بكثـير من المجتـمعـات التي أعرضـت عن الإسلام جمـلة وتفصـيلا ، أو حتـى بعض المجتـمعات الأخـرى التي تنتسب إلى الإسـلام ، وقـد حطمت حـواجـز الشرع الحنـيف واستـهـانت بهـا ، ووصفت المتمسك بهـا بالتخلف والرجعية ، واستوردت لربة البـيت وراعية الأسرة قـوانين تربوية من الشـرق والغرب ، فـذاقت مـرارة قوانينهـا الوضـعيـة الوضـيعـة ، وتجرعت من وراء إقـصاء شريعة الله عـن واقع الحياة عامـة ، وحياة الأسرة خـاصة العلقم في الدنيا قبل الآخرة ، ما لم يتداركها الله بتوبة صادقة تمحو ما علق بها من المآثم .

يقول المقدم في كتابه عـودة الحجاب :(١٤١٠هـ) :((ليس الحجاب الذي نعنيـه مـجـرد سترٍ لبـدن المرأة ، إن الحـجـاب عنوان تلك المجـمـوعـة من الأحكام الاجتـمـاعيـة المتعلقة بوضع المرأة في النـظام الإسلامي ، والتي شرعـها الله سبـحانه وتعالى لتكون الحـصن الحصين ، الذي يحمي المرأة ، والسيـاج الواقي الذي يعصم المجتمع مـن الافتـتـان بها ، والإطـار المنضبط الـذي تؤدي المرأة من خلالـه وظيفـة صناعة الأجيـال ، وصيـاغـة مستـقبل الأمـة ، وبالتالي المسـاهمة في نصـر الإسلام والتمكين له)) ج٣ص

سابعا : النهي عن المغالاة في المهور :

ذه إحدى معضلات العصر ، التي حـالت بين كثير من الشباب وبين تكوين أسر ، تسكن إليها وتجد فيها الرحمة والطمأنينة.

إن الله سبحانه يبين في كتابه الكريم أن الزواج سبب من أسباب السكن النفسي والراحة القلبية ، وطريق سهل ميسر إلى الألفة والمودة التي هي فطرة في قلب الإنسان ، يقول الله تعالى :﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ سورة الروم آية ٢١ .

إذن فالزواج على هدي الإسلام سكن وطمأنينة ، وراحة وسكينة ، يحرم منها الرجل ، وتحرم منها المرأة ، حين يقف المهر حجر عثرة في طريقهما لتكوين بيت ، يحول بينهم وبين القلق والاضطراب ، الذي هو نتيجة لفقدان ثمرة من ثمرات الزواج ، ألا وهي السكن والراحة النفسية .

إن غلاء المهور سبب من أسباب الأزمات الاجتماعية التي لها آثارها الخطيرة على الأفراد والأسر والمجتمعات .

وفي الوقاية من هذه الأزمات ، دعا الشارع الحكيم إلى قلة المهر ، وبين أنه سبب من أسباب السعادة التي ترفرف على جنبات الأسرة .

فقد روى البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ((أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه تزوج امرأة على وزن نواة ، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم بشاشة العرس فسأله فقال : إني تزوجت على وزن نواة)) ج٧ص ٢٥ .

فها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عبد الرحمن بن عوف عن سر هذه البشاشة التي تظهر على محياه رضي الله عنه ، فيخبر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن السبب هو قلة المهر الذي لم يتجاوز قدر نواة من الذهب .

لقد تزوج خير الخلق صلى الله عليه وسلم بخير النساء أمهات المؤمنين ، فلم يزد في صداق كل واحدة منهن على ثنتي عشرة أوقية .

روى النسائي في سننه (١٤٠٧هـ) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : ((ألا لا تغلوا صُدُق النساء ، فإنه لو كان مكرمة في الدنيا ، أو تقوى عند الله عز وجل كان أولاكم به النبي صلى الله عليه وسلم ، ما أصدق النبي صلى الله عليه وسلم امرأة من نسائه ، ولا أصدق امرأة من بناته ، أكثر من ثنتي عشرة أوقية ، وإن الرجل ليغلي بصدقة امرأته حتى يكون لها عداوة في نفسه ، وحتى يقول : كُلِّفت لكم علق القربة)) ج ١ ص٦٠٧ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن النسائي (١٤٠٩هـ) ج ٢ ص ٧٠٥ .

ذكر السيوطي في شرح سنن النسائي (١٤١٥هـ) في معنى كلفت لكم علق القربة قوله :((أي تحملت لأجلك كل شيء حتى علق القربة وهو حبلها الذي تعلق به ، ويروى عرق القربة بالراء ، أي تكلفت إليك وتعبت حتى عرقت كعرق القربة ، وعرقها سيلان مائها ، وقيل أراد بعرق القربة : عرق حاملها من ثقلها ، وقيل أراد أني قصدتك وسافرت إليك واحتجت إلى عرق القربة وهو ماؤها وقيل أراد : وتكلفت لك ما لم يبلغ ومالا يكون لأن القربة لا تعرق ، وقال الأصمعي : عرق القربة معناه الشدة ولا أدري ما أصله)) ج ٦ ص ١١٧ .

صحيح أن الإسلام لم يحدد مهرا معينا ، ولكن قلته فيها بركة ، سيما إذا عجز المتقدم للزواج عن المهر لضيق ذات اليد .

لقد بين ربنا سبحانه في آية سورة الروم أنه خلق للناس من أنفسهم أزواجا ليسكنوا إليها ، فكانت حقيقة لا تقبل الجدل أن الإنسان لا يسكن إلا إلى زوجته ، وأن المودة والرحمة أكثر ما تكون بين الزوجين . والمغالاة في المهور عقبة في طريق تحقيق هذا السكن وهذه الرحمة والمودة .

بالإضافة إلى أن الرجل حين يعجز عن دفع المهر ، يعجز عن الزواج ، وإذا عجز عن الزواج ، وكان إيمانه ضعيفا ، ربما بحث عن الحرام ، لأنه حيل بينه وبين

الحلال، وربما فعلت المرأة الحرام ، لأنه حيل بينها وبين ما أحل الله لها من الزواج الشرعي .

إن المغالاة في مهر المرأة إلى درجة يعجز الزوج عن دفعه ، يُبقى المرأة حبيسة في بيت أبيها السنوات الطوال ، قد عضلت عن الزواج لهذا السبب ، فإذا وقعت في الحرام ، عُـدَّ هذا في نظر الباحث صورة من صور إكراهها على البغاء بطريق غير مباشر ، قال تعالى :﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ﴾ سورة النور آية ٣٣ .

وإن كان الولي لم يجبرها صراحة على البغاء ، لكنه عضلها عن الزواج بحثا عمن يدفع له أكثر ، فإذا انحرفت الفتاة عن الطريق الصحيح ، حين تجد عقبة المهر في طريقها كبيرة ، كان الذي صرفها عن العفاف والحشمة ، وأوقعها فيما لا تحمد عقباه ، هو الولي الظالم .

صحيح أن الآية التي استنبط منها الباحث تحريم إكراه النساء على البغاء بسبب المغالاة في المهور ، كان لها سبب نزول مختلف ، فقد ذكر الواحدي في أسباب النزول (د ـ ت) سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ﴾ سورة النور آية ٣٣ .

فقال :((إنها نزلت في معاذة ومسيكة جاريتي عبد الله بن أبي المنافق كان يكرههما على الزنا لضريبة يأخذها منهما ، وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية)) ص ١٨٥ .

وذكر الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول (١٤٠٥هـ): ((عن جابر قال : كان عبد الله بن أبي بن سلول يقول لجارية له : أذهبي فأبغينا شيئا ، فأنزل الله عز وجل :﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم ﴾ ص١٠٧ والآية

في سورة النور برقم ٣٣ ، وقـد عـــزا الوادعي سبب النــزول إلى صحيح مسلم ج ١٨ص ١٦٢ .

ولكن النتيجة واحدة ، وهي وقوع المرأة فـي الحرام بسبب حرص وليها على المال الذي سمته الآية الكريمة عرض الحياة الدنـيا ، وإن كان وليها لم يحملها على الزنا صراحـة ، لكنه صادم فطرتهـا التي فطرها الله عليـها ، من إرادة الزواج الذي جعله الله مصرفا شرعيا نظيفا للغريزة الجنسية ، فلما سَدَّ الولي على ابنته هذا الباب الشرعي الطاهر ، فتحت على نفسها باب الحرام الخبيث .

ولنتصور أن المهور في المجتمعـات المسلمة بلغت حدا يعجز الناس أو أكثرهم عن إيجـاده ، ترى ! كـيف يـكون الأمـر ؟ وأن تذهب هـذه الأعـداد الهـائلة من الرجال والنساء ؟ وأن تصرف هذه الشهوة التي خلقها الله فطرة في كل إنسان؟ .

لا شك أن المصير هو الانحـراف الخلقي الذي يدمر الأفـراد والمجتـمعـات ، ويورث في الأرض فسادا تحل معه النكبات بكل صورها وأشكالها .

يقول ابـن عبد البـر القرطبي فـي كتابه المنتقى (١٤١٥هـ) :((وجـد صبي منبوذ في بعض مساجد أصفهان ، ومعه صرة فيها مائة دينار، ورقعة مكتوب فيها : هذا جزاء من لا يزوج ابنته)) ص٣٢٦ .

وقصارى القول : إن من الوسائل الوقائية التي اتخذها الإسلام لحماية الأفراد والأسر والمجتمعات ، دعوته إلى تيسيـر مهور النساء ، رغبة منه في إقبال الناس على الزواج ، الذي به غض الأبصـار ، وحـفظ الفروج ، وقطع الطـريق على الشهـوات العارمة ، التي تنحدر بالأفراد والمجتمـعات إلى فوضى إباحية مهلكة ، أو تنتهي بهم إلى الأمراض العصبية والعقد النفـسية ، التي تنشأ في أعقاب المثيرات المذهلة ، التي يتفنن في عرضها الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا .

ثامنا : القيام بالحقوق الزوجية :

هذه من التدابير الوقائية التي جاء بها الإسلام ، حرصا منه على تماسك الأسرة ، واستمرار عطائها ، ذلك أن الزوج والزوجة حين يعلم كل واحد منهم بما له من الحقوق ، وما عليه من الواجبات ، تتضح أمامه الصورة ، فيسير في تعامله مع الآخر على هدى مستقيم ، يؤدي ما عليه من الحقوق ، وينتظر ما له من الواجبات ، فينقطع على أثر ذلك كل ما من شأنه أن يسيء العشرة ، أو يورث المشاكل والنزاعات ، ويصبح كل واحد من الزوجين حكما على نفسه ، رقيبا على تصرفاته ، لا يَظلم ، ولا يُظلم .

ومن هذا المنطلق قسم العلماء الحقوق الشرعية التي جاء بها الإسلام إلى ثلاثة أقسام ، حق للزوج على زوجته ، وحق للزوجة على زوجها ، وحق مشترك بين الزوجين ، وتفصيل ذلك كما يلي :

حقوق الزوج :

للزوج على زوجته حقوق كثيرة يمكن أن تُجمل كلها في حق واحد ، ألا وهو :

الطاعة في المعروف . فإن الزوجة مأمورة بطاعة زوجها ، لأنها حين تخالف أمره وتتمرد على طاعته ، تختفي الحكمة من الزواج الذي يقصد الزوجين من ورائه أمورا كثيرة منها السكن والراحة النفسية .

لقد جعل الإسلام طاعة المرأة لزوجها من أوجب الواجبات ، بل لقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن من أسباب دخول الجنة، جملة من الأعمال الصالحة، منها طاعة المرأة لزوجها ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده (د - ت) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :﴿ إذا صلت المرأة خمسها ، وصامت شهرها ،

وأطاعت زوجها قيل لها أدخلي من أي أبواب الجنة شئت ﴾ والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٠٦هـ) ج ١ ص ١٧٤ .

كما أخبر صلى الله عليه وسلم أن أكثر أهل النار يوم القيامة النساء ، بسبب هضمهن لحقوق أزواجهن ، فقد روى البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه في حديث الخسوف الطويل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُرِيَ النار وهو يصلي فقال :﴿ ورأيت النار فلم أر كاليوم منظرا قط، ورأيت أكثر أهلها النساء ، قالوا : لم يا رسول الله ؟ قال : بكفرهن ، قيل يكفرن بالله ؟ قال : يكفرن العشير ، ويكفرن الإحسان ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ، ثم رأت منك شيئا قالت : ما رأيت منك خيرا قط ﴾ ج ٧ ص ٤٠ .

إن الرجل جنة المرأة حين تكون له مطواعة في الخير ، منقادة في المعروف ، وهو نارها حين لا تتقي الله في طاعته ، وحسن التبعل له ، وقد أورد المنذري في الترغيب والترهيب (١٣٨٨هـ) من حديث حصين بن محصن أن عمة له أتت النبي صلى الله عليه وسلم في حاجة لها ففرغت من حاجتها ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ أذات زوج أنت ؟ قالت : نعم ، قال : فكيف أنت له ، قالت : ما آلوه إلا ما عجزت عنه ، قال : فكيف أنت له ، فإنما هو جنتك ونارك ﴾ ج ٣ ص ٥٢ ـ ٥٣، وقال المنذري رواه أحمد والنسائي بإسنادين جيدين ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

ولعظم هذا الحق فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن المرأة حين يناديها زوجها إلى فراشه ، فتمتنع تبيت في لعنة الملائكة حتى تصبح ، لأن في معصيتها له في هذه الحالة منع له من حق أوجبه الله له ، ربما كان في هضم هذا الحق الذي له من العواقب الوخيمة ما لا يعلمه إلا الله ، ولهذا روى البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم :﴿ إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء لعنتها الملائكة حتى تصبح﴾ ج ٧ ص٣٩ .

إن حق الزوج على زوجته أن تطيعه فيما يأمر ، ما دام أمره لها في حدود ما أحله الله ، أما حين يأمرها بمعصية الله فلا سمع له عليها ولا طاعة .

لقد أولى الإسلام هذا الجانب في الحياة الأسرية عناية فائقة ، لما له من الأثر العجيب في حماية الأسرة ، وصيانتها ، لدرجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر أن السجود الذي هو أعظم العبادات التي يتقرب بها العبد إلى الله ، لو كان جائزا لغير الله لاختص به الزوج دون غيره من الأفراد ، ولمرغت الزوجة وجهها على الأرض ، ووضعت جبينها على التراب ، طاعة لزوجها ، وتلمساً لمرضاته .

روى ابن ماجة في سننه (د - ت) عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :﴿ لو جاز لأحد أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ﴾ ج ١ ص ٥٩٥ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٤٠٨هـ) ج ١ ص٣١٢ .

إن الإسلام يرسم للزوجة هذا الحق ، لتنتقل إلى بيت زوجها ، ووقد أدركت حقوقه عليها ، فتقوم بها على أكمل الوجوه ، تَعَبُّداً لله تعالى الذي أوجب عليها ذلك ، وفي هذا وقاية للأسرة من الفتن والقلاقل والنزاعات التي تذهب بالراحة والألفة ، وتحول البيت إلى جحيم دائم .

حقوق الزوجة :

بما أن الإسلام قد بين أن للزوج على زوجته حقوقا يجب أن تؤديها وأن تقوم بها ، فكذلك الحال في الحقوق التي أوجبها الله للزوجة على زوجها ، يجب عليه أن يقوم بها ، وأن يؤديها كما أمره الله تعالى ، وإلا كان من المطففين الذين إذا

اكـتـالوا على الناس يـستـوفـون ، وإذا كـالوهـم أو وزنوهم يخـسـرون ، ومن هذه الحقوق التي أوجبها الله سبحانه للزوجة على زوجها :

١ـ المهر ، والأصل في ذلك قول الله تعالى :﴿ وآتـوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا ﴾ سورة النساء آية ٤ .

إن الأمر في الآية الكريمة للوجوب ، فـقد أوجب الله على الزوج وعلى الولي أن يعطي المرأة حقها الذي فرضه الله لها ، دون أن يبخس منه شيئا ، وأخبر سبحانه أن المرأة إن طابت نفسها عن شـيء من صداقها لوليها أو غيـره فلا بأس ، فقد أباح له القرآن الكريم أن يأكله هنيئا مريئا .

يقول الألوسي في روح المعـان (١٤٠٨هـ) :((والخطاب على ما هو المتبادر للأزواج وإليـه ذهب ابن عبـاس وجماعـه ، واختـاره الطبري ... وقـيل الخطاب لأولياء النسـاء ، فقد أخـرج ابن حميـد ، وابن أبي حاتم عن أبي صالح قـال : كان الرجل إذا زوج أيما أخذ صداقها دونها ، فنهاهم الله عن ذلك ونزلت الآية)) ج ٢ ص ١٩٨ .

٢ـ النفقـة . هذه من الحقوق التي أوجـبها اللـه تعالى للزوجة على زوجـها ، والأصل في ذلك مـا رواه مـسلم في صـحـيـحـه (شـرح النووي د ـ ت) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم :﴿ دينار أنفقته في سبيل الله ودينار أنفقـته في رقبة ، ودينار تصدقت به على مـسكين ، ودينار أنفقـته على أهلك ، أعظمها أجرا الذي أنفقته على أهلك ﴾ ج ٧ ص٨٦ .

إن رسـول الله صـلى الله عليـه وسلـم ، يعـرض لأصـحـابه هذه الـدنانيـر ، ويعرض مـصارفها الشـرعية ، فدينار ينفق علـى المجاهدين في سبيل الله بأنفـسهم ، ودينار آخر ينفق في عتق رقبة ، وثالث يتصـدق به صاحبه على الفقراء والمساكين ، ولا شك أن البـذل في مثل هذه الميادين فـضله عند الله عظيـم ، لكن يأتي الدينار

الرابع الذي ينفقه الإنسان على أهله ، أي على من تلزمه نفقتهم من أم وأب وزوجة وولد ، فيكون هذا أفضل من تلك الدنانير التي أنفقت في الجهاد والرقاب وعلى الفقراء والمساكين ، وما ذاك إلا لعظم أثر هذا الإنفاق الذي تدخل به السعادة على الأسرة ، فيظل بنيانها متماسكا ، وعطاؤها مستمرا .

وحين يقصر الزوج في النفقة على زوجته ، يشوب الحياة شيء من الكدر ، بسبب ما عند كثير من النساء من التعلق القوي بزينة الحياة الدنيا ، ولا غرابة في ذلك فإن نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، اجتمعن عنده ذات ليلة يطلبنه النفقة ، ويرفعن أصواتهن عليه صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى :﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا * وإن كنتن تردن الله ورسوله والدارالآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ﴾ سورة الأحزاب آية ٢٨ - ٢٩ .

روى مسلم في صحيحه (د - ت) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه في سبب نزول الآية قال :((دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجد الناس جلوسا ببابه ، لم يؤذن لأحد منهم ، قال : فأذن لأبي بكر فدخل ، ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له ، فوجد النبي جالسا عند نساؤه واجما ساكتا ، قال : فقال لأقولن شيئا أضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال :﴿ هن حولي كما ترى يسألنني النفقة ﴾ ، فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها ، فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها ، كلاهما يقول تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده ، ثم نزلت عليه هذه الآية)) ج ٤ ص١٨٧ .

أما حين يملك الزوج من المال شيئا ، فإن النفقة على الأهل من الأعمال التي ندب إليها الشرع ، وجعلها أفضل من النفقة على الجهاد في سبيل الله كما ثبت ذلك في الحديث الذي سبق عرضه .

إن النساء يملكن عواطف جياشة ، ومشاعر حساسة ، وقلوبا رقيقة ، والبذل لهن يثير مكامن الحب في النفوس ، فتتشكل المرأة وفق ما يريده الزوج الذي أحسن الوصول إلى قلبها ببذله وعطائه .

على أن البذل لا يقف عند مجرد النفقة الواجبة ، فإن التهادي سبب من أسباب المحبة والألفة ، كما روى ذلك أبو يعلى في مسنده من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :﴿ تهادوا تحابوا﴾ والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع (١٤٠٦هـ) ج١ص ٥٧٧ .

٣ـ حسن العشرة . وقد سبق الحديث عنه .

٤ـ التأديب . والأصل في ذلك قول الله تعالى :﴿ يا أيها الذين آمنوا قو أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة ﴾ سورة التحريم آية ٦ .

فإن الله تعالى يأمر في هذه الآية الكريمة الولي أن يقي نفسه وأهله النار ، بامتثال أمر الله في تأديبهم وتعليمهم كل ما من شأنه أن يكون سببا في نجاتهم من عذاب الله .

يقول ابن جرير في تفسيره (١٤٠٠هـ) :

((يقول تعالى ذكره يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ﴿قوا أنفسكم ﴾يقول علموا بعضكم بعضا ما تقون به من تعلمونه النار وتدفعونها عنه إذا عمل به من طاعة الله ، واعملوا بطاعة الله ، وقوله :﴿ وأهليكم نارا﴾يقول وعلموا أهليكم من العمل بطاعة الله ما يقون به أنفسهم من النار ، ثم قال عن علي بن أبي طالب

رضي الله عنه قال : أدبوهم وعلموهم ، وقال قتادة : يقيهم أن يأمرهم بطاعة الله وينهاهم عن معصيته ، وأن يقوم عليهم بأمر الله يأمرهم به ويساعدهم عليه ، فإذا رأيت لله معصية ردعتهم عنها وزجرتهم عنها)) ج ٢٨ ص ١٠٦ - ١٠٧ .

وقد بوب البخاري في صحيحه (د - ت) في كتاب النكاح بقوله : باب قوا أنفسكم وأهليكم نارا. ثم ساق السند إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم :﴿ كلكم راع وكلكم مسئول ، فالإمام راع وهو مسئول ، والرجل راع على أهله وهو مسئول ، والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسئولة ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول ﴾ ج ٧ ص ٣٤ .

إذن فالرجل مسئول عن زوجته وأولاده ، وأعظم ما يسأل عنه يوم القيامة عن تربيتهم على الخير ، وحملهم عليه ، لأن في ذلك امتثالا لأمر الله في وقايتهم من النار ، ولأن في تربيتهم على ذلك تحقيقاً للمهمة الكبرى التي خلقهم الله من أجلها ، قال الله تعالى :﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ سورة الذاريات آية ٥٦ .

إن من أعظم أسباب الوقاية للأسرة هو الإيمان بالله ، تلك القوة التي تحرك في الزوجين القيام بالحقوق ، وأداء الواجبات ، والإيمان لا يمكن أن يتحقق في غياب التأديب بالأساليب التربوية التي ذكرت في الفصل الرابع من الرسالة ، حملا لهم على الطاعة وزجرا لهم عن المعصية .

الحقوق المشتركة :

١- الجماع ، وهو حق أوجبه الله سبحانه للزوجة على زوجها ، وللزوج على زوجته ، فهو حق مشترك لأن المستفيد منه هم الزوجان ، ذلك أن الغريزة الجنسية فطرة في النفس ، لا بد أن تقضى ،

وبما أنها فطرة في الإنسان ، كفطرة الأكل والشرب والحب والخوف ، فلا بد لها من مصرف نظيف تقضى فيه ، وإلا فإنها حين تكبت مع قلة الإيمان ، أو غيابه بالكلية ، تجر على الأفراد والأسر والمجتمعات من الويلات شيئا كثيرا ، فإما الإباحي المطلقة التي يتسافد الناس عن طريقها تسافد الحمير ، حتى في الطرقات والأماكن العامة ، بل وحتى في المكاتب وأماكن العمل ، ومحاضن التربية ، كما هو الحال في البلدان الكافرة ، لتتحول الحياة إلى بهيمية ، تنشأ في آثارها الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وتختلط الأنساب ، ويكثر أولاد الزنا ، وتفشو الأمراض المستعصية ، وتتشتت الأسر ، ويختل الأمن ، وتكثر عصابات الإرهاب والتخريب الناقمة على المجتمع الذي أخرجهم إلى الدنيا بلا آباء .

وإما العقد النفسية والأمراض العصبية التي تنشأ في آثار هذا الكبت مع وجود السعار الجنسي المحموم ، بفعل الشهوات والإغراءات التي تتحرك لها الحجارة .

أما الإسلام فإنه يرعى هذه الفطرة فيشرع لها مكانا تقضى فيه ، ألا وهو الزواج الشرعي النظيف ، الذي به غض البصر وحفظ الفرج وصيانة الأعراض ، فقد روى البخاي في صحيحه (د ـ ت) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم شبابا لا نجد شيئا فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر ، وأحفظ للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء ﴾ ج ٧ ص ٣ .

وفي رواية مسلم (د ـ ت) عن علقمة قال كنت أمشي مع عبد الله بمنى فلقيه عثمان فقام معه يحدثه ، فقال له عثمان : يا أبا عبد الرحمن ألا نزوجك جارية شابة لعلها تذكرك بعض ما مضى من زمانك ؟ قال : فقال عبد الله : لئن

قلت ذاك ، لقد قال لنا النبي صلى الله عليه وسلم :﴿ يا معشر الشباب ... ﴾ فذكر الحديث . ج ٤ ص ١٢٨ .

فإن لم يتمكن الإنسان من الزواج طلب العفة ، واستعان على ذلك بأمور كثيرة منها قطع الطريق على كل ما من شأنه أن يهيج الغرائز ، ويحرك الشهوات ، ومنها أيضا الاستعانة بالصيام الذي سماه الرسول صلى الله عليه وسلم وجاءً .

قال الله تعالى :﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله ﴾ سورة النور آية ٣٣ .

لقد علل رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدف من الزواج ، بأن فيه غض للبصر ، وحفظ للفرج عما حرم الله تعالى ، فإذا ما تحركت الغريزة عند الإنسان لمنظر رآه ، فإنه يجد مصرفا نظيفا لهذه الشهوة ، وبذلك تنطفيء هذه الجذوة في قلبه .

ولقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة للناس ، في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه (د ـ ت) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأة فأتى امرأته زينب وهي تمعس منيئة لها ـ أي تدبغ جلدا ـ ، فقضى حاجته ثم خرج إلى أصحابه فقال :﴿ إن المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان ، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله فإن ذلك يرد ما في نفسه ﴾ ج ٤ ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

قال النووي في شرح صحيح مسلم (د ـ ت) حول هذا الحديث ما خلاصته : إن الإنسان إذا رأى امرأة فتحركت شهوته لرؤيتها ، فليواقع امرأته أو أمته ، وعلى الزوجة أن تلبي أمره حتى ولو كانت مشغولة ، لأن الرجل قد تغلب عليه شهوة يتضرر بالتأخير في بدنه أو قلبه وبصره ، فإذا واقع الرجل امرأته أو أمته اندفعت شهوته ، وسكنت نفسه ، وجُمع له قلبه ، وقد علم النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بقوله وفعله . ج ٩ ص ١٨٨ .

يقول بدير في منهج السنة النبوية (١٤١٣هـ) :((وهذا هو أمر الغريزة في حساب السنة ، لا كبت ، ولا استنكار ، ولا قذارة ، بل متاع كامل بكل ما في الفطرة من جوانب المتاع ، متاع الحس القريب ، مضافا إليه ألوانا من المتعة ، وهو راحة للأعصاب ، لأن الأمر حينئذ لن يكون مجرد التقاء أجساد ، وإنما مع ذلك التقاء قلوب طاهرة ، وأرواح نظيفة ، وإحساس براحة الضمير ، وطمأنينة النفس ، إذ هي أثناء متعتها آمنة مطمئنة ساكنة ، ثم هي بعد ذلك تأمل الثواب من ربها العظيم الكريم سبحانه وتعالى)) ج١ص ٢٨ .

ومن هنا كان من واجبات الزوج على زوجته حين يناديها لفراشه أن تلبي نداءه مهما كانت مشغولة ، إلا من عذر شرعي ، وكان من الواجب على الزوج أيضا أن يحصن زوجته ، وإلا فإن الإسلام يبيح لها أن تطلب الطلاق حين يقصر الزوج في أداء هذا الحق ، وفي هذا المعنى يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة الشرعية (١٤٠٥هـ) ما معناه : ومن الحقوق الأبضاع ، إذ يجب على كل من الزوجين أن يؤدي حق الآخر ، فالمرأة لها على زوجها حق الصداق والنفقة بالمعروف والعشرة والمتعة ، فإن كان مجبوبا أو عنينا لا يقدر على جماعها فلها الفرقة ، ووطؤها واجب عليه عند أكثر العلماء ، وللرجل عليها أن يتمتع بها متى شاء ، بشرط ألا يترتب على الجماع ضرر أو تفويت واجب ، ويجب عليها أن تمكنه من ذلك ٠ ص ١٦٨ - ١٦٩ .

وكل ذلك صيانة للنفوس من أن تنحرف ، رغبة في تلبية دعوة هذه الغريزة الفطرية ، حين يقصر الزوجان أو أحدهما في أداء هذا الحق ، فتختفي إحدى الحكم من الزواج وهي غض البصر وحفظ الفرج ، وعلى أثر ذلك تنحرف الأخلاق ، وتحطم الأسر ، ويحل بالمجتمع عذاب الله ٠

٢ـ حق الأولاد ، وهذا من الحقوق المشتركة بين الزوجين ، فإن المولود خرج من بين صلب الأب وترائب الأم ، كما قال رب العالمين سبحانه :﴿ فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ سورة الطارق آية ٥ ـ ٧ .

وقد اختلفت عبارات السلف في تحديد مكان الترائب من المرأة ، ولم يختلفوا في تحديد الصلب من الرجل والذي يراد به الظهر ، ولكن الإجماع منعقد على أن المراد بالصلب ظهر الرجل ، وأن المراد من الترائب ترائب المرأة .

ذكر القرطبي في تفسيره (١٣٧٨هـ) حول هذه الآية ما خلاصته : إن الصلب من الرجل ، وهو الظهر ، والترائب من المرأة ، ثم نقل الخلاف عند المفسرين في تحديد الترائب على أقوال كثيرة ، فمن قائل أنها موضع القلادة ، ومن قائل ما بين الثديين ، ومن قائل اليدين والرجلين والعينين ، ومن قائل هو الجيد ، ومن قائل ما بين المنكبين والصدر ، ومن قائل الصدر ، ومن قائل التراقي ، ومن قائل أربع أضلاع من اليمين ومثلها من اليسار ، ومن قائل عصارة القلب ، والمشهور عند العرب أنها عظام الصدر والنحر . ج ٢٠ ص ٥ .

ولا يهم هنا كثرة الأقوال والاختلاف في تحديد الترائب ، بقدر ما يهم أن الجميع ذكروا أن الترائب من المرأة .

إذن فالمولود يخرج من بين أبوين ، وهو ثمرة من ثمار الزواج الشرعي بين الأبوين ، وكلاهما له فيه حق ، فالأب له في ولده حق الأوة ، والأم لها في ولدها حق الأمومة ، وذلك ليشبع كل منهما ما فطره الله عليه من محبة الأطفال والأنس بهم .

على أن الإسلام يقر حق الحضانة للأم حين يحصل الفراق بين الزوجين لكونها أكثر حنانا ورأفة ورحمة وعاطفة تجاه وليدها ، وفي هذا يقول الرازي في

تفسيره (١٤١٠هـ) :((ويندب أن تقوم الأم بحضانة ورضاعة طفلها لأن تربية الطفل بلبن الأم أصلح له من سائر الألبان ، من حيث أن شفقة الأم عليه أتم من شفقة غيرها)) ج ٦ ص ١٢٦ .

يقول فروخ في كتابه الأسرة في الشرع الإسلامي (١٤٠٨هـ) في من له حق الحضانة والولاية على الصغير ، ما خلاصته : الحضانة هي حفظ الصغير ورعايته والقيام على تربيته ، وأحق الناس بالحضانة في جميع المذاهب الأم ، على أن حقها في الحضانة يسقط في بعض الأحوال ، أما الولاية فإن أحق الناس بها هو الأب . ص ١٢٧ - ١٣٧ .

ويقر الإسلام أيضا حق نفقة الطفل ورعايتة وتأديبه وحفظ مصالحه للأب لكونه أقدر على ذلك من المرأة وأشد ، وبينهما في بقية الأمور قواسم مشتركة ، تزخر بالحديث عنها كتب الفقه .

وبما أن الزوجين هما السبب في إخراج الأولاد ، فإنه من المحال أن يستقل أحدهما بالأولاد دون الآخر ، لأن في هذا حيف وظلم ، والله سبحانه قد نزه نفسه عن الظلم .

٣- حق الميراث ، فإن الزوج له حق في أن يرث زوجته بعد وفاتها ، وللزوجة حق في أن ترث زوجها بعد وفاته ، وقد حدد الله تعالى نصيب كل واحد من الزوجين في الميراث عند وجود الفرع الوارث وعند عدمه ، فقال سبحانه :﴿ ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين ﴾ سورة النساء آية ١٢ .

تاسعا : تربية الأولاد :

إن من أعظم التدابير الوقائية التي تقي الأسرة المسلمة من ضياع المهمة ، وفقدان الهدف ، تربية الأولاد تربية إسلامية صحيحة ، على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهدي سلف الأمة الأخيار ، ذلك أن الزواج لا يقف عند مجرد العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة ، إنما يتعدى ذلك إلى أمور كثيرة ، منها الخلفة والإنجاب ، على أن الخلفة والإنجاب ليست هدفا في حد ذاته ، وإنما يهدف المسلم من وراء هذه الذرية إلى أمور منها :

١ـ إيجاد نسمة تذكر الله تعالى وتسبحه ، وقد كانت هذه إحدى أمنيات عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقد روى ابن أبي الدنيا في كتابه العيال (١٤١٠هـ) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول : ((إني لأُكرِه نفسي على الجماع كي تخرج مني نسمة تسبح الله تعالى)) ج ٢ ص ٥٧٣ .

وليس معنى هذا أن عمر رضي الله عنه كان يُكرِه نفسه على الجماع دائما ، فإن ذلك على خلاف ما فُطر عليه الإنسان ، ولكن مراده رضي الله عنه ، أنها تمر به فترات لا يريد فيها الجماع ، إما لشغل ، أو تعب ، أو عدم رغبة ، أو خلاف ذلك ، ولكنه رغم ذلك يُكرِه نفسه ، رغبة في ذرية مباركة تعبد الله وتسبحه .

٢ـ الفوز بدعوة في ظهر الغيب ، تلحق الوالد بعد وفاته من ولده الصالح ، فإن العبد لا يبقى له من عمله بعد مغادرة هذه الدار ، ما يكثر به أجره إن كان مأجورا ، أويخفف به شقاؤه إن كان مأزورا ، إلا ثلاث ، ورد بها الحديث الذي راوه مسلم في صحيحه (شرح النووي ، د ـ ت) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له ﴾ ج ١١ ص ٩٤ .

٣- المساهمة الفاعلة في مباهاة النبي صلى الله عليه وسلم بكثرة أمته يوم القيامة ، فإن كثرة أمة محمد صلى الله عليه وسلم مما يدخل السرور على نفسه صلى الله عليه وسلم ، وإلا لما كان ذلك مصدر مباهاة ومفاخرة في عرصات القيامة ، فقد روى أبو داود في سننه (١٤٠٩هـ) من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ تزوجوا الولود الودود فإني مكاثر بكم الأمم ﴾ ج ١ ص ٦٢٥، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٤٠٩هـ) ج ٢ ص ٣٨٦ .

٤- الأنس بالأولاد ، وطمأنينة النفس عند رؤيتهم ، إشباعا لغريزة الحب التي فطر الإنسان عليها ، ذلك أن النساء والبنين زينة للعبد في الحياة الدنيا ، قال الله تعالى :﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾ سورة النساء آية ١٤ .

قال ابن كثير في تفسيره (١٤١٤هـ) :((وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل في هذا ، وتارة يكون لتكثير النسل ، وتكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ممن يعبد الله وحده لا شريك له ، فهذا محمود ممدوح)) ج ٢٣٢.

ولعل المقصد من كلام ابن كثير رحمه تقسيم الشهوات إلى قسمين :

١- شهوات محرمة زينها الشيطان في قلوب الناس ، من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، وهذه ليست محمودة ولا ممدوحة ، لأنها سخرت في غير ما خلقت له .

٢- شهوات مباحة فطر الناسَ على حبها ربُّ العالمين ، وزينها في قلوبهم ، وقد يؤجر العبد عليها ما مادام يوجهها إلى الخير ، ويستغلها فيما يقربه من ربه تعالى .

على أن القرآن الكريم حين ذكر هذه الزينة في سورة آل عمران ، أعقبها مباشرة بآية ترفع الإنسان من ثقلة الأرض إلى روحانية السماء ، عن طريق الدعوة إلى ما هو خير من هذه الشهوات الأرضية كلها ، ألا وهي الجنان التي في السماء عند رب العالمين ، فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، والتي لا ينالها إلا المتقون من عباد الله ، وهو تشويق تربوي يقصد منه دعوة الناس إلى تقوى الله تعالى ، ليفوزوا بهذا النعيم السرمدي الخالد .

قال الله تعالى :﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد ﴾ سورة آل عمران آية ١٥ .

ومثل ذلك ما ذكره القرآن الكريم في سورة الكهف من زينة المال والولد ، ثم بين أن الذي يبقى عند الله خير من شهوات المال والبنين فقال تعالى :﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا ﴾ سورة الكهف آية٤٦ .

إنها لوازنة عجيبة بين الشهوات التي فطر الإنسان على محبتها ، وبين توجيهها إلى الخير ، وعدم الانشغال بها عما هو أعظم منها وأبقى .

يقول سيد قطب في الظلال (١٤٠٠هـ) :

((وهنا يمتاز الإسلام بمراعاته للفطرة البشرية وقبولها بواقعها ، ومحاولة تهذيبها ورفعها ، لا كبتها وقمعها ، والذين يتحدثون في هذه الأيام عن الكبت وأضراره ، وعن العقد النفسية التي ينشئها الكبت والقمع ، يقررون أن السبب الرئيسي للعقد هو الكبت ، وليس هو الضبط ، وهو استقذار دوافع الفطرة واستنكارها من الأساس ، مما يوقع الفرد تحت ضغطين متعارضين : ضغط من شعوره ـ الذي كونه الإيحاء أو كونه الدين أو كونه العرف ـ بأن دوافع الفطرة

دوافع قذرة ، لا يجوز وجودها أصلا ، فهي خطيئة ودافع شيطاني ! وضغط هذه الدوافع التي لا تغلب لأنها عميقة في الفطرة ، ولأنها ذات وظيفة أصلية في كيان الحياة البشرية ، لا تتم إلا بها ، ولم يخلقها الله في الفطرة عبثا ، وعندئذ وفي ظل هذا الصراع تتكون العقد النفسية ، فحتى إذا سلمنا جدلا بصحة هذه النظريات النفسية ، فإننا نرى الإسلام قد ضمن سلامة الكائن الإنساني من هذا الصراع بين شطري النفس الإنسانية ، بين نوازع الشهوة واللذة ، وأشواق الارتفاع والتسامي ، وحقق لهذه وتلك نشاطها المستمر في حدود التوسط والاعتدال)) ج ٤ ص ٣٧٤ .

إذن فإن حب الأولاد والرغبة في إنجابهم فطرة في النفس الإنسانية ، لتكوين أسر تحقق من وراء الزواج وإنجاب الذرية ما سلف ذكره ، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا إذا سلكت الأسر في تربية أولادها التدابير الوقائية ، التي يمكن استنباطها من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وهدي سلف الأمة الأخيار ، والتي سوف يعرض الباحث لبعضها في الصفحات القادمة إن شاء الله .

إن من الأمور الهامة التي يجب أن يسلكها الوالدان في تربية أولادهم ، هي تحصينهم ضد الشيطان الرجيم ، الذي أعلن عداوته لآدم وذريته إلى يوم الدين ، يقول الله تعالى وهو يقص علينا من نبأ الشيطان : ﴿ إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا ۞ لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ۞ ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا ﴾ سورة النساء آية ١١٧ - ١١٩ .

ويقول تعالى :﴿ قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا ۞ قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم

جزاء موفورا * واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾ سورة الإسراء آية ٦٢ ـ ٦٤ .

وفي صحيح مسلم (د ـ ت) إن الله يقول في الحديث القدسي :﴿ وإني خلقت عبادي حنفاء وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا﴾ ج ٩ ص ٩٧ .

يقول سويد في كتابه منهج التربية النبوية للطفل (١٤١٢هـ) :((إن هناك صراعا بين الإنسان والشيطان على الذرية والأولاد ، فالشيطان أقسم أن يسعى لإبعاد الذرية عن منهج الله ، ويصرفهم عن طاعته ، وهذا ما أخبرنا به سبحانه وتعالى ، لنكون على بينة من أمرنا فننتبه لذلك ، وقد خصص الله تعالى لنا فترة الطفولة البريئة لنكسبها جولة قبل الشيطان ، فإذا ما خسر الوالدان فإن جولة أساسية قد فاتتهما ، فهما بحاجة إلى جهد أكثر ، وعمل أكبر في المستقبل لإصلاح ولدهما)) ص ٤٢ .

إنها عداوة قديمة يتضح فيها التحدي والإصرار على إضلال ذرية آدم عليه السلام وصرفهم عن مهمتهم التي خلقهم الله من أجلها .

ومن هنا كان على الأسرة أن تحذر هذه العداوة ، وأن تجنب أطفالها هذا الكيد ، فإن الشيطان يحرص على أن يكسب الجولة مع الطفل من حين أن يأتي الرجل أهله ، فإذا فاته ذلك جاءه ساعة الولاده ، وهكذا يتابعه الشيطان ، في كل مرحلة من مراحل عمره ، بل في كل خطوة من خطواته ، فإذا ما فاتته مع الإنسان جولة ، حرص ألا تفوته جولة أخرى ، وهكذا دواليك حتى آخر لحظات حياته ، حين تجتمع حوله الشياطين لتضله عن الحق في ساعة الموت .

ولعل من أعظم التدابير الوقائية التي يمكن أن تتخذها الأسرة في تربية أولادها ، حفظهم من الشيطان ، وذلك بجملة أمور نص عليها شرع الله المطهر ، منها :

١ـ الدعاء حين يأتي الرجل أهله ، بما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأصل في ذلك ما رواه البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ أما لو أن أحدهم يقول حين يأتي أهله باسم الله اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ، ثم قدر بينهما في ذلك أو قضي ولد لم يضره شيطان أبدا ﴾ ج ٧ ص ٢٩ ـ ٣٠ .

يقول ابن حجر في الفتح باختصار العدوي (١٤١٤هـ) في شرحه لهذا الحديث :((المعنى لم يسلط عليه من أجل بركة التسمية ، بل يكون من جملة عباد الله الذين قيل فيهم ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ وقال الداودي : معنى لم يضره : لم يفتنه عن دينه إلى الكفر ، وليس المراد عصمته منه عن المعصية)) ج ٤ ص ٨٩ .

وقد يثور هنا تساؤل مفاده : كيف يجمع بين قول الله تعالى :﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ ومعها قوله صلى الله عليه وسلم في المولود إذا سمى والداه ساعة اللقاء :﴿ لم يضره شيطان أبدا ﴾ وبين قوله صلى الله عليه وسلم كما روى ذلك الترمذي في سننه (د ـ ت) :﴿ كل ابن آدم خطاء ﴾ ج ٣ ص ٥٦٩ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٤٠٨هـ) ج ٢ ص ٥٠٣

والجواب : أن عباد الله الذين ذكروا في الآية قد يقعون في الخطأ ، كما ورد بذلك الحديث الذي لم يستثن أحدا ، ولكن لا يتسلط عليهم الشيطان تسلطا

كـاملا ، بل إنهم كـلما وقـعـوا في ذنب تابوا إلى ربهم ، وربما كـان لهم في بعض ماقد يـخطئون خير، وحـول هذا المعنى قال القرطبي في تفسيره (١٣٧٨هـ) :((أي أنه ليس له سلطان على قلوبهم ، ولا موضع إيمانهم ، ولا يلقيهم في ذنب يؤول إلى عـدم القبـول ، بل تزيله التوبة وتمحـوه الأوبة ... ويحتـمل أن يكون خـاصا فيمن حـفظه الله ، ويحتمل أن يكون في أكثر الأوقـات والأحوال ، وقد يكون في تسلطه تفريج كربة وإزالة غمة ، كما فـعل ببلال ، إذ أتاه يُهَدِّيه كما يُهَدِّي الصبي حتى نام ، ونام النبي وأصحـابه فلم يستيقظواحتى طلعت الشـمس وفزعوا وقالوا : ما كفـارة ما صنعنا بتفـريطنا في صلاتنا ؟ فقال لهم النبـي صلى الله عليه وسلـم : ﴿ ليس في النوم تفريط ﴾ ففرج عنهم)) ج ١٠ ص ٢٩ والحديث في مسلم شرح النووي ج ٥ ص ١٩١ .

٢ـ الأذان في أذن المولود اليـمنى ، وهذه إحدى التـدابيـر الوقائيـة التي تطرد الشيطان عن المولود ، وتـقيه شر وسـوسته وتضليـله ، والأصل في ذلك ما رواه أبو داود في سننه (١٤٠٩هـ) ((أن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم أذّن في أذن الحسن بن عـلي حين ولدته فاطمـة بالصلاة)) ج ٢ ص ٩٤٧ ، والحديـث حسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٤٠٩هـ) ج ٣ ص ٩٦١ .

وذكر البغـوي في شرح السنة (١٤١٢هـ) :((أن عمر بن عبد العـزيز رحمه الله كان يؤذن في اليمنى ، ويقيم في اليسرى إذا ولد الصبي)) ج ٦ ص ٦٠ .

إن من أعظم مـا يزلزل كيـان الشيطان سـماعـه للأذان ، فقـد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في صـحيح البخـاري (د ـ ت) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قـال : قـال رسـول الله صلى الـله عليـه وسلم :﴿ إذا نودي لـلصـلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التـأذين ، فإذا قضى النداء أقبل ، حتى إذا ثوِّب بالصلاة أدبر ، حتى إذا قضى التثويب أقبل ، حتى يخطر بين المرء ونفسه ، يقول :

اذكر كذا اذكر كـذا لما لم يكن يذكر ، حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى ﴾ ج ١ ص ١٥٨ .

وفي صحيح مسلم (د ـ ت) من حـديث جابر بن عبـد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ إن الشيطان إذا سمع النداء بالصلاة ذهب حتى يكون مكان الروحاء ﴾ قال سليمان : فـسألته عن الروحاء فقال : هي من المدينة ستة وثلاثين ميلا)) ج ٢ ص ٥.

يقول ابن حجر في الفتح باختصار العدوي (١٤١٤هـ) :((ظاهر الحديث أن الشيـطان يتعـمد إخراج ذلـك إما ليشـتغل بـسماع الصـوت الذي يخرجـه عن سماع المؤذن ، أو يصنع ذلـك استخفافـا كما يفعله السفـهاء ، ويحتمل ألا يتـعمد ذلك بل يحـصـل له عند سـمـاع الأذان شـدة وخـوف يحــدث له ذلك الصـوت بسببها، ويـحتمل أن يتعمد ذلك ليقابل مـا يناسب الصلاة بالطهارة من الحدث ، واستدل به على استحبـاب رفع الصوت بالأذان لأن قوله : حتى لا يسمع ، ظاهر في أنه يبعـد إلى غاية ينتـفي فيها سـماعه للـصوت ، وقد وقع بيـان الغاية في رواية مسلم حتى يكون مكان الروحاء)) ج ١ ص ٣٨١ .

إن الشيطان يرصد المولود قبل خروجه من بطن أمه ليطعن في خاصرته ، كما روى ذلك مسلم فـي صحيـحه (مع شرح النووي د ـ ت) من حـديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ ما من بني آدم مولـود إلا نخسـه الشيطـان حين يولد فيستـهل صارخا من نخسه إياه إلا مريم وابنها ﴾ ثم يقول أبو هريرة : اقـرأوا إن شئتم ﴿ وإني أعيـذها بك وذريتها من الشـيطان الرجيم ﴾ ج ٥١ ص ١٢٩ الآية في سورة آل عمران برقم ٣٦ .

ومن هنا فقد استبانت الحكمة من التأذيـن في أذن الطفل ساعة الولاده ، ألا وهي وقايته من الشيطان الذي يفر حين سماع الأذان أميالا .

يقول ابن القيم في تحفة المودود (١٤١٢هـ) وهو يكشف بعض أسرار التأذين في أذن المولود ما خلاصته :

١ ـ أن يكون أول مايقرع أذن الطفل كلمات الأذان المتضمنة كبرياء الله وعظمته .

٢ ـ وصول أثر التأذين إلى قلبه وتأثره به ، وإن لم يشعر .

٣ ـ هروب الشيطان من كلمات الأذان ، لأنه يسمع ما يضعفه ويغيظه أول أوقات تعلقه به .

٤ ـ أن تسبق دعوة الإسلام دعوة الشيطان ، كما سبقت فطرة الإنسان عليها ، تغيير الشيطان لها . ص ٣٩ .

وهنا وقفات تربوية مع كلمات الأذان وهي تقرع أذن المولود الذي جاء إلى الحياة الدنيا للتو ومنها :

أ ـ تربية الطفل على الشجاعة ، حين يزرع في قلبه لأول وهلة ، أنه لا عظيم ولا كبير في هذا الكون إلا الله ، وقاية له في كبره من الخور والاستكانة ، حين يبتلى أو تدلهم به المصائب .

ب ـ إعلان الانتصار على الشيطان ، حين يولي مهزوما في صورة قبيحة ، لا يتمالك معها نفسه وهو يسمع كلمات الأذان .

ج ـ تربية الطفل على التوحيد ، حين تقرع أذنه الشهادة بالتوحيد لله ، ولرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمتابعة .

د ـ تربية الطفل من صغره على أداء الصلاة ، التي نودي بها ، في الساعة الأولى من حياته .

هـ ـ تربية الطفل من صغره على أن الفلاح الحقيقي ، والفوز الأبدي ، هو الإيمان بالله تعالى ، والاستجابة لأمره .

و ـ في هذا نكتة لطيفة ، فإن الإنسان حين يولد فإن من السنة أن نؤذن في أذنه ، وإذا عاش هذا المولود وبلغ الستين أو السبعين من عمره ثم مات ، فإن من السنة أن نصلي عليه ، فها نحن أذَّنَّا في الولادة ، وأخرنا الصلاة إلى الوفاة ، والسر في ذلك ما قاله بعضهم :

أذان المرء حين الطفل يأتي ... وتأخير الصلاة إلى الممات

دليل أن محياه قليل ... كما بين الأذان إلى الصلاة

٣ـ التسمية : من التدابير الوقائية التي شرعها الإسلام للإنسان ، اختيار الاسم الحسن ، فإن الاسم ربما كان له تأثير في المسمى ، ولقد كان من هدي النبي صلى الله عليه وسلم ، حبه للأسماء الحسنة وتفاؤله بها ، وكان إذا سمع باسم يكرهه غيره بأحسن منه .

روى البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه رضي الله عنه ، أن أباه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :﴿ ما اسمك ؟ قال : حزن ، قال : أنت سهل ، قال : لا أغير اسما سمانيه أبي ، قال ابن المسيب : فما زالت الحزونة فينا بعد ﴾ ج ٨ ص ٥٣ .

وفي صحيح مسلم شرح النووي (د ـ ت) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ لا تسمين غلامك يسارا ولا رباحا ولا نجيحا ولا أفلح ، فإنك تقول أثمت هو ؟ فلا يكون ، فيقال : لا ﴾ ج١٤ص٣٦٥ ،

وفيه أيضا أنه صلى الله عليه وسلم غير اسم عاصية إلى جميلة ، وبرة إلى زينب)) ج ١٤ ص ٣٦٧ .

وفي سنن أبي دواد (١٤٠٩هـ) عن أسامة بن أخدري : أن رجلا يقال له أصرم ، كان في النفر الذين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : ((ما اسمك ؟ قال أصرم ، قال : بل أنت زرعه)) ج ٢ ص ٧٠٦ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٤٠٩هـ) ج٣ص٩٣٥ - ٩٣٦ .

وفي صحيح البخاري مع الفتح (د - ت) عن المسور بن مخرمة ومروان أنه لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي صلى الله عليه وسلم :﴿ قد سهل لكم م أمركم ﴾ ج ٥ ص ٣٣١ .

وفي هذا المعنى ذكر ابن القيم في زاد المعاد (١٤٠٧هـ) كلاما نفيسا أنقل منه ما خلاصته :

الأسماء قوالب للمعاني ، ودالة عليها ، والحكمة تقتضي أن يكون بين الأسماء والمسميات تناسب وارتباط ، فإن للأسماء تأثير في المسميات ، وللمسميات تأثر عن أسمائها في الحسن والقبح، والخفة والثقل ، واللطافة والكثافة ، كما قيل :

وقلما أبصرت عيناك ذا لقب إلا ومعناه إن فكرت في لقبه

ولكثرة ما في رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصفات المحمودة سمي ، محمدا وأحمد ، ولجهل الحكم بن هشام ، كني بأبي جهل ، ولهلاك أبي لهب وورده النار سمي بأبي لهب ، ولضعف من برز للقتال في يوم بدر من المشركين وهزيمتهم ، سموا بعتبة وشيبة والوليد ، وهي أسماء تدل على الضعف ، فالوليد له بداية الضعف ، وشيبة له نهاية الضعف ، وعتبة من العتب ، فدلت أسماؤهم على عتب يحل بهم وضعف ينالهم ٠ ج ٢ ص ٣٣٦ وما بعدها ٠

يقول بدير في منهج السنة النبوية في تربية الإنسان (١٤١٣هـ) :

((فإذا ما أحسن الآباء والأمهات السير في ضوء السنة المطهرة في تسمية أولادهم الأسماء الحسنة، وتجنب الأسماء التي تحط من أقدارهم، وتمس بكرامتهم،

وتكدر صفو حياتهم ، وتحطم معنوياتهم ، كان لذلك الأثر الطيب ، فالطفل الذي يستهزأ به من قبل سائر الأطفال لاسمه المستهجن ، أو لانتسابه إلى عشيرة ذات اسم قبيح ، يخسر نشاطه ويسير دوما إلى اضمحلال وانهيار ، فهو يتجنب الألعاب الجماعية للأطفال ، ويخشى من معاشرتهم ، وقد يورثه هذا أحقادا وضغائن وعقدا نفسية وعزلة وانطوائية لا تحمد عقباها)) ج ١ ص ٤٧ - ٤٨ .

وقصارى القول ، فإن الأسرة مطالبة بحسن اختيار الاسم الذي يدل على معنى حسن ، وقاية للطفل من أن تلحقه حالات نفسية سيئة ، وهو يدعى باسمه القبيح الذي تسمى به من صغره ، أو لربما كان الاسم سببا في السخرية منه وتنقصه ، أو لربما كان لذاك الاسم أثرا في سلوكه وأخلاقه ، وحسن اختيار الاسم من التدابير الوقائية التي يمكن استنباطها من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعامله مع الأسماء والكنى كما سبق .

٤- العقيقة ، وهي ما يذبح عن المولود يوم سابعه ، والمولود مرتهن خيره بعقيقته ، فقد روى النسائي في سننه (١٤٠٧هـ) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :﴿ كل غلام رهين بعقيقته تذبح عنه يوم السابع ويحلق رأسه ويسمى ﴾ ج ٧ ص ١٦٦ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن النسائي (١٤٠٩هـ) ج ٣ ص ٨٨٥ .

يقول ابن القيم في زاد المعاد (١٤٠٧هـ) :((ظاهر الحديث أنه رهينة في نفسه ، ممنوع محبوس من خير يراد به ... وقد يفوت الولد خير بسبب تفريط الأبوين ... وهذا يدل على أنها لازمة لا بد منها ، فشبه لزومها وعدم انفكاك المولود عنها بالرهن)) ج٢ص٣٢٦ .

ومن هنا كان من السنة على المقتدر أن يعق عن ولده لئلا يحبس خيره ، أو بعض خيره ، وهذه من التدابير الوقائية التي يتخذها الإسلام في حفظ الأولاد ، حرصا منه على تنشئتهم على الخير .

٥ـ صلاح الوالـدين ، وهي من أعظم التدابيـر الوقائيـة ، التي بها يحـفظ الله الأولاد ، ولهذا قص الله سبحانه علينا قصة نبي الله الخضر عليه السلام ، حين لقي موسـى بن عمران ، وطـلب منه موسى أن يتبعـه على أن يتعلم منه ، والشـاهد من القـصة أن الخـضـر عليـه الله السلام أقـام جـدار الغـلامين ، فلما سـأله مـوسى عن السبب، قـال كما حكى الله ذلك في كـتابه الكريم :﴿ وأما الجـدار فكان لغلامين يتـيمين في المدينة وكـان تحتـه كنز لهمـا وكان أبوهمـا صالحـا فأراد ربك أن يبلـغا أشدهما ويستـخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فـعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا ﴾ سورة الكهف آية٨٢ .

يقول القرطبي في تفـسيره (١٣٨٧هـ) :((وفيه مـا يدل على أن الله تعالى يحفظ الصالح في نفسه وفي ولده وإن بعدوا عنه)) ج١١ص٣٨ ـ ٣٩ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١٤٠٦هـ) :((فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته وتشـمل بركة عبادته لهم في الدنيـا والآخرة بشفاعتـه لهم فيهم ، ورفع درجـتهم إلى أعلـى درجة في الجنة ، لتـقـر عينه بهم ، كـمـا جاء في القـرآن ووردت به السنة ، قال سـعيد بن جبير عن ابن عبـاس : حفظا بصلاح أبيهـما ولم يذكر لهما صلاحا ، وتقدم أنه كان الأب السابع ، فالله أعلم)) ج ٣ ص ١٦١ .

إن القرآن الكريم والسـنة النبوية المطهرة يوليـان صلاح الآباء عناية فـائقة ، لما لهذا الصلاح من أثر على الأولاد في الدنيا والآخرة ٠

وحين أدرك السلف الصـالح رضوان الله تعـالى عليهم أثر هذا الصـلاح على الأولاد ، تسابقوا في فعل الخير ، بل ورد عن بعضهـم أن كان يتذكر ولده فيزيد في عبادته لله تعالى ٠

ذكر ابن عابدين في حاشيتـه (١٤٠٧هـ) أن سهل التستري كـان يقــول : ((إني لأعهد الميثـاق الذي أخذه الله علي في عالم الذر ، وإني لأرعى أولادي من هذا الوقت إلى أن أخرجهم الله تعالى إلى عالم الشهود والظهور)) ج ١ ص ٥٣ .

سبحان الله ! إنها بداية مبكرة جدا في تربية الأولاد ، عن طريق إقبال الآباء على الإيمان والعمل الصالح ، رعاية لأولادهم وهم في عالم الذر ، واستعدادا لتربيتهم بالقدوة حين تتفتح عيونهم على والديهم وهم يعملون الصالحات ، فيقتدون بهم ، وهنا يكون الأولاد زينة لآبائهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

٦- تربية الأولاد وتعليمهم ، وهذه إحدى سبل الوقاية التي تقي الأولاد من الانحراف ، فإن التربية في الصغر من الأهمية بمكان ، ذلك أن الطفل في يد أبويه كالعجينة يشكلانها كيفما يريدان ، فإذا نشأ من صغره في جو مفعم بالإيمان والعمل الصالح نشأ عليه وألفه ، وإذا لم يكن كذلك وعاش في جو مشحون بالمعاصي والسيئات والآثام والمخالفات ، ربما أصبح الحق على نفسه ثقيلا ، بل ربما أنكره وجادل فيه .

روى البخاري في صحيحه (د - ت) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ، كما تنتجون البهيمة ، هل تجدون فيها من جدعاء ، حتى تكونوا أنتم تجدعونها ، قالوا يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير ؟ قال : الله أعلم بما كانوا عاملين ﴾ ج ٨ ص ١٥٣ .

إن الحديث يشير إلى فطرة صافية يولد عليها الطفل ، لم تلوثها البيئات المنحرفه ، ولا الأفهام الضالة ، يخرج بها الطفل من بطن أمة صافية نقية ، تقر بحدانية الله ، وتدين له بالعبودية ، ولكن حين يهبط الطفل من بطن أمة في بيئة منحرفة ، فإنه يصطبغ بصبغتها ، ويتلون بلونها ، وينتهج منهجها ، ما لم يتداركه الله بعنايته .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين أن الذي يشوه فطرة المولود هم أبواه حين يكونان منحرفين عن الحق ، وبقدر ما ينحرف الأب عن الحق في عقيدته أو عبادته أو أخلاقه بقدر ما ينحرف الطفل الذي يعيش في هذه البيئة .

على أن الأبوين ليس شرطا أن يكونا الأب والأم فقط ، فقد تكون البيئة بكل تناقضاتها ، أو المجتمع بكل وسائله وعاداته ، أو الصحبة ، أو المربية ، أو الخادمة ، أو ما إلى ذلك ، فإن الإنسان قد يموت أبوه وهو في بطن أمه ، ثم يخرج من بطن أمه فتموت بعد ولادته مباشرة ، وهنا تستقبله البيئة الملوثة في معتقداتها وأفكارها وأخلاقها ، فتورده موارد الهلاك .

يقول سويد في كتابه منهج التربية النبوية للطفل (١٤١٢هـ) :((وإن أخصب مجال للبناء التربوي مرحلة الطفولة ، التي هي أطول فترة من بين الكائنات الحية ، وتتميز الطفولة البشرية كذلك بالمرونة والصفاء والفطرية ، وهي تستمر زمنا طويلا يستطيع المربي خلال هذه الفترة الطويلة أن يغرس في نفس الطفل ما يريد ، وأن يوجهه حسبما يرسم له من خطة ، ويتعرف إلى إمكانياته ، ويتنبأ بمستقبله قدر المستطاع ، وكلما تدعم بناء الطفولة بالرعاية والإشراف والتوجيه ، كلما كانت أثبت وأرسخ أمام الهزات المستقبلية التي ستعترض الطفل في مستقبل شبابه)) ص ٧٩ .

ومن هنا يمكن للباحث أن يذكر بإيجاز بعض التدابير الوقائية التي اتخذها الإسلام لتربية الأولاد تربية سليمة مستقيمة ، بعد تصنيفها إلى ثلاث جوانب : جانب العقيدة ، وجانب العبادة ، وجانب الأخلاق .

أولا : التدابير الوقائية التي تخص جانب العقيدة :

لقد وضع القرآن الكريم منهجا للآباء في تربية أبنائهم ، وضرب لذلك بمثال للأب الصالح ، والمربي الناصح ، لقمان الحكيم الذي كان قدوة لكل أب في تربية أولاده .

يقول الله تعالى وهو يقص خبر هذا العبد الصالح :﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم * ووصينا الإنسان بوالديه

حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون * يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير * يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور * ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختار فخور * واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ سورة لقمان آية ١٣ ـ ١٩ .

وبنظرة تأملية في هذه الوصايا يلاحظ أنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام وصيتان في جانب العقيدة ، وخمس وصايا في جانب العبادة ، وأربع وصايا في جانب الأخلاق .

وما من شك أن جماع الخير كله يكون في صلاح العقيدة ، وقوة العبادة ، واستقامة الأخلاق ، فإذا حقق العبد لنفسه هذه الجوانب الهامة في حياته فإنه يعيش عيشة الكرماء ، ويموت يوم يموت ميتة السعداء ، لا يضره ما يفوته من الدنيا حين يجمع لنفسه هذه الخصال الثلاث ، ولا تنفعه الدنيا بحذافيرها ـ إن حيزت له ـ حين يفقد هذه الخصال .

فأما وصايا العقيدة فأولها : الدعوة إلى تنقية القلب من الشرك بالله :﴿ يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ سورة لقمان آية ١٣ .

وثانيها : تثبيت العقيدة في الفؤاد عن طريق زرع مراقبة الله واطلاعه : ﴿ يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾ سورة لقمان آية ١٦ .

وأما الوصايا التي تخص جانب العبادة ، فأولها : الدعوة إلى بر الوالدين ﴿ أن اشكر لي ولوالديك ﴾ سورة لقمان آية ١٤ .

بل ومصاحبتهما في الدنيا بالمعروف حتى وإن كانا مشركين ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا ﴾ سورة لقمان آية ١٥ .

وثانيها : الدعوة إلى إقام الصلاة ﴿ يا بني أقم الصلاة ﴾ سورة لقمان آية ١٧ .

وثالثها : الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ﴾ سورة لقمان آية ١٧ .

ورابعها : الصبر على الأذى المترتب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله ﴿ واصبر على ما أصابك ﴾ سورة لقمان آية ١٧ .

وخامسها : اتباع سبيل المنيبين إلى الله تعالى . ﴿ واتبع سبيل من أناب إلي ﴾ سورة لقمان آية ١٥ .

وأما الوصايا التي تتعلق بالأخلاق ، فأولها : النهي عن تصعير الخد للناس ﴿ ولا تصعر خدك للناس ﴾ سورة لقمان آية ١٨ .

وثانيها : النهي عن الكبر والبطر ﴿ ولا تمش في الأرض مرحا ﴾ سورة لقمان آية ١٨ .

وثالثها : الأمر بالقصد في المشي ﴿ واقصد في مشيك ﴾ سورة لقمان آية ١٩ .

ورابعها : النهي عن رفع الصوت رفعا منكرا لغير حاجة ﴿ واغضض من صوتك ﴾ سورة لقمان آية ١٩ .

إن اهتمام الوالدين بتربية الأطفال يبدأ بالعقيدة وذلك لأن قلوبهم في مرحلة الصغر ما تزال صافية نقية ، تقبل الحق مباشرة من غير دليل ولا برهان ، وفي هذا المعنى يقول الغزالي في الإحياء (١٤١٤هـ) :((اعلم أن ما ذكرنا في ترجمة العقيدة ينبغي أن يقدم إلى الصبي في أول نشوئه ليحفظه حفظا ، ثم لا يزال ينكشف له معناه شيئا فشيئا ، فابتداؤه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق به ، وذلك مما يحصل في الصبي بغير برهان ، فمن فضل الله سبحانه على قلب الإنسان أن شرحه من أول نشوئه للإيمان من غير حاج إلى حجة أو برهان)) ج ١ ص ١٢٣ .

ومن جملة هذه القضايا العقدية التي يربى عليها الأطفال ، تعويدهم ـ حين تتفتق ألسنتهم بالنطق ـ على لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وفي هذا المعنى يقول ابن القيم في تحفة المودود (١٤١٢هـ) :((فإذا كان وقت نطقهم فليلقنوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وليكن أول ما يقرع مسامعهم معرفة الله سبحانه وتوحيده ، وأنه سبحانه فوق عرشه ينظر إليهم ويسمع كلامهم ، وهو معهم أينما كانوا)) ص ٢٥٨ .

على أن يظل تعليم العقيدة وزرعها في نفوس الأطفال مستمرا لا يتوقف ، ولا يُحْتَجُّ لذلك بأن الأطفال ربما لا يعقلون ذلك أو لا يدركونه ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدث في قضايا العقيدة مع عبد الله بن عباس رضي الله عنه وهو غلام صغير ، فقد روى الترمذي في سننه (د – ت) من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال : كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوما فقال : ﴿ يا غلام إني أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن

يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف ﴾ ج ٤ ص ٥٧٦ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٤٠٨هـ) ج ٢ ص ٣٠٩ .

ولقد استفاد السلف الصالح رضوان الله عليهم من تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس أمور العقيدة ، فكانوا يربون أطفالهم على ذلك ، زارعين في قلوبهم مخافة الله تعالى ، باطلاعه على أحوال عباده ، بل كانت هذه إحدى مهماتهم في كل وقت وحين ، وكلما وجدوا فرصة للتربية والتوجيه ، بادروا إليها ، سواء كان ذلك مع أطفالهم أو مع أطفال غيرهم ، فالهدف واحد .

ذكر الذهبي في السير (١٤٠٥هـ) عن عبد الله بن دينار قال : ((خرجت مع ابن عمر إلى مكة ، فعرَّسنا ، فانحدر علينا راع من جبل ، فقال له ابن عمر : أراع ؟ قال : نعم ، قال : بعني شاة من الغنم ، قال : إني مملوك ، قال : قل لسيدك أكلها الذئب ، قال : فأين الله عز وجل ؟ قال ابن عمر : فأين الله !! ثم بكى ، ثم اشتراه بعد فأعتقه ، وفي رواية أنه اعتقه واشترى له الغنم)) ج ٣ ص ٢١٦ .

ثانيا : التدابير الوقائية التي تخص جانب العبادة :

ثم يعقب تربية الأطفال على العقيدة تربيتهم على العبادة من الصغر ، حتى لا يستثقلوها عند الكبر ، كتعويدهم على الصلاة ، والصيام ، وقراءة القرآن وغير ذلك .

ففي تعويدهم على الصلاة روى أبو داود في سننه (١٤٠٩هـ) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرقوا بينهم في المضاجع ﴾ ج ١ ص ١٨٧ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٤٠٩هـ) ج ١ ص ٩٧ .

إن الإسلام يجعل الأمر بالصلاة في مرحلة الطفولة لمدة ثلاث سنوات ، السابعة والثامنة والتاسعة ، وحين نمعن النظر في هذه السنوات ونحسب كم يمر فيها من صلاة ، نجد أن هذه السنوات تشتمل على ما يقارب من (٥٤٠٠) خمسة آلاف وأربعمائة صلاة ، بمعنى أن من حسن التربية أن يسمع الطفل من أبيه أو من أمه خلال ثلاث سنوات ، خمسة ألاف وأربعمائة صوت يدعوه إلى الصلاة ، استعدادا لمرحلة التمييز التي يضرب فيها الطفل حين يقصر في هذه العبادة العظيمة ، والضرب في هذه المرحلة إنما هو وقاية للطفل كي يحافظ عليها عند مرحلة البلوغ وما بعدها .

إن في أمر الطفل بالصلاة وهو في السابعة ، وقاية له من استثقالها وهو في مرحلة التمييز ، وما ضربه في العاشرة حين يخل بها إلا وقاية له من تركها أو التهاون بها حين يطرق أبواب التكليف .

على أن السلف رضوان الله عليهم لم يقف بهم الأمر عند مجرد الأمر بالصلاة فحسب أو الضرب عليها حين يحصل التقصير ، بل كانوا يربون الأطفال والصبيان على حسن أدائها والعناية بها ، بل ويعلمونهم كيف يرصون الصفوف ، وماذا يفعلون في الصلاة ، فقد روى ابن أبي الدنيا في كتابه العيال (١٤١٠هـ) أن زياد بن كثير كان يصف الصبيان للصلاة ، ويقول : استووا ، اعتدلوا ، سووا مناكبكم وأقدامكم ، اتكِ على رجلك اليسرى ، وانصب اليمنى ، وضع يديك على ركبتيك ، ولا تسلم حتى يسلم الإمام من الجانبين)) ج ١ ص ٤٨٦ .

وقل مثل ذلك في جانب الصيام ، فلقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يصومون أطفالهم ، ويعطونهم اللعب تشغلهم كي يتموا صيامهم ، وما ذلك ألا حرصا منهم على تعويد الأطفال على هذه العبادة العظيمة ، لتسهل عليهم حين يصلون سن التكليف .

إن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا يتعللون برحمة الأطفال من الصيام الذي يشق عليهم ، أو يتعب أبدانهم ، ذلك أن صعوبة الصيام على الأطفال في سن التكليف أشق من صعوبته عليهم وهم دون ذلك .

روى البخاري في صحيحه مع الفتح (د ـ ت) من حديث الربيع بنت معوذ رضي الله عنها قالت : ((أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار التي حول المدينة من أصبح مفطرا فليتم بقية يومه ، ومن أصبح صائما فليصم ، قالت فكنا نصومه بعد ، ونصوم صبياننا ، ونجعل لهم اللعبة من العهن ، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك حتى يكون عند الإفطار)) ج ٤ ص ٢٠٠ .

أما تعليم القرآن الكريم وتربية الناشئة على أخلاقه فقد أخذ من حياة السلف جزأ كبيرا ، لكونهم يعتقدون أن ذلك من حقوق الأولاد التي يجب أن تؤدى ، فقد ذكر ابن أبي الدنيا في كتابه العيال (١٤١٠هـ) أن سعيد بن العاص كان يقول :((إذا علمت ولدي القرآن وأحججته وزوجته فقد قضيت حقه ، وبقي حقي عليه)) ج ١ ص ٤٨٠ .

وروى البخاري في صحيحه مع الفتح (د ـ ت) أن عبد الله بن عباس كان يقول :((توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابن عشر سنين وقد قرأت المحكم)) ج ٩ ص ٨٣ .

على أن هذا التلقين كان يسبقه التربية على الإيمان بالله تعالى ، وتعظيم أمره ونهيه ، ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم وتعظيم أمره ونهيه ، فقد روى ابن ماجة في سننه (د – ت) عن جندب بن عبدالله رضي الله عنه قال :((كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ونحن فتيان حزاورة ، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانا)) ج ١ ص٢٣، والحدث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٤٠٨هـ) ج١ص ١٦ .

وقد ذكر السندي في شرح سنن ابن ماجة (د ـ ت) في معنى الحزاورة قوله :
((جمع الحزور بفتح الحاء المهملة وسكون زاي معجمة وفتح واو ثم راء ، ويقال له الحزوَّر بتشديد الواو وهو الغلام إذا اشتد وقوي)) ج ١ ص٣١ .

يقول ابن خلدون في مقدمته (١٤١٤هـ) :

((فالمقدم في التعليم هو الإيمان ، ثم دراسة القرآن الكريم وحفظه ، لأن الولد ما دام في الحجر ينقاد للحكم ، فإذا تجاوز البلوغ صعب جبره ... إن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين ، أخذ به الملة ، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده ، من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث ، وصار القرآن الكريم أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات ، وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخا وهو أصل لما بعده ، لأن السابق الأول للقلوب أساس للملكات ، وعلى حساب الأساس وأساليبه يكون حال ما يبنى عليه)) ج ٢ ص ٢٣٨ .

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى (١٤٠٣هـ) :((أيما طلب القرآن أو العلم أفضل ؟ فأجاب : أما العلم الذي يجب على الإنسان عينا كعلم ماأمر الله به وما نهى عنه ، فهو مقدم على حفظ ما لا يجب من القرآن ، فإن طلب العلم الأول واجب ، وطلب الثاني مستحب ، والواجب مقدم على المستحب)) ج ٢٣ص٥٤ .

إذن فالمراد بتعلم الإيمان الذي ذكره ابن خلدون في مقدمته ، هو العلم الذي ذكره ابن تيمية في فتاويه ، وهو العلم بالحلال والحرام ، وما أمر وما نهى ، على أن لا يكون علما مجردا ، إنما علم يقصد منه التطبيق والامتثال ، وهكذا كان السلف رضوان الله عليهم في تعاملهم مع أولادهم ، يربونهم على الإيمان بالله وطلب العلم لنيل مرضاته ، فنشأوا حملة نور ، ومشاعل هداية ، ونقلوا لنا هذا الخير الذي

ورثوه كابرا عن كـابر ، فنفع الله به الناس ، ومـا يزال هذا الغيث تهـمي على الأمة بركاته إلى يوم الدين .

ذكر ابن أبي الدنيا في كتابه العيال (١٤١٠هـ) أن قوما مروا على الأعمش وحوله فتيـان ، فقالوا : انظروا إلـى الأعمش قد جمـع حوله الصبيان ! فقـال : ((ردوهم ، إن هؤلاء يحفظون عليكم دينكم)) ج ٢ ص ٨٠٣ .

إن من أكبر المهمـات التي تواجه الإنسان في الحياة ، ومن أصعبهـا وأشقها ، مـهـمـة تربيـة الأولاد ، ولكن الإنسـان حين ينظر إلى ثـمـرتهـا في صـلاح أولاده واستقامتهم على أمر الله ، يسهل في نظره كل ما يقدم لهم ، ويهون في نفسه كل تعب وعناء وجده من أجلهم .

لقد استـشعر الصحابة رضوان الله عليـهم تكليف الله لهم برعاية أولادهم ، وتأديبـهم في قوله تعـالى :﴿ يا أيها الذين آمنوا قـوا أنفسكم وأهليكم نـارا وقودها الناس والحجارة ﴾ سورة التحريم آية ٦ .

فتسـابقوا إلى تربية أولادهم على الإيمان بالله ، وعلموهم كـيف يخافون من الله تعـالى ، وفقـهوهم فـي الصلاة ، وعلمـوهم محبة رسـول الله صلى الله عليـه وسلم، وقاموا بتنشئتهم على الأخلاق الحميدة ، والسلوك القويم .

وقـد ذكر ابن عـبـدالبر فـي جامع بيـان العلم وفـضله (بتـصحـيح الزهيـري ١٤١٦هـ) أن عـروة بن الزبير كـان يقول لبنيـه :((يا بني أنا أزهد الناس في عـالم أهله ، فهلمـوا إلي فتعلمـوا مني ، فإنكم توشكون أن تكونوا كبـار قوم ، إني كنت صغيرا لا ينظر إلي ، فلمـا أدركت من السن ما أدركت ، جعل النـاس يسألونني ، وما شيء أشد على امرىء من أن يسأل عن شيء من أمر دينه فيجهله)) ص ٨٦ .

ثالثا : التدابير الوقائية التي تخص جانب الخلق :

أما فيما يخص الأخلاق والسلوك فلقـد كان السلف الصالح يربون صبيانهم على مكارم الأخلاق ، ومـحاسن الأقوال والأفـعال ، لأنهم يعتقـدون أن هذا جزء من التكليف الذي كلفهم الله به .

وهذه بعض الأمثلة في ذلك :

* التحذير من الكذب : روى أبو داود في سننه (١٤٠٩هـ) عن عبد الله بن عامر رضي الله عنه قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتنا وأنا صبي ، قال : فذهبت أخرج لألعب ، فقالت أمي : يا عبد الله تعال أعطك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما أردت أن تعطيه ؟ قلت : أعطيه تمرا ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ أما إنك لو لم تعطه شيئا كتبت عليك كذبة ﴾ ج ٢ ص ٩٤٢ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٤٠٩هـ) ج ٣ ص ٩٤٢ .

قال العظيم آبادي في عون المعبود (١٣٩٩هـ) :((وفي الحديث أن ما يتفوه به الناس للأطفال عند البكاء مثلا بكلمات هزلا أو كذبا بإعطاء شيء ، أو بتخويف من شيء ، حرام داخل في الكذب)) ج ١٣ ص ٣٣٥ .

إن هذا الحديث صورة من صور الوقاية لخلق الأطفال ، ذلك أن الطفل يولد بصفحة بيضاء نقية ، ليس فيها ما يدنسها من المخالفات والآثام ، ومن ذلك الكذب ، فإن الطفل لا يتصور الكذب ولا تستسيغه نفسه البريئة ، وفي الحديث السابق يبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها لو لم تعطه شيئا ـ حين نادته ـ لسجلت عليها كذبه .

هب أن الطفل أقبل إلى أمه يجري ظنا منه أن أمه تخبيء له في يدها شيئا ، ثم فتحت يدها له فلم يجد فيها شيئا ، ترى أي شيء سيرتسم في ذهنه ؟ وأي خلق سينشأ عليه ؟ وهل سيصدق أمه فيما بعد حين تناديه مرة ثانية لتعطيه شيئا ؟ وكيف ينظر هذا الطفل للمجتمع العائلي من حوله ؟ .

لا شك أن أثر هذه الصورة في ذهنه سيبقى سيئا ، وما هي إلا كذبه واحدة من أمه أو أبيه تقلب كل المعايير الصحيحة الصادقة في ذهنه .

ومن هنا كان على الوالدين ومن في مقامهما ، أن يتقوا الله في هذا الجانب، فإن من الكذب أن يَعِدَ أحدهم الطفل بشيء ثم لا ينفذه ، بل وحتى لو كانت عقوبة تُوُعِّد عليها الطفل لذنب ارتكبه ، فلا بد من تنفيذه ، كما أن من الخطورة بمكان أن يعتذر الأب عن مقابلة أحد ، بحجة أنه غير موجود في المنزل وهو في المنزل ، بل قد تبلغ الجرأة بالوالد أن يكلف الولد بالاعتذار الكاذب عن أبيه ، وهذه صورة فظيعة من صور الكذب التي يراها الأطفال في آبائهم أو أمهاتهم ، فينشأون عليها ، ليكون الكذب خصلة ذميمة تلازمهم عند كل مسألة أو حدث أو قضية .

ذكر ابن أبي الدنيا في كتابه العيال (١٤١٠هـ) أن إسماعيل بن عبيدالله وهو مؤدب أولاد عبد الملك بن مروان كان يقول :((أمرني عبد الملك بن مروان أن أجنب بنيه السمن ، وألا أطعمهم طعاما حتى يخرجوا إلى البراز ، وأن أجنبهم الكذب وإن كان فيه بعض القتل)) ج ١ ص ٥١١ .

إنها القدوة الصالة في الآباء الذين يحبون أن يروا في أبنائهم أخلاق الإسلام وتوجيهاته .

يقول محمد قطب في منهج التربية الإسلامية (١٤٠٩هـ) :((وحين توجد القدوة الحسنة متمثلة في الأب المسلم والأم ذات الدين ، فإن كثيرا من الجهد الذي يبذل في تنشئة الطفل على الإسلام يكون جهدا ميسورا وقريب الثمرة في ذات الوقت ، لأن الطفل سيتشرب القيم الإسلامية من الجو المحيط به تشربا تلقائيا ، وستكون تصرفات الأم والأب أمامه في مختلف المواقف مع بعضها البعض ، ومع الآخرين نماذج يحتذى بها ، ويتصرف على منوالها)) ج ٢ ص ١١٩ .

إن المسلم يمكن أن يتصف ببعض الأوصاف الذميمة ، لأن القصور من طبيعة النفس البشرية ، إذ الكمال المطلق لله رب العالمين ، فمن الممكن أن يكون المسلم جبانا ، ومن الممكن أن يكون المسلم بخيلا ، ولكن من المستحيل - في غير الواقع - أن يكون المسلم كذابا.

فليس من الغريب أن يطلب الولد من أبية أو من أمه شيئا يريده فيقول : لا ، لبخل تأصل في نفسه ، وشح نشأ عليه ، ولكن من الغريب العجيب أن يسأل الطفل أباه المسلم عن قضية فيكذب عليه فيها ، أو يعده أبوه بأمر ثم لا يوف معه ما وعده ، إن من الغريب المؤسف أن يلبس الأب المسلم القدوة الكامل - في نظر أولاده وأهل بيته - لباس الكذب ، ويتسربل بسرباله ، فينتقش في أذهان الصغار صورة هذا الأب الكذاب أو صورة هذه الأم الكذابة ، عندها تدمر قيمة الصدق في نفوسهم البريئة ، وتدنس هذه الصفحة البيضاء النقية بنكت الكذب السوداء ، فإذا ما ولج الأطفال باب الكذب ، لربما ولجوا على أثره كل أبواب السوء والعياذ بالله .

إن الكذب خصلة قبيحة مذمومة ، يترفع المسلم عنها في كل أموره ، وخاصة مع أولاده وقاية لهم من أن يتشربوا هذا السلوك ، ويتشبعوا بهذا الخلق الممقوت ، فلا يزال بعضهم يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا ، ولا يزال الناس يفقدون الثقة فيهم ، ويتجنبون التعامل معهم حتى في الأمور الحياتية ، وقد يستمر ذلك الخلق السيء يلازمهم حتى في الكبر ، الأمر الذي يؤذن بخراب للأفراد والأسر والمجتمعات ، وكم جر الكذب من الويلات والكوارث ماتزلزلت به القلوب ، وأبيدت به العروش ، وخُربت به الديار .

* الأمر بالاستئذان : قال الله تعالى :﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم * وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم ﴾ سورة النور ٥٨ - ٥٩ .

هذا هو منهج الإسلام في تربية الأسر على الفضائل والمكرمات ، يلاحق الأسرة داخل أروقتها بالتوجيه والتعليم والتربية ، حتى في أدق جزئيات الآداب داخل البيت المسلم ، يأمر الإسلام ملك اليمين ، ويأمر الأطفال الصغار الذين لم يناهزوا الحلم ، بالاستئذان عند إرادة الدخول على الوالدين ، أو غيرهم من أفراد العائلة ، وخاصة في ثلاثة أوقات ، حددتها الآية الكريمة ، هي زمن وضع اللباس والاستعداد للراحة التي ربما كان الإنسان في حالة لا يريد أن يراه أحد عليها حتى أطفاله ، وهي من قبل صلاة الفجر ، وعند الظهيرة ، وبعد صلاة العشاء ٠

يقول ابن حجر في الفتح (د ـ ت) :((وقد أطبق الجمهور على أن المراد بالمرات الثلاث : الأوقات)) ج ١١ ص ٣١ .

فإذا تربى الطفل الصغير الذي لم يبلغ الحلم فترة من عمره على الاستئذان في هذه الثلاثة الأوقات ، كانت له بمثابة التدريب على الاستئذان عند الحلم ، فإذا بلغ الحلم وجب عليه الاستئذان في كل وقت عند إرادة الدخول ٠

يقول القاسمي في محاسن التأويل (١٣٨٩هـ) :((ومعنى الآية أن الأطفال مأذون لهم في الدخول من غير إذن ، إلا في العورات الثلاث ، فإذا اعتاد الأطفال ذلك ، ثم خرجوا عن حد الطفولة بأن يحتلموا ، أو يبلغوا السن التي يحكم عليهم بالبلوغ وجب أن يفطموا عن تلك العادة ، ويحملوا على أن يستأذنوا في جميع الأوقات ، كما يستأذن الرجال الكبار ، الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن)) ج ١٢ ص ٢٣٢ .

يقول ابن حجر في الفتح (د ـ ت) ماخلاصته : كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا بلغ بعض ولده الحلم لم يدخل عليه إلا بإذن ٠ وجاء رجل إلى ابن مسعود فقال : أستأذن على أمي ؟ فقال : ما على كل أحيانها تريد أن تراها ٠ وسأل رجل حذيفة ، أستأذن على أمي ؟ قال : إن لم تستأذن رأيت ما تكره ٠

ودخل موسى بن طلحة مع أبيه على أمه ، قال : فدفع في صدري ، وقال : تدخل بغير إذن ؟ . وقال عطاء سألت ابن عباس استأذن على أختي ؟ قال : نعم ، قلت : إنها في حجري ، قال : أتحب أن تراها عريانة ؟ قال ابن حجر وأسانيد هذه الآثار كلها صحيحه . ج ١١ ص ٢٥ .

إن في استئذان الكبار ، والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم تعويد لهم على الإستذان في حال الكبر ، وفي قاية من أن تقع العيون على عورة مستورة ، وخاصة مع الأهل من أم أو أب أو أخ أو أخت أو ما إلى ذلك ، فتكون آثارها سيئة على النفس والخلق والدين .

* التفريق بينهم في المضاجع : وهذه إحدى التدابير الوقائية التي شرعها الإسلام في تربية الأولاد ، والأصل في ذلك ما رواه أبو داود في سننه (١٤٠٩هـ (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :﴿ مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرقوا بينهم في المضاجع ﴾ سبق تخريجه ص ٢٢٧ .

إن من أعظم أساليب الوقاية التي نبه عليها الشارع الحكيم هذه القضية ، ألا وهي قضية التفريق بين الأولاد عند النوم ، سواء كانوا ذكورا أو أناثا أو ذكورا وإناثا وهو الأشد ، وذلك لأن النوم مظنة الغفلة وانكشاف العورة ، وقد يدخل الشيطان إلى النفوس من هذا الباب الخطير ، باب الغريزة فيقع مالا يحمد عقباه .

يقول المناوي في فتح القدير شرح الجامع الصغير (د ـ ت) :((أي فرقوا بين أولادكم في مضاجعهم التي ينامون فيها إذا بلغوا عشرا ، حذرا من غوائل الشهوة وإن كن أخواته . قال الطيبي : جمع بين الأمر بالصلاة والفرق بينهم في المضاجع تأديبا لهم ومحافظة لأمر الله كله ، وتعليما لهم ، والمعاشرة بين الخلق ، وأن لا يقفوا مواقف التهم فيجتنبوا المحارم)) ج ٥ ص ٥٢١ .

* التأديب :هذه من أهم الجوانب في تربيـة الأولاد ، والتأديب يتخذ طريقين اثنين بينهما تلازم كبير ، لا يمكن أن يتحقق الهدف التربوي إلا في ظلهما ٠

الطريق الأول : طريق التشـجيع والمكافأة على قول جـميل أو فعل حـميد أو سلوك قويم أو خلق كـريم ، وهو آكد للأطفال قبل سن العاشـرة ، إذ لم تحدد السنة النبـوية استـخـدام العصـا عـمليا إلا عنـد العاشـرة ، حين يضـرب الطفل على ترك الصلاة أو التهاون بها ٠

الطريق الثـاني : التـأديب بالعبـارات التي تحـمـل العتـاب وعـدم الرضى ، أو الحرمـان مما يحب الطفل ويتمـنى ، حين يظهر في كـلام الطفل أو فعله سلوك غـير سوي ، فإن لم يجد هذا ولا ذاك فالضرب الخفيف ، ولكن بعد سن العاشرة ٠

إن التأديب حين يطلق فإنه لا يـحمل بادىء ذي بدء على الضرب ، ذلك أن الذي يتـصـور أن التـأديب لا يكون إلا بـالضـرب ، لا يعـرف الفـروق الفـردية بين الناس، إذ ليس كل أحد يصلح له الضرب ، فكم من إنسان كـان الضرب سببا في انحرافه ، أو على أقل تقدير سببا في إصابته بالعقد النفسية ، والأمـراض العصبية ، أو لربما كان الضرب سببا في كـبت قدراته وإمكانياته ، أو لربما تسبب الضرب في أن يفقد الطفل على أثر ذلك الإحساس ، وقد قيل كثرة المساس تبطل الإحساس ٠

وليس معنى ذلك أن التأديب بالضرب غيـر وارد في العملية التربوية ، بل هو جـزء لا يتـجـزأ منهـا ولا غنى للأب عنـه في تربيـة أولاده ، ولا غنى للمـعلم في المدرسة عنه ، خلافا لما تنادي به التربية الحديثة التي ترى أن أسلم وسائل التربية هي التربية بالمثوبة ، ونبذ العقوبة بالضرب الذي يعـتبر ـ على حد زعمهم ـ أسلوب غير حضاري، بل إنه يتنافى مع آخر ماوصلت إليه التربية الحديثة في مبادئها وأساليبها ٠

يقول محمد قطب في كتابه منهج التربية الإسلامية (١٤٠٩هـ) في تعليقه على من يرى أن التربيـة بالعقوبة أسلوب غير حضاري :((إن الـتربية بالعقـوبة أمر

طبيعي بالنسبة للبشرية عامة والطفل خاصة ، فلا ينبغي أن تستنكر من باب التظاهر بالعطف على الطفل ، ولا من باب التظاهر بالعلم ، فالتجربة العملية ذاتها تقول : إن الأجيال التي نشأت في ظل تحريم العقوبة ونبذ استخدامها ، أجيال مائعة لا تصلح لجديات الحياة ومهامها ، والتجربة أولى بالاتباع من النظريات مهما كانت لامعة ومغرية ، والعطف الحقيقي على الطفولة هو الذي يرعى صالحها في مستقبلها، لا الذي يدمر كيانها ويفسد مستقبلها)) ج٢ ص ١٣٥ - ١٣٦ .

إن التأديب بالضرب تسبقه مراحل كثيرة ، منها مرحلة النصيحة غير المباشرة عن طريق التلميح ، ما بال أقوام يفعلون كذا ، فإن لم يجد ذلك فالتصريح في جمع من الناس كالإخوة مثلا ، على مبدأ ما بال أقوام يفعلون كذا ، فإن لم يجد فالنصيحة المباشرة على انفراد ، فإن لم تجد ذلك فالتوبيخ بالقول ، فإن لم يجد ذلك فالهجر والإعراض ، فإن لم يجد ذلك فالحرمان مما يحب ، فإن لم يجد ذلك فالضرب الذي يقصد منه التأديب والتوجيه ، مع الصبر والدعاء فإنه لم يُر للطفل مثل دعاء والديه ، كيف لا وقد روى ابن ماجة في سننه (د - ت) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ ثلاث دعوات يستجاب لهن ، لا شك فيهن : دعوة المظلوم ، ودوعوة المسافر ، ودعوة الوالد لولده ﴾ ج ٢ ص ١٢٧٠ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٤٠٨هـ) ج ٢ ص٣٣١ .

إن من حق الطفل على والديه أن يؤدباه على أخلاق الإسلام ، فيأمراه بما امر الله ، وينهياه عما نهى الله ، مراعيان في ذلك أمرين :

أولهما - الأسلوب الأمثل للتأديب ، فإن الأطفال يتفاوتون في أخطائهم ، بل وحتى في قدراتهم على معرفة قدر الأخطاء التي يقعون فيها ، ومن هنا كان من الواجب أن تتفاوت العقوبة بناء على هذا التفاوت عند الأطفال .

ثانيهما ـ السن التي يكون فيها الطفل ، إذ ليس من العقل ولا من الحكمة ، أن تستخدم العقوبة للطفل وهو في سن العاشرة ، بنفس الصورة عند طفل آخر في سن الخامسة .

على أن هناك قدرا مشتركا من درجات التأديب وأساليبه بين الأطفال ، ومن ذلك تعليق السوط أمامهم ليراه الأطفال فإن ذلك درجة من درجات التأديب يخشاها الأطفال جميعا ، ذكر أبو نعيم في الحلية والإمام أحمد في مسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :﴿ علقوا السوط حيث يراه أهل البيت فإنه آدب لهم ﴾ والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٠٦هـ) ج ٢ ص ٧٤٤ .

يقول بدير في كتابه منهج السنة النبوية في تربية الإنسان (١٤١٣هـ) : ((إن العقوبة ليست ضرورة لكل شخص، فقد يستغني شخص بالقدوة وبالموعظة، فلا يحتاج في حياته كلها إلى عقاب ، ولكن الناس كلهم ليسوا كذلك ففيهم من يحتاج إلى الشدة مرات ومرات ، وليست العقوبة أول خاطر يخطر على قلب المربي ولا أقرب سبيل ، فالموعظة هي المقدمة ، والدعوة إلى عمل الخير ، والصبر الطويل على انحراف النفوس لعلها تستجيب)) ج ١ ص ٨٥ .

إن التربية الحديثة التي تندد بالعقاب كأسلوب تربوي ، نُكست على رأسها حين رأت آثار غياب العقاب البدني على الناشئة ، يوم خرجت منهم أجيال مائعة منحطة ، لا تصلح لجديات الحياة ومهامها ، فغدت تنادي من جديد بضرورة العقاب البدني كأسلوب تربوي ناجح في العملية التربوية .

يقول جمال في كتابه نحو تربية إسلامية (١٤١٠هـ) : ((وبدأ هذا الاتجاه الخاطىء في تربية الأطفال عندما انتشرت آراء جون ديوي gon diwy وسيجموند فرويد sigmund fruid وأحيطت بهالة من الدعاية الكاذبة زينت

لرجال التربية والتعليم تجنب ضرب الأطفال ، وأغرتهم بالتسامح معهم ، وتركهم يفعلون ما يشاؤون)) ص١١٦ .

ثم نقل عن الأمريكي كرانفورد cranford أنه أجرى عددا من من التجارب والاستفتاءات مع الآباء والأمهات ورجال التربية والتعليم وعلم النفس أيضا ، ثم يخلص بعد ذلك إلى نظرية تربوية تنادي بالتأديب)) ص ١١٧ .

لقد كانت بعض النظريات التربوية الغربية تنادي بإلغاء العقوبة بتاتا وكان رائد هذه النظرية الأمريكي سبورك sbork الذي ظل ينادي بذلك في كتبه التي طبع بعضها خمسة عشر مرة ، ثم عاد بعد ذلك معترفا أنه ضلل البشرية حين قرر إلغاء العقاب ، وتبين بعد ذلك أنه لا بد من العقاب في تربية الاطفال .

سبحان الله ! خمس عشرة طبعة والمربي الأمريكي سبوك sbuk يضلل الناس ، ويقودهم نحو خطوات غير صحيحة في تربية الأطفال ، وبعد مضي هذه المدة يعود فيقول : ا ، إني متأسف جدا لقد ضللت الناس .

وبقي أن نتساءل عن تلك الأجيال التي تربت على نظرية سبوك sbuk قبل الاعتراف بالتضليل ، والجواب هو ما سبق أن ذكره محمد قطب في كتابه منهج التربية الإسلامية (١٤٠٩هـ) حين قال :((إن الأجيال التي نشأت في ظل تحريم العقوبة ونبذ استخدامها أجيال مائعة لا تصلح لجديات الحياة ومهامها)) ج ٢ ص ١٣٥ - ١٣٦ .

وفي هذا الموطن يحق للمسلم أن يفخر بكتاب ربه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، حين أقرَّا منهج التأديب بالعقوبة، وجعلاه جزأ لايتجزأ من العملية التربوية .

وفي هذا الموطن أيضا يحق لنا نحن المسلمين أن نقول للكفار : لقد آن الأوان أن تقرأوا كثيرا ، وتتَمَعَّنوا أكثر في كلام أستاذكم الكبير المربي الأمريكي [سبوك] الذي جعل من الإنسان مسرحا للتجارب التربوية التي ينقض بعضها

بعضا ، ويسخر بعضها من بعض ، ثم تُمْعنُوا النظر في منهج الإسلام الذي أقر التربية بالعقوبة كأسلوب تربوي ناجح ، قبل أن تعرفوا الدنيا بألف وأربعمائة عام من الزمان .

إن التربية الإسلامية لم تقل يوما من الدهر ، لقد ضَلَّلْتُ الناس حين حرمتهم من كذا ، وهاأنذا أعترف بخطئي ، وأعود إلى رشدي ، فأحل اليوم ما حرمت بالأمس !!! لا ، لم يحدث هذا ولن يحدث هذا أبدا ، لأن الذي وضع منهج التربية الإسلامية هو العليم الخبير ، الذي يقول مادحا كتابه مثنيا على كلامه : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ سورة النساء آية٨٢، ويؤكد هذا المعنى الذي يزيد المسلم ثقة لا حدود لها ما ذكره الألباني في صحيح الجامع (١٤٠٦هـ) أن رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم قال :﴿ تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدي كتاب الله وسنتي ﴾سبق تخريجه ص ٥ .

إي والله ! لقد أنطق الله رجلا يعتبر في المجتمع الأمريكي مربيا كبيرا يصدر الناس عن كلامه في القضايا التربوية ، فقال ما قال ، ويا عجبي من أمة تعايش هذا التناقض في المبادىء على ألسنة المربين فيها ، فترى اليوم حقا ما كان باطلا بالأمس، يا عجبي من هذه الأمم كيف تثق بعد ذلك فيما يأتي من النظريات على ألسنة هؤلاء المربين والمنظِّرين ؟.

إن التأديب بشقيه صورة من صور الوقاية التي تحفظ الأسرة من فساد الأولاد، وانحراف فلذات الأكباد ، بل وتحفظ الأولاد عند الكبر من الانحراف ، فإن من شب على شيء شاب عليه ، ومن هنا كان حقا على الأسرة أن تولي هذا الجانب اهتماما كبيرا ، وأن تصرف من وقتها جزأ كبيرا للعناية بتربية الاولاد على أخلاقيات الإسلام ، تارة بالقدوة ، وتارة بالتلقين ، فإن لم تثمر جهود الثواب معهم، فالعقاب الذي يقصد منه التأديب وفق الضوابط الشرعية .

قسا ليزدجروا ومن يك حازما   فليقس أحيانا على من يرحم

هذه بعض التدابير الوقائية التي تحفظ الأسرة وتصونها عن كل ما من شأنه أن يدمر بنيانها ، ويقوض دعائمها ، وقد حاول الباحث أن يستنبط هذه التدابير مما ورد في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وسلف الأمة الأخيار ، على سبيل الإيجاز والاختصار ، لعلها أن تكون نواة خير لرسالة قادمة يُجمع فيها كل ما يتعلق بالأسرة مما ورد في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وهدي سلف الأمة ، من التدابير الوقائية التي تقي الأسرة من الانهيار في حاضر أمرها ومستقبله ، ذلك أن الإسلام يعتمد في تربيته للفرد وللأسرة وللمجتمع على الوقاية قبل العلاج، فهو يرسم الطريق للسالك ، ويضع له من الأنوار ما يكشف له ما في هذا الطريق من العقبات والمنحنيات والمصاعب ، واضعا معه دليلا يشرح له كل عقبة وكيف يجتنبها ، ويبين له كل منحنى وكيف يتخطاه ، حرصا منه على وقاية الأسرة من الشر قبل أن ترده ، وفي هذا تفادٍ للعلل قبل وقوعها ، وللأمراض قبل حدوثها ، ليبقى جسد الأسرة قوي المناعة ، سليم البنية ، آخذا في الحسبان سبيل العلاج لبعض الحالات الشاذة التي تخرج عن الطريق المستقيم ، فلا تُترك للشيطان يعبث بها ذات اليمين وذات الشمال ، ويسلمها لليأس من كل خير ، والقنوط من كل رحمة ، وهذا هو السر الذي تميزت به التربية الإسلامية على غيرها ، وهي بذلك تعلن إفلاس كل النظم والقوانين الوضعية التي لا تتخذ الاحتياطات والتدابير في بناء الأسر ، إنما تترك الأسرة تسير في حياتها خبط عشواء بلا صيانة أو حماية ، بل لربما هيأت لها الفساد ودعتها إليه ، وفتحت لها أبواب الشرور على مصاريعها ، فإذا انحرفت الأسرة عن مسارها الصحيح قامت تلك النظم والقوانين تصرخ بعد ذلك نادبة حضها ، معلنة فساد الأسر ، وانحراف المجتمعات ، باحثة عن العلاج الذي ربما انعدمت جدواه أو قلت ، لكون سرطان الأخلاق قد سرى في الجسد فنخره وأفسده .

ثانيا : المجتمع

يقصد الباحث بالمجتمع هنا ، المجتمع بكل مؤسساته بما فيه الأسرة والمدرسة كمكوِّنين مهمين من مكونات المجتمع وسيكون الحديث في ذلك عن بعض الجوانب التي تسهم - وبدور كبير - في صيانته وحفظه ، ليظل مجتمعا قويا متماسكا ، ينعم أهله فيه برغد العيش ، ووفرة الأمن والاستقرار .

يقول سيد قطب في كتابه (نحو مجتمع إسلامي (١٤٠٨هـ) :((تقوم الشريعة دائما مقام السياج الواقي ، الذي يسمح للمجتمع الإسلامي بالنمو والتجدد ، ولكن داخل هذا السياج ، ووفق مقومات أصيلة ثابتة ، وبذلك يظل الطابع الأصيل للمجتمع الإسلامي واضحا مميزا ، بينما المجتمعات الغربية كان في وسعها دائما أن تنمو وفق المؤثرات الواقعية ، غير متقيدة بأصل ثابت ، لأن المسيحية لم تكن يوما نظاما اجتماعيا ، وذلك لخلوها من الشريعة التي تتولى تنظيم المجتمع وفق نظرية محددة)) ص ٦٥ .

وسيقتصر الباحث على ذكر ثلاث جوانب وقائية جاءت بها الشريعة الإسلامية ، وجعلتها بمثابة الحصن الحصين ، الذي يحول بين المجتمع وبين الشرور والفتن ، وهي الدعوة إلى الله تعالى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتطبيق الحدود .

وقبل أن يشرع الباحث في الحديث عن الجانب الوقائي الأول وهو الدعوة إلى الله تعالى ، يحسن به أن يحدد مفهوما للمجتمع ، وأن يعطي تصورا عن بعض المجتمعات الجاهلية التي سبقت بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليظهر مدى حاجة البشرية إلى الإسلام ، الذي لا يمكن تحقيقه في مجتمع إلا بالدعوة إلى الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتطبيق الحدود .

مفهوم المجتمع :

قال ابن منظور في لسان العرب (١٤١٢هـ) :((جمع الشيء عن تفرقة يجمعه جمعا وجمَّعه وأجمعه فاجتمع ، واستجمع السيل اجتمع من كل موضع ، وجَمَعْتُ الشيء إذا جئت به من ههنا وههنا ، وتجمَّع القوم : اجتمعوا أيضا من ههنا وههنا ، وقوم جميع : مجتمعون ، والمجمع : يكون اسما للناس وللمكان الذي يجتمعون فيه ، والجُمَّاع بالضم والتشديد : مجتمع أصل كل شيء ، أراد منشأ النسب وأصل المولد ، وقيل : أراد به الفرق المختلفة من الناس كالأوزاع والأوشاب)) ج ٨ ص ٥٦ .

وقال أنيس وآخرون في المعجم الوسيط (د ـ ت) :((موضع الاجتماع والجماعة من الناس)) ج ١ ص ١٣٦ .

وذكر الفيومي في المصباح المنير (د ـ ت) في مادة جمع قوله :((الجَمْعُ : الجماعة تسمية ، بالمصدر ، ويجمع على جُمُوع ، والجماعة من كل شيء يطلق على القليل والكثير)) ص ١٠٨ .

وقد عرفه زنجير في كتابه أهمية الإيمان وآثاره في بناء الفرد والمجتمع (١٤٠٩هـ) فقال :((هي مجموعة من الناس تعمر مكانا لأول مرة ، أو على قرية أو مدينة أو أمة بأسرها ، سواء كانت هذه الزمرة صغيرة أو كبيرة ، بحيث يشتركون في الأحوال الأساسية للحياة المشتركة)) ص ٨٥ .

إذن فالمجتمع يتكون من أفراد يجتمعون في مكان واحد يكون عددهم في الغالب كثيرا ، وبينهم قواسم مشتركة من المعتقد أو اللغة أو الجنس .

يقول الراوي في كتابه الدعوة الإسلامية (١٤١١هـ) :((كثيرا ما يطلق المجتمع في صورة المقابلة للفرد ، مع أن المجتمع في حقيقته مجموع أفراد ، وإذا نحن جردناه لم نفهم لوجوده حقيقة ، ولا لحقيقته وجود)) ص ٣٧٤ .

ويقول محـمد قطب في كتابه الإنسـان بين المادية والإسلام (١٤١٣هـ) :

((إن الفرد لا يمكن أن يكون فردا خالصـا ذا كيان مسقبل مقـابل لوجود المجتمـع إلا إذا تصورنا جدلا أنه قد اعتزله تمام الاعتزال بجسمه وأفكاره ومعاملاتـه جميعا، وهذا أمر مستحيل الحدوث عمليا ، ولا حتـى في مستشفيات المجاذيب ، والمجتمع هو مجموع الأفـراد ، تلك بديهية لا تحتاج إلى مجرد ذكـرها فكيف يوجد المجتمع إذا كان منفصلا عن وجود الفـرد وهـو الوحدة التي يتكون منها المجتمع)) ص ١١ - ١١٢ ٠

لمحة موجزة عن أحوال المجتمعات قبل البعثة :

إن من الأهميـة بمكان أن يعـرض البـاحـث بعض الأمـثلة الموجـزة لأحـوال البشـرية قبل مـبعث رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ، وذلك ليتبين مدى حـاجة البشرية إلى الإسلام ليـخلصها من الأغلال التي كانت عليهـا ، ولينقذها مما كانت تعيشه من التردي والانحطاط في كل ميدان من ميادين الحياة ٠

وسيـقتصـر الباحث في هذا العـرض على الجاهليـة التي كان يعـيشهـا عرب الجزيرة ، في أربعة جوانب من حياتهم وهي : الدينية ، والسياسية ، والاجتماعية والتربوية ٠

لقـد كانت المجـتمعـات قبل مـبعثـه صلى الله عليـه وسلم ترزح تحت وطأة الجاهلية التي استخفت بالعقـول ، واستهانت بالقيم ، وعـاثت في الأرض فسادا ، فأقفرت القلوب من كل خير ، وغابت شمس الحقوق والمكرمات ، في ظل الفساد المستشري في كل جانب من جوانب الحياة ٠

وبنظرة في أحوال الناس في الجزير العربية فقط ، قبل مبعث رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، يقف الإنسان عـلى صور من الانحـراف الخطير ، الذي لم يتـرك جانبا من جوانب الحياة إلا كان له فيه صولات وجولات ٠ ومن هذه الجوانب :

الجانب الديني : عبدت المخلوقات من دون الله ، وقدم الناس النذور والقرابين لآلهة مزعومة لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر ، ولا تملك موتا ولا حياة ولا نشورا ، وكان لكل قبيلة من قبائل العرب في الجزيرة صنما تعبده وتتقرب إليه ، بل كان بعضهم يعبد جمعا من الآلهة يقدم لكل صنم جزءا من العبادة .

روى الترمذي في سننه (د ـ ت) أن عمران بن حصين قال : جاء أبي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ يا حصين كم إلها تعبد ؟ قال : سبعة ، ستة في الأرض وواحد في السماء ، قال : فمن لرغبتك ولرهبتك ؟ قال : الذي في السماء ... الحديث ﴾ والحديث ضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (١٤١١هـ) ص ٤٥٢ .

وإن كان الحديث ضعيفا إلا أن ما كان يفعله المشركون أقبح مما ذكر ، فلقد بلغ الأمر عند بعضهم أنه إذا كان في سفر ، ولم يجد صنما يعبده ويتقرب إليه ، فإنه يأخذ حفنة من التراب فيصب عليها حليبا حتى يتجمد ، ثم يطوف بها ويتقرب إليها ، وقد ذكر البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) مثل هذه الصورة في حديث أبي رجاء العطاردي رضي الله عنه قال : ((كنا في الجاهلية إذا لم نجد حجرا جمعنا جُثوة من التراب وجئنا بالشاة فحلبناها عليه ، ثم طفنا بها)) ج ٨ ص ٩٠ .

كما أن بعض القبائل كانت تتخذ طواغيت مع الكعبة ، تعظمها وتتخذ لها الحُجّاب والسدنة ، وكان بعض هذه القبائل يعبد النجوم والكواكب ، وتسربت بعض معتقدات الفارسية واليهودية والمسيحية إلى بلاد العرب ، وإن كانت لم تنتشر انتشارا واسعا .

وقصارى القول : لقد كانت الجزيرة العربية خليطا من المعتقدات الباطلة ، والأديان الضالة ، وتعلقت قلوب الناس بآلهة مزعومة ، وطواغيت ضالة تحلل وتحرم

على الناس بما تمليه الأهواء والشهوات والمصالح ، وغاب في مثل هذا لزخم الهائل من الضلال صوت الحق الموروث عن نبي الله إبراهيم عليه السلام ، إلا بقايا من آحاد الناس ممن كان على الحنيفية السمحة ، كزيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، وقس بن ساعدة الإيادي ، وغيرهم .

الجانب السياسي : لم يكن هناك كيان موحد يجمع القبائل على كلمة سواء ، بل كانت الغارات والحروب تأتي على الأخضر واليابس ، وكان الظلم والبغي والفساد يضرب بأطنابه في كل زاوية ، واعتزت كل قبيلة بقوتها ، وخاضت المعارك مع خصومها على أتفه الأسباب ، إما على مربط فرس ، أو بسبب كلب ، ليذهب ضحية ذلك الألوف المؤلفة من الناس ، وما خبر داحس والغبراء عن هذا الحال إلا أكبر شاهد .

روى ابن هشام في سيرته (د ـ ت) ما خلاصته : كان لقيس بن زهير فرس يقال لها داحس ، وكان لحذيفة بن بدر فرس أخرى يقال لها الغبراء ، جرى بينهما سباق ، فسبقت داحس ، فلطم قوم حذيفة وجهها ، فانتصر قيس وقومه لها ، فلطموا وجه الغبراء ، وثار على أثر ذلك القتال بين قبيلتي عبس وفزاره . ج ١ ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧ .

إن السبب الذي ثارت من أجله القبيلتان ، سبب يثير الضحك من جانب ، ويثير الاشمئزاز من جانب آخر ، أنفس تذهب ، ودماء تسيل ، وأموا تهدر ، لأن داحس لُطمت على وجهها ، وإن العقل ليتساءل كثيرا ، أين الرشد في مثل هذا الموطن ؟ فتجيب الجاهلية بقولها : ذهبت به النعرات يوم غاب عنها الإيمان .

الجانب الاجتماعي : أما هذا الجانب فقد كان الحال فيه مخالف للفطر السليمة ، ولهذا انتشرت الأخلاق الرذيلة ، وانحط الناس في سلوكياتهم انحطاط البهائم ، فالمرأة كانت تباع وتشترى وتورث ، كما يباع ويشترى ويورث سقط

المتاع ، بل إن صور الأنكحة التي كانت منتشرة في الناس في تلك الجاهلية ، كانت تنبىء عن خسة في الطباع ، ودناءة في المروءات ، وإلا فما معنى أن يرسل الرجل زوجته إلى عظيم من عظماء القوم أو سيد من ساداتهم ليقع عليها علها أن تنجب مولودا يشبه هذا العظيم أو ذاك السيد ؟ وما معنى أن يجتمع العشرة من الرجال على المرأة الواحدة ، كلهم يصيب منها ، فإذا حملت استدعتهم جميعا واختارت من بينهم من يكون ـ في نظرها ـ أبٌ لهذا المولود ؟ وما معنى أن يجتمع المائة من الرجال على المرأة الواحدة يتعاقبون عليها ما بين الفترة والأخرى ، فإذا ماولدت استدعتهم جميعا فلم يتخلف منهم رجل واحد ، ثم يؤتى بأحد القافة ـ وهم الذين يعرفون شبه الإنسان بأبيه أم بأمه ـ فيختار من بين المائة أقربهم شبها بهذا المولود ؟ .

وأما الأولاد فقتلوا البنين منهم خشية الفقر وقتلوا الإناث منهم خشية العار ، إضافة إلى انتشار بعض الرذائل كشرب الخمور ، وتعاطي الميسر ، بل ونصبت الرايات على بعض البيوت علامة على الدعارة والمتاجرة بالأعراض .

لقد كانت حياتهم في مجملها قبل دعوة الإسلام حياة غير مستقيمة ، وكانت البيئات في تلك الفترة بيئات ملوثة ، تحكمها المصالح والشهوات ، والمطامع والأهواء .

الجانب التربوي : الغايات والأهداف والوسائل التربوية ، منطلقها كلها العقيدة التي يدين بها الإنسان ، وكيفما تكون العقيدة تكون التربيه ، وعلى قدر صفاء العقيدة وصحتها ، يكون صفاء التربية وصحتها وسلامتها من الإنحراف .

ثم إن المجتمع يصنع الفرد ، ويشكل شخصيته ، سيما إذا لم تكن هناك معايير صحيحة يحتكم الناس إليها عند الاختلاف .

يقول زنجير في كتابه أهمية الإيمان (١٤٠٩هـ) :((فالعلاقة بين الفرد والمجتمع هي علاقة أخذ وعطاء ، وهي تمثل في مجموعها حركة دائمة ومستمرة

بين الطرفين تشمل التأثير والتأثر ، والمجتمع بالنسبة للإنسان العادي مؤثر أكثر مما يتأثر المجتمع فيه ، أما بالنسبة للإنسان المبدع أو العبقري أو المصلح ، فهو يؤثر في المجتمع أكثر مما يتأثر من المجتمع ... لذلك يقف المجتمع عائقا أمام المصلحين أو النابهين، مما يجعلهم ينفرون عنه ويتمردون عليه في أكثر الأحيان)) ص ٨٥ - ٨٦.

وإذا أراد المنصف أن يحكم على الجانب التربوي في الحياة الجاهلية ، فلينظر إلى العقيدة التي تنطلق منها التصورات التربوية ، وليلق نظرة عن البيئة التي تؤثر في التربية أو تتأثر بها .

وحين نلقي نظرة على العقيدة كجانب أساس في توجيه الجانب التربوي في المجتمعات الجاهلية ، نجد العقائد الموجهة عقائد ضالة ، لا تعطي الإنسان تصورا صحيحا عن ربه الذي خلقه وأوجده ، ولا تعطيه تصورا صحيحا عن هذا الكون من حوله ، وتحدد له علاقته به ، ولا تعطيه تصورا صحيحا عن نفسه ، ما سر خلقها وإيجادها ، وما السبيل إلى ارتقائها في عالم الأخلاق والمثل ، ولا تعطيه تصورا صحيحا عن الحياة التي يعيش فيها ، ولا تعطيه تصورا عن الدار الآخرة وما ينتظره من الثواب العظيم إن أحسن ، وما ينتظره من العقاب الأليم إن أساء وقصر ، فتكالب الناس على الأنانية المفرطة ، وقامت التربية على مبادىء تحقيق الذوات على حساب الآخرين ، سواء كانوا أفرادا أو مجتمعات ، وفي ظل هذه التناقضات العقدية ، والانحرافات الأخلاقية ، تشكلت شخصية الإنسان ، واصطبغت بصبغة الجاهلية .

فلم يكن هناك اهتمام بالعلم والتعلم ، ولم يكن هناك حاجة إلى التأليف والتدوين، وأي علم يتعلمه الإنسان في تلك الجاهلية ؟ ولأي شيئ يتعلم الإنسان ، وإن قدر له أن يتعلم فلأي هدف يتعلم ؟ وأي ثمرة يجنيها؟ .

يقول ابن خلدون في مقدمته (١٤١٤هـ) وهو يصف حال العرب قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم :((والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ، ولا دفعوا إليه ، ولا دعتهم إليه حاجة)) ج ٢ ص ٢٤٤ .

وإذا كان هذا حال العرب في جوانب حياتهم المختلفة في الجزيرة العربية ، فإن حال غيرهم من الأمم والشعوب خارج حدود الجزيرة أشد وأخزى ، يقول الندوي مجيبا عن ذلك في كتابه السيرة النبوية(١٣٩٩هـ) :((كانت الأوضاع الفاسدة ، والدرجة التي وصل إليها الإنسان في منتصف القرن السادس المسيحي ، أكبر من أن يقوم لإصلاح مصلحين ومعلمين من أفراد الناس ، فلم تكن القضية قضية إصلاح عقيدة من العقائد ، أو إزالة عادة من العادات ، أو قبول عبادة من العبادات ، أو إصلاح مجتمع من المجتمعات ، فقد كان يكفي له المصلحون والمعلمون الذين لم يخل منهم عصر ولا مصر ، ولكن القضية كانت قضية إزالة أنقاض جاهلية ، ووثنية تخريبية ، تراكمت عبر القرون والأجيال ، ودفنت تحتها تعاليم الأنبياء والمرسلين)) ص ٥٠ .

لقد كان العرب أحسن حالا إذا قورنوا بغيرهم من الأمم الأخرى ، فقد كان عندهم بعض المحاسن التي أقرها الإسلام حين وجدها ، ولكن الصورة العامة تنبيء عن فساد كبير ، وشر مستطير ، في كل جانب من جوانب الحياة .

يقول أحمد في كتابه السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية(١٤١٢هـ) : ((وعلى الرغم من وجود هذه الأمراض الخلقية عند عرب الجاهلية إلا أن هناك جوانب مضيئة في حياتهم السياسية والاجتماعية لا يمكن إنكارها ، ولعلها كانت سببا في اختيار الله لهم لحمل رسالته إلى العالمين ، ومثال ذلك أن جاهليتهم لم تكن مركبة تقوم على فلسفة معقدة يصعب إزالتها كما كان الحال في المجتمعات الأخرى المجاورة ، وكانوا أصحاب عزيمة قوية ، يصدقون عندما يؤمنون)) ص ٨٠

الله جل جلاله يرتضي الإسلام حلا للبشرية التائهة :

في هذا الخضم الهائل من الفساد العقدي والأخلاقي عند أمم الأرض كلها ، كان لا بد للبشرية من دين عالمي يوحد صفها ، ويجمع كلمتها ، ويقوم انحرافها ، ويسلك بها التي هي أحسن في جميع أمور حياتها ، فاختار الله لها بعلمه الواسع، وحكمته البالغة ، الإسلام دينا ، ليكون منهجا تسير عليه فيما دق أو كبر من شؤون حياتها ، قال الله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ سورة المائدة آية٣ .

وأخبر سبحانه أن البشرية مهما حاولت أن تنتهج نهجا غير نهج الإسلام فإنها لن توفق للخير ، ولن تنال في الدنيا والآخرة إلا العنت والخسران ، يقول سبحانه :﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاشرين ﴾ سورة آل عمران آية ٨٥ .

يقول يكن في كتابه كيف ندعو إلى الإسلام (١٣٩٤هـ) :

((فالإسلام منهج حياة ، فهو عقيدة توضح التصور الصحيح للكون والإنسان والحياة ، عقيدة تعرف هذا الإنسان على نفسه ، وسر خلقه وسبب وجوده ، وتحل بذلك عقدة من أخطر العقد في الحياة البشرية ، وعلى أساس هذه العقيدة تقوم شريعة ونظام ، شريعة تنظم حياة الإنسان في كافة شؤونها ، فالإسلام منهج متكامل الجوانب ، شامل النظرة ، فيه تنظيم علاقة الفرد بنفسه وبأسرته وبمجتمعه ، وفيه بيان للأصول والقواعد التي تقوم عليها النظم والقوانين التي تحكم سير المجتمع والناس ، فهو يجمع إلى رقة التوجيه دقة التشريع ، وإلى جلال العقيدة جمال العبادة ، وإلى إمامة المحراب قيادة الحرب ، وبذلك يكون منهج حياة بكل مافي هذه الكلمة من معنى)) ص ٨٩ - ٩٠ .

إن هذه الشريعة الرائعة التي تحمل هذا الشمول ، قد أعلنت عالميتها من اليوم الأول حين أنزل الله تعالى على حامل هذه الراية الخالدة قوله تعالى :﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ سورة الأنبياء آية ١٠٧، فهي ليست دعوة قومية تتقوقع على نفسها ، ولا قطرية تقف عند حدود الجنس واللون ، ولكنها شريعة عالمية ، أنزلها للبشرية جمعاء رب العالمين ، لترعى مصالح الناس فوق أي أرض وتحت أي سماء.

ومن تلك الساعة الفذة في تاريخ الإنسان ، جاءت الشريعة الإسلامية لتحقيق مصالح العباد في العاجل والآجل ، على أن هذه المصالح التي يحتاجها العباد في حياتهم ، تنقسم إلى ثلاثة أقسام كما يقرر ذلك علماء الأصول ، فقد ذكر الشاطبي في الموافقات (د ـ ت) ما خلاصته : تنقسم المصالح التي يحتاجها الناس في حياتهم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الضروريات ، وهي التي تتوقف عليها مصالح الدنيا والدين ، وفي فقدانها الهلاك والدمار في الدنيا والآخرة ، وهي خمسة أشياء : الدين ، والنفس والعقل والعرض والمال .

وقد شرع الإسلام من الأحكام ما يحفظ هذه المصالح ويصونها ، وما ذلك إلا لأهميتها في حياة الناس ، وضرورتها لإيجاد المجتمعات الفاضلة التي ينعم الناس فيها بحقوقهم.

فشرع لحفظ الدين وصيانته الدعوة إليه ، وإقامة الجهاد من أجله ، وعقوبة من يحرفه أو يشكك فيه أو يرتد عنه ، ولحفظ النفس وصيانتها شرع لذلك وجوب تناول ما به قوامها من المطعم والملبس ، وحرم كل ما به ضررها وإيذاؤها ، وشرع لحفظها كذلك الحدود ، ولحفظ العقل شرع حد المسكرات والمخدرات ، ولحفظ العرض شرع حد الزنا واللواط والقذف ، ولحفظ المال شرع حد السرقة والحرابة .

على أن الأمر لم يقف عند مشروعية الحدود وإقامتها فحسب ، بل وشرع فوق ذلك التعزيرات التي تركت للحاكم ، يقضي فيها بما يراه مناسبا لتأديب الجاني ٠

القسم الثاني : الحاجيات ، وهي التي لا يختل بفواتها نظام الحياة ، ولكن يلحق الناس من وراء ذلك شيء من الحرج والمشقة ٠

ففي جانب العبادات شرعت الرخص ، وفي المعاملات استثنيت بعض المعاملات من القواعد العامة للشريعة ، وفي العقوبات شرعت بعض القواعد الفقهية كقاعدة درء الحدود بالشبهات ٠

القسم الثالث : التحسينيات ، وهي التي إذا فاتت لا يختل نظام الحياة ولا يلحق الناس ضرر ولا حرج ولا مشقة ، ولكن ينقص الحياة ما يقوم المروءات والمكارم ، ومن أمثلة ذلك مشروعية ستر العورة في جانب العبادات ، وتحريم الإسراف وبيع النجاسات في جانب المعاملات ، والدعوة إلى الأخلاق الفاضله ، وتحريم كل خبيث في جانب العادات ، وتحريم التمثيل في القصاص في جانب العقوبات ٠

على أن لكلٍ من هذه المصالح الثلاث مكملات تحققها على أكمل الوجوه ٠ ج ٢ ص ٧ وما بعدها .

يقول زيدان في كتابه الوجيز في أصول الفقه (١٩٧٨م) :((إن هذه المصالح إذا فاتت اختل نظام الحياة ، وساد الناس هرج ومرج ، وعمت أمورهم الفوضى والاضطراب ، ولحقهم الشقاء في الدنيا والعذاب في الآخرة)) ص٣٧٩.

والحديث عن هذه المصالح ومكملاتها طويل جدا ، والوقت يضيق بحصرها والوقوف عليها ، ولكن نظرة سريعة فيما سبق ذكره يبدي جليا أن حفظ المجتمعات

يكون بحفظ هذه المصالح ، وأن هذه المصالح حين تتعرض للإقصاء وتُغيب عن واقع الحياة ، فإنما ذلك إقصاء لكل خير تنعم به المجتمعات ، وإيذان بحلول العذاب والدمار والفوضى والاضطراب ، ومن يستقرىء التاريخ يجد العبر .

وقد سميت المصالح بذلك لأن المجتمعات لا يمكن أن تحيا حياة كريمة بدونها، وضرورتها لإقامة مجتمعات فاضلة خيِّرة كضرورة الماء للسمك ، والنفس للإنسان .

والباحث يرى أن هناك كثيرا من التدابير الوقائية ، التي تسهم في حفظ المجتمعات من الضياع والانحراف ، وترعى هذه المصالح بفروعها الثلاثة ، وهي جوانب وقائية لا غنى عنها لكل مجتمع بأي حال من الأحوال ، وسيقتصر الباحث على ذكر ثلاثٍ من هذه التدابير فحسب ، ألا وهي : جانب الدعوة إلى الله ، وجانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجانب تطبيق الحدود .

ومع أن الشاطبي في الموافقات يرى أن الدعوة إلى الدين سبب من أسباب حفظه وصيانته وبقائه ، فإن الباحث يرى أن الدعوة إلى الله سبب في حفظ وصيانة وبقاء كل من الدين والنفس والعقل والعرض والمال ، ذلك أن الإيمان إذا استقر في القلوب ، عن طريق الدعوة إلى الله، أمن الناس على دينهم وأنفسهم وعقولهم وأعراضهم وأموالهم، وهذه هي سر حياة المجتمعات ورغدها واستقرارها .

ولقد أن الأوان للبشرية اليوم ، وهي على مشارف القرن الواحد والعشرين ، أن تعيد حساباتها مع نفسها ، ثم تنظر إلى هذا الواقع الأليم الذي يعصف بالعقائد والأخلاق ، والذي انحرفت على آثاره البشرية في كل جانب من جوانب حياتها ، لقد أن الأوان لهذه البشرية أن تدين بالإسلام ، لكونه المنهج الكامل الشامل الذي يحفظ لها حقوقها ، ويُعَبِّدها لربها سبحانه ، في ظل الأزمات السياسية

والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والفكرية والتربوية ، وفي ظل المجاعات والفتن والحروب والقلاقل والأمراض التي تعاني منها كثير من بلاد الدنيا اليوم .

فإذا ما أرادت البشرية أن تخرج من هذه الدوامة ، فعليها أن تفتح المجال لحملة الحق المبين ، ليوجهوا الناس وفق منهج الله ، الذي ارتضاه للبشرية ، إذ في انتشار الدعوة الصحيحة النظيفة على الكتاب والسنة بفهم السلف ، وقاية من هذه الأزمات التي تعيشها كثير من مجتمعات الأرض اليوم .

لقد استشرت الأمراض والعلل في أجساد المجتمعات ، وبالذات في جسد أمة الإسلام ، يوم أن فقدت التربية الإيمانية التي يزرعها في سويداء الفؤاد منهج الدعوة إلى الله تعالى ، فعانت من الويلات ما عانت ، ولا زالت تعاني ، وستظل تعاني ، ما لم تمهد الطريق لصوت الحق ، يتغلغل في أعماق النفوس ، فيصنع منها مجتمعات سليمة ، خالية من الأمراض والعلل ، لتقوم بمهمتها في توازن وشمول يتحقق لها الخير من خلاله في أمور دينها ودنياها .

إن الحضارة البشرية اليوم تخطىء كثيرا حين تظن أن سر سعادة الإنسان تكمن في تحقيقه أكبر قدر من المتاع ، واستمتاعه بأكبر نصيب من اللذائذ والشهوات ، ذلك أن حاجة البشرية إلى الإسلام منهجا يحكم حياتها في كل شيء أعظم من حاجتها إلى الطعام والشراب والهواء والماء والمتع والشهوات ، يؤيد ذلك دعوة القرآن والسنة إلى أن العصمة من الضلال هو هذا الدين ، ويؤيد ذلك أيضا صرخات المنصفين ممن ذاقوا ويلات هذا الخزي والعار الذي تعيشه الحضارة الغربية المعاصرة في كل جانب من جوانب حياتها ، وخاصة ما آلت إليه الأخلاق في تلك المجتمعات ، والتي تسربت بعد ذلك إلى كثير من بلاد المسلمين .

يقول سيد قطب في الظلال (١٤٠٠هـ) :((تقف الحضارة المادية كالطائر الذي يرف بجناح واحد جبار ، بينما جناحه الآخر مهيض ، فبقدر ما يرتقي في

الإبداع المادي ، بقدر ما يرتكس في المعنى الإنساني ، ويعاني منه العقلاء هناك ، لولا أنهم لا يهتدون إلى منهج الله وهو وحده العلاج والدواء)) ج ١ ص ١٧ .

الجانب الوقائي الأول لحفظ المجتمع (الدعوة إلى الله تعالى) :

لقد تبين مما سبق عرضه أن البشرية في أمس الحاجة إلى الإسلام ، ولا سبيل إلى الإسلام إلا بالدعوة إلى الله تعالى .

والدعوة إلى الله تعالى كما يعرفها الواعي في كتابه الدعوة إلى الله (١٤٠٦هـ) :((هي الدعوة إلى توحيد الله والإقرار بالشهادتين ، وتنفيذ منهج الله في الأرض قولا وعملا ، كما جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة ليكون الدين كله لله)) ص ١٩ .

وما من شك أن دين الله ما كان لينتشر في الأرض لولا الدعوة إليه ، وما كان دين الله تعالى ليبلغ من الصين شرقا إلى جبال فرنسا غربا لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ظل متدثرا بدثاره ، متزملا بلحافه ، مؤثرا الدفء والأمن والراحة والنعيم .

وما كان دين الله تعالى لينتشر في الأرض لولا أن قبور الصحابة والتابعين مبثوثة في أصقاع الدنيا ، بعد أن بلغوا رسالة ربهم للعالمين ، ثم أدركتهم المنايا في أطراف الأرض ، منهم من حمل الدعوة إلى الله مجاهدا بنفسه وماله ، ومنهم من حمل الدعوة إلى الله بلسانه ، ومنهم من حمل الدعوة إلى الله بقلمه وبنانه ، ومنهم من حمل الدعوة إلى الله بحسن خلقه وتمسكه بالإسلام حين رأى الناس فيه الأدب الرفيع والخلق الجم والأمانة والصدق ، فكان ذلك مفتاحا لقلوبهم إلى الخير والإيمان .

لقد انتشرت الدعوة الإسلامية انتشارا واسعا ، متخطية حدود الإقليمية الضيقة ، لتخاطب الدنيا كل الدنيا : ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ ولتقول للعالم كل العالم : ﴿ من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه ﴾ .

يقول الغزالي في كتابه سر تأخر العرب والمسلمين (١٤٠٥هـ) :((إن عالمية الرسالة ليست في سعة الدائرة التي يعمل فيها فقط ، وإنما هي في طبيعة توجيهاته ، وصياغة آياته ، فالكتاب والسنة يخاطبان الإنسان حيث كان دون انحصار في زمان أو مكان ! إنهما ارتباط بالفكرة ، وحوار مع العقل البشري تحت أي سماء وإلى آخر الدهر)) ص ١٢٦ .

إن عالمية الرسالة تقتضي عالمية الدعوة ، إذ الدين الإسلامي مسئولية الجميع ، في نشره وتبليغه للناس ، كل على حسب قدرته واستطاعته ، إذ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

لقد خاطب الله المؤمنين جميعا في كتابه وعلى لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، أن يبلغوا هذا الدين ، وأن ينشروا هذه الدعوة ، لأن في نشرها سعادة للمجتمعات في كل جانب من جوانب حياتها .

يقول يكن في كتابه كيف ندعو إلى الإسلام (١٣٩٤هـ) :((إن دعوة الناس إلى الإسلام ، وإقناعهم به ، وتهيئتهم للنزول عند أصوله وأحكامه ، من الوسائل التي يتحقق بها إقامة المجتمع الإسلامي ، واستئناف الحياة الإسلامية ، فإذا كان تحقق المجتمع المسلم واجبا بحد ذاته ، فتصبح - بالتالي - كل وسيلة لإقامته وإيجاده واجبا هي الأخرى)) ص ١٥ .

وسيعرض الباحث لبعض الآيات التي تأمر بالدعوة إلى الله في الفقرة التالية :

الآيات الواردة في الأمر بالدعوة إلى الله تعالى :

أمر رب العالمين سبحانه بالدعوة إلى دينه في كتابه الكريم في مواضع كثيرة ، تارة بالأمر الصريح ، وتارة بالثناء على حملة هذه الوظيفة العظيمة ، وتارة بالحديث عمن كان له في ذلك قصب السبق من الأنبياء والمرسلين ، وتارة بالحديث عن الأمم

التي كذبت وعصت وتولت ، وما كان سينالها من الخير لو أنها آمنت بالله حين دعيت إليه .

وما هذا كله إلا خير دليل على الآثار العظيمة التي تترتب على القيام بهذه المهمة الجسيمة ، ومنها حفظ المجتمعات وصيانتها من الخراب والدمار في الدنيا ، ومن العذاب والشقاء في الآخرة .

ومن هنا كانت المجتمعات في أمس الحاجة إلى رسالة عالمية ، ينشرها في الأرض أنبياء الله وورثتهم من العلماء الربانيين ، والدعاة الصادقين في كل عصر ومصر ، لتتبدل هذه الأحوال الجاهلية ، التي فقد الناس فيها كراماتهم ، فتشرق شمس الرسالة على معنى جديد للحياة ، يظلله العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وتغيب على أثر ذلك الفحشاء والمنكر والبغي .

ولتنفيذ هذا المطلب الغالي ، جاء الفرج من الله عز وجل يحمله جبريل من السماء لهذه البشرية التائهة في دروب الضلال ، بالخلاص من هذه القيود الجاهلية التي أدمت كل معصم ، وحطمت كل ساعد ، فكان الفرج في قول الله تعالى : ﴿ يا أيها المدثر * قم فأنذر ﴾ سورة المدثر آية ١ ـ ٢ .

إنه خطاب من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم في أعقاب خروجه من الغار خائفا مضطربا بعد أن نزل عليه الوحي في غار حراء ، وعاد إلى بيته ، فتدثر بدثاره ، وتزمل بلحافه :﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر ﴾ سورة المدثر آية ١ ـ ٢ .

يقول الطبري في تفسيره (١٤٠٠هـ) :((يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قم من نومك فأنذر عذاب الله قومك الذين أشركوا بالله وعبدوا غيره ... وقال قتادة : قم فأنذر عذاب الله ووقائعه في الأمم وشدة نقمته)) ج٢٩ ص ٩١ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٣٧٨هـ) :((أي خوف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسلموا ، وقيل الإنذار هنا إعلامهم بنبوته ، لأنه مقدمة الرسالة ، وقيل هو دعاؤهم إلى التوحيد ، لأنه المقصود بها ، وقال الفراء : قم فصل وأمر بها)) ج ١٩ ص ٦١ .

والآية تشمل الإنذار بكل صوره وأشكاله ، فتشمل الإنذار من عذاب الله ، ومن الإشراك به ، ومن الإعراض عن عبادته ، سواء قصد بذلك أهل مكة أو غيرهم ، ذلك أنه صلى الله عليه وسلم بعث للعالمين ، وجاء دينه للناس كافة .

يقول سيد قطب في الظلال (١٤٠٠هـ) معلقا على هذه الآية التي أمرته صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الله وتبليغ هذا الدين للناس :

((إنه النداء العلوي الجليل ، للأمر العظيم الثقيل ، نذارة هذه البشرية وإيقاظها ، وتخليصها من الشر في الدنيا ، ومن النار في الآخرة ، وتوجيهها إلى طريق الخلاص قبل فوات الأوان ، وهو واجب ثقيل شاق ، حين يناط بفرد من البشر - مهما يكن نبيا رسولا - فالبشرية من الضلال والعصيان والتمرد والعتو والعناد والإصرار والالتواء والتفصي من هذا الأمر ، بحيث تجعل من الدعوة أصعب وأثقل ما يكلفه إنسان من المهام في هذا الوجود ... والإنذار هو أظهر ما في الرسالة ، فهو تنبيه للخطر القريب الذي يترصد الغافلين السادرين في الضلال وهم لا يشعرون ، وفيه تتجلى رحمة الله بالعباد ، وهم لا ينقصون في ملكه شيئا حين يضلون ، ولا يزيدون في ملكه شيئا حين يهتدون ، غير أن رحمته اقتضت أن يمنحهم كل هذه العناية ، ليخلصوا من العذاب الأليم في الآخرة ، ومن الشر الموبق في الدنيا ، وأن يدعوهم رسله ليغفر لهم ويدخلهم جنته من فضله)) ج ٦ ص ٣٧٥٤ .

إن الخطاب في الآية الكريمة هو خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو في ذات الوقت خطاب لأمته صلى الله عليه وسلم من بعده ، فإن الدعوة إلى

الله تعالى مسئولية الجميع لا يعذر بتركها أحد ، سيما وأن النصاب المحدد في البلاغ يقصم ظهور الكسالى والخاملين ، أو الظانين أن أمر الدعوة والتبليغ محصور في طائفة من الناس هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومن حمل ميراثهم من العلماء الربانيين ، والدعاة الصادقين في كل زمان ومكان ، لأن هذا النصاب يستطيعه كل أحد ، إن مقدار هذا النصاب هو آية واحدة ، فقد روى البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ بلغوا عني ولو آية﴾ ج ٦ ص ٤٩٦ .

إذن فالعبد المؤمن مطالب بتبليغ دين الله تعالى ، حتى ولو لم يبلغ في حياته كلها إلا بأقل النصاب ، وهي آية واحدة يَعْلمها من كتاب الله أو حديث واحد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإذا استشعرت الأمة مسئوليتها أمام الله تعالى فقامت بوظيفتها في تبليغ دين الله تعالى ، وقام كل فرد فيها بتبليغ دين الله ودعوة الناس إليه ، ولو بأقل النصاب ، لصلحت أحوال الأمة كلها في كل ميدان ، لأننا حينئذ نسلك في حمل مجتمعاتنا على الخير مبدأ من مبادىء تربيتنا الخالدة ، إنه مبدأ الوقاية خير من العلاج .

إن الدعوة إلى الله تعالى ، ليست قصرا على حمل الناس على أداء الشعائر التعبدية فحسب ، فإن ذلك جانب من جوانب الوظيفة الأساسية التي خلق العباد من أجلها ، ولكنها دعوة للناس إلى حمل هذا الدين بكل قوة ، كلٌ في ميدان تخصصه الذي يعمل فيه .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة الشرعية (١٤٠٥هـ):((والقوة في كل ولاية بحسبها ، فالقوة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب، وإلى الخبرة بالحروب ، والمخادعة فيها، فإن الحرب خدعة ، وإلى القدرة على أنواع القتال ، من

رمي وطعن وضرب وركوب وكر وفر ونحو ذلك ... والقوة في الحكم بين الناس ، ترجع إلى العلم بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة ، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام)) ص ٢٠ - ٢١ .

نعم إن الأمة في حاجة إلى القوة في كل ميدان من ميادين الحياة ، القوة التي تحتاجها الأمة في جوانب حياتها المختلفة ، فأفراد الأمة جميعا بينهم قواسم مشتركة من العبودية لله تعالى ، وهذا القاسم درجة لا يجوز أن ينزل عنها المؤمن ، وهي فعل الواجبات واجتناب المحرمات ، ثم تتوزع القوى والأفهام بعد ذلك ، كل يخدم هذه الأمة من خلال توجهاته وإمكاناته وطاقاته وقدراته .

لقد توالت الآيات التي تأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الله تعالى ، وتبليغ دينه ، فمن ذلك على سبيل المثال:

يقول تعالى :﴿ يا أيها النبي بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ سورة المائدة آية ٦٧ .

ويقول تعالى :﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ سورة النور آية ٥٤ .

ويقول تعالى :﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ﴾ سورة الشورى آية ١٥ .

ويقول تعالى :﴿ ولا يصدنك عن آيات ربك بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين ﴾ سورة القصص آية ٨٧ .

ويقول تعالى :﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ سورة النحل آية ١٢٥ .

يقول القرطبي في تفسيره (١٣٧٨هـ) :((هذه الآية نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش ، وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف ، وهكذا يجب أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة ، فهي محكمة في جهة العصاة من الموحدين ، ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين ، وقد قيل : إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورجي إيمانه بها دون قتال فهي فيه محكمة)) ج ١٠ ص ٢٠٠ .

أما ثناء الله تعالى على حملة هذه الوظيفة العظيمة فقوله تعالى :﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ﴾ سورة الأحزاب آية ٤٦ .

قال ابن كثير في تفسيره (١٤٠٦هـ) :((أي داعيا للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك)) ج ٣ ص ٧٩٢ .

وقوله تعالى :﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين ﴾ سورة فصلت آية ٣٣ .

فالداعية إلى الله تعالى ، شاهد ، ومبشر ، ونذير ، وسراج منير ، لا أحد في الدنيا أحسن منه قولا ، ولا أعلى منه رتبة ، لأنه يستمد هذا العلو وهذا الحسن ، من منهج الله الذي يحمله للناس كافة .

إن الدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة الأنبياء والمرسلين جميعا من لدن آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم ، فهذا نبي الله نوح عليه السلام يقول في مخاطبته لربه سبحانه :﴿ وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ﴾ سورة نوح آية ٧ .

وهذا نبي الله صالح عليه السلام يدعو قومه إلى الله تعالى ، فما كان منهم إلا أن قابلوه بالإعراض والصدود ، والاستكبار والجحود ، فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، يقول تعالى على لسان نبيه صالح وهو ينظر إلى ديار قومه وقد تهدمت ، وجيفهم وقد أنتنت ، وآلاؤهم وقد تغيرت ، وقوتهم وقد تبددت :﴿ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ سورة الأعراف آية ٧٩ .

وهذا صفوة الخلق ، وخاتم النبيين يعلن في العالمين حمله لهذه الراية ، هو ومن سار على طريقه ، وأخذ ميراثه ، وآثر الدعوة إلى الله على راحة النفس ، ورفاهية العيش ، يقول تعالى :﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ سورة يوسف آية ١٠٨ .

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه يدعون إلى الله على بصيرة في العقيدة ، والعبادة ، والأخلاق والسلوك والمعاملات والنهج والفكر والشعور والتصور .

ويقول تعالى مثنيا على أنبيائه :﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولايخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا ﴾ سورة الأحزاب آية ٣٩ .

أما حديثه سبحانه عن الأمم الضالة ، وما وعدوا به من السعادة في الدنيا والآخرة ، لو أنهم أمنوا بالله واستجابوا لدعوات الإنبياء والمرسلين حين عرضوا عليهم أمر الله ، فيقول سبحانه :﴿ وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا ﴾ سورة الجن آية ١٦ .

ويقول تعالى :﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ سورة الأعراف آية ٩٦ .

ويقول تعالى :﴿ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا * وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما * ولهديناهم صراطا مستقيما ﴾ سورة آية النساء آية ٦٦ - ٦٨ .

الأحاديث الواردة في الأمر بالدعوة إلى الله تعالى :

كما حفل كتاب الله تعالى بالآيات التي تأمر بالدعوة إلى الله تعالى ، فقد حفلت السنة النبوية المطهرة بالأحاديث الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والتي فيها الأمر بالدعوة إلى الله تعالى ، أو فيها منهجه صلى الله عليه وسلم - وهو القدوة - في الدعوة إلى الله تعالى .

لقد كانت حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم حافلة بالدعوة إلى الله تعالى ، منذ أن نزل عليه الوحي يأمره بالبلاغ في قوله جل جلاله :﴿ يا أيها المدثر * قم فأنذر ﴾ سورة المدثر آية ١ - ٢ .

إلى آخر لحظة في حياته وهو يدعو الله موصياً بالمحافظة على الصلاة كما روى ذلك ابن ماجة في سننه (د - ت) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في مرضه الذي توفي فيه : ﴿ الصلاة وما ملكت أيمانكم ﴾ ج ٢ ص ٩٠٠ - ١٠٩ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٤٠٨هـ) ج ١ ص ٢٧١ .

لقد ألقى صلى الله عليه وسلم عن جسده الدثار ، ولسان حاله يقول : ذهب وقت النوم ، وتولى وقت الراحة ، وجاء وقت العمل لهذا الدين ، جاء وقت الرسالة الشاقة ، التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال .

نعم ! إن همم الرجال الأفذاذ تستطيع حمل ما عجزت عنه السموات والأرض والجبال، مهما لقيت في سبيل حمله من التعب والعناء، والمشقة والإيذاء ،

إنه تعب وعناء ، ولكنه في ذات الله ، إنه جهد وبلاء ، ولكنه إصلاح بشرية مثقلة بالذنوب والأوزار ، إنه عمل في تصور الكسالى فوق الطاقة البشرية ، ولكنه إنقاذ أمة غاصت في الجاهلية إلى فروع الأذنين ، إنها رفاة وأشلاء ، ودموع ودماء ، ولكنها إنقاذ أمة وإحياء رسالة ، تنعم بها البشرية المهتدية أبد الدهر .

يقول المباركفوري في الرحيق المختوم (١٤٠٦هـ) :((الله أكبر ! ما أبسط هذه الأوامر في صورتها الظاهرة ، وما أروعها في إيقاعاتها الهادئة الخلابة ، ولكن ما أكبرها وأفخمها وأشدها في العمل ، وما أعظمها إثارة لعاصفة هوجاء تحضر جوانب العالم كله ، وتتركها يتلاحم بعضها في بعض)) ص ٦٩ ـ ٧٠ .

لقد عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا وعشرين سنة ، كلها دعوة وبلاغ ، وعطاء وجهاد ، ثلاثا وعشرين سنة ، كان يستغل فيها كل فرصة ، يدعو الناس فرادى وجاعات ، تارة بالسر وتارة بالجهار .

وحين نزل عليه قول الله تعالى :﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ سورة الشعراء آية٢١٤ قام صلى الله عليه وسلم ينادي في الناس داعيا إلى الله ، ملبيا أمر ربه ومولاه .

روى البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) من حديث عبد الله بن عباس قال : لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا ، فجعل ينادي يا بني فهر ! يا بني عدي ! لبطون قريش حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو ؟ فجاء أبو لهب وقريش ، فقال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقا ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب﴾ ج ٨ ص ٥٠١ والآية في سورة المسد برقم ١ .

وهكذا تعاقبت الأيام والليالي ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستغل تجمعات الناس في الأسواق والمحافل فيعرض عليهم الإسلام ، وربما خرج إلى القبائل خارج حدود مكة يدعوهم إلى الله فاهتدى على يديه من أراد الله له سعادة الدنيا والآخرة ، وظل السادرون في غيهم معرضين عن الحق ، حتى توفاهم الله .

وانتشر الإسلام في كل بيت ، والتفت الجموع حول صوت الحق ، تتعلم الإسلام وتتربى عليه ، وكانت مهمة التربية بعد الدخول في الإسلام مهمة شاقة وعسيرة ، تحتاج من المعلم والمربي أن يسخر كل طاقاته وإمكانياته ، وكل أنفاسه وخفقات قلبه لتربية الناس على الإسلام .

ولكي يظل صوت الحق يوجه الناس شرع الله له صلى الله عليه وسلم منبر الجمعة ، ليكون حلقة وصل بين الناس وبين تبليغ هذا الدين ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض على الناس من على هذا المنبر ما ينزل عليه من عند ربه من الوحي ، وتارة يفاجأ الناس بأمر لم يكن في الحسبان فينزل الوحي يعالج الموقف فيجمع صلى الله عليه وسلم الناس ، آمرا أحد أصحابه أن ينادي في الناس الصلاة جامعة ، فيجتمع الناس فيعرض عليهم أمر الله في الحادثة التي وقعت .

لقد كانت هذه السنوات من عمره صلى الله عليه وسلم كلها دعوة إلى الله، منها عشر في مكة ، وثلاث عشرة سنة أخرى في المدينة ، ضرب فيها النبي صلى الله عليه وسلم أروع الأمثلة في استغلال ساعات العمر في الدعوة إلى الله تعالى وتربية الناس على الإسلام ، حتى لحظة التنقل على ظهر الدابة من مكان إلى مكان ، كان لا يُفوِّت في ربط القلوب بالله تعالى ، ولهذا روى الترمذي في سننه (د - ت) أنه صلى الله عليه وسلم أردف خلفة مرة عبد الله بن عباس فقال : ﴿ يا غلام إني أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ﴾ ج ٤ ص ٥٧٦، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٤٠٨هـ) ج ٢ ص ٣٠٩

ومن الأحاديث الواردة في الدعوة إلى الله تعالى ما رواه البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) ومسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا ﴾ البخاري ج ١٣ ص ٣٠٢ ، مسلم ج ١٦ ص٤٦٨ .

وفيه أيضا من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ﴾ ج ٦ ص ٤٩٦ .

ولم يكتف صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الله بنفسه ، بل ربى من تحت يده من الصحابة على حمل هذه الرسالة ، فلما فقهوا دورهم في الحياة ، بعثهم إلى أطراف الدنيا يعلمون الناس الإسلام .

روى البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) من حديث معاذ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إنك تقدم قوما أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله ، فإذا عرفوا الله ، فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم ، فإذا فعلوا الصلاة ، فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة من أموالهم وترد على فقرائهم ، فإذا أطاعوا بذلك فخذ منهم ، وتوق كرائم أموال الناس ﴾ ج ٣ ص ٣٢٢ .

وفي رواية مسلم (شرح النووي د ـ ت) أن معاذا قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ﴿ إنك تأتي قوما من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة ألا إله إلا الله وأني رسول الله ، فإن هم أطاعوا لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لذلك ، فأعلمهم أن الله

افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيـائهم فترد في فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك ، فإياك وكرائم أمـوالهـم ، واتـق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينهـا وبين الله حجاب ﴾ ج ١ ص ٣١٠.

وبعث مصعب بن عمير إلى المدينة يعلم الناس الإسلام ، ويدعوهم إلى الله ، والتقى مصعب بأسيد بن حضير وسعد بن معاذ ، وأسعد بن زرارة فدعاهم إلى الله فأسلموا .

ذكر المباركفوري في الرحيق المختوم (١٤٠٦هـ) أن أسعد بن زرارة رضي الله عنه قال لمصعب بن عمير رضي الله عنه بعد أن أسلم :

((جاءك والله سيد من ورائه قومه ، إن يتبعك لم يتخلف عنك منهم أحد ، فقـال مصعـب لسعد بن مـعاذ : أو تقعـد فتـسمع ؟ فإن رضـيت أمرا قـبلته ، وإن كرهتـه عزلنا عنك ما تكره ، قـال : قد أنصفت ، ثم ركـز حربته فجلس ، فـعرض عليـه الإسلام ، وقـرأ عليه القـرآن ، قال : فـعرفنا والله في وجهـه الإسلام قـبل أن يتكلم ، في إشراقه وتهلـله ، ثم قال : كيف تصنعون إذا أسلمتم ؟ قـالا : تغتسل ، وتطهر ثوبك ، ثم تشهـد شهادة الحق ، ثم تصلي ركعتين ، ففعل ، ثم أخذ حربته فأقـبل إلى نادي قومـه ، فلما رأوه قـالوا : نحلف بالله لقـد رجع بغير الـوجه الذي ذهب به ، فلما وقف عليهم قال : يا بني عبـد الأشهل : كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا : سـيدنا وأفـضلنا رأيا ، وأيمننا نقيـبة ، قال : فـإن كلام رجالـكم ونساءكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسـوله ، فما أمـسى فيـهم رجل ولا امرأة إلا مـسلما ومسلمـة ، إلا رجل واحد وهو الأصيرم تأخر إسـلامه إلى يوم أحـد ، فأسلم ذلك اليوم وقاتل وقتل ، ولم يسجد لله سجدة)) ص ١٤١ .

وقد ذكر الذهبي في السير (١٤٠٥هـ) :

((أن قريشا سمعت هاتفا على أبي قبيس يقول :

فـإن يسلم السعـدان يصبح محمد بمكة لا يخشى خلاف المخالف

فقال أبو سـفيان : من السعدان ؟ سـعد بكر ، سعد تميم ؟ فسـمعوا في الليل الهاتف يقول :

أيا سعد سعد الأوس كن أنت ناصرا ويا سعد سعد الخزرجين الغطارف

أجيبا إلى داعي الهـدى وتمنيـــــا على الله في الفردوس منية عــارف

فـإن ثـواب اللـه للطالب الهـــدى جنان من الفردوس ذات رفــارف

فقال أبو سفيان : هو والله سعد بن معاذ وسعد بن عبادة)) ج ١ ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

وقد عزا الذهبي القصة إلى البخاري في التاريخ الصغير ج ١ص ٢٥ - ٢٦ ، وإلى مسلم أيضا .

لقد كـان من حسنات هذه الدعوة المعطاءة ، سـعد بن معـاذ ، الذي اهتز له عرش الرحمن يوم مات ، مع أن الحياة التي قـضاها في الإسلام لم تكن سوى سبع سنوات فقط ، لكنها سـبع مليئة بالهدى والرشـاد والدعوة والجهاد ، فتـبًّا للكسالى السادرين.

وقد بوب الإمـام مسلم في صحيحه (شـرح النووي د ـ ت) بقوله : باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليـه وسلم وشرائع الدين والدعاء إليه ، والسؤال عنه ، وتبليغه من لم يبلغه)) ج ١ ص ٢٩٤ .

وليس غـرض الباحث من عـرض هذه الأحاديث أو القـصص ، هو شرحـها والوقوف على كل كلمة فـيها ، بقدر ما يريد بيان أن السنة النبـوية المطهرة اهتمت بالدعـوة إلى الله تعـالى ، فـهـذا رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يحـمل الدعـوة

بنفسه، ويضحي من أجلها بكل غال ونفيس ، حتى أظهرها الله سبحانه ، ولم يكتف بذلك ، بل ربى أصحابه على أن يحملوا هم الإسلام ، وأن ينشروه في العالمين ، فشرقوا وغربوا ، وجنبوا وشمألوا ، وكان للجميع في نشر دين الله أغلى وسام .

حوافز الدعوة إلى الله تعالى في حياة الدعاة :

بما أن الدعوة إلى الله هي صمام الأمان الذي يحفظ الله به الأفراد والمجتمعات، فقد جعل الإسلام لها من الحوافز العظيمة ما يشحذ الهمم للقيام بها ، وتبليغها كل على حسب جهده وقدرته وطاقته، إذ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

إن هذه المهمة العظيمة التي بها صلاح البلاد والعباد ، لا يقوم بها إلا عظماء الرجال ، ويكفي دليلا على ذلك أن الذين انتدبوا لهذه المهمة العسيرة الشاقة ، هم صفوة الخلق على الإطلاق من الأنبياء والمرسلين، الذين حملوا هذه الراية لأقوامهم، ثم ختموا بالرسالة العالمية الخاتمة التي حمل لوائها خيرة الأنبياء والمرسلين ، وسيد ولد آدم ولا فخر رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ثم حملها من بعد عظماء الرجال في كل عصر ومصر .

ولهذا جعل الله تعالى حوافز عظيمة لمن يحمل هذه الوظيفة الجليلة ، تارة بالترهيب من التقاعس عن أدائها والقيام بحقها ، وتارة بالترغيب في الثواب العاجل والآجل لمن يحمل هذه الراية .

فمن الترهيب في التقاعس عن حملها ، وعدم القيام بحقوقها :

١ـ حلول لعنة الله تعالى ، قال الله تعالى :﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون * إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ﴾ سورة البقرة آية ١٥٩ ـ ١٦٠ .

٢ـ تشبيه من لا يقوم بها كالكلب والحمار اللذَين ضرب بأحدهما مثلا في الخبث والنجاسة ، وضرب بالأخر مثلا في الغباء والبلادة ، يقول تعالى :﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ سورة الأعراف آية ١٧٥ .

ويقول سبحانه :﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ سورة الجمعة آية ٥ .

وأما الحوافز التي وردت بالثواب العاجل والآجل فمنها :

١ـ ثناء الله تعالى على هذه الطائفة المباركة من حملة الدعوة ، قال تعالى : ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين ﴾ سورة فصلت آية ٣٣ .

٢ـ بهاء الوجه ونضارته في الدنيا والآخرة ، وذلك بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد روى الترمذي في سننه (د – ت) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :﴿ نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه ﴾وفي رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :﴿ نضر الله امرأ سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى من سامع ﴾ ج ٥ ص ٣٣، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٤٠٨ هـ) ج ٢ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ .

٣ـ حفظ الله تعالى للداعية إلى دينه ، فهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام يدعو قومه إلى الله ، فيجتمعون في ليلة آثمة يخططون للقضاء على صوت الحق ، الذي ينطق على لسان الخليل عليه السلام ، فحفروا خندقا عظيما في الأرض وملؤوه نارا ، ثم ألقوا بإبراهيم فيه ، فخاطب الله النار بقوله سبحانه :﴿ قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم * وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين﴾ سورة الأنبياء آية ٦٩ ـ ٧٠ .

وقل مثل ذلك في حفظ الله لنبيه يونس بن متى عليه السلام وهو يعيش في ظلمات ثلاث ، قال الله تعالى عنه :﴿ فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننج المؤمنين ﴾ سورةالأنبياء ٨٧ ـ ٨٨ .

وقل مثل ذلك في حفظ الله لنبيه موسى بن عمران عليه السلام ، حينما عبر البحر فارًّا من فرعون وجنوده ، وقل مثل ذلك في حفظ الله لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم في عشرات المواضع الني حاول فيها الكفر وأهله ، قتله والخلاص منه ومن دينه ، حتى قال الله له :﴿ يا أيها النبي بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ سورة المائدة آية ٦٧ .

٤ـ استجابة الدعاء ، فهذا نبي الله نوح عليه السلام ، يدعو قومه إلى الله فلما أصروا على الغواية ، وأعلمه الله أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، دعا عليهم فاستجاب الله دعوته ، وفي هذا يقول تعالى :﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر * فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر ﴾ سورة القمر آية ٩ـ١٤ .

الآثار الوقائية للدعوة إلى الله في حفظ الأفراد والمجتمعات :

إن الدعوة إلى الله تعالى هي سر سعادة الأمم والشعوب ، إنها تزرع العقيدة في النفوس ، فتثمر الخير بكل صوره وأشكاله ، الخير للإنسان في تعامله مع نفسه ، وأسرته ، وجيرانه ، ومجتمعه ، وأمته ، بل وحتى في تعامله مع أعدائه ، بل إنها لتتعدى عالم الإنسان ، إلى عالم البهائم والعجماوات ، فتتعامل معها وفق العدل والرحمة التي أمر بها الإسلام .

وهذه صورة من صور النفوس المؤمنة في تعاملها مع أعدائها يوم كان للدعوة إلى الله تعالى طريقا إلى قلوبهم فأنتجت هذا المثال :

ذكر السباعي في كتابه من روائع حضارتنا (١٣٧٩هـ) :

((ولما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز ، وفد إليه قوم من أهل سمرقند ، فرفعوا إليه أن قتيبة ، قائد الجيش الإسلامي فيها ، دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين غدرا بغير حق ، فكتب عمر إلى عامله هناك ، أن ينصب لهم قاضيا ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى بإخراج المسلمين من سمرقند أخرجوا ، فنصب لهم الوالي جميع بن حاضر الباجي ، قاضيا ينظر في شكواهم ، فحكم القاضي وهو مسلم بإخراج المسلمين ، على أن ينذرهم قائد الجيش الإسلامي بعد ذلك ، وينابذهم وفق مبادىء الحرب الإسلامية ، حتى يكون أهل سمرقند على استعداد لقتال المسلمين فلا يؤخذوا بغتة ، فلما رأى ذلك أهل سمرقند ، رأوا ما ليس له مثيل في التاريخ ، من عدالة تنفذها الدولة على جيشها وقائدها ، قالوا : هذه أمة لا تحارب، وإنما حكمها رحمة ونعمة ، فرضوا ببقاء الجيش الإسلامي ، وأقروا أن يقيم الجيش الإسلامي بين أظهرهم)) ص ١٠٢ .

إن الإيمان الذي هو القوة المحركة لفعل الخير ، لا يمكن أن تعمل عملها في غياب الدعوة إلى الله ، وإلهاب القلوب بسياط المواعظ والعبر ، التي جاء بها كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وهدي سلف الأمة .

وإذا أردنا أن نعرف آثار الدعوة إلى الله في صلاح الأفراد والمجتمعات ، فلنضع الجاهلية الرعناء بما فيها من ضلال وانحراف في كفة ميزان ، ولنضع مجتمع الصحابة بعد الاستجابة للدعوة الإسلامية في الكفة الأخرى ، وحين نفعل ذلك يظهر للجميع أثر الدعوة إلى الله في صلاح الأفراد والأسر والمجتمعات ، ويظهر نتاج الدعوة إلى الحق في سلوك الناس .

سبحان الله ! إن ذاك المشرك الذي كان يلغي عقله في الجاهلية ، فيجمع التراب ويحلب عليه الشاة ليجمد ، ثم يطوف به ، هو الذي يقول بعد إسلامه لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

سبحان الله ! إن ذاك الجاهلي الذي كان يسجد للشجر والحجر في الجاهلية، يقف بعد إسلامه مناجيا ربه قائلا : اللهم اجعلني عبدا لك وحدك .

سبحان الله ! إن ذاك المجتمع الذي كانت تفرقه الحروب ، وتمزقه الغارات ، أيام الجاهلية ، يلتحم بعد إسلامه صفا واحدا في إخاء عجيب ما سمع التاريخ له مثيلا .

سبحان الله ! إن ذاك الجبان الذي يضطرب فرقا إذا هددته جيوش كسرى وقيصر ورستم أيام الجاهلية ، يقف بعد إسلامه وفي مجلس كسرى يقول : إن الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

سبحان الله ! إن ذاك الجبار الذي يدفن بنته وهي حية في فترة الجاهلية ، هو الذي يقف بعد إسلامه يحملها ويقبلها ويداعبها ويمازحها .

سبحان الله ! إن ذاك الطاغوت الفظ الغليظ المتسلط زمن الجاهلية ، هو الذي يقف بعد إسلامه أمام الناس وفي خديه خطان أسودان من كثرة البكاء من خشية الله .

سبحان الله ! إن ذاك الظالم المعاند اللامبالي أيام الجاهلية ، هو الذي يقول بعد إسلامه في خشية مفرطه ، وشفافية عالية ، والله لو عثرت بغلة على ضفاف دجلة لخشيت أن يسألني ربي عنها يوم القيامة ، لم لم تسوي لها الطريق ؟ .

سبحان الله ! ما الذي حدث ؟ ما هذا التحول العجيب في أخلاق الناس ؟ ما هذا التغير الكبير في أحوال المجتمعات ؟ ما الذي حدث بالضبط ؟ .

والجواب : إنها الدعوة إلى الله يوم واكبها الإخلاص لله ، والسير على منهج الله ، والصبر على الأذى في ذات الله .

إننا حين نقلب صفحات التاريخ الجاهلي قبل الدعوة الإسلامية ، لا نجد إلا نكتا سوداء قاحلة ، على مستوى الأفراد وعلى مستوى المجتمعات .

أين العلماء في البيئات الجاهلية ؟ لا شيء ! إذ لو كان هناك علماء ما أطلقت كلمة الجاهلية .

أين الإبداع في البيئات الجاهلية ؟ لا شيء ! لأن الجاهلية تقضي على المبدعين ، ولا تحسب لهم في رصيدها حساب .

أين التعاون على البر والتقوى في المجتمعات الجاهلية ؟ لا شيء ! لأن البر كلمة غير معروفة في أوساط مجتمعات لا تعرف إلا الحديد والنار ، ولا تتعامل إلا وفق قانون الغاب ، القوي يأكل الضعيف .

يقول الغزالي في فقه السيرة (١٤٠٢هـ) :((وقد كانت مكة قبل البعثة تموج بحركة عاصفة من الشهوات والمآثم ، وكان الرجال الذين يحيون فيها أمثلة قوية لنضج الأهواء ، وشلل الأفكار ، أو نمائها في ظل الهوى الجامح ولخدمته وحده ... كفر بالله واليوم الآخر ، إقبال على نعيم الدنيا ، وإغراق في التشبع منه ، رغبة عميقة في السيادة والعلو ونفاذ الكلمة ، عصبيات طائشة تسالم

وتحارب من أجل ذلك ، تقاليد متوارثة توجه نشاط الفرد المادي والأدبي داخل هذا النطاق المحدود)) ص ٢٢ - ٢٣ .

إن في الدعوة إلى الله تعالى وقاية للمجتمعات من الانحراف والتفكك والانهيار ، لأنها تزرع العقيدة في النفوس ، العقيدة التي تجعل من العبد رقيبا على نفسه ، وإن غابت عنه عيون الناس ، فإذا ما رُسم للعبد حق مجتمعه عليه ، حملته عقيدته على تنفيذ هذا الحق ، بحافز ذاتي ، ودافع إيماني ، لأنه يرجو بذلك ما عند الله تعالى حين يفعل ، ويخشى عذاب الله تعالى وسخطه حين يتقاعس أو يفرط ، فإذا ما قام كل فرد في المجتمع بهذا الدور ، وجد المجتمع المثالي الذي يسير على هدي سماوي ، ومنهج رباني ٠

إن منهج الإسلام في تربية المجتمع تبدأ بتربية الأفراد تربية إيمانية صحيحة ، لأن هؤلاء الأفراد هم الذين يشكلون في نهاية المطاف المجتمع المسلم ٠

يقول زنجير في كتابه أهمية الإيمان وآثاره في بناء الفرد والمجتمع (١٤٠٩هـ): ((عندما يربي الإيمان الفرد ، فإن ذا العمل هو اللبنة الأولى في تربية المجتمع ، ولكن الإيمان لا يكتفي بتربية الفرد ، وإنما يتخذ من تربية الفرد وسيلة إلى تربية المجتمع ، وما ذلك إلا لأن العلاقة بين الفرد والمجتمع علاقة أخذ وعطاء ، فلا يمكن للمؤمن أن يشعر بالسعادة والهدوء والاستقرار إلا في ظل مجتمع مؤمن ، وإلا فإنه سيعاني من ضغط المجتمع اللاديني وأذاه)) ص ١٦٥ .

إن الدعوة إلى الله تعالى ، سبب في استقامة الناس على أمر الله تعالى الأمر الذي يحقق للمجتمع المسلم الخير في جوانب حياته المختلفة ، الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والإعلامية ، والتعليمية ، والفكرية والتربوية ، وغيرها من الجوانب ٠

وجميع هذه الجوانب يحكمها الإيمـان بالله ،والتعامل وفق مبادىء الأخلاق الإسلاميـة الرفيعة ، فليس الاقتـصاد في الإسلام أمرا ماليـا مجردا عن الخلق والدين والمصلحة للفـرد والمجتمع ، وليـست السياسة في الإسـلام ظلم وتعسف واستبداد بالرأي ، إنما هي رسم للعلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وإقامة الحكومة الإسلامية على نظام الحق والعدل والرحمة ٠ وهكذا في كل جانب ٠

يقول الزرقـاء في كتـابه شرح القواعـد الفقـهية (١٤٠٣هـ) :((فـالإسلام ينظر إلى المجتمع أو الحـياة على أنها متكاملة ، فلا ينفصل الاقـتصاد عن الأخلاق ، ولا ينفـصل العـمل عن الإيمان ، ولا يمكن أن نقـبل أمـرا يجـلب فـائدة من باب ، ومـضرة من باب آخـر ، والقـاعدة الشـرعيـة تقـول : درء المفاسـد أولى من جلب المصالح)) ص ٥٠ .

إن في الدعـوة إلى الله وقـاية للمـجتـمع في جـانبـه الاقـتـصـادي من شظف العيش وذهـاب بركة الأرزاق في ظل الربا الذي هو مـحاربة لله ورسـوله ، وسبب في حلول الكوارث والعـقـوبات في الدنيـا بالأزمات الاقـتـصادية ، وذهاب بركـة الأموال ، وحلول العذاب في الآخرة٠

كمـا أن فيهـا وقاية لحق الفرد والمجتمع ، فلا طغيان للمصلحـة الفردية على الجماعية ، ولا العكس ، ولا احتكار ولا سرقة ولا اختلاس ولا ظلم ولا اعتداء ٠

كما أن في الدعـوة إلى الله تعالى وقاية للمجـتمع في جانبه الاجـتماعي من الكوارث الأخلاقية ، ومن التفكك والتمزق والاختلاف ٠

كمـا أن في الدعوة إلى اللـه تعالى وقـاية للمجـتمع في جانـبه السيـاسي من الظلم والتسلط والاسـتبداد والطبقـية ، وذلك حين ترسم علاقـة الحاكـم بالمحكوم ، والمحكوم بالحاكـم ، وعلاقة الدولة المسلمة بأختـها ، وعلاقة المسلمين بغيرهـم ، وفق أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم ٠

كما أن في الدعوة إلى الله وقاية للمجتمع في جانبه الإعلامي من الانحراف، حين يتخلى عن مهمته في حمل راية الإسلام ، ونشرها على أوسع نطاق ، أو فيما يقدمه من برامج ، تخل بالأدب ، وتكسر الحياء .

كما أن في الدعوة إلى الله تعالى وقاية للمجتمع في جانبه التعليمي من التخلي عن دوره في صياغة الشخصية الإسلامية ، وذلك بانتشار القدوات السيئة، أو وجود المناهج الغثة التي تحمل أفكارا مناوئة للعقيدة الإسلامية الصحيحة ، أو الأنشطة التي لا تعود على الناشئة بتحقيق الهدف من التعليم في المجتمع المسلم .

كما أن في الدعوة إلى الله تعالى وقاية للمجتمع في جانبه الفكري من الانحراف في الجوانب التاريخية والموضوعية والمنهجية ، وصيانة له من انتشار الأفكار الهدامة المناوئة للعقيدة الإسلامية ، والتي ربما حمل رايتها بعض المنتسبين إلى الإسلام من أهل الفكر المستنير ، ممن يحرصون على أن يزاوجوا بين الإسلام بتشريعه الرباني وبين الحضارة الغربية في خيرها وشرها وحلوها ومرها .

يقول سلطان في كتابه جذور الانحراف في الفكر الإسلامي الحديث (١٤١٢هـ) مبينا بعض الجوانب الوقائية التي تحفظ الأمة في جانبها الفكري :

((إن كافة الانحرافات التي يتصدى لها الفكر الإسلامي الآن ، ويطارد فلولها المتحصنة ثقافيا وإعلاميا ، في الفكر والأدب والقيم والفنون والمعارف والمناهج والمذهبيات الاقتصادية والسياسية وغيرها ، إنما هي نتائج طبيعية للخلل الأساسي الذي وقع لحظة الالتقاء الأوليالمبكرة مع الحضارة الغربية ، هذا الخلل في الرؤية والتصور والمنهج ووعي النهضة ، هو ما نحن في مسيس الحاجة إلى دراسته وتفهمه عن قرب ، وإدراك جذوره ، ومعرفة حساسيات التفكير النهضوي التي كانت تعيش في وجدان أصحابه ورموزه ، لكي ندرك - على وجه التحديد والدقة - كيف ولد الانحراف ، وكيف ضلوا السبيل ، وبالتالي يكون بإمكاننا أن نبني

مشروعنا الجديد للنهضة ، ونحن مطمئنون إلى معرفتنا المسبقة بمواطن الزلات والمزالق والأوهام وألغام الطريق)) ص ٤ .

كما أن في الدعوة إلى الله تعالى وقاية للمجتمع في جانبه التربوي ، من التخبط في تحديد الأهداف والغايات ، ووضع الوسائل المناسبة لتحقيقها .

يقول الغزالي في كتابه هموم داعية (١٤٠٣هـ) :((إن الانهيار الذي عرض لأمتنا في العصور الأخيرة ، يرجع إلى أسباب علمية واقتصادية وسياسية كثيرة ، بيد أن فقدان التربية السديدة ، والأخلاق الصلبة يرجع إلى العوج الهائل في وسائل التربية)) ص ٢٦٣ .

وخلاصة القول : إن في الدعوة إلى الله تعالى حفظ للمجتمع وصيانة له من الانحراف في كل جانب من جوانب حياته ، فإذا انتشرت الدعوة إلى تعالى ، وخاطبت الإيمان المركوز في الفطر ، نمت آثاره الطيبة في حياة الأفراد ، فتحقق لهم رغد العيش وسعة الرزق من جانب ، وتحقق لهم من جانب آخر نعمة الأمن والاستقرار ، وتحقق لهم الثبات على الإيمان ، وتحقق لهم فوق ذلك كله الثواب العظيم من الله تعالى ، والهداية إلى صراطه المستقيم في كل عمل من أعمال دينهم و دنياهم ، وفي هذا المعنى يقول الله تعالى :﴿ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا * وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما * ولهديناهم صراطا مستقيما ﴾ سورة النساء آية ٦٦ - ٦٨ .

الجانب الوقائي الثاني لحفظ المجتمع (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) :

هذا هو الجانب الثاني الذي يعتبر السياج الواقي لحفظ المجتمع من الشرور والآثام على اختلاف صورها وأشكالها .

وإن كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صورة من صور الدعوة إلى الله تعالى ، إلا أن له من الخصائص ما يميزه عنها ، ولهذا عده الباحث جانبا وقائيا مستقلا ، له أثره العظيم في حفظ الأفراد والأسر والمجتمعات .

فما المراد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ وما الفرق بينه وبين الدعوة إلى الله تعالى ؟ .

يقول المسعود في كتابه الأم بالمعروف والنهي عن المنكر وأثرهما في حفظ الأمة (١٤١٣هـ) في بيان حد المعروف، بعد أن ساق جملة من تعاريف السلف ، ثم استخلص منها تعريفا شاملا فقال :((هو كل ما أمر به الشارع ، من اعتقاد أو قول أو فعل أو إقرار ، على سبيل الوجوب أو الندب أو الإباحة)) ج ١ ص ٤٧ .

وعرف المنكر بعد أن ساق جملة من أقوال السلف في ذلك فقال :((كل مانهى عنه الشارع من اعتقاد أو قول أو فعل على سبيل التحريم أو الكراهة)) ج ١ ص ٥٦ .

وإذا كانت الدعوة إلى الله تعالى هي حمل رسالة الإسلام التي نزلت من عند الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتبليغها للناس كاملة بأصولها وفروعها ، وذلك بكل وسيلة شرعية مباحة ، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعد وسيلة من وسائل الدعوة إلى الله تعالى ، بل هو أعظمها على الإطلاق .

يقول الغزالي في الإحياء (١٤١٢هـ) مبينا أهمية هذا الجانب الوقائي الكبير وآثاره العظيمة في حفظ المجتمعات :

: ((هو القطب الأعظم في الدين ، وهو المهمة الذي ابتعث الله به النبيين أجمعين ، ولو طوى بساطه ، وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمت الفترة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد ، واتسع الخرق ، وخربت البلاد ، وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد ، وقد كان الذي خفنا أن يكون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، إذ قد اندرس من هذا ماقطع عمله وعلمه ، وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه ، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق ، وانمحت عنها مراقبة الخالق ، واسترسل الناس في اتباع الهوى

والشهوات استرسال البهائم ، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم ، فمن سعى في تلافي هذه الفترة ، وسد هذه الثلمة ، إما متكفلا بعملها ، أو متقلدا لتنفيذها ، مجددا لهذه السنة الدائرة ، ناهضا بأعبائها ، ومتشمرا في إحيائها ، كان متأثرا من بين الخلق بإحياء سنة ، أفضى الزمان إلى إماتتها ، ومستبدا بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها)) ج ٢ ص ٤٤٣ .

أما الخصائص التي تتميز بها شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من وجهة نظر الباحث فهي :

١ـ سهولة القيام بهذه الشعيرة العظيمة ، التي يستطيعها كل أحد ، الكبير والصغير ، والذكر والأنثى ، والأمي والمتعلم ، فإن هؤلاء جميعا إذا علموا بوجوب أمر من أمور الدين أو حرمته ، قدروا على الأمر به إن كان معروفا ، أو النهي عنه إن كان منكرا ، فيكفي من أحدهم أن يقول للمتهاون في الصلاة : يا أخي صل مع المسلمين ، ويكفي من الآخر أن يقول : يا عبد الله لا تأكل الربا فإن أكل الربا محاربة لله ورسوله ، وهكذا ، بخلاف الدعوة إلى الله تعالى فإنها تحتاج إلى مزيد علم وجرأة وبلاغة .

٢ـ قدرة كل فرد في الأمة على أدائها والقيام بواجبها ، بإحدى درجاتها الثلاث ، اليد أو اللسان أو القلب ، بخلاف الدعوة إلى الله فإن الذي لا يقدر عليها تسقط عنه .

٣ـ أنه لا يعذر أحد من المسلمين بتركها ، لأن فيها درجة يستطيع القيام بها كل إنسان ، ألا وهي الإنكار بالقلب ، فإن المسلم يقدر على الإنكار بقلبه ، ولا يخشى ضررا ، لأن ما في القلب لا يطلع عليه الناس ، بخلاف الدعوة إلى الله فإنها لا تكون بالقلب ، وقد يعذر بعض الناس بتركها ، أما لعدم العلم ، أو حين يخشى على نفسه الأذى إن جهر بها .

حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من حيث العموم واجب بإجماع الأمة المسلمة ، ولم يقل بخلاف ذلك أحد ممن يعتد بقوله .

وفي وجوب القيام بهذه الشعيرة العظيمة يقول ابن كثير في تفسيره (١٤١٤هـ) :((وإن كان ذلك ـ أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ واجبا على كل فرد من الأمة بنفسه)) ج ٢ ص ١٠٤ .

يقول النووي في شرح صحيح مسلم (د ـ ت) :((قد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، وهو أيضا من النصيحة التي هي من الدين)) ج ١ ص ٥١ .

وقال ابن حزم في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل (١٣٩٥هـ) : ((اتفقت الأمة كلها على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا خلاف من أحد منهم)) ج ٤ ص ١٧١ .

وقال الجصاص في أحكام القرآن (١٤٠٥هـ) :((فأجرى النبي صلى الله عليه وسلم فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مجرى سائر الفروض من القيام به مع التقصير في بعض الواجبات ، ولم يدفع أحد من علماء الأمة وفقهائهم سلفهم وخلفهم وجوب ذلك)) ج ٢ ص ٣٢٠ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (١٤١٠هـ) :((ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة ، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة ، وأصل عظيم من أصولها ، وركن مشيد من أركانها وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها)) ج ١ ص ٣٦٩ .

وإن كان علماء الإسلام قد اختلفوا هل هو فرض عين ، أو فرض كفاية ، أو واجب حسب القدرة والاستطاعة ، وكل ذلك بحسب فهمهم لما ورد في كتاب

الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من الآيات والأحاديث ، فإن الإنكار لا يقف عند مجرد اليد أو اللسان ، فقد يتعذر على البعض القيام بهما أو بأحدهما ، ولكن الإنكار بالقلب واجب على كل إنسان ، لا يعذر أحد بتركه ولهذا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الإنسان إذا رأى المنكر ولم يتمعر وجهه فإن هذا دليل على ضعف الإيمان في قلبه ، وقلة ثمرته في حياته .

فقد روى مسلم في صحيحه (شرح النووي د - ت) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ من رأى منكرا فلينكره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان ﴾ ج ٢ ص ٣٨١ .

وفيه أيضا من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :﴿ ما من نبي بعثه الله في أمة من الأمم إلا كان له حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنته ، ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك ما الإيمان حبة خردل ﴾ ج٢ص٣٨٥ - ٣٨٦ .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١٤٠٦هـ) :((فأما الإنكار بالقلب فيجب بكل حال ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك أدنى أو أضعف الإيمان ، وقال : ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل ، وقيل لابن مسعود رضي الله عنه : منميت الأحياء ؟ فقال : الذي لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا ، وهذا هو المفتون الموصوف بأن قلبه كالكوز مجخيا في حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما في الصحيحين (تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير ٠٠٠))ص٣٠ - ٣١ .

أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حياة الأمة :

تكمن أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أمور :

١ـ مشروعية هذه الشعيرة العظيمة على أمم الأرض كلها ، فقد بلغ اهتمام الإسلام بتشريع هذه العبادة العظيمة ، أن فرضها على الأمم جميعا ، لأن مجتمعات الأرض كلها لا يمكن أن يقوم لها بنيان في غياب هذه الشعيرة ، ففي مشروعيتها على أهل الكتاب يقول الله تعالى :﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأؤلئك من الصالحين﴾ سورة آل عمران آية ١١٣ ـ ١١٤ .

وهذا لقمان الحكيم وقد عاش في فترة سبقت مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بكثير ، كما قال ذلك القرطبي في تفسيره (١٣٨٧هـ) :((أدركه داود عليه السلام وأخذ عنه العلم ... وقيل كان قاضيا في بني إسرائيل)) ج ١٤ ص٥٩ يقول لولده موصيا :﴿ وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾ سورة لقمان آية ١٧ .

وفي مشروعيتها على أمة محمد صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ سورة آل عمران ١١٠ .

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة شرعية خوطبت به الأمم كلها ، وحملها أنبياء الله تعالى في كل عصر ومصر ، وفي هذا المعنى يقول القرطبي في تفسيره (١٣٨٧هـ) :((إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانا واجبين في الأمم المتقدمة ، وهو فائدة الرسالة وخلافة النبوة)) ج ٤ ص ٤٧ .

ولعل المتأمل في الآية التي أثنت على طائفة من أهل الكتاب ، والآية الأخرى التي أثنت على أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، في حمل هذه الشعيرة ، يلاحظ أمرين :

أ ـ أن الآية التي تحدثت عن أهل الكتاب لم تثن عليهم جميعا ، إنما أثنت على طائفة منهم ، وهم التالون لآيات الله ، الساجدون له ، المؤمنون به ، المصدقون باليوم الآخر ، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، أما الآية التي تحدثت عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لم تستثن منهم أحدا ، بل خاطبت كل فرد في الأمة، وهذا يدل على خيرية هذه الأمة وكرامتها على سائر الأمم ، وفيه إشارة إلى أن مهمتها في الأرض يفوق مهمة غيرها ، وأن مسئوليتها في الأرض مسئولية عالمية تبدأ بإصلاح نفسها ، ثم تنقل الخير إلى غيرها من أمم الأرض كلها .

ب ـ أن الآية التي فيها الثناء على طائفة من أهل الكتاب ، سبق فيها الإيمان بالله واليوم الآخر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بينما في الآية التي أثنت على أمة محمد صلى الله عليه وسلم سبق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الإيمان بالله واليوم الآخر ، وما ذلك إلا لأهمية هذه الشعيرة العظيمة عند الأمم كلها عامة ، وعند أمة محمد صلى الله عليه وسلم على وجه الخصوص .

٢ ـ تقديمها على الإيمان بالله حين شرعت على أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، مع أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يكون إلا بعد الإيمان بالله ، فكأن المعنى : لقد كان الناس في جاهلية جهلاء ، وضلالة عمياء ، يترقبون من ينتشلهم من الردى ، ويبصرهم من العمى ، فكنتم أنتم خير أمة مرتقبة أخرجت لهم لأن سر خيريتكم محصور في ثلاث : تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله .

٣ ـ أن خير هذا العمل يتعدى للغير ، فالمؤمن حين يؤمن بالله تعالى فإنما يصلح بذلك الإيمان نفسه ، وحين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فإنه يصلح غيره

، يقول الأندلسي في البحر المحيط (١٤١٣هـ) متحدثا عن المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم :((لما كملوا في أنفسهم سعوا إلى تكميل غيرهم بهذين الوصفين)) ج ٣ ص ٣٩ .

ويقول الألوسي في روح المعاني (١٤٠٨هـ) معلقا على وصية لقمان لابنه: ((يا بني أقم الصلاة تكميلا لنفسك ، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر تكميلا لغيرك)) ج ١١ ص ٨٩ .

٤- ولأهمية هذه الشعيرة العظيمة جاء الأمر بها في كتاب الله تعالى وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم في عشرات المواضع ، تارة بالأمر الصريح ، وتارة بالثناء على حَمَلَتِها ، وتارة بلعن من تركها من الأمم ، وتارة ببيان آثارها الطيبة في صلاح البلاد والعباد ، أو العكس .

بعض ما ورد في الكتاب والسنة من الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

أولا : ما ورد بصيغة الأمر :

* أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بحمل هذه الشعيرة فقال مخاطبا رسوله صلى الله عليه وسلم :﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ سورة الأعراف آية ١٩٩ .

* أمر الله سبحانه المؤمنين بحمل هذه الشعيرة فقال مخاطبا أمة محمد صلى الله عليه وسلم :﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ سورة آل عمران آية ١٠٤ .

* ذكر القرآن الكريم أمر لقمان لولده في وصيته بقوله:﴿ يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾ سورة لقمان آية ١٧ وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد في شرعنا ما يرده .

* ومنه ما رواه ابن ماجة في سننه (د - ت) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم ﴾ ج ٢ ص ١٣٢٧، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٤٠٨هـ) ج ٢ ص ٣٦٧ .

* ومنه ما رواه الترمذي في سننه (د - ت) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر وليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه فتدعونه فلا يستجيب لكم ﴾ ج ٤ ص ٤٠٦ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٤٠٨ هـ) ج ٢ ص ٢٣٣ .

* وفيه أيضا من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :﴿ إنكم منصورون ومصيبون ومفتوح لكم، فمن أدرك ذاك منكم فليتق الله وليأمر بالمعروف ولينه عن المنكر ، ومن يكذب علي متعمدا فليتبوأ قعده من النار ﴾ ج ٤ص ٤٥٤، وصححه الألباني ج ٢ ص ٢٥٥ .

ثانيا : ما ورد بصيغة الثناء على أهل هذه الشعيرة :

* في ثناء الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم يقول تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ سورة الأعراف آية١٥٧ .

* في ثناء الله تعالى على أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، في حملها لهذه الشعيرة يقول تعالى :﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ سورة آل عمران آية ١١٠ .

* في ثناء الله تعالى على المؤمنين الذي يقـومون بهذه العبـادة يقول تعالــى :
﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعـضهم أولياء بعض يأمـرون بالمعروف وينهـون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعـون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ سورة التوبة آيه ٧١ .

ويقـول جل ثناؤه :﴿ التـائبـون العـابدون الحـامـدون السائحـون الراكـعـون السـاجدون الآمـرون بالمعـروف والناهون عن المنكـر والحافظون لحـدود الله وبشـر المؤمنين ﴾ سورة التوبة آية ١١٢ .

* في ثناء الله تعالى على الذين يجعلون شكر نعـمة التمكين في الأرض إقامة الصلاة وإيتـاء الزكاة والأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر يقـول تعالى :﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقـاموا الـصلاة وآتوا الزكـاة وأمروا بالمـعروف ونهـوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ سورة الحج آية ٤١ .

* في ثناء الله تعـالـى على حـملة هذه الراية من أهل الكتـاب يقـول تعـالى :
﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله والـيوم الآخـر ويأمـرون بالمعـروف وينهـون عن المنكر ويسـارعـون في الخيرات وألئك من الصالحين﴾ سورة آل عمران آية ١١٤ .

* ومن ذلك مـا رواه البـخـاري في صحـيحـه (مع الفـتح د ـ ت) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ مابعث الله من نبي ولا اسـتخلف من خليـفة إلا كـان له بطانتـان : بطانة تأمره بالمعـروف وتحضه عليــه ، وبطانـة تأمـره بالشر وتحضه عليه فالمعصـوم من عصم الله تعالى ﴾ ج ١٣ ص ١٨٩ .

* روى أبو داود في سننه (١٤٠٩هـ) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله أنه قال : قـال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ أفـضل الجهاد كلمـة عدل ـ

وفي رواية حق - عند سلطان جائر ﴾ ج ٢ ص ٥٢٨، والحديث صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤١٥هـ) ج ١ ص ٨٨٦ .

ثالثا : ما ورد في ذم من تقاعس عن حمل هذه الشعيرة العظيمة :

* ذم الله تعالى المتقاعسين عن حمل هذه الراية من أهل الكتاب بقوله : ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ سورة المائدة آية٧٩ .

* ذم الله تعالى المنافقين الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف نتيجة لانتكاس المفاهيم الصحيحة في نفوسهم بقوله :﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ سورة التوبة ٦٧ .

* ذم الله تعالى النجوى إلا في بعض الحالات ومنها الأمر بالمعروف بقوله : ﴿ لاخير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أومعروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما ﴾ سورة النساء آية ١١٤ .

* ومن ذلك ما رواه ابن ماجة في سننه (د -ت) من حديث أبي بكر رضي الله عنه قال : بعد أن حمد الله وأثنى عليه :((يا أيها الناس ، إنكم تقرؤون هذه الآية ، وتضعونها على غير موضعها :﴿ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ وإنا سمعنا النبي صلى الله عليه وسلم يقول :﴿ إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب ﴾ وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :﴿ ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ، ثم يقدرون على أن يغيروا ، ثم لا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب ﴾ ج ٢ ص ١٣٢٧ ،

والحديث صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٤٠٩هـ) ج ٣ ص ٨١٨.

* ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فيقول بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه ﴾ ج ١٨ ص ٣٢٩ .

* ومن ذلك ما رواه ابن ماجة في سننه (د - ت) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان مما قال : ﴿ ألا لا يمنعن رجل هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه ﴾ ج ٤ ص ٤١٩ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٤٠٨هـ)

* وفيه من حديث جابر رضي الله عنه قال : لما رجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرة البحر قال :﴿ ألا تحدثوني بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟ قال فتية منهم : بلى يا رسول الله ! بينا نحن جلوس ، مرت بنا عجوز من عجائز رهابينهم تحمل على رأسها قلة من ماء ، فمرت بفتى منهم ، فجعل إحدى يديه بين كتفيها ، ثم دفعها ، فخرت على ركبتيها ، فانكسرت قلتها ، فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت : يا غدر ! إذا وضع الله الكرسي ، وجمع الأولين والآخرين ، وتكلمت الأيدي والأرجل فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غدا، قال : يقول رسول لله صلى الله عليه وسلم :﴿ صدقت ، صدقت ، كيف يقدس الله أمة لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم ﴾ ج ٢ ص ١٣٢٩ وصححه الألباني ج ٢ ص ٣٦٨ .

بعض مواقف السلف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

لقد كان سلفنا الصالح رضوان الله عليهم من أعظم الناس تقوى لله في هذا الجانب ، فكانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، لا تأخذهم في الله لومة لائم ، وليست هذه المواقف منهم رضي الله عنهم إلا نتيجة لما عندهم من العلم بآثار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في صلاح البلاد والعباد ، والحيلولة بين الناس وبين الفساد .

روى ابن ماجة في سننه (د - ت) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : أخرج مروان المنبر في يوم عيد ، فبدأ بالخطبة قبل الصلاة ، فقال رجل : يا مروان ! خالفت السنة ، أخرجت المنبر في هذا اليوم ، ولم يكن يُخرج ، وبدأت بالخطبة قبل الصلاة ، ولم يكن يُبدأ بها ، فقال أبو سعيد : أما هذا فقد قضى الذي عليه ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :﴿ من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان ﴾ ج ١ ص ٤٠٦ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٤٠٨هـ) ج ٢ ص ٣٦٩ .

وذكر ابن كثير في تفسيره (١٤١٤هـ) تحقيق الوادعي ، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب من على المنبر ذات يوم ، وكان مما ذكر في الخطبة نهيه عن المبالغة في مهور النساء فقامت امرأة تنكر عليه قائلة :﴿ يا أمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا النساء صداقهم على أربعمائه درهم ؟ قال : نعم ، فقالت : أما سمعت ما أنزل الله في القرآن ؟ قال : وأي ذلك ؟ فقالت : أما سمعت الله يقول :﴿ وآتيتم أحداهن قنطارا ﴾ فقال : اللهم غفرا ، كل الناس أفقه من عمر ، ثم رجع فركب المنبر ، فقال : إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صداقهن على أربعمائة درهم ، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب فليفعل)) ج ٢ ص ٢٨٨ .

وقد ذكر الطبري في الرياض النضرة (د ـ ت) ما معناه : أن رجلا قام ينكر على عمر بن الخطاب وهو يخطب الناس في المسجد وقد لبس ثوبين والناس من ثوب واحد ، فقال عمر : اسمعوا رحمكم الله ، فقال الرجل والله لا نسمع ، والله لا نسمع ، فلما تبين عمر السبب ، قال : أين عبد الله بن عمر ؟ فلما قام قال له عمر : لمن أحد هذين الثوبين ، قال : لي ، فقال عمر للرجل : عجلت علي ياعبدالله ، إني غسلت ثوبي واستعرت ثوب عبد الله ، فقال الرجل : الآن نسمع ونطيع ٠ ج٢ص٣٣٢ .

وذكر الذهبي في السير (١٤٠٥هـ) ما خلاصته : أن أبا ذر كان واقفا عند باب عثمان يطلب الإذن في الدخول ولا يؤذن له ، فمر به رجل من قريش فاستأذن له فدخل ، فجلس في طرف المجلس ، وميراث عبد الرحمن بن عوف يقسم ، فقال عثمان لكعب : إذا أدى الرجل زكاة ماله هل عليه فيه تبعة ، فقال : لا ، فقام أبو ذر فضربه بعصا بين أذنيه ، ثم قال : يا ابن اليهودية ! تزعم أن ليس عليه حق في ماله إذا آتى زكاته ، والله يقول :﴿ ويؤثرون على أنفسهم ﴾ ويقول :﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ وذكرهم بنحوه من القرآن ، فقال عثمان لبعض الحضور : إنما نكره أن نأذن لأبي ذر من أجل ما ترى ٠ ج ٢ ص ٦٨ .

وليس مقصود الباحث تحديد موقف أبي ذر رضي الله عنه من حيث شرعيته من عدمها ، فقد أنكر عليه عثمان ذلك ، ولم يأذن له بالدخول من أجل درته ، وموقفه من كنز المال ، ولكن الباحث يقصد من عرض هذه القصة ، هي تربية الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه على قول الحق والقوة فيه ٠

وقد درج من بعدهم من التابعين وتابعيهم على هذا النهج فكانوا في الحق جبالا راسية ، لا تحركها أعاصير الغضب والجبروت ، مهما كلفهم ذلك من ثمن ، فقد ذكر الخلال في كتابه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) (١٤٠٦هـ) :((أن

أبا عبد الله ـ يعني الإمام أحمد ـ ذكر ابن مروان الذي صلب في الأمر بالمعروف ، فترحم عليه وقال : قد قضى ما عليه))ص٣٦ .

غير أن الأمر بالمعروف له ضوابط شرعيه ليس المجال مجال بسطها ، ولكن خلاصة القول فيها :

أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حين لا يحقق الثمرة المرجوة منه ، أو حين يخشى الآمر أو الناهي فتنة أو ضررا أو منكرا أعظم منه ، فإنه لا يعمل به .

وفيه أيضا أن عباس العنبري قال:((كنت مارًّا مع أبي عبد الله ـ يعني أحمد بن حنبل ـ بالبصرة ، قال : فسمعت رجلا يقول لرجل : يا ابن الزان ، فقال الآخر يا ابن الزاني ، قال : فوقفت ومضى أبو عبد الله ، فالتفت فقال لي : امش ، قال : فقلت : قد سمعنا قد وجب علينا ، قال : امض ليس هذا من ذلك ... ثم نقل عن الإمام أحمد قوله : موعظة الجاهل كالمغني عند رأس الميت)) ص ٥٩ .

على أن هناك فرقا بين السكوت على منكر يترتب عليه فساد في الدنيا والدين ، ويتعدى ضرره إلى الآخرين ، وبين منكر أخر يقتصر شره على صاحبه .

هذا من جهة الفعل ، أما من جهة الفاعل وهو الآمر أو الناهي ، فإن المنكر حين يتعدى ضرره إلى الآخرين فإن طائفة من الناس ، ولو كانوا أفرادا ، أو حتى فردا واحدا ، لا بد أن توقف زحف هذا المنكر ، مهما كلفهم ذلك من ثمن ، حتى وإن جاز تركه لبعض الناس خشية العصا أو السيف .

ومعنى هذا أن السلف الصالح رضوان الله عليهم كانوا على دراية وعلم بالفروق الفردية بين الناس في مسألة الأمر والنهي ، فإن ما يطلب من أحمد بن حنبل رحمه الله ، غير ما يطلب ممن هو دونه في الفضل والعلم والسابقة والجهاد .

وفي هذا المعنى ذكر الخلال في كتابه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١٤٠٦هـ) :((أن محمد بن عبد الله قال : قلت لشعيب بن حرب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال: لولا السيف والسوط وأشباه هذا لأمرنا ونهينا ، فإن قويت فامر وانه)) ص ٣٨ .

ويتجلى هذا الأمر في موقف الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله يوم المحنة من المأمون وشيعته، في فتنة خلق القرآن، فقد فشا هذا الأمر في الناس في تلك الفترة ، وكان منكرا من القول وزورا ، وكان خطره على الأمة عظيما ، لولا أن الله بواسع كرمه وعظيم جوده ، قيض لدفعه والوقوف أمام طوفانه إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل رحمه الله .

لقد عاش في زمن الإمام أحمد علماء كثر ، لم يقفوا من المحنة هذا الموقف الذي وقفه الإمام أحمد .

أما أحمد رحمه الله فقد حبس وجلد حتى سالت الدماء من ظهره ، وهو في عنفوان موقفه ، لا يرهبه هول الموقف، ولا قطرات الدماء ، ولا السيوف التي كان يلوح بريقها أمام ناظريه، ولم يثنه عن عزمه في الصمود محبة الزوجة والولد، والخوف من فراقهما .

لقد كان شعاره وهو يعذب تحت السياط ، شعار يوسف عليه السلام يوم فتن في دينه :﴿ رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه﴾ سورة يوسف آية ٣٣ .

وقد ذكر ابن كثير في البداية والنهاية (د ـ ت) محنة خلق القرآن التي تعرض لها الإمام أحمد فقال :

((استدعى المأمون جماعة من أهل الحديث فدعاهم إلى ذلك فامتنعوا ، فتهددهم بالضرب وقطع الأرزاق فأجاب أكثرهم مكرهين ، واستمر على الامتناع

عن ذلك الإمام أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح الجنديسابوري فحملا على بعير وسيرا إلى الخليفة عن أمره بذلك ، وهما مقيدان متعادلان في محمل على بعير واحد ، فلما كانا ببلاد الرحبة جاءهما رجل من الأعراب من عبادهم يقال له جابر بن عامر فسلم على الإمام أحمد وقال له : يا هذا إنك وافد الناس فلا تكن شؤما عليهم ، وإنك رأس الناس اليوم فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه فيجيبوا ، فتحمل أوزارهم يوم القيامة ، وإن كنت تحب الله فاصبر على ما أنت فيه ، فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تقتل ، وإنك إن لم تقتل تمت ، وإن عشت عشت حميدا . قال أحمد : وكان كلامه مما قوّى عزمي على ما أنا فيه من الامتناع عن ذلك الذي يدعونني إليه)) ج ١٠ ص ٣٣٢ .

وذكر شاكر نبذة عن الإمام أحمد في تصديره للمسند (١٣٧٧هـ) فنقل كلام صالح بن احمد بن حنبل أن أبا بكر الأحول سأل أباه فقال : إن عرضت على السيف تجيب ؟ قال : لا ، ثم سُيرا فسمعت أبي يقول : صرنا إلى الرحبة ورحلنا منها ، وذلك في جوف الليل ، فعرض لنا رجل ، فقال : أيكم أحمد بن حنبل ؟ فقيل له هذا ، فقال للجمَّال : على رسلك ، ثم قال : يا هذا ! ما عليك أن تقتل ههنا وتدخل الجنة ، ثم قال : أستودعك الله ثم مضى ، قال : أبي فسألت عنه فقيل لي : رجل من العرب من ربيعة يعمل الشعر في البادية ، يقال له جابر بن عامر ، يذكر بخير . ص ٩٠ .

وفيه أن أحمد كان يقول :((ما سمعت كلمة منذ وقعت في هذا الأمر أقوى من كلمة أعرابي كلمني بها في رحبة طوق ، قال : يا أحمد إن يقتلك الحق مت شهيدا ، وإن عشت عشت حميدا ، فقوي قلبي)) ص٩٠ .

وفيه أن أحمد كان يقول : ((قال محمد بن نوح - وهو ممن أوذي في الله في المحنة - يا أبا عبد الله ! الله ، الله ، إنك لست مثلي ، إنك رجل يقتدى بك ، قدَّمت الخلق أعناقهم إليك لما يكون منك ، فاتق الله واثبت لأمر الله)) ص ٩١ .

إن من أعظم العبر في هذه الحادثة ، موقف الرجل الذي يصنع الشعر في البادية ، فقد نصر هذا الرجل دين الله ، وشد من أزر الإمام أحمد بكلماته التي قوي بها قلب هذا المجاهد .

إن هذا الرجل من عامة الناس غير معروف ، وقد كان من المتوقع منه ومن أمثاله ممن لا يدركون الأمور ، ولم يستقرئوا التاريخ بحثا عن العبر ، أن يقفوا لائمين ، أو معاتبين ، أو مخذلين ، أو مخوفين لكن الموقف كان على النقيض من ذلك تماما ، فقد كان موقفا ينبىء عن غيرة على دين الله تعالى ، الذي هو مسئولية الجميع .

لقد كان لسان حال الرجل يقول : إني لا أستطيع مواجهة المأمون أو المعتصم، ولكني أستطيع أن أخدم دين الله بتثبيت قلب هذا الإمام ، والدعاء له في ظهر الغيب .

وإذا كان هذا موقف العامة في زمن الإمام أحمد ، فإن موقف العلماء وطلبة العلم لا يقل أهمية عن هذا ، فهذا رجل آخر من العلماء ، الذين كانوا دون الإمام أحمد في العلم والشهرة ، وهو محمد بن نوح ، الذي كان لكلماته أبلغ الأثر في ثبات الإمام أحمد ، حيث قال : يا أبا عبد الله ! الله الله ، إنك لست مثلي ، إنك رجل يقتدى بك ، قدمت الخلق أعناقهم إليك لما يكون منك ، فاتق الله واثبت لأمر الله .

ولقد كان في مقدور أبي عبد الله رحمه الله ، أن ينهج نهج العلماء الذين سكتوا واتخذوا لأنفسهم مبدأ التقية ، ولكن التقية ليست للإمام أحمد بسبيل .

يقول شاكر في تصديره للمسند (١٣٧٧هـ) معلقا على الحدث :

((والتقية إنما تجوز للمستضعفين الذين يخشون ألا يثبتوا على الحق ، والذين ليسوا بموضع القدوة للناس ، هؤلاء يجوز لهم أن يأخذوا بالرخصة ، أما أولو العزم

من الأئمة الهداة ، فإنهم يأخذون بالعزيمة ، ويحتملون الأذى ويثبتون ، وفي سبيل الله ما يلقون ، ولو أنهم أخذوا بالتقية ، واستساغوا الرخصة لضل الناس من ورائهم، يقتدون بهم ، ولا يعلمون أن هذا تقية ، وقد أُتي المسلمون من ضعف علمائهم في الحق ، لا يصدعون بما يؤمرون ، يجاملون في دينهم وفي الحق ، لا يجاملون الملوك والحكام فقط ، بل يجاملون كل من طلبوا منه نفعا ، أو خافوا منه ضرا ، في الحقير والجليل من أمور الدنيا ، وكل أمر الدنيا حقير ، فكان من ضعف المسلمين بضعف علمائهم كما نرى)) ص ٩٨ .

إن بقية العلماء الذين خافوا السوط والسيف ، قد التمسوا لأنفسهم أعذارا ، ولكن مثل أحمد ما ينبغي له أن يلتمس لنفسه العذر ، فيضيع الحق في غمرة الباطل، ويجر على الأمة شرا لا أول له ولا آخر .

لقد كان الناس يمدون أعناقهم إليه لما يكون منه ، وكانوا ينتظرون ما يقوله فيكتبوه ، ليُسجل للأجيال إلى يوم القيامة ، فما كان أحمد ليضل الأمة المسلمة في عقيدتها ، وهو الرجل القدوة الذي عرفت الأمة صدقه ونصحه .

الآثار الوقائية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حفظ الأفراد والمجتمعات:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جانب وقائي عظيم في حفظ الأفراد والمجتمعات ، ولهذا أوجبه الله على الأمم كلها ، وأمرها أن تقوم به ، ولعن من تقاعس عن حمله مع قدرته على ذلك .

وقد جاءت الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كتاب الله تعالى وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بعبارات مختلفة ، تارة بالأمر ، وتارة بالثناء على حملة هذه الشعيرة العظيمة ، وتارة بذم المتقاعسين عن حملها ، وتارة ببيان أثارها المباركة على الأفراد والمجتمعات ، وتارة ببيان آثار تركها أو التهاون في أدائها .

وحين فقه السلف أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قاموا به على أكمل الوجوه ، وحولوا ما تربوا عليه من الوحي في الكتاب والسنة إلى واقع معاش، بلا تعقيدات مملة ، ولا تأويلات مضلة ، يسمع أحدهم الأمر والنهي ، فيحيل سماعه إلى أرض الواقع ، وعلى الفور بلا حرج ولا ممانعة ، وما ذلك إلا لعلمهم بأن الأمر بالمعروف النهي عن المنكر ، هو الحاجز المنيع ، والسياج الواقي ، الذي يحول بين الناس وبين التردي في الشرور والآثام التي هي سبب هلاك الأمم والشعوب .

يقول ابن تيمية في كتابه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١٤٠٦هـ) : ((ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا ، وبما شهد به في كتابه : أن المعاصي سبب المصائب ، فسيئات المصائب والجزاء ، من سيئات الأعمال ، وأن الطاعة سبب النعمة ، فإحسان العبد العمل سبب لإحسان الله)) ص٤١ .

وإذا كانت المعاصي هي السبب المباشر في هلاك البلاد والعباد ، فلا بد من الحيلولة بين الناس وبين مقارفتها ، ولا بد من التعلق بحجز الناس ، لئلا يقتحموا في النار على بصيرة ، وذلك عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كل بحسب قدرته واستطاعته .

وليست المنكرات التي هي سبب في هلاك البلاد والعباد ، هي المنكرات الخلقية فحسب ، وإنما المنكرات أشمل من أن تخصص في جانب واحد من جوانب الحياة ، فهناك المنكرات العقدية ، والعبادية ، والخلقية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والعلمية ، والإعلامية ، والفكرية ، والتربوية وغيرها ، وكل هذه المنكرات إذا عمت وطمت في أوساط مجتمع غاب فيه الأمر والنهي ، فقد تُودِّع منه ، لإنه يسير إلى حتفه بخطى مسرعه .

وللعمري في كتابه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١٤٠٠هـ) كلام جميل نفيس في شمولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، خلاصته ما يلي : يرى

بعض الناس أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر محصور في إرشاد الناس إلى الأعمال الصالحة ، وإنكار الأعمال القبيحة ، وهذا مفهوم قاصر لم يدل عليه الكتاب والسنة ، لأن القيام بهذه الشعيرة يشمل كافة الجهود التي تبذل لبعث الدين وإقامته وتقويم أوده ، ويتضح هذا الأمر جليا من ثلاثة أوجه :

أولها : أن القرآن الكريم عبر عن مهمة الأنبياء بمصطلح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الذي يشمل دعوة الناس إلى عبادة الله والخضوع الكامل له في كل شأن من شؤون الحياة ، وليس ذلك مقصورا على التهذيب الخلقي ، لأن التهذيب الخلقي جانب واحد من جوانب الحياة .

ثانيها : أن غاية بعثة الأنبياء والرسل عليهم السلام هي غاية وجود الأمة ، وغاية وجود الأمة ليس محصورا في إقامة الجانب الخلقي فحسب ، ولكنه عام شامل يستصلح الناس في كل حقل من حقول الحياة ، تطبيقا لدين الله في الأرض بحذافيره .

ثالثها : أن الله تعالى قرن مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الدعوة إلى الله تعالى وذلك في قول الله تعالى في سورة آل عمران :﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ سورة آل عمران آية ١٠٤

فليس الثاني بمستقل عن الأول ، بل هو تفسير له ، ثم نقل كلاما للفخر الرازي في تفسير هذه الآية إذ يقول : والدعوة إلى الخير جنس تحته نوعان : أحدهما الترغيب فيما ينبغي فعله وهو الأمر بالمعروف ، والثاني : الترغيب في ترك ما لا ينبغي وهو المنكر. ص ٥١ وما بعدها .

وبعد أن وضحت صورة الشمول التي يجب أن يكون عليها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كان لابد من بيان الآثار الوقائية التي تحققها هذه الشعيرة العظيمة . ومن ذلك :

١ـ النجاة من لعنة الله تعالى ، والأصل في ذلك قول الله تعالى :﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ سورة المائدة آية ٧٨ ـ ٧٩ .

٢ـ النجاة من عدم إجابة الدعاء ، والأصل في ذلك ما رواه ابن ماجة في سننه (د ـ ت) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم ﴾ ج ٢ ص ١٣٢٧ والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٤٠٨هـ) ج ٢ ص ٣٧٦ .

٣ـ النجاة من فقدان الخيرية التي جاء بها القرآن للأمة وأفرادها ، قال الله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ سورة آل عمران آية ١١٠ .

فإذا كانت الأمة المسلمة قد وصفها القرآن الكريم بأنها خير أمة أخرجت للناس ، لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله ، فإن أفرادها حين يتخلون عن حمل هذه الشعيرة ، فإنما يتخلون عن الخيرية التي هي سر عزهم من بين أمم الأرض كلها .

٤ـ النجاة من حلول عذاب الله عز وجل ونقمته ، قال الله تعالى :﴿ فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ﴾ سورة الأعراف آية ١٦٥ .

إن الهلاك المحقق قرين السكوت عن الأمربالمعروف والنهي عن المنكر ، هلاكا لا يصيبن الذين ظلموا خاصة ، ولكنه يشمل الجميع إلا المصلحين ، يؤكد ذلك ما رواه البخاري في صحيحه(مع الفتح د ـ ت) من حديث النعمان بن بشير

رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم هلكوا وهلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا﴾ ج ٥ ص ٢٣١

وللباحث مع الحديث وقفات :

الأولى : ضرب المثل بالسفينة أسلوب من أساليب التربية الإسلامية ، به تصل المعلومة إلى الذهن في يسر وسهولة .

الثانية : ألمح الحديث إلى أن الذين يقعون في الإثم هم في الدون دائما ، فهم الذين وصفهم الحديث بأنهم أصابوا أسفل السفينة .

الثالثه : ألمح الحديث إلى أن المصلحين في المجتمع المسلم هم أهل العلو دائما، لأن الحديث وصفهم بأنهم الذين أصابوا الدور العلوي من السفينة .

الرابعه : ألمح الحديث إلى أن الخير - الذي هو الماء - لا يأتي إلى الذين في الدور السفلي ، إلا عن طريق الصالحين المصلحين أهل الدور العلوي .

الخامسة : أن الإنسان ليس حرا فيما يفعل من المحرمات والمخالفات ، ولو كان الأمر - في نظره - يتعلق به شخصيا ، فإن ضرره يتعدى إلى الغير لكون السفينة واحدة ، والخرق - ولو كان في نصيب طائفة - سبب في غرق السفينة كلها ، والهلاك واقع لا محالة حين يترك لهؤلاء الحبل على الغارب .

السادسة: حتى لا تغرق السفينة ، فإنه يتحتم على المصلحين أن يأخذوا على أيدي المفسدين، عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بضوابطه الشرعية .

السابعة : ذكرها المسعود في كتابه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١٤١٤هـ) فقال :((إن المسلمين مشتركون في الدين الذي هو آلة النجاة في

الآخرة ، كاشتراك أهل الدنيا في السفينة التي هي آلة النجاة في الدنيا ، وكما أن سكوت شركاء السفينة عن الشريك الذي أراد إفسادها، سبب هلاكهم في الدنيا، كذلك سكوت المسلمين عن الفاسق وترك الإنكار عليه سبب هلاكهم في الآخرة)) ج ١ ص ٢٥٤ .

٥- نجاة المصلحين من عذاب الله إذا نزل بأقوامهم ، قال تعالى :﴿ فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ﴾ سورة الأعراف آية ١٦٥ .

٦- النجاة من مساءلة الله للعبد يوم القيامة بسبب تضييعه لهذه العبادة العظيمة ، :﴿ وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ﴾ سورة الأعراف آية ١٦٤ .

والآية تنبيء عن قلة فقه الصالحين من أهل تلك القرية ، فهاهم يعاتبون المصلحين بقولهم :﴿ لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا ﴾ سبحان الله ! إن موقف هؤلاء الصالحين يثير العجب في النفوس ، فلا هم بالذين حملوا راية الإصلاح ، ولا هم بالذين تركوا المصلحين يمارسون مهمتهم على فقه وبصيره !! .

كما أن الآية الكريمة تنبيء عن فقه هؤلاء المصلحين ، وغيرتهم على دين الله، فقد كان شعارهم :﴿ معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ﴾ .

٧- نجاة من طاش به الفهم ، وزلت به القدم ، بالتوبة عن الذنب ، والندم على المخالفة ، قال تعالى على لسان الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر من أهل القرية التي كانت حاضرة البحر :﴿ ولعلهم يتقون ﴾ سورة الأعراف آية ١٦٤ .

٨- نجاة الصالحين من الفساد ، فإن الصالح حين يرى المنكر فلا يغيره ، بل يجالس صاحبه ويؤاكله ويشاربه ، يستمرىء المعصية شيئا فشيئا حتى تهون في نظره من كثرة ما يراها ، وما يزال الأمر في نظره يهون حتى يواقع المعصية ،

كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، وقد روى أبو داود في سننه (١٤٠٩هـ) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :﴿ ما دخل النقص على بني إسرائيل إلا أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع ، فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب قلوب بعضهم على بعض ثم قال :﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ﴾ ج ٢ ص٥٢٤ - ٥٢٥ ، والحديث ضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (١٤١٢هـ) ص ٤٣٠ والآية في سورة المائدة برقم ٧٨ .

وإن كان الحديث ضعيفا إلا أن مجالسة العصاة لله تعالى والرضا بما هم عليه من المنكرات أو عدم الإنكار عليهم حين - يقدر الإنسان على الإنكار - من المعاصي التي لا يرضاها الله تعالى ، والتي توعد صاحبها بالعقوبة .

٩- نجاة المجتمعات من انتشار الفساد الخلقي ، ذلك أن الإنسان حين يظن أنه إن قدم على معصية وأظهرها أمام الناس ، سوف يجد من ينصحه وينكر عليه ، يدعها ويتوب إلى الله منها ، أو على أقل تقدير يستتر بها عن عيون الناس ، والأمة مطالبة بالتغيير حين ترى ، ولم تؤمر بالتجسس واتباع العورات ، وفي هذا المعنى يقول البلالي في كتابه فقه الدعوة في إنكار المنكر (١٤٠٧هـ) :((تتبع العورات والتجسس يفسد الناس ، وذلك أنه ينزع الثقة فيما بينهم ، مما يجعل الطرف المتجسس عليه إذا علم بذلك أن يحمل حقدا وكراهية للطرف المتجسس وهنا تنقطع الأواصر ويفسد الناس ... فليس التجسس من أصول الإنكار ولا فروعه في شيء ، والشرع لم يطلب من الدعاة الإنكار على ما ستر ، وإنما أمرهم بالإنكار على ما رؤي)) ص٩٦ - ٩٧ .

١٠- نجاة المجتمعات من التربية المنحرفة ، ذلك أن الناس حين ينشأون في مجتمعات لا تأمر بالمعروف ولا تنهى عن المنكر ، ينحرفون عن الجادة فلا يرون

فيما يأتون من المنكرات والمآثم بأسا ، لكن حين يفشو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجتمع من المجتمعات ، فإن الناس يتعلمون من خلال ذلك أن هذا حق وأن ذاك باطل ، وفي هذا المعنى يقول عطا في تصديره لكتاب الخلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١٤٠٦هـ) :((لا يوجد في النظم التي ابتكرها الإنسان لرعاية القوانين والدساتير وتبصير الناس بها حتى لا يقعوا في المخالفات المتوالية ، نظاما يصل إلى فكرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كمبدأ تربوي جاد، ومدرسة تعليمية تتيح لأكبر قاعدة في الأمة أن تعرف ما لا بد من معرفته ، وهو الحلال والحرام والمكروه والسنة ، والواجب والبدعة ، في وقت قصير ، وبلا نفقات ، وبطريقة مكررة ، تضمن التذكر الدائم ، وتشمل كل البيئات في المجتمع)) ص ١٨ .

١١- إيقاظ حس الرقابة في الأمة المسلمة ، حين يكون كل فرد فيها حاملا لراية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يأمر بالمعروف كلما رأى الناس فيه عمل من أعمال الخير مقصرون ، وينهى عن المنكر كلما رأى الناس على عمل من أعمال الشر متكالبون ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١٤٠٦هـ) :((لقد بين الله سبحانه أن هذه الأمة خير الأمم للناس ، فهم أنفعهم لهم ، وأعظمهم إحسانا إليهم ، لأنهم كملوا كل خير ونفع للناس ، بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، من جهة الصفة والقدر ، حيث أمروا بكل معروف ونهوا عن كل منكر لكل أحد))ص ٢٧ .

١٢- تعليم الأمة وتثقيفها عن طريق أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر ، فإن الناس حين يؤمرون بالمعروف يعلمون أن ذلك حقا فيعملون به ، وحين ينهون عن المنكر ، يعلمون أنه منكر فيجتنبونه ، ومع كثرة الأمر والنهي ، يكثر الوعي والعلم والثقافة بين أفراد الأمة وخاصة العوام منهم ، يقول عطا في تصديره لكتاب الخلال

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١٤٠٦هـ) :((وتكرار الأمر والنهي على أسماع الناس كلما خفي معروف أو ظهر منكر ، على مر الأيام يحقق دون شك تثقيف الأمة كلها رجالا ونساء ، دون جهد ولا إرهاق ، فإن الإنسان لا يفتر عن سماع العلم في كل ساعة من ساعات حياته ، حينما يدعو الآمر الناهي غيره إلى ما يصح شرعا ، ويستمع مع كل دعوى إلى دليلها وهو المقصود الأسمى الذي يريده الله لمجتمع المؤمنين)) ص ١٨ .

إن سفينة المجتمع يركب فيها ثلاثة أصنا من الناس وهم في الجملة : المصلحون والصالحون ، والعصاة.

وسلامة السفينة من الغرق لا تكون في وجود الصالحين والعصاة ، فإن مجرد صلاح الإنسان في نفسه ، لا ينجيه من عذاب الله حين ينزل ، فضلا عن العصاة الذين هم سبب الغرق والهلاك ، ولكن السفينة محفوظة بإذن الله من الغرق في وجود المصلحين ، الذين يحملون الخير ويأمرون الناس به ، وينهونهم عن الشر ، فيحركون الصالحين للإصلاح ، ويحركون العصاة للتوبة والإقلاع عما هم فيه من المخالفات ، عندها تسير السفينة إلى بر الأمان ، يؤيد ذلك قول الله تعالى : ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين * وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ سورة هود آية ١١٦ - ١١٧ .

يقول ابن كثير في تفسيره (١٤٠٦هـ) :((يقول تعالى فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض ، وقوله :﴿ إلا قليلا ﴾ أي قد وجد منهم قليل لم يكونوا كثير وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته ، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ... ثم أخبر

تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها ، ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين)) ج ٢ ص ٧١٨ .

وهذا المعنى يتجلى في أصحاب السبت الذين احتالوا على أمر الله تعالى في صيد السمك ، وعلى أثر ذلك انقسم الناس في القرية إلى ثلاث فرق : فريق المصلحين ، وفريق الصالحين ، وفريق العصاة ، فأما المصلحون فأنكروا ، فنجوا وهم الذين قال الله فيهم :﴿ فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء﴾ سورة الأعراف آية ١٦٥ .

وأما الصالحون فسكتوا ، وكان شعارهم : لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، وظنوا أن في استقامتهم على دين الله عذرا لهم في إنكار المنكر ، والأخذ على يد الظالم ، ولهذا اختلف العلماء في مصيرهم ، فمن قائل : إنهم هلكوا مع الهالكين نتيجة سكوتهم على المنكر ، ومن قائل : إنهم لم يهلكوا ولكنهم لم يذكروا في الآيات ، لأنهم لا يستحقون الذكر ولا الثناء .

يقول الشوكاني في فتح القدير (١٤٠١هـ) :((واعلم أن ظاهر النظم القرآني هو أنه لم ينج من العذاب إلا الفرقة الناهية التي لم تعص لقوله تعالى (أنجينا الذين ينهون عن السوء) وأنه لم يعذب بالمسخ إلا الطائفة العاصية لقوله (فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) فإن كانت الطوائف منهم ثلاثا كما تقدم فالطائفة التي لم تنه ولم تعص يحتمل أنها ممسوخة مع الطائفة العاصية ، لأنها قد ظلمت نفسها بالسكوت عن النهي وعتت عما نهاها الله عنه من ترك النهي عن المنكر ، ويحتمل أنها لم تمسخ لأنها وإن كانت ظالمة لنفسها عاتية عن أمر ربها ونهيه، ولكنها لم تظلم نفسها بهذه المعصية الخاصة)) ج٢ص٢٥٧ ـ ٢٥٨ .

وقد نقل الرازي في تفسيره (١٤١٠هـ) ما معناه : لابن عباس رضي الله عنه في العلماء الذين سكتوا عن المنكر ثلاثة أقوال : تارة توقف في أمرهم ، وتارة

ذكر بأنهم نجوا ، وتارة بكى وقال بأنهم هلكوا وكان سبب بكائه قوله : إن هؤلاء سكتوا فهلكوا ، ونحن نرى أشياء ننكرها ثم نسكت ولا نقول شيئا . ج ١٥ ص ٤٢.

وأما العصاة الذين احتالوا على أمر الله تعالى فقد أهلكهم الله ومسخهم قردة وخنازير ﴿ فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ سورة الأعراف آية ١٦٦ .

وإذا كان العلماء مختلفين في حال الفرقة التي سكتت عن منكر أهل القرية، هل أصابها الهلاك أم لا ، فإنهم جميعا متفقون على أن هذه الفرقة ظالمة لنفسها بالسكوت على هذا المنكر العظيم ، وإن كان حديث أم المؤمنين زينب رضي الله عنها يشير إلى أن الصالح إذا رأى المنكر وكان في مقدوره أن يغيره فلم يغيره هلك مع الهالكين ، فقد روى البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) ومسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها أنها قالت : استيقظ النبي صلى الله عليه وسلم من النوم محمرا وجهه ، وهو يقول : لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، قيل : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث ﴾ ج ١٣ ص ١١ ، ج ١٨ ص ٢١٩ .

يقول النووي في شرح صحيح مسلم (د ـ ت) :((الخبث بفتح الحاء والباء، وفسره الجمهور بالفسوق والفجور ، وقيل المراد الزنا خاصة ، وقيل أولاد الزنا ، والظاهر أنه المعاصي مطلقا ... ومعنى الحديث أن الخبث إذا كثر فقد يحصل الهلاك العام وإن كان هناك صالحون)) ج ١٨ ص ٢٢٠ .

إن الخبث لا يمكن انتشاره مع وجود المصلحين الذين يحملون راية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الذي يعد من أعظم سبل الوقاية للأفراد والمجتمعات ،

ولهذا يبقى المجتمع في مأمن من العقوبة العامة التي تأتي على الجميع بلا استثناء ، وأما حين يَغيب المصلحون أو يُغيبون ، فإن وجود الصالحين لا يرد عنهم بأس الله وعذابه ، ومعنى هذا أن القدوة التي يحملها الصالحون وحدها لا تكفي ، ما لم تؤازرها الدعوة إلى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وخلاصة القول : إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على الأمة من حيث العموم ، لا يعذر بتركه أحد ، يدل على ذلك صريح الآيات والأحاديث ، ومواقف السلف الصالح رضي الله عنهم ، وقد أخذت هذه الشعيرة هذا الحكم في دين الله لأهميتها في حفظ الأفراد والمجتمعات ، ويوم يَغيب دور هذه الشعيرة العظيمة أو يُغَيَّب ، فهو الهلاك المحقق الذي يأتي على صورة هلاك وتدمير ، أو قحط وقلة بركة ، أو خسف ومسخ ، أو حروب وقلاقل ، أو فتن وكوارث ، أو أزمات اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية أو صحية أو ما إلى ذلك .

الجانب الوقائي الثالث لحفظ المجتمع (تطبيق الحدود) :

إن تطبيق الحدود في المجتمعات المسلمة جانب من أعظم الجوانب التي تحفظ للفرد حقه وكرامته ، وتحفظ للمجتمع أمنه واستقراره ، صيانة للضروريات الخمس التي لا يمكن لأي مجتمع أن يحيا حياة كريمة إلا في وجودها .

وإن كان تطبيق الحدود والتعزيرات في الإسلام يأخذ جانب العلاج ، إلا أنه في ذات الوقت منهج وقائي عظيم ، لأن في تطبيقه وقاية للفرد من معاودة ما ارتكب من جرم ، ووقاية لغيره من شره وأذاه ، ووقاية للمجتمع من كل من تسول له نفسه أن يتبع طريقته ويسلك مسلكه ، ولهذا أمر سبحانه عند إقامة الحدود أن يشهد إقامة الحد جمع من المؤمنين ، حيث العبرة ماثلة أمام الأعيان ، وفي هذا المعنى يقول سبحانه بعد أن أمر بحد الزنا :﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلده ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ سورة النور آية ٢ .

وسيقوم الباحث في هذه الصفحات ـ بعون الله ـ ببيان مفهوم الحدود ، وذكر أقسامها ، وبيان الحكمة من مشروعيتها ، وكيف تسهم في وقاية المجتمع من الانحراف ، ثم يختتم بذكر بعض آثارها التربوية .

أولا : مفهوم الحدود :

ذكر ابن منظور في لسان العرب (١٤١٢هـ) في مادة حد قوله :((الحد : الفصل بين الشيئين ، لئلا يختلط أحدهما بالآخر ، أو لئلا يتعدى أحدهما على الآخر ، وفصل ما بين كل شيئين حد بينهما ، ومنتهى كل شيء حده ، وسميت العقوبات المقدرة حدودا لأنها في الغالب يمنع الشخص من الإقدام على المعصية ، كما تمنعه من العود إليها بعد ارتكابها ، وكما يطلق الحد على عقوبات جرائم معينة ، فإنه يطلق كذلك على نفس هذه الجرائم المعينة ، فيقال ارتكب الجاني حدا كما يقال عقوبته حدا)) ج ٣ ص ١٤٠ وما بعدها .

أما في الاصطلاح فقد اختلفت عبارات الفقهاء في تعريفها : فقد عرفها الكاساني في بدائع الصنائع (١٣٩٤هـ) بأنها :((اسم لعقوبة مقدرة تجب حقا لله تعالى)) ج ٧ ص ٣٣

وعرفها المرداوي في الإنصاف (١٣٤٧هـ) فقال :((الحدود : جمع حد ، وهو في الأصل المنع ، وفي الشرع : عقوبة تمنع من الوقوع في مثله)) ج ١٠ ص ١٥٠ .

وقال البهوتي في شرح منتهى الإرادات (د ـ ت) :((الحدود جمع حد ، وهو لغة المنع ، وحدود الله محارمه ... وعرفا : عقوبة مقدرة شرعا في معصية لتمنع من الوقوع في مثلها)) ج ٣ ص ٣٣٦ .

وإن المتأمل في هذه التعاريف ليتساءل عن أمرين :

الأول : هل الحدود حق لله تعالى ؟ أم حق للآدميين ؟ أم أن منها ما هو حق لله ، ومنها ما هو حق للآدميين ؟ .

الثاني : لِمَ لَمْ يكن هناك تعريف واحد يجمع بين حق الله تعالى وحق الآدمي ؟ فيكون تعريفا جامعا مانعا.

وجوابا عن هذين الأمرين ما يلي :

الأمر الأول : الحدود منها ما هو حق لله تعالى لا يجوز للبشر إسقاطه ، ولا التنازل عنه ولا المسامحة فيه ، بل لا بد من تنفيذه فهو من أوجب واجبات الحاكم المسلم ، ومنها ما هو حق للآدمي ، وهو بالخيار إن شاء طلبه ، وإن شاء عفى عنه وأسقطه .

أما الأمر الثاني : فإن الباحث يرى أن كل تعريف من هذه التعريفات - التي ذكرها الفقهاء - جامع مانع ، وأن الأخذ بأحدها يجلي حقيقة الحدود ، ويبين المراد منها ، والسبب في ذلك بين واضح ، فإن الذين لم ينصوا على حق الله تعالى في التعريف كالإمامين المرداوي والبهوتي جعلوا التعريف عاما يدخل فيه حق الله وحق الآدميين ، والذين قالوا تجب حقا لله تعالى كالإمام الكاساني وغيره ، أدخلوا في ذلك حقوق الآدميين ، لأن حقوق الآدميين مرتبطة بحق الله تعالى ، وفي هذا المعنى ذكر الزرقاني في كتابه شرح الزرقاني على مختصر خليل (د - ت) معلقا على حق الآدمي وتعلقه بحق الله تعالى فقال :((لأنه ما من حق لآدمي إلا ولله فيه حق ، إذ من حق الله على كل مكلف ترك أذاه لغيره)) ج ٨ ص ١١٥ .

أقسام العقوبات في الإسلام :

وبالنظر إلى هذه العقوبات التي شرعها الإسلام يلاحظ أنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام حسب الجريمة التي تقترف والمخالفة التي تقع ، وقد قسم عودة في كتابه التشريع الجنائي (د - ت) هذه الجرائم إلى ثلاثة أقسام ، وقال فيها ما خلاصته :

القسم الأول : عقوبات على جرائم الحدود ، التي هي الزنا والسرقة والردة والقذف والحرابة والشرب ، وقد عنيت الشريعة الإسلامية بهذا النوع من العقوبات عناية فائقة ، فلم تتركها لأحد يختارها أو يقدرها كيفما يشاء ، بل منعته من إنقاصها أو استبدالها أو إيقاف تنفيذها ، أو العفو عن مرتكبها ، ولم تنظر الشريعة إلى ظروف الجريمة أو المجرم ومدى تأثيرها في العقوبة ، ومن ثم سميت هذه العقوبات بالعقوبات المقدرة حقا لله تعالى إشارة إلى أنها محددة النوع والمقدار ، وأنها لازمة لا يمكن المساس بها أبدا.

القسم الثاني : عقوبات على جرائم القصاص والدية ، فأما القصاص فكقتل العمد ، وإتلاف الأطراف عمدا ، والجرح عمدا ، وأما الدية فكالقتل شبه العمد ، أو القتل الخطأ ، أو الجرح الخطأ ، أو إتلاف الأطراف خطأ ، وهذا من العقوبات المقدرة باعتبارها حق للأفراد ، يملكون هذا الحق دون غيرهم ، ولهذا كان للفرد المجني عليه أو لوليه حق العفو عمن ارتكب في حقه جرما كبيرا كان أو صغيرا ، وصاحب الحق فيها بالخيار إن شاء استوفى حقه وإن شاء تركه ، وفي هذه الحالة ليس للحاكم أو من يقوم مقامه أن يسقط هذه العقوبات أو يعفو عنها ، لأنه لا يملكها ، بل إن الواجب عليه أن يستوفيها لأن متقضى وظيفته يأمر بذلك .

القسم الثالث : عقوبات على جرائم التعازير ، وهي الجرائم التي لم تنص الشريعة الإسلامية على عقوبتها ، ولم تحددها بقدر معين ، وإنما تركت لأولي الأمر تحديد هذه العقوبة التي تضر بصالح الجماعة ، أو أمنها ، أو نظامها ، بعد أن يضعوا القواعد التي تنظم ذلك ، وهنا يلاحظ أن القسم الذي ترك لولي الأمر يحدد عقوبته وفق مصلحة الجماعة ، أكبر مساحة من القسم الذي حددته الشريعة ونصت عليه قدرا وكما وكيفا ، كما أنها لم تترك الأمر للحاكم أو من يقوم مقامه أن يتصرف في هذه العقوبات كيف يشاء ، ولكنها جعلت ذلك إليه مادام الأمر

متفقا مع نصوص الشريعة ومبادئها العامة وروحها التشريعية ٠ج ١ ص ١٢١ ومابعدها

وليس هدف الباحث في هذا الجانب هو الحديث بشيء من التفصيل عن هذه التقسيمات الفقهية للعقوبات ، التي بينها الفقهاء في كتبهم ، وعنوا بها في مباحثهم ، ولكن المراد هو معرفة هذه التقسيمات إجمالا، كيما تعرف الحكمة من مشروعية هذه العقوبات على اختلاف أنواعها ، لتظهر عظمة هذه الشريعة الغراء التي أنزلها رب العالمين لتحقيق مصالح العباد في الدنيا والآخرة ٠

الحكمة من مشروعية الحدود :

خلق الله تعالى الناس وفطرهم على الإيمان به تعالى ، واستخلفهم في الأرض ، وأنزل معهم منهجا ينظم حياتهم في كل ميدان ، قال تعالى :﴿ قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ سورة البقرة آية ٣٨ - ٣٩ .

فإذا وقر هذا الهدى في قلب المؤمن ، كانت آثاره عظيمة في وقاية الفرد والمجتمع من الشرور والآثام ، يقول سيد قطب في الظلال (١٤٠٠هـ) متحدثا عن مجتمع الصحابة رضوان الله عليهم وآثار التربية الإيمانية في استقرار مجتمعهم: ((لقد كانت هنالك التقوى ، كانت هي الحارس اليقظ في داخل الضمائر ، وفي حنايا القلوب ، تكفها عن مواضع الحدود ، إلى جانب الشعيرة النيرة البصيرة بخفايا الفطر ، ومكنونات القلوب ، وكان هناك ذلك التكامل بين التنظيمات والشرائع من ناحية ، والتوجيهات والعبادات من ناحية أخرى ، تتعاون جميعها على إنشاء مجتمع سليم التصور ، سليم الشعور، نظيف الحركة ، نظيف السلوك ، لأنها تقيم محكمتها الأولى فى داخل الضمير!)) ج ١ ص١٦٦ .

إن الحدود وإن كانت علاجا إلا أنها في نفس الوقت وقاية للمجرم نفسه وللأفراد من حوله ، وحفظا للمجتمع كله من غوائل الجريمة .

والشريعة الإسلامية لا تلجأ إلى العقوبة إلا بعد أن تستفرغ الوسع في عرض حقائق الإسلام وتشريعاته العظيمة على الناس ، ودعوتهم إليها بكل الأساليب والطرائق الشرعية ، التي تملأ قلوبهم بالإيمان الذي يعتبر أعظم الحراجز عن المعاصي والآثام على اختلاف صورها وأنواعها ، سواء ما كان منها متعلقا بحق الله تعالى ، أو ما كان متعلقا بحق الآدميين .

كما أنها تبين آثار تعدي حدود الله تعالى على الفرد بصفة عامة كقوله تعالى :﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ سورة يونس آية ٢٣ وكقوله تعالى :﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ سورة الأنعام آية ١٦٤، وكقوله تعالى :﴿ كل نفس بما كسبت رهينه﴾ سورة المدثر آية ٣٨، أو تبين آثار هذا التعدي بصفة خاصة في كل عمل لا يرضي الله سبحانه تعالى ، سواء كانت هذه الآثار عاجلة في الدنيا ، أو مدخرة للعبد في الآخرة .

يقول الشويعر في كتابه الوقاية من الجريمة (١٤١٣هـ) :((لقد جعل الله جل وعلا في شرائع دين الإسلام ، وفي كل أمر ونهي حكمة بالغة تنصلح بها الحياة في كل زمان ومكان ، فالزواجر والحدود التي شرعها الله ، ونظمتها تعاليم الإسلام ، ليست إلا وقاية للمجتمع من تسلط فئة على فئة ، وحماية لأفراده وأمنه من أصحاب النزعات الشريرة)) ص ٤٥ .

إن أمن المجتمعات ، وسلامة أفرادها ، ورغد عيشها ، مرهون بتطبيق الإسلام جملة وتفصيلا في كل ناحية من نواحي الحياة ، لأن الإسلام هو الدين العالمي الوحيد الذي ارتضاه الله تعالى لتنظيم شؤون الحياة كلها بلا استثناء ، فإذا أشرعت

الأبواب في أي مجتمع للدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ظهر الإسلام ، وانتشر الخير في الناس ، فاختفت على أثر ذلك معالم الشر والرذيلة ، واستحيا المتفلّت على أمر الله تعالى ، وعندها تقل نسبة الجريمة ، لتبقى العقوبة الرادعة الزاجرة ، لقلة قليلة لا تقف عند الأمر والنهي ، ولا تذعن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا ترعى حرمات الله أو تقف عند حدوده .

وحين يغلق الضمير منافذه في وجه التقوى فتتسرب إليه المعصية وتتمكن منه ـ وربما حولته إلى مجرم لا يأمن الفرد والمجتمع شره وأذاه ـ فإن الإسلام يرى أنه لا سبيل إلى حل هذه المعضلة إلا في تطبيق الحدود ، رحمة من لله تعالى بعباده ، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في الاختيارات الفقهية (د ـ ت) :((وقد شرعت الحدود رحمة من الله بعباده)) ص ٤٩٦ .

والمتأمل في هذه الرحمة يجدها جلية في مشروعية الحدود ، فهي رحمة للفرد والمجتمع على حد سواء وذلك لأمور :

١ـ رحمة للفرد لأنها تطهير له عما اقترفت يداه في حق ربه عزوجل .

٢ـ رحمة للفرد لأنها تطهير له عما اقترفت يداه في حق أخيه المسلم .

٣ـ رحمة للفرد لأنها تصحيح لسلوكه ، وتهذيب لوجدانه ، فلا يعود إلى مااقترفت يداه من جرم .

٤ـ رحمة للآخرين ، لأن فيها حفظ لهم من جرم واعتداء من تسول له نفسه أن يسلك مسلك المجرمين ويتبع طريقتهم .

٥ـ رحمة للمجتمع ، لأن في تطبيق الحدود حفظا لأمنه واستقراره ، يقول الشريف في كتابه المبادىء الشرعية (١٤٠٦هـ) :((لكي نحقق الأمن والاستقرار اليوم لا بد من العمل على تطبيق قانون السماء ، فهو وحده الكفيل بتحقيق

الأمن بين جميع الناس ، ونبذ القوانين الوضعية ، وطرحها جملة ، إذ لا وجه للمقارنة بين قانون صنعه الإنسان ، وبين قانون منزل من عند الله العليم الخبير)) ص ٤٤٨ ، مع تحفظ الباحث على إطلاق كلمة [قانون] على التشريع الإلهي ، الذي يطلق في العادة على ما يستحدثه البشر من الأنظمة في جوانب الحياة المختلفة ، أما الإسلام فهو تشريع أنزله رب العالمين لهداية الناس إلى التي هي أقوم في كل ميدان من ميادين الحياة ، لا يقبل التغيير ولا التبديل ، ولا يمكن أن يعتريه النقص أو الشك منذ أن أنزله الله تعالى إلى يوم الدين ، وصدق الله إذ يقول :﴿ ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه * هدى للمتقين ... الآية ﴾ سورة البقرة آية ١ - ٢ .

٦- رحمة للمجتمع ، لأن في تطبيق الحدود استئصال لعضو يفسد في المجتمع حين لايجدي معه التطهير، حفاظا على المجتمع بأسره من أن ينتشر فيه المرض ، وتسري إليه العدوى ، عن طريق هذا العضو الفاسد .

يقول الشريف في كتابه المبادىء الشرعية (١٤٠٦هـ) :((أحكام الشريعة الإسلامية كلها حكمة ورحمة وعدل ومصلحة ، وقد أثبت الواقع قديما وحديثا ، جدوى هذه العقوبات وفعاليتها في توفير الأمن والاستقرار ، فلو أحصينا عدد الأيدي التي قطعت في صدر الإسلام ، أو عدد من طبق عليهم حد الرجم لما تعدى ذلك أصابع اليد ، وفي مقابل ذلك أمن الناس على أموالهم وأعراضهم ودمائهم)) ص ٤٤٨ .

٧- رحمة للمجتمع كي يعمل وينتج ويثمر ، وذلك لأن الخائف لا يعمل ولا ينتج ولا يثمر ، وكيف ينتج ويعمل ويثمر من يترقب الهجوم في كل لحظة ؟ وما قيمة التعب والعناء والجهد إذا كانت نهايته الموت ؟ وما قيمة البذل والعطاء إذا لم يستمتع العامل بثمرة عمله؟.

إن اقتلاع الجريمة من جذورها في المجتمع المسلم ، يكون باقتلاع المجرم حين ينفذ فيه حكم اللطيف الخبير ، الذي يعلم ما يصلح العباد وما يصلح لهم ، يقول ابن عابدين في حاشيته (١٤٠٧هـ) :((واستئصال الجريمة يكون باستئصال المجرم إذا اقتضت مصلحة الجماعة ذلك)) ج ٥ ص ٤٨٠ .

على أن إقامة الحدود في المجتمعات المسلمة تأتي على قدر الذنوب التي يقترفها الناس ، فكلما عظم الذنب عظمت العقوبة ، وبقدر ما تكون الجريمة ذات آثار خطيرة على الفرد والمجتمع ، بقدر ما تكون العقوبة قاسية رادعة ، فليست عقوبة المرتد عن دين الله تعالى - الذي هو اعتداء على حق الله - كعقوبة شارب الخمر ، وليست عقوبة الذي يزني وهو محصن ، كعقوبة الذي يزني وهو غير محصن ، إلى غير ذلك ، يقول ابن القيم في إعلام الموقعين (١٤١٣هـ) :

((فكان من حكمته سبحانه ورحمته أن شرع لعباده العقوبات، فى الجنايات الواقعه بين الناس، بعضهم على بعض فى الأنفس والأبدان والأعراض والأموال ، كالقتل والجراح والقذف والسرقة فأحكم وجوه الزجر الرادعة عن هذه الجنايات غاية الإحكام ، وشرعها على أكمل الوجوه ، المتضمنة لمصلحة الردع والزجر ، بدون مجاوزة لما يستحقه الجاني من الردع ، فلم يشرع في الكذب قطع اللسان ولا القتل ، ولم يشرع في الزنا الإخصاء أو قطع العضو التناسلي ، ولا في السرقة أعدام النفس ، وإنما شرع لهم بلطفه وإحسانه ما يزيل النوائب ، وينقطع به التظالم والعدوان ، ويقتنع كل إنسان بما آتاه ربه ، فلا يطمع في غيره لأخذ حقه . . . إلى أن يقول : فلما تفاوتت مراتب الجنايات ، كان لا بد من تفاوت مراتب العقوبات ، وكان من المعلوم أن الناس لو وكلوا إلى عقولهم في معرفة ذلك وترتبت العقوبة على ما يناسبها من الجناية جنسا ووصفا وقدرا ، لذهبت بهم الآراء كل مذهب ، وتشعبت بهم الطرق كل مشعب ، ولعظم الاختلاف ، واشتد

الخطب ، فكفاهم أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين مؤونة ذلك ، وأزال عنهم كلفته ، وتولى بحكمته وعدله ورحمته تقديرها نوعا وقدرا ، ورتب كل جناية على ما يناسبها من العقوبة ، وما يليق بها من النكال ، ثم بلغ من سعة رحمته وجوده أن جعل تلك العقوبات كفارات لأهلها ، وطهرة تزيلالمؤاخذة عنهم بالجنايات إذا قدموا عليه ، ولا سيما إذا كان منهم بعدها التوبة النصوح والإنابة ، فرحمهم بهذه العقوبات أنواعا من الرحمة في الدنيا والآخرة)) ج ٢ ص ٨٢ - ٨٣ .

على أن الإسلام حين شرع الحدود لحفظ الكليات الخمس ، التي لا يسعد مجتمع في غيابها ، وحددها بمقدار معين لا يزاد عليه ولا ينقص منه ، قد شرع إلى جوار ذلك التعزير الذي يشبه الحد في آثاره ، ولكنه يختلف عنه بأنه كما يقول البهوتي في شرح منتهى الإرادات (د - ت) :((عقوبة غير مقدرة في معصية لا حد فيها ولا كفارة)) ج ٣ ص ٣٦٠.

ويقول ابن حجر في الفتح (د - ت) معرفا التعزير :((مصدر عزره ، وهو مأخوذ من العزر وهو الرد والمنع ٠٠٠ ومنه عزره القاضي : أي أدبه لئلا يعود إلى القبيح ، ويكون بالقول والفعل بحسب ما يليق به)) ج ١٢ص ١٧٦ .

فهي عقوبة شرعها الإسلام وترك تقديرها للحاكم ، يطبقها وفق ما تقتضيه مصلحة الأفراد والمجتمعات ، تحت مظلة نصوص الشرع ومبادئه العامة ٠

وهنا تظهر عظمة هذه الشريعة الغراء كيف استقلت بأنواع من العقوبات ، فنصت عليها وقدرتها وحددت صورتها ، وكيف كانت مرنة حين تركت للحاكم المسلم ، أو من يقوم مقامه نصيبا آخر من العقوبات التعزيرية تحسبا لما قد يأتي من الجرائم التي تستجد في كل عصر ٠

الآثار الوقائية لتطبيق الحدود :

الحدود في الإسلام تختلف باختلاف الجريمة التي يرتكبها الإنسان ، على أن الجرائم التي جعل الإسلام لها عقوبة مقدرة ، قد اختلف الفقهاء في عددها ٠

فقد ذكر الكاساني في بدائع الصنائع (د ـ ت) أن الحدود خمسة هي : الزنا والسرقة وشرب الخمر والسكر والقذف ٠ ج ٧ ص ٣٣ .

وقد ذكر الماوردي في الأحكام السلطانية (د ـ ت) أن الحدود خمسة محصورة في : الزنا والسرقة والخمر والمحاربة والقذف ٠ ص ٢٧٨ .

وعدها بعضهم ستة ، فقد ذكر ابن عابدين في حاشيته (١٤٠٧هـ) أن الحدود ستة هي : الزنا والخمر خاصة ، والسكر من غيره ، والقذف ، والسرقة ، وقطع الطريق ٠ ج ٣ ص ١٤٠ .

زاد عوده في كتابه التشريع الجنائي الإسلامي (١٤٠٦هـ) حدي ((البغي والردة)) ج ١ ص ٦٣٤، وبذلك يصبح مجموع ما ذكره الفقهاء من الجرائم المعاقب عليها بالحدود سبعة هي : الزنا والخمر والسرقة والحرابة والقذف والبغي والردة ٠

وحين نمعن النظر في هذه الجرائم نجد أنها تتعلق بالضروريات الخمس التي لا يمكن أن يعيش مجتمع حياة كريمة بدون المحافظة عليها ٠

ففي حفظ الدين شرع الإسلام حد الردة ، وفي حفظ النفس شرع القصاص، وفي حفظ المال شرع حد السرقة وحد الحرابة ، وفي حفظ العرض شرع حد الزنا والقذف ، وفي حفظ العقل شرع حد الخمر وما في حكمها ٠

ولكل واحد من هذه الحدود آثاره الوقائية في حفظ المجتمع ، وسيقتصر الباحث على ذكر الجوانب الوقائية لتطبيق : حد الردة وحد القتل وحد الزنا ،

وسيكون الحديث مستفيضا عن إقامة حد الزنا بالذات باعتبار الزنا أكثر وقوعا من الردة والقتل .

الأثر الوقائي لإقامة حد الردة في حفظ المجتمع :

ما من شك أن الإسلام هو الدين الصحيح الذي ارتضاه الله تعالى دينا للبشرية ينظم حياتها في كل ميدان ، وفي الحفاظ على الدين حفاظ على الحياة كلها ، لأن الدين سبب في اجتماع الكلمة ، وتوحيد الصف ، وسبب في التعاون على البر والتقوى ، وسبب في إقامة كل نظام من أنظمة الحياة في جوانبها المختلفة على أحسن الوجوه ، وسبب في حفظ حقوق الناس ، واستقرار حياتهم ، فإذا ما استهان الناس بهذا الدين وأراد بعضهم أن يتركه إلى دين غيره فإنه لا يُمكَّن من ذلك ، لأنه حين يترك الإسلام يرسل إلى غيره رسالة أن هذا الدين غير صالح لأن يعتنق ويتمسك به ، وقد كان هذا أسلوب المشركين في التشكيك في صلاحية الإسلام ، قال الله تعالى عنهم :﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ﴾ سورة آل عمران آية ٧٢ .

يقول ابن كثير في تفسيره (١٤١٤هـ) :((هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم ، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ، ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح ، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس : إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين)) ج ٢ ص ٦٨ .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن المسلم يوم يترك دينه ويرتد عنه ، فإنه لا تؤمن منه أن ينشر أسرار المجتمع المسلم ، وفي ذلك تهديد للجماعة المسلمة في أمنها واستقرارها .

يقـول سيـد قطب في الظلال (١٤٠٠هـ) :((والتـارك لدينه المفـارق للجماعة إنما يقتل لأنه اختار الإسلام لم يجبر عليه ، ودخل في الجماعة المسلمة ، واطلع على أسرارها ، فخروجه بعد ذلك عليها تهديد لها)) ج ٤ ص ٢٢٢٥ .

ونتيجة لذلك جعل الإسلام عقوبته القتل ، كما روى البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ من بدل دينه فاقتلوه ﴾ ج ٦ ص ١٤٩ .

كما أن الإسلام يحمي حوزة الدين بزرع هيبته في القلوب ، فإذا ما لمزه أحدهم بسخرية ، أو تنقص أو عابه أو شتمه ، فإنه يعزر ليرتدع ، فإن اعتقد مايقول بعد استتابته ، وإلاضربت عنقه ، لأن في الجرأة على أحكامه بالهمز واللمز والسخرية والاستهزاء تهوين له في أنظار الناس ، فإذا ما هان الدين في أنظار الناس، نفر الناس من أحكامه وتشريعاته التي هي سر سعادتهم في الدنيا والآخرة ، وهنا يكمن البلاء ، ويحل الشقاء بالمجتمع وأفراده في الدنيا والآخرة .

الأثر الوقائي لإقامة حد القتل في حفظ المجتمع :

القتل من أبشع الجرائم التي تهدد أمن المجتمعات ، وتذهب باستقرارها ، وكيف يهنؤ الإنسان بعيش في مجتمع لا يأمن فيه على نفسه ، بل ينتظر الموت في كل لحظة ، وما قيمة الإنسان أن يأتي إلى الحياة ثم يغادرها حين يعتدى عليه بالقتل لأتفه الأسباب .

لقد شرع اللطيف الخبير ، العليم الحكيم ، لعباده القصاص ، حفاظا على الأنفس البريئة من أذى المجرمين ، وأخبر جل جلاله أن في مشروعية القصاص حياة ، يعرفها أهل العقول الراشدة ، والأفكار السليمة ، فقال جل جلاله :﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون ﴾ سورة البقرة آية ١٧٩ .

يقول البغوي في تفسيره (١٤١٤هـ) في معنى الحياة التي ذكرتها الآية الكريمة :((أي بقاء ، وذلك أن القاصد للقت إذا علم أنه إذا قَتَلَ قُتِل ، يمتنع عن القتل ، فيكون فيه بقاؤه وبقاء من همَّ بقتله)) ج ١ ص ١٩١ - ١٩٢ .

ويقول الطبري في جامع البيان عن تأويل القرآن (د - ت) بعد أن ساق السند إلى قتادة أنه قال:((جعل الله هذه القصاص حياة ونكالا وعظة لأهل السفة والجهل من الناس ، وكم من رجل قد همَّ بداهية لولا مخافة القصاص لوقع بها ، ولكن الله حجز بالقصاص بعضهم عن بعض ، وما أمر الله بأمر قط إلا وهو أمر صلاح في الدنيا والآخرة ، ولا ينهى الله عن أمر قط إلا وهو فساد في الدنيا والدين ، والله أعلم بالذي يصلح خلقه)) ج ٢ ص ١٤٤ .

ويقول ابن عاشور في التحرير والتنوير (د - ت) :((فبين سبحانه أن في القصاص حياة ، والتنكير في [حياة] للتعظيم بقرينة المقام ، أي في القصاص حياة لكم أي لنفوسكم ، فلو أهمل حكم القصاص لما ارتدع الناس ، لأن أشد ما تتوقاه نفوس البشر من الحوادث هو الموت)) ج ٢ ص ١٤٤ - ١٤٥ .

إن القتل جريمة بشعة لا يجرؤ عليها الفرد إلا بعد تجرده من كل عوامل الرأفة والرحمة والإنسانية ، ويكفي به إثما أنه كان أول اعتداء وقع من الإنسان على أخيه الإنسان في الأرض ، حين اعتدى ابن آدم قابيل على أخيه هابيل فقتله فأصبح من النادمين الخاسرين ، فكان هو أول من سن القتل وبدأه ، ليكتب الله عليه إثم كل من وقع بعده في هذه الجريمة إلى يوم الدين ، فقد روى البخاري في صحيحه (مع الفتح د - ت) ومسلم في صحيحه (شرح النووي د - ت) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ ليس من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها لأنه أول من سن القتل﴾ ج ٣ ص ١٥٠ ، ج ١١ ص ١٧٨ .

ومن هنا كان أول تشريع في جانب الجنائيات هو تشريع عقوبة القتل ، يقول عبد الله الشنقيطي في كتابه علاج القرآن الكريم للجريمة (١٤١٣هـ) : ((قص الله علينا هذه الجريمة الأولى ، وربط بها أول تشريع جنائي فيما أعلم)) ص ٤٩، ثم استدل على ذلك بقول الله تعالى :﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ... الآية ﴾ سورة المائدة آية٤٥ .

ولهذا كان قتل القاتل هو العلاج الحاسم للمحافظة على أرواح الناس ، وهو الحياة التي ذكرتها الآية الكريمة لأن فيه إبقاء على حياة من يفكر في القتل قبل أن يقدم عليه ، حين يتذكر أنه سائر في أثر المقتول ، وأمام مرأى ومسمع من الناس ، ثم إن في ذلك إبقاء لحياة الآخرين بارتداع من من تسول له نفسه أن يستهتر بأرواح الآخرين حين يعلم أن مصيره الإعدام .

ولقد سبقت مرحلة عقوبة الإعدام في الشريعة الإسلامية مراحل سابقة ، تزرع الإيمان في القلوب ، ليكون أعظم السدود والحواجز من التعدي على الآخرين، إلى جانب ذلك يعرض القرآن الكريم تحذيرات شتى من الإعتداء على الناس وسفك دمائهم بغير حق ، مبينا بعض صور القتلة في الآخرة وما ينالهم من العذاب ، ومن ذلك ما توعد الله سبحانه من يتعدى على أرواح الناس عامدا في الآخرة بالنار والغضب واللعنة والعذاب العظيم ، فقال سبحانه :﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما ﴾ سورة النساء آية ٩٣ .

ومن ذلك ما رواه ابن ماجة في سننه (د - ت) من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده وأوداجه تشغب دما ، فيقول يا رب ! سل هذا فيم

قتلني ؟ حتى يدنيه من العرش ﴾ ج ٢ ص ٨٧٤ ، وصححه الألباني بألفاظ مختلفة في صحيح الجامع (١٤٠٦هـ) ج ٢ ص ١٣٣٣ .

فإذا لم يقف المجرم عند هذه الزواجر المنفرة من القتل ، وتعدى حدود الله وجب إقامة الحد عليه ، وفي إقامة الحد عليه من التدابير الوقائية لحفظ المجتمع ما يلي :

١ ـ وقاية لأرواح الأفراد الذين هم لبنات المجتمع و وجوده .

٢ ـ قطع دابر الثارات التي تفتك بالمجتمع وتحيله إلى غابة يأكل فيها القوي الضعيف .

٣ ـ قطع دابر الخوف الذي لا يهنأ الفرد معه بحياة مهما كان بريقها .

٤ ـ قطع دابر الفرقة والخلاف التي تحيل الاجتماع على الخير إلى فرقة وخلاف ، وتحيل المجتمع إلى فرق وطوائف يذيق بعضهم بأس بعض .

٥ ـ الحفاظ على الأنفس كي تعمل وتنتج ، ولئلا تهدر تلبية لشهوة التشفي وحب الانتقام .

٦ ـ وقاية للمجتمع ممن تسول له نفسه أن يسلك هذه المسلك الإجرامي .

٧ ـ الحفاظ على أمن المجتمع واستقراره .

الأثر الوقائي لإقامة حد الزنا في حفظ المجتمع :

هذه الفاحشة الكبرى كانت سببا في زلزلة مجتمعات بأسرها ، لتصطلي بنار العذاب في الدنيا قبل الآخرة ، يوم أن اقتحمت الزنا وهي على بصيرة بآثاره المدمرة على الأفراد والأسر والمجتمعات ، لأنها لم تجد في طريقها من الحواجز ما يكون سببا في وقايتها من التردي في هذه الهوة الموبوءة ، فجاء الإسلام بطرحه الرباني الذي يقوم في أغلب مساحته على الوقاية ، تاركا مساحة صغيرة للعلاج ،

الذي يعتبر في حد ذاته علاجا ووقاية ، فهو علاج لمن وقع ، ووقاية للآخرين من الوقوع ، و قد جاءت الوقاية من هذه الفاحشة في منهج الإسلام على جانبين :

الجانب الأول : الدعوة إلى تقوى الله تعالى بغرس العقيدة الإسلامية الصحيحة في النفوس ، فهي السياج الواقي من الوقوع في هذه الرذيلة ، ثم طرق القلوب بعد ذلك ببعض الأساليب التربوية كأسلوب الأمر والنهي والترغيب والترهيب ، في التحذير من هذه الجريمة وبيان آثارها على الفرد في الدنيا والآخرة ، وقد ورد في كتاب الله وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ما يحذر من فعلها، فمن الآيات الواردة في التحذير من هذه الفعلة الشنيعة قول الله تعالى :﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ سورة الإسراء آية ٣٢ .

ومن السنة ما رواه البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) ومسلم (شرح النووي د ـ ت) من حديث عائشة رضي الله عنها في خطبة الخسوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :﴿ يا أمة محمد والله ما من أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته﴾ ج ٢ ص ٥٢٩ ، ج ٦ ص٤٥٧ .

وفي حديث الرؤيا الطويل الذي رواه البخاري (مع الفتح د ـ ت) ومسلم شرح النووي د ـ ت) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ رأى ثقبا مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يتود تحته نارا كلما اقتربت ارتفعوا حتى كادوا أن يخرجوا فإذا أخمدت رجعوا فيها وفيها رجال ونساء عراة فقلت من هذا ؟ فقيل هم الزناة ﴾ ج٣ص٢٥١ ، ج ١٥ ص ٢٠٤ .

يقول المقدم في كتابه عودة الحجاب (١٤١٠هـ) :((فها هي الشريعة المطهرة عندما تحرم الجريمة ، تحرم معها أسبابها وذرائعها ودوافعها ، حتى تستوقف المرء على مسافة بعيدة قبل أن يفضي إلى حدود الجريمة الأصلية)) ج ١ ص ٦٦ .

والجانب الثاني: تطبيق حد الزنا في الشريعة الإسلامية، دون رأفة أو رحمة ، على مشهد من المؤمنين ، لمن تخطى حواجز الوقاية ووقع في الحرام .

على أن الإسلام حين حرم هذه الفاحشة ، قد حرم كل السبل الموصلة إليها والمثيرة لها ، هذا من جانب ومن جانب آخر فإن الإسلام لم يسد الأبواب على النفس الإنسانية التي ركبت فيها هذه الغريزة ، بل أوجد لتحقيق هذه الرغبة ما يكون عوضا عنها ، فشرع للنفس البشرية التي فطرت على هذا الأمر سبيلا نظيفا تقضى فيه ، ألا وهو الزواج الشرعي .

يقول ابن القيم في إعلام الموقعين (د ـ ت) :

((فإذا حرم الرب تعالى شيئا وله طرق ووسائل تفضي إليه ، فإنه يحرمها ويمنع منها ، تحقيقا لتحريمه ، وتثبيتا له ، ومنعا من أن يقرب حماه ، ولو أباح الوسائل والذرائع المفضية إليه لكان ذلك نقضا للتحريم ، وإغراء للنفوس به ، وحكمته تعالى وعلمه يأبى ذلك كل الإباء ، بل سياسة الملوك في الدنيا تأبى ذلك، فإن أحدهم إذا منع جنده أو رعيته أو أهل بيته من شيء ثم أباح لهم الطرق والأسباب الموصلة ، عُد متناقضا ، وحصل من رعيته وجنده ضد مقصوده ، وكذلك الأطباء إذا أرادوا حسم الداء منعوا صاحبه من الطرق والذرائع الموصلة إليه ، وإلا فسد عليهم ما يرمون إصلاحه ، فما الظن بهذه الشريعة الكاملة التي هي في أعلى درجات الحكمة والمصلحة والكمال ، ومن تأمل مصادرها ومواردها علم أن الله ورسوله سد الذرائع المفضية إلى المحارم بأن حرمها ونهى عنها)) ج ٣ ص ٥٣١

إن القرآن الكريم في أسلوبه الوقائي العظيم ، لم يقل : ولا تزنوا ، بل قال : ﴿ ولا تقربوا ﴾ ومعنى ذلك أن هناك خطوات وأعمال إذا فعلها العبد كان من الزنا قاب قوسين وأدنى ، ومنها :

* الخلوة بالمرأة الأجنبية ، والإسلام حرم ذلك ، فقد روى البخاري (مع الفتح د ـ ت) ومسلم (شرح النووي د ـ ت) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ لا يخلون رجل بامرأة ولا تسافرن امرأة إلا ومعها محرم ، فقام رجل فقال يا رسول الله : اكتتبت في غزوة كذا وكذا ، وخرجت امرأتي حاجة ، قال : اذهب فاحجج مع امرأتك ﴾ ج ٦ ص ١٤٢-١٤٣ ، ج ٩ ص ١١٧ .

* النظرة المحرمة للمرأة سواء كان النظر على الطبيعة أو عبر الصورة ، والإسلام حرم ذلك بقوله تعالى :﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون * وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ... الآية ﴾ سورة النور آية ٣٠ ـ ٣١ .

* الاختلاط مع الأجنبيات ، والإسلام يحرم ذلك ، قال الله تعالى :﴿ وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ سورة الأحزاب آية ٣٣ .

* التبرج والسفور ، والإسلام حرم ذلك ، فقد روى مسلم (مع النووي د ـ ت) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات على رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا ﴾ ج ١٤ ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧ .

* سفر المرأة بغير محرم ، والإسلام حرم ذلك ، فقد روى البخاري (مع الفتح د ـ ت) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة ليس معها حرمة ﴾ ج ٢ ص ٥٦٦ ، وفي رواية مسلم (شرح النووي د ـ ت)

﴿ لا يحل لامرأة و تؤمن بالـله واليوم الآخر أن تسـافر مسـيرة ثلاث إلا ومعـها ذو محرم ﴾ ج ٩ ص ١١١.

إن الإسلام في تربيتـه لأتباعه ينهـى عن مجرد القرب من مـواطن الانحراف فيحرم كل وسيلة تفضي إلى محرم ، أو طريق ينتهي بالإنسان إلى المحظور .

يقول سيد قطب في الظلال (١٤٠٠هـ) :

((والقرآن يحذر من مـجرد القرب من الزنا ، وهي مبالغـة في التحرز ، لأن الزنا تدفع إليه شهوة عنيفة ، فالتحـرز من المقاربة أضمن ، فعند المقاربة من أسبابه لا يكون هناك ضـمان ، ومـن ثم يأخذ الإسلام الطريق على أسـبابه الـدافعـة ، توقيـا للوقوع فـيه ، يكره الاختـلاط في غير ضـرورة ، ويحرم الخلوة ، وينهى عن التـبرج بالزينة ، ويحض على الزواج لمن استطاع ، ويوصي بالصوم لمن لا يستطيع ، ويكره الحواجز التي تمنع من الزواج كالمغالاة في المهور ، وينفي الخوف من العيلة والإملاق بسبب الأولاد ، ويحض على مساعدة من يبتغون الزواج ليحصنوا أنفسهم)) ج ٤ ص ٢٢٢٤ .

فإذا تخطى المجرم هذه الحواجـز كلها ووقع في هذه الفـاحشة المـنكرة ، فإن كان ممن سـبق له أن تمتع بالحلال عن طريق الزواج الشـرعي ، فإن عقـوبته حيـنئذ تكون عقوبة بـشعة تنفر منها النفـوس السليمة ، وتتخشـاها الفطر السوية ، ألا وهي الرجم بالحجارة حتى الموت ، للرجل والمرأة على حـد سواء ، يقول سيد قطب في الظلال (١٤٠٠هـ) :((وعـقـوبة المحـصن هي الرجم ، ذلك أن الـذي سبق له الوطء في نكاح صحيح ـ وهو مسلم حر بالـغ ـ قد عرف الطريق الصحيح النظيف وجرّبـه فعدولـه عنه إلى الزنا يشي بفسـاد فطرته وانحـرافها ، فـهو جـدير بتشـديد العقوبة ، بخـلاف البكر الغفل الغر ، الذي قد يندفع تحت ضـغط الميل وهو غرير ، وهناك فارق آخر في طبيعة الفعل ، فالمحصن ذو تجربة فيه تجعله يتذوقه ويستجيب له

أعمق مما يتذوقه البكر ، فهو حري بعقوبة كذلك أشد)) ج ٤ ص ٢٤٨٧، وإن وقعت هذه الفاحشة ممن لم يسبق له الزواج فالجلد والتغريب ، دون رأفة أو رحمة ، وبحضور طائفة من المؤمنين .

يقول جبر في كتابه الزنا (١٤٠٧هـ) :((جريمة الزنا هي في الحقيقة جريمة يعود أثرها السيء على المجتمع بأسره فهي جريمة اجتماعية بالدرجة الأولى ، ولهذا نرى أن التشريع الإسلامي قد جعل حدها حقا لله تعالى لأن ضررها يعود على الجماعة ، فلا يجوز التراخي عنها ولا العفو ولا الصلح)) ص١٢٩ .

وهنا وقفة تربوية مع المجتمعات المسلمة التي تعاقب من يتكب هذه الجريمة - بغض النظر عن شرعية العقوبة التي تتخذها - وهي تمهد الطريق إليها بكل وسيلة مثيرة ؟ !!!

إن العاقل ليتساءل عن حال هذه المجتمعات ! كيف تفتح على ناشئتها من المثيرات الجنسية ما يحرك الحجارة ، ما بين فلم خليع ، ومجلة ساقطة ، وكتاب مهيج ، وقصة منكرة ، وكيف تهيىء الجو الآمن للاختلاط ، وتسمح للمرأة أن تتجول بين الدول والمدن بدون محرم ، وفي المقابل تحارب كل صوت للإصلاح يبني حاجزا ، وتهدم كل فكرة عفيفة تبني سدا ؟ !!! وتستنكر كل وقفة عاقلة متسلحة بالعقل والبرهان تحمي عرضا ، وتصون مجتمعا !!! وتسخر من كل همسة حانية دليلها القرآن ، وحجتها سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام تنقذ كرامة وتنتشل حياءً !!!

كيف تفعل هذا كله ثم تُكوِّن بوليسا للآداب يطارد المجرمين ، ويلاحق المنحرفين ، لتوقع بهم العقوبة ؟ !!! أليس هذا من التناقض العجيب في حياة هذا المجتمع ؟ !!!

أليس هذا الحال ينطبق على من قيد ولده في يديه ورجليه ثم ألقاه في بحر متلاطم الأمواج ، ثم قال له يا بني : سألقيك مكبلا وإياك أن تغرق !!! حتى قيل في حال هذا الإنسان :

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

إن المجتمعات المسلمة - إن كانت تريد الخير لناشئتها التي هي أعظم الثروات على الإطلاق - في حاجة إلى أن تراجع نفسها في هذه القضية ، فتأخذ بسبل الوقاية قبل أن توقع العقوبة .

أما ما دامت تفتح الأبواب على مصاريعها لتهييج الغرائز ، فلن يتوقف الشر أبدا ، وإن اتخذت في سبيل إيقافه أقسى العقوبات ، الأمر الذي سيجعلها تجني من وراء سعار الجنس المحموم صنوفا من الكوارث الأخلاقية ، والنكبات الاجتماعية ، وغير ذلك مما في علم الله من العقوبات التي ليست من الظالمين ببعيد .

ولكن المجتمع المسلم حين يضع الحواجز ويقيم السدود أمام طوفان هذه الغريزة ، ويفتح في المقابل كل ما من شأنه أن يعين على تفريغ هذه الطاقة في طريق شرعي مباح ، فإنه بذلك يضمن سلامة الأفراد والمجتمعات إلى حد كبير وتبقى العقوبة لشرذمة قليلة لا تحب الحلال ولا تألف الطهر والعفاف ، وحين نمعن النظر في الآثار الوقائية لإقامة حد الزنا نجد ما يلي :

١- وقاية المجتمع من عذاب الله تعالى الذي يأتي في صور مختلفة ، ذلك أن المجتمعات حين تخالف أمر الله وتتعدى حدوده ، فإنما تستعجل عذاب الله تعالى ، وفي هذا المعنى يقول جل جلاله :﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ سورة العنكبوت آية ٤٠ .

٢- وقاية المجتمع من الانحراف الخلقي حين تنتشر هذه الفاحشة في أوساط الناس ، لأن سر انتشارها حينئذ يكمن في أمرين :

أولهما: غياب الإيمان كقوة وقائية تحول بين المرء وبين مقارفة هذه الفاحشة ، يقول عفيفي في كتابه النظرية الخلقية عند ابن تيمية (١٤٠٨هـ) :

((فالأخلاق القائمة على أساس من الإيمان ترفض هذا العوج الفكري ، كما تنأى عن الانحراف السلوكي ، كما تعمل على إيجاد نمو من الشخصية متسمة بتوخي الحق والتماسك به ، ومتسلحة بالموضوعية التامة في كل شؤون حياتها . . . من أجل هذا كانت النفوس محتاجة إلى الله حبا وعبادة ومرادا وأملا ، لأنه هو ربها وخالقها ، ومن هنا تكون الأخلاق الإسلامية صدى للإيمان والعمل به وبمقتضياته ، كما تكون صدى لمشاعر سامية ، وتعبيرا عن أحاسيس عميقة بالغة العمق في ارتباطها بالله سبحانه)) ص ٥٦ - ٥٧ .

وثانيهما : عدم تطبيق الحدود الذي هو العلاج الحاسم لأي صورة من صور الانحراف ، متضمنا الوقاية لمن زلت به القدم من الناس ، ووقاية للمجتمع من الانحطاط الخلقي الذي يورث النكبات الخلقية والصحية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية وغير ذلك .

٣- وقاية المجتمع من أولاد الزنا ، الذين هم ثمرة هذه الفاحشة الخبيثة ، عندما يكونون عصابات إجرام ناقمة على المجتمع الذي يعيشون فيه ، لأن الأيادي تشير إليهم ، والعيون تحتقرهم ، والألسنة تتحدث عنهم ، والمجتمع يرفضهم ويرفض التعامل معهم لأنهم - في تصور بعض أفراد المجتمع - مجهولو الهوية فهم أولاد غير شرعيين ، لا يستحقون التكريم ولا الرعاية .

٤- وقاية للمجتمع من تفكك العلاقات الاجتماعية بين الناس ، والتي تبدأ بتفكك رباط الأسرة وانحلاله ، حين يمارس كل من الزوجين والأولاد هذه الجريمة

البشعة ، فالزوج يتخذ العشيقات والخليلات ، والزوجة تسرح وتمرح مع الأخدان ، والذكور من الأولاد وراء أماكن الدعارة والبغاء ، والبنات مع الأصدقاء والخلان ، فإذا تحولت الأسر إلى هذا المسخ الفاضح في العلاقات ، لم يعد هناك من رباط مقدس يلم الشمل ، ويجمع الكلمه ويوحد الصف .

٥- وقاية المجتمع من الأمراض الخطيرة الفتاكة ، التي انتشرت في البلدان الإباحية التي قننت هذه الفاحشة ، وحمتها ، ودعت الناس إليها ، مما كان له أبلغ الأثر في انتشار الأمراض المستعصية التي زلزلت كيان تلك الأمم ، فقد روى ابن ماجة في سننه (د – ت) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركوهن ، لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها ، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا ... الحديث﴾ ج ٢ ص ١٣٣٣ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٤٠٨هـ) ج ٢ ص ٣٧٠ .

وسبحان الله! هذا موعود الله قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة لمن انحرف عن العفة ، ورفض أن يدين لربه بالعبودية، وها هو أحد الأطباء في أحد تلك المجتمعات التي انتشرت فيها الفاحشة ، نتيجة لفقدان أساليب الوقاية ، وهو الدكتور نيكول مدير قسم الأمراض الزهرية في مستشفى سان تومان بلندن الذي يقول كما ذكر ذلك فضل إلهي في كتابه التدابير الوقائية من الزنا (١٤٠٨هـ) : ((إن المشكلة التي تواجهنا اليوم هي تبدل قيمنا الأخلاقية التي شجعت وتشجع على إقامة العلاقات الجنسية المحرمة ، وهذه بدورها سببت ازديادا حادا في الإصابة بالأمراض الناتجة عن الإباحية الجنسية))ص ٥٢ .

وما من شك أن هذه الآثار السيئة التي تورثها فاحشة الزنا ما هي إلا ثمرة واحدة من ثمرات انتكاس الفطر ، يوم رفضت النفوس الموبوءة الحلا إلى الحرام ، وتخطت الطريق الصحيح والمنفذ النظيف إلى الحرام القذر .

يقول سيد قطب في الظلال (١٤٠٠هـ) بعد أن ذكر أسباب تشديد الإسلام لعقوبة الزناة والزواني في المجتمع المسلم :((ولكن السبب الأول هو دفع النكسة الحيوانية عن النفس البشرية ، ووقاية الآداب الإنسانية التي تجمعت حول الجنس ، والمحافظة على أهداف الحياة العليا من الحياة الزوجية المشتركة القائمة على أساس الدوام والامتداد ، هذا هو السبب الأهم في اعتقادي وهو الجامع لكل الأسباب الفرعية الأخرى)) ج ٤ ص ٢٤٨٩ .

٦ـ وقاية المجتمع من انهيار حضارته ورقيه وتطوره ، ذلك أن سفور المرأة وخروجها من بيتها ومخالطتها للرجال سبب في فساد أخلاقها الأمر الذي يؤذن بانهيار كل المقومات الحضارية للمجتمع ، ومن يستقرىء التاريخ يجد أن انهيار حضارات الأمم كان وراءه فساد المرأة ، يقول السباعي في كتابه المرأة بين الفقه والقانون (١٤٠٤هـ) :((من المعلوم تاريخيا أن من أكبر أسباب انهيار الحضارة اليونانية تبرج المرأة ، ومخالطتها للرجال ، ومبالغتها في الزينة والاختلاط ، ومثل ذلك حصل تماما للرومانيين ، فقد كانت المرأة في أول حضارتهم مصونة محتشمة ، فاستطاعوا أن يفتحوا الفتوح وأن يوحدوا أركان امبروطوريتهم العظيمة ، فلما تبرجت المرأة وأصبحت ترتاد المنتديات والمجالس العامة ، وهي في أتم زينة وأبهى حلة فسدت أخلاق الرجال ، وضعفت ملكتهم الحربية وانهارت حضارتهم انهيارا مريعا)) ص ١٨٧ .

الآثار التربوية لتطبيق الحدود :

تطبيق الحدود في الشريعة الإسلامية له آثاره التربوية على الأفراد والأسر والمجتمعات ، ومن ذلك :

١- تربية الفرد على الطاعة المطلقة لله سبحانه ، والانقياد لأمره عز وجل ، وإن كان في ذلك ما تكرهه النفس ، لعلمها القاصر بما يصلحها وما يصلح لها .

٢- الثقة المطلقة في أن سعادة الإنسان ليست إلا في تطبيق شرع الله تعالى ، الذي يقول في محكم تنزيله :﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون ﴾ سورة البقرة آية ١٧٩ .

٣- وزن القيم بميزان الشرع لا بميزان العقل ، فإن العقل قد يستحسن ما هو قبيح ، نتيجة لقصوره في فهم ما يسعده في دنياه وآخرته ، فضلا عن تشريعه وتطبيقه .

٤- النظر في قضايا الحياة بميزان الشرع لا بميزان العقل ، لأن العقل قد يدرك الحكمة من مشروعية التكليف وقد لا يدرك ذلك ، وحين لا يدرك الحكمة من ذلك فإنه يقف حجر عثرة في سبيل تنفيذه ، ففي تطبيق الحدود مثلا قد يظن العقل أن في ذلك قتلا لحرية الإنسان ، وسلبا لكرامته ، واحتقارا له ، وإزهاقا لحياته التي من حقه أن يتمتع بها .

٥- تربية المجتمع على بغض الجريمة والنفور منها ، وذلك حين يرى الناس تطبيق حد من حدود الله في مجرم لجرم ارتكبه ، أو معصية وقع فيها ، في حق ربه أو في حق نفسه أو في حق غيره .

٦- تربية المجتمع على التعاون على البر والتقوى ، والوقوف أمام طوفان الجريمة ، لأن الحد لا يقام إلا على من كان في وجوده تهديد للمجتمع ، وإقلاق لراحة أفراده .

٧ـ تربية الفرد على أن يستفيد من خطأ غيره ، وأن يأخذ العبرة ممن سبقه ، وهذا ما يحرص القرآن الكريم والسنة المطهرة على التنبيه عليه في نهاية كل حدث أو قصة ٠

٨ـ تربية المجتمع على الجدية في الأمور ، والتخلي عن المشاعر والعواطف ، حين تهدد أعاصير الجريمة أفراد المجتمع ٠

٩ـ تربية المجتمع على العدل والمساواة ومحاربة الطبقية ، حين تُنفذ الحدود على الجميع ، بلا مدارة ، أو مجاملة ، أو محاباة ﴿ والذي نفسي بيده لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها ﴾ رواه البخاري(مع الفتح د ـ ت) ج١٢ص ٨٧ ومسلم(شرح النووي د ـ ت) ج ١١ ص ١٩٩ ٠

وخلاصة القول : إن من أعظم ما جاءت به الشريعة الإسلامية لحفظ الأفراد والمجتمعات على حد سواء هي مشروعية الحدود المقدرة والتعزيرات غير المقدرة التي أثبت الواقع على مدار التاريخ أنها خير أسلوب لكبح جماح المجرمين ، بعد أن قدمت لهم الإيمان بالله ، ودعتهم إليه عبر الأمر والنهي ، وحدثتهم القصة وضرب المثل والترغيب والترهيب وسائر الأساليب عن آثار الإعراض عن أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، فجعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ، فكان لا بد من إيقافهم عند حدهم حفظا للأفراد من شرورهم ، وضمانا لسلامة المجتمع المسلم من الفساد الذي تحمله هذه النفوس المريضة ٠

وها نحن نشاهد من ابتلي في إحدى أطرافه بمرض خبيث ، كيف ينصحه الأطباء ببتر هذا الطرف حفاظا على بقية الجسم أن يسري إليه المرض فيحيله جثة هامدة في فترة وجيزة ، وهذا هو الحال فيمن فسد من أفراد المجتمع ، فإن الإسلام يسعى إلى علاجه ، فإن كان المرض قد استفحل ولم يعد العلاج مُجدِيا ، كان لا بد من البتر تضحية بالجزء ضمانا لسلامة الكل ٠

خاتمة الفصل :

بما أن الأسرة هي نواة المجتمع ، والمجتمع هو مجموعة الأسر والأفراد قليلا كانوا أو كثيرا ، فقد حرص الإسلام على أن يرعى المجتمعات المسلمة برعايته للأفراد والأسر فشرع لهم من التدابير الوقائية ما يكون سببا في وقايتهم من الانحراف في كل جانب من جوانب الحياة ، فلاحق الأسرة المسلمة بالتوجيهات داخل أروقة المنزل حتى في أدق جزئيات حياتها ، صيانة لأفرادها وتربية لهم على محاسن الأقوال والأفعال ، بدءا من التأكيد على الخطوة الأولى في بناء الأسرة وهي اختيار الزوجين ، ثم مرورا بالمعاشرة الحسنة وتربية الأولاد ، وانتهاءا بزوال الأسرة ورحيلها عن هذه الدار ، إذ الإسلام لا يقف في تربيتة للأسرة المسلمة عند حد معين، بل إنه يتابعها أبد الدهر فيحوطها بآدابه الربانية التي شرعها للناس رب الناس ، خطوة خطوة ، ومرحلة مرحلة حتى يكتمل بناؤها .

إضافة إلى متابعته للمجتمع المسلم بالتوجيهات الربانية ، والتشريعات الإلهية، حين شرع له من سبل الوقاية ما يكون سببا في حفظه وحمايته من كل ما من شأنه أن ينحرف به عن الحياة السوية كالدعوة إلى الله تعالى على وعي وبصيره مستمدة من كتاب الله الكريم ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهدي سلف الأمة الأخيار ، و كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفق الضوابط الشرعية التي ورد بها الكتاب والسنة ، ومارسها سلف الأمة الاخيار ، وتحدث عنها علماء الإسلام الأثبات في كل عصر ومصر ، والباحث حين يذكر جانب الأمربالعروف والنهي عن المنكر ويؤكد على ضرورة التزام الضوابط الشرعية في ذلك ، فما ذلك إلا حرصا على ألا ينقلب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حين لا يوزن بميزان الشريعة الغراء ووفق المصالح الشرعية إلى خلاف المقصود منه .

ولهذا فإن على المربين أيا كانت مواقعهم مسئولية عظيمة في تربية الناس على الخير من خلال عرض حقائق الإسلام عليهم بكل وسيلة شرعية ممكنة ، ودعوتهم

إلى الإيمان بالله بالأساليب التربوية الكثيرة التي حفل بها كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وتحذيرهم مغبة الوقوع في المخالفات والآثام عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإذا لم تستجب النفوس للدعوة إلى الله تعالى ، ولم تذعن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ووقعت في المخالفات التي تستعجل غضب الله تعالى وأليم عقابه ، وهددت الناس في ضرورياتهم الخمس فقد شرعت الحدود والتعزيرات التي بها تحفظ الحقوق وتصان الكرامات ، لتكون علاجا من ناحية ووقاية من ناحية أخرى ، وقد أثبت الواقع أن منهج الإسلام في تربية النفوس على الإيمان بالله الذي يكوّن الرقابة الذاتية التي تقضي على ظواهر الآثام والمخالفات وبواطنها .

وما من شك أن صيانة الأسر والمجتمعات عن طريق مشروعية الحدود والتعزيرات لمن تخطى الحواجز ، وتعدى الحدود ، هو أنجع الأساليب التي شهدتها الدنيا على مر العصور والأزمان في القضاء على الجريمة ، وتأمين الناس على أديانهم وأنفسهم وأموالهم وأعراضهم وعقولهم ، وليس ذلك بغريب فإن الذي شرع هذا الدين هو الذي يعلم ما يصلح العباد وما يصلح لهم في دنياهم وعاقبة أمرهم .

ولهذا كان عدد الذين أقيمت عليهم الحدود في عهد الصحابة الأخيار قلة قليلة إذا قيسوا بغيرهم من سائر أفراد المجتمع ، فالذين أقيم عليهم حد الزنا يكادون يعدون على أصابع اليد الواحدة ، وهكذا دواليك في بقية الحدود التي شرعها الإسلام .

أما في الدول الكافرة التي لا تحكم بشرع الله تعالى ، ولا تطبق الحدود التي أوجبها الله تعالى على عباده ، فقد سبق في بعض الإحصائيات التي مرت في الفصل الثاني من هذه الدراسة ارتفاع هائل في معدل الجريمة في مثل هذه الدول مع سلوكها في سبيل القضاء على الجريمة كل الطرق ، واتخاذها كافة الأساليب ،

ومع ذلك فـالجريمة في تزايد مـستـمر ، وعـدم استقـرار الأمن في تلك المجـتـمـعات يذهب بلذيذ العيش ، حين أصبح الناس لا يؤمنون على أنفسهم ولا أمـوالهم ولا أعراضـهم . ولعل المملكة العربـية السعـودية في مثل هذه الأزمنة تعيش مسـتوى أمنيا يفوق كل بقعـة على وجه الأرض بسبب تطبيقها لهذا الجـانب الهام في حياة كل مجتمع ، عسى الله تعالى أن يزيدها أمنا ورخـاء وأن يجنبها الفتن ما ظهر منها وما بطن ، وأن يجعلها منارة للإسلام تحكم به في كل جانب من جوانب حياتها .

الفـصل السادس: التصـور المقتـرح لاسـتفـادة المدرسـة الثانويـة من التربيـة الوقائية :

الفصل السادس

التصور المقترح لاستفادة المدرسة الثانوية من التربية الوقائية

١ ـ الميدان التربوي وأهميته .

٢ ـ مفهوم المدرسة الثانوية .

٣ ـ خصائص التعليم الثانوي .

٤ ـ مصادر اشتقاق الأهداف التعليمية والتربوية في الإسلام .

٥ ـ أهداف التعليم في المرحلة الثانوية .

٦ ـ خصائص نمو طلاب المرحلة الثانوية .

٧ ـ المدرسة الثانوية والتربية الوقائية .

٨ ـ دور المعلم والمنهج والنشاط في التربية الوقائية .

٩ ـ المدرسة الثانوية ووقاية معتقد الطالب .

١٠ ـ المدرسة الثانوية ووقاية أخلاق الطالب .

١١ ـ أثر العلاقة بين البيت والمدرسة ووسائل الإعلام في تعزيز جانب الوقاية .

١٢ ـ نماذج من تربية الطلاب على مبدأ الوقاية .

مدخل للفصل :

المدرسة هي إحـدى المعاقل التـربوية التي يأوي إليهـا الطالب فتـرة طويلة من عمـره ، إذ يقضي بين أروقتـها ما بين الفـينة والأخرى ما يقـارب ثلث عمره ، فـهو يقضي في المرحلة الإبتـدائية ست سنوات ، وفي المتوسـطة والثانوية ستَ سنوات ، وفي المرحلة الجامعية أربع سنوات .

بالإضـافـة إلى أن الطالب يقـضـي فـترة طـويلة من وقـتـه اليـومي بين أروقـة المدرسـة، يسـمـع ويرى ويلاحظ ويشـارك ، فهـو ينطلق إلـى المدرسة في الـصبـاح البـاكـر ، ولا يعود إلى المنزل إلا بعـد منتصف النهـار في الغالب ، بمعنى أنـه يقضي نصف النهار في المدرسة .

ومن هنا كان من واجب المدرسة أن تدرك أهميـة العناية بالطالب هذه الفترة الطويلة من وقتـه اليومي ، فتـستغلهـا استغـلالا سليما منظمـا ، يهدف إلى صيـاغة شخصـيتة صياغـة متكاملة بما تقدم له من العلوم والمعـارف والأنشطة ، واضعة في الحـسبـان وهي تقـوم على تربيتـه أن الدفع أسـهل من الرفع ، وأن الوقـاية خيـر من العلاج .

إن الأب العاقل الحصيف إذا خُيِّـر في أمر ولده بين أن يأخذ إبرة تقاوم ـ بعد مشيئة الله ـ المـرض قبل أن ينزل فتكون سببا في رده ومقاومته ، أو أن يتركه حتى يمرض ، ويستـفـحل عليـه المرض ، ثم يبـدأ بعـد ذلك في العـلاج ، إن الأب حين يختار الثاني على الأول يتهم في عقله بالقصور والسفاهه وذلك لأمور :

الأول : أنه ساهم في تعذيب ولده في فترة المرض التي نزلت به .

الثاني : أنه أشغل نفسه بالذهاب والإياب من وإلى المستشفى .

الثالث : أنه أنفق من ماله لشراء الأدوية شيئا كثيرا .

الرابع : أنه حجز بالمستشفى سريرا كان بالإمكان أن يستفيد منه غيره .

الخامس : أنه حرم نفسه مساعدة ولده له فيما يحتاج من أعمال .

السادس : أن العلاج قد ينفع الولد وقد لا ينفعه خاصة إذا استفحل المرض .

السابع : أن العلاج حين لا يجدي ربما كانت نهاية المرض هو الموت .

بينما كان بالإمكان أن يتلافى الأب كل هذه المشاكل بإبرة لا تكلف شيئا، تكون ــ بعد أمر الله ــ سببا في وقاية الولد من المرض ، وحمايته من الهلاك .

إن المدرسة حين تدرك هذه القضية فإنها تسخر كل طاقاتها وإمكانياتها للمحافظة على هذه الثروة التي هي أغلى ما تفاخر به المجتمعات والأمم ، وأعني بها ثروة الناشئة التي ترى كل أمة أن الرقي والتقدم والعز والتمكين لها ، معقود في مدى فاعلية هذه الثروة وقدرتها على العمل والإنتاج .

وإسهاما من الباحث في هذه القضية سوف يعطي - بإذن الله تعالى - تصورا مقترحا في كيفية استفادة المدرسة الثانوية من التربية الوقائية .

ولتحقيق ذلك لا بد من تحديد مفهوم المدرسة الثانوية وذكر بعض خصائصها ، وبعض خصائص النمو لتلميذ هذه المرحل ، ثم عرض مفصل في كيفية قيام المدرسة الثانوية بالتربية الوقائية في جانبين من حياة الطالب :

أولهما : العقيدة لكونها الأساس الذي تنطلق منه سائر الأعمال والتصرفات ، بل حتى المشاعر والخلجات .

وثانيهما : الخلق الإسلامي الأصيل لكونه جانبا مهما من جوانب مقومات الشخصية الإسلامية .

بحيث يُغرس هذان الجانبان – جانب المعتقد والخلق – عن طريق المعلم الكفء والمنهج الشامل والنشاط الفعَّال ، بحيث يكوِّن الجميع جهدا واحدا يُصب

في قالب واحد ، هو صياغة شخصية الطالب صياغة متكاملة في كل جانب من جوانب حياته ، بعيدا عن التناقض والازدواجية .

ثم يختتم الباحث هذا الفصل بعرض بعض النماذج من تربية الطلاب على مبدأ الوقاية من خلال بعض المواد ، وسيقتصر الباحث على عرض ثلاثة نماذج وهي :

١- نموذج في تفسير القرآن الكريم .

٢- نموذج في الحديث الشريف .

٣- نموذج في مادة الأحياء .

وقد جمع الباحث في هذه النماذج بين العلم الشرعي الإلهي ، والعلم المادي الطبيعي ، ليبرهن على أن الإسلام دين ودنيا ، وآخرة وأولى ، وأن العلوم جميعا يجب أن تسخر لخدمة قضيتنا الكبرى ، قضية العبودية لله رب العالمين ، حرصا على أن تظل شخصية الطالب في هذه المرحلة المهمة من العمر ذات مناعة قوية ضد كل عاصفة أو تيار ، لتقاوم - وبكل قوة - كل فكر دخيل أو خلق غير جميل ، يعيقها عن أداء رسالتها للعالم أجمع .

الميدان التربوي وأهميته :

جسد الإنسان يتكون من أعضاء كثيرة ومختلفة ، كل عضو منه يؤدي مهمة ، ويقوم بدور ، على تفاوت في أهمية هذه الأعضاء ، إذ هناك من الأعضاء ما يمكن أن يستغني عنها الجسد فيظل حيا بدونها ، وإن كان جسدا مشوها ناقصا، فالجسد قد يحيا بدون سمع أو بصر أو رجل أو يد أو لسان ولكن هناك عضوا في الجسد لا يمكن أن يحيا بدونه البتة ، ألا وهو القلب .

والحياة التي يعيشها الناس أشبه بهذا الجسد ، فهي مجموعة من الميادين المختلفة التي يقوم كل ميدان فيها بدور ، ويؤدي مهمة ، على تفاوت في أهمية هذه الميادين ، فهناك الميدان الذي يمكن للناس أن يحيوا بدونه وإن كانت حياة مشوهة ناقصة ، ولكن هناك ميدانا واحدا لا يمكن للحياة أن تستمر بدونه ، لكونه قلبها النابض ، وفؤادها المعطاء ، ألا وهو الميدان التربوي الذي يعتبر أهم ميادين الحياة على الإطلاق ، ذلك أن أهميته لاستمرار الحياة كأهمية القلب لاستمرار الجسد ، ويكفي دليلا على ذلك أن أول الآيات التي نزلت من الوحي المقدس تخص الميدان التربوي التعليمي ، وهي قول الله تعالى :﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم﴾ سورة القلم آية ١ ـ ٥ .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبعث إلا مربيا معلما ، وقد حصر المولى جلت قدرته مهمة هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في التربية ، التي تشمل ثلاث قضايا هامة في حياة الناس هي التلاوة والتزكية والتعليم، فقال تعالى: ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ سورة الجمعة آية ٢ .

كمـا أن أهميـة هذا الميدان تكمن في أن كل أفـراد المجتـمع يتخـرجون منه ، فالمعلـم والعالم والقائـد والمجاهد والطبيـب والمهندس والتاجـر وغيرهم تربعـوا على مقاعـد الدراسة في الميدان التربوي ، وتخـرجوا من هذا الصرح الكبـير وأصبح كل واحد يمارس مـهمـته ـ في مجـال تخصـصه ـ وفق تلك الأصول والمنطـلقات التي تلقاها في هذا الميدان .

إن الأمة المسلمة في كثير من ميادين حـياتها ربما أخفقت في أخذها بجانب الوقاية ، فقصرت دورهـا إلى حد كبير على العلاج ، وصارت تعتـمد في كثير من الأحوال على ردود الأفـعال التي تقوم بـهـا نتيـجة لما تواجهـه في كثيـر من جوانب حياتها من الأزمات .

وإن الذي لا يمكن أن يقر به عـاقل أن تظل الأمور في المحاضن التـربوية للأمة المسلمة تسـير خبط عـشواء حتى يقع الخلل ، فـإذا ما وقع سرت بعـد ذلك تبحث عن العلاج الذي أصبح يكلفـها من الجهد والوقت والمال أضعاف أضـعاف ما كان يمكن أن يكلفه الجانب الوقائي .

كمـا أن من الخطورة بمكان أن تظل المحاضن التـربوية في الأمة المسلمـة تنفق على التربية والتعليم ما لا يتـصوره الإنسان من الجهد والوقت والمال ، وتظل السنين بعد السنين قـابعة في ذيل القـائمة ، لا يلتفت إليـها ولا يؤبه بها ، حـالها كمـا قال الأول :

ويقضى الأمر حين تغيب تيمٌ ... ولا يستأذنون وهم شهود

وليست القفزة بالأمـة المسلمة إلى ميدان السيادة والريادة أمراً مـستحيلاً ، أو أن الحديث عنه جانب تنظيـري فيه إغراق في المثاليات ، فهـاهي اليابان أمة وثنية لا تملك دينا عـالميا يؤهلهـا للصدارة ، ولـيس عندها من الثروات مـثل ما تملكـه الأمة المسلمة اليوم ، ومع ذلك استطاعت أن تقفز قفزة حضارية هائلة في خلال خمسين سنة ، لتمسك اليوم بزمام الاقتصاد في العالم ، ولقد أباح اليابانيون بسر هذه القفزة

يوم قالوا كما ورد ذلك في كتاب التعليم في اليابان (١٩٧٨هـ) وهو من إصدارات مكتب التربية العربي لدول الخليج :((إذا أردنا أن نقيم دولة ذات حضارة تشارك في السلام العالمي ، وتنافس على قيادة العالم ، فعلينا أن نعتمد أساسا على قوة التربية والتعليم)) ص ٢٢ .

لقد أغلق اليابانيون بلدهم في وجه العالم الخارجي وعكفوا يخططون للتربية والتعليم ، وكانوا منطلقين في ذلك من خلال معتقداتهم التي يدينون بها وعاداتهم وتقاليدهم التي يفاخرون بها ٠

تقول هوايت hwit في كتابها التربية والتحدي (١٩٩١م) ترجمة كوجك :((ولهذا الإصرار الياباني أسبابه وجذوره التاريخية والحضارية بادئة كمعظم الأساطير اليابانية بأسطورة خلق اليابان ٠٠٠ وأن اليابان مهد لسلسلة خالدة لا تنتهي من الحكام المقدسين تمتد من سلالة نينجي حتى الوقت الحاضر ٠٠٠ وهذا سر من أسرار التفرد الياباني فتمتزج الأسطورة مع التاريخ في نسيج يعتقد اليابانيون أنه شديد الإحكام ، هذا المزج المعتقد فيه ينظر فيه على أنه الهدف والوسيلة للمجتمع الياباني)) ص٣٦ - ٣٧ .

إن الذي يعمل ينتج بغض النظر عن معتقده الذي يحمله ، مؤمنا كان أو كافرا بارا أو فاجرا ، على أن عمل المؤمن حتى لأمور دنياه مما حث عليه الإسلام ، ووعد عليه بالبركة ، أما عمل الكافر فإن كان خيرا أجر عليه في الدنيا فقط ، وإن كان شرا شقي به في الدنيا والآخرة ، وما ربك بظلام للعبيد ٠

إذن فما دام أن اليابان استطاعت ـ عن طريق التعليم ـ أن تحقق هذا الإنجاز الضخم في هذه المدة القصيرة بإمكانياتها المحدودة ، فليس تحقيق أضعاف ما حققه اليابانيون بغريب على أمة الإسلام وهي تحمل منهجا تربويا عالميا ، وتملك من الثروات والقدرات والإمكانيات مالا يملكه غيرها ٠

إن من المحزن أن يظل التعليم في بلاد المسلمين اليوم يقف عند الأهداف القريبة المحدودة ، تعيقه مفاهيم القطرية الضيقة ، والاهتمامات القريبة البسيطة التي لا تتناسب مع عالميته وخلوده .

وليس معنى هذا أن الأمة لا يمكن أن تتعثر في مسيرتها التربوية ، إن أرادت أن تتبوأ مكان الصدارة كما كانت من قبل ، ذلك أن الذي لا يخطىء لا يتعلم ، ولكن كيف تتحد الجهود ويتلافى الخطأ ، ويستكمل البناء ، وكيف تخطط الأمة لاتقاء الأزمات قبل وقوعها ، وصدها قبل نزولها .

إن الخطأ لا بد أن يقع ، والخلل لا بد أن يكون ، لأن القصور صفة ملازمة للإنسان ، ولكن الأمة المسلمة في كل مؤسساتها على وجه العموم ، ومؤسستها التربوية على وجه الخصوص حين تحدد الهدف البعيد وترى أن الوصول إليه من أوجب واجباتها ، ثم تعد له العدة بصدق وإخلاص يبارك الله في مسيرتها ، ويسدد منها القول والعمل ، كيف لا وهي تسعى إلى تعبيد الدنيا كل الدنيا له سبحانه ، مسترشدة في ذلك بكتاب ربها وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: ﴿ تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدي كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض ﴾ سبق تخريجه ص ٥

ومن هنا كانت العناية بهذا الميدان من أولويات الأمور في حياة مجتمعاتنا المسلمة ، عناية تقوم في أكثر منهجها على الوقاية لتظل سائر ميادينها سليمة من الآفات والأمراض والعلل .

ولكننا حين نخفق في جانب الوقاية ، نقعد عن المبادرة ، ونتخلى عن الزمام، شئنا أم أبينا ، لأننا سننشغل بعلاج ما نحن فيه من الآفات والعلل ، وسوف يُستنزف جهدنا المدخر للقيادة ، وما سمع الناس يوما من الدهر بسقيم يقود ، أو مريض يتصدر .

مفهوم المدرسة الثانوية وخصائصها :

إن الميدان التربوي الذي سلف الحديث عن أهميته تحتل المدرسة الثانوية منه جانبا مهما ، يتضح ذلك من خلال عرض خصائصها التي تتميز بها عن غيرها من الجوانب •

وقبل الحديث عن هذه الخصائص لا بد من تحديد مفهوم المدرسة الثانوية ، ليظهر أهميتها كجانب مهم في هذا الميدان التربوي الكبير •

أولا : مفهوم المدرسة الثانوية :

ذكر ابن منظور في لسان العرب (١٤١٢هـ) في مادة درس قوله : ((الدُّرْسَةُ : الرياضة ، ومنه درست السورة أي حفظتها • ويقال : سمي إدريس عليه السلام لكثرة دراسته كتاب الله تعالى • والمِدْرَاسُ والمِدْرَسُ : الموضع الذي يدرس فيه • والمِدْرَسُ : الكتاب والمُدَارِسُ : الذي قرأ الكتب ودرسها • والمِدْرَاسُ البيت الذي يُدْرَسُ فيه القرآن ، وكذلك مدارس اليهود • ودَارَسْتُ الكتب وتَدَارَسْتُها : وادَّارَسْتُها أي دَرَسْتُها • وأصل الدراسة : الرياضة والتعهد للشيء)) ج ٦ ص ٧٩ - ٨٠ .

وبالنظر فيما ذكره ابن منظور يلاحظ أن مادة درس تطلق على الشيء المدروس وتطلق على مكان الدراسة •

إذن فالمدرسة هي ذاك المكان المخصص لتعليم وتحفيظ الناشئة علما واحدا أو علوما مختلفة ، يتعاهد الناشئة هذا المكان فترة من العمر لتحصيل هذه العلوم على أيدي مدرسين ومعلمين ومربين متخصصين •

أما المدرسة الثانوية فقد عرفها السنبل في نظام التعليم في المملكة العربية السعودية (١٤١٢هـ) بأنها :((المرحلة الوسطى من سلم التعليم بحيث يسبقه

التعليم الابتدائي ويتلوه التعليم العالي ، ويشغل فترة زمنية تمتد من الثانية عشرة حتى الثامنة عشرة من العمر ، وبذلك يضمن التعليم الثانوي المرحلتين المتوسطة والثانوية)) ص١٨٣ .

ولعل الملاحظ في تعريف السنبل يرى أنه قد أدخل المرحلة المتوسطة في مسمى المرحلة الثانوية ، مع أن المرحلة المتوسطة مستقلة بإداراتها وأساتذتها ومعلميها ، بل وحتى في خصائصها وأهدافها .

والباحث يرى أن المرحلة الثانوية هي قمة الهرم في التعليم الهام الذي يسبقه التعليم المتوسط ويتلوه مباشرة التعليم الجامعي ، وهي الفترة ما بين السادسة عشرة والعشرين تقريبا .

وفي العصور المتأخرة ، وهي العصور التي أصيبت فيها الأمة المسلمة بالهزيمة النفسية ، يوم اتخذت كتاب ربها وسنة نبيها خلفها ظهريا ، ويمّت وجهها قِبَل الفلاسفة الملاحدة ، تستورد ما عندهم بلا تدقيق ولا تمحيص ، وخاصة في العلوم الإنسانية والمسلكية على وجه الخصوص ، إن التربويين في مثل هذه العصور يرون أن هذه الفترة التي يمر بها الشاب - وهي الفترة التي حددها التعريف السابق - من أحرج الفترات العمرية التي تمر بالإنسان وأخطرها على الإطلاق ، لأن الشاب فيها حين لا يجد التربية الصحيحة فإنه يَهلَك ويُهلِك ويُدمِّر ويُدمَّر .

وقد يثور في الأذهان تساؤل عن سبب قصر التعريف للمرحلة الثانوية على نظام التعليم في المملكة العربية السعودية ، مع أن المدارس الثانوية تنتشر في طول العالم الإسلامي وعرضه ، فكان من الأفضل أن يوضع تعريف عام للمدرسة الثانوية ومفاهيم عامة عن خصائص هذه المرحلة وأهدافها ومصادر اشتقاق هذه الأهداف ، لكون الحديث عن المدرسة الثانوية ليس مقصورا على المملكة العربية السعودية فحسب ، بل الحديث عام عن المدارس الثانوية في العالم الإسلامي .

والجواب عن ذلـك : إن المتأمل في حال العالم الإسلامي يجد أنه دويلات فرقها الاستعمار ، وسعى إلى تمزيقها بغية إضعافها وكسر شوكتها ، مما جعل كل بلدة تستقل بنظام تعليمي له خصائصه وأهدافه ومصادره وتطلعاته ، مع وجود قدر مشترك من الأسس والمنطلقات التعليمية بين البلدان الإسلامية ، ولكن هناك تفاوتا كبيرا في بعض هذه البلدان بين المنطلقات والأهداف ، وبين الغايات والوسائل ، وبين المثال والواقع ، الأمر الذي جعل التعليم - وبهذه الصورة - لا يقدم الأمة المسلمة إلى الأمام شبرا واحدا ، فلم يلم شملها ، ولم يوحد صفها ، ولم ينتشلها من ذيل القائمة التي رجعت إليها من قرون ، سيما وأن هذا ما يجب أن يحققه التعليم في العالم الإسلامي .

إن العيب ليس في مصادر التعليم في الإسلام ، فهي مصادر إلهية أنزلها لتربية الناس رب الناس ، ووعد ن جعلها منهجه في الحياة الدنيا أن يحيا حياة كريمة ، وأن يكون له قصب السبق في كل ميدان ، ولكن العيب في صدق التوجه نحو هذه المصادر ، ونعوذ بالله أن تكون أمتنا اليوم قاعدة عن صدق التوجه ، كما قعد بالمنافقين صدق توجههم نحو القتال في سبيل الله فأنزل الله فيهم :﴿ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ سورة التوبة آية ٤٦ .

والحق يقال أن سياسة التعليم في المملكة العربية السعودية قد وضعت بعناية، واشتملت على بنود شرعية أصيلة منطلقها كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ويكفي أن يكون أول اشتقاق أهدافها من العقيدة الإسلامية الصحيحة ، ومن خلال النظرة الشاملة للإسلام .

ولو أن كل دولة مسلمة جعلت منطلق أهدافها التعليمية العقيدة الصحيحة ، ومن خلال الفهم الشامل للإسلام وحولت ذلك إلى واقع معاش ، ومنهج تطبيقي،

لكانت المنطلقات والمصادر والأهداف والتطلعات واحدة ، ولما كان العالم الإسلامي يعيش هذه الحالة المزرية ، مما جعل العالم الغربي يستخف به ويطلق على أهله دول العالم الثالث أو الدول النامية أو المتخلفة .

إن مشلكة العالم الإسلامي تكمن في فصل الأهداف والتطلعات عن الأصول والمنطلقات فاتسعت الفجوة العميقة والهوة السحيقة بين المثال والواقع ، وبين النظر والتطبيق ، وأصبح التعليم في العالم الإسلامي ينفق عليه كثيرا ولا يحقق من أهدافه ـ التي يجب أن تكون ، والموزونة بميزان العقيدة والفهم الشامل للإسلام ـ إلا النزر اليسير ، مما يوحي بأن هناك خللا كبيرا في مسيرته التعليمية يحتاج إلى تصحيح وإعادة نظر ، ويكفي دليلا على ذلك أن التعليم في بلاد العالم الإسلامي صار يحمل سمة القطرية الضيقة التي تحصر اهتمامها في زاوية ضيقة من الأرض .

ولكن هذا لا يمنع أن يُنَظِّر العلماء والمفكرون وأهل الاختصاص للأمة تنظيرا تربويا صحيحا ينطلق من منطلقات شرعية صحيحة وفهم شامل للإسلام ، وأن تظل الألسنة والأقلام والأفهام تدعو إليه ، وترفض ـ وبكل قوة ـ أي طرح للتربية والتعليم غير هذا الطرح ، إذ هو الحل الوحيد لأزمة الأمة المسلمة ، لينتشلها من القاع إلى القمة ، ومن الذيل إلى المقدمة ، لتتبوأ الأمة المسلمة مركز السيادة والريادة والقيادة ، فإن رفضت الأمة في عصورها المتأخرة ذلك فإن قلوب الغيورين لا تحمل اليأس ولا القنوط ما دامت تردد صباح مساء : ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين ﴾ سورة الأنعام آية ٨٩ ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ سورة محمد ٣٨

وبعودة إلى التعليم الثانوي يلاحظ كما في تعريف السنبل أن هذا النوع من التعليم يشمل مرحلتين المرحلة المتوسطة والمرحلة الثانوية ، وسيقصر الباحث

حديثه على المرحلة الثانوية وكيف تستفيد من التربية الوقائية ، أما خصائص هذه المرحلة العمرية فسيعود الحديث إليها بعد عرض موجز لخصائص التعليم الثانوي وأهدافه ومصادر اشتقاقه .

ثانيا : خصائص التعليم الثانوي :

هذه المرحلة من التعليم يصاحبها نمو الجسم ، وتفتق العقل ، وحب الانتماء ، ونمو الانفعال ، وثورة العواطف ، الأمر الذي يجعل من هذه المرحلة التعليمية أهمية بالغة ، لأنها تلبي ـ عبر ما يتعلمه الطالب في هذه المرحلة ـ احتياجاته الروحية والجسدية والعقلية والاجتماعية والانفعالية . .

وقد ذكر السنبل وآخرون في كتاب نظام التعليم في المملكة (١٤١٢هـ) بعض الخصائص التي يتميز بها التعليم الثانوي ، فقالوا ما خلاصته :

١ـ يتمتع التعليم الثانوي بمنزلة كبيرة في نفوس الآباء والأبناء على حد سواء ، لكونه يتيح الفرص التعليمية والاجتماعية للملتحقين به .

٢ـ يعتبر التعليم الثانوي مرحلة هامة من مراحل التعليم لأنها تعد للعمل والإنتاج .

٣ـ يغطي التعليم الثانوي مرحلة مهمة من العمر وهي مرحلة المراهقة . بما يصاحبها من تغيرات جسمية وعقلية ونفسية واجتماعية ، وما يتبعها من متطلبات أساسية لكل ناحية من هذه النواحي التي تكوّن شخصية المراهق وتحدد سلوكه وعلاقاته .

٤ـ يعد التعليم الثانوي الطالب لمواصلة تعليمه الجامعي .

٥ـ يعد التعليم الثانوي القوى البشرية اللازمة لتنفيذ خطط التحول الاجتماعي والاقتصادي والوفاء بمتطلبات التنمية .

٦ـ يتأثر التعليم الثانوي بما يجري في المجتمع من أحداث وأفكار وأزمات وعوامل تؤثر في جوانب الحياة كلها .

٧- يرتبط التعليم الثانوي بحركات الإصلاح والتجديدات التعليمية ٠

٨- يعد التعليم الثانوي الطلاب للوعي الكامل بالمشكلات التي تعترض مجتمعهم وتزرع فيهم القدرة على حلها ٠ ص٨٣ .

والباحث يرى أن بعض الخصائص التي ذكرها السنبل لا تستقل بها المدرسة الثانوية ، بل لربما اشترك مع المرحلة الثانوية غيرها من المراحل سواء كانت المرحلة المتوسطة أو الجامعية ، بل حتى وما بعد الجامعة ، وذلك لأن معنى خصائص ، أي ما يستقل به الشيئ ولا يدخل غيره معه ، وإن المتتبع لبعض هذه الخصائص التي ذُكرت ، يرى أنها لا تخص المرحلة الثانوية فحسب ، وإنما الذي يخص المرحلة الثانوية منها ما ذكر في الفقرتين الثالثة والرابعة ، وذلك لأن المرحلة الثانوية تغطي مرحلة المراهقة التي تكون في الغالب ما بين الخامسة عشرة والعشرين ، كما أنها تعد الطالب لمواصلة تعليمه الجامعي ٠

مصادر اشتقاق الأهداف التعليمية والتربوية في الإسلام :

يقول الزيد في كتابه التعليم في المملكة العربية السعودية (١٤٠٤هـ) :

((غاية التعليم فهم الإسلام فهما صحيحا متكاملا ، وغرس العقيدة الإسلامية ونشرها ، وتزويد الطالب بالقيم والتعاليم الإسلامية ، وبالمثل العليا وإكسابه المعارف والمهارات المختلفة ، وتنمية الاتجاهات السلوكية البناءة ، وتطوير المجتمع اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، وتهيئة الفرد ليكون عضوا نافعا في بناء مجتمعه)) ص ٥٤ .

وإذا كانت هذه هي غاية التعليم فإنه يجب أن يكون المصدر الوحيد لاشتقاق الأهداف التعليمية والتربوية في جميع المراحل - ومنها المرحلة الثانوية - العقيدة الإسلامية الصحيحة التي تعطي التصور الرباني الصحيح عن الكون

والإنسان والحياة بخصائصها الربانية ، الشاملة ، الكاملة ، العالمية ، التي تراعي حاجات المجتمعات المسلمة واتجاهات العصر ، وتطور العلوم وانفجار المعارف .

إن القضايا التي ذكرها الزيد عن غاية التعليم في الإسلام تقوم على ركيزتين اثنتين هما الانطلاقة بالأمة المسلمة إلى العمل والإنتاج في كل جانب من جوانب الحياة وهما : التصفية والتربية .

فأما التصفية فهي الخطوة الأولى إذ لا مجال لفهم الإسلام فهما صحيحا-وخاصة في العصور المتأخرة - ما دامت هناك أفهام مغلوطة عن الإسلام الناصع وعن حقائقه الجلية ، حرفها الغالون ، وانتحلها المبطلون ، وأوَّلها الجاهلون ، بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

ثم تأتي مرحلة التربية على هذه الحقائق التي ربى النبي صلى الله عليه وسلم عليها أصحابه ، إذ من المحال أن تتحد الأمة صفا واحدا وبينها من الخلاف والفرقة والتباين في فهم الإسلام ما قد يصل عند بعض الطوائف إلى الضلال المبين في الأصول والمعتقدات .

على أن التصفية والتربية بينهما صلة قوية متلازمة ، إذ لا قيمة للتصفية بلا تربية ، ولا يمكن أن تقوم تربية بلا تصفيه ، وإلا تربت الأمة بما في ذلك ناشئتها على غير حقائق الإسلام ومناهجه التربوية الصافية ، أو تربت على حقائق مشوهة لا تخرج للعالم إلا نماذج مشوهة لا تمثل الإسلام الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم وربى عليه أصحابه .

يقول عبد الحميد في كتابه التصفية والتربية (١٤١٤هـ) :

((من أجل هذا كان لزوم الموازنة بين التصفية والتربية متحتما ، حتى لا تنحرف قاعدة الشخصية المسلمة عن الوسطية الشرعية الحقة التي هي سمة هذه الأمة . . . فلا تتحق هذه الوسطية واقعا عمليا في الأمة إلا بهذه الموازنة المنضبطة

بين التصفية والتربية علما وتعلما والتربية تزكية وتخلقا ... متجنبين جعل الحماسة أو العاطفة أساسا من أسس التربية ، وأصلا من أصولها فإنها تخون صاحبها في وقت هو أحوج ما يكون لها ، وما ذاك إلا للخلل الطارئ في المنهج المسلوك لمبدأ الموازنة بين التصفية والتربية)) ص ١٢١ - ١٢٤ .

فكان من الأهمية بمكان حين تشتق الأهداف التربوية للأمة المسلمة أن تكون منطلقة من العقيدة الإسلامية الصحيحة ، سيما وأن المسلمين في عصورهم المتأخرة قد شاب معتقداتهم من الخلل ما يحتاج إلى مبدأ التصفية والتربية ، لتتحد الأمة صفا واحدا تعد - للنهوض بنفسها - ما استطاعت من قوة .

أهداف التعليم في المرحلة الثانوية :

ذكر السنبل وآخرون في كتاب نظام التعليم في المملكة (١٤١٢هـ) عن هذه الأهداف ماخلاصته :

١- ترسيخ العقيدة الإسلامية حتى يتحقق الولاء وحده ، لتكون كافة جوانب الحياة وفق شرع لله تعالى .

٢- تمكين الانتماء الحي للأمة المسلمة .

٣- تزويد الطلاب بالمفاهيم الإسلامية التي تجعلهم يعتزون بدينهم ويدعون إليه ويجاهدون في سبيله .

٤- تنمية قدرات الطالب في هذه المرحلة وتوجيهها وفق مفهوم التربية الإسلامية .

٥- رعاية الشباب وحل مشكلاتهم من منطلق إسلامي والتصدي للتيارت الهدامة التي تستهدفهم .

٦- تكوين الاتجاهات الصحيحة والخبرات اللازمة لتفاعل الحياة بين الفرد والجماعة وفق نظرة الإسلام.

٧ـ تنمية الروح الاجتماعية القائمة على التعاون على البر والتقوى وتنظيم ذلك والتخطيط له بهدف وحكمة .

٨ـ تنمية التفكير العلمي القائم على البحث والتجريب واستخدام المنهج العلمي في ذلك .

٩ـ تهيئة جميع الطلاب لأماكن العمل وسد احتياجات المجتمع في كل جانب مما تتطلبه خطط التنمية .

١٠ـ إتاحة الفرصة للطلاب القادرين على مواصلة دراساتهم العليا في كل التخصصات .

١١ـ تحقيق الوعي الأسري لتكوين أسرة إسلامية مؤمنة .

١٢ـ زرع الإيمان بوحدة الأمة واستشعار رسالتها العالمية ووظيفتها الحضارية . ص ٣٠٢ ـ ٢٠٤ .

وقد ذكر الزيد في كتابه التعليم في المملكة العربية السعودية (١٤٠٤هـ) جملة أخرى من الأهداف الإسلامية العامة التي تحقق غاية التعليم ، وقد جاوز تعداد ما ذكره ثلاثة وثلاثين هدفا منها :

١٣ـ تنمية روح الولاء لشريعة الإسلام وحدها والبراءة من كل نظام أو مبدأ يخالف هذه الشريعة ، واستقامة الأعمال وفق أحكامها العامة والشاملة .

١٤ـ دراسة ما في هذا الكون الفسيح من عظيم الخلق وعجيب الصنع ، واكتشاف ما ينطوي عليه من أسرار قدرة الخالق للاستفادة منها وتسخيرها لرفع كيان الإسلام وإعزاز أمته .

١٥ـ إيقاظ روح الجهاد الإسلامي لمقاومة أعدائنا واسترداد حقوقنا واستعادة أمجادنا والقيام بواجب رسالة الإسلام . ص ٥٤ وما بعدها .

خصائص النمو لتلميذ المرحلة الثانوية :

يمكن للباحث أن يقسم المراحل التي يمر بها الإنسان في حياته إجمالا إلى ثلاث مراحل ، ورد بها القرآن الكريم في قوله تعالى :﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ سورة الروم آية٥٤ .

فالمرحلة الأولى :هي مرحلة الطفولة والإنسان يكون فيها ضعيفا كما أشارت إلى ذلك الآية الكريمة.

والمرحلة الثانية : مرحلة القوة وهي مرحلة الشباب ، التي يكون فيها الإنسان في أوج قوته ، وعنفوان صحته .

المرحلة الثالثة : هي مرحلة الشيخوخة والإنسان يكون فيها ضعيفا كما أشارت إلى ذلك الآية الكريمة.

يقول ابن كثير في تفسيره (١٤٠٦هـ) :

ينبه تعالى إلى تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالا بعد حال ، فأصله من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم يصير عظاما ثم تكسى العظام لحما ، وينفخ فيه الروح ، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفا نحيفا واهن القوى ، ثم يشب قليلا قليلا حتى يكون صغيرا ، ثم حدثا ثم مراهقا ثم شابا ، وهو القوة بعد الضعف، ثم يشرع في النقص فيكتهل ثم يشيخ ثم يهرم ، وهو الضعف بعد القوة، فتضعف الهمة والحركة والبطش، وتشيب اللمة، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة)) ج ٣ ص ٦٩٩ .

ويقول القرطبي في تفسيره (١٣٧٨هـ) عن مرحلة الضعف الأول : هي ماكانوا عليه فيالابتداء من الطفولة والصغر ، ومرحلة القوة هي مرحلة الشبيبة ، ومرحلة الضعف والشيبة هي مرحلة الهرم .ج ١٤ ص ٤٦ .

ثم إن كل مرحلة من هذه المراحل يمكن تقسيمها إلى فترات ، لكل فترة منها خصائص معينة تختلف عن الأخرى ، الأمر الذي يجعل لكل فترة تربية خاصة .

والذي يهم الباحث من هذه المراحل هي مرحلة القوة أو مرحلة الشباب ، وعلى الأخص ما يسميه التربويون مرحلة المراهقة التي تكون في الغالب بين الثانية عشرة والثامنة عشرة من العمر ، وقد تنقص قليلا أو تزيد عن هذا الزمن الذي حدده بعض المتخصصين ممن عنوا بتقسيم هذه المراحل .

يقول القاضي ويالجن في كتابهما علم النفس التربوي في الإسلام (١٤١٠هـ) عن مرحلة المراهقة ما خلاصته :ثم تأتي مرحلة المراهقة التي تختلف في فتراتها نتيجة لاختلاف الفروق البيولوجية بين الذكر والأنثى ، ونتيجة لاختلاف العوامل الوراثية ، والبيئات الاجتماعية ، وتبدأ هذه المرحلة من سن العاشرة وربما امتدت إلى سن الحادي والعشرين ، على أن هناك تداخلا بين هذه الفترات عند كثير ممن تحدثوا عنها ، وإنما حددوا هذه الفترات لتعين على أداء مهمة التربية ، لأن كل فترة إذا مضت دون أن تستغل في التربية يصعب تربية الطفل وتعليمه في الفترة التي تليها . ص ٨٧ - ٨٨ .

ومرحلة المراهقة التي تقع في الوسط بين الطفولة وبين الرجولة واكتمال الأشد تعتبر عند المتخصصين في علم النفس من أهم مراحل العمر على الإطلاق .

يقول زهران في كتابه علم نفس النمو (١٩٧٧م) :((حتى إن بعض علماء النفس عدها ميلادا جديدا للفرد)) ص ٢٩٠ .

وإذا كانت هذه المرحلة من العمر بهذه الأهمية فلا بد من الوقوف على خصائص النمو لمن هم في هذه المرحلة حتى يتعامل المربي في تربيته الوقائية معهم سواء كان الوالدان في المنزل أو المعلم في المدرسة وفق تصور صحيح ، وخطوات مدروسة واقعية مؤثرة ، بناء على معرفة مسبقة من الجميع بهذه الخصائص .

خصائص النمو لمرحلة المراهقة :

هذه المرحلة من العمر تتميز بسرعة النمو الجسمي والعقلي والانفعالي والاجتماعي ، مما يتطلب من المربين أيا كانت مواقعهم أن يولوا هذه الجوانب عناية فائقة وفق منهج الإسلام المبارك .

أما أول هذه الخصائص في هذه المرحلة فهي :

النمو الجسمي :

ينمو جسد المراهق في هذه الفترة من العمر نموا سريعا على عكس نموه في مرحلة الطفولة ، الأمر الذي يجعل المراهقين يقومون ببعض التصرفات التي تلفت الأنظار إليهم ، ليرسلوا لكل من يراهم أننا لم نعد أطفالا نعامل كما يعامل الأطفال، ولا صغارا يخاف علينا كما يخاف على الصغار ، بل لقد أصبحنا كبارا نمارس حياتنا كما يمارس الكبار حياتهم ، من غير حجر على تصرفاتنا ، وما نقوم به من أعمال .

إن من نتائج هذا النمو السريع أن المراهق يريد أن يثبت للناس أنه : أصبح كبيرا ، وأنه قادر على أن يتصرف كما يتصرف الكبار ، وأنه قادر على حل مشكلاته بنفسه ، وأنه لم يعد في حاجة إلى التوجيه من قبل والديه ، وأنه أكبر من أن توجه إليه عبارات التأديب والإصلاح ، إلى غير ذلك مما يتصوره المراهقون .

يقول الزعبلاوي في كتابه تربية المراهق (١٤١٤هـ) وهو يتحدث عن سرعة نمو الجسم في هذه المرحلة :((ذلك أن عمليات النمو في هذه المرحلة تتسم بالسرعة عنها في أي مرحلة من مراحل النمو الأخرى)) ص ٢٨ .

إن التربية الإسلامية قد اهتمت بالإنسان في كل جانب من جوانب حياته ، فالتربية الجسمية جزء لا يتجزأ من التربية الإسلامية ، وأصل ذلك ما ثبت عن

رسول الله صلى الله عليه في قوله :﴿ وإن لجسدك عليك حقا ﴾ ، ولقد بلغ من اهتمام الإسلام بهذا الجسد أن بين للمسلم ما يأتي وما يذر فيما يخص مطعمه ومشربه وملبسه ومنكحه وما به قوام جسده ،

والمراهق وهو يمر بهذا النمو السريع في جسده يحتاج إلى رعاية واعية من قبل القائمين على تربيته ، وذلك بإيضاح ما أحل الله تعالى له وما حرم عليه ، من الطعام والشراب واللباس والنكاح ، وتبصيره بالأضرار الدنيوية والأخروية حين يخالف أمر الله تعالى في مثل هذه الأمور ٠

على أن يزرع المربي في ذهنه أن هذا الجسد ما هو إلا مطية للروح ، وأن الإنسان حين يحمل روحا ميتة لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر فإنما يسمّن هذا الجسد للنار ، إضافة إلى ما يجده من العذاب الدنيوي الذي يأتي في صورة هموم وأحزان ، أو أمراض وأوجاع ، أو قلق واضطراب ، أو أزمات وكوارث ، أو محق لبركات الأرزاق والأعمار ، أو غير ذلك ، وصدق الله إذ يقول :﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ سورة طه آية ١٢٤ .

على أن الاهتمام بهذا الجسد ليست هدفا في حد ذاته ، وإنما هي وسيلة يتقوى بها الفرد على أداء ما كلف به من مهمات دنيوية وأخروية ٠

والمراهق يحتاج مع هذا النمو السريع في جسمه إلى أن يربى على الرجولة والجلد وقوة التحمل ، وهي جزء مهم في تربيته الجسمية ، وعلى القائمين على تربيته أن يحذروا من تدليله وتنعيمه بصورة يشابه فيها المرأة ، فيفقد على أثر ذلك رجولته وخشونته ، وبالتالي يفشل في إنجاز ما يوكل إليه من أعمال ، وما يسند إليه من مهمات ، سيما وأن الأمة المسلمة تعقد على الشاب ـ حين يشب عن الطوق ـ آمالها ٠

فإذا اقتصرت عناية المربين على بناء الأجسام ، ولم ترب هذه الأجسام تربية سليمة متزنة موجهة نحـو الخير ، وإلا تحولت هذه القوة وهذه الحيوية والنشاط إلى أداة تخريب وتدمير وإفساد ٠

إن على المربين أن يُوجهـوا الشبيبة المسلمـة في مثل هذا السن إلى استـغلال هذه القـدرات الجـسـمية في التـسابق في الخيـرات ، وترغيب الناشئـة في أداء مافترض الله تعالى عليهم من الفرائض ، كأداء الصلاة ، ومساعدة المحتاجين ، والجهاد في سبيل الله ، وتخويفـهم من القاعس عن بذل الخير الواجب لله تعالى أو لعباده ، على أن تـزرع في مخيلتهم أن الصحـة في الجسد نعمـة من نعم الله تعالى على عبـاده حين تستغل في الخير ، وأنها نقمـة على العبد حين تصـرف في تعدي الحدود وانتهاك المحارم ، فما قيمة العـضلات المفتولة ، والسواعد الفـتية ، حين تنام عن الصلاة، وتمتد إلى الحرام ، وحين تُصرف في الشر ، وتُشل عن فعل المعروف ٠

إن القدرات الجـسميـة التي يتمتع بهـا المراهق تحتاج إلى مـصارف صحيـحة تستـنفد فيـها ، والتـربية الرياضـية الهـادفة له خـير معين علـى تنمية هـذه القدرات كتعليمه السباحةوالرمـاية وركوب الخيل ، وغيرها من الألعاب التي تعينه على بناء جسده كألعاب الدفاع عن النفس وغيرها ٠

كـمـا أن من الأهمـيـة بمكان أن يدرك المربون أن نمو جـسـم المراهق بهـذه السرعة يقوم بدور كبير في التأثيـر على تفكيره وانفعالاته وعلاقاته بمن حوله ، وقد تنحرف التربية حين لا يدرك المربون ذلك ٠

يقول النغيمشي في كتابه المراهقون (١٤١٤هـ) :((إن المراهق يعيش تحولا عضـويا وجسديا لا يعي الكبـار عنه إلا القليل ، ومن ثم فإنهم لا يحسنون التـعامل مع المراهق والمراهقـة ولا يجيـدون بناء العـلاقة معـهم ، مما يؤدي إلى الكثيـر من الأخطاء التربوية والتوجيـهية والعلاجية ، عند معـايشة المراهقين والاحتكاك بهم)) ص ١٠ ٠

إن هذه الفترة الانتقالية في جسد المراهق تصاحبها سلوكيات وأخلاق وأمور وأحوال ، يحتاج المربي إلى أن يتعامل معها على بصيرة من الأمر ، وفق ما أمر الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم، ووفق ماكان يربي عليه السلف الصالح أبناءهم .

وقد ذكر القاضي ويالجن في كتابهما علم النفس التربوي في الإسلام (١٤١٠هـ) أن هناك بعض الخصائص التي تصاحب الشباب عند مرحلة البلوغ ، فذكرا منها : الاهتمام بالحياة الجنسية ، وظهور الحياء البارز ، والاهتمام الكثير بالبطولات ، والقدرة على الإدراك العقلي والعلمي . ص ١١٢ .

إن من أخطر الأمور التي تصاحب الشاب في هذه المرحلة، الغريزة الجنسية ، بدليل أن اهتمامات الفتى أو الفتاة ـ في غياب التربية الجادة ـ ربما كانت بقصص الحب والغرام والأفلام الهابطة ، لأنها تروي في نفوسهم هذه الغريزة ، الأمر الذي يلزم المربي أن يتتبع منهج الإسلام في علاجها ليقف على أقوم الطرق في تهذيب هذه الغريزة .

كما أن من الأحوال التي تصاحب المراهق في هذه المرحلة من العمر وخاصة الفتى ، الاهتمام بالبطولات ، لأن الفتى في هذه المرحلة يشعر أنه قد أصبح رجلا ، الأمر الذي يجعله يفكر في قدرات الرجال ، فتستهويه بطولاتهم ، ومواقفهم ، ولذلك يحب هؤلاء في الغالب القصص التي تعرض البطولات والمواقف الشجاعة، وقد ينشغل بعضهم بالأفلام التي تعرض العنف ، وتدور في الغالب على الصراع والتحدي .

كما أن من الأحوال التي تصاحب المراهق في هذه المرحلة من العمر ، القدرة على التفكير والإدراك العقلي والعلمي ، والتربية تتحمل مسئولية كبيرة في تربية الناشئة على استغلال هذه القدرات عن طريق تربيتهم على التفكير السليم ، والقياس المنطقي الجيد ، لتفيد الأمة من هذه القدرات في كل تخصص ، على أن

تضع في الحسبان أن الحاجة إلى التفكير تفوق وبمراحل الحاجة إلى الحفظ والتلقين، من دون أغفال لأي مستوى من مستويات المعرفة ، إذ لكل مستوى من هذه المستويات دوره الكبير في بناء شخصية المتعلم •

ولهذا فإن التربية في الإسلام تحرص على أن تهذب هذه الغرائز ، عن طريق الأخذ بالتدابير الوقائية التي يمكن استنباطها من منهج الإسلام •

ففي تهذيب غريزة الجنس يحرم الإسلام كل سبيل مفضية إلى إثارة الغرائز وتحريك الشهوات ، ويحذر من مجرد القرب من الزنا واصفا إياه بأنه كان فاحشة، محذرا من مغبة الوقوع فيه بسوء العاقبة في الدنيا والآخرة ، قال تعالى :﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ سورة الإسراء آية ٣٢ .

وليست المجتمعات الغربية وما تعانيه من ويلات هذه الفواحش في الدنيا قبل الآخرة إلا أكبر دليل على آثار هذه الفاحشة المهلكة المدمرة •

إضافة إلى أن الإسلام يهذب هذه الغريزة عن طريق تحقير من يقع فيها ، وتبشيع فعلته ، وتهويل جريمته كما في قول الله تعالى :﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾ سورة النور آية ٣ ، وقد ذكر القرطبي في تفسيره (١٣٧٨هـ) حول هذه الآية أقوالا للعلماء قال في أولاها :((أن يكون مقصد الآية تشنيع الزنا وتبشيع أمره ، وأنه محرم على المؤمنين)) ج ١٢ ص ١٦٧ .

إضافة إلى أن نور الإيمان ينزع من فؤاده ساعة مقارفة الفاحشة ، ومواقعة الجريمة ، وقد بوب البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) في كتاب الحدود بقوله : باب لا يشرب الخمر وقال ابن عباس يسلب منه نور الإيمان في الزنا •ثم ساق السند إلى أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ••• ﴾ ج١٢ ص ٥٨ .

قال ابن حجر في الفتح (د ـ ت) :((كان ابن عباس يدعو غلمانه غلاما غلاما فيقول : ألا أزوجك ؟ ما من عبد يزني إلا نزع منه نور الإيمان)) ج١٢ ص ٥٩ .

كما أن الإسلام يهذب هذه الغريزة بالدعوة إلى العفاف إما بالأمر الصريح أو النهي الصريح أو الترغيب أو الترهيب ، أو عرض القصص ، وفي قصة يوسف وما فيها من صور العفاف ، وما تحتوي عليه من مواقف الحشمة ما يربي الشاب المسلم والشابة المسلمة على الاستعلاء على هذه الشهوات الدنيئة حين يعايش أحداث هذه القصة وما فيها من العبر ، وكيف كانت نهاية العفة وعاقبة أمرها .

على أن الإسلام لم يقف عند مجرد التنظير لمسألة الحشمة والدعوة إلى العفاف ، بل أتبعها بالتطبيق فدعا إلى الزواج المبكر ، كما روى البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) ومسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء ﴾ ج ٤ ص ١١٩ .

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وهي في السادسة من عمرها ودخل بها وهي في سن التاسعة ومات عنها وهي في سن الثامنة عشرة ، فقد روى البخاري في صحيحه (د ـ ت) من حديث عروة رضي الله عنه قال : ((تزوج النبي صلى الله عليه وسلم عائشة وهي ابنة ست ، وبنى بها وهي ابنة تسع ، ومكثت عنده تسعا)) ج ٨ ص ٢٧ ـ ٢٨ .

كما أن الإسلام وعد من تزوج يريد العفاف أن يعينه الله تعالى ، فقد روى الترمذي في سننه (د ـ ت) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ ثلاثة حق على الله عونهم المجاهد في سبيل الله

والمكاتب الذي يريد الأداء والناكح الذي يريد العفاف ﴾ ج ٤ ص ١٥٨، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٤٠٦هـ) ج ٢ ص ١٣٠

كما دعا الإسلام إلى تيسيير أمور الزواج ، وندب إلى تخفيف المهور ، وح على تزيج أهل الدين والخلق ، إلى غير ذلك .

فإذا لم يتمكن الإنسان من الزواج فإن تهذيب الغريزة يكون بالصيام ، الذي عده رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء ، كما سبق في الحديث .

قال ابن حجر في الفتح (د ـ ت) :((خص الشباب بالخطاب لأن الغالب وجود قوة الداعي فيهم إلى النكاح بخلاف الشيوخ)) ج٩ص ١٠٨ .

وقال النووي في شرح صحيح مسلم (د ـ ت) :((والمراد هنا أن الصوم يقطع الشهوة ويقطع شر المني كما يفعله الوجاء)) ج٩ص ١٣٨ .

وقد ذكر ابن القيم في زاد المعاد (١٤٠٧هـ) جملة من فوائد الصيام الوقائية فقال :

((لما كان المقصود من الصيام حبس النفس عن الشهوات ، وفطامها عن المألوفات ، وتعديل قوتها الشهوانية ، لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها ، وقبول ما تزكو به من مما فيه حياتها الأبدية ، ويكسر الجوع والظمأ من حدتها وسورتها ... وتضيق مجاري الشيطان من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب ، وتحبس قوى الأعضاء من استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها ومعادها، ويسكن كل عضو منها وكل قوة عن جماحه وتلجم بلجامه ... وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة ... فالصوم يحفظ على القلب والجوراح صحتها ويعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات ،

فهو من أكبر العون على التقوى ... وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم من اشتدت عليه شهوة النكاح ، ولا قدرة له عليه بالصيام ، وجعله وجاء هذه الشهوة)) ج ٢ ص ٢٨ - ٢٩ .

على أن الإسلام وهو يحرص على تهذيب هذه الغريزة لا يقف عند مجرد الزواج أو الصيام لمن لم يقدر على الزواج ، بل إن الإسلام فوق ذلك كله يدعو المتزوج وغير المتزوج إلى قطع الطريق على كل ما من شأنه أن يثير هذه الغريزة ، فيدعو إلى غض البصر ويحرم الاختلاط ، وينهى عن الولوج على المغيبات ، ويأمر المرأة بالحجاب ، وينهاها عن السفر بغير محرم ، إلى غير ذلك من التدابير الوقائية التي يتخذها الإسلام لمنع هيجان هذه الغرائز .

إذن فإن تهذيب هذه الغريزة في مثل هذا السن يكون بالتربية الصحيحة قبل كل شيئ ، فإنها من أعظم سبل الوقاية ، بالإضافة إلى الزواج المبكر ، فإن لم يتمكن الشاب من الزواج فقد شرع الإسلام له ما يعينه على قمع هذه الغريزة ألا وهو الصيام .

وقد يدعي مدعٍ أو يتصور متصور أن الزواج المبكر سبب من أسباب الفشل في الحياة ، مدعين أن الشاب أو الشابة في مثل هذا السن لا يعقلان أهداف الزواج، ولا يقدران مسئوليته ، ولا يستطيعان القيام بحقوقه ، والحقيقة أن إطلاق مثل هذه العبارات ، وتسريح مثل هذه الكلمات إنما كان ذلك بناءً على نظرة ضيقة لواقع تربوي فاشل .

صحيح أن الفتى أو الفتاة حين لا يجدان التربية الصحيحة في البيت والتي تنطلق من توجيهات الإسلام ، ينتج عن ذلك عدم قدرتهما على فهم حقيقة الزواج وفهم أهدافه وبالتالي يعجزون عن أداء الحقوق والواجبات فيه ، ولربما انهار على أثر ذلكِ البناء وتصدعت أركانه ، ولكن التربية الصحيحة الأصيلة للفتى أو الفتاة تعين

على إقامة بناء أسري متماسك ، كيف لا والتربية الإسلامية الصحيحة الأصيلة تخرج في سن السابعة عشرة من العمر فرسانا يقودون الجيوش المسلمة لمواجهة أعداء الإسلام ، وتحت قيادتهم كبار الصحابة ، وما قيادة أسامة بن زيد رضي الله عنه للجيش المسلم الذي أنفذه أبو بكر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إلا خير دليل على ذلك .

إن مثل أسامة يستطيع أن يبني بيتا ، وأن يرعى أسرة ، كيف لا وهو يقود كبار الصحابة في معركة كبرى مع أعداء الله .

أليست مصادر التربية التي تلقاها أسامة بن زيد رضي الله عنه لا تزال حية بين أظهرنا اليوم ؟ أوليست هذه التربية بقادرة على أن تخرج أجيالا على مر العصور لا يقدرون على قيادة أسر فحسب ، بل يحملون القدرة على قيادة جيوشا جرارة تحمل السلاح ، وتجاهد في سبيل الله .

إن الذي يشك في مثل هذه الحقائق أو يشكك فيها شخص يجهل أو يتجاهل حقيقة التربية الإسلامية وقدرتها على إصلاح البلاد والعباد في كل زمان ومكان .

وأما اهتمام الشاب في مثل هذا السن بالبطولات فإن تهذيبها يكون عن طريق عرض قصص الأنبياء والصحابة والعلماء والمصلحين على مر العصور ، واستنباط الدروس والعبر، وتوجيه الشبيبة المسلمة من خلالها توجيها تربويا سليما .

إن واجب المربين والحال ما ذكر هو العودة بالشبيبة المسلمة إلى منهج الإسلام في التعامل مع الإنسان تعاملا نظيفا في غرائزه وشهواته ، وبطولاته ومواقفه ، تعاملا يضمن له في الحاضر حياة كريمة ، ويضمن له في المستقبل توفيقا وتسديدا ، على أن ذلك لا يقتصر على سعادة الدنيا فحسب ، بل يجمع إليها سعادة الآخرة ، التي هي الحيوان لو كانوا يعلمون .

فمـا منهج الإسـلام في التعـامل مع الجسـد ؟ هل هو حرمـانه مما أحل الله له وفطره عليه ، أم إطلاق العنان له في الشهوات بغير قيود أو ضوابط ؟ .

والجـواب : إن النفس الإنسـانيـة في نظر الإسـلام تتكون من جـسـد وعـقل وروح ، والإسـلام وهو الدين الذي ارتضاه الـله للبشـرية كلهـا إلى يوم الدين يولي هذه النفس عناية خاصة، في جوانبها الثلاثة هذه ، دون أن يغلب جانبا على آخر ، فكما أن الجسد له حقه من الرعاية والاهتمام ، فكذلك العقل والروح .

ومن اهتمام الإسلام برعاية الجسد دعوته إلى الانتشار في الأرض والسير في مناكبها بـحثا عن نصيب الدنيا الذي أحله الله تعالى ، بل إن الإسـلام يعد البحث عن لقمة العيش التي يعف بها الإنسان نفسه ومن يعول ـ عن طريق العمل المشروع ـ ضربا من العبادة ، ونوعا من العمل في سبيل الله .

يقـول الله تعالى :﴿ فـإذا قـضيت الصـلاة فانـتشـروا في الأرض وابتغـوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾ سورة الجمعة آية ١٠ .

يقول القـرطبى في تفسيـره (١٣٧٨هـ):((وابتغـوا من فضل الله ، أى من رزقه. وكـان عراك بن مـالك إذا صلى الجمـعه انصـرف فوقف على باب المسـجد فـقال : اللهم إنـى أجبت دعـوتك، وصليت فـريضـتك، وانتشـرت كـما أمـرتنى، فارزقنيمن فضلك وأنت خير الرازقين)) ج ١٧ ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

ويقول سـبحـانه :﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فـامشـوا في مناكبـها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ سورة الملك آية١٥ .

ويقول تعالى :﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ سورة القصص آية ٧٧ .

وقد روى البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وإن لجسدك عليك حقا ﴾ ج ٤ ص ٢١٨ وفي رواية مسلم (شرح النووي د ـ ت) :﴿ ولنفسك حظا﴾ ج ٨ ص ٢٩٢ .

وروى مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله ﴾ قال أبو قلابة : وبدأ بالعيال ، ثم قال أبو قلابة : وأي رجل أعظم أجرا من رجل ينفق على عيال صغار يعفهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم ﴾ ج ٧ ص ٨٥ ـ ٨٦ .

إن التربية في الإسلام وسط بين الغلاة والجفاة ، ولكي تبدو وسطية هذه التربية في التعامل مع النفس يورد الباحث منهج اليهود والنصارى في التعامل معها .

فأما اليهود فقد غلبوا جانب الجسد على الروح وزعموا أن الإنسان مخلوق من الجانب المادي فحسب وأنه بقدر ما يتشبع من الشهوات والمتع ـ بغير حدود ولا ضوابط ـ بقدر ما يسعد ويرتاح .

وأما النصارى فقد غلبوا جانب الروح حتى أغرقوا النفس في روحانيات ما كتبها الله عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها وكثير منهم فاسقون .

ولقد كان هذا الغلو من الطرفين نتيجة لعدم معرفتهم بطبيعة هذه النفس وحقيقتها ومكوناتها ، وليس أدل على ذلك من كلام بعض التربويين الذين لم يهتدوا ببصائر الوحي في معرفة هذه النفس ، إذ يقول كارل carel في كتابه

الإنسان هذا المجهول (١٤٠٩هـ) :((وواقع الأمر أن جهلنا مطبق ، فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية غير معروفة ... ومن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان ما زال غير كاف ، وأن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب)) ص ١٧ - ١٩ .

ويقول فيليب فينكس fileeb finax في كتابه فلسفة التربية (١٩٨٢م): ((فالإنسان في الحقيقة قد صنع صنعا عجيبا مخيفا ، وربما كان السبب الأكثر أهمية هو حقيقة أن الإنسان نفسه مندمج في عمق وحيوية في إنسانيته حتى إنه لا يستطيع أن يعرف في وضوح ودقة ماهيته)) ٦٩٧ .

أما الإسلام فقد جاء بطرحه الرباني المتوازن ، على علم وبصيرة ، فأعطى كل ذي حق حقه من غير إفراط ولا تفريط ، مع براءته من مناهج بعض الطوائف المحسوبة عليه والتي سلكت في تعاملها مع النفس مسالك الذين من قبلهم حذو القذة بالقذة شبرا بشبر وذراعا بذراع .

فطائفة أغرقت الجسد في الشهوات المادية وأخرى أغرقت الروح في الزهد البارد والروحانيات الخرافية ، وثالثة قدست العقل حتى جرأته على نصوص الشريعة الإسلامية .

والمنهج الحق أن يأخذ الجسد حقه في الإسلام فهو مطية الروح لتحقيق عبوديتها لله تعالى ، وما لم تكرم المطية لا يتحقق السير ، وأن تأخذ الروح حقها من العبادة المنضبطة بضوابط الشرع المطهر ، وأن يأخذ العقل حقه من التفكير والاستنباط والإبداع وفق أطر الشريعة الغراء .

يقول يالجن في كتابه معالم بناء نظرية التربية الإسلامية (١٤١١هـ) :

((إن موضوع التربيـة الإسلامية هو الإنسان بكل ما تتـضمنه كلمة الإنسان من معـان واستعـدادات وتصورات في نظر الإسـلام ، ففي نظر الإسـلام يوجد في طبيعـة الإنسان كل الاستعـدادات لحياة خلق من أجلها ، وأن على التـربية أن تأخذ بعين الاعتـبار تلك الاستعـدادات من بداية مراحل التربيـة إلى نهايتهـا ، وأن تغذي كل استـعداد وتنمـيه وتراعـيه حتى يصل إلى كمـاله ويؤتي ثماره ، فـفي طبيـعة الإنسان يوجد استعداد روحي وأخلاقي وعقلي وعاطفي وحسـي أو مادي للحياة الروحـية والأخلاقـية والعـقلية والعـاطفيـة والحسـية أو المادية ، ولكن لا تنمـو هذه الاستعدادات وتصل إلى كمالها وتؤتي ثمارها في الحياة إلا إذا روعي كل استعداد بالعناية والرعاية والتغذية بغذائه الخاص)) ص٩٧ .

إن هذه النفس وهي تقطـع رحلتهـا الطويلة من عـالم الإخـصاب إلى الوفـاة تحتـاج إلى تربية كاملة شاملة تهـتم بالإنسان على أنه وحدة واحـدة إذا اشتكى منه عـضو تداعى له سـائر الجسـد بالحمى والسـهر ، ولـيس هناك من تربية تحـمل هذه المواصفات غير التربية الإسلامية .

إن كل مرحلة من هذه المراحل لها من الخصائص ما يميزها عن غيرها ، الأمر الذي يجعل لكل مـرحلة تربية خـاصة ، تتأثر المرحلة اللاحـقة منها بالسـابقة ، لأن عملية التربية أشبه ببناء شامخ ترص لبناته واحدة بعد الأخرى حتى يكتمل .

وفي عملية بناء الإنـسان تأتي مرحلة الشباب التي يطلـق التربويون على جزء منها مرحلة المراهقة ، والتي يعدونها من أخطر مراحل العمر حين تغيب عنها التربية الصحيحة ، وهي التي تبدأ في الغالب من الثانيـة عشرة إلى الثامنة عشرة ، وبمعرفة خصائص هذه المرحلة وكل مرحلة تصبح عملية التـربية سهلة ميسرة ، وقد يورث الجهل بمعرفة هذه الخصائص أخطاء فادحة في التربية والتوجيه .

النمو العقلي :

ساق الزعبلاوي في كتابه تربية المراهق (١٤١٤هـ) جملة من تعاريف بعض علماء السلف للعقل ، ثم من خرج من ذلك بخلاصة فقال : ((العقل قوة غيبية تمكن الإنسان من معرفة ربه ، وتقود اتجاهه إليه ، وهي أداة لإدراك العلوم والمعارف النظرية والتجريبية وظبطها ، ووسيلة للتمييز بين الخير والشر ، والحسن والقبيح)) ص ٦٩ .

وما من شك أن العقل هو أحد مكونات النفس البشرية ، وأنه ينمو مع الإنسان منذ ولادته ، وأنه يبلغ درجة النضج في مرحلة المراهقة ، ولهذا أولاه الإسلام عناية كبيرة ، وأشاد بأصحابه الذين يستخدمونه فيما ينفعهم في الدنيا والآخرة .

فلقد أثنى الله تعالى على أولي الألباب فقال :﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ سورة آل عمران آية ١٩٠

وقال تعالى :﴿ يؤت الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ سورة البقرة آية ٢٦٩ .

وقال سبحانه بعد أن ذكر قصة يوسف :﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾ سورة يوسف آية ١١١ .

وقال سبحانه مادحا عباده المؤمنين :﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب﴾ سورة الزمر آية ١٨ .

كما أن المولى جلت قدرته قد عاب الذين لا يستخدمون عقولهم ، ويعطلونها عن العمل بقوله تعالى : ﴿ ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون ﴾ سورة يس آية ٦٨ .

وقال سبحانه عن المشركين الذين يرون الآيات ولا يهتدون إليها بعقولهم : ﴿ قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ سورة العنكبوت آية ٦٣ .

وقال عنهم أيضا :﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾ سورة الفرقان ٤٤ .

وقال عنهم أيضا : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾ سورة الحج ٤٦ .

وإن المتأمل في هذه الآيات ليرى مدى ارتباط العقل بالبحث والنظر والتأمل والتفكير في القضية الكبرى في حياة الناس ألا وهي قضية العبودية لله تعالى ، والاستدلال عليه حين يعمل العقل في ملكوت الله مستدلا على ربه سبحانه بآياته الكونية والشرعية .

على أن العقل وقد أمر أن يتفكر فإن الإسلام قد وضع له حدودا يتفكر فيها، ولا يجوز له أن يتعداها إلى غيرها ، صيانه له من الزلل حين يخوض في بحر لا قبل له به ، ولا قدرة له على العوم فيه .

والعقل في مرحلة المراهقة يحدث له نقلة هائلة ، إذ ينمو في هذه المرحلة نموا سريعا في التفكير والإدراك والملاحظة والقياس والربط والتحليل والتركيب والتقويم، ويستطيع الشاب في هذه المرحلة أن يميز ما لم يميزه ويدركه في مرحلة الطفولة .

يقول الزعبلاوي في تربية المراهق (١٤١٤هـ) :

((إن نضوج العقل وقدرته على التفكير المستقل والإدراك والتذكر والتخيل يعتبر من أهم ما تمتاز به مرحلة المراهقة ، والله سبحانه قد أمد الإنسان بمواهب كثيرة لاستخدامها والإفادة منها في دعم إيمانه ويقينه ، ولتمكينه من الترقي في

العلوم والمعارف ، والقيام بوظائف الخلافة في الأرض ، فالعقل الناضج دعامة أساسية تعين المراهق على فهم دينه وتزكية روحه وتهذيب سلوكه ، كما تعينه على تحقيق مستوى أفضل من التكيف مع بيئته الاجتماعية ، حيث تبدو مسئوليته عن أعماله وأقواله مع بداية هذه المرحلة النمائية ، ونضوج العقل يؤكد أهلية المراهق للمسئولية الشخصية عن كل ما يأتي وما يدع ، كما يكون إيذانا برفع الوصاية المباشرة عنه ، ويغدو مسئولاً عن هداية نفسه وتزكيتها)) ص ٨٥ .

وإذا كانت القدرات العقلية عند المراهق في هذه المرحلة من العمر تنمو بهذه السرعة ، فإن استغلال المربي لها من أعظم العوامل التي تساعده على تأسيس قاعدة عقلية قوية ، تتألق في حل معضلات القضايا ومناقشة مدلهمات الأمور ، عن طريق تدريب الشاب - في مثل هذا السن الذي يتفتق فيه العقل - على التفكير السليم ، والقياس المنطقي الجيد ، إلى جانب الحفظ والتلقين التي نشأ عليها في مرحلة الطفولة ، كما أن المربي الحاذق هو الذي يستطيع استغلال هذا النمو عند المراهق لتوجيه سلوكه عن طريق الحوار والمناقشة ، بعيدا عن التقليد والتبعية التي ماتلبث أن تخبو ، حينما يغطي العقلَ هيجانُ العواطف .

وما أحوج المربين أيا كانت مواقعهم وخاصة المعلمين أن يلموا بمستويات المجال المعرفي الست وهي الحفظ والتذكر والفهم والتحليل والتركيب والتقويم ، وما أحوجهم إلى أن يتخلصوا من الاقتصار على المستويات الثلاث الأولى ، وهي الحفظ والتذكر والفهم ، مغفلين الجوانب الأخرى الهامة، وهي التحليل والتركيب والتقويم، لأثرها الكبير في استغلال الطاقات العقلية وتدريبها على العمل والإبداع .

وليس المجال مجال حديث عن هذه المستويات الست وكيف توظف لتسهم بدور كبير في تفتيق العقل وتدريبه على العمل ، ولكن المراد أن يعلم القائمون على

التربية أن الشبيبة المسلمة في حاجة إلى أن تفكر لا أن تحفظ كما هائلا من المعلومات دون أن تستطيع أن توظف ذلك في حياتها .

خذ مثالا على ذلك : في قول الله تعالى عن المشركين :﴿ أتعبدون ما تنحتون ﴾ سورة الصافات آية ٩٥ .

إن هذه الآية فوق أنها تحكي واقعا كان المشركون يمارسونه ، إلا أنها تربي على التفكير السليم والقياس المنطقي الجيد الذي يبدأ بالمقدمات وينتهي بالنتائج ، فها هو رب العالمين جل جلاله يقول للمشركين ، كيف تعبد صنما أنت نحته بيدك، فأنت صانع وهو مصنوع ، وهل يعقل أن يعبد الصانع المصنوع ؟ وأن يتقرب السيد للعبد المملوك ؟ . وهكذا دواليك .

يقول القاضي ويالجن في كتابهما علم النفس التربوي في الإسلام (١٤٠١هـ) :

((ولهذا فإن التربية في هذه المرحلة يجب أن تقوم أساسا على الوعي العقلي، لا مجرد المحاكاة والتقليد والعادة ، كما كان في الطفولة ، وذلك عن طريق تعليم مبادئها وقوانينها وعللها ، وما يترتب على الفضيلة والرذيلة من خير وشر إن عاجلا وإن آجلا ، ومدى ضرورة الفضيلة لحياة الأفراد والجماعات ، وإعطاء صورة كاملة عن مبادىء الفضيلة ، وعن المحرمات والرذائل على حد سواء، لأنه يستطيع إدراك ذلك ، ويستطيع أن يتعقل عواقب الفضيلة أو الرذيلة . . . وأكثر الانحرافات في مرحلة المراهقة تحصل نتيجة عدم إقناع المراهق فكريا بضرورة الالتزام بالقواعد الأخلاقية)) ص ١١٦ - ١١٨ .

إن المراهق في مثل هذا السن يعيش صراعا كبيرا بين العقل والهوى ، والتربية السليمة التي تقوم على معرفة خصائص هذه المرحلة ، وتهتم بالقدرات العقلية ، وتعرف كيف تستثمرها ، وتستغل الأساليب التربوية الإسلامية التي تسهم في

الإقناع أكثر من أية قوة أخرى ، تستطيع أن تجنب الشاب مزالق الهوى حين يحكّم العقل في كل ما ينفعه في عاجل الأمر وآجله ، وهنا تكمن سعادة الدنيا والآخرة ٠

يقول ابن القيم في الفوائد حول عداوة العقل والهوى ما خلاصته : ألقى الله سبحانه العداوة بين العقل والهوى وابتلى العبد بذلك وجمع له بين ذلك ، وأمد كل حزب بجنود وأعوان ، فلا تزال الحرب سجالا ودولا بين الفريقين إلى أن يستولى أحدهما على الآخر ويكون الآخر مقهورا معه ، فإذا كانت النوبة للعقل فهنالك السرور والنعيم واللذة والبهجة والفرح وقرة العين وطيب الحياة واشراح الصدر والفوز بالغنائم ، وإذا كانت النوبة للهوى فهنالك الغموم والهموم والأحزان وأنواع المكاره وضيق الصدر ٠ ص٧٨ - ٧٩ .

وإذا كان انتصار العقل يورث للعبد مثل هذه النعم فإن على المربين أن يبحثوا عن أسباب انتصار العقل على الهوى ، وتربية الناشئة عليها حين تتفتق أذهانهم ويبلغ النضج العقلي عندهم أشده ، وهذا ما سيقيهم بإذن الله تعالى من تعطيل هذه الطاقات التي يتميز بها الإنسان عن الحيوان ، ويصبح إقدامهم على أي عمل مبني على تفكير مسبق في العمل ذاته ، وفي عواقبه وثمراته ، وهذا ما سيبعثفي نفوسهم نبذ المحاكاة والتقليد ، على غير وعي ولا بصيرة ،

النمو الانفعالي :

يتساءل كثير من المتخصصين في علم النفس عن سبب موجة الانفعالات التي تصاحب الشاب في هذه المرحلة من العمر ، وقد ذكر النغيمشي في كتابه المراهقون (١٤١٤هـ) أن هذه ثمرة من ثمار نمو الانفعالات عند المراهق لأمور يرى أن من أبرز معالمها : غلبة الخوف والقلق على الذات والمستقبل ، كما أن التكامل العضوي والعقلي يزيد من هذه الانفعالات التي تنقصها الخبرة والتجربة ، بالإضافة إلى ذاتية المراهق وإعجابه بنفسه ٠ ص ٢٣ ما بعدها .

ثم يصف النغيمشي (١٤١٤هـ) علاج هذه الحالة عند المراهقين في هذه المرحلة من العمر فيقول :

((هذه الميزة لدى المراهقين من الاستعداد للاستهواء ، وسرعة الاستثارة ، وهشاشة الانفعال ، والفراغ النفسي المستعد للامتلاء ـ وبعبارة أخرى : مثل هذه الغزارة في الانفعال ، والعاطفة ، يمكن أن تُوجَّه الوجهة الصحيحة السليمة ، وأن تضبط عن طريق محيط تربوي شامل متزن ، لتخرج الشاب القوي الطموح المنضبط المتعلق بالمثل العليا ، والنماذج الرائعة في تاريخ أمته وحاضرها ٠ ويمكن أن تستثمر في تربية انفعالاته ، ووضعها في الاتجاه الصحيح ليعرف المراهق : كيف يرحم ؟ ومتى يرحم ؟ ولماذا ؟ وكيف يحب ؟ ومتى يحب ؟ ولماذا ؟ كيف يعجب؟ ومتى يعجب ؟ ولماذا ؟ وهكذا ، وهذه الغزارة يمكن أن تمهد لبناء شاب ذى عواطف فياضه ، متفاعلة مع الحياه ، متجهة للخير والإصلاح ، مؤثرة فى علاقتة بالأمة فى شتى مستوياتها ٠ص ٢٦ .

إن هذه الموجة من الانفعالات التي تمر بالمراهق في هذه الفترة من عمره ، ما هي إلا أثر من آثار نموه الجسمي والعقلي فإذا غابت التربية الجادة وُجهت هذه الانفعالات والعواطف بفعل البيئة الملوثة ، والصحبة المنحرفة ، وإضلال شياطين الإنس والجن إلى فساد في الأرض وعلو كبير ، مما يجعل المراهق يخرج عن طوره حين يعاتب ، أو يواجه بخطأ ارتكبه ، أو يمنع من تصرف لا يليق به ، أو يُحذَّر من خلق ذميم أو صحبة سيئة ، أو ما إلى ذلك ٠

ولهذا فإن على المربين سواء كانوا الآباء والأمهات في البيوت ، أو المعلمين في المدارس أو أئمة المساجد أو وسائل الإعلام ، وكل من يُعنى بالتربية والتوجيه أن ينظروا إلى الشباب في مثل هذا السن بنظرة خاصة ، لأن الشباب في مثل هذا السن دخلوا مرحلة من مراحل العمر جديدة تغيرت على أثرها في حياتهم أشياء

كثيرة يحتاجون معها إلى الحكمة في المعاملة ، والتعقل في التربية ، فليس من الحكمة أن يربي الوالد أو المعلم بالتوبيخ وهو يجد إلى اللين والرفق سبيلا ، وليس من الحكمة أن يربي بالرفق واللين والعتاب اللطيف والموقف يستأهل القوة والحزم والصرامة .

إن الشاب في مثل هذا السن يحتاج إلى مداراة ومسايسة ، ومعرفة الأساليب التي تنفذ إلى قلبه ويتأثر بها ، لكي يتخذها المربي سبيلا إلى ضبط عواطفه ، وتوجيه انفعالاته .

على أن لكل شخص ما يميزه عن الآخر من الأساليب ، فربما كان هذا الأسلوب يصلح لفلان ولا يصلح لآخر ، والعاقل هو الذي يعرف خير الخيرين وشر الشرين ،

إن موجة الانفعالات تنمو في هذه المرحلة نموا كبيرا على غير عادتها في المرحلة السابقة من العمر ، كانفعال الحب والكره والخوف والشجاعة والرحمة الإيثار والتعاون وما إلى ذلك ، والمربي الجيد هو الذي لا يحاول القضاء على مثل هذه الانفعالات لأنها فطرة في الإنسان ولكن توجيهها نحو الخير هو المراد ، فالحب أمر مرغوب فيه حين يكون لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولمن كان لهم في الأمة أمجادا من الصحابة والتابعين ومن تبعهم ، لأن النفس تتعلق بمثل هذه المُثُل حين تعرض لهم في أسلوب شيق محبب إلى النفوس .

والكره أمر مرغوب فيه بل هو عبادة يؤجر العبد عليها حين يكون لأعداء الله من شياطين الإنس والجن ، ومن لف لفهم واقتفى أثرهم ، وقس على ذلك بقية الأمور .

إنها جملة من العواطف والانفعالات تنمو كما ينمو الجسد ، وتوجيهها نحو الخير هو سمة المربي الناجح ، بالأساليب التربوية الإسلامية التي سلف الحديث عنها في الفصل الرابع من هذه الرسالة .

النمو الاجتماعي :

في هذه المرحلة من العمر يمر المراهق بفترة انتقالية هائلة من عالم الطفولة ، إلى عالم الشباب والرجولة والحيوية والاعتداد بالنفس ، الأمر الذي يزرع في ذهنه أنه لم يعد صغيرا يمنع من الخروج من المنزل ، أو تحدد له اللعبة المناسبة ، أو يشرف عليه وهو يلعب مع الأطفال .

لقد انتقل إلى مرحلة أخرى تنمو فيها علاقاته بالآخرين ، فيُكوِّن الصداقات، ويقيم العلاقات ، ويربط الوشائج ، ليقنع نفسه ويقنع الآخرين من حوله أنه أصبح رجلا يستعين بهم ويعين ، ويستفيد منهم ويفيد .

وفي هذه المرحلة التي تنمو فيها علاقتة بالآخرين من حوله يأتي دور الأسرة في تشكيل شخصيته الاجتماعية ، لتفرز في تصرفاته ما يتلقاه في محيط أسرته الاجتماعي الصغير .

يقول الزعبلاوي في كتابه تربية المراهق (١٤١٤هـ) :((فإذا كان الجو المنزلي يسوده الحب والعطف والهدوء والثبات ، فإن المراهق يشعر بالاطمئنان والثقة في نفسه ، فيبدو عليه مظهر الاستقرار والثبات ، وإذا كان الجو المنزلي مشحونا بالمنازعات واضطراب العلاقات بين أفرادها انعكس ذلك على سلوك المراهق ، فيبدو الاضطراب وعدم الثبات في سلوكه ويسوء مع نفسه ومع أفراد المجتمع)) ص ١٦٢ .

وقد يزداد الأمر سوءا في انحراف المراهق في هذه السن حين يجد في المنزل من يعيقه عن الخير ، ويصده عن الصراط المستقيم في تكوين علاقاته الاجتماعية بمن ترضى أخلاقهم من الأخيار الصالحين .

يقول البوطي في كتابه الإسلام ومشكلات الشباب (١٣٧٩م) :((وكثيرا ما يحدث أن ينشأ الشاب أو الفتاة وقد قاوم هذه التيارات الجانحة واحتفظ لنفسه

بجوهر من الفطرة الإنسانية السليمة ، يحوطها إيمان بالله والتزام لصراطه ، فيشمئز أحد الأبوين أو كلاهما ، أو سائر أفراد الأسرة من استقامته السلوكية ومنهجه الديني ، إذ كان ذلك ـ بالنسبة لما قد تعودوا عليه ـ داخلا تحت ما يسمى بالشذوذ والتزمت والانطواء وما شاكل ذلك من الألفاظ المشابهة)) ص ٣٨ ـ ٣٩ .

وإذا كانت هذه خطورة المنزل حين يكون مشحونا بالنزاعات والخلافات والوقوف أمام الخير الذي يجريه الله على يد هذا الشاب ، فإن خطورة تكوين العلاقات خارج المنزل مع أصحاب السوء لا تقل خطرا عن أصحاب السوء في المنزل ، وخاصة رفاقه وأصحابه ومن هم في سنّه ، وقريبون من فكره وعواطفه ، إذ يأتي هذا الأثر الخطير في سوء اختيار الصحبة التي تؤثر في الصاحب تأثيرا عجيبا يصل في بعض الأحيان إلى درجة من التأثير كدرجة السحر أو أشد .

وسيحاول الباحث أن يزيد الأمر وضوحا بإذن الله عند الحديث عن دور المدرسة في تربية الشاب على حسن اختيار الصديق .

وقبل أن يختم الباحث الحديث عن هذه الفقرة لا بد من الإشارة إلى قضية هامة ، يساعد فهمها المربين على أداء مهمة التربية في أي زمان أو مكان ، وهذه القضية هي قضية المراهقة بمصطلحها الجديد الذي لم يكن معروفا من قبل .

وقد يثور في الأذهان تساؤلات عدة حول قضية المراهقة :

أولهما : متى نشأ هذا المفهوم ؟ .

ثانيهما : ما المراد بالمراهقة ؟ .

ثالثهما : هل كان السلف وهم أهل التربية المثلى يعرفون هذا المصطلح ؟ .

رابعها : كيف كان السلف يتعاملون مع أبنائهم في مثل هذه السن ؟ .

فأما جواب التساؤل الأول ، فإن نشأة هذا المفهوم يتنازعها المعنيون بالدراسة في مجال علم النفس ، فمنهم من يعيد أصل هذه الكلمة إلى أصل عربي ، ويرى

أنها مستنبطة من الفعل الثلاثي رهق وقد وردت هذه الكلمة بمشتقاتها في القرآن والسنة ، وكتب المعاجم .

وبعضهم يرى أن هذه الكلمة ترجع إلى أصل يوناني ، يقول فهمي في كتابه علم النفس أصوله وتطبيقاته التربوية (١٣٩٦هـ) :((إن كلمة المراهقة : adolecere مشتقة من الفعل اللاتيني adolecere ومعناه التدرج نحو النضج البدني والجنسي والعقلي والانفعالي)) ص ٣٠٢ .

أما المراد بالمراهقة فالملاحظ يرى أن جميع من عني بالكلام والتأليف والبحث في علم النفس اتفقوا على أنزال هذا المفهوم على الشاب إذا قارب سن البلوغ ، وهو سن النضج البدني والجنسي والانفعالي والعقلي ، يقول الهاشمي في كتابه علم النفس التكويني (١٤٠٠هـ) :((المراهقة لغة تفيد الاقتراب والدنو من الحلم ، يقال : رهق إذا غشي أو لحق ودنا ... والمراهق بهذا هو الفتى الذي يدنو من الحلم واكتمال الرشد)) ص ١٩٠ .

أما جواب التساؤل الثالث : فلم يكن السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم يعرفون هذا المصطلح ، وإن كانت الكلمة معروفة في اللغة العربية إلا أنها لم تكن تطلق على الشاب أو الشابة في مثل هذا السن ، لأن هذا المفهوم اقترن بالطيش والخفة والتعدى وركوب الشرور واقتراف المآثم ، عندما غابت التربية الجادة في العصور المتأخرة .

يقول سيد قطب في الظلال (١٤٠٠هـ) :((ولعل هذا الرهق هو الضلال والقلق والحيرة التي تصيب قلوب من يركنون إلى عدوهم ، ولا يعتصمون بالله منه ... والقلب البشري حين يلجأ إلى غير الله طمعا في نفع أو دفع ضر ، لا يناله إلا القلق والحيرة ، وقلة الاستقرار والطمأنينة ... وهذا هو الرهق في أسوأ صوره ، الرهق الذي لا يشعر معه القلب بأمن ولا راحة)) ج ٦ ص ٣٧٢٨ .

فإذا كـان هذا هو مفهوم الرهق فـإن الشاب أو الشابة في عـهد السلف ، لم يكونوا في العـموم أهل سفـه أو طيش أو خفـة أو ركوب للشـرور والمآثم ، لكونهم خير القرون ، وأعظم الناس ، لقرب عهدهم بعصر النبوة ، مما جعل هذا المفهوم في أذهانهم لا يطلق على هذه المرحلة من العمر .

ويبقى جـواب التساؤل الأخير ، وهو منهج السلف في تعـاملهم مع أبنائهم في مثل هذه المرحلة من العمر.

لقـد كـانت هذه المرحـلة من العـمـر لا تثـير عندهم مـن القلق والحـيـرة والاضطراب كما يحصل عند المربين في مثل هذه الأيام ، وذلك لأمور :

الأول : أن عـمليـة التربيـة عندهم لم تكـن تؤجل إلى هذا السن ثـم يبـدأ اهتمامهم من حين قرب هذه المرحلة ، وإنما كانت عمليـة التربية تبدأ من حين اختيار الزوجـة ثم بناء البيت على تقـوى من الله ورضـوان ، لأن صـلاح الأبوين يؤثر في صلاح الأبناء ، ثم تأتي مرحلة خروج الجنين فيتعاهده الوالدان بالتربية خطوة خطوة ومـرحلة مرحلة ، فـتدخل عليـه ما يسـمى بمرحلة المراهقـة فلا تخـرجه عن أصـول تربيته التي لازمتـه من صغره ، ولا تثير عنده من التحولات المنحرفـة ما تخرجه عن صلاحه واستقامته .

الثـاني : أن الـسلف رضـوان الله عليـهم كـانوا يربطون أولادهم مـبـاشـرة بتوجيهات الكتاب والسنة ، بأساليبها التربوية الفريدة ، فتتلقى الناشئة تربية صافية ، بعيـدة عن التقـعر في الألفاظ، والتـشدق في العبارات ، وسليمـة من الطرح على مناهج الفلاسفة ، والعرض على مشارب المناطقة .

الثـالث : أن الـسلف رضـوان الله عليـهم كـانوا يربون أولادهـم على خلق الاستعـلاء بالإيمان الذي هو أغلى ما يملكه الإنسان على ظهـر هذه الأرض ، حتى قال قائلهم كـما ذكر ذلك ابن الجوزي في صفة الصفـوة (١٤٠٦هـ) في ترجمة

إبراهيم بن أدهم :((لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور لجالدونا عليه بالسيوف أيام الحياة)) ج ٤ ص١٥٤ .

مع أن النعيم والسرور ولذيذ العيش الذي كانوا عليه لم يكن في أغلب الأمر غير الأسودين التمر والماء ، أو شيئ من الخبز اليابس الذي يبل في الزيت أو الماء لكنها كسرة الخبز مع الإيمان والعمل الصالح ، وحفنة التمر مع التقوى والرضوان ، فنشأوا غير مكترثين بما يرون من بريق الشهوات المباحة ، فضلا عن الشهوات الرخيصة ، والمتع المحرمة .

الرابع : أنهم لم يكونوا فارغين عن العمل ، أو عاطلين عن المهمات ، فقد كان العمل للإسلام يستنزف جهودهم ما بين الجهاد في سبيل الله حين كان بعضهم يقود الجيش المسلم وهو في السابعة عشرة من عمره ، كحال أسامة بن زيد رضي الله عنه حين قاد الجيش الذي أنفذه أبو بكر لحرب المرتدين ، وحال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما حين نودي للجهاد في سبيله وهو في الرابعة عشرة من عمره ، فعرض نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الجهاد فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم لصغر سنه ، ثم أذن له في السنة التي بعدها ، وفي هذا روى البخاري في صحيحه (د – ت) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ((أن النبي صلى الله عليه وسلم عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة فلم يجزه ، وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة فأجازه)) ج ٥ ص ١٣٧ .

وهذا رافع بن خديج رضي الله عنه يعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو صغير في معركة بدر ، وفي هذا يذكر الذهبي في السير (١٤٠٥هـ) عن رافع بن خديج فيقول :((استصغر يوم بدر)) ج ٣ ص ١٨١ .

وهذان معاذ ومعوذ ابنا عفراء يطيران كالصقرين على عدو الله أبي جهل في معركة بدر فيرديانه صريعا وهو محاط بسياج من عتاة المشركين وصناديدهم ،

وقد روى البخاري في صحيحه (د ـ ت) ((أن عبد الله بن مسعود انطلق فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد)) ج ٥ ص ٩٥ .

هذه إحدى المهمات التي كانت تستنفد وقتهم وجهدهم وتفكيرهم ، ضافة إلى غيرها من المهمات الجسام كتعليم الناس ودعوتهم إلى الله تعالى ، والرحيل بكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البلدان ، والجلوس في حلق الذكر ومجالس العلم ، وإمامة الناس في الصلاة ، والتجارة والزراعة والسعي في الأرض بحثا عن لقمة العيش ، التي يعد الإسلام تحصيلها عبادة ، والسعي من أجلها طاعة .

إذا علم هذا فقد أدركنا سر غياب هذا المصطلح عن حياة السلف وعدم إطلاقه على من يقاربون سن البلوغ ، ولكن الشهوات المستعرة في عصر الحضارة المعاصرة ، وغياب التربية الجادة جعلت من المهتمين بعلم النفس يطلقون على هذه المرحلة من العمر سن المراهقة لارتباطه الوثيق بالطيش وارتكاب الشرور التي تحيط بالشاب من كل جانب .

إن الشاب المسلم في مثل هذه الفترة من حياته في أمس الحاجة أن تهيأ له البيئة الإيمانية النظيفة ، وأن يستنزف وقته وجهده فيما يعود عليه بالخير في أمور دينه أو دنياه ، أو في فيهما معا ، حتى يتجاوز هذه المرحلة فيتزن عقله ، وتستقر عواطفه ، ويعتدل في تفكيره ونظرته لكل شيئ .

وإن من الخطورة بمكان أن يسمع الشاب في مثل هذا السن من أفراد أسرته، أو من القائمين على تعليمه في المدرسة ، أو من وسائل الإعلام أو من غيرها ، أن هذه المرحلة مرحلة يعذر فيها الشاب في كل ما يقوم به من تصرفات ، زارعين في ذهنه ـ تصريحا أو تلميحا ـ أن هذه المرحلة مرحلة الانطلاق والتحرر من القيود، معتذرين له عن كل ما يصدر عنه من الأخلاق السيئة ، والسلوكيات الخاطئة ،

فتكون هذه مبررا لما يجده في داخل نفسه الأمارة بالسوء من الانفعالات التي تدفعه إلى ركوب الشر والمآثم .

المدرسة الثانوية والتربية الوقائية :

يقصد الباحث بالمدرسة المعلمين والمناهج والمناشط ، ويدخل في المناهج والمناشط القائمون على وضعها ، والمكلفون بصياغتها .

وما من شك أن العاملين في هذا الميدان سواء كانوا واضعي المناهج أو مقرري الأنشطة أو المربين ، في أمس الحاجة إلى أن يدركوا أهمية جانب الوقاية لصيانة الشخصية الإسلامية في هذا المعقل التربوي الهام ، وأن يدركوا كذلك أن أسباب الأزمات التي لحقت بأمتنا في ميادين حياتها عامة ، وفي ميدانها التربوي خاصة ، هو إهمال جانب الوقاية ، حيث تترك الأمور تجري على عواهنها حتى يقع الخطأ ، فإذا وقع الخطأ أسرعنا نبحث عن العلاج الذي أصبح يكلفنا أضعاف ما كان يمكن أن يكلفه الجانب الوقائي .

فإذا أدرك القائمون على هذا الميدان أهمية جانب الوقاية يمَّموا وجوههم قِبَل مصادر التشريع في الإسلام ، يستنبطون منها منهج الوقاية عبر آيات القرآن الكريم ، وأحاديث سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وهدي سلف الأمة الأخيار من الصحابة والتابعين ومن تبعهم .

مع ضرورة الوقوف كثيرا مع بعض القواعد الأصولية التي استنبطها - من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم - علماء الأصول ، وذلك لارتباطها بالتربية الوقائية ارتباطا وثيقا ، ومنها على سبيل المثال :

١- قاعدة : الدفع أسهل من الرفع ، فقد ذكر الزركشي في كتابه المنثور في القواعد (١٤٠٢هـ) لذلك أمثلة تبين أن هناك بعض الأحكام التي يمكن أن تدفع

الشيء قبل وقوعه كاختلاف الدين المانع من النكاح يمنعه ابتداء ولا يفسخه على الدوام . ج٢ص١٥٥ - ١٥٦ .

وحين تأمل الباحث هذه القاعدة رأى أن لها صلة وثيقة بالتربية الوقائية ، فإن دفع الشيء قبل وقوعه أسهل بكثير من رفعه بعد وقوعه ، وهي ما يعبر عنه أهل الميدان الصحي بـ : الوقاية خير من العلاج .

٢- قاعدة : سد الذرائع ، وقاية من الوقوع في الحرام ، ذلك أن الذرائع أو الوسائل تنقسم إلى قسمين : القسم الأول : ذرائع محرمة توصل إلى الحرام وتمهد الطريق إليه كالتبرك بالقبور الذي يعد ذريعة إلى الشرك ، وتبرج النساء الذي هو وسيلة إلى الزنا ، وغير ذلك ، وهناك ذرائع مباحة ولكنها قد تفضي إلى الحرام وإن كانت في أصلها مباحة ، وقد أختلف العلماء فيها على قولين .

٣- قاعدة : درء المفاسد أولى من جلب المصالح ، وهذه القاعدة فيها جانب وقاية عظيم ، فإن العبد حين يقدم على عمل فيه مصلحة ومفسدة فإنه يقارن بين المصالح فيه والمفاسد ، فإن غلبت المصالح على المفاسد أخذ بها ، وإن استوى الأمران قدم درء المفسدة على جلب المصلحة ، وإن غلبت المفاسد أخذ بهذه القاعدة وضحى بالمصلحة في سبيل دفع المفسدة ، وفي هذا المعنى يقول الزرقا في كتابه شرح القواعد الفقهية (١٤١٤هـ) : ((فإذا تعارضت مفسدة ومصلحة قدم دفع المفسدة غالبا ، لأن اعتناء الشارع بالمنهيات أشد من اعتنائه بالمأمورات)) ص ٢٠٥ .

٤- قاعدة : إذا تعارضت مفسدتان روعي أعظمهما ضررا بارتكاب أخفهما، فإذا لم يجد العبد بدا من إحدى المفسدتين فإنه يختار أخفهما ، وقاية من المفسدة الكبرى ، وفي هذا المعنى يذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد (١٤٠٤هـ) كلاما لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول فيه :((ليس العاقل من عرف الخير من الشر ، بل العاقل من عرف خير الخيرين وشر الشرين)) ج ٢ ص ١١٠ .

٥- قاعدة : يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام ، ذلك أنه حين يتعارض ضرران أحدهما يقتصر ضرره على فرد أو طائفة أو جهة ، والآخر يتعدى ضرره إلى الأمة كلها أو المجتمع كله ، ولا مجال من اتقاء هذا الضرر فإن القاعدة تقول : يرتكب الأمر الذي فيه ضرر خاص على الأمر الذي يتعدى ضرره إلى العامة .

٦- الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف ، معنى هذه القاعدة أن العبد حين يكون في موقف حرج بين أمرين كلاهما ضرر محض ولكن أحدهما أشد من الآخر ولا بد من نزول أحد الضررين ، فإن العاقل يختار أخفها ، وقاية من الضرر الأشد .

٧- يختار أهون الشرين ، وما ينطبق على القاعدة السابقة ينطبق على هذه القاعدة سواء بسواء .

إن الوقوف عند هذه القواعد الأصولية التي قررها جهابذة علماء الأصول ، من الأهمية بمكان ، وخاصة للعاملين في ميدان التربية والتعليم منظرين ومعلمين ومربين ، لعلهم يقفون على منهج ثر عظيم في تراثهم التربوي الخالد ، الذي يتعامل في تربيتة للفرد والأسرة والمجتمع على منهج الدفع أسهل من الرفع ، والوقاية خير من العلاج .

إن معرفة هذه القواعد وتطبيقها على واقع الميدان التربوي في غاية الأهمية سواء كان المتعامل مع هذه القواعد هم واضعو المناهج ، أو القائمون على الأنشطة، أو المربون والمعلمون اذين يمرون خلال معايشتهم لواقع الطلاب ببعض المواقف التي تستلزم الإلمام بمثل هذه القواعد لحل ما قد يعترض مسيرة التربية في المدرسة من المشاكل .

كما أن تربية الطلاب على فهم هذه القواعد من الأهمية بمكان لما لها من الصلة الوثيقة بحياتهم ليستطيعوا من خلالها حل كثير من المشكلات التي قد

تعترضهم داخل المدرسة وخارجها ، بل ربما تظل هذه المفاهيم في أذهانهم يستحضرونها عند كل أزمة أو مشلكة يتعرضون لها ، يقول القرافي في كتابه الفروق(د ـ ت) :

((وهذه القواعد مهمة في الفقه عظيمة النفع ، وبقدر الإحاطة بها يعظم قدر الفقيه ويشرف ، ويظهر رونق الفقه ويعرف ، وتتضح له مناهج الفتوى وتكشف ، فيها تنافس العلماء ، وتفاضل الفضلاء ، وبرز القارح على الجذع ، وحاز قصب السبق من فيها برع ، ومن جعل يخرج الفروع بالمناسبات الجزئية دون القواعد الكلية تناقضت عليه الفروع واختلفت ، وتزلزلت خواطره فيها واضطربت، وضاقت نفسه لذلك وقنطت ، واحتاج إلى حفظ جزئيات لا تتناهى ، وانتهى العمر ولم تنقض نفسه من طلب مناها ، ومن ضبط الفقه بقواعده استغنى عن حفظ أكثر الجزئيات لاندراجها في الكليات واتحد عنده ما تناقض عند غيره وتناسب ، وأجاب الشاسع البعيد وتقارب)) ج ١ ص ٣ .

ومن هنا كان من واجب المدرسة أن تلقن الطلاب القواعد العامة للعلوم ، ليسهل على الطالب بعد ذلك إنزال كثير من الجزئيات على ميزان تلك القواعد ، فيصدر الحكم مباشرة وبلا تردد .

إن الجزئيات التي تمر بالفرد في حياته لا يمكن أن تنتهي أبدا ، ولو أن مسلما حفظ كل المسائل الفرعية في الحج في كتب الفقهاء الأربعة وغيرهم ، ثم هيأ نفسه للفتوى مما حفظ من هذه المسائل ، لظهرت له من المسائل الجديدة ما لم يكن له في حساب .

يقول المثل الصيني : لأن تعلمني كيف أصيد سمكة خير لي من أن تعطيني كل يوم سمكة ، وتعليم صيد السمك أشبه بتعليم القواعد الكلية والأصول العامة النى يبنى عليها غيرها ، وهاك الأمثلة على ذلك :

* إذا ايقن الطالب أن كل خبيث حرام ، وأن كل مباح حلال ، استطاع أن يعطي حكما على كل مطعوم ومشروب إلى يوم الدين .

* إذا عرف الطالب أوصاف المنافقين في القرآن الكريم ، استطاع أن يكتشف أهل النفاق في كل عصر ومصر من خلال ما يقومون به من أعمال وما يحدثونه من تصرفات .

* إذا عرف الطالب أن الحق في اتباع الصراط المستقيم الذي وصف الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه بأنهم : من كان على مثل ما كان عليه صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، استطاع أن يصدر حكما على كل مذهب أو معتقد أو طائفة أو جماعة أو حزب أو هيئة، وأن يصدر حكما على كل عمل يتقرب به إلى الله، هل هو من قبل السنة أو البدعة ، وهكذا دواليك .

* الرايات والشعارت التي يقاتل الناس تحتها لا يمكن أن تنتهي إلى يوم القيامة ، ولو بقي المعلم يشرح للطالب كل شعار ، ويبين له كل راية ، لفنيت الأعمار قبل أن تفنى هذه الشعارات ، فكان من الأنسب أن يعطى الطالب قاعدة شرعية صحيحة يزن بها القتال تحت أي راية أو شعار ، وقد أعطى رسول الله صلى الله أصحابه هذه القاعدة ، حينما سئل عن القتال غضبا ، أو حمية ، أو مغنما ، أو شجاعة ، أو للذكر ، أو ليرى مكانه ، أو رياءً ، كما روى ذلك البخاري مع الفتح (د ـ ت) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :﴿ الرجل يقاتل حمية ، ويقاتل شجاعة ، ويقاتل رياءً ، فأي ذلك في سبيل الله ؟ قال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ﴾ ج١٣ ص ٤٤١ .

وبنحوه رواه مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) ج ١٣ ص ٥٣ .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرد على الصحابي الذي سأله شارحا له كل راية ، فلم يقل صلى الله عليه وسلم : من قاتل حمية فليس في سبيل الله ،

ومن قاتل شجاعة فليس في سبيل الله ، وهكذا ، بل أعطاه قاعدة تزن كل شعار إلى يوم القيامة ، فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله ، ومن قاتل لغير هذا الهدف فهو في سبيل الطاغوت أو في سبيل ما قاتل من أجله .

دور المعلم والمنهج والنشاط في التربية الوقائية :

ما من شك أنه حين تتظافر جهود المعلمين القدوات ، مع المناهج الجيدة المحكمة ، والمنشاط البناءة الهادفة ، فسوف تقوم المدرسة بدور كبير في تربية الناشئة تربية صحيحة سليمة ، مبتدئة بتثبيت العقيدة في القلوب ، مع تعاهدها كل حين ، إضافة إلى تربية الناشئة على حقائق الإسلام وآدابه .

وسوف يتحدث الباحث عن دور المدرسة بجوانبها الثلاث ـ المعلم والمنهج والنشاط ـ في وقاية معتقد الطالب وخلقه ، بعد أن يعطي فكرة موجزة عن بعض خصائص المعلم الجيد والمنهج الجيد والنشاط الجيد .

أولا : المعلم :

المعلم هو أكثر منسوبي المدرسة احتكاكا بالتلاميذ ، وهو أكثر الناس قدرة في التأثير عليهم ، وخاصة حين يملك القدرات التي تؤهله لذلك ، ومنها :

* أن يكون قدوة لطلابه فيما يأتي وما يذر .
* أن يملك القدرة العلمية الجيدة التي تعينه على أداء رسالته .
* أن يكون على قدر كبير من الخلق الإسلامي الرفيع بلا تكلف ولا تصنع .
* أن يكون على معرفة بالطرق الشرعية التي يستطيع من خلالها أن يملك قلوب طلابه .
* أن يملك السمات القيادية التي تمكنه من السيطرة على طلابه فلايكون لينا فيعصر، أو صلبا فيكسر.

أولاً: أن يكون المعلم قدوة لطلابه فيما يأتي وما يذر :

لقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم الأثر الكبير في تغيير مجريات التاريخ ، وكان من أكبر العوامل التي أحدثت هذا التغيير عامل القدوة ، الذي كان وبحق أعظم العوامل في نجاح رسالته التربوية للعالم أجمع .

والمعلم في هذا الميدان التربوي الهام في حياة الأمة ، تظل كلماته هامدة ميتة حتى تحييها القدوة ، وتبعث فيها التأثير والحيوية .

ولو أن المعلم ـ وخاصة معلم التربية الأسلامية ـ وقف مع نفسه يحسب الكلمات التي تفوهت بها شفتاه خلال سنة كاملة أو سنتين أو ثلاث ، من التعليم والتوجيه والتربية ، لوجد أنه من الصعب تعدادها ، ولكن هل علم المعلم أن هذه الحصيلة من التوجيهات وهذه الملايين المملينة من الكلمات ، لا وزن لها ولا قيمة حين يغيب عن عيون الطلاب ـ وخاصة في هذه المرحلة ـ عنصر القدوة الفعال؟.

يقول الزعبلاوي في كتابه تربية المراهق (١٤١٤هـ) :

((وأعتقد ن مرحلة المراهقة أكثر قابلية للتأثير والتأثر واكتساب المعلومات والخبرات وطرائق السلوك الاجتماعي ، ولا أشك في أن الانفصال بين المبادىء التربوية ـ في جانبها النظري التي يدعو إليها المربون ـ وبين المظهر السلوكي في الجانب التطبيقي من أهم العوامل في انحرافات المراهقين ، حيث أن سرعة النمو في هذه المرحلة تغري بالخروج على كل مألوف ، بسبب الاضطراب الحادث عن عدم التطابق بين النظرية والتطبيق ، ولهذا السبب جاء التحذير الإلهي من الانفصال بينهما قال الله تعالى :﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ﴾ ص ١٦٤ ـ ١٦٥ والآيتان في سورة الصف برقم ٢ ـ ٣ .

إن المعلم الذي فقد عنصر القدوة الفعال واحد من اثنين : إما إنسان لا يؤمن بما يقول ، وهنا مكمن الخطر وقاصمة الظهر ، وإما إنسان يؤمن بما يقول ، ولكن غلبت عليه شهواته ونزواته ، وقصرت همته عن تحقيق ما يعلمه ، وكلا المعلمين للأجيال عنصرا هدم للفضائل والأخلاق .

إن الناشئة في مثل هذه المرحلة يصيبها من الازدواجية والتناقض والانفصام شيء كثير حين يتلقون من معلمهم كلاما ، ويرون منه خلاف ذلك ، مما يجعل بعضهم ينحرف في أخلاقه ، لأن المعلم في - نظره - ما دام يقع في ذلك وهو أكبر منه سنا ، وأكثر منه علما ومعرفة ، فالطالب من باب أولى ، وقد يفسر التناقض بين الأقوال والأفعال في حياة المعلم ، بأن تلك التوجيهات التي يسمعها من معلمه ليست بذات أهمية ، وأنه من الممكن تخطيها ولا غضاضة في ذلك .

وليس ذلك بغريب أن تنقدح مثل هذه المفاهيم في عقول الناشئة في مثل هذه المرحلة ، وإن كانوا يعرفون الحق ، ذلك أن التأثير بالفعل أقوى من التأثير بالقول في كثير من الأحايين .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من علم لا ينفع ، لأن ذلك حجة على صاحبه يوم القيامة ، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه (شرح النووي د - ت) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه أن رسول الله عليه وسلم كان يقول :﴿ اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، ونفس لاتشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها ﴾ ج ١٧ ص ٤٥ .

يقول النحلاوي في أصول التربية الإسلامية (١٤٠٣هـ) وهو يستعرض صفات المرب المسلم: ((أن يكون صادقا فيما يدعو إليه ، وعلامة الصدق أن يطبقه على نفسه ، فإذا طابق علمه عمله اتبعه الطلاب وقلدوه في كل من أقواله وأفعاله ، أما إذا خالف عمله لما يدعو إليه ، فإن طلابه يشعرون بعدم عزمه على

تحقيق ما يقول ، أو بعدم إيمانه بما يقول ، أو بعدم جدية أقواله ... وعدم صدق المربي قد يعلم الرياء للطلاب بدون أن يشعر بذلك ، لأن الطلاب وخاصة الناشئين منهم يتأثرون بسلوك معلمهم كما يتأثرون بكلامه فهو قدوتهم في كل ما يقول ويعمل)) ص ١٧٣ .

إن أول هذه القدرات التي يجب توفرها في المرب المسلم ، القدوة الصالحة ، فإن لم يتحقق هذا الشرط لم يصلح أن تطلق كلمة مرب بمفهومها الإسلامي على من يتولى التربية والتعليم ، إنما يطلق عليه معلم نفعي ، أو مدرس مادي ، وقد سئل بعض السلف عن سفلة الناس فقال : هم الذين يأكلون بدينهم .

وهذه جملة من أقوال السلف ذكرها ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (تصحيح وتهذيب الزهيري ١٤١٦هـ) فيها عبرة لمن اعتبر ، وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، تخص جانب القدوة وخاصة الذين يقولون ما لا يفعلون .

فذكر عن يزيد بن قودر قوله : ((يوشك أن ترى رجالا يطلبون العلم فيتغايرون عليه كما يتغاير الفساق على المرأة السوء ، هو حظهم منه)) ٢٢٨ .

وذكر عن كعب قوله :((إني أجد في بعض الكتب نعت قوم يتعلمون لغير العمل ، ويتفقهون لغير العبادة)) ٢٢٨ .

وذكر عن عبد الله بن مسعود قوله :((إن الناس أحسنوا القول كلهم ، فمن وافق قوله فعله فذلك الذي أصاب حظه ، ومن خالف قوله فعله فإنما يوبخ نفسه)) ص ٢٤٧ .

وذكر عن سفيان الثوري أنه كان يتمثل أبيات سابق البربري الذي يقول :

إذا العلم لم تعمل به كان حجة ... عليك ولم تعذر بما أنت جاهله

فإن كنت قد أوتيت علما فإنما ... يصدق قول المرء ما كان فاعله

وذكر عن القاسم بن محمد قوله :((أدركت الناس وما يعجبهم القول ، وإنما العمل)) ص٢٤٨ .

ثانيا: أن يملك القدرة العلمية التي تعينه على أداء رسالته : لأن القدرة العلمية حين تتخلف لا يجد المعلم شيئا يقدمه لطلابه ، فإذا لم يجد المعلم شيئا يقدمه لطلابه استخفوا به ، وهزوا رؤوسهم أمامه وهم يسخرون منه في قرارة أنفسهم ، بل لربما بيَّت بعض الطلاب أسئلة محرجة هدفهم من ورائها إيقاعه وإحراجه ، وقد ذكر بعضهم أن العاقل الأريب لا يضع نفسه في موضع الذلة والهوان حين يقحم نفسه في قضية لا يجيدها .

يقول ابن جماعة في تذكرة السامع (١٤١٥هـ) :

((واللبيب من صان نفسه عن تعرضها لما يعد فيه ناقصا ، وبتعاطيه ظالما ، وبإصراره عليه فاسقا ، فإنه متى لم يكن أهلا لما شرطه الواقف في وقفه ، أو لما يقتضيه عرف مثله ، كان بإصراره على تناول مالا يستحقه فاسقا ، فإن كان في الوقف أن يكون المدرس عاميا أو جاهلا ، لم يصح شرطه ، وإن شرط جعل ناقص مخصوص مدرسا ، سقط اسم الفسق وحضر الإثم ، ويبقى التنقص به والاستهزاء بحاله ، ولا يرضى ذلك لنفسه أريب ، ولا يتعاطاه مع الغنى عنه لبيب ، ولا يظهر من واقف شرط ذلك قصد الانتفاع ولا يؤول أمر وقفه إلا إلى ضياع ، وأقل مفاسد ذلك أن الحاضرين يفقدون الإنصاف ، لعدم من يرجعون إليه عند الاختلاف لأن رب الصدر لا يعرف المصيب فينصره أو المخطىء فيزجره ...

ولبعضهم في تدريس من لا يصلح :

تصدر للتدريس كل مهـــوس   جهول يسمى بالفقيه المدرس
فحق لأهل العلم أن يتمثلـــوا   ببيت قديم شاع في كل مجلس
لقد هزلت حتى بدا من هزالهـــا   كلاها وحتى سامها كل مفلس

(ص ٣٨)

كما أن المعلم الجيد هو الذي لا يقتصر في معلوماته على ما يقدمه له المنهج، فقد يوجد في المنهج عبارة عامة تحتاج في تبسيطها إلى بعض الأمثلة ، وقد تسهم قصة من القصص أو طرفة من الطرف ، أو وسيلة من الوسائل على إيصال المعلومه، وتثبيت الفائدة ، بل قد يشتمل المنهج على بعض الأخطاء المطبعية أو حتى الجوهرية في موضوع ما ، فإذا فقد المعلم هذه القدرات وقع في الحرج أوقع ، وفقد الطلاب ثقتهم فيه ، وملّوا مجلسه ، وسأموا كلامه .

يقول النحلاوي في أصول التربية الإسلامية (١٤٠٣هـ) :((ولأن كثرة الأخطاء العلمية عند المعلم تقلل من ثقة الطلاب بمدرّسهم، وتؤدى إلى استهتارهم به وبما يدعوهم إليه من الفهم والإتقان العلمى والحفظ والتطبيق ، وقد يؤدى ذلك إلى شك الطلاب بما يعلمهم إياه ، فلا يستفيدون منه شيئا ، فيجب على المدرس أو المعلم المسلم أن يكون على سعة من العلم وقوة فى الحافظة وعمق فى الفهم ، حتى يكسب احترام طلابه وثقتهم به وحتى يفيدهم الفائدة المرجوة)) ص ١٧٤ .

على أن هناك جانبا آخر غير جانب القدرات العلمية لا يقل أهمية عن هذا الجانب ، ألا وهو معرفة الأساليب الصحيحة في التربية والتعليم التي يستطيع من خلالها المعلم إيصال المعلومة إلى الطالب ، إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وما قيمة المعلم الذي يملك القدرات العلمية الهائلة ، وهو لا يستطيع إيصالها إلى طلابه ، أو حين يقتصر في إيصالها على الإلقاء الذي ربما كان تأثيره في بعض الأحيان محدودا ، أو حين يتجرد علمه من التربية فيقدم معلومات مجردة ، ليس فيها صفاء التوجه وحرارة التوجيه.

إن إيصال المعلومة إلى الطالب عن طريق ضرب المثل أسلوب فريد من أساليب التربية في الإسلام ، وقد يجعله المعلم تمهيدا لدرس جديد يناقش الطلاب حوله ، وحول نتائجه وثمراته ، فإذا استقر المثال في أذهانهم ، ثم نقلوا بعد ذلك

إلى المعلومة التي يريد المعلم بيانها لهم مطبقا عليها ما طبقه على المثال ، يكون فهمها أعم وأشمل وأعمق ، ويكون تأثيرها أقوى وأثبت ، ومن أمثلة ذلك :

هب أن المعلم كان يحدث طلابه عن الدنيا وسرعة زوالها والتحذير من غرورها وخداعها ، ثم قال لهم إن الدنيا دار لعب وغرور ، الليالي والأيام فيها مراكب تمضي بالإنسان إلى الدار الآخرة ، وأخذ يحدثهم عن الدنيا بالعبارات تلو العبارات دون أن يضمن كلامه ما يقرب المعنى ويعين على الفهم ، لا يكون للكلام وقع كما لو مهد للموضوع بمثال يقرب المعنى ، ويجمع الذهن ليربط بين المعنيين .

لكن لو أن المعلم قال في مثاله : فلان من الناس كان جالسا على طرف بئر عميقة ينظر إلى السماء يسرة ويمنة ، قد تدلت أرجله في البئر يلعب بها ذات اليمين وذات الشمال ، وفي البئر حبل ممدود من أعلاها إلى وسطها ، وفجأة سقط على أم رأسه في البئر ، وأخذ يتقلب على رأسه وقدميه في سرعة مذهلة إلى أسفل البئر التي لا يوجد بها ماء ، وبينما هو على تلك الحال في سرعة هائلة إلى أسفل البئر وقعت يده على آخر الحبل فأمسك به بكل قوة ، وأخذ الحبل يلعب به في البئر وهو يمسك به بكل قوة ، وفجأة ومن تلقاء وجهه إذ بفتحة في الجدار تتناثر منها نقود كثيرة ، فتقدم الرجل شيئا فشيئا حتى اقترب من الفتحة ووضع رجله اليمنى على يسار الفتحة واليسرى على يمينها وفتح ثوبه وبدأت النقود تنهال في حجره بكميات هائلة ، وهو متعلق بالحبل يقول لنفسه كلما تأخرتُ كلما كان أحسن ، حتى أجمع أكبر قدر ممكن من المال ، الذي يجعلني في مصاف الأثرياء من الناس، وبينما الرجل على تلك الحال نظر في أسفل البئر فإذا منظر تشيب له الرؤوس ، إنه يرى حيات وثعابين وهوام يأكل بعضها بعضا من شدة الجوع ، إنها مصيبة عظيمة، ولكن هناك ما هو أعظم منها وأشد ، إن المشكلة الكبرى والمصيبة العظمى أن هناك وفي أعلى الحبل فأرتين ، فأرة سوداء وفأرة بيضاء تقرضان في هذا الحبل وتأكلانه

شيئا فشيئا ، والرجل غافل عنهما ، وفجأة وإذا بآخر يصرخ بأعلى صوته يا فلان أخرج ، أنت في خطر ، الحبل سينقطع ، ولكنه لم يأبه بالصوت ، ولم يستجب للناصح ، وظل هذا يصرخ وذاك لا يجيب ، حرصا على جمع أكبر قدر ممكن من النقود ، واقترب الحبل ينقطع وهو لا يجيب ولربما أنه كان يمني نفسه بالخروج ولكن وفي اللحظات الأخيرة انقطع الحبل فسقط الرجل على الحيات والثعابين فأكلته وأكلت نقوده .

هذا مثال يراد منه تقريب حقيقة الدنيا وسرعة زوال أيامها ولياليها ، فالبئر العميقة هي نار جهنم والحيات والثعابين ما أعد الله لأهل النار في النار ، والنقود التي تنصب من الجدار هي الدنيا بزخارفها ومتعها وشهواتها ، والحبل الممدود هو عمرك أيها الإنسان ، والفأرتان السوداء والبيضاء هما الليل والنهار ، والذي يصرخ هناك هو المربي الناصح ، والليل والنهار يقرضان في هذا الحبل ، فإذا جاء وقت الموت وانقطاع العمر ، والإنسان غافل عن الله بدنياه ومتعه المحرمة ، ولم يستجب للناصح ، لربما سقط على أم رأسه في النار فخسر البعيد دينه ودنياه .

وما ضرب المثال إلا أسلوب واحد من الأساليب الكثيرة التي تميزت بها التربية الإسلامية في تعليم الناس وتربيتهم على حقائق الإسلام وتوجيهاته .

كما أن المعلم الذكي والمربي الناجح قد يستطيع إيصال المعلومة إلى الطالب عن طريق الطرفة والدعابة ، وقد يستطيع إيصالها عن طريق قصة تتضمن الحكم الذي يريد بيانه .

كما أن المعلم الناجح هو الذي لا يجعل من الطالب مستمعا متلقيا فحسب، لأن الطالب يشعر بالملل حين يظل على مدار اليوم الدراسي يتلقى دون أن يكون له دور يذكر .

بل لا بد أن يثير المعلم طلابه عن طريق الحوار والنقاش والأخذ والعطاء ليصلوا بأنفسهم إلى الحكم ، أو إلى جوهر القضية ، ولو أخذ ذلك وقتا ، لأنه يكون أرسخ في الذهن ، وفيه تعويد للطلاب على ملكة الحوار والنقاش ، والاستنباط وبيان علة الحكم ومناطه .

إننا لسنا في حاجة إلى أن نزود طلابنا بكم هائل من المعلومات بقدر ما نحن بحاجة إلى أن نعودهم كيف يفكرون ، وقاية لهذه الملكات الغضة الطرية من أن تتعطل .

كما أن من نجاح المعلم أن يكون على علم بالفروق الفردية وكيفية مراعاتها ، وأن يكون على قدر لا بأس به من التعامل مع الوسائل العلمية التي تسهم وبدور كبير في توضيح فكرته ، أو إيصال معلومته .

كما أن من نجاح المعلم أن يتدرج في عرض معلوماته على طلابه منتقلا بهم من الأسهل إلى الأصعب ، ومن الكليات والعموميات إلى الجزئيات والفروع ، يقول ابن خلدون في مقدمته (١٤١٥هـ)

((اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدا إذا كان على التدريج شيئا فشيئا ، وقليلا قليلا ، يلقى عليه أولا مسائل من كل باب من الفن ، هي أصول ذلك الباب ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال ، ويراعي في ذلك قوة عقله واستداده لقبول ما يورد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن)) ص٥٣١ .

على أن المعلم ينبغي له أن يراعي حال المتعلم وقدرته على قبول ما يقال له ، فليس من الحكمة أن يلقي المعلم على طلابه درسه في فترة فتور وكسل وفتور ، فإن ذلك مما يثير في النفس النفور من طلب العلم ، أو حضور الدرس ، وفي هذا المعنى يقول الخطيب البغدادي في كتابه الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١٤٠٣هـ) :((حق الفائدة ألا تساق إلا إلى مبتغيها ، ولا تعرض إلا على الراغب

فيها ، فإذا رأى المحدث بعض الفتور من المستمع فليسكت ، فإن بعض الأدباء قال: نشاط القائل على قدر فهم السامع ، ثم نقل عن وهب قال : قال عبد الله : حدث القوم ما رمقوك فإذا رأيت منهم فترة فانزع)) ج ١ ص ٣٣٠ .

وهذه الأساليب والطرائق كلها تعتمد على القدرات العلمية التي يتمتع بها المعلم ، والتي يمكن أن يحصل عليها عن طريق التحصيل والتطوير ورفع الكفاية .

ثالثا: أن يكون على خلق إسلامي رفيع بلا تكلف ولا تصنع : وإن كان هذا العنصر شبيها بعنصر القدوة ولكن الذي يميزه عن القدوة أنه : ربما كان المعلم قدوة في كثير من تصرفاته ، فقد يكون محافظا على صلاة الجماعة في الصف الأول ، منضبطا في حضوره وانصرافه ، متمكنا من مادته ، قوي الشخصية بين طلابه ، ولكنه قد يكون فظ القلب ، غليظ الطبع ، وهذا خلاف ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من مكارم الأخلاق ومحاسن الأقوال والأفعال ، يأخذ هذا بيده ويسير به ، ويمسك ذاك من خلف ظهره ويداعبه ، ويلاطف ذاك ويمازحه ، يبتسم للمغضب الثائر فيستل غضبه ، يرحم الضعيف ، يتفقد المحتاج ، تأخذ الطفلة بيده إلى أمر ربما كان من أتفه الأمور فيسير معها حتى تشبع نهمتها مما تريد بيانه ، يرقي المريض ويحمل العاجز، يعفو عمن أساء وتعدى ، ويقيل عثرة من كبا وتردى، فكان خلقه الكريم صلى الله عليه وسلم مفتاحا للقلوب القاسية، والرؤوس المعاندة .

والمعلم حين يقتفي هذا الأثر ، ويقتدي بهذا الخلق ، تفتح له قلوب طلابه ، وتذعن لأمره نفوسهم ، ولا يقف الأمر عند هذا ، بل يتعدى الأمر إلى محبته والتسابق إلى خدمته والدعاء له ، شريطة أن يكون ذلك بلا تكلف ولا تصنع ، بمعنى أن الذي يحدوه إلى ذلك هو الإخلاص لله تعالى ، لأن مثل هذه الأخلاق حين تتجرد من الإخلاص تفقد أثرها ، بل ربما كان ذلك سببا في فضيحته على الملأ في الدنيا والآخرة .

ولكن ثمة لطيفة جميلة ذكرها ابن جماعة رحمه الله في مسألة حسن النية وخاصة للمبتدئين الذين ربما عسر عليهم حسن النية في طلب العلم لله معلمين كانوا أو متعلمين فقال في تذكرة السامع (١٤١٥هـ) :

((لا يمتنع من تعليم الطالب لعدم خلوص نيته ، فإن حسن النية مرجو له ببركة العلم ، قال بعض السلف : طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله ، قيل معناه : فكان عاقبته أن صار لله.

ولأن إخلاص النية لو شرط في تعليم المبتدئين فيه مع عسره على كثير منهم، لأدى ذلك إلى تفويت العلم كثير من الناس ، لكن الشيخ يُحرِّض المبتدىء على حسن النية بتدريج ، قولا وفعلا ، ويعلمه بعد أنسه به ، أنه ببركة حسن النية ينال الرتبة العلية من العلم والعمل ، وفيض اللطائف ، وأنواع الحكم ، وتنوير القلب وانشراح الصدر ، وتوفيق العزم ، وإصابة الحق ، وحسن الحال والتسديد في المقال، وعلو الدرجات يوم القيامة)) ص٨٦ - ٨٧ .

ولكن حين لا يسلك الإنسان تلك الخطوات التي ذكرها ابن جماعة في ضرورة تحسين النية ، فيظل يقصد بعمله غير الله ، لا يكون له من عمله إلا ما قصد، هذا من ناحية الأجر ، أما من ناحية الحصيلة والثمرة ، فإنها تفقد بركتها حين تفقد الإخلاص ، ذلك أن الإخلاص ما دخل قليلا إلا كثره ، ولا حقيرا إلا عظمه ، وما فقد من كثير إلا قلله ، ولا عظيم إلا حقره ، سيما وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ذكر ذلك البخاري (مع الفتح د - ت) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ... الحديث ﴾ ج ١ ص ٩ ، وفي رواية مسلم (شرح النووي د - ت) :﴿ إنما الأعمال بالنية وإنما لامرىء ما نوى ... ﴾ ج ١٣ ص٥٧ .

وما روى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى :﴿ أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه ﴾ ج ١٨ ص ٣٢٦ ومن تركه الله وتخلى عنه تخلت عنه البركة والهداية والتوفيق .

رابعا: أن يكون على علم بالطرق الشرعية التي يملك بها قلوب طلابه ، ومنها :

* بل هو أعظمها على الإطلاق اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإن اتباعه صلى الله عليه وسلم يورث محبة الله تعالى كما قال سبحانه :﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ سورة آل عمران آية ٣١ .

ومحبة الله تعالى للعبد تورث محبة الناس والوصول إلى قلوبهم ، وفي هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى ذلك مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ إذا أحب الله عبدا نادى في السماء يا جبريل إني أحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل ، فينادي جبريل في أهل السماء، إن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض ﴾ ١٦ ص ٤٢٣ .

* ومنها : الزهد في الدنيا والزهد فيما في أيدي الناس ، وفي هذا المعنى روى ابن ماجة في سننه (د ـ ت) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس ﴾ ج ٢ ص ١٣٧٣ ـ ١٣٧٤ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٤٠٨هـ) ج ٢ ص ٣٩٢ .

وقد ذكر ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١٤١٢هـ) تحقيق الأرناءوط، أن الحسن كان يقول :((لا تزال كريما على الناس أو لا يزال الناس يكرمونك ما لم تعاط ما في أيديهم ، فإذا فعلت ذلك استخفوا بك وكرهوا حديثك وأبغضوك)) ج٢ص ٢٠٤ .

ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يربي بعض أصحابه ألا يسألوا الناس شيئا ، حتى إن سوط أحدهم ليقع على الأرض وهو على ظهر دابته فلا يقول لأخيه وهو على الأرض ناولني العصا ، بل ينزل بنفسه فيأخذها ، وفي هذا المعنى روى بن ماجة في سننه (د ـ ت) من حديث ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ ومن يتقبل لي بواحدة أتقبل له بالجنة ؟ قلت : أنا ، قال : لا تسأل الناس شيئا ، قال : فكان ثوبان يقع سوطه وهو راكب فلا يقول لأحد ناولنيه حتى ينزل فيأخذه ﴾ ج ١ ص ٥٨٨، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٤٠٨هـ) ج ١ ص٣٠٨ .

* ومنها إفشاء السلام ، وفي هذا روى مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم ﴾ ج ٢ ص ٥٩٣

* ومنها : الابتسامة في وجوه الآخرين ، فهي السحر الحلال الذي به ينفذ المعلم إلى قلوب طلابه ، حينما يصاحبها الوقار والخشية ، روى البخاري (مع الفتح (د ـ ت) من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : ﴿ ما حجبني رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت ولا رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا تبسم في وجهي ﴾ ج ٦ ص ١٦١ ، وفي رواية مسلم (شرح النووي د ـ ت) :﴿ ولا رآني إلا ضحك ﴾ ج ١٥ ص٢٦٨ .

* الهدية : ولو كانت شيئا يسيرا ، فإن قيمتها تكمن في معناها ولو قل ثمنها ، قال رسول اللـه صلى الله عليه وسلم :﴿ تهادوا تحابوا ﴾ سبق تخريجه ص ٢٢٦ .

* ملاطفة الطلاب والانبساط إليهم في الحديث ، ذلك أن الطلاب يتفاوتون في قبولهم للخير ، إذ يحتاج بعضهم قبل ذلك إلى مقدمات من الحديث في الأمور المباحة التي يرتاح لها الطالب كمدخل من مداخل القلوب التي كان يستغلها النبي صلى الله عليه وسلم مع الناس ، فقد ذكر الخطيب البغدادي في كتاب الفقيه والمتفقه (١٣٩٥هـ) :((عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : كنت جار النبي صلى الله عليه وسلم فكان إذا نزل الوحي أرسل إلي فآتيه فاكتب الوحي ، فكنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا ، فكل هذا أحدثكم عنه)) ج٢ص ١١٠ .

خامسا: أن يملك السمات القيادية التي تمكنه من السيطرة على طلابه : وهذا العنصر فيه تقابل مع عنصر حسن الخلق ، لإن المعلم مطلوب منه أن يكون على قدر كبير من الخلق ، كأن يكون عادلا رحيما ، رفيقا ، هينا ، لينا ، ولكن دون أن يصل ذلك إلى درجة الضعف واللين التي يتجرأ فيها الطالب على معلمه ، فيفقد المعلم هيبته في نفوس طلابه ، بل عليه أن يكون لينا هينا في مواطن اللين ، شديدا قويا في مواطن الحق لا تأخذه في الله لومة لائم .

وقد ذكر ابن جماعة في تذكرة السامع (١٤١٥هـ) جملة من السمات التي ينبغي أن يتحلى بها المعلم في ضبط طلابه فقال :((السابع : أن يصون مجلسه عن اللغط واختلاف الأصوات واختلاف جهات البحث ... والثامن : أن يزجر من تعدى في بحثه ، أو ظهر منه لدد في بحثه ، أو سوء أدب ، أو ترك الإنصاف بعد ظهور الحق ، أو أكثر الصياح بغير فائدة ، أو أساء أدبه مع غيره من

الحاضرين والغائبين ، أو ترفع عن المجلس على من هو أولى منه ، أو نام ، أو تحدث مع غيره ، أو ضحك أو استهزأ بأحد من الحاضرين ، أو فعل ما يخل بأدب الطالب في الحلقة)) ص ٧٥ - ٧٧ .

لقد كان رسول الله صلى الله من أحسن الناس أخلاقا ، ومع ذلك كان من أشد الناس صلابة في الحق ، يدل على ذلك موقفه صلى الله عليه وسلم من المخزومية التي سرقت ، وشفع فيها أسامة بن زيد فقد روى البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) ومسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) أن أسامة حين كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمرها غضب غضبا شديدا وقال : ﴿ أتشفع في حد من حدود الله ، ثم قام فاختطب فقال : أيها الناس إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ﴾ ج ٦ ص ٥١٣، ج ١١ ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

إن هذه القضايا التي ذكرت آنفا جزء لا يتجزأ من دور المعلم في التربية الوقائية ، إذ كيف يسهم في ووقاية طلابه من كل ما من شأنه أن يفسد عقائدهم وأخلاقهم ، وهو يفقد أهم مقومات المعلم الناجح ، ألا وهي القدوة الصالحة ، إضافة إلى الضعف العلمي ، والجهل بالأساليب الشرعية التربوية التي بها يكسب قلوب طلابه ، كي يتقبلوا ما يملي عليهم من الخير ، وغير ذلك من القضايا التي يحتاجها المعلم وهو يربي من تحت يده.

ثانيا : المنهج :

يعرف الوكيل في كتابه أسس بناء المناهج وتنظيماتها (١٩٧٨م) المنهج بأنه :((مجموعة الخبرات المربية التي تهيؤها المدرسة للتلاميذ بقصد مساعدتهم على النمو الشامل وعلى تعديل سلوكهم)) ص ٤١ .

والمتأمل في التعريف يرى أنه أدخل مع المقررات التي يدرسها الطالب في المدرسة كل ما ينمي خبرته من الأنشطة وغيرها ، وهو المفهوم الحديث للمنهج الذي تنادي به التربية الحديثة بعد أن ثارت على المفهوم التقليدي الذي يقتصر على دراسة المناهج والمقرارت لحفظ المعلومات ليس إلا .

يقول عبد الله في كتابه المنهاج الدراسي (١٤٠٦هـ) في الفصل الأول من الكتاب عن المنهج ما خلاصته : الكتب التي تتحدث عن المناهج تتباين في مفهومها للمنهج وفق تقسيمها له ، إذ هناك من يرى أن المنهج هو الذي يقوم على إيصال مجموعة من المعلومات إلى المتعلم عن طريق المعلم الذي يشكل الدور البارز في هذا التفاعل ، بينما ينحصر دور المتعلم في الاستماع والتلقي ، ويطلقون على هذا النوع من المناهج ، المنهج القديم أو التقليدي .

وقد وجه لهذا النوع من المنهج انتقادات كثيرة من أبرزها أن هذا النوع من المنهج لايهتم إلا بالجانب العقلي، بل بجانب واحد من العقل وهو الحفظ والتذكر، ولهذا النوع من المنهج أثاره السلبية على المعلم والمتعلم .

وفي أعقاب الثورة الهائلة على هذا النوع من المنهج نشأ ما يسمى بالمنهج الشامل أو الحديث الذي يقوم على تفاعل الطلاب مع الخبرات والأنشطة التي تقدمها المدرسة مما يحقق النمو الشامل الذي هو الهدف الأسمى من التربية . ص ٣ وما بعدها .

إن هذين المفهومين التقليدي والشامل أو القديم والحديث ، لا يصح أن يطلق على المنهج الإسلامي الأصيل في التربية المستمد من كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، والذي يعتبر منهجا ربانيا شاملا منذ أن أنزله الله تعالى إلى يوم اليامة ، وإن كانت الأمة المسلمة قد قصر فهمها تجاه منهجها الإسلامي بفعل الحملات الاستعمارية المنظمة التي استهدفت هذا الميدان العظيم في حياتها ، إنما

يراد من هذه المفاهيم المناهج الغربيـة التي كانت فترة طويلة من العمـر تقليدية قديمة لا تفي بمطالب المتـعلم الغـربي ، ثم قامت الـثورة عليـها لإحـلال المفـاهيم الحديثـة الشاملـة ، التي خلت ـ مع شمـوليتهـا ـ عن التربيـة الروحيـة ، التي هي سر سـعادة الإنسان على ظهر هذه الأرض .

إن المفهـوم الحقيقي للتـعليم في الإسلام يدور في إطار واسع المساحـة يشمل التـلاوة والتعليم والتـأديب والتزكـيـة ، وقد نزلت الآيات الأولى من القـرآن الكريم تحدد الإطار العام لنظرية المعرفة في الإسلام .

يقول الكيـلاني في كتـابه فلسفة التـربية الإسـلامية (١٤٠٩هـ) :((فـقد اشـتـملت هذه السـورة ـ سـورة العلق ـ على مـعنى المعـرفـة وأهمـيـتهـا وأهدافـهـا ومكوناتها وميادينها وثمراتها)) ص ٢١١ .

وإذا كانت هذه هي المعرفة في الإسـلام فإن المنهج الإسلامي يبنى على هذه النظرة الإسلامية الصحيحة تجاه المعرفة .

إن التعليم المعاصـر في الأمة المسلمة قد أصابه ما أصـابه ، ولم يعد قادرا على إخراج الأجيال المسلمة التي تقدر على استنقاذ أمتها من الحضيض إلى مقام السيادة والقيـادة ، ومع ذلك فإن حـقائق الإسلام لا تـتـغير ولا تـتبدل ، ولم تيـأس النفوس الواثقـة من نصر الله تعـالى لهـذه الأمة أن ترى تلك الحـقائق يومـا من الدهر واقعـا معـاشـا ، وستـكون بوابة النصر والـتمكين الكبـرى لهـذه الأمة هو مـيدان التربيـة والتـعليم ، الذي يحـرك الأمـة إلى العـلم والعـمل والدعـوة والجـهـاد ، والبـحث والتجريب ، والفكر والنظر ، قال الله تعالى:﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون، وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ سورة الصافات آية ١٧٢ ـ ١٧٣.

صحـيح أن تأثير المنهج يأتي في الدرجة الـثانية بعد تأثـير المعلم ، لأن المعلم هو الذي يقدم المنهج ويتعامل معه فهو الذي يقـوم بعرضه ، وشرح غامضة ، وبيان

مجمله ، وتربية الناشئة عليه ، وتصحيح سلوكهم عن طريقه ، وتهذيب وجدانهم من خلاله .

ومع ذلك فللمنهج دور كبير في صياغة شخصية المتعلم ، ذلك أن المنهج الجيد هو الذي يحقق الأهداف التعليمية الأصيلة في المجتمعات المسلمة ، وهو الذي يدور في إطار التلاوة والتعليم والتزكية ، التي تُكوِّن في النهاية التربية الإسلامية ، وما من شك أن المنهج حين يكون على هذه الشاكلة يعين المعلم على أداء رسالته ، وتأدية مهمته ، ويحقق دورا عظيما في تربية الطالب وتوجيهه .

ومن هنا كان من الواجب على واضعي المناهج في المجتمعات المسلمة أن يراعوا هذه النظرة الشاملة للإسلام ، فيصوغوا مناهج التعليم في بلاد المسلين ، صياغة تسهم بدور واضح في تربية الشخصية الإسلامية تربية كاملة شاملة متوازنة بعيدة عن القصور والتناقض والازدواجية .

ولهذا جاء في وثيقة التعليم الصادرة من اللجنة العليا لسياسة التعليم في المملكة (١٣٩٠هـ) حديث عن الأصول والمنطلقات والثوابت والمتغيرات التي تتعلق بوضع المناهج في اتجاهاتها ومحتوياتها وضابطها وأسسها ، ما يلي :

١ ـ ينبغي أن تكون هذه المناهج منبثقة من الإسلام ومن مقومات الأمة وأسس نظامها .

٢ ـ ينبغي أن تكون هذه المناهج موافقة لحاجة الأمة وترمي إلى تحقيق أهدافها .

٣ ـ ينبغي أن تكون هذه المناهج مناسبة لمستوى الطلاب .

٤ ـ ينبغي أن تكون هذه المناهج محققة للمستوى المطلوب في الدارسين ولأهداف التعليم .

٥ ـ ينبغي أن تكون هذه المناهج متوازنة ومرنة توافق مختلف البيئات والأحوال . ص ٣٤ .

والمنهج الجيد في نظر الباحث هو الذي يسهم بدور فعال في وقاية الطالب من الانحراف ، ولكي يحقق المنهج ذلك لا بد:

١ ـ أن يوضع من قبل متخصصين هم في الغالب على قدر من العلم والفكر والذكاء والفطنة .

٢ ـ أن يحقق الاهداف المرسومة التي تنطلق من خلال العقيدة الإسلامية ، ومن خلال النظرة الشاملة للإسلام .

٣ ـ أن يقوم على معرفة احتياجات الأمة ، ومشاكل المجتمع ، ومواطن الخلل ، ليسهم في توفير احتياجات الأمة، وحل مشكلاتها، وسد مواطن الخلل فيها .

٤ ـ أن يراعي الفروق الفردية، فلا يكون فوق مستوى الطلاب فيصابون بالإحباط، ولا دون مستواهم فيكون موضع سخرية وعدم اهتمام .

٥ ـ أن يتزامن محتوى المنهج مع مدة الفصل الدراسي ، لأن المنهج حين يكون طويلا والوقت قصيرا ربما جرَّت السرعة في عرضه عدم فهم الطلاب له ، وعدم قدرة المدرس على النهوض بأصحاب المستويات المتدنية ، الذين قد يحتاج بعضهم إلى إعادة الدرس مرة أو مرتين في حصة أو حصتين .

٦ ـ أن يجعل من موضوعات الكتاب بل وجميع المواد وحدة واحدة مترابطة في أفكارها ، فلا يعطى الطلاب معلومات في أحد المقررات ، قد تكون سليمة ومفيدة ولكنها تفقد علاقتها بغيرها من موضوعات المقرر ، فتبقى في ذهن الطالب معلومة مجردة منفصلة لا علاقة لها بغيرها .

٧ ـ أن يبتعد عن التناقض بين موضوعات المقرر أو بين المواد كلها ، فلا يأخذ في أول الكتاب حديثا عن العقيدة الإسلامية وأنها الرابط الوحيد بين أفراد الأمة ، ثم يأتي بعد ذلك بموضوعين أو ثلاثة ، موضوع يتعلق بالتربية القطرية الضيقة

التي تحصر اهتمام الطالب ببلده فحسب ، ولا يأخذ في التوحيد أو الفقه ما يناقضه في الفيزياء أو الانجليزي أو التربية الرياضية أو الفنية .

كما أن من صور التناقض أن يدرس الطالب قصيدة في الأدب تتحدث عن الشجاعة والحماسة والبطولات ، ثم تعقبها أخرى تتحدث عن الغزل والفسق والمجون ، كما أن من صور التناقض أن يدرس الطالب في التفسير قول الله تعالى : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ سورة الأنعام آية١٦٢ .

ثم يدرس في منهج آخر ما يناقض هذا الشمول الذي نزل به الوحي المقدس لجوانب الحياة كلها .

٨ ـ أن يبتعد عن الازدواجية التي ربما كرست في أذهان الناشئة أن العلم الطبيعي لا علاقة له بالدين ، وأن الدين وحدة أخرى مستقلة لا علاقة له بالعلم .

٩ ـ أن يربط النظر بالتطبيق والمثال بالواقع ، إذ المنهج المؤصل لا يقف عند معلومات مجردة تلوكها الألسنة وتتشبع بها العقول فحسب ، ولكنه منهج نظري تطبيقي مثالي واقعي ، يبني الشخصية الإسلامية بناء شاملا في كل جانب من جوانب حياتها .

١٠ ـ أن يعتمد في أغلب طحه على جانب الوقاية ، تاركا لجزء يسير من مساحته للعلاج .

١١ ـ أن يحذر من تسرب بعض المفاهيم غير الإسلامية عن طريق بعض النظريات العلمية ، أو اللغة الانجليزية أو ما إلى ذلك .

١٢ ـ أن يحذر من القصور في معالجة القضايا والمشكلات لمصلحة موهومة ، أو وفق منحى معين ، أو هدف غير نبيل .

على أن يشتمل منهج كل مادة ـ قدر الإمكان ـ على موضوعات يقصد من ورائها تعويد الطالب على الوقاية من الخطأ قبل وقوعه عن طريق التخطيط السليم المسبق ، والنظرة الفاحصة المتأنية تجاه أي قضية ، أو عند اتخاذ أي قرار ، وهذا مفهوم تربوي أصيل من مفاهيم التربية الإسلامية ، ألا وهو أن الوقاية خير من العلاج ، ويساعده هذا على أن يتجنب في حياته الخاصة والعامة كثيرا من العقبات والمشاكل التي تنشأ في أعقاب إغفال جانب الوقاية ، وعدم التخطيط لأمور الحياة، ذلك أن إغفال هذا الجانب يجعل الأمور تسير بصورة عشوائية تنتظر الخطأ المتوقع في أي لحظة ، فإذا ما وقع بدأ صاحبه يبحث عن العلاج ، الذي إن لم يحل المشكلة كلف صاحبه كثيرا .

إن المنهج لا بد أن يوضع بعناية فائقة ، لأن الملايين من أبناء المسلمين يتربون عليه في فترة واحدة ، ولا بد أن يشتمل على موضوعات يظهر فيها جليا جانب الوقاية، لتتربى من خلاله في حاضر أمرها ومستقبله تفاديا للمشاكل قبل وقوعها .

إن الطالب في هذه المرحلة يعتقد أن المنهج الذي وضع أمامه يدرسه ويتعلمه على قدر كبير من الصحة والصواب ، وإلا لما كلف به وأمر بدراسته ، ثم إن الطالب في هذه المرحلة يتصور أن هذا المنهج هو الإسلام الذي يدرسه ويتعلمه ، ولذلك كان من الواجب أن يقدم له في صورة محببة ، وبأساليب مشوقة ، ليستشعر عظمة هذا الدين الذي تعرض عليه تشريعاته وسلوكياته من خلال المنهج .

وما من شك أن المنهج حين يسلم من هذه القضايا ، ويعتمد على نظرة الإسلام الصحيحة للعلم والمعرفة يساهم بدور كبير في حفظ الشخصية الإسلامية، ويصونها عن الزلل ، ويقيها من الانحراف في عقيدتها وأخلاقها .

ثالثا : الأنشطة :

وضعت الإدارة العامة للنشاط المدرسي بوزارة المعارف في دليل النشاط المدرسي مفهوما للنشاط المدرسي (١٤٠٦هـ) قالت فيه :((هو ذلك البرنامج الذي تنظمه المدرسة متكاملا مع البرنامج التعليمي والذي يقبل عليه الطلاب برغبتهم ، بحيث يحقق أهدافا تربوية معينة داخل الفصل أو خارجه وأثناء اليوم الدراسي ، أو بعد انتهاء الدراسة ، على أن يؤدي ذلك إلى نمو في خبرة الطالب ، وتنمي هواياته وقدراته في الاتجاهات التربوية والاجتماعية المرغوبة)) ص ٥ .

والأنشطة من خلال هذا المفهوم ترتبط ارتباطا وثيقا بالبرنامج التعليمي ، والبرنامج التعليمي له منطلقاته وأهدافه الإسلامية ، وهذا يعني أن يكون منطلق الأنشطة وأهدافها محكوم بتوجيهات الإسلام كي تقوم بدور كبير لا يقل عن دور المعلم أو المنهج في صياغة شخصية المتعلم .

ولتأصيل هذه القضية ذكر النحلاوي في كتابه أصول التربية الإسلامية (١٤٠٣هـ) نوعين من الأنشطة كانت تمارس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما خلاصته :

أولاهما : نشاط ترويحي يجدد العزيمة ويزيل الكآبة ، وكان هذا النشاط يتجلى في حياتهم عفويا كلما دعت الحاجة إليه ، كترديده مع أصحابه بعض أبيات الشعر التي يقولونها ، ومشاركته لهم في أوقات الفرح كالأعياد والأعراس والولائم .

وثانيهما : نشاط تعليمي تعبدي غايته التعليم والتهذيب والتربية من خلال الحياة والممارسة . كتعليم الصلاة والفروسية والرمي وغير ذلك . ص ١٨٩ .

والباحث يرى أن هذين النوعين من الأنشطة إنما هما لهدف واحد هو تعليم الإنسان وتهذيبه ، وذلك يكون بممارسته صلى الله عليه وسلم لهذا العمل ، أو

إقرار صحـابته على ذلك وكل هذا تعليم وتربية ، فما إنشـاده صلى الله عليه وسلم للشعر مع أصـحابه وترديده لأواخر الأبيات التي كانوا يقـولونها إلا إقرار منه صلى الله عليه وسلم على جواز قول الشعر وإنشاده .

وقد سبق الحديث عن مزاحـه صلى الله عليه وسلم مع أصحابه وأنه لا يقول إلا حقا ، وهذا يعني أن كل ما كان يمارسـه مع أصحابه من نشاط ترويحي بالقول أو الفعل لم يكن لمجرد التسليـة أو الترويح ، إنما كان ذلك مـرتبطا بالتربيـة والتعليم ارتباطا وثيقا .

ومن هنا فإن عـلى المدرسة أن توجه النشـاط توجيـها تربويا تعليمـيا سليـما ، خاليا من كل ما يتنافى مع العملية التربوية الإسلامية في أصولها وأهدافها .

وقد ذكر النـحلاوي في كتابه أصول الـتربية الإسلاميـة (١٤٠٣هـ) جملة من الشـروط التي توجه النشـاط وتحقق الفـائدة التربوية المنـشودة من ورائه ، فـقال ماخلاصته :

١- أن يكون خاليا من كل ما فيه خروج على الأخلاق والمبادىء الإسلامية .

٢- أن يكون نشاطا واقعيا غير مصطنع له ارتباط وثيق بالتربية والتعليم .

٣- أن يحقق الغاية المثلى للتربية الإسلامية وهو إيجاد المسلم الصالح .

٤- أن يقوِّم النشاط بما يحقق من الأهداف والغايات والآثار التربوية الإسلامية ، لا بما يحوزه الطالب من المكافآت والجوائز.

٥- أن يكون فيه المعلم عاملا إيجابيا فعالا لكونه القدوة لطلابه . ص١٩٠ - ١٩١ .

إن الحصة الدراسية المخصصة لكل مادة لا يمكن أن تفي بغرض بناء شخصية المتعلم ، وذلك لضيق وقتها من جـانب ، وعدم وجود المجال لممارسة بعض المناشط المتعلقة بالمادة من جانب آخر .

ولهذا كان لا بد من إيجاد وقت آخر غير وقت الحصص الدراسية لممارسة هذه المناشط ، كما أنه لا بد من توفر الإمكانيات التي لا يمكن أن يقوم النشاط إلا عليها ، سواء كان ذلك داخل المدرسة أو خارجها .

إن الأنشطة هي الميدان الرحب لتطبيق ما يقوله المعلم وما يحتويه المنهج ، ولكل مادة من المواد التي تقدم المعلومات للطلاب نشاطا خاصا تطبق فيه ما تُعلِّمه، مع صلة هذا النشاط الذي يصاحب المادة بغيره من الأنشطة، إذ أن جميع الأنشطة التي تقدم للطالب داخل المدرسة أوخارجها ما هي إلا وحدة واحدة تشكل في نهاية المطاف شخصية المتعلم .

على أن هذه المناشط لا بد أن تتصل بالمنهج الذي يدرسه الطالب ، لتنمي خبرته تجاه ما تعلمه ، ولربما ساهمت بدور كبير في تسهيل كثير من المعلومات النظرية التي تلقاها الطالب عن طريق المنهج داخل حجرة الدراسة ، وخاصة في المواد العلمية ، كما أنها تعطي مجالا واسعا لتحويل ما يتعلمه الطالب في المدرسة إلى تطبيق عمل وخاصة في العلوم الشرعية .

فقد يتحدث معلم التربية الإسلامية عن الإيثار في حصة كاملة ، لكن ربما بقيت هذه الكلمات مجردة حتى يرى الطالب في أستاذة هذا السلوك في أحد مناشط جماعة التوعية الإسلامية ، الأمر الذي يزيده قناعة أن ما يتعلمه إنما هو للعمل والتطبيق ، فيمارس تطبيق هذا المبدأ الإسلامي العظيم مع إخوانه وبذلك يُعَزز هذا المبدأ في شخصية الطالب عن طريق النشاط المدرسي ويتربي عليه من خلال العمل و الممارسه .

كما أن هذه الأنشطة تسهم وبدور كبير في طرد السآمة والملل الذي قد يصاحب العملية التعليمية التي يتلقاها الطالب ، كما أنها تسهم وبدور كبير في تعزيز كثير من السلوكيات الإيجابية والتنفير من السلوكيات غير الإيجابية التي

تربى عليها الطالب في حجرة الدراسة ، بالإضافة إلى أنها ميدان رحب للقضاء على وقت الفراغ الذي يمر بالطلاب حين تستغله استغلالا جيدا لبناء شخصية الطالب بناء متكاملا روحيا وعقليا وجسديا .

أما دورها في التربية الوقائية فهي :

١- تقي الطالب من الملل والسآمة ، مما يتلقاه من العلوم النظرية .

٢- تقي الطالب وقت الفراغ القاتل ، الذي يعتبر أحد المشكلات الكبرى التي تفسد الأفراد والمجتمعات .

٣- تقيه من الانطوائية والانعزال عن الناس وتربي فيه روح التعاون مع الآخرين .

٤- تقيه من الكسل والخمول حين تزرع في نفسه المنافسة الشريفة والتسابق في الخيرات مع أقرانه .

٥- تقيه من الجمود العقلي على ما يتلقاه من العلوم النظرية ، وتبعث في نفسه حس التفكير والابتكار والإبداع .

٦- تقيه من كبت قدراته وإمكاناته التي ربما فجرها النشاط وقام على صقلها وتنميتها .

على أن لكل تخصص ما يناسبه من المناشط التي تقوم بدورها في تحقيق الأهداف التربوية ، التي تشكل في نهاية المطاف برنامجا واحدا يبني شخصية المتعلم بناء سويا في جوانب حياته المختلفة ، الروحية والعقلية والجسدية والثقافية والاجتماعية ، وغير ذلك .

المدرسة ومهمتها في وقاية معتقد الطالب :

يقضي الطالب في المدرسة وقتا طويلا ، سواء كان ذلك على مستوى العام الدراسي ، أو على مستوى اليوم الدراسي ، إذ يزيد الفصل الدراسي الواحد على ثلاثة أشهر ، بمعنى أنه يقضي في المدرسة على مدار فصلين دراسيين أكثر من ستة أشهر ، أما على مستوى اليوم الدراسي فإنه يقضي في المدرسة أكثر من ست ساعات ، ومن هنا يتضح أن للمدرسة دورا كبيرا في صياغة شخصية الطالب خلال هذه الفترة ، عن طريق المعلم والمنهج والنشاط ، فإذا تظافرت هذه الجهات الثلاث وحملت رسالتها على أكمل الوجوه ، فإن التعليم يحقق مهمته التي أنشيء من أجلها .

فإذا وضعت الشروط اللازمة والضوابط المحدده والمعايير الدقيقة لاختيار المعلم ، ووجد المنهج الشامل الذي صيغ بعناية من خلال المفهوم الشامل للحياة منطلقا في أهدافه ووسائله من خلال العقيدة الإسلامية الصحيحة ، ووجد النشاط الهادف الذي يعزز دور المعلم والمنهج حققت المجتمعات المسلمة من وراء ذلك خيرا كثيرا ، سيما وأن الأمة المسلمة قد جربت تبعيتها للغرب في كل شيء حتى في مناهج التعليم ، حين استقدمت مناهجه وخاصة في العلوم الإنسانية والاجتماعية ، واستوردت أنظمته وقوانينه دون تمحيص أو تدقيق ، فلم تزدد بذلك إلا انتكاسا وانحطاطا ، وضاعت الجهود ولم تتحقق الثمرة ، لأن الذي يطلب الشفاء من السقيم لايفلح ، ولأن الرجل العَشَنَّق - وهو العملاق المفرط في الطول - الذي يلبس ثوب قزم يجر ألسنة الناس لتسخر منه حين ترى الثوب الذي لبسه قصيرا تبدو على أثر ذلك سوأته .

يقول عبدالمعطي في مقدمة ترجمته لكتاب أمة معرضة للخطر (١٤٠٦هـ): ((ولا خلاف في أن التربية نبت لا يصلح إلا في بيئته ، ولا ينمو إلا من ريِّ أهله ، ولا قيمة له إذا فقد جذوره الأصيلة)) ص ١٣ .

ومن هنا فإن من أولويات مهام المدرسة العناية بمعتقد الطالب من ناحيتين :

الناحية الأولى : زرع العقيدة في النفوس ٠

الناحية الثانية : وقايتها من التفلت والانحراف ٠

وهاتان الناحيتان ليستا مهمة المدرسة فحسب ، بل هي مهمة وسائط التربية كلها البيت ، والمدرسة ، والمسجد ، ووسائل الإعلام ، وغير ذلك ، ولكن الحديث هنا مقصور على المدرسة ومهمتها في تأسيس العقيدة في نفوس الناشئة ، وتفصيل ذلك كما يلي :

الناحية الأولى : زرع العقيدة الإسلامية الصحيحة في نفوس الناشئة :

ولتأصيل هذه القضية لا بد من العودة إلى المدرسة الأولى التي تخرج منها خير جيل عرفته البشرية في تاريخها الطويل ، حيث المعلم والمنهج ، فأما المعلم فهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما المنهج فهو ما ينزل من الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكتاب والسنة ٠

لقد كانت عناية القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بادىء ذي بدء بغرس العقيدة في النفوس ، وكانت عناية رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمعتقد قبل عنايته بالأحكام ٠

لقد كانت أول الآيات نزولا تتعلق بالعقيدة ، بل لقد ظل الوحي المقدس يؤسس العقيدة في نفوس الناس ثلاثة عشر عاما في مكة حيث المواجهة العنيفة بين الناس وبين الشهوات من جهة ، وبين الناس وبين الظلم والطغيان والإيذاء من جهة ثانية ٠

إن الناس قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم قد ألفوا الشهوات التي أصبحت جزءا لا يتجزأ من حياتهم ، يأكلون الميتة ، ويشربون الدم المسفوح ، ويتعاطون

الخمر ، ويعاقرون الزنا ، ويعبدون الأصنام ، فكان انتشالهم من هذا الوضع المزري لابد أن تسبقه العقيدة فتمهد له .

كما أن في خروج هذا الدين الجديد تحد كبير لتلك المعتقدات التي ورثها الأبناء عن الآباء ، إذ من الصعب أن يتخلى الإنسان عن عادة أو عبادة ورثها عن أبيه وجده ، فيتركها إلى دين غيره ، مهما كانت باطلة ضالة ، وقد كان في حسبان رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قريشا ستثور ثائرتها حين يقال لها : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وأنها ستخرج عن شعورها حين يقال للناس : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ سورة المؤمنون آية ٢٣ .

وفعلا وقع ماكان في الحسبان، إذ قال المشركون حين قيل لهم لا إله إلا الله : ﴿ أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب * وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد * ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق ﴾ سورة ص آية ٥ ـ ٧ .

وعلى أثر ذلك جند الطغيان كل ما ديه من عدة وعتاد لمقاومة الحق ، ورمى الباطل بكل ما في جعبته من سهام هوجاء طائشة يريد من وراء ذلك قتل الرسالة ، فاستنزف قوته في صراع نتيجته لصالح الحق معروفة وأما الباطل فتبّت يداه .

فكان لابد من قوة تتغلب على الشهوات مهما كان تمكنها من النفوس ، وكان لابد من قوة تصمد أمام طوفان الباطل مهما كان انفعاله وعتوه وجبروته .. فكانت العقيدة .

روى البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) أن يوسف بن ماهك قال : إني عند عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إذ جاءها عراقي فقال لها :((أي الكفن خير ؟ قالت: ويحك وما يضرك ؟ قال يا أم المؤمنين أريني مصحفك ، قالت : لم ؟ قال : لعلي أؤلف القرآن عليه ، فإنه يقرأ غير مؤلف ، قالت : وما يضرك أية آية

قرأت قبل ، إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا لا ندع الخمر أبدا ، ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبدا ، لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم وإني لجارية ألعب : ﴿ بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴾ سورة القمر آية ٤٦ وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده ، قال فأخرجت له المصحف فأمليت عليه آي السور)) ج ٩ ص ٣٨ - ٣٩ .

إن في الحديث صورة من صور التغلب على الشهوات العارمة التي كانت متوغلة في القلوب ، شهوات الخمر والزنا ، وهاهي أم المؤمنين رضي الله عنها ، تبين أثر العقيدة في مواجهة هذه الشهوات المحببة إلى النفوس .

فقد بينت رضي الله عنها أن الذي جعل الناس يثوبون إلى الإسلام آيات من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، فلما ثابوا إلى الإسلام وأصبحوا يتصورون مواقف الآخرة وكأنهم ينظرون إليها من ستر رقيق ، نزل الحلال والحرام فكانت استجابتهم لأمر الله أعظم من أن يتصورها إنسان .

ولهذا تقول أم المؤمنين رضي الله عنها : وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده ، وقد يثور في الذهن تساؤل عن اختيارها رضي الله عنها لسورتي البقرة والنساء ، والجواب عن هذا التساؤل ، أن هاتين السورتين من أكثر سور القرآن بيانا للحلال والحرام ، فبينت أنهما ما نزلتا إلا وهي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أي وهي في عصمته صلى الله عليه وسلم .

فهاهي آيات العقيدة تنزل وهي جارية صغيرة تلعب ، وهاهي آيات الأحكام تنزل وهي كبيرة متزوجة ، ومعنى هذا أن آيات العقيدة نزلت قبل آيات الأحكام ، ولعل السر في ذلك أن استجابة العبد لأمر الله تعالى تأتي على قدر عقيدته .

ولقد كـان هذا ديدن الآيات التي نزلت في مكة ، لتزرع في النفوس المؤمنة هذه العقيدة التي يثبت معها المؤمن أمام المحن والشدائد في مواطن يعز فيها الثبات .

يقول محمد قطب في كتابه منهج التربية الإسلامية (١٤٠٩هـ) :

((والسور المكية كما قلنا لا تتناول إلا موضوع هذه العقيدة بكل ما يستلزمه الحديث فيها من تفصيلات ، فينبغي أن نعلم من ذلك أن هذا هو حجر الأساس في التربية الإسلامية كلها ، وفي الحياة الإسلامية كلها كذلك)) ج ٢ ص ٢٥ .

وهذه صورة من صور تأثير العقيدة في النفوس المؤمنة وهي تواجه الطغيان والجبروت الثائر على القيم الربانية والتوجيهات السماوية ، فهؤلاء موالي بلال كانوا يعذبونه وهو يعلو على الباطل قائلا أحد أحد ، فتتورم أنوف المجرمين ، ويهيلون عليه العذاب أشكالا وألوانا ، وقد ذكر الذهبي في السير (١٤٠٥هـ) أن بلالا كان يرد عليهم قائلا : الله ربي أحد أحد ، والله لو أعلم كلمة هي أحفظ لكم منها لقلتها)) ج ١ ص ٣٥٢، ومعناها : والله لو أعلم كلمة هي أغيض لكم منها لقلتها .

وما حدث بلال إلا صورة واحدة من عشرات الصور التي واجهت الباطل الهادر فداست عنفوانه في التراب .

فهل عقلت المدرسة سر هذا التأثير وسرعة هذه الاستجابه ، وسر هذه القوة في تركيبة الشخصية الإسلامية ، إنها العقيدة يوم تتمكن من النفوس .

وما أشبه الليلة بالبارحة فإن الشهوات التي كانت تتحكم في الجاهلية القديمة، هي اليوم أشد فتنة وأعظم أثرا ، إنها شهوات عارمة تقدم للناشئة المسلمة في صور براقة ، يتفنن المفسدون في الأرض في عرضها على الناس ، يتولى كبرها البث المباشر ، بكل ما يقدمه من فساد وانحلال في العقائد والأخلاق ، وخاصة للذين هم في سن الشباب .

إن الحصان المشؤوم الذي أقبل يحمل على ظهره معاول الهدم للعقائد والأخلاق هو البث المباشر ، وهو الخطر الداهم الذي ربما دخل إلى الغرف الخاصة للشباب والشابات ، وبه من إثارة الشهوات ما تتحرك له الحجارة .

يقول العمر في كتابه البث المباشر (١٤١٢هـ) تكمن خطورة هذا البث في تأثيره على العقائد في نقاط كثيرة تتلخص في :

١ ـ خلخلة عقيدة المسلمين والتشكيك فيها .

٢ ـ إضعاف عقيدة الولاء والبراء والحب في الله والبغض في الله .

٣ ـ تقليد النصارى في عقيدتهم ، وعاداتهم وأخلاقهم وسلوكياتهم .

٤ ـ إظهار بلاد الكفار بأنها بلاد الحرية والديمقراطية والعدالة .

٥ ـ نشر الكفر والإلحاد .

٦ ـ الدعوة إلى النصرانية . ص ٥٢ .

الزمن ، لا يزال يبذل الغالي والنفيس في سبيل إطفاء نور الله في الأرض ، مجندا كل طاقاته لإيقاف الخير المتدفق على الأفراد والمجتمعات .

ولوقاية الشبيبة المسلمة من هذه الشهوات لا بد أن يجند المعلم المسلم نفسه في أي تخصص على تثبيت العقيدة في نفوس الناشئة بالقدوة أولا ، ثم من خلال تخصصه ثانيا ، فإن المواد الدراسية وحدة واحدة ، ما يتعلمه الطالب في مادة الأحياء هو ما نص الله عليه في القرآن الكريم بقوله :﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ سورة لقمان آية ١١ .

وما يتعلمه في مادة الفيزياء هو ما نص الله عليه بقوله :﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين أنه الحق ﴾ سورة فصلت آية ٥٣ .

وزرع العقيدة في النفوس يكون بالأساليب الشرعية التي زرع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم العقيدة في نفوس أصحابه ، ومنها:

أولا : الحديث عن أسماء الله وصفاته ، وشرح معانيها للناشئة لتتربى على معاني هذه الأسماء والصفات تربية إيمانية صحيحة .

فإذا أيقن الطالب أن الله سميع عليم ، حرص ألا يتفوه بكلمة تغضب الله تعالى ، وفيها تعد لحدوده سبحانه .

وإذا أيقن أن الله علام الغيوب حرص ألا يفعل في خلوته فعلا يغضب الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

وإذا أيقن أن الله شديد العقاب حرص ألا يتعرض لعقاب الله تعالى حين يأتي ما حرم الله تعالى عليه .

وإذا أيقن أن الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات قاده الأمل في عفو الله فتاب من ذنوبه وخطاياه قبل أن يلقى ربه في العرصات .

وإذا أيقن أن الله تعالى هو الرزاق ذو القوة المتين ، لم يخف على لقمة عيش تفوته ، ولم يكن ذلك سببا في أن يتملق غيره على حساب الحق الذي يحمله .

وإذا أيقن أن الله هو الذي يحي ويميت ، وأن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها ، لم يخف على حياته مخلوقا يداهنه في دينه أو يساومه في عقيدته، لأنه حينئذ يعلم أنه لن يموت إلا حين يأذن الله تعالى بذلك ، بل يزداد يقينا أن ماأصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه .

ثانيا : الحديث عن الملائكة ومنزلتهم عند الله ، ووظائفهم التي كلفهم الله بها من أعمال في الدنيا والآخرة ، كالنفخ في روح الجنين ، والسياحة في الأرض بحثا عن حلق الذكر ومجالس العلم ، وتسجيل الحسنات والسيئات ، وقبض الأرواح ، والترحيب بالمؤمنين في الجنة ، وتعذيب الكافرين في النار إلى غير ذلك.

وما من شك أن النفوس حين تستشعر مثل هذه الأعمال تعبد الله بمقتضاها ، فإذا استشعر الإنسان أن معه ملائكة كراما كاتبين ، يحصون عليه أعماله ، ويسجلون له وعليه حسناته وسيئاته ، حرص ألا يملأ صفحته إلا بما يبيض وجهه يوم القيامة حينما تنشر الصحف وتمد السجلات ، كما أنه ينبعث في نفسه سرعة العودة إلى ربه حين يقع منه الخطأ إذا علم أن ملك السيئات لا يسجل خطيئة إلا بعد ست ساعات لعله أن يتوب ويقلع ، فإذا مرت ست ساعات ولم يتب سجلت واحدة ، إن الإنسان حين يستشعر ذلك يبادر بالتوبة حين يقع منه الذنب قبل مضي هذه المدة لئلا يقع في صفحته نكتة سوداء من جراء هذا الذنب ، وفي هذا المعنى روى الطبراني في معجمه والبيهقي في سننه من حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطىء ، فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها ، وإلا كتبت واحدة ﴾ والحديث الألباني في صحيح الجامع (١٤٠٦هـ) ج ١ ص ٤٢٢ .

وهكذا الحال في كل عمل تقوم به الملائكة ، فإن الإيمان بمقتضى هذا العمل يزرع العقيدة في الفؤاد ويهذب الخلق ، ولو تلحّف الإنسان بلحاف الغسق أو تستر بأثواب الظلام .

ثالثا : بالحديث عن الرسل الكرام ، ومواقفهم العظيمة في حمل رسالة الإسلام ، وجهادهم في سبيلها بكل شيء ، وما لقوا في سبيل ذلك من الأذى ، وكيف كانت العاقبة لهم بالنصر والتمكين ، قال الله تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ سورة غافر آية ٥١ .

رابعا: بالحديث عن الأمم السابقة وكيف أهلكها الله وعذبها يوم تمردت على أمره وأعرضت عن شرعه ، وأن سنن الله في الأمم والمجتمعات لا تتغير ولا تتبدل ،

فقد أهلك الله قوم عاد بالريح العقيم ، وأغرق قوم نوح بالطوفان ، وأخذ قوم صالح بالصيحة ، ودمر ما كان يصنع فرعون وقومه ، وجعل قرى المؤتفكات عاليها سافلها ، وأبدل أهل سبأ بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ، وجعلهم أحاديث ومزقهم في الأرض كل ممزق .

إن الحديث عن الأمم السابقة نوع من القصص القرآني الذي تشتاق الشبيبة المسلمة إلى سماعه ، وخاصة في مثل هذا السن ، على أن المعلم الناجح هو الذي يقدم مثل هذه القصص مقرونة بالدروس والعبر التي تمس حياة الطالب وواقعه .

خامسا : بالحديث عن الموت وسكراته ، وانقسام الناس في تلك الساعة إلى فريقين : فريق يثبته الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وتبشره الملائكة بالجنة ، ويرى مقعده من الجنة وهو بين أهله ، وفريق فاجر يضله الله تعالى عن الحق في ساعة الصفر فيموت على غير الهداية ، ليرى مقعده من النار وهو بين أهله .

إن عرض مثل هذه الصور لحال الناس ساعة مفارقة الحياة يزرع العقيدة في النفوس ، سيما وأن الإنسان يعتقد اعتقادا لا مجال فيه للشك أو الظنون أنه سيموت ، وأن ساعة مفارقته لهذه الدار إما أن تكون على طاعة الله أو معصيته .

إن الإنسان حين يدرك ذلك يخشى على نفسه في ساعة الموت أن يكون من الضالين فيبادر إلى امتثال أمر الله تعالى تحسبا لمثل تلك الساعة التي تشيب فيها النواصي ، ويندم فيها العاصي ، ويبكي فيها كل قلب قاسي .

سادسا : بالحديث عن بعض مواقف يوم القيامة كزلزلة الساعة ، وتطاير الصحف ، وشهود الأعضاء والجوارح على صاحبها بما فعل في الدنيا ، وما يصيب الناس في أرض المحشر من الكرب العظيم حين يحشرون حفاة عراة غرلا بهما ، ونزول رب العالمين نزولا يليق بجلاله لفصل القضاء ، ووزن الناس والأعمال ، والورود على الحوض ، والمرور على الصراط وغير ذلك .

سابعا : بالحديث عن الجنة وما أعد الله لأهلها من النعيم الذي لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وقد ذكر القرآن الكريم من هذا النعيم طرفا ، وذكرت السنة النبوية المطهرة من ذلك شيئا كثيرا ، وقد جمع بعض أهل العلم في ذلك مصنفات منها حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم رحمه الله تعالى .

ثامنا : بالحديث عن النار ، وما أعد الله لأهلها من العذاب السرمدي المقيم ، وفي سورة الواقعة صورة من صور العذاب الذي أعده الله لأهل النار ، في قوله تعالى :﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * في سموم وحميم * وظل من يحموم * لا بارد ولا كريم ﴾ سورة الواقعة آية ٤١ ـ ٤٤ .

وفيها أيضا : ﴿ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون * لآكلون من شجر من زقوم * فمالئون منه البطون * فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم * هذا نزلهم يوم الدين ﴾ سورة الواقعة ٥١ ـ ٥٦ .

ومن هنا فإن المدرسة بجوانبها الثلاث المعلم والمنهج والنشاط مسئولة عن غرس العقيدة في نفوس الناشئة بمثل هذه الأساليب وغيرها من الأساليب التربوية كالقدوة والأمر والنهي والترغيب والترهيب والقصة وضرب المثل والحوار والإقناع والأحداث وغيرها ، لتتمكن من النفوس فتعلو على الشهوات مهما كان بريقها ، وتستعلي على الباطل مهما كانت سطوته .

الناحية الثانية : حماية هذه العقيدة من التفلت والانحراف :

فإذا ما زرعت العقيدة في النفوس فإن المحافظة عليها بعد ذلك من أولويات المربي ، عن طريق تعاهد النفوس بالتذكير ما بين الفينة والأخرى بما يثبت هذه العقيدة ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ظل يتعاهد عقائد أصحابه بالتربية حتى في المدينة النبوية ، إذ العقيدة هي المحرك العظيم نحو فعل الخيرات والتسابق فيها ، والبعد عن السيئات والحذر منها .

وإذا كانت العقيدة هي القوة المحركة الفاعلة في حياة الإنسان المسلم فإن المحافظة عليها محافظة على التوجه والعمل والإبداع والإنتاج والفلاح والتوفيق والهداية في الدنيا والآخرة ، وقد تفقد العقيدة تأثيرها حين تتعلق القلوب بغير الله تعالى الذي يملك ما في السموات وما في الأرض ، ويحيي ويميت ، ويصرف الكون ويدبر الأمر ، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، الذي لا أحد يرد قضاءه ولا يعقب على حكمة ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لو كان كيف كان يكون .

ومن هنا كان القرآن الكريم يربط قلوب الناس بالله تعالى ربطا مباشرا لئلا تنصرف إلى غيره ، ومن ذلك ما ورد في سورة القصص من قوله تعالى :﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون﴾ الآيات ٧١ ـ ٧٢ .

ومن ذلك قوله تعالى في سورة الطور :﴿ أفرأيتم ما تمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون * نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين * على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون * ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون * أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون * لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون * إنا لمغرمون * بل نحن محرومون * أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون * أفرأيتم النار التي تورون * أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون * نحن جعلنها تذكرة ومتاعا للمقوين * فسبح باسم ربك العظيم﴾ الآيات ٥٨ ـ ٧٤ .

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ﴾ سورة الملك آية ٣٠ .

وكان رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يحـرص على ربط قلوب الناس بالله رب العالمين ، لئلا تتعلق بمخلوق مهما كانت منزلته ، لأن الذي يملك كل شيء هو الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، فلا تتعلق القلوب بملك مقرب ولا نبي مرسل ، ولا نجم ولا قمر ولا شمس ، ولا حي ولا ميت .

كمـا أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم ظل يتفقـد هذه العقـيدة في قلوب أصحـابه ويوجد لهم الـبيئـة الاجـتـماعـية المشحـونة بالإيمان والقرآن ، فـكان الحرم ملتقى لـهم بربهم عز وجل ، يعـرضون عليه حـاجاتهم ، ويسـألونه الثبـات والنصر والتمكين ، فلما منعـهم المشركون من إظهار إيمانهم ، كـانوا يلتقون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ، بل كانوا أحيانا يخرجون إلى البراري والشعاب يذكرون الله تعالى ويتعلمون دينه بعيدا عن أذى المشركين .

كل ذلك تربية للقلوب عـلى العقيدة الصـحيحـة ، وتعاهدها على الدوام من أن تتـعلق بغـير الله تـعالى ، كي لا تموت هذه الـقوة الفـاعلة في صـدورهم ، حين تتلطخ بالشهوات .

وسوف يسوق الباحث جملة من النصوص الشـرعية التي تصون العقيدة من أن يتعلق صاحبها بغير الله تعالى ، فمن ذلك :

! قول الله تعـالى :﴿ قل أفرأيتم ما تدعـون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشـفات ضره أو أرادني برحمـة هل هن ممسكات رحمته قل حـسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾ سورة الزمر آية٣٨ .

إن الآية الكريمة تشـير إلى عجـز الآلهة التي تدعى من دون الله ويصـرف لها شيء من العبـادة مع الله تعالى أنها أحـقر من أن تدفع ضرا أو تمسك رحـمة أرادها الله بعبده .

وتحقيقا لهذا المعنى حرم الإسلام تعليق التمائم والحلق والخيوط والودع إذا اعتقد صاحبها أنها تجلب نفعا أو تدفع ضرا ، وحرم الاعتقاد في النجوم والكواكب، وحذر أشد تحذير من إتيان السحرة والمشعوذين ، وحذر من التعلق بالدنيا تعلقا يلهيها عن الآخرة ، إلى غير ذلك مما يشغل القلب ويصرفه عن ربه عز وجل . ومن أمثلة ذلك :

* روى الترمذي في سننه (د ـ ت) عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما خرج إلى حنين فمر بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط ، يعلقون عليها أسلحتهم ، قالوا يا رسول الله : اجعل لنا ذات أواط كما لهم ذات أنواط ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : سبحان الله ! هذا كما قال قوم موسى : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم ﴾ ج ٤ ص ٤١٣ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٤٠٨هـ) ج ٢ ص ٢٣٥ .

* روى الإمام مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ لعن الله من ذبح لغير الله ... الحديث ﴾ ج ١٣ ص ١٥٠ .

* روى البخاري من حديث عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله ﴾ ج ٦ ص ٤٧٨ .

* روى أبو داود في سننه (١٤٠٩هـ) من حديث عبد الله بن الشخير قال انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا : أنت سيدنا ، فقال : ﴿ السيد الله تبارك وتعالى ، قلنا : وأفضلنا فضلا ، وأعظمنا طولا ، فقال : قولوا بقولكم أو ببعض قولكم لا يستجرينكم الشيطان ﴾ ج ٢ ص ٦٦٩-٦٧٠ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٤٠٩هـ) ج ٣ص ٩١٢.

* وفي صحيح مسلم شرح النووي (د ـ ت) أن رجلا خطب بين يديه فقال : ((من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى ، فقال صلى الله علي وسلم :﴿ بئس الخطيب أنت! قل ومن يعصي الله ورسوله فقد غوى ﴾ ج٦ص ٤٠٧ .

* وقد روى النسائي في سننه (١٤٠٧هـ) من حديث قتيلة ـ امرأة من جهينة ـ أن يهوديا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :((إنكم تنددون ، وإنكم تشركون ، تقولون : ما شاء الله وشئت ، وتقولون والكعبة ، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم : إذا أرادوا لأن يحلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة ، ويقولوا ما شاء الله ثم شئت)) ج ٧ ص ٦، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن النسائي (١٤٠٩هـ) ج ٢ ص ٧٩٩ ـ ٨٠٠ .

* روى مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث أم المؤمنين صفية رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :﴿ من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوما ﴾ ج ١٤ ص ٤٧٨ .

* روى البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) ومسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث زيد بن خالد رضي الله عنه قال :((صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال :﴿ هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب ﴾ البخاري ج ٢ ص ٣٣٣ ومسلم ج ٢ ص ٤١٩ ـ ٤٢٠ .

* روى البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) ومسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه في قدوم أبي

من البحرين ، وتعرض الصحابة له بعد صلاة الفجر ، فتبسم الرسول صلى الله عليه وسلم حين رآهم وقال :﴿ أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء ؟ قالوا : أجل يا رسول الله ، قال فأبشروا ، وأملوا ما يسركم ، فوالله للفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا ، كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم ﴾ البخاري ج ٦ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ومسلم ج ١٨ ص ٣٠٧ .

إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة التي في الكتاب والسنة التي تحذر من بعض التصرفات في الأقوال والأفعال صيانة للقلوب من أن تتعلق بغير الله من المخلوقات في جلب نفع أو دفع ضر ، أو حين تتعلق بعرض زائل يشغلها عن مهمتها ، ويجرها إلى الأرض فتفقد روحانية السماء .

ولهذا عقد الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب التوحيد (١٤٠٦هـ) بابا أسماه : باب حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد وسد كل طريق يوصل إلى الشرك ، وساق فيه جملة من النصوص التي تحذر من العبادة عند القبور ، أو اتخاذها أعيادا ، وكل ذلك وقاية للعقيدة من التفلت ، وصيانة للتوحيد من الانحراف . ص ٤٠ .

ومن خلال سرد هذه النصوص يظهر مدى عناية الإسلام بالعقيدة غرسا ووقاية ، الأمر الذي يجعل من المدرسة وسيطا تربويا يولي قضية العقيدة عناية فائقة عن طريق المعلم والمنهج والنشاط ، إسهاما منها في ربط قلوب الناشئة بالله تعالى ، ليكون في تنشئتها على العقيدة الصحيحة قوة إيمانية هائلة تواجه أمواج الشهوات الهادرة عى الأمة ، وتتغلب على كل قوة عسكرية أو فكرية تريد صرفها عن دينها مهما كانت .

المدرسة ومهمتها في وقاية أخلاق الطالب :

يقول الميداني في الأخلاق الإسلامية (١٤١٣هـ) :((الخلق صفة مستقرة في النفس - فطرية أو مكتسبة - ذات آثار في السلوك محمودة أو مذمومة)) ص ١٠

إذن فعلى تعريف الميداني يمكن أن تقسم الأخلاق إلى قسمين :

القسم الأول : أخلاق فطر الله تعالى عليها الإنسان حتى وإن كان كافرا .

القسم الثاني : أخلاق مكتسبة يتعلمها الإنسان ويتخلق بها عن طريق التعود الذي تقوم به التربية في الأسرة أو في المدرسة أو من خلال احتكاك الفرد بالمجتمع الذي يعيش فيه .

وقد تكون الأخلاق محمودة أو مذمومة حسب التربية التي يتلقاها الإنسان، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أكمل الخلق منهجا ، وأحسنهم أخلاقا ، يسأل ربه تعالى أن يهديه لأحسن الأخلاق ، وأن يصرف عنه سيئها ، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه (شرح النووي د - ت) أنه صلى الله عليه وسلم كان يدعو ربه فيقول :﴿ واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت ﴾ ج ٦ ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

يقول شادي في كتابه تأملات في مدراج السالكين (١٤٠٦هـ) :

((اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن ركب في الإنسان والحيوان على طبيعة واحدة ، محمولة على قوتين : غضبية وشهوية ، وهاتان القوتان هما الحاملتان لأخلاق الناس وصفاتهم ، ومركوزتان في جبلة كل حيوان ، فبقوة الشهوة يجلب المنافع إلى نفسه ، شهوة الفم والفرج ، أي الحياة والتناسل ، وبقوة الغضب يدفع المضار عنها ، فهي تابعة للأولى ، وإن استقلت في كيانها عنها ،

وبتدافع الناس في المجتمع تغالبـهم هاتان القوتان ، بجلب المنافع ودفع المضار ، فهي ما يسمى بالأخلاق والصفات التي منها الموروث والكسبي)) ص ٩ .

ولا غرابة في هذا التقسيم فقد أشار إليه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأشج عبد القيس :﴿ إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله الحلم والأناة ﴾ ج ١ ص ٣٠٣ ، قال النووي في شرح صحيح مسلم (د ـ ت) :((ولا يخالف هذا ما جاء في مسند أبي يعلى وغيره أنه لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأشج : إن فيك خصلتين الحديث ، قال يا رسول الله : كانا فيَّ أم حدثا ؟ قال بل قديم ، قال قلت : الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله ﴾ ج ١ ص ٣٠٣ .

وإذا أردنا أن نحكم على خلق ما فإنا ننظر إلى آثاره في سلوك الإنسان إن خيرا وإن شرا ، وفي هذا المعنى يقول الميداني في الأخلاق الإسلامية (١٤١٣هـ): ((ونستطيع أن نقيس مستوى الخلق النفسي عن طريق قياس آثاره في سلوك الإنسان : فالصفة الخلقية المستقرة في النفس إذا كانت حميدة كانت آثارها حميدة ، وإذا كانت ذميمة كانت آثارها ذميمة ، وعلى قدر قيمة الخلق في النفس تكون ـ بحسب العادة ـ آثاره في السلوك ، إلا أن توجد أسباب معوقة أو صوارف صادة عن ظهور آثار الخلق في السلوك)) ص ١٠ .

الأخلاق بنوعيها ضرورة لكل مجتمع :

تقاس المجتمعات وتوزن بقدر ما معها من الخلاق الكريمة والصفات الجميلة ، وبقدر ما تنحدر الأخلاق بقدر ما تنحدر المجتمعات ، ويسودها الفوضى والاضطراب ، وكم من أمم دالت ، وعروش زالت ، يوم فقدت مكارم الأخلاق ، فغدت أثرا بعد عين ، ولهذا قال الشاعر مؤكدا هذا المعنى :

فإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

يقول الميداني في الأخلاق الإسلامية (١٤١٣هـ) :((إن أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية لا يستطيع أفراده أن يعيشوا متفاهمين متعاونين سعداء ما لم تربط بينهم روابط متينة من الأخلاق الكريمة ، ولو افترضنا احتمالا أنه قام مجتمع من المجتمعات على أساس تبادل المنافع المادية فقط ، من غير أن يكون وراء ذلك غرض أسمى فإنه لا بد لسلامة هذا المجتمع من خُلُقَيِّ الثقة والأمانة على أقل التقادير)) ص ٣٣ .

إن المتأمل في كلام الميداني يرى أن قيام أي مجتمع في غياب الأخلاق يكون أمرا مستحيلا ، وعلى فرض أنه قام فأي حياة يعيشها الناس في مجتمع يكذب ويغش ويخدع ويخون ويغتاب ويرائي ويظلم ويفجر ويحتكر ويحتال ويتتبع العورات ويتلمس العيوب ؟ •

إن الأخلاق ضرورة ملحة لقيام كل مجتمع ، حتى في المجتمعات الكافرة التي لا تؤمن بالله واليوم الآخر ، فإنها لا يمكن أن تقوم بلا أخلاق ، ولهذا قد نجد أن الأمم الكافرة تصدق وتفي بالعهد وتتفنن في حسن الخلق ، إلى غير ذلك ، والسبب في هذا أن المصلحة تقتضي ذلك ، وأن تبادل المنافع المادية لا يمكن أن يكون إلا في وجودها ، ولكن المنفعة حين تغيب أو لا تتحقق يتخلى الكافر عن أبسط صور الأخلاق والفضائل •

إن الأخلاق النفعية التي يتعامل بها الكفار بعضهم مع بعض أو حتى مع غيرهم ، ربما أثارت بعض المسلمين لتمجيدهم والثناء عليهم ، في الوقت الذي يتنقص فيه المسلمين جميعا لأن بعضهم يكذب ويغش ويظلم ولا يفي بالعهد •

وإن كان لا يليق بالمسلم أن يفعل هذه الأخلاقيات المذمومة ، إلا أن تنقص المسلمين جميعا بهذه الصورة لا يليق ، كما أن الانبهار بالأخلاق التي يعيشها

الكفار أمر لا يليق بالمسلم أيضا ، وذلك لأن تلك الأخلاقيات إنما يعمل بها للمصلحة ليس إلا ، وفي حدود ضيقة جدا يتربى عليها الكافر تربية وطنية تعده وتخرجه مواطنا صالحا ليس إلا .

يقول محمد قطب في كتابه الإسلام كبديل عن الأفكار والعقائد المستوردة (١٤١٣هـ) عن هذه الأخلاق التي يتعامل بها الكفار ما خلاصته : هناك فرق بين الإنسان الصالح وبين المواطن الصالح ، فالتربية الغربية تربي أتباعها على أن يكونوا مواطنين صالحين ، فها هي التربية الانكليزية قبل الحرب العالمية الثانية كانت أنموذجا عاليا من نماذج التربية الأرضية ، إذ تخرج إنسانا متوازنا ، مهذبا ، مؤدبا ، صادقا ، أمينا ، لا يغش ، ولا يخدع ، ولا يغتاب ، ولا ينم ، ولكننا حين نمعن النظر فيها نجد أن هذه التربية تدعو إلى هذه الأخلاق المحلية التي يمارسها الناس هناك تقديرا لهذا الوثن الذي يسمى بالجزر البريطانية ، فإذا ما خرج عن هذه الجزر اختفت معالم المواطن الانكليزي لأنه لم يعد في بلده الذي يعبده ، ووثنه الذي يعيش من أجله ، مما يجعله يخرج عن هذه الأخلاق ويتحول إلى وحش كاسر ، يسفك الدماء ويمتص الأموال ، ويعبث بخيرات الناس لصالح الوثن المعبود ، وإليك نموذجين من تلك النماذج التي تعنى بإخراج المواطن الصالح :

١ـ في حرب الانكليز مع الهنود حينما احتلت بريطانيا الهند ، أراد أحد الجنود البريطانيين أن يصعد على ظهر حصانه فلم يستطع ، فأمر الهندي تحت قهر السلاح أن يحني ظهره ليضع رجله على رقبته فيصعد .

٢ـ حينما قرر الألمان الانسحاب من جزيرة طبرق التي احتلوها في عام ١٩٤٣م أخذوا يزرعون الأرض بالألغام ، فلما أراد الانكليز دخولها ، كان عليهم أن يطهروا الأرض من الألغام قبل ذلك ، وكانت الدول في الغالب إذا أرادت أن تفعل ذلك تنشر الحمير والجمال والدواب فيها فتتفجر بها الألغام فتطهرها ، ولكن

الانكليز نشروا بدل الحمير والجمال والدواب الأرواح البشرية البريئة من الهنود ، إذ حشروا إلى مكان الألغام فيلقا بأكمله تحت تهديد السلاح ، وقال قائلهم حين استولى على المدينة بسخرية متناهية : لقد خسرنا بعض الخسائر منها فناء الفيلق الهندي عن آخره .

ولا غرابة أن تتصرف بريطانيا مثل هذا التصرف - وإن كانت في تلك الفترة تعتبر تربيتها بالنسبة لغيرها من بلاد أوروبا أفضل تربية أرضية - لأن هذا لون من ألوان التربية الوطنية التي تعد المواطن الصالح ، أما الإسلام فإنه يسعى إلى تكوين الإنسان الصالح الذي يعتبر مواطنا صالحا لأن الذي يستطيع الأكثر يستطيع الأقل ، فالمسلم إنسان صالح يحترم الإنسان من حيث هو إنسان ، ويحترم الحق لأنه حق ، دون التفات إلى جنس أو لون أو لغة . ص ٦٤ .

إن الأخلاق ضرورية لإقامة أي مجتمع ، حتى وإن كانت للمصلحة ، فإنها ما دامت موجودة فإنها تثمر تعاونا وتكاتفا بين أفراد المجتمع ، وهذا ما يمكن وصف المجتمعات الكافرة عموما به .

كما أن الأخلاق المذمومة سلاح يستخدمه المفسدون في الأرض لتنفيذ مآربهم التي يخططون لها ويطمحون فيها ، سواء كان هؤلاء المفسدون في الأرض دولا تسعى للسيطرة ، أو أفرادا يسعون إلى المكاسب التي يحلمون بها .

ورد في بروتوكولات حكماء صهيون (د - ت) ترجمة التونسي في البروتوكول الأول - وقد سبقت الإشارة إليه - أن اليهود يعلنون صراحة أنهم يتخلون عن الأخلاق من أجل المصالح ، ومما ورد في هذا البروتوكول :((إن الغاية تبرر الوسيلة ، وعلينا - ونحن نضع خططنا - ألا نلتفت إلى ما هو خير وأخلاقي بقدر ما نلتفت إلى ما هو ضروري ومفيد)) ص ١٥٧ .

وورد في البروتوكول الثاني :((لا تتصوروا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء ، ولاحظوا هنا أن نجاح دارون darwin وماركس marx ونيتشه niwtshe قد رتبناه من قبل ، والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي (غير اليهودي) سيكون واضحا لنا على التأكيد)) ص ١٦٦ ١٦٧ .

وورد في البروتوكول الرابع عشر :((وقد نشرنا في كل الدول الكبرى ذوات الزعامة أدبا مريضا قذرا يغثي النفوس ، وسنستمر فترة قصيرة بعد الاعتراف بحكمنا على تشجيع سيطرة مثل هذا الأدب ، كي يشير بوضوح إلى اختلافه عن التعاليم التي سنصدرها من موقفنا المحمود ، وسيقوم علماؤنا الذين ربوا لغرض قيادة الأميين بإلقاء خطب ، ورسم خطط ، وتسويد مذرات ، متوسلين بذلك إلى أن تؤثر على عقول الرجال وتجذبها نحو تلك المعرفة ، وتلك الأفكار التي تلائمنا)) ص ٢٣١ .

الأخلاق في التربية الإسلامية :

تسعى التربية الإسلامية إلى تهذيب أخلاق المسلم باعتبار ذلك دينا يتقرب به العبد إلى ربه تعالى ، إذ أن معظم هذه الأخلاقيات التي تسعى إلى غرسها التربية الإسلامية في نفوس المسلمين مرتبطة ارتباطا وثيقا بالشريعة الإسلامية في أوامرها ونواهيها .

وما الأوامر والنواهي في كتاب الله تعالى وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وإن لم تكن صريحة في الدعوة إلى الأخلاق إلا دليل على عناية الإسلام بالأخلاق ، فإن كل أمر أو نهي يقتضي خلقا حميدا يجعله الإسلام دينا يؤجر العبد عليه ، ويعاقب حين يخالفه أو يتمرد عليه .

لقد تساءل الكفار في الجاهلية عن رسول الله صلى الله وسلم وعن دينه الذي يدعو إليه ، ما حقيقته ؟ ولأي شيئ يدعو ؟ وبماذا يأمر ؟ .

فكان الجواب في إحدى الآيات التي نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ﴾ سورة النحل آية ٩٠ .

وحين سمع أبو ذر رضي الله عنه أخبار النبي الذي بعث في مكة يدعو الناس إلى دين جديد ، قال لأخيه كما روى ذلك البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) ومسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) : ((اركب إلى هذا الوادي فاسمع إلى قوله ، فرجع فقال : رأيته يدعو إلى مكارم الأخلاق)) البخاري ج ٧ ص ١٧٣ ومسلم ج ١٦ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ .

على أن الدعوة إلى الأخلاق بهذا المسمى قد جاءت في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم في عشرات المواضع تارة بالحث عليها إجمالا وتارة بالدعوة التفصيلية لبعض جزئياتها ، سواء كانت هذه الأخلاق فردية أو جماعية ، ظاهرة على الجوارح أو باطنة في القلب ، أقوالا كانت أو أفعالا متعلقة بالله تعالى ، أو متعلقة بالإنسان نفسه ، أو متعلقة بغيره مسلمين كانوا أو كفارا ، آدميين كانوا أو بهائم وعجماوات .

فمما ورد به الأمر في كتاب الله تعالى قوله سبحانه عن نبيه صلى الله عليه وسلم :﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ سورة القلم آية ٤

ثم إن القرآن الكريم يطالب كل مسلم أن يكون قدوته في الأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول الله تعالى :﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ سورة الأحزاب آية ٢١ .

ذلك أن الذي يرجو الله واليوم الآخر يجعل من رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة له في أقواله وأفعاله ، فإذا ما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر كان من أسرع الناس إلى تنفيذه ، وإذا ما نهى عن شيئ كان من أبعد الناس عن مقارفته والوقوع فيه .

وقد ورد في السنة الدعوة إلى مكارم الأخلاق تارة بأقواله صلى الله عليه وسلم وتارة بأفعاله ، وكان ثناؤه صلى الله عليه وسلم على أهل الخلق الحسن من الناس نوع من الدعوة إلى مكارم الأخلاق وتربية الناس عليها ، بل لقد عدَّ صلى الله عليه وسلم أحسن الناس أخلاقا أقربهم منه منزلا يوم القيامة ، فقال كما روى ذلك البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) ومسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : ﴿ لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا ، وكان يقول : إن خياركم أحاسنكم أخلاقا ﴾ ج ١٠ ص ٤٥٦ ، ج ١٥ ص ٨٥ .

وقد روى الترمذي في سننه (د ـ ت) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :((ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق ، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة ﴾ ج ٤ ص ٤١٩، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٤٠٨هـ) ج ٢ ص١٩٤ .

وأمر بعض صحابته إلى جانب تقوى الله تعالى بحسن الخلق ، فقد روى الترمذي في سننه (د ـ ت) من حديث أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن﴾ ج ٤ ص٣١٢ ـ ٣١٣ ، والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٠٦هـ) ج ١ ص٨١ .

إلى جانب هذا العموم في الدعوة إلى حسن الخلق فقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الأخلاق على وجه التفصيل ، ومدح أصحابها ووعد بالأجر العظيم والثواب الجزيل لأهلها ، كالصدق ، والأمانة ، والعفة ، والبر ، والعدل ، والوفاء بالعهد ، وإغاثة الملهوف ، ومساعدة المحتاج ، وإكرام الضيف . وغيرها كثير .

وحذر من الكذب ، والخيانة ، والزور ، والبهتان ، والظلم ، والجشع ، والغيبة ، والنميمة ، والتجسس ، والفجور ، والزنا . وغيرها كثير .

ولا يستطيع أحد أن يحصر ما دعا إليه الإسلام من الأخلاق الفاضلة لكثرتها، ولن يستطيع كذلك حصر ما حذر منه الإسلام من الأخلاق السافلة لكثرتها ، وذلك لأن ما من أمر أو نهي أو مثل أو قصة أو ترغيب أو ترهيب أو حدث إلا والإسلام يريد من وراء ذلك دعوة الناس إلى مكارم الأخلاق ، وتحذيرهم من رذائلها تهذيبا للنفس المؤمنة ، وحملا لها على الخير .

على أن هذه الأخلاق التي يربي عليها القرآن والسنة المؤمن ليست أخلاقا وطنية يمارسها المسلم داخل حدود وطنه ، أو مع طائفة من الناس ، إنما هي أخلاق منبعها الإيمان بالله الذي يراقب العبد ويطلع على أحواله فوق أي أرض وتحت أي سماء ، يتربى عليها المسلم حتى مع ألد أعدائه وهم الكفار ، ولم تكن هذه الأخلاق يوما من الآيام مجرد شعارات براقة ترفع ولا ترى النور ، أو تنظر للناس ولا تجد طريقها إلى أرض الواقع .

فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزور جيرانه من اليهود ويسأل عن حالهم ، فقد روى البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ((كان غلام يهودي يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فمرض ، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده ، فقعد عند رأسه فقال له : أسلم ، فنظر إلى أبيه وهو عنده ، فقال له : أطع أبا القاسم صلى الله عليه وسلم /فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول :﴿ الحمد لله الذي أنقذه من النار ﴾ ج ٣ ص ٢١٩ .

وكان يدعو أصحابه إلى عدم إيذاء المعاهد منهم والذمي والمستأمن ، فقد روى البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) من حديث عبد الله بن عمرو

رضي اللـه عنـه قـال : قـال رسـول الله صلـى الله عليـه وسلـم : ﴿ من قـتل نفسا معـاهدا لم يرح رائحة الجنـة ، وإن ريحها ليوجد من مـسيرة أربعين عامـا ﴾ ج ١٢ص ٢٥٩ .

وكان إذا أرسل جـيشا أمـرهم باحتـرام المرأة العجوز والشـيخ الكبيـر والرأفة بالأطفـال والعجـزة ، ولا يحمل إلى من يشـهر السـلاح في وجوه المسلمـين ، وقد روى مـسلم في صحـيحـه (شـرح النووي د ـ ت) ((أن أمرأة وجـدت في بعض مغـازي رسول الله صلى الله عـليه وسلم مقـتولة فـأنكر رسول الله صلى اللـه عليه وسلم قتل النسـاء والصبيان)) ج ١٢ص ٢٩٢ .

بل إن القرآن الكريم يأمر بالعدل حتى مع الكفار في الأقوال والأفعال ، يقول تعالى مخاطبا عبـاده المؤمنين :﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ سورة المائدة آية ٨ .

وفي قـصة خليـفة المسلمين في عـهده على بـن أبي طالب رضي الله عنه مع اليهـودي ما يؤكـد عظمة الأخـلاق الإسلامـية في التـعامل مع الآخريـن حتى وإن كانوا كفارا ٠

وبعـد أن عـرض الباحـث لتعـريف الأخـلاق وأقـسامهـا وأهمـيتـها لقـيام المجتمعات، وعرض للاخلاق في الإسلام وساق جملة من النصوص في الواردة في كـتاب الله وسنة نبـيه صلى الله عـليه وسلم التي تأمـر بمكارم الأخلاق وتحـذر من سيئها ، كـان لا بد بعد هذا كله من عرض دور المدرسة لبناء الشخصـية الإسلامية في أخلاقهـا ، إذ لا يمكن أن تكتفي المدرسة بغرس العقـيدة الصحيحة الصـافية في نفوس الطلاب ، ما لم تضع للخلق منهجا تعلم فيه الناشئة ، وتربيهم عليه ٠

وهذا ما يمكن استلهامه من منهج القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، إذ لم يكتف فيهـما بالحديث عن أسماء الله تعالى وصـفاته ، ولا بالحديث عن الملائكة ،

ولا بالحديث عن الجنة والنار ولا بالحديث عن الأمم السابقة من أطاع منهم ومن تولى ، إنما دعوا صراحة إلى مكارم الأخلاق جملة وتفصيلا .

إن الأخلاق كما سبق منها الفطري الجبلي ، ومنها المكتسب ، والمدرسة تتحمل مسئولية كبيرة في غرس الخلق الفاضل في نفوس الناشئة .

فأما الأخلاق الفطرية فالمدرسة تحرص كل الحرص على أن تنميها وتشجع عليها عن طريق المعلم والمنهج والنشاط ، ذلك أن الشبيبة المسلمة في هذا السن ربما حملت من الأخلاق الفطرية الحسنة شيئا كثيرا ، والإشادة بها عن طريق الثناء على أصحابها بصيغة العموم ، أو حتى بالثناء على وجه الخصوص لمن تحلى بها ، هذا من شأنه أن يعزز هذا الخلق ويقويه ويثبته ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأشج عبد القيس : إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله ، وقد كان لهذا الثناء من رسول الله صلى الله عليه وسلم في قلب الأشج أبلغ الأثر حيث قال كما في رواية أبي داود : الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله ، الأمر الذي يجعله يتمسك بهما ، ويعض عليهما بالنواجذ .

كما أن المنهج حين يشتمل على موضوعات تربي على حسن الخلق الفطري يشعر الطالب الذي يتمتع بهذا الخلق أنه المعني بهذا الموضوع ، فيزداد ثباتا على ماحسن من خلقه ، ويحرص على تجنب ما قد تعود عليه من سيئ الأخلاق .

أما الأخلاق المكتسبة فهي التي يمكن أن يستفيدها الطالب من معلمه أو يتخلق بها حين يجد المنهج يمجدها ويتحدث عنها وعن المتخلقين بها .

كما أن النشاط يعطي المعلم ويعطي المنهج فرصة لتعويد الطلاب على ماكان يدعوهم إليه ويعلمهم إياه داخل حجرة الدراسة من مكارم الأخلاق .

وما من شك أن المعلم حين يكون قدوة لطلابه فإنه يلعب دورا بارزا في صياغة شخصياتهم ، إذ يرون في أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته أخلاقيات

الإسلام ، حتى وإن قصرت هممهم عن تطبيق ذلك ، لكنها تظل عالقة في أذهانهم ، حية في تصوراتهم ، وهذا يعني أن تظل حقائق الإسلام وأخلاقياته ماثلة أمام أعيانهم ، إن أراد الله لهم خيرا فتح قلوبهم عليها ، وهداهم إلى اتباعها والتمسك بها ، على أن تؤازر القدوةَ الدعوةُ إلى التزام الإسلام منهجا وسلوكا بالأساليب التربوية التي سلف الحديث عنها في أساليب التربية الوقائية .

إن نجاح المعلم في أداء رسالته التربوية يكمن في غرس الخلق الفاضل وانتزاع الخلق السيئ من نفوس طلابه ، فإذا ما واكب التربيةَ الإخلاصُ والمتابعة حصد المعلم ثمرة جهده وعطائه وتربيته ، ذلك أن النفوس مفطورة على الخير ، محبة لمكارم الأخلاق ، نافرة من مساوئها .

وإذا لم يجد المعلم ثمرة تربيته فلا يبخع نفسه على آثار من لم يؤمن بما معه من الحديث أسفا ، ذلك أن أجره عند الله تعالى على ما قدم ، لا بما صلح على يديه من طلابه ، وإن كانت النفس تقر وتسعد حين ترى ثمرة جهدها في الدنيا والآخرة ، ولكن ذلك ليس ميزانا لصحة المنهج من عدمه ، فإن نبي الله نوح عليه السلام وهو من أولي العزم دعا قومه إلى الله تعالى ألف سنة إلا خمسين عاما ، وماآمن معه إلا قليل .

بل إن بعض الأنبياء المؤيدين بالوحي من ربهم عز وجل يأتون يوم القيامة وليس معهم أحد ، كما روى ذلك الإمام مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط ، والنبي ومعه الرجل والنبي الرجلان والنبي وليس معه أحد ﴾ ج ٣ ص ٩٣ .

إن تربية الناشئة على مكارم الأخلاق أمر شاق وعسير ، ولكنه ليس محالا ، وثمرته متوقعة بإذن الله تعالى ، ولو كان الأمر خلاف ذلك لما آمن مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم من الناس أحد ، ولما رأى الناس بأعينهم في كل عصر ثمرات التربية الجادة من أبناء المسلمين ٠

على أن المعلم في تهذيب أخلاق طلابه ينبغي له أن يتحرى منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في التربية ، التي لم تكن على صورة واحدة تملها النفوس ، بل كانت متنوعة ، تأتي تارة بالقدوة وتارة بالأمر ، وتارة بالنهي ، وتارة بالترغيب، وتارة بالترهيب ، وتارة بالقصة ، وتارة بالموعظة ، وتارة باستغلال حدث من الأحداث تسامع الطلاب به ، أو وقع أمامهم ، وتارة بالابتسامة التي تدل على عدم الرضى وهي ابتسامة المغضب ، وتارة بابتسامة التعجب ، وتارة بالهجر ، وتارة بالملاطفة والمداعبة والمزاح ، وتارة بالنصيحة في جمع من الطلاب ، وتارة بالنصيحة الفردية ، وتارة بالتصريح في النصيحة وتارة بالتلميح ، إلى غير ذلك .

يقول الأصفهاني في كتابه الذريعة إلى مكارم الشريعة (١٤٠٨هـ) :

((وحق العالم أن يصرف من يريد إرشاده عن الرذيلة إلى الفضيلة بلطف في المقل ، وتعريض في الخطاب ، فالتعريض أبلغ من التصريح لوجوه : أحدها : أن النفس الفاضلة لميلها إلى استنباط المعنى يميل إلى التعريض شغفا باستخراج معناه بالفكر ، ولذلك قيل : رب تعريض أبلغ من تصريح ٠ الثاني : أن التعريض لا تنتهك به سجوف الهيبة ، ولا يرتفع به ستر الحشمة . والثالث : أنه ليس للتصريح إلا وجه واحد ، وللتعريض وجوه . والرابع : أن للتعريض عبارات مختلفة ، فيمكن إيراده على وجوه مختلفة ، ولا يمكن إيراد التصريح إلا على وجه واحد إذ ليس له إلا عبارة واحدة . الخامس: أن صريح النهي داع إلى الإغراء، ولذلك قال من قال : فإن اللوم إغراء ، وقال الشاعر :

دع اللوم إن اللوم يغري وإنما أراد صلاحا من يلوم فأفسدا))

ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥

إن الناس يتفاوتون في شخصياتهم ، ولكل شخص ما يناسبه من التأديب والإصلاح ، وعلى قدر عظم الخطأ وقلته يعظم العقاب أو يقل .

إن الأخلاق مرتبطة بالشريعة الإسلامية في أوامرها ونواهيها ارتباطا وثيقا ، إذ ما من أمر ولا نهي إلا وفيه حمل للنفس الإنسانية على مكارم الأخلاق ومحاسن الأقوال والأفعال ، ومعنى هذا أن المدرسة مطالبة من خلال المنهج والنشاط أن تربي خلق الطالب من خلال توجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وهدي السلف الصالح رضوان الله عليهم .

وإن كان المنهج يستطيع تربية الطالب على بعض الأخلاق الإسلامية التي يتحدث عنها موضوع معين ، إلا أن المعلم - أيا كان تخصصه - ليس مقيدا بمنهج معين في تربية الخلق لدى أبناء المسلمين ، سواء كان ذلك داخل حجرة الدراسة ، أو عند ممارسة نشاط معين ، داخل المدرسة أو خارجها .

فإذا رأى المعلم موقفا إيجابيا أو صفة حسنة قام بها أحد الطلاب فأثنى على صاحبها في جمع من أقرانه فإن ذلك يعزز هذا الخلق وإن لم يكن مرتبطا بمنهج معين يدرسه الطالب ، وقل مثل ذلك حين يرى المعلم سلوكا لا يتفق مع منهج الإسلام ، فإن النصح حينئذ في جمع من الأقران على مبدأ : ما بال أقوام يفعلون كذا ، أو عن طريق التلميح ، أو النصيحة الفردية سرا ، إن ذلك وإن لم يحدث تفاعلا داخليا يظهر على السلوك بالإقلاع والترك ، إلا أنه يحد منه على أقل التقادير ظاهرا ، وهنا يختفي مبدأ المجاهرة بالخلق السيء الذي لا يعافي الله صاحبه من العقوبة ، كما روى ذلك البخاري (مع الفتح د - ت) ، ومسلم (شرح النووي د - ت) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ كل أمتي معافى إلا المجاهرين﴾ ج١٠ص ٤٨٦ ، ج ١٨ ص ٣٢٩ - ٣٣٠.

إذن فالمربي الناجح هو الذي يستغل كل فرصة للتوجيه والتربية بالأساليب التربوية الإسلامية الكثيرة التي سلف الحديث عنها ٠

وهذه بعض الأمثلة مما يجب على المدرسة أن تزرعه في نفوس الناشئة صيانة لأخلاقهم من الانحراف :

* تربيتهم على الإخلاص لله تعالى في كل أعمالهم وقاية لهم من محق بركة العلم والطلب ، حين يكون طلبهم للعلم الأخروي من أجل الحصول على عرض الدنيا ، أو للمباهاة والرياء الذي يحبط العمل، وربما قاد إلى ماهو أعظم منه، فإذا عرض المعلم والمنهج أثر الإخلاص لله تعالى في كل عمل وما هي ثمراته في الدنيا والآخرة ، وقاهم ذلك بأمر الله من ذهاب البركة وضياع الجهود ، وهذه من أولويات القضايا التي يجب أن تعنى بها المدرسة ، ذلك أن الإخلاص حين يغيب تختفي وراءه بركة التربية والتعليم ، وتذهب وراءه الجهود ، فيكون حال المدرسة مع الإنتاج كالبستان الذي يبذل له من الإصلاح الشيء الكثير ثم لا ينتج ٠

* تربيتهم على الصدق ببيان آثاره على الأفراد والمجتمعات في الدنيا والآخرة وفي ذلك وقاية لهم من الكذب الذي هو مجامع الشر كله ويكون ذلك عن طريق عرض المعلم والمنهج بعض مظاهره وأسبابه وآثاره الخطيرة على الأفراد والمجتمعات ثم يبين علاجه وطرق الوقاية منه بذكر عواقب الكذاب في الدنيا والآخرة ٠

* تربيتهم على العدل والمساواة والإنصاف عن طريق عرض منهج الإسلام في ذلك ، وذكر بعض ما ورد من النصوص الشرعية ومواقف السلف ، وتحويل تلك النصوص إلى واقع معاش في حياتهم أثناء تعامل المعلم معهم بأن لا يحابي منهم أحدا دون أحد ، أو طائفة دون أخرى وقاية لهم من الشحناء والبغضاء التي تثور في أعقاب ذلك وخاصة في مثل هذا السن ، وقد نقل الخطيب البغدادي في

كتابه الجامع لأخلاق الراوي والسامع (١٤٠٣هـ) أن حبيب بن أبي ثابت كان يقول :((من السنة إذا حدث الرجل القوم أن يقبل عليهم جميعا ، ولا يخص أحدا دون أحد)) ج ١ ص ٣٠٥ .

ونقل أيضا أن ابن زياد سأل الإمام أحمد بن حنبل قائلا :((فإن كان رجل له إخوان يخصهم بالحديث لا ترى ذلك ؟ قال : ما أحسن الإنصاف ، ما أرى يسلم أصحاب الحديث من هذا)) ج ١ ص ٣٠٦ .

ونقل عن أبي بكر قوله :((ومباح للمحدث أن يؤثر حفاظ الطلبة ، وأهل المعرفة والفهم ، وإن كان الأفضل أن يعدل بينهم ولا يؤثر بعضهم على بعض)) ج١ ص ٣٠٦ .

ولكنه إذا فضل بعضهم على بعض لأسباب حسنة ، وأخبرهم أن سبب التفضيل هي تلك الأخلاق التي تحلوا بها فحسن ، وقد ذكر ابن جماعة في تذكرة السامع والمتكلم (١٤١٥هـ) تبريرا لذلك فقال :((فإذا كان بعضهم أكثر تحصيلا، وأشد اجتهادا ، أو أبلغ اجتهادا، أو أحسن أدبا ، فأظهر إكرامه وتفضيله ، وبين أن زيادة إكرامه لتلك الأسباب ، فلابأس بذلك ، لأنه ينشط ويبعث على الاتصاف بتلك الصفات)) ص ١٠٠ .

* تربيتهم على الشجاعة عن طريق عرض بعض القصص كقصة طالوت ، وقصة أصحاب الكهف ، وقصة إبراهيم عليه السلام في مقارعة قومه ، وقصة موسى مع فرعون ، ومقارعة الرسول صلى الله عليه وسلم لأهل الباطل من المشركين ، وذكر قصص الصحابة والتابعين ، وبعض مواقفهم الجهادية في نصرة الحق وأهله ، وقاية لهم من الجبن والخور ، والهزيمة النفسية ، وتثبيتا للإيمان في قلوبهم .

* بث روح الأخوة وتعزيز هذا الجانب في نفوس الطلاب ، في حجرة الدراسة أو خارج حجرة الدراسة عن طريق المناشط الجماعية .

ففي حجرة الدراسة مثلا يعرض المعلم في سيرة بلال أو صهيب أو عمار صورا من الأخوة الإسلامية الرائعة ، أو حين الحديث عن أحداث الهجرة واستقبال الأنصار للمهاجرين في إخاء ما سمع التاريخ له مثيلا ، أو حين يسمع المعلم إجابة أحد الطلاب، ثم يسمع إجابة طالب آخر يزيد أو ينقص أو يصحح الخطأ إن وجد، فإن المعلم يستغل هذا الحدث لتعزيز مبدأ الأخوة فيقول للمجيب الثاني : أخوك فلان يقول كذا وأنت تقول كذا فكيف نجمع بين قوليكما ؟ . إلى غير ذلك من الأساليب التي تنمي روح الأخوة الإسلامية لدى الطلاب وقاية لهم من العنصرية المنتنة التي خلفتها في النفوس رواسب الجاهلية .

* تربيتهم على علو الهمة ، وقاية لقلوبهم من التعلق بسفاسف الأمور ، والاهتمامات التي لا تليق بالشاب المسلم أولا ، ثم بطالب العلم ثانيا .

* تربيتهم على الاستئذان وتعويدهم عليه عند الدخول إلى حجرة الدراسة أو إرادة الخروج منها ، وقاية لهم من الفوضوية أو التشويش ، وتربية لهم على هذ الخلق الإسلامي الرفيع .

* زرع رقابة الله تعالى في قلوبهم ، ليكون ذلك سببا في تخلصهم من خلق الغش والمخادعة ، إذ أن هذه الخصلة الذميمة حين تتأصل في النفوس تخرج للمجتمعات أجيالا تتشبع بما لم تعط ، وتنال علما بالكذب والمراوغة لا يؤهلها لحمل الأمانة ، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم كما روى ذلك مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ من غشنا فليس منا ﴾ ج ٢ ص ٤٦٨ .

وقاية أخلاقهم الفكرية من الانحراف عن طريق :

* تربيتهم على الإنصاف عند مناقشة قضية أو الحكم على شخص أو فكرة ، فإن المسلم مأمور أن يفي بالكيل وأن يزن بالقسطاس المستقيم ، وكما أن هذا يكون في الماديات فإنه يكون في المعنويات كذلك ، فالوفاء بالكيل والوزن بالقسطاس المستقيم على الأفكار والأشخاص أمر مطلوب ، وهو خلق إسلامي منطلقه كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، يقول الله تعالى :﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ سورة المائدة آية ٨ .

ويقول سبحانه :﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ سورة الأنعام آية ١٥٢ .

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم حين أبطل ربى الجاهلية كما روى ذلك مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) :((وأول ربا أضع ربا عباس بن عبدالمطلب فإنه موضوع كله)) ج ٨ ص ٤٨١ .

* تربيتهم على أن الحكمة ضالة المؤمن أنا وجدها فهو أحق الناس بها ، فإن الحكمة والفائدة قد تجري على لسان غير المؤمن سواء كان كافرا أو منافقا أو فاجرا، إذ لا يمنع المؤمنَ كفرُ الكافر أو فجورُ الفاجر أن يأخذ ما معه من الحق ويدع ما معه من الباطل ، فها هو أبو هريرة رضي الله عنه يقبل الحق من الشيطان ويقره صلى الله عليه وسلم على ذلك ويقول كما روى ذلك البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) أنه صلى الله عليه وسلم قال لأبي هريرة في قصته مع الشيطان ليلة حراسته لمال الصدقة :﴿ صدقك وهو كذوب ﴾ ج ٤ ص ٤٨٧ .

* تربيتهم على صغائر المسائل قبل كبارها ، ذلك أن هذا هو ديدن العلماء الربانيين كما قال الله عنهم :﴿ ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾ سورة آل عمران آية٧٩ .

قال القرطبي في تفسيره (١٣٧٨هـ) :((والرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره)) ج ٤ ص ١٢٢ .

قال ابن كثير في تفسيره (١٤١٤هـ) عند هذه الآية :((قال ابن عباس وغيره : حكماء علماء حلماء ، وقال غيره : فقهاء ، وقال الحسن : أي أهل عبادة وأهل تقوى)) ج ٢ ص٧٦ .

والجمع بين كلام ابن كثير والقرطبي أن من الحكمة والعلم تربية الناس بصغار المسائل قبل كبارها .

* تربيتهم على البعد عن الفتوى ، والحذر من التسرع فيها أو استشرافها والتطلع إليها ، يقول الخطيب البغدادي في كتاب الفقيه والمتفقه (١٣٩٥هـ) : ((قال الشيخ أبو بكر الحافظ رحمه الله : قلت : وقلَّ من حرص على الفتوى وسابق إليها وحرص عليها إلا قَلَّ توفيقه ، واضطرب في أمره ، وإذا كان كارها لذلك ، غير مختار له ، ما وجد مندوحة عنه ، وقدر أن يحيل بالأمر فيه إلى غيره ، كانت المعونة له من الله أكثر والصلاح في فتواه وجوابه أغلب)) ج ٢ ص ١٦٦ .

ثم نقل عن البراء رضي الله عنه قوله :((لقد رأيت ثلاثين من أهل بدر مامنهم من أحد إلا وهو يود أن يكفيه صاحبه الفتوى)) ج٢ ص١٦٥ .

ونقل عن شقيق عن عبد الله قوله :((من أفتى الناس في كل ما يسألون فهو مجنون)) ج ٢ ص١٩٧ .

* تربيتهم على احترام العلم والعلماء ، ومن احترام العلم الإخلاص لله تعالى في طلبه ، واحترام كتبه وعدم إهانتها ، واحترام أماكنها بعدم العبث فيها أو الإساءة إليها ، أما احترام العلماء فلأنهم ورثة الأنبياء ، وهم نجوم الأرض ، كما أن الكواكب نجوم السماء، يبصرون الأمة من العمى، وينتشلونهم بأمر الله من الردى،

ويصبرون منه على الأذى ، كم من ضال قد هدوه ، وكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، فلا إله إلا الله ما أعظم أثرهم على الناس ، وما أقبح أثر الناس عليهم .

ولعظم منزلتهم في الإسلام أشهدهم رب العالمين على أعظم قضية في الكون ألا وهي وحدانيته سبحانه فقال جل ذكره :﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ سورة آل عمران آية ١٨ .

وذكر سبحانه أن أكثر الناس خشية له هم العلماء الربانيون فقال :﴿ إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾ سورة فاطر آية ٢٨ .

وأخبر نبيه صلى الله عليه وسلم أن العلماء ورثة الأنبياء ، فقد روى البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر﴾ ج ١ ص ١٦٠ .

وقد ذكر ابن جماعة في تذكرة السامع والمتكلم (١٤١٥هـ) أن أبا مسلم الخولاني كان يقول :((العلماء في الأرض مثل النجوم في السماء ، إذا بدت للناس اهتدوا بها ، وإذا خفيت عليهم تحيروا)) ص ٣٤ .

و ذكر العسكري وآخرون في كتاب الجامع في الحث على طلب العلم (١٤١٢هـ) تحقيق الحداد قولهم :((ليس شيئ أعز من العلم ، وذلك أن الملوك حكام على الناس ، والعلماء حكام على الملوك)) ص ١٨ .

وما من شك أن الحط من قدر العلماء ، أو حصر دورهم في زاوية ضيقة من الحياة ، سلوك يهودي ، ومخطط صهيوني ، فقد ورد في البروتوكول السابع عشر من بروتكولات حكماء صهيون (د ـ ت) ترجمة التونسي :((وقد عنينا عناية عظيمة بالحط من كرامة رجال الدين Clergy من الأمميين (غير اليهود) في أعين

الناس ، وبذلك نجحنا في الإضرار برسالتهم ، التي كان يمكن أن تكون عقبة كئودا في طريقنا ، وإن نفوذ رجال الدين على الناس ليتضاءل يوما فيوما ... وسنقصر رجال الدين وتعاليمهم على جانب صغير جدا من الحياة ، وسيكون تأثيرهم سيئا وبيلا على الناس حتى أن تعاليمهم سيكون لها أثر مناقض للأثر الذي جرت العادة بأن يكون لها)) ص ٢٥٤ .

* تربيتهم على عدم الخوض فيما ليس لهم فيه فائدة ، لأن ذلك مضيعة للوقت ، وإهدار للطاقات ، فإن من المسائل مسائل لا تستحق أن تفرد بالحديث ، وإن من القاضايا قضايا لا تستأهل العناية ولا الذكر ، ولا أن تعطى شيئا من الاهتمام لخلوها من الثمرة التي تنفع الناشئة في عاجل أمرها وآجله .

* تربيتهم على البعد عن بعض القضايا التي العلم بها لا ينفع والجهل بها لا يضر مثل عدد أصحاب الكهف ، ولون كلبهم ، ونوع الشجرة التي أكل منها آدم عليه السلام حين أخرجه الله من الجنة .

* تربيتهم على احترام الرأي ووجهات النظر ، مهما كانت خاطئة ، ومقارعتها بالدليل والحجة والبرهان ، ذلك أن الحجة لا يقضى عليها بالشدة والعنف والتسفيه ، بل إن الحجة يقضى عليها بالحجة والدليل والبرهان .

* تربيتهم على الرفق بالخصوم وتمني إصابة الحق منهم ، يقول الخطيب البغدادي في كتاب الفقيه والمتفقه (١٣٩٥هـ) :((يقول الشافعي رضي الله عنه: ما كلمت أحدا قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان وتكون عليه رعاية من الله وحفظ ، وما كلمت أحدا قط إلا ولم أبال بيّن الله الحق على لساني أو لسانه)) ج٢ ص ٢٦ .

* تربيتهم على العودة إلى العلماء عند مسائل الفقه والفتوى ، وذلك بأن يمتثل المعلم هذا الخلق حين يُسأل في مسأله لا يستحضر جوابها ، فيعد طلابه

بالعودة إلى العلماء لبحث المسألة معهم حتى وإن كان يعلم الجواب ويستحضرة ، وذلك لتربية الطلاب على هذا الخلق الإسلامي النبيل .

* تربيتهم على الاعتراف بالخطأ والرجوع عنه حين يقع ، فقد ذكر الخطيب البغدادي في كتاب الفقيه والمتفقه (١٣٩٥هـ) :((أن أبا هريرة رضي الله عنه قال ذات مرة : كنت حدثتكم أن من أصبح جنبا فقد أفطر ، فإن ذلك من كيس أبي هريرة ، فمن أصبح جنبا فلا يفطر)) ج ٢ ص ٢٠٠ .

وقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين ، تحقيق هارون (١٤٠٥هـ) وصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه حين قال له فيها: ((ولا يمنعك قضاءً قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك وهديت لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم لا يبطله شيئ ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل)) ج ٢ ص ٤٩ .

* تربيتهم على عدم الكلام بحضرة من هو خير منهم وأعلم ، فإن هذا من السفه وقلة الفقه إلا إذا أذن للإنسان بذلك ، ولقد كان هذا ديدن السلف رضوان الله عليهم ، فقد روى البخاري (مع الفتح د ـ ت) من حديث ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي ، فوقع الناس في شجر البوادي ، قال عبد الله ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت ، ثم قالوا : حدثنا ما هي يا رسول الله ، قال هي النخلة ﴾ ج١ ص ١٤٥ .

زاد مسلم (شرح النووي د ـ ت) ﴿ فذكر ذلك لعمر فقال : لأن تكون قلت هي النخلة أحب إلي من كذا وكذا ﴾ ج ١٧ ص ١٥٩ .

* تربيتهم على السؤال فيما يشكل عليهم ، أخذا من قول الله تعالى : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ سورة الأنبياء آية ٧ .

ومن قـولـه صلى الله عـليـه وسلم كـمـا روى ذلك أبو داود في سننه (١٤٠٩هـ) من حديث جـابر رضي الله عنه قال : قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ إنما شفـاء العي السؤال﴾ ج ١ ص ١٤٦ ، والحـديث صححـه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٤٠٩هـ) ج ١ ص ٦٨ - ٦٩ .

* تربيتـهم على البعـد عن الأسئلة التي يقصد منهـا التعـجيـز ، فإن هذه من الأخلاق الذميمة التي يجب أن يترفع عنها طالب العلم .

* تربيتهم على طلب الدليل، وخاصة في قضـايا الاعتقاد والعبادة والأحكام، حماية لهم من تخريف المخرفين ، وانتحال المبطلين.

* تربيتهم علـى البعـد عن الجدل مـا أمكن ، وذلك لأن المراء والجـدل يولد الأحقاد ويثير الضـغائن بين الأقران ، وقد ذكر ابن عبد البر في صـحيح جامع بيان العلم وفضله تهذيب الزهيري (١٤١٦هـ) أن الإمام مالك رحمه الله كان يقول : ((المراء يقسي القلب ويورث الضغن)) ص ١٦٦ .

فإن كان لا بد منه لإظهـار حق ، أو إبطال باطل ، فليـرب فـيهم تقـوى الله تعالى ، يقول الخطيب البغدادي في كتاب الفقيه والمتـفقه (١٣٩٥هـ) :((ينبغي للمجادل أن يقدم على جداله تقوى الله تعالى)) ج ٢ ص ٢٥ .

* ترتبـيـتهم على الـشجـاعـة الأدبية وقـول الحق دون مـحـاباة أو مجـاراة أو مجـاملة، وعرض ذلك من خـلال ما ورد في كتـاب الله وسنة نبيه صلـى الله عليه وسلم وهدي السلف ، على أن يكون ذلك وفق الضوابط والمصالح الشرعية .

أثر العلاقة بين المنزل والمدرسة ووسائل الإعلام في تعزيز جانب الوقاية :

يحسن بالباحث بعد أن عرض مهمة المدرسة في وقاية معتقد الطالب وخلقه، أن يذكر هنا قضية لها أهميتها البالغة في تعزيز جانب الوقاية ، ألا وهي العلاقة الجيدة بين المنزل والمدرسة ووسائل الإعلام.

إن الميدان التربوي يشتكي هذه الفجوة الكبيرة بين المنزل والمدرسة ووسائل الإعلام ، الأمر الذي سبب كثيرا من السلوكيات والأخلاقيات غير المرغوبة والتي تتنافى مع مسيرة التربية في الإسلام .

ولعل هذه من أبرز المشاكل التي تعاني منها الساحة التربوية ، التي لا يمكن أن تثمر ثمارا يانعة ما دامت في معزل عن المنزل وعن الوسائل الإعلامية التي تشد من أزرها ، وتعينها على أداء مهمتها في تربية الجيل وتنشئته على الخير .

إن من المحال أن تستقل مؤسسة من المؤسسات التربوية بالتربية ، ويبقى ماعداها من المؤسسات يتفرج ، إن لم يمارس الهدم والتدمير لما تقوم به المؤسسة المربية .

يقول عودة في مقال له نشر في مجلة العربي العدد ٣١٧ لسنة (١٩٨٥م): ((وهكذا أخذ التلفزيون يزاحم المؤسسات التربوية التقليدية كالأسرة والمدرسة في توجيه النشء وخلق اتجاهات معينة لديهم ففي البلدان العربية والإسلامية يعمل التلفزيون بإشراف وتوجيه من السلطات التي استطاعت توجيه الرأي العام ، وخلق الاتجاهات التربوية ، وقد أثبت هذا الجهاز باستخدامه للوسيلتين السمعية والبصرية أثره الفعال في توجيه الأجيال وتربيتها بمواصفات معينة)) ص ١٨٣ .

وإذا كان هذا هو دور التلفزيون وهو أكثر الوسائل الإعلامية انتشارا ومشاهدة ومتابعة ، فإن الإفادة منه أمر مطلوب بعد أن يتوجه نحو البناء التربوي

الجيد الذي يعكس آثار العقيدة الصحيحة والثقافة الإسلامية الأصيلة التي تبني الخلق وتشيد الفضيلة .

إن الحديث عن العلاقة بين المنزل والمدرسة لا بد أن يتبعه العلاقة بين المنزل ووسائل الإعلام ، وبين المدرسة ووسائل الإعلام ، وذلك لما لهذه المؤسسات الثلاث من دور كبير في تشكيل شخصية الفرد سلبا أو إيجابا .

خذ مثالا على الأثر السلبي حين تتخلى مؤسسة من هذه المؤسسات عن مهمتها التربوية الإسلامية ، وتصور أن البيت يقوم بمهمته في التربية على أكمل الوجوه ، ثم ما هي إلا سنوات معدودة ينتقل بعدها التلميذ إلى المدرسة حيث المعلمين المربين والمناهج والأنشطة ، فإن لم تكن المدرسة على قدر من تحمل مسئولية التربية وإلا هدمت في سويعات ما بنته الأسرة في سنين ، وقل مثل ذلك حين تمارس المدرسة دورها في التربية على أكمل الوجوه ، ثم تتلقف الناشئ وسائل إعلام فاسدة ، فتمسخ في ذهنة ـ بأساليب عجيبة من الإغراء والإثارة ـ ما شيَّدته المدرسة من بناء تربوي جيد ، وهلم جرا .

لقد اعتاد الناس في الغالب حين الحديث عن العلاقة بين البيت والمدرسة ألا يتحدثوا عن وسائل الإعلام كجانب له دوره الكبير في تعزيز العلاقة أو تدميرها ، كما أن دوره لا يخفى في تعزيز ما تقدمه المدرسة أو ما يقدمه المنزل للنشئ من التربية والرعاية والتوجيه .

وإن مما لا يمكن إنكاره ما لوسائل الإعلام من دور بارز في السيطرة على عقول الناس في جميع الأعمار أطفالا وشبابا وكهولا ، وذلك بما تقدمه من برامج فيها من الإثارة والإغراء الشيئ الكثير ، فإن لم تكن هذه الوسائل موجهة نحو الخير وإلا كان تأثيرها على قلوب وعقول الناشئة تأثيرا سلبيا سيئا .

يقول القاعود في كتابه الصحافة المهاجرة (١٩٨٣هـ) متحدثا عن الإعلام بوسائله المختلفة وخطورة تأثيره على الناس حين لا يوجه إلى الخير :

((وخطورة الكلمة المنشورة والمسموعة والمرئية لا تقل بحال عن خطورة المدفع والصاروخ والقنبلة والجراثيم الكيماوية ، فإذا كانت هذه العناصر تقتل من الخارج ، ويستطيع الإنسان تفاديها بالخندقة أو الوسائل المضادة الأخرى ، فإن الكلمة لا يمكن تفاديها بسهولة ، إنها تصل إلى المرء في مخدعه ومكتبه وشارعه ومقهاه ومنتداه ، وفي كل مكان يحل فيه ... وما لم يكن المرء محصنا بعقيدة وثقافة عميقة ، فإنه غالبا ما يقع في الخطر ، ويصبح واحدا من الضحايا الذين يصرعهم غزو الكلمة ، ويسيطر عليهم من داخلهم ويدمر وجدانهم وتصوراتهم)) ص ٣٩ .

إن المدرسة تتعامل مع طائفة من المجتمع هم طلابها فحسب ، والبيت يتعامل مع طائفة من المجتمع هم أهل البيت ليس إلا ، ولكن وسائل الأعلام تتعامل مع المجتمع كله .

وقد يصعب على الفرد في مثل هذه الأيام أن يعيش في معزل عن هذه الوسائل على اختلاف أنواعها المرئي منها والمقروء والمسموع .

ومن هنا كان التواصل مطلوبا بين البيت والمدرسة والإعلام ممثلا في القائمين عليه ، لإقامة علاقة وطيدة قوية تعزز جانب الوقاية وتقويه ليسهم الجميع في تربية الجيل تربية صحيحة ، تقوي فيه جانب المناعة ضد أي معتقد دخيل أو فكر هزيل أو خلق غير أصيل .

إن المدرسة عبر القائمين عليها لا بد أن توجد هذه العلاقة مع الإعلام عن طريق عقد اللقاءات والمؤتمرات التي تخرج بتوصيات إيجابية تتحول في اليوم التالي إلى واقع ملموس في برامجها وما تقدمه للناس عامة ، وللناشئة على وجه الخصوص .

إننا لو افترضنا أن ثلاث شركات أرادت إقامة مشروع جيد يدر عليها أرباحا طائلة ، فقامت الأولى على قدم وساق تعمل في الليل والنهار لإنجاز هذا المشروع ، وقامت الأخرى تتتبع عمل أختها ، فكلما وضعت الأولى في النهار حجرا ، قامت الأخرى بهدمه في الليل !!!

ترى متى يُنتهى من بناء هذا المشروع ، وكم من حجر يكلفها كلما حاولت إعادته عبر ثلاثين سنة أو أربعين أو ستين أو مائة ؟ .

لا شك أن التكلفة باهظة ، وأن الثمرة ضائعة ، وأن الجهد مبعثر ، وصدق الشاعر حين قال :

متى يبلغ البنيان يوما تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

وحين قال الآخر :

أرى ألف بان لا تقوم لهادم فكيف بيان خلفه ألف هادم

إن الناشئة في أي مجتمع تصاب بالازدواجية القاتلة في المنهج والفكر والخلق والشعور والتصور ، حين تتعلم شيئا ، وترى في المقابل ما يناقضه ويصادمه ، كما أنها تصاب وفي سويداء قلبها بالفصام النكد بين ما تتربى عليه في البيت أوحجر الدراسة ، ثم ترى خارجهما ما يمحو أثره ، ويبدد محاسنة .

هب أن المدرسة زرعت في ذهن الطالب أن الكفار أعداءه كما قال الله تعالى ذلك في كتابه الكريم :﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . . . الآية ﴾ سورة البقرة آية ١٢٠ .

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة والأحاديث الصحيحة التي تؤكد هذا المعنى وتربي المسلم عليه ، ثم قام راع البيت يتخذ له أولياء من الكفار يلقي إليهم بالمودة ، مدافعا عنهم ، زارعا في أذهان ناشئته أنهم أصدقاؤنا ، وأن الأديان

السماوية كلها واحدة ، وأن هذا العداء بيننا وبينهم يجب أن يغادر الساعة المتحضرة التي غدا فيها الناس إخوانا ، وأصبح العالم فيها قرية واحدة ٠

ترى أي معتقد متناقض تعيشه الناشئة وهي تسمع مثل هذا الكلام ممن ترى أنه قدوة فيما يقول ويفعل؟ ٠

وقل مثل ذلك فيما تقدمه وسائل الإعلام من اهتمام بحياة الكفار والثناء عليها وتمجيد خلقها ، وعرض حياتها ودقائق عيشها ، وتقديس مشاهيرها ، وتهويل منجزاتها ٠

أي أمر خطير تتصوره الناشئة عن هؤلاء الكفار ، بين ما تتربى عليه وما تشاهده، وأيهما تصدق؟ أتصدق المنهج أم المعلم، أم تصدق ما تشاهده وتراه ؟ ٠

إنها ولا شك ستفقد الثقة في أحد الفريقين ، وستنظر إليه بعين السخرية والاستهزاء ، وربما نشأت في أخلاقها وتعاملاتها وعلاقاتها مع الآخرين على هذه الازدواجية ، التي تورث في حياتها الهزيمة النفسية المؤكدة ٠

إذن فكيف لا تخصص المدرسة جزءا من وقتها تلتقي فيه مع البيت تعزز فيه جانب الوقاية لتصون فلذة الكبد عن كل ما يتنافى مع ما يتعلمه ويتربى عليه في المدرسة ، فتسهم بدور فاعل في توعية البيت ، وتشحذ من همته السامية للعمل الدؤوب الذي لا يتوقف عند حد ، لإعداد الأجيال وتربيتهم على الخير ٠

وكيف لا تُمد الجسور بين المنزل وبين وسائل الإعلام وبين وسائل الإعلام والمدرسة ، وبين المدرسة وبين المنزل عبر الزيارات واللقاءات والمؤتمرات والمكاتبات ، التي تتمخض في النهاية عن خطط تربوية مرسومة تكوّن جهدا واحدا تعزز فيه كل مؤسسة دور الأخرى في صياغة شخصية النشئ صياغة متزنة مستقيمة ، تثمر أناسي صالحين لأنفسهم ومجتمعاتهم وأمتهم ٠

نماذج من تربية الطلاب على مبدأ الوقاية :

أولا درس في تفسير القرآن الكريم :

الآيات من ١٥١ إلى ١٥٣ في سورة الأنعام ، التي يمكن أن يطلق عليها عنوان :

الوصايا العشر في سورة الأنعام

قال الله تعالى :﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ٢ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ سورة الأنعام الآيات من ١٥١ ـ ١٥٣ .

وسوف يقتصر الباحث على عرض الأهداف السلوكية فقط ، وفي مضمونها تكمن الأهداف المعرفية والوجدانية والمهارية ، والتي منها يصاغ الدرس، وعلى ضوئها يعرض ، ومن خلالها يحدد المعلم الوسائل التي تعينه في عرض حقائق درسه على طلابه.

الأهداف السلوكية :

يتوقع من الطالب في نهاية الحصة أن :

١ـ يعدد الوصايا العشر في سورة الأنعام إجمالا .

٢ـ يصنف هذه الوصايا ، ما يخص الله عز وجل ، وما يخص الأسرة ، وما يخص المجتمع .

٣ـ يعدد الأوامر فيها والنواهي .

٤ـ يحدد بوضوح منهج الوقاية في التربية الإسلامية من خلال الآيات .

٥ـ يحدد بوضوح موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي .

٦ـ يذكر الجهة التي تملك حق التحليل والتحريم ، أي (حق التشريع) .

٧ـ يستنبط من الآيات رحمة الله بعباده .

٨ـ يبين سبب بدء الوصايا بالتحذير من الشرك .

٩ـ يذكر بعض صور الشرك قديما وحديثا .

١٠ـ يقارن بين الإسلام وبين غيره في رعاية حقوق الوالدين .

١١ـ يعلل الحكمة من اقتران حق الوالدين بحق الله تعالى .

١٢ـ يستنبط من الآيات حق الوالد على الولد وحق الولد على الوالد .

١٣ـ يستنبط من الآيات اهتمام الإسلام بالمرأة .

١٤ـ يعدد بعض صور الإحسان إلى الوالدين .

١٥ـ يبين سبب قتل المشركين لأولادهم .

١٦ـ يستنبط من الآيات أثر العقيدة في استقامة السلوك . فالقتل سببه عدم الثقة برزق الله .

١٧ـ يقارن بين حال بعض الجاهليين وبعض المسلمين في الغيرة على العرض .

١٨ـ يعلل سبب تقديم رزق الآباء على الأولاد في آية الأنعام والعكس في آية الإسراء .

١٩ـ يعطي تعريفا واضحا لمعنى الفواحش ليطبق عليها النهي عن القرب .

٢٠ـ يقسم الفواحش كما قسمها القرآن .

٢١ـ يفرق بين القرب والفعل .

٢٢- يعدد بعض الطرق التي تقرب من الفواحش ٠

٢٣- يربط بين القرب من الفواحش وبين حديث اتقاء الشبهات ٠

٢٤- يستنبط من الآيات حكم القتل في الإسلام ٠

٢٥- يستنبط من الآيات كرامة الإنسان ٠

٢٦- يعدد بعض الحالات التي يستثنى فيها القتل ٠

٢٧- يبين من الذي يتولى تنفيذ القتل وسائر الحدود ٠

٢٨- يبين سبب ختم الآية بقوله تعالى :﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ٠

٢٩- يعطي تعريفا واضحا لمعنى اليتيم ٠

٣٠- يعدد بعض صور القرب المحرم من ماله ٠

٣١- يذكر بعض صور الاستثناء في القرب من مال اليتيم ٠

٣٢- يحدد سن بلوغ الأشد ٠

٣٣- يستنبط من الآية حفظ الإسلام لحقوق الآخرين ٠

٣٤- يقارن بين المنظمات التي تدعي حفظ حقوق الإنسان وبين منهج الإسلام في ذلك ٠

٣٥- يقسم الوفاء بالكيل حسا ومعنى ٠

٣٦- يذكر أمة هلكت بسبب نقصان المكيال والميزان ٠

٣٧- يستنبط من الآيات عظمة الإسلام في التعامل مع الآخرين ٠

٣٨- يذكر منهج الإسلام في الحكم على الآخرين ٠

٣٩- يستنبط من الآية يسر الإسلام وسهولة أحكامه ٠

٤٠- يقارن بين تقوى الله قدر المستطاع ، وتقوى الله حق تقاته ٠

٤١- يبين منهج الإسلام في التعامل مع الكلمة ٠

٤٢- يبين موقف الإسلام من العهود والمواثيق ٠

٤٣ـ يعدد بعض صور العهود والمواثيق ٠

٤٤ـ يقارن بين المسلمين وبين اليهود في احترام العهو والمواثيق ٠

٤٥ـ يبين سبب ختم الآية بقوله تعالى :﴿ لعلكم تذكرون ﴾.

٤٦ـ يعلل سبب انفراد الآية الأخيرة بوصية واحدة ٠

٤٧ـ يستنبط كيف يكون القرآن قواعد كلية ٠

٤٨ـ يبين أثر استخدام الوسائل في إيضاح الفكرة ٠

٤٩ـ يعدد بعض صور الوسائل التي استخدمها الرسول صليالله عليه وسلم في أيضاح ما يريد بيانه٠

٥٠ـ يستنبط الأسلوب الأمثل في الحوار والإقناع ٠

٥١ـ يحدد بوضوح معنى الصراط المستقيم ٠

٥٢ـ يضع قاعدة للحكم على متبع الصراط المستقيم ومخالفه ٠

٥٣ـ يعدد بعض صور الانحراف عن هذا الصراط في العقائد والعبادات ٠

٥٤ـ يعلل سر ذكر الصراط بصيغة الإفراد ٠

٥٥ـ يعلل سر ذكر السبل بصيغة الجمع ٠

٥٦ـ يعلل سر نسبة الصراط إلى الله والسبل إلى غيره سبحانه ٠

٥٧ـ يبين الثمرة النهائية من اتباع السبل ٠

٥٨ـ يعلل سبب ختم الآية بقوله تعالى :﴿ لعلكم تتقون ﴾ ٠

هذه بعض الأهداف السلوكية الإجرائية التي حاول الباحث أن يستنبطها من ثلاث آيات في سورة الأنعام ٠

ومع أن هذه الآهداف سلوكية إجرائية يستطيع المدرس أن يقيس قدرته على تحقيقها أثناء الحصة ، فإن كل هدف منها يشتمل ـ ضمنا ـ على هدف وجداني يسعى المعلم المربي إلى غرسه في نفوس طلابه ، وكل هدف وجداني يحمل جانبا

وقائيا تسعى المدرسة عبر المعلم والمنهج والنشاط إلى تربية طلابها عليه ، ففي الهدف

كما أن المعلم الناجح هو الذي يستخدم أثناء عرضه لدرسه بعض الأساليب والطرائق التي تشتمل على بعض الصور الإجرائية الوقائية التي تسهم في إيصال المعلومة إلى الطالب إلى جانب أثرها الجيد على الطالب ، سواء كان ذلك في تحصيله الدراسي ، أو في طريقة تفكيره ، أو التخطيط لحياته وحل مشكلاته .

وسوف يسوق الباحث بعض الأمثلة في كيفية اشتمال الأهداف السلوكية على تربية وقائية لها أثرها الكبير في صيانة معتقد الطالب وأخلاقه .

المثال الأول :

ويشتمل على هدفين اثنين :

١ـ أن يحدد الطالب بوضوح موقف الرسول صلى اله عليه وسلم من الوحي .

٢ـ أن يذكر الطالب الجهة التي تملك حق التشريع .

هذان الهدفان السلوكيان الإجرائيان حول قول الله تعالى :﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ... الآية ﴾ سورة الأنعام آية١٥١ .

فلقد نصت الآية الكريمة على أمرين : أحدهما : أن موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو تلاوة وبيان ما حرمه الله تعالى على عباده ونقل ذلك إليهم ، وهذه مهمة العلماء والمربين والمصلحين من بعده ، فما دورهم إلا البلاغ ليس إلا .

وثانيهما : أن الذي يملك حق التحليل والتحريم إنما هو الله وحده سبحانه لاشريك له ، وفي ذلك وقاية لمعتقد الطالب من أن يظن أن هذا الدين شرعه بشر حتى ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو حين يظن أن تحليل القضية الفلانية أو تحريمها إنما هو من كيس العالم فلان أو علان .

ولكنه حين يعلم أن الذي أحل أو حرم هو الله ، فإنه يحصل عنده من القناعة المصحوبة بالخوف والوجل ، ما لا يمكن أن تحصل حين يظن أو يتصور أن التحليل والتحريم من حق فلان أو علان .

ومن خلال عرض هذين الهدفين بما يشتملان عليه من أسلوب وقائي في حفظ معتقد الطالب ووقايته من الانحراف ، فإن الطالب يستفيد فوق ذلك وقوفه على قاعدة كلية من قواعد الشريعة ، تنص على أن حق التشريع ليس من اختصاص ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، إنما هو حق لله وحده لا شريك له ، وبذلك يستطيع الطالب أن يصدر حكمه على كل قانون أو نظام يستبدل البشر به حكم الله تعالى من القوانين الوضعية والأنظمة البشرية التي تخالف ما شرعه الله تعالى وأمر به أونهى عنه .

المثال الثاني :

أن يستنبط الطالب من الآيات اهتمام الإسلام بالمرأة ، وذلك من قول الله تعالى :﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ سورة الأنعام آية ١٥١ .

فإن أحد الوالدين هي المرأة التي هي الأم ، والإسلام يرعى للأم هذا الحق ، ويجعل برها وطاعتها والإحسان إليها حقا مقرونا بحق الله تعالى .

إن هذا الهدف السلوكي الإجرائي ، يشتمل على صورة من صور الوقاية لمعتقد الطالب من أن يصدق ما تنادي به الأفواه الظالمة التي تردد - زورا وبهتانا - أن الإسلام ظلم المرأة وهضمها حقها ، وخاصة حين تصدر هذه الكلمات من أناس من بني جلتنا ، ويتكلمون بألسنتنا تعرف منهم وتنكر ، فيرددون عبر ما يقولون أو يكتبون أن المجتمع لا يتنفس إلا برئة واحدة ، وأن أحد جناحيه مقصوص معطل ، إلى غير ذلك من الكلمات التي ظاهرها فيها الرحمة وباطنها من قبلها العذاب ، سيما وأن أهل هذه الصرخات قد جربت الأمة طرحهم لقضاياها فألفتهم غير

مؤتمنين على مستقبلها ، أو حل مـشكلاتها ، ووجدت الخبث والغدر والخيانة تقطر من خلال أطروحاتهم .

إن الطالب حين يرى أن الإسـلام يقـرن حق الأم والأب بحـقه تعـالى ، وأن الرسـول صلى الله عليـه وسلم يوصي بالأم ثلاثا وبالأب واحـدة ، ثم يذكـر له في المقابل صورا مما تعيشه الأسر في المجتمـعات الغربية من التفكك والضيـاع ، وتعرض عليه نماذج من صرخات المنصفين من أهل تلك المجتمعات ، الذين ينادون بضرورة منع المرأة من مـخـالطة الرجـال ، وأن عمـل المرأة الحقـيـقي هو في تربيـة أولادها ، والقرار في بيتها ، إنه حين يسمع هذا كله يزداد ثقة أن الإسلام رفع من قدر المرأة ، وصان كرامتها وحفظ لها على مدار السنين حقوقها .

على أن الإسلام لا يحرم عمل المرأة ، بل إنه يؤيده ويدعو إليه حين يكون في وسط بيئية نسائية محتشمة لا اختلاط فيها ولا فجور ولا انحراف .

المثال الثالث :

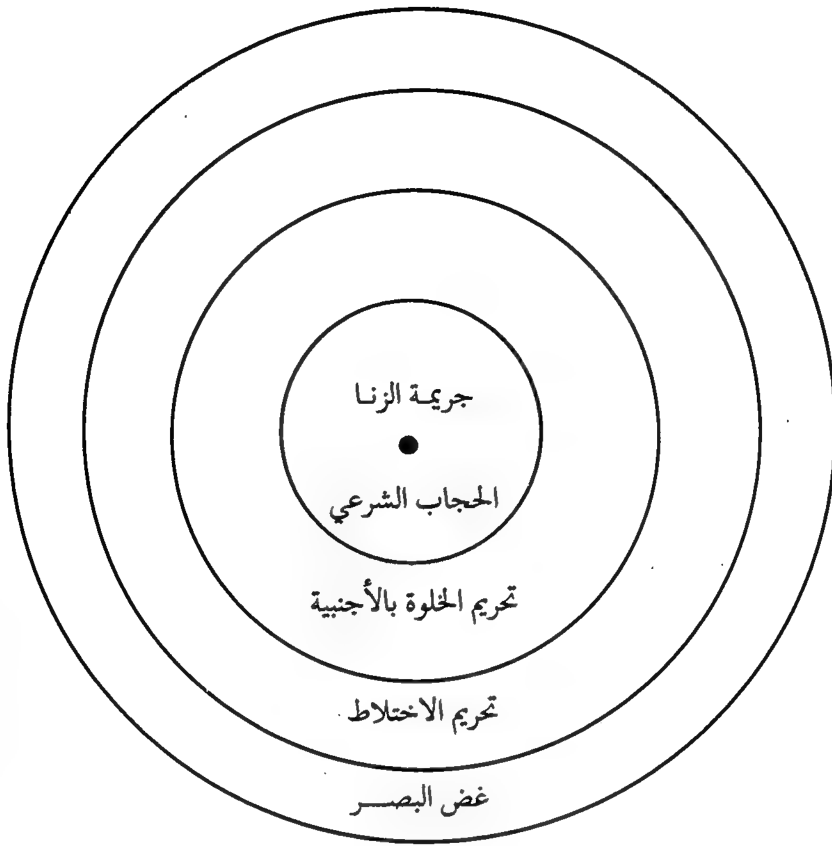
أن يعدد بعض الطرق التي تقرب من الفواحش وتيسر السبيل إليها ، أخذا من قول الله تعـالى :﴿ ولا تقربوا الفواحش مـا ظهـر منهـا وما بطن ﴾ سـورة الأنعام ١٥١ .

هذا أحد الأهداف الإجـرائية السلوكية ، الذي يـشتمل على أساليب وقـائية عظيمـة في حفظ النفس عن مواقعـة الفواحش ، وقد ذكـر بعض المفـسرين أن المراد بالفواحش هنا الزنا خاصة فـقد ذكر ابن كثير في تفسيـره (١٤١٤هـ) في تفسير قوله تعالى :﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ... الآية ﴾ سورة الأنعام آية ١٢٠ .

فقـال :((قال مـجاهد : مـعصيتـه في السر والعـلانية ، وقـال قتـادة : قليله وكثيره ، سـره وعلانيـته ، وقال السـدي : ظاهره الزنا مع البغـايا ذوات الرايات ، وباطنه مع الخليلة والصدائق والأخدان)) ج ٣ ص ٣٩٣ - ٣٩٤ .

فعلى فرض أنالمراد بالفواحش هي الزنا ، فإن من أعظم وقاية الناشئة منها ذكر آثارها الخطيرة الدينية والخلقية والاجتماعية والصحية على الأفراد والأسر والمجتمعات ، على أن المعلم قد يستخدم بعض الأفلام والشرائح والحقائق العلمية والتقارير الصادرة عن منظمة الصحة العالمية حول الآثار الصحية الخطيرة التي تنشأ في أعقاب الوقوع في الفواحش.

ثم يعرض المعلم على طلابه بالرسم التوضيحي على السبورة ، أو عن طريق وسيلة إيضاح ـ قد أعدها مسبقا ـ منهج الوقاية من هذه المآسي التي تنشأ يوم تتحطم أمام الإنسان أسوار الوقاية ، وفكرة هذا الرسم التوضيحي أن يرسم المعلم على السبورة نقطة ، ثم يحيطها بمجموعة من الدوائر ، ثم يبدأ الحديث مع الطلاب بقوله : هل تتصورون أن الوصول إلى تلك النقطة أمر سهل ميسر ودونها هذه الدوائر المغلقة ؟ ، وسيكون الجواب قطعا : لا ، وهذه هي المرحلة الأولى ، ثم يقوم المعلم بإيجاد فتحات في هذه الدوائر كلها ، ثم يكرر السؤال السابق على طلابه : هل تتصورون أن الوصول إلى هذه النقطة سهل ميسر الآن ؟ وسيكون الجواب قطعا : نعم ، وهذه هي المرحلة الثانية ، وذلك لأن الدوائر التي تمثل الحواجز قد فتحت فيها فتحات يمكن من خلالها الوصول إلى هذه النقطة ، ثم يقوم المعلم بمسح كل الدوائر التي تحيط بالنقطة ، وهذه هي المرحلة الثالثة ، ثم يكرر عليهم السؤال ، هل الوصول إلى النقطة الآن أيسر أم لا ؟ وسيكون الجواب قطعا : الوصول إليها في هذه المرحلة أسهل من المرحلة الثانية ، فإذا استقر هذا الرسم في أذهان الناشئة ، نقلهم المعلم بعد ذلك إلى ما يريد بيانه فيقول : هذه النقطة هي فاحشة الزنا ، وهذه الدوائر هي منهج الإسلام الوقائي ، فإذا كانت الدوائر محكمة الإغلاق تعسر على الإنسان الوقوع في الزنا ، وهذه هي المرحلة الأولى ، اما حين يفرط في هذه الدوائر ، وهي المرحلة الثانية والثانية فإنه من هذه الفاحشة قاب قوسين أو ادنى ، وتصوير المثال بالرسم التوضيحي كما يلي :



إن الرسم التوضيحي السابق يشير إلى نقطة في الوسط هي فاحشة الزنا ، والدوائر التي تحيط بها هي تلك التشريعات التي جاء بها الإسلام تحول بين العبد وبين مقارفة هذه الفاحشة ،

فالدائرة الأولى تشير إلى غض البصر ، لأن غض البصر سبب من أسباب البعد عن هذه الفاحشة، وفي إطلاقه فتح للباب وكسر للحاجز تجاه تلك الفاحشة، ولهذا جاء الأمر بحفظ الفرج بعد غض البصر ، فقال سبحانه :﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ﴾ سورة النور ٣٠ .

وكأن الآية تشير إلى أن الذي لا يحفظ بصره لا يحفظ فرجه ، لأن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، إذا أطلقها الإنسان في الحرام زينت له المنظور إليه فأوقعت في الشر والعياذ بالله .

يقول ابن كثير في تفسيره (١٤٠٦هـ) :((ولذلك أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك)) ج٣ص ٤٥١ .

أما الدائرة الثانية ، فهي تحريم الاختلاط ، لأنه من أعظم أسباب الفتنة ، وأي شيئ يقي الإنسان من الوقوع في هذه الرذيلة وهو يجلس بجوار امرأة أجنبية لا تحل له ، ربما لا يكون بينه وبينها في كثير من الأحيان إلا شبر واحد ، على أن المرأة وبحكم طبيعتها وما ركب فيها من حب الزينة ، وحب التنشئ في الحلية لا يمكن أن تجالس الرجال الأجانب دون أن تتجمل وتتعطر وتتزين حتى لا تحتقر وتزدرى ، ليزيد ذلك من الشر والبلاء .

أما الدائرة الثالثة فهي تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية ، امتثالا لقول النبي صلى الله عليه وسلم :﴿ لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان ﴾ سبق تخريجه ص ٢١٩ .

وإذا كان الشيطان ثالثهما فإنه يأمرهما بالفحشاء والمنكر كما قال الله تعالى عنه :﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ... الآية﴾ سورة البقرة آية ١٦٩ .

وقوله تعالى :﴿ ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ... الآية ﴾ سورة النور آية ٢١ .

أما الدائرة الرابعة فهي الأمر بوجوب الحجاب على المرأة المسلمة ، صيانة لها من أن تَفتن أو تُفتن أو تَضل أو تُضل ، كما قال سبحانه :﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ... الآية﴾ سورة الأحزاب آية٥٩ .

وما من شك أن المرأة المسلمة حين تضطر للخروج من بيتها فتتحجب الحجاب الشرعي الصحيح الذي سلف الحديث عنه في بعض الفصول السابقة من الرسالة ، لا يلتفت إليها أحد ، ولا يؤذيها أحد ، ولا يفتتن بها أحد ، فتظل الشهوات راكدة لأنها لم تجد ما يحركها ويثيرها .

على أن هذه الدوائر التي تمثل الحواجز الوقائية التي شرعها الإسلام كثيرة جدا ، وبقدر ما يقف الإنسان عندها ، بقدر ما يكون بعيدا عن الحرام ، سليما من مواقعة الفواحش .

ولكن حين لا توجد هذه الحواجز ، أو توجد ولكن يتعداها الإنسان ظلما وعدوانا فإنه حينئذ لا يجد ما يصده عنها ، وبالتالي فإن مقارفته للزنا واقعة لامحالة، ومن رعى بغنمه حول الحمى أوشك أن يرتع فيه .

إن الرسم التوضيحي فوق أنه يعطي صورة واضحة لمنهج الإسلام الوقائي ، فإن يساعد كذلك على إيصال المعلومة إلى الطالب بيسر وسهولة ، ويساعده دوما على استذكارها ، لأن العين ربما تعلقت بالشكل أكثر من تعلقها بالعبارة .

المثال الرابع :

أن يبين الطالب منهج الإسلام في التعامل مع الكلمة ، أخذا من قول الله تعالى :﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ سورة الأنعام آية ١٥٢ .

ويشتمل هذا الهدف على منهج وقائي عظيم في حفظ الأفراد والأسر والمجتمعات من غوائل الكلمة وآثارها الخطيرة حين لا يتقي صاحبها فيها الله ، ولايزنها بميزان ربه ومولاه ، وفي هذا يقول الله تعالى وهو يأمر العبد بحفظ لسانه عن استخدامه في الظلم والعدوان :﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ سورة (ق)آية ١٨ .

فالإسلام يحمل العبد مسئولية الكلمة التي يقولها ، وعلى قدر عظم الكلمة وعظم أثرها في الفساد يكون عظم مسئوليتة عنها أمام الله تعالى .

لقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن سبب هلاك العباد في الدنيا والآخرة هي حصائد الألسنة ، فقد روى الترمذي في سننه (د - ت) من حديث معاذ رضي الله عنه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا : وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال صلى الله عليه وسلم :﴿ ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الاس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ﴾ ج ٥ ص ١٣، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٤٠٩هـ) ج ٢ ص ٣٢٩ .

كما وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من حفظ لسانه وفرجه بالجنة ، فقد روى البخاري في صحيحه (مع الفتح د - ت) من حديث سهل بن سعدرضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :﴿ من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة ﴾ ج ١١ ص٣٠٨ .

لقد جعل الإسلام أحد المرتكزات الهامة التي تقوم عليها الكلمة العدل ، فقال جل جلاله مخاطبا عباده المؤمنين :﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ سورة الأنعام آية ١٥٢ .

يقول ابن كثير في تفسيره (١٤١٤هـ) تحقيق الوادعي :((يأمر تعالى بالعدل في الفعال والمقال ، على القريب والبعيد ، والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد في كل وقت وفي كل حال)) ج ٣ ص ٤٤٦ .

فالمسلم مطالب أن يتقي الله في كلمته سواء كانت مسموعة أو مكتوبة ، وعليه أن يتحرى فيها العدل مع كل أحد سواء كان قريبا ودودا أو خصما لدودا ، وعليه كذلك أن يتحرى العدل ساعة التلفظ بها سواء كان فرحا أو مغضبا ، راضيا أو ساخطا .

يقول الرازي في تفسيره (١٤١٠هـ) :

((واعلم أن هذا أيضا من الأمور الخفية التي أوجب الله تعالى فيها أداء الأمانة ، والمفسرون حملوه على أداء الشهادة فقط ، والأمر والنهي فقط ، قال القاضي : وليس الأمر كذلك بل يدخل فيه كل ما يتصل بالقول فيدخل فيه مايقوله المرء في الدعوة إلى الدين وتقرير الدلائل عليه ، بأن يذكر الدليل ملخصا عن الحشو والزيادة بألفاظ مفهومة معتادة ، قريبة من الأفهام ، ويدخل فيه أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واقعا على وجه العدل من غير زيادة في الإيذاء والإيحاش ، ونقصان عن القدر الواجب ، ويخل فيها الحكايات التي يذكرها الرجل حتى لا يزيد فيها ولا ينقص عنها ، ومن جملتها تبليغ الرسالات عن الناس، فإنه يجب أن يؤديها من غير زيادة ولا نقصان ، ويدخل فيه حكم الحاكم بالقول)) ج ١٣ص ٢٤٨ .

إننا مطالبون بالعدل في زمن عز فيه العدل مع الخصوم ، وقاية من الفرقة والخلاف التي عصفت بالأمة أفرادا وجماعات يوم أن انطلقت الكلمات والتهم والظلم والتعدي ، فلم تورث إلا تعصبا مقيتا وحزبية منكرة ، فتفرقت على أثرها القلوب وضاع الحق عند بعض الناس في غمرة الظلم والعدوان والعصبية الممقوته .

إن قول كلمة الحق مطلب شرعي حتى ولو كان المتضرر منها أقرب الأقربين، لأن فيها مرضاة الله تعالى ، وحين يكون فيها رضى الله تعالى فلا عبرة بالقرابة والصلة ، ولا عبرة بالبغض والشنآن .

يقول سيد قطب في الظلال (١٤٠٠هـ) :

((وهنا يرتفع الإسلام بالضمير البشري ـ وقد ربطه بالله ابتداء ـ إلى مستوى سامق رفيع على هدى من العقيدة في الله ومراقبته ، فهنا مزلة من مزلات الضعف

البشري ، الضعف الذي يجعل شعور الفرد بالقرابة هو شعور التناصر والتكامل والامتداد ... وهنا في هذه المزلة يأخذ الإسلام بيد الضمير البشري ليقول كلمة الحق والعدل ، على هدى من الاعتصام بالله وحده ، ومراقبة الله وحده ، اكتفاء به من مناصرة ذوي القربى ، وتقوى له من الوفاء بحق القرابة دون حقه ، وهو سبحانه أقرب إلى المرء من حبل الوريد)) ج ٣ ص ١٢٣٣ .

إذن فتربية الناشئة على ضبط الكلمة ، والعدل عند إطلاقها مطلب شرعي ، يجب أن يحتوي عليه المنهج الذي يدرسه الطالب ، ويجب أن يُسمع هذا المطلب من المعلم عند الحديث عن الآخرين ، وفي هذا كله وقاية من الظلم والعدوان والفرقة والخلاف .

المثال الخامس :

أن يعلل الطالب سر إفراد الصراط ونسبته إلى الله تعالى ، وجمع السبل وعدم نسبتها إليه سبحانه في قوله جل جلاله :﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ... الآية ﴾ سورة الأنعام آية ١٥٣ .

ويشتمل هذا الهدف على أسلوب وقائي عظيم ، فيه وقاية الناشئة من الانحراف عن هذا الصراط المستقيم الذي شرعه الله تعالى لعباده وجعله منهجا لهم لا يرتضي منهم سواه .

وفي توضيح هذه المعاني يحسن بالمعلم أن يرسم رسما توضيحيا يبين فيه الصراط المستقيم ، ويرسم السبل المنحرفة عنه ليكون ذلك أدعى إلى أن ترسخ المعلومة في أذهان الطلاب ، وقد فعل هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صحابته حين رسم لهم ذلك على التراب .

فقد روى ابن ماجة في سننه (د ـ ت) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فخط خطا وخط خطين عن

يمينه، وخط خطين عن يساره ، ثم وضع يده في الخط الأوسط فقال :﴿ هذا سبيل الله ﴾ ثم تلا هذه الأية: ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ ج ١ ص ٦، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٤٠٨هـ) ج ١ ص ٧، والأية في سورة الأنعام برقم ١٥٣ .

أما سر إفراد الصراط بالذكر لغة ، فلأن الصراط لا يمكن جمعه ، فلا يمكن أن يقال : جمع صراط : أصرطه أو صراطات ، لأنه لا يكون إلا واحدا ، إذ لو كان للصراط جمع ، لضاع الإنسان واحتار في أيها يتبع ، ولكن الصراط المستقيم لا يكون إلا واحدا لغة ومعنى ٠

ثم إن نسبة الصراط إلى الله تعالى فيها تشريف له وتشريف لمتبعيه ، فكأن الذين يسيرون عليه قد آثروا مرضاة الله على مرضاة أنفسهم وشهواتهم ، فساروا في طريق الله الذي دعاهم إليه فلم يترددوا ، أما السبل فقد جمعت لكثرتها ، ولأن عددها بعدد الشياطين الموجودة في الأرض إذ على رأس كل سبيل شيطان ، ولم تنسب هذه السبل إلى الله تعالى ، لأن الله لا يرضى لعباده اتباعها والسير في أوديتها وشعابها ، كما قال سبحانه :﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ سورة الزمر آية ٧ .

وهنا قد يثور في أذهان الطلاب تساؤل مفاده : كيف يعرف الإنسان منا أنه يسير على الصراط المستقيم في زمن ادعى فيه كل إنسان أنه على الصراط المستقيم ولو كان يشرك بالله ما لم ينزل به سلطانا ؟ وجواب هذا التساؤل يكون بإعطاء الطلاب قاعدة كلية يستطيعون من خلالها وزن كل معتقد أو فكر أو عمل أو عبادة٠

وهذه القاعدة هي القاعدة التي وضعها النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه حين حدثهم عن افتراق أمته صلى الله عليه وسلم إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في

النار إلا واحدة هـي الفرقة الناجية ، فـقد روى الترمـذي في سننه (د – ت) من حديث عبد الله بن عمرو رضيالله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أمه عـلانية لكان في أمـتي من يصنع ذلك ، وإن بني إسرائيل تـفرقت على ثنتين وسـبـعين ملة وتفـتـرق أمـتي على ثلاث وسـبـعين ملة كلهـم في النار إلا ملة واحدة، قال من هي يـا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليـه وأصحابي ﴾ ج ٥ ص٢٦ . والحديث صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٤٠٨هـ) ج ٢ ص ٣٣٤، إن القاعدة في هذا الحديث والتي يجب أن يتـعلمها الطالب هي :﴿ من كان على مثل ما أنا عليـه اليوم وأصحابي ﴾ فإذا مـا أدركها الطالب استطاع أن ينجـو بنفسه من كل معتقد أو عبـادة ليس عليها ختم النبوة ، واستطاع أن يصـدر حكمه على كل من يعتقد أو يعبد الله بشي لم يكن علـى مثل ما كان عليه النبي صلى الله عليه وأصحابه ، وفي ذلك وقاية له من الانحراف عن الصراط المستقيم حين يتبع السبل الضالة التي حـدث عنها النبي صلى الله عليه وسلم ووعـد أصحابها بالنار ، سـيما في مثل هذا العصر الذي أصبح العالم الإسلامي يعيش فترة حـرجة من التناقضات العقدية والصراعات الفكرية .

ثانيا : درس في الحديث الشريف :

عنوان الدرس :

حديث القاتل

الحـديث له روايات مختلفة الألفـاظ وكلهـا صحـاح ، وقد أدخل البـاحث بعضهـا في بعض عند عرض الحديث لتتضح القصة في الأذهان بسـردها كاملة ، لأن بعض الروايات تكمل بعضا ، وبعضها يشرح بعضا ويبينه .

روى البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) ومسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدُل على راهب ، فأتاه فقال ، إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدُل على رجل عالم ، فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبه ؟ فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة ، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله تعالى ، فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبا مقبلا بقلبه إليالله تعالى، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيرا قط ، فأتاهم ملك في صورة آدمي ، فجعلوه بينهم ، أي حكما ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أدنى فهو له ، فقاسوا فأوحى الله إلى القرية الظالمة أن تباعدي ، وإلى القرية الصالحة أن تقربي فلما قاسوا وجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد بشبر ، فقبضته ملائكة الرحمة فغفر له ﴾ البخاري ج ٦ ص ٥١٢ ومسلم ١٨ص ٨٩ .

الأهداف السلوكية :

يتوقع من الطالب في نهاية الحصة أن :

١ـ يعطي لمحة موجزة تحدد الملامح العامة لشخصية راوي الحديث .

٢ـ يبين حكم الرواية عن بني إسرائيل .

٣ـ يستنبط من الحديث مفهوم الحديث ﴿ الحكمة ضالة المؤمن ﴾ .

٤ـ يذكر سبب اختيار القتل ومنزلته بين الذنوب عند بني إسرائيل .

٥ـ يستنبط من الحديث واعظ الله في قلب كل مؤمن مهما كان ذنبه وجرمه .

٦- يبين أثر ربط الناس في القضايا الشرعية بالعلماء الربانيين .

٧- يقارن بين أثر الجاهل والعالم في حياة الناس .

٨- يعلل الحكمة من عدم نسبة القتل إلى الفاعل بضمير المتكلم .

٩- يبين أثر الفتوى بغير علم على الإنسان في الدنيا والآخرة .

١٠- يستنبط من الحديث عدم اليأس من رحمة الله تعالى .

١١- يبين آثار العلماء الربانيين على الناس في كل مجتمع .

١٢- يذكر فائدة الزيادة على الجواب للمصلحة .

١٣- يبين آثار التوجيه السليم في استقامة الإنسان على أمر الله تعالى .

١٤- يستنبط من الحديث أنه لا واسطة بين العبد وبين ربه في قبول العمل .

١٥- يستنبط من الحديث أثر العبادة على الأفراد والمجتمعات في الدنيا .

١٦- يبين أثر الصحبة الصالحة على الإنسان في الدنيا والآخرة .

١٧- يبين أثر الصحبة السيئة على الإنسان في الدنيا والآخرة .

١٨- يستنبط من الحديث أن القرية الظالمة كانت لا تحكم بشرع الله تعالى .

١٩- يذكر آثار التوبة على الإنسان في الدنيا والآخرة .

٢٠- يعدد من خلال عرض الحديث شروط التوبة .

٢١- يستنبط من الحديث أن الإيمان قول وعمل واعتقاد .

٢٢- يصدر حكما على توبة القاتل في شريعتنا قبل القدرة عليه وبعد ذلك .

٢٣- يستنبط من الحديث رحمة الله بالإنسان حين يقبل على ربه .

٢٤- يذكر العلاقة بين هذا الحديث وبين حديث ﴿ وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ... ﴾

٢٥- يستنبط من الحديث محبة الكون للعبد التائب وتضامنه معه .

وهذه بعض الأمثلة التي تشتمل فيها الأهداف السلوكية الإجرائية على أساليب وقائية يمكن للمعلم والمنهج والنشاط أن يعززها في نفس الطالب ٠

المثال الأول :

ورد في الهدف الثاني : أن يبين الطالب حكم الرواية عن بني إسرائيل ، وفي هذا الهدف جانب وقائي كبير لمعتقد الطالب وأخلاقه ، ذلك أن الناظر إلى ما ورد في الكتاب والسنة من أحاديث بني إسرائيل يرى أنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : صحيح ثابت لوروده في كتاب الله تعالى ، أو فيما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كقصة القاتل التي يدور حولها الحديث في هذه النقطة ، وقصة الذين آواهم المبيت إلى غار ، وقصة الذي أمر أهله أن يحرقوه بعد موته وأن يستقبلوا به يوما عاصفا فينثروه ، وغيرها كثير ٠

القسم الثاني : كذب غير ثابت ، كالأحاديث المختلقة التي ألصقوها بأنبياء الله تعالى ورسله الكرام ، كنبي الله سليمان عليه السلام٠

القسم الثالث : ما لم تثبت صحته أو يثبت كذبه ، وفيه عبرة لكونه يؤكد معنى حسنا ، أو قضية فيها فائدة ، أو على أقل تقدير يتكلم عن قضايا مباحة ليس فيها ما يؤثم ٠

إن بعض الكتب قد ملئت بمثل هذه الأحاديث التي ربما كان في أكثرها من الخطأ شيء كبير ، فإذا كان الطالب على علم بمثل هذا التقسيم استطاع أن يميز بين هذه الروايات بمعرفة غثها من سمينها وصحيحها من سقيمها ، وقاية لدينه من الشبه ، ومعتقده من الانحراف ، ومن أمثلة ذلك :

ما ذكره المفسرون حول قول الله تعالى :﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به

فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين * فلما آتهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون ﴾ سورة الأعراف آية ١٨٩ - ١٩٠ .

فقد ذكر ابن كثير في تفسيره (١٤٠٦هـ) وساق السند إلى أبي بن كعب قال : لما حملت حواء أتاها الشيطان فقال لها : أتطيعيني ويسلم لك ولدك ؟ سميه عبدالحارث ، فلم تفعل فولدت فمات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك ، فلم تفعل ، ثم حملت الثالثة فجاءها فقال : أن تطيعيني يسلم وإلا فإنه يكون بهيمة ، فهيبهما فأطاعا)) ج ٢ ص٤٣٦ .

وما من شك أن هذه من الروايات مما نقل عن بني إسرائيل ، وأنها تصادم مافي كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فإن آدم عليه السلام لم يشرك بالله قط ، إذ لو صح هذا الخبر لكان الأصل الذي فطر عليه الناس الشرك بالله .

وقد تعقب ابن كثير رحمه الله في تفسيره تحقيق الوادعي (١٤١٤هـ) هذه القضية بالبيان فقال : ((وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله هذا ، وأنه ليس المراد من السياق آدم وحواء ، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ... فذكر آدم وحواء أولا كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس ... ولهذا نظائر في القرآن)) ج ٢ ص ٤٣٦ .

كما أن هذا الأسلوب ينمي في الطالب حس القدرة على التمييز بين الروايات الباطلة التي ربما تعترضه في حياته ، أو تناقض ما معه من الأصول الصحيحة ، فإما أن يبحثها بحثا جيدا ، أو يسأل عنها أهل العلم حين يعجز عنها ، وفي هذا تربية له على ألا يقدس الكلمة المسموعة أو المقروءة حين يشك في أمرها حتى يعرضها على أهل الذكر .

وفي قصة القاتل الثابتة في السنة الصحيحة من الدروس والعبر الشيء الكثير لعل الباحث قد عرض لبعضها حين الحديث عن الأهداف السلوكية التي تتضمن أهدافا معرفية ووجدانية ومهارية .

المثال الثاني :

ورد في الهدف التاسع : أن يبين الطالب أثر الفتوى بغير علم على الإنسان في الدنيا والآخرة ، ويشتمل هذا الهدف على وقاية الطالب من التسرع في الفتوى والحرص عليها والتطلع إليها ، وخاصة في المسائل التي ربما اشتبه عليه فيها الصواب ، وقد سلف الحديث عن أقوال السلف في ذم من تصدر للفتوى وهو من غير أهلها ،

وفي حديث القاتل درس عظيم يبين أثر الفتوى بغير علم ، فقد دَلَّ القاتلَ إنسانٌ لا يعي الفرق بين العالم والعابد لجهله وقلة فقهه فأقبل التائب على العابد الذي كان أيضا لا يفقه ولا يعلم إنما يعبد الله على جهل ، فأفتاه بغير علم فكان الثمن نفسه التي بين جنبيه وليته بقي على جهله عارفا بقدر نفسه ولم يتصدر للفتوى على غير هدى ولا بصيرة .

لقد كانت نتيجة فتواه بغير علم أن فقد على أثرها حياته ، حين سد في وجه التائب الأمل، وقنطه من رحمة الله التي وسعت كل شيء ، فقتله فكمل به المائة .

ومرحبا بالعالم الرباني الذي استقبل التائب بخير ما يكون الاستقبال ، مبينا له أنه لا أحد يحول بين العبد وبين أن يتوب إلى ربه الذي يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها، ولم يكتف بفتح باب الأمل له ليبدأ مع ربه صفحة جديدة ، بل دله على سبب عظيم من أسباب الاستقامة على أمر الله ، ألا وهو مصاحبة الأخيار والحرص على مجالسهم .

صحيح أن منظر القاتل كان يثير الاشمئزاز حين أقبل ودماء الأبرياء تكسو ثيابه ، وآثارها لا تزال تقطر من ذبابة سيفه ، وقسمات الهموم والأحزان تعلو محياه، ولكن العلماء الربانين ، والمربين الصادقين يعلمون أن الإنسان معرض للخطأ، وأن مثل هذا في أمس الحاجة إلى الرعاية والعناية والاهتمام والملاطفة والمؤانسة ، فمن يدري ربما كان هذا المجرم يوما من الدهر نصيرا للحق ، ومعينا على الخير ، وربما كان من أهل المنازل العليا في الجنة .

إن في تربية الطلاب على رد الفتوى إلى أهلها وقاية لهم من الزلل الذي ربما ضل على أثره الإنسان عن الحق ، ففاتت عليه مصالح دينية أو دنيوية .

المثال الثالث :

ورد في الهدفين السادس عشر والسابع عشر : أن يبين الطالب آثار الصحبة الصالحة والسيئة على الإنسان في الدنيا والآخرة ، ويشتمل هذا الهدف على هدف وجداني يسعى المعلم الجيد إلى تربية الطلاب عليه ألا وهو البحث عن الجليس الصالح ولزوم غرزه ، والحذر من جلساء السوء ومخالطتهم ، عن طريق بيان آثار هذه الصحبة على الإنسان في الدنيا والآخرة ، ويكون ذلك بعرض بعض القصص، وضرب الأمثلة، والترغيب والترهيب وغير ذلك من الأساليب الكثيرة .

ففي قصة القاتل يمكن أن يستنبط المعلم آثر الصحبة الصالحة على الإنسان في الدنيا والآخرة ، فها هو القاتل ينصح بتغيير البيئة التي كان يعيش فيها ، وهي بيئة فاسدة تركت له الحبل على الغارب حتى فتك بمائة نفس بريئة ، يتم أطفالها ، وأرمل نساءها ، وأثار الرعب في مجتمعها ، ولم يكن هناك من يوقفه عند حده ، بل لربما كان هناك من يؤيده ويشد من أزره ، فكان منه ما كان .

ثم تأتي نصيحة العالم الرباني له قائلا : إن قريتك قرية سوء ، بمعنى أنها بيئة ملوثة بالمعاصي والسيئات ، والإيمان لا ينمو في وسط مثل هذه الأجواء المعكرة

بالظلم والطغيان والفساد والإفساد ، وهناك قرية صالحة فيها أناس يعبدون الله فاذهب إليهم واعبد الله معهم ، فماذا كانت نتيجة الصدق في التوبة الذي دل عليها العزم الأكيد على مفارقة أهل السوء ، وقضاء بقية العمر مع العباد الصالحين من أهل القرية ، لقد كانت نتيجة ذلك مغفرة ذنوب تنوء الجبال بحملها ، هي أول الذنوب يقضى فيها بين الخلائق يوم القيامة ، إنها الدماء التي سفكت في الدنيا بغير حق ، ولكن رحمة الله تعالى بالإنسان لا تقف عند حد ، ولطفه بعباده لا يوقفه أحد ، قال تعالى :﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا * إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورارحيما ﴾ سورة الفرقان آية ٦٨ - ٧٠ .

إن الكلب وهو من أقذر الحيوانات قد ذكر في القرآن الكريم يوم صاحب الأخيار ، وسار مع الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم الله هدى ، فلا يذكرون إلا ويذكر معهم ، ولا يعدون إلا ويكون معهم ، قال الله تعالى :﴿ وكلبهم باسط ذراعيه بالوسيط ... الآية﴾ سورة الكهف آية ١٨ ، وقال تعال :﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ... الآية ﴾ سورة الكهف آية ٢٢ .

فكيف إذا صاحب الأخيارَ إنسانٌ مكرم مميز عاقل ، لا شك أنه لا يشقى وهو معهم ، ولا شك أنه سيكون على منهجهم وطريقتهم ، فقد روى الترمذي في سننه (د - ت) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :﴿ الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل ﴾ ج ٤ ص ٥٠٩ ، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٤٠٨هـ) ج ٢ ص ٢٨٠ .

لقد كان أبو طالب على خلة حميمة مع أبي جهل وأبي لهب وعقبة وأبي ، فكيف كانت نهايته ؟ وما آثار الصحبة السيئة عليه ؟ لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطمع في هدايته حتى في آخر لحظات عمره وهو يعيش سكرات الموت ، ولكن :﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ فقد روى البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل فقال : أيا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله ، فقال أبوجهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب !؟ فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به : على ملة عبد المطلب ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لأستغفرن لك ما لم أنه عنه ، فنزلت :﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ ج٧ص١٣٩ .

لقد كانت الصحبة السيئة تحمسه في معتقدات آبائه وأجداده ، وتحذره من الهزيمة ـ في نظرهم ـ إن هو اتبع محمدا في تلك الساعة ، وما سيلحق به من العار بعد موته ، فقال بتأثير أصدقاء السوء ـ بعد قضاء الله وقدره ـ حين وضع رأسه على الوسادة في آخر نفس ، بل أموت على دين عبد المطلب ، فخسر خسارة لا يسعد بعدها أبدا ، وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه في النار من أهون أهل النار عذابا ، فقد روى البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ت) ومسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذكر عنده عمه أبو طالب فقال :﴿ لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة ، فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه أم دماغه ﴾ البخاري ج ١١ ص ٤١٧ ، مسلم ج ٣ ص ٨٥ ، على أن تعزيز الوقاية من جلساء السوء من أهم الأمور التي يجب أن ينجح المعلم في إقناع طلابه بها ،

ولنا في الأصفهاني قدوة وهو يعرض أثر الصحبة السيئة عن طريق التحذير المقنع تارة ، وضرب المثال تارة أخرى ، فقد ذكر رحمه الله في كتابه الذريعة إلى مكارم الشريعة (١٤٠٨ هـ) في التحذير من مصاحبة البطالين وأهل الزيغ والفساد قوله :

((إياك ومجالسة الأشرار فإن الطبع يسرق من الطبع وأنت لا تدري ... ومعلوم أن الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيفة إذا قربت منهما ، وذلك مما لا ينكره ذو تجربة ، فإذا كانت هذه الأشياء قد بلغت في قبول التأثير هذا المبلغ ، فما الظن بالنفوس البشرية التي موضوعها على مثل صور الأشياء خيرها وشرها)) ص ٣٦٨

إن الإنسان مدني بطبعه ، بمعنى أنه لا يمكن أن يعيش في معزل عن الناس ، بل لا بد له من الاحتكاك بهم واتخاذ الأصحاب منهم، وبما أن الصاحب ساحب، وأن المرء على دين خليله ، وأن الطبع يسرق من التطبع والإنسان لا يدري ، فإن من الأهمية بمكان أن يزرع في أذهان الناشئة ضرورة البحث عمن ترضى صحبته ، وقد ذكر ابن جماعة كلاما نفيسا في تذكرة السامع والمتكلم (١٤١٥هـ) يوصي فيه بالبحث عن أهل الخير الذين لا يزداد الإنسان بمعرفتهم إلا خيرا ، والحذر من أهل السوء والبطالين وقطع الصلة بهم قبل أن تتمكن من النفوس ، فقال :

((فإذا شرع أو تعرض لصحبة من يضيع عمره معه ولا يفيده ، ولا يستفيد منه ، ولا يعينه على ما هو بصدده ، فليتطلف في قطع عشرته من أول الأمر قبل تمكنها ، فإن الأمور إذا تمكنت عسرت إزالتها ومن الجاري على ألسنة الفقهاء ، الدفع أسهل من الرفع ، فإن احتاج إلى أن يصحبه فليكن صاحبا صالحا دينا تقيا ورعا ذكيا كثير الخير ، قليل الشر حسن المداراة ، قليل المماراة ، إن نسي ذكره ، وإن ذكر أعانه ، وإن احتاج واساه ، وإن ضجر صبره ، ومما يروى عن علي رضي الله عنه :

فلا تصحب أخا الجهل وإياك وإيـــــــاه

فكم من جاهل أردى حليما حين آخـــاه

يقاس المرء بالمـــــــر إذا ما المرء ماشـــاه

ص ١٣٠ - ١٣١ .

المثال الرابع :

ورد في الهدف الرابع والعشرين : أن يذكر الطالب العلاقة بين هذا الحديث وبين حديث ﴿ فوالله إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ﴾ وهو في البخاري (مع الفتح د ـ ت) ج ١١ ص ٤٧٧ ، وفي مسلم (شرح النووي د ـ) ج ٥١ ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠ .

إن في كشف العلاقة بين هذين الحديثين وقاية للطالب من القعود عن العمل حين يظن أن الأعمال قد كتبت وقدرت وأنه لا فائدة من العمل في شيء قد سبق تقدير الله له .

سيما وأن الطالب حين يربط بين الحديثين ربما خرج بفهم قاصر ، حين يظن أن الأسلم للعبد أن يقعد عن العمل مستسلما للقضاء والقدر ، فقد يعمل العبد طول حياته بعمل أهل النار ثم يسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ، فهذا القاتل عاش فترة من عمره يعمل بعمل أهل النار ، ثم تاب إلى الله تعالى في آخر لحظات حياته ، بمعنى أنه ينطبق عليه حديث :﴿ وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ﴾

إن بعض الطلاب حين يسمع بمثل هذه القضايا ، أو يسمعون مثل هذه القصص يثور في أذهانهم تساؤل مفاده : ما دام أن بعض الناس يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها والعكس كذلك ، ففيم العمل إذن ؟ .

وجواب هذا التساؤل أن العبد لايدري ما الذي سبق عليه الكتاب في شأنه ، لا سيما أن العبد ميسر لما خلق له ، وقد ثبت هذا عنالنبي صلى الله عليه وسلم فقد روى البخاري في صحيحه (مع الفتح د ـ ب) من حديث على رضي الله عنه قال : كنا جلوسا مع النبي صلى الله عليه وسلم ومعه عود ينكت به في الأرض فنكس وقال :﴿ ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار أو من الجنة ، فقال رجل من القوم : ألا نتكل يا رسول الله ؟ قال : لا ، اعملوا فكل ميسر ، ثم قرأ ﴿ فأما من أعطى واتقى﴾ ج ١١ ص ٤٩٤ والآية في سورة الليل برقم ٥ .

فأهل الجنة ميسرون إلى عمل أهل الجنة ، وأهل النار ميسرون إلى عمل أهل النار ، وفي هذا وقاية من القعود عن العمل اتكالا على القضاء والقدر .

درس في مادة الأحياء

موضوع الدرس :

حاستا اللمس والبصر

الأهداف السلوكية :

يتوقع من الطالب في نهاية الحصة أن :

١ـ يقرأ بعض الآيات التي تلفت الأنظار إلى عظمة خلق الإنسان .

٢ـ يعدد الحواس الخمس التي يتمتع بها الإنسان .

٣ـ يستنبط عضو الحس في الإنسان .

٤ـ يذكر دور الأعصاب اللمسية .

٥ـ يحدد العلاقة بين الأعصاب اللمسية والمخ .

٦ـ يبين دور المخ حين الشعور بالألم .

٧ـ يعلل سبب تبديل جلود الكفار في نار جهنم ، في قوله تعالى :﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب﴾ سورة النساء آية ٥٦ .

٨- يقارن بين حال الجلود في الدنيا والآخرة .

٩- يقارن بين حاستي اللمس والنظر .

١٠ - يبين معنى التجويف الحجاجي .

١١- يبين الحكمة من وجود العين في التجويف الحجاجي .

١٢- يعدد الأشياء التي تحمي العين من المؤثرات الخارجية .

١٣- يحدد مكان الغدة الدمعية .

١٤- يوضح دور الغدة الدمعية .

١٥- يعدد وظائف الدمع الذي تفرزه الغدة الدمعية .

١٦- يعدد أنواع الدمع الذي تفرزه الغدة الدمعية .

١٧- يحدد مصير الدمع الزائد الذي تفرزه الغدة الدمعية .

١٨- يسمي الغطاء الرقيق الذي يبطن الجفون من الداخل .

١٩- يبين سبب قدرة العين على الحركة داخل التجويف الحجاجي .

٢٠- يعدد الطبقات التي تتركب منها العين .

٢١- يبين كيف ترى العين الأجسام القريبة منها والبعيدة .

٢٢- يذكر الحكمة من وجود كل جزئية في العين .

٢٣- يذكر الحكمة من وجود العين كلها .

٢٤- يذكر الحكمة من وجود الإنسان بهذا الجهاز المعقد .

٢٥- يبين كيف يشكر العبد ربه على نعمة العين.

٢٦- يقارن بين حال العين في الدنيا والآخرة .

٢٧- يبين موقف المسلم من الحقائق العلمية التي يستدل عليها ببعض نصوص الكتاب والسنة .

إن هذه الأهداف السلوكية السالفة الذكر حول حاستي اللمس والإبصار يمكن من خلالها أن يربي المعلم طلابه تربية وقائية تقوم على زرع العقيدة في نفوسهم ، ذلك أن العقيدة حين تتمكن من النفوس تكون أعظم سياج يحول بين العبد وبين الوقوع في المخالفات وهو يرى آثار خلق الله ، وما أبدع الله فيه من الصنع والتركيب ، سواء كان هذا هو المحصلة النهائية من الأهداف كلها ، أو حين تستقل بعض الأهداف بهذه التربية ٠

كلمة لا بد منها :

إن معلم الأحياء فرد في أمة عالمية ، خُلقت لأكبر مهمة استقبلتها الدنيا ، وحُمّلت أعظم رسالة عرفها الوجود ، إنها إخراج العباد من عبادة العباد والشهوات والمتع إلى عبادة رب العباد ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان والنظم والقوانين إلى عدل الإسلام ٠

وإذا استشعر معلم العلوم الطبيعية هذه القضية جند طاقته لتطويع مادته العلمية لخدمة قضيته ، وليس معنى هذا أن معلم العلوم الطبيعية مطالب أن يحول مادته إلى حصة تربية إسلامية ، فإن طبيعة المادة التي يدرسها وضعت ليستفيد منها الطالب في الجانب العلمي من حياته ٠٠ ولكن ٠٠

لابد لمعلم الأحياء كمثال لباقي المعلمين في التخصصات العلمية - كي يضطلع بمهمته التي سلف الحديث عنها - من الأمور التالية :

* أن يكون قدوة في حمله لمبادىء الإسلام ، وتطبيقه لتوجيهاته ، فإذا ما كان قدوة في مظهره ومخبره ، وحمل هذه القدرة العلمية الجيدة في جانب تخصصه فإنه يرسل إلى طلابه رسالة أن هذا الدين لم يكن يوما من الأيام عبادة في زوايا المساجد ، أو كهنوتا في المحاريب ، إنما هو دين ودنيا ، وآخرة وأولى ، وعمل دؤوب للعاجل والآجل ٠

* ألا تخلو حصته قدر الإمكان من توجيه وتربية سواء كان ذلك فيما يتعلق بمادته من حقائق ، أو حتى فيما لا علاقة له بمادته ، فإنه قد يرى سلوكا حميدا في المدرسة أو خارجها يسعى إلى تعزيزه وتربية طلابه عليه ، أو سلوكا غير حميد يسعى عبر توجيهه إلى وقاية طلابه منه وتحذيرهم من فعله أو التخلق به .

* أن يحبب هذا العلم إلى نفوس الناشئة ، لأن الأمة مطالبة أن تبدع في مثل هذه التخصصات - على حكم فرض الكفاية - حين تبحث عن آيات الله في الآفاق وفي الأنفس لتبرهن على توحيدها الذي تدين الله به من جانب ، ولتفيد من هذا العلم في حياتها عن طريق المخترعات والمكتشفات التي هي ثمرة المنهج العلمي في البحث والتفكير والتجريب والمشاهدة والتأمل ، المتولد عن دراسة مثل هذه العلوم من جانب آخر ، وهذا تحقيق لقول الله تعالى :﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ... الآية) سورة فصلت آية ٥٣ .

وسوف يتحدث الباحث عن بعض الأهداف السلوكية التي تتضمن أهدافا وجدانية يرى أن المعلم يمكنه أن يؤسس العقيدة في قلوب طلابه من خلالها .

المثال الأول :

ورد في الهدف السابع من الأهداف السلوكية : أن يعلل الطالب سبب تبديل جلود الكفار في نار جهنم ، كما قال سبحانه :﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ سورة النساء آية ٥٦، فقد بين رب العالمين في محكم تنزيله أن جلود المعذبين في نار جهنم تتبدل كلما أحرقتها النار ، وعلل سبحانه الحكمة من ذلك بقوله :﴿ ليذووا العذاب ﴾ .

فهناك علاقة بين الجلد وبين ذوق العذاب ، ولا يمكن للمعذب أن يذوق العذاب ما لم يحس به ، وهنا يمكن أن تطمئن النفوس إلى الحقيقة العلمية التي اكتشفها العقل ، والتي تقول أن منطقة الإحساس هي الجلد .

على أن القرآن الكريم وهو يشير إلى تغيير جلود الكفار في نار جهنم لا يعني بالضبط هذه الحقيقة العلمية التي توصل إليها الناس ، ولكن يمكن للعقول أن تجعل من الآية فرصة للبحث والنظر في الجلد وقدرته على الإحساس والعلاقة بينه وبين المخ ، فإن أصابت فبتوفيق من الله تعالى ، وإن اخطأت فإنما ذلك لقصور في عقل الإنسان لا في القرآن الكريم ٠

لقد ذكر بعض المفسرين في تبديل الجلود معان كثيرة ، فذكر ابن كثير في تفسيره (١٤١٤هـ) :((أن يحي الحضرمي بلغه أنه يجعل للكافر مائة جلد بين كل جلدين لون من العذاب)) ج ٢ ص ٤٠٥، وذكر الرازي في تفسيره (١٤١٠هـ) :((أن المراد بالجلود هي السرابيل)) ج ١٠ص ١٣٩ ، وقال القرطبي في تفسيره (١٣٨٧هـ):((أن الجلود تبدل بجلود بيض كالقراطيس ، وأنها تبدل كل يوم سبع مرات ، وقيل سبعين ألف مرة)) ج ٥ ص ٢٥٥، وهذه المعاني كلها قائمة على أحاديث ضعيفة لا تقوم بها حجة ، سيما وأن هذا من علم الغيب الذي لم يثبت فيه دليل من كتاب الله ولا حديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

فالآية على ظاهرها ، أن الكفار في نار جهنم يعذبون حتى تحترق جلودهم ، فيبدلون غيرها ليذوقوا العذاب ٠

وهنا يقف معلم العلوم الطبيعية أمام هذا المشهد من مشاهد الآخرة ، موضحا هول ما يجده الكافر من العذاب في الآخرة مبينا أن سبب هذا العذاب الأليم هو الكفر بآيات الله ، والإعراض عن شريعة الله كما قال الله تعالى في محكم تنزيله :﴿ إن الذين كفروا سوف نصليهم نار كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ٠٠٠ ﴾ سورة النساء آية ٥٦ .

المثال الثاني :

ورد في الهدف الثامن : أن يقارن بين حال الجلود في الدنيا والآخرة ، ويتضمن هذا هدفا وجدانيا وقائيا يمكن تربية الطلاب عليه تربية وقائية تحول بينهم وبين الوقوع في المخالفات التي هي سبب فساد البلاد والعباد.

فالمعلم حين يتحدث عن الجلد وأحواله في الدنيا ويذكر خصائصه ويحدد علاقته بالمخ ينتقل بالطلاب إلى الحديث عن حال الجلد يوم القيامة حين ينطق بلسان عربي مبين ، وبصوت يسمع بما عمل به صاحبه في الحياة الدنيا ، فيشهد على تارك الصلاة ، وعلى آكل الحرام ، وعلى أهل الزنا واللواط ، مثبتا لهم قدرة الله تعالى في ذلك حين أنطق الله الإنسان وعلمه البيان ، وهو مخلوق من قطرة ماء مهينة ، تقلبت في أطوارها حتى تشكلت بأمر الله في هذه الهيئة العجيبة ، وهذه الصنعة المحكمة .

إن الحديث عن هذا الجانب من معلم العلوم الطبيعية يحدث في القلب شعورا بالخوف من مغبة الوقوع في الفواحش ، خشية من الفضيحة التي تنتظر المجرم في العرصات ، حين يفضحه جلده وقد كان يتستر عن الناس في الدنيا ساعة مواقعة الفاحشة ، وفي هذا وقاية له من الشرور والمآثم الدينية والدنيوية .

على أن تأكيد هذه المعاني بتلاوة بعض ما ورد من الآيات والأحاديث في حال الجلود يوم القيامة من شأنه أن يؤكد هذه المعاني التي تطرق لها المعلم في حصته كقول الله تعالى :﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيئ وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولاجلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون * وذلكم ظنكم الذي

ظننتم بربكم أرداكم فـأصبحتم من الخـاسرين * فإن يصـبروا فالنار مـثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾ سورة فصلت آية ١٩ ـ ٢٤ .

فهاهي الجلود تنطق على أصحابها بما عملوا ، وهاهم يجادلونها متعجبين من شـهودهـا عليهـم وقد كـانوا في الدنيـا يعـملون من أجلهـا ، فكان جـواب الجلود حاسما ﴿ أنطقنا الله الذي أنطق كل شيئ ﴾

وقد يتـساءل مـتسـائل عن سبب نطق الجلود مع وجـود الأفواه وهو مـصدر النطق عند كل مـخلوق ، ليكون الجـواب مـا ثبت عن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم كما روى ذلك مسلم في صحيحه (شرح النووي د ـ ت) من حديث أنس بن مـالك رضي الله عنه قال : كنا عنـد رسول الله صلى الله عليـه وسلم فضـحك فـقـال : ﴿ هل تدرون ممـا أضـحك ؟ قـال : قلنا : الله ورسـولـه أعلم ! قـال : من مخاطبة العبد ربه ! يقـول : يا رب ألم تجرني من الظلم ؟ قال : يقول : بلى ، قال : فيـقول : فإني لا أجـيز على نفسي إلا شـاهدا مني ، قال : فـيقول : كـفى بنفسك اليوم عـليك شهيـدا ، وبالكرام الكاتبين شـهودا ؟ قال : فـيختـم على فيـه ، فيـقال لأركـانه انطقي ، قـال : فتنطق بـأعمـاله ، قـال ثم يخلى بينه وبين الكلام ، قـال : فيقول : بعدا لَكُنَّ وسحقا فعنكن كنت أناضل ﴾ ج١٨ص٣١٤ .

وفوق أن هذه القضايا فيها تربية وقائيـة للمعتقد والخلق ، فإنها تؤكد كذلك على جانب هام في حـياة الإنسان ، ألا وهو التـصديق بالغيب الذي أخـبر الله عنه في كتابه ، ومـا صح عن رسوله صلى الله عليه وسلم ، بالإضافـة إلى أنها تربي في المؤمن إجراء النصـوص على ظواهرها حين لا يثبت في ذلك كيـفية صحيـحة عن الله أو عن رسـوله صلى الله عليـه وسلم ، فنطق الجلد مما ثبت به القـرآن ، ولم يبين رسول الله صلى الله عليـه وسلم كيفيتـه ، فيحمل على منهج أهل السنة والجـماعة في إجراء النصوص على ظاهرها ، وعـدم تأويلها أو صرفها عن معناهـا الحقيقي إلا بدليل أو قرينة .

كما أن هذه القضية تربي في المؤمن عدم تقديم العقل على النقل عن طريق قياس الآخرة على الأولى ، فإن العقل لا يدرك كل شيئ مما حوله من المحسوسات فضلا عن أن يدرك أمور الغيب التي أخفاها الله عن عباده لحكمة يعلمها سبحانه .

المثال الثالث :

ورد في الأهداف من الثاني والعشرين إلى الرابع والعشرين : أن يذكر الطالب الحكمة من وجود كل جزئية في العين ، ومن وجود العين كلها ، ومن وجود الجسد كله .

وتشكل هذه الأهداف في مجموعها هدفا وجدانيا وقائيا ، هو زرع العقيدة في نفوس الناشئة ، من جانب ، وتهذيب أخلاقهم من جانب آخر ، ويكون ذلك عن طريق طرح المعلم بعض الأسئلة على طلابه في نهاية الدرس بعد استيعابهم لفقراته العلمية محاورا إياهم قائلا :

س ـ هل هناك حكمة من جود الحذاء التي يلبسها الإنسان ؟ .

س ـ هل هناك حكمة من وجود الثوب الذي يرتديه الإنسان ؟ .

ثم يتابع معهم الحوار عن طريق السؤال والجواب حول خلق العين قائلا :

س ـ هل هناك حكمة من وجود التجويف الحجاجي ؟ .

س ـ هل هناك حكمة من وجود الرموش والأجفان ؟ .

س ـ هل هناك حكمة من وجود الغدة الدمعية ؟

إلى غير ذلك من الأسئلة التي تتعلق بجزئيات العين .

فإذا تواردت الإجابات ، أعقبها بسؤال مفاده :

س ـ ما الحكمة من وجود العين كلها ؟ .

وسيكون جواب الطلاب قولا واحدا ، الحكمة من ذلك هي النظر .

س ـ النظر إلى أي شيئ ؟ .

وعندها ينطلق المعلم في توجيه تربوي وقائي قائلا :

بهذه الدقة المتناهية ، وهذه العظمة في الصنع ، وهذا الإعجاز في التكوين ، ينعم الله على الإنسان بهذه العين ، طالبا من عباده أن يعبدوه بها ، متفكرين بها في مخلوقاته ، ناظرين بها ما أحله سبحانه وأباحه ، محذرا إياهم أن ينتهكوا بها الحرمات ، ويتتبعوا بها العورات ، فكان شكر بعضهم لهذه النعمة أن ترك ما أمره الله به ، ووقع فيما نهاه الله عنه ، واستخدم هذه الجوهرة فيما يغضب الله الخالق جل جلاله ، متناسيا أن الجوهرة التي يتمتع بها في الدنيا في الحرام ستتنكر له ، وتشهد عليه يوم يبعثر ما في القبور ، ويحصل ما في الصدور .

إن صرف هذه الجوهرة فيما حرمه الله ونهى عنه من نكران الجميل ، وكفران النعمة ، ولو فعلها إنسان مع آخر لعابه الناس وتنقصوه ، فكيف بمن يتعامل بهذا مع ربه الذي خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره بحوله وقوته ، فتبارك الله أحسن الخالقين ؟ .

س ـ إذا كانت كل جزئية في العين خلقت لحكمة ، والعين كلها خلقت لحكمة ، فما الحكمة من خلق الجسد كله ؟ .

ج ـ لعبادة الله تعالى .

س ـ والذي لا يعبد الله تعالى ؟ .

ثم ينطلق المعلم في توجيه تربوي وقائي مجيبا على هذا السؤال ، إن الذي لايعبد الله تعالى يعيش بلا حكمة ، مما يجعل الحذاء التي يلبسها في قدمه أفضل منه لأنها تلبس لحكمة ، أما هو فيعيش لغير حكمة .

وفي طرق مثل هذه القضايا وقاية للناشئة من تناسي المهمة الكبرى التي خلق الله الكون كله ـ بما فيه ومن فيه ـ من أجلها ، بل وفي ذلك إقناع لهم بالعمل الذؤوب لتحقيق هذه المهمة .

المثال الرابع :

ورد في الهدف الخامس والعشرين : أن يبين الطالب كيف يشكر الإنسان نعمة العين ، ويشمل هذا الهدف السلوكي على هدف وجداني ، يمكن من خلاله أن يربي المعلم طلابه تربية وقائية تحول بينهم وبين الوقوع في الحرام عن طريق حثهم على شكر هذه النعمة العظيمة ويكون ذلك بما يلي :

١- التفكر في مخلوقات الله تعالى كما أمر الله تعالى بذلك في قوله :﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ سورة آل عمران آية ١٩٠ - ١٩١ .

٢ - ٣ - البكاء من خشية الله تعالى ، والحراسة في سبيل الله ، كما ندب إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي في سننه (د - ت) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :﴿ عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله ﴾ ج ٤ ص ١٥٠، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٤٠٨هـ) ج ٢ ص ١٢٦ - ١٢٧ .

وما أجمل ما قاله جلبي في كتابه الطب محراب الإيمان (١٤٠٧هـ) وهو يتحدث عن العلاقة بين البكاء والخشوع فيقول :

((ونتساءل هنا ماعلاقة التأثر والخشوع بالبكاء وإفراز هذه الغدة الدمعية ؟ .

إن النفس تحتاج إلى غسل وتطهير كأي عضو ، وما هذه الحالة إلا تطهيرا من الذنوب كما يطهر الدمع كرة العين ، إن حالة الخشوع والتأثر حالة وجدانية

انفعالية نتيجة معرفة روعة التصميم ، ودقة البناء ، وعظمة القدرة ... وينتقل هذا التأثير عبر أعصاب معينة فتدعو هذه الغدة إلى الإفراز فتفرز الدمع الهتون ، حيث تصل النفس إلى مرحلة تعجز عن التعبير فيعبر البكاء ، وهذه الحالة النفسية الوجدانية هي حال العارفين الصالحين العلماء العاملين ﴿ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا﴾ سورة الإسراء آية ١٠٩، إن المنظر الجميل يهيج الرؤية ، والصوت الجميل يهيج السمع ، والرائحة الجميلة تهيج الشم ، والطعم اللذيذ يهيج غدد اللعاب ، وكذلك المعنى الجميل فإنه يثير الخواطر ويفرز الدمع)) ج ١ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

٤- الغض عن محارم الله تعالى امتثالا لأمر الله تعالى إذ يقول :﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون * وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ... الآية﴾ سورة النور آية ٣٠ - ٣١ .

المثال الخامس :

ورد في الهدف السابع والعشرين : أن يبين الطالب موقف الإسلام من النظريات والحقائق العلمية التي يستدل عليها ببعض نصوص الكتاب والسنة :

ويشتمل هذا الهدف السلوكي على تربية وقائية فيها صيانة لكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من أن يتهما بنقص أو تناقض ، أو يتطرق إليهما شك أو قصور ، وفي هذا أيضا وقاية لمعتقد الطالب من الانحراف .

لقد كانت أعظم معجزة للقرآن الكريم أنه دعا العقل إلى التفكر والتدبر ، وعاب على الذين يعطلون هذه الملكات عن العمل وذمهم في آيات كثيرة منها قوله سبحانه ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أويعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ سورة الفرقان آية ٤٤ .

ولقد أبدع الكفار في العصور المتأخرة في استغلال هذه الملكات كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله : ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ... الآية ﴾ سورة الروم آية ٧ .

فخرجوا للناس باكتشافات علمية نفع الله بها الناس نفعا عظيما ، مما جعل بعض المسلمين الغيورين على دينهم ، الحريصين على أن يبرهنوا للناس على أن الإسلام دين حضارة وتقدم ورقي ، كلما سمعوا بحقيقة علمية توصل إليها الكفار راحوا يبحثون لها عما يؤكدها من القرآن والسنة ، ليقولوا للناس قد سبقكم القرآن إلى ذلك بأكثر من ألف وأربعمائة سنة ، وفي هذا من الخطورة ما فيه .

إن القرآن لم ينزل من السماء ليكون كتاب حقائق علمية ، ولكنه نزل هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فهو كتاب هداية وتربية وتوجيه إلى التي هي أقوم كما أخبرالله عنه بقوله :﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ... الآية ﴾ سورة الإسراء آية ٩ .

أما النظريات والحقائق العلمية التي يتوصل إليها الناس فهي نتاج بحث ونظر وفكر وتدبر ، وليس من الحق أن تلوى أعناق النصوص لتتوافق مع هذه النظريات أو حتى الحقائق ، والسبب في ذلك واضح بيِّن .

فإن النظريات العلمية التي تقوم على منهج البحث والتجريب قد تصح وقد لا تصح ، وقد تظل في أنظار الناس فترة من الزمن كالحقائق ، ثم ما تلبث مع مرور الزمن وكثرة الاكتشاف ، وثورة العلم وانفجار المعرفة الدنيوية أن تثبت فشلها ، فإذا قامت حقيقة علمية وحاولنا أن نبرهن عليها بالقرآن ثم سقطت هذه الحقيقة وتخلى عنها أصحابها ونحن قد حملنا القرآن أو السنة عليها فلا شك أن الخلل يتطرق إليهما كما تطرق إلى الحقيقة العلمية .

والحق أن نقول : إن هذه الحقائق من اكتشافات العقل الذي دعاه القرآن الكريم والسنة المطهرة إلى التفكر والتدبر ، فإذا فشلت نظرية أو حقيقة ، قلنا نظرية فشلت ، وحقيقة سقطت ، وإذا أثبت العلم قضية قد تعارف الناس عليها أنها من المسلمات العلمية ، قلنا : علم نقض علما ، وعقل نقض عقلا ، وحقيقة قتلت حقيقة ، ونظرية أثبتت فشل نظرية ، ويبقى كتاب الله في مأمن من أن يتهم بنقص أو قصور أو خلل أو تناقض.

إن على المعلم القدير الذي يحمل رسالة الإسلام أن يسعى جاهدا إلى خدمة معتقده ، وتأسيس ثوابت دينه في قلوب الناشئة عن طريق مثل هذه العلوم ، بالإضافة إلى تشجيعه لطلابه على البحث والنظر والتفكر والتدبر ، فإن الأمة مطالبة أن تفيد من تقنيات الحضارة المعاصرة في الخير امتثالا لقول الله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ سورة الأنفال آية ٦٠ .

كما أن المعلم لا يطالب بهذا كله في زمن الحصة الدراسية فقد لا تتسع الحصة إلا لجزئية واحدة من التربية والتوجيه التي هي أدنى النصاب ، ولكن هناك حصص النشاط التي يجد المعلم فيها بحبوحة من الوقت لتوجيه الطلاب وتربيتهم من خلال ما يتعلمون من الحقائق العلمية في مناهجهم الدراسية .

خاتمة الفصل :

إن المدرسة تتحمل دورا كبيرا في التربية الوقائية ، إذ هي المحضن التربوي الذي يأوي إليه الطالب فترة طويلة من سنيّ عمره ، وفترة طويلة من يومه الدراسي، ولذلك كان من واجب المدرسة - التي يعني بها الباحث المعلم والمنهج والنشاط - أن تقوم على تربية الطلاب تربية وقائية ، في معتقداتهم وأخلاقهم ، وأن تربيهم حتى في أمور دنياهم على أن يتقوا الأزمات والمشكلات قبل نزولها .

على أن أعظم ما يمكن أن تقوم به المدرسة بكل معلميها وبكل مناهجها الدراسية وبكافة مناشطها هي أن تزرع العقيدة في نفوس الناشئة ، وأن تصون هذه العقيدة ، وأن تبتعد عن كل ما يثير التناقض والازدواجية ، أو يسبب الانفصام النكد في شخصية المتعلم ، ثم تقوم بعد ذلك على تربيته على مكارم الأخلاق ومحاسن الأقوال والأفعال ، بالأساليب التربوية التي سلف الحديث عنها ، لتخرج للمجتمعات أناسي أخيارا يسهمون في بناء أنفسهم وأسرهم ومجتمعاتهم وأمتهم، وهذا هو المنتظر والمؤمل من المدرسة أن تقوم به ، فالمناهج الربانية التي خرجت أعظم جيل عرفته الدنيا بين أيدينا ، والطاقات الهائلة من المعلمين الأخيار الأكفاء في كل تخصص كثرة كاثرة .

إن الأمة المسلمة اليوم تواجه تحديا خطيرا من أعدائها في كل مكان ، بعد أن اتفقوا جميعا على أن العدو اللدود القادم لهم هو الإسلام ، فقاموا يجندون طاقاتهم لصرف الأمة المسلمة عن مصدر قوتها وسر تفوقها ، ألا وهي العقيدة التي لا تقف أمامها الصم الصلاب ، وسعوا ينشرون الفساد في الأرض بكل وسيلة ممكنة ، وفتحوا بوابتي الشبهات والشهوات التي ما من معصية يقع فيها الإنسان إلا من خلال هاتين البوابتين .

ولكي تسهم المدرسة بدورها المؤمل فإن عليها أن تربي الشبيبة المسلمة عن طريق غرس العقيدة الصافية النقية ، التي لم تلوثها انتحالات المبطلين ولا تأويلات المخرفين ، فتتلقى الشبيبة المسلمة دينا صافيا تقف به صامدة أمام طوفان هذه الشهوات والشبهات ، بل لا يقف بها الأمر عند مجرد الدفاع ، بل يبعث فيها هذا الدين المبادرة إلى حمل رسالة الإسلام إلى أهل الأرض جميعا ، وما ذلك على الله بعزيز .

عسى الله أن يبارك في جهود المربين العاملين في كل موقع ، وأن يلهمهم الرشد والصواب ، وأن يجعلهم مباركين أينما كانوا .

الخاتمـة

ذكر المحبي في خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (د ـ ت) أن شمس الدين البابلي رحمه الله المتوفى سنة ١٠٧٧ هـ كان يقول :((لا يؤلف أحد كتابا إلا في أحد أقسام سبعة ، ولا يمكن التأليف في غيرها وهي :

إما أن يؤلف في شيئ لم يسبق إليه يخترعه ، أو شيئ ناقص يتممه ، أو شيئ مستغلق يشرحه، أو طويل يختصره دون أن يخل بشيئ من معانيه، أو شيئ مختلط يرتبه ، أو شيئ أخطأ فيه مصنفه يبينه ، أو شيئ مفرق يجمعه)) ج ٤ ص ٤١ .

وبالنظر في هذه الأقسام السبعة فقد كان الأخير منها هو ما حاول أن يقوم به الباحث ، إذ حاول أن يجمع بعض ما يتعلق بالتربية الوقائية من كتاب الله الكريم ، ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن هدي سلف الأمة الأخيار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، فيما يتعلق بالأسرة والمجتمع والمدرسة والفرد باعتباره أساس هذه المجالات الثلاث ، حرصا على أن تظل هذه المجالات سليمة من الآفات والعلل ، لتقوم بمهمتها التي خلقها الله من أجلها على قوة في عقيدتها وأخلاقها وسائر أمور حياتها ، ولتتجنب كل ما من شأنه أن يعيقها عن أداء هذه المهمة .

وقد بدأ الباحث هذا العمل بعرض الإطار النظري للتربية الوقائية كي يتضح المراد من ذلك ، وليظهر انفراد التربية الإسلامية بهذا النوع من التربية ، والذي أخذ من المنهج التربوي الإسلامي مساحة كبيرة ، ثم عرض لمصادر التربية الوقائية ، وذكر بعض الأساليب التي تسهم بدور كبير في التربية الوقائية ، ثم أعقب ذلك بحديث عن الأسرة المسلمة وكيف تستفيد من التربية الوقائية ، وكذلك المجتمع بعرض بعض الجوانب الوقائية التي تسهم بدور كبير في حفظه ووحدة صفه واستقرار أمنه ، ثم ختم الحديث بالمدرسة وكيف تستفيد من التربية الوقائية في تربية ناشئتها عن طريق المعلم والمنهج والنشاط .

ومـاهذا العـمل الذي يقدمـه البـاحث إلا جـهد المقـل على قلة البـضاعـة ، وضـعف الصناعة ، فـإن أصـاب الحق ـ وهو المراد ـ فذلك مـن فضل الله تعـالى وجوده وكرمه ، وإن أخطأ أو وهم ، أو قـصر أو ظلم ، فذلك منه ومن الشيطان ، والله تعالى المسئول أن يتجاوز عن الخطأ والظلم والتقصير .

كما أن الباحث قد عقد على نفسـه عهدا بينه وبين ربه سبحانه أن يعود عن الخطأ إلى الصواب حين يبدو له ذلك فإن هذا الفن لطيف خفي وابن آدم أقرب إلى الخطأ والضعف والعجلة .

وقد خـرج الباحث من هذه الـدراسة بكثيـر من النتـائج والتوصيـات وبعض المقترحات التي يرى أن العمل بها مما يحقق للمجتمع بكل أفراده ومؤسساته الفلاح والنجاح والهداية والتسديد في عاجل الأمر وآجله .

النتائــج

١ ـ الثقة المطلقة التي لا تقف عند حد أن بين أيدي المسلمين أعظم منهج يهدي للتي هي أقوم في كل ميدان من ميادين الحياة ، وفي كل جانب من جوانبها ، فهو دين ودنيا ، وآخرة وأولى .

٢ ـ حاجة الأمة المسلمة بكل أفرادها ومؤسساتها إلى هذا المنهج الذي هو سر سعادتها وفلاحها في الدنيا والآخرة ، سيما وأن الأمة ـ وعبر قرون من الزمن ليست باليسيرة ـ قد جربت تبعيتها لأعداء الله فلم تزدد بذلك إلا ذلا وانحطاطا وتقهقرا ورجعية ، وليس هذا بغريب فإن الذي يطلب الشفاء من السقيم لا يفلح .

٣ ـ حاجة الأمة المسلمة في كل مؤسسة من مؤسساتها على وجه العموم ، ومؤسساتها التربوية على وجه الخصوص إلى مبدأ الدفع أسهل من الرفع ، والوقاية خير من العلاج .

٤ ـ تميز التربية الإسلامية على كل أنواع التربية في بلاد العالم قديما وحديثا ، ولعل من أسرار هذا التميز اعتمادها على مصادر التشريع في الإسلام كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، الذي أنزلهما اللطيف الخبير الذي يعلم مايصلح عباده وما يصلح لهم ، إضافة إلى أنها تقوم في تربيتها للفرد والمجتمع على رعاية فطرته وصيانة خلقه ، فتحوطه في كل جانب من جوانب حياته بكثير من التشريعات الإلهية إحاطة السوار بالمعصم .

٥ ـ أن استجابة العبد لأمر الله تعالى ـ في فعل ما أمر الله تعالى به ، واجتناب مانهاه الله تعالى عنه ـ تأتي على قدر عقيدته ، فكلما كانت العقيدة في الفؤاد قوية كلما كانت الاستجابة لله تعالى أسرع والعكس صحيح .

٦ - أن أعـداء الإسـلام في كـل مكان لا يرقبـون في مـؤمـن إلا ولا ذمـة ، وأنهم يتربصـون بالأمة المسلمـة - أفراد وجمـاعات وشعـوبا ودولا - الدوائر بغيـة صد الأمة المسلمة عن دينها وتخديرها بالمتع الرخصية ، والشهوات المحرمة ، إضافة إلى الشبهات المضللة التي يجندون لها كل طاقاتهم وإمكانياتهم بأساليب فيها من الإغراء مـا يشده عـقول الغـافلين ، ويثيـر إعجـاب أرباع المثقفـين وأنصاف المتعلمين ، لتفقد الأمة على أثر ذلك مناعـتها في مواجهة المشكلات ، وتلافي الأزمات ، وصد المعضلات .

٧ - أن اتباع منهج الإسـلام في تأسيس البـيوت على تقـوى من الله ورضوان ووفق الخطوات الوقـائية الإسلامـية في تكوين الأسـر كفيـل بإخراج أسـر مسـتقيـمة صالحة مصلحة ، يتكون منها مجتمع فاضل يعرف الناس فيه معنى الحياة .

٨ - أن البـوابة الكبرى التي منهـا تسـتعيـد الأمة المسلمـة مجدها هي بوابة التربـية والتعليم عبـر معلميها ومناهجها وأنشطـتها التي تتربى عليها الناشـئة فترة طويلة من العمر .

٩ - أن الدعوة إلى الله تعالى والأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر وتطبيق الحدود من أعظم الجـوانب الوقـائيـة التي تحـفظ الأفـراد والأسـر والمجتـمعـات من غـوائل الانحراف وتفشي ظاهرة الإجرام .

١٠ - أن الأزمات التي حلت بالأمة المسلمة في كل ميدان من ميادين حياتها سببه إهمال جانب الوقـاية حيث تترك الأمور تمشي على عواهـنها حتى يقع الخطأ فـإذا مـا وقع الخلل سـرت الأمة بعـد ذلك تبـحث عن العـلاج الذي أصبح يكلفاها من الجـهد والوقت والمال أضعـاف أضعاف ما كـان يمكن أن يكلفه الجانب الوقائي .

١١ - أن الميدان التربوي لا يمكن أن يستقل بالتربية وتقف سائر الوسائط التربوية الأخرى كالبيت والمسجد ووسائل الإعلام وغيرها موقف المتفرج ، إن لم يمارس بعضها هدم ما يقوم به الميدان التربوي من بناء.

١٢ - أن الميدان التربوي هو أهم ميادين الحياة على الإطلاق ، إذ منه يتخرج القائد والعالم والمجاهد والطبيب والمهندس والتاجر ، بمعنى أن كل أفراد المجتمع يتربعون على مقاعد الدراسة في هذا الميدان .

التوصيات

١ - عودة الأمة المسلمة إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ليكون منهجا لها في كل ميدان من ميادين حياتها ، والحذر أن تحصر هذا المنهج في زاوية من زوايا الحياة ، أو تجعله علاقة بين العبد وبين ربه ، ذلك أن هذا المنهج لم يترك شاردة ولا واردة إلا أعطى المسلم منها خبرا فيما كبر من الأمور وما صغر ، وإن منهجا علَّم الإنسان كيف ينام وكيف يأكل وكيف يقضي حاجته أعظم من أن يدعه يتخبط في مجالاته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية والتربوية والتعليمية والإعلامية وغيرها دون هداية وتوجيه .

٢ - ضرورة عناية الأمة المسلمة بكل أفرادها ومؤسساتها بمنهج الوقاية الذي أخذ من منهج الإسلام التربوي مساحة كبيرة ، سواء كان ذلك فيما يتعلق بتربية الشخصية الإسلامية في عقيدتها وأخلاقها ، أو حتى فيما يتعلق بأمور دنياها ، وتربيتها كيف تتلافى المشكلات قبل وقوعها ، وكيف تتجنب الكوارث قبل نزولها .

٣ - ضرورة عناية المربين أيا كانت مواقعهم في البيت أو المدرسة أو المسجد أو وسائل الإعلام المقروء منها والمسموع والمرئي بجانب العقيدة وغرس الإيمان في القلوب بالأساليب التربوية المتنوعة التي جاءت في مصادر التشريع في

الإسلام وذلك لتهيأة القلوب لاستقبال توجيهات الوحي ، والعمل بها من غير حرج ولا ممانعة .

٤ ـ أخذ الحيطة والحذر مما يخطط له أعداء الإسلام سواء كانوا كفارا صرحاء ، أو ممن يلبسون الإسلام شعارا وتتخذ المكر والتضليل والزندقة دثارا ، والذين يعملون على قدم وساق لتشكيك الأمة في دينها عن طريق إثارة الشبهات وتخدير الأمة بالمتع والشهوات ، ويكون أخذ الحيطة والحذر بأن يهب الغيورون من أبناء هذه الأمة المعطاءة من العلماء والتربويين والمفكرين والأدباء بغرس العقيدة الصافية في النفوس ، وتعاهدها كل حين، وتربية الناس على حقائق الإسلام وتوجيهاته ، والدفاع عن حرمات بكل وسيلة ممكنة ، وتعرية تلك الإطروحات المضللة التي يسعى أعداء الله إلى نشرها في صفوف المسلمين ليظهر عوارها للناس ، ولتحذر الأمة المسلمة تلك المخططات التي يروج لها الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا .

٥ ـ التربية في الإسلام أشبه ببناء محكم ترص لبناته لبنة لبنة حتى يكتمل ، وما من شك أن أي خلل في إحدى اللبنات يهدد البناء بالانهيار أو يشوه صورته ، ومن هنا كان على المربين أن يهتموا بتربية الإنسان خطوة خطوة ومرحلة مرحلة ، حتى تكتمل شخصيته ، وإلا فإن إهمال التربية في مرحلة ما من مراحل العمر يكلف المربي كثيرا في المرحلة التي تليها ، أو لربما نشأ هذا الإنسان على ما تربى عليه في تلك المرحلة فاستحال توجيهه بعد ذلك .

٦ ـ تربية الأسرة المسلمة على تعاليم الإسلام وأحكامه وتأسيس البيوت وفق تلك الخطوات الوقائية التي شرعها الإسلام والتي تزخر بها مصادر الوحي ، على أن تكون هذه التربية مبكرة جدا يرى الباحث ـ من خلال النظر في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ـ أنها تبدأ منذ أن يكون الزواج فكرة في ذهن الزوجين ، وتستمر ما بقيت الأسرة على قيد الحياة .

٧ ـ إذا كانت الأنظمة البشرية والقوانين الوضعية بكل ما تبتكره من أساليب الترغيب والترهيب لضبط الناس تربي في الإنسان ترك المخالفة ظاهرا رغبة أو رهبة فإن الدعوة إلى الله تعالى تربي في الإنسان ترك المخالفة ظاهرا وباطنا ، ومن هنا فإن من أوجب الواجبات على المجتمعات المسلمة ــ إن كانت تريد حياة فاضلة يضبط الإنسان فيها نفسه برقابة ذاتية ــ أن تشرع الأبواب على مصاريعها للدعوة إلى الله تعالى التي تربي في المؤمن تقوى الله تعالى في السر والعلانية .

٨ ـ دعوة الأمة المسلمة أن تقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي أوجبه الله تعالى على أمم الأرض جميعا ، لما له من الأثر العظيم في حفظ الأفراد والمجتمعات ، إذ هو الحصن الحصين ، والسياج المتين ، الذي يحول بين العبد وبين المخالفات، فإن لم يقلع العبد عن مخالفاته مقتنعا بالأمر والنهي وإلا فإنه يستتر بمخالفاته والله تعالى لا يهلك البلاد والعباد عامة إلا إذا فشت فيهم المنكرات وظهر فيهم الخبث وتقاعس الناس عن حمل هذه الشعيرة العظيمة التي بها نجاة العباد في الدنيا والآخرة .

٩ ـ نداء إلى الأمة المسلمة حكاما ومحكومين إلى تطبيق شرع الله في كل جانب من جوانب الحياة ، ومن ذلك الدعوة إلى تطبيق الحدود التي هي صمام الأمان لحفظ الأفراد والمجتمعات ، وصيانة الحقوق والمحارم ، وكيف لا يكون ذلك وحد واحد يقام في الأرض خير من أن يمطر الناس أربعين يوما ؟ !!! وعلى المجتمعات المسلمة قبل أن تقيم الحدود أن تمنع كل ما يكون سببا في ورودها وَتَورُّطِ الناس فإذا ما وضعت الحواجز الإلهية ، وأقامت السدود الشرعية ، ثم تخطى بعض الناس تلك الحواجز فإن تطبيق الحدود حينئذ هو العلاج الناجع لقطع دابر الفساد والمفسدين .

١٠ ـ المرأة سلاح ذو حدين ، وإذا فسدت أخلاقها دمرت بيتها ومجتمعها وأمتها ، فكم من حضارات بسبب فجور المرأة بادت ، وكم من عروش بسبب انحراف المرأة زالت ، وهل كانت أول فتنة بني إسرائيل إلا في النساء ؟ !!!

ومن هنا فإن على المسئولين عن المجتمعات المسلمة عامة والمسئولين عن الأسرخاصة أن يتقوا الله عز وجل ، وأن يُعَبِّدوا أمته له سبحانه ، وأن يقوموا على رعايتها وتوجيهها نحو الخير ، وصيانتها عن كل ما من شأنه أن يفسد أخلاقها ، أو يصدها عن تعاليم دينها ، لتظل لمجتمعها ولأمتها صانعة أجيال ، ومربية أبطال .

١١ ـ ضرورة عناية الأمة المسلمة بالميادين التربوية التي هي أهم ميادين الحياة على الإطلاق ، إذ هي الميادين التي تأوي إليها الناشئة فترة طويلة من العمر ، ويتخرج منها كل أفراد المجتمع .

١٢ ـ عناية المربين أيا كانت مواقعهم بالأساليب التربوية الإسلامية التي جاءت بها مصادر التشريع في الإسلام ، والتي لها الأثر الكبير في إقناع الشبيبة المسلمة بما يملى عليها من الخير ، بالإضافة إلى أنها تسهم بدور كبير في إيجاد الرغبة لتعلم الإسلام والوقوف على عظمته ، بل وتربي فيهم الاعتزاز به ، والافتخار بالانتساب إليه .

١٣ـ العناية بحسن اختيار المعلم وفق معايير دقيقة وضوابط محددة ، ذلك أن المعلم هو أستاذ المجتمع كله ، وكيفما يكون المعلم

يكون المجتمع ، فإذا أحسن اختيار المعلم وفق معايير من القدوة الصالحة ، والثروة العلمية الجيدة ، والذكاء والفطنة ، وحسن التعامل مع المواقف ، والإلمام بالأساليب التربوية الجيدة ، والقدرة على تطويع مقتنيات العصر لخدمة رسالته ، كانت آثار ذلك على الناشئة مباركة طيبة ، أما حين يتصدر للتعليم من ليس من أهله فهو ضياع الجهود وتبديد للطاقات وتعطيل للمسيرة ، وكيف يكون حال

المجتمع إذا كان حال المربين فيه والمعلمين وقادة الفكر والثقافة من الجهلة أو النفعيين أو ممن لا يحملون رسالة ولا يعيشون لهدف ؟ .

١٤ - العناية بالمناهج التي تدرسها الناشئة والمناشط التي يمارسونها ويتربون من خلالها ، وأن تكون منطلقة من خلال العقيدة الإسلامية الصحيحة والفهم الشامل للإسلام ضمانا للناشئة المسلمة من التناقض والازدواجية في عقيدتها أو خلقها أو علمها .

١٥ - تبسيط حقائق الإسلام وتشريعاته للناس والبعد كل البعد عن عرض هذه الحقائق على مشارب الفلاسفة ، وهرطقات المناطقة ، لتتربى النفوس على حقائقه الناصعة التي لا ألغاز فيها ولا أحاجي .

١٦ - تربية الناشئة المسلمة وتعويدهم على التفكير السليم والقياس المنطقي الجيد في القضايا التي تنفعهم في عاجل الأمر وآجلة ، واستمداد ذلك من مصادر الوحي المقدس الذي يدعو إلى إعمال العقل فيما ينفع وفق خطوات مدروسة تبدأ بالمقدمات وتنتهي بالنتائج ، وفي ذلك وقاية لهم من أساليب الحفظ والتلقين المجردة دون التفكر والنظر ، بغية الوصول إلى نتائج مقنعة هي ثمرة التفكير الجيد المجرد عن الهوى وحظوظ النفس .

المقترحات

من القضايا الهامة التي يقترحها الباحث أن تقوم وزارة المعارف ــ مسددة موفقة ــ بضرورة إيجاد مادتين يدرسهما طلاب المرحلة الثانوية : أولاهما : التربية الوقائية ، وتشتمل هذه المادة على بعض القضايا الهامة التي لها مساس كبير بحياة الطالب ، على أن يتناسب محتواها مع قدرات الطلاب في مثل هذا السن ، ومن القضايا المهمة التي يمكن أن تشتمل عليها موضوعات المادة الأساسية :

١ ـ قضايا الزواج وكيفية بناء الأسر على أسس سليمة .

٢ ـ قضايا المخدرات وكيفية الوقاية منها وسبل وقاية المجتمع من الوقوع في براثنها .

٣ـ قضايا العناية بالصحة وكيفية الوقاية من الأمراض .

على أن الرئاسة العامة لتعليم البنات يمكن أن تقرر هذه المادة واضعة لها من المواضيع ما يتناسب وخصائص المرأة وما تحتاجه في حياتها من قضايا هامة تكون عونا لها على أداء رسالتها التربوية ، سيما وأن الفتاة في المرحلة المتوسطة والثانوية تقف على مشارف الحياة الزوجية التي تعتبر المرأة فيها دعامة أساسية .

ثانيهما : مادة يمكن أن يطلق عليها اسم (كيف تفكر) تشتمل على موضوعات تربي في الطلاب حس التفكير السليم والقياس المنطقي الجيد ، تسهم وبدور كبير في تعويد الطالب على التخطيط السليم لحل المشكلات واتقاء الأزمات ، استعدادا لخوض غمار الحياة على وعي وبصيرة .

كما أن الباحث يقترح على إخوانه من الباحثين وطلبة العلم أن يلتفتوا إلى هذا الجانب الهام في حياة كل مجتمع ، وبالذات في حياة مجتمعاتنا المسلمة ، ويعني الباحث بهذا الجانب ، الجانب الوقائي الذي يحفظ للفرد والأسرة والمدرسة والمجتمع المناعة ضد كل مرض أو انحراف ، مهما كان تأثيره ، ومن هذه الموضوعات التي يمكن للباحث أن يوصي بها الباحثين من طلبة العلم ما يلي :

١ ـ العقيدة وآثارها الوقائية في حفظ الفرد .

٢ ـ الفكر التربوي الإسلامي بين الوقاية والعلاج .

٣ ـ توحيد مصدر التلقي جانب وقائي في حفظ المجتمع .

٤ ـ الجوانب التربوية الوقائية المقترحة لوسائل الإعلام في المجتمعات المسلمة .

٥- إيتاء الزكاة وآثارها الوقائية في حفظ المجتمع .

٦- التدابير الوقائية في الاقتصاد الإسلامي .

٧- التربية الوقائية من خلال سورة (كذا) .

٨- التربية الوقائية من خلال بض القواعد الفقهية في الإسلام .

٩- التربية الوقائية في سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

١٠- التربية الوقائية في فتاوى بعض العلماء الربانيين في القرن الـ . . .

١١- نظرة في المؤسسات التربوية في العالم الإسلامي في غياب التربية الوقائية .

التطبيقات التربوية

١ ـ قناعة المدرسة الثانوية بكل القائمين عليها بأن التربية الإسلامية تقوم على جانبين عظيمين أحدهما الجانب الوقائي والآخر الجانب العلاجي .

٢ ـ قناعة المدرسة الثانوية بكل القائمين عليها أن الجانب الوقائي في التربية الإسلامية ذو أهمية بالغة ، وأنه قد أخذ من التربية الإسلامية جزءا كبيرا واسع المساحة .

٣ ـ قناعة المربين أيا كانت مواقعهم أن من أعظم الأمور التي تميزت بها التربية الإسلامية أنها تبني توجيهاتها في تربية الإنسان على أصل أصيل ألا وهي الفطرة السوية ، فلا تتناقض التوجيهات مع المنطلقات ، ولا تحصل الازدواجية القاتلة بين التشريعات والأصول .

٤ ـ أهمية فهم المربي لقضية العقيدة وترسيخها في قلوب الناشئة ، فإذا انتصر المربي في ميدان العقيدة لم يحتج بعد ذلك إلى معارك يخوضها في ميادين الأمر والنهي ، ومن هنا فإن على المربي أثناء شرحه لآية أو حديث أو مسألة فقهية فيها أمر أو نهي أن يربط ذلك بالعقيدة ، للتهيأ القلوب فتستجيب للأمر والنهي، دون أن تأخذ الأحكام مجردة .

٥ ـ أهمية فهم المربي لمرحلة المراهقة ، بما يصاحبها من خصائص النمو الجسمية والعقلية والانفعالية والاجتماعية وغيرها ، ليتمكن من التعامل مع الناشئة في مثل هذا السن تعاملا يضمن بإذن الله تصحيح سلوكهم وتهذيب وجدانهم ، وتقويم مفاهيمهم .

٦ ـ ضرورة أن يرسخ المربي في ذهن من تحت يده ـ وخاصة في مثل هذه المرحلة ـ أنه ما من حركة ولا سكنة يعملها الإنسان على ظهر هذه الأرض من أمور دينه أو دنياه ، إلا وللإسلام فيها تشريع .

٧ ـ ضرورة أن يرسخ المربي في أذهان من تحت يده في مثل هذه السن رحمة الله تعالى بعباده ، وأنه سبحانه أرحم بعباده من آبائهم وأمهاتهم ، وأنه سبحانه أعلم منهم بمصالحهم ، وعندها يتيقن الشاب أنه ما من أمر أو نهي ، إلا وفيه سعادته في الدنيا والآخرة .

٨ ـ نتيجة للصراعات الفكرية ، والتناقضات العقدية التي يعيشها العالم الإسلامي ، فإن الوقاية من الخلاف والتفرق مرهون باحتكام الجميع إلى منهج السلف الصالح الذي وضع الرسول صلى الله عليه وسلم ميزانه حين قال في الفرقة الناجية :﴿ من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي ﴾ ، ومن هنا فإن على المدرسة أن تؤسس بنيانها على هذه القاعدة لتُسلِم ناشئتها إلى منهج الفرقة الناجية ، وتقي ناشئتها التفرق والخصام الذي يورث حالقة الدين .

٩ ـ أهمية تعويد الطالب في مثل هذه المرحلة على ملكة الاستنباط وقاية لعقله من الجمود ، وفكره من القصور .

١٠ ـ أهمية عناية المدرسة الثانوية بالأساليب التربوية الإسلامية التي حفلت بها مصادر التشريع في الإسلام ، وأهميتها الكبرى في إيصال حقائق الإسلام إلى الأذهان ، إضافة إلى ما تحدثه من الإقناع الكبير بما يملى على الناشئة من القضايا .

١١ـ أهمية معرفة المربي للمستويات الست للمجال المعرفي وهي الحفظ والتذكر والفهم والتحليل والتركيب والتقويم ، وعلاقتها بالأساليب التربوية السالفة الذكر ، وخطورة جهل المعلم بهذه المستويات ، فقد يحفظ الطالب كمّاً هائلا من المعلومات ، لكنه حين يدخل قاعة الامتحان ، أو يمر بموقف يستدعي هذه المعلومة لا يستطيع تذكرها ، ففقد المستوى الثاني ألا وهو التذكر ، والسبب في ذلك أن المعلم لم يبتكر الأسلوب المقنع الذي يساعد الطالب على التذكر ، ومن أمثلة ذلك : لو أن المعلم شرح لطلابه معنى

شخوص البصر يوم القيامة ، ثم قام هو بتمثيل الحركة أمام طلابه ، ففتح عينيه على الأخير وركّزهما في مكان واحد ناظرا بهما إلى أعلى ، لظل هذا المفهوم في أذهان طلابه كلما سمعوا بقوله تعالى :﴿ شاخصة أبصارهم ﴾ ، ومن أمثلة ذلك أيضا عدم قدرة الطلاب في كثير من الأحايين على تحقيق المستوى السادس من مستويات المجال المعرفي وهو التقويم ، وذلك لجهل بعض المعلمين كيف يحققون ذلك ، فلو أن المعلم شرح لطلابه ما حرمه الله في مطلع سورة المائدة كالميتة والمنخنقة والموقوذة وما أهل لغير الله ، ثم سألهم بعد ذلك عن معنى الميتة والدم والمنخنقة والموقوذة وما أهل لغير الله ، لم يحقق ذلك المستوى ، ولكنه يحققه حين يقول للطالب : صنف هذه الأنواع من الميتة ثم ذكر منها : رجل ذبح شاة وفرق دمها على قواعد منزله ساعة التأسيس خوفا من الجن .

إن المعلم بذلك يحقق في طلابه مستوى التقويم ، إضافة إلى أنه يفتح أذهانهم إلى ما يجري في واقع بعض الناس من الانحرافات العقدية بالذبح لغير الله ، موصيا إياهم بالحذر من مثل هذه الأعمال الشركية التي تورث حبوط جميع الاعمال ، والخلود في النار والعياذ بالله .

١٢ ـ أهمية استخدام وسائل الإيضاح في أيصال الفكرة إلى السامع ، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك حين كان يقرب لهم الحقائق حين يشير بيده أو يرسم على الأرض ، أو يستخدم الحصى أو خلاف ذلك ، والمعلم مطالب باستخدام كل وسيلة مباحة تعينه على تحقيق أهدافه .

١٣ ـ ضرورة عناية المدرسة الثانوية بكل القائمين عليها بإقامة علاقات جيدة مع الأسرة ، وبناء الجسور المتينة التي تثمر تعاونا مشتركا في التربية والتوجيه ، ويكمن ذلك في عقد لقاءات مجالس للآباء مع منسوبي المدرسة ، تتخذ فيها كافة التدابير الوقائية ، والحلول المناسبة لما قد يعترض طريق العملية التربوية من العقبات والمشاكل .

١٤ ـ ضرورة عناية المدرسة الثانوية بمناهجها ومناشطها بجانب الدعوة إلى الله تعالى ومن ذلك استضافة أولي العلم والفضل من العلماء وطلبة العلم ، لإلقاء المحاضرات وعقد اللقاءات التربوية التي تسهم بدور كبير في التربية والتوجيه .

١٥ ـ ضرورة عناية المدرسة الثانوية بجانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتربية الناشئة عليه ، وتكوين جماعات مصغرة تمارس هذه الشعيرة بالحكمة والموعظة الحسنة .

١٦ ـ ضرورة تربية الناشئة على التفكير السليم والقياس المنطقي الجيد ، وفق خطوات مدروسة تبدأ بالمقدمات وتنتهي بالنتائج ، ويمكن استنباط ذلك من مصادر التشريع في الإسلام ، على أن تملأ المناهج بمثل هذه الأساليب المبثوثة في التاب والسنة وسيرة السلف الصالح ، ومن أمثلة ذلك ما سبق الحديث عنه في قصة أم سليم مع أبي طلحة في الصحفة الثانية والثمانين بعد المائة من هذه الدراسة .

١٧ ـ ضرورة أن يدرك المربي في مثل هذه المرحلة أهمية السلطة الإدارية التي اكتسبها من اضمامه إلى هذه المؤسسة التربوية والتي جعلت من الطالب يمثل بين يدي معلمه ساعة من الزمن ، مأمور خلالها بالإنصات ، ذلك أن الإنسان لو أراد من الناشئة أن تجتمع حوله في مثل هذا السن خارج المدرسة لبين لهم بعض ما أمر الله به أو نهى لما تمكن من ذلك .

١٨ ـ أهمية حمل جميع المربين في المدرسة الثانوية بكل تخصصاتهم رسالة التربية الإسلامية ، في إخراج جيل مسلم عالم عامل يسهم في الرقي بنفسه وأسرته ومجتمعه وأمته ، والتأكيد على معلمي العلوم الطبيعية أن يرسخوا العقيدة في قلوب الناشئة من خلال هذا التخصص ، وذلك لما يحويه هذا التخصص من الحقائق العلمية التي تدل على عظمة الخالق جل شأنه .

١٩ ـ أهمية المدرسة الثانوية في تلقين الناشئة في مثل هذا السن أصول المسائل ، والقواعد الكلية للعلوم ، ليصبح عند الطالب قدرة على إنزال كل مسألة أو

حادثة على ما معه من الأصول والقواعد ، وقد قيل : لأن تعلمن كيف أصيد سمكة خير لي من أن تعطيني كل يوم سمكة .

٢٠ - تعاون البيت والمدرسة في إعداد البرامج الجيدة التي تسهم بدور كبير في شغل فراغ الشباب في مثل هذا السن بما يعود عليهم بالفائدة .

٢١ - أهمية عناية المربي باكتشاف مواهب طلابه وقدراتهم وإمكانياتهم عن طريق الحوار والمناقشة فيما يقدمه لهم من الموضوعات التي يدرسها لهم ، ومن خلال الأنشطة التي يمارسونها .

٢٢ - احترام وجهة نظر الطالب وخاصة في مثل هذا السن مهما كانت خاطئة ، والتدرج معه في الحديث خطوة خطوة حتى يقرر بخطئه .

٢٣ - ضرورة عناية المدرسة بتربية الناشئة على الشجاعة الأدبية ، والسماح للطالب بإبداء وجهة نظره بكل جرأة وشجاعة ، مع التزام الأدب في ذلك .

٢٤ - من الأهمية بمكان أن تظل حقائق الإسلام ماثلة أمام أعيان الطلاب في مثل هذا السن ، حين يكون المعلم قدوة لطلابه يرون فيه حركاته وسكناته أخلاق القرآن .

٢٥ - عدم استعجال المربي الثمرة ، وعليه أن يحذر الملل والسآمة ويتقي القنوط واليأس حين يرى ما يسره ، ويعكر عليه صفوه ، فما مهمته إلا البلاغ والتوجيه .

٢٦ - معرفة المربي للفروق الفردية بين الطلاب ، ومراعاة ذلك حتى لا يطلب من الطالب ما هو فوق طاقته ، فيكون ذلك تعجيزا وتنفيرا ، وقد بعث المعلمون مبشرين ولم يبعثوا معسرين أو منفرين .

٢٧ - مشاركة المعلم الجيد باقتراحاته وملحوظاته حول صياغة المنهج ، وطرحه للأساليب التي يرى أنها تساعد على فهم الطالب وقدرته على الاستيعاب ،

إذ المعلم هو الذي يقدم المنهج ، وهو أعلم بأسهل الطرق التي تمكن الطالب من الفهم والاستيعاب .

٢٨ ـ ضرورة تهيئة المدرسة للطلاب البيئة الصالحة التي ينمو فيها الإيمان ، والوقوف بحزم أمام كل يعكر صفو التربية ، أو يعطل مسيرتها .

٢٩ ـ أهمية عناية المدرسة الثانوية بالتربية الخلقية ، وإكساب الطلاب الأخلاق الفاضلة ، وتشجيعهم عليها ، واستخدام الأساليب المتنوعة التي تنفر من الرذائل وتستهجنها .

٣٠ ـ ضرورة أن تتصل المدرسة ببقية مؤسسات المجتمع ليسهم الجميع في التربية ، كمد الجسور مع رجال الأمن ، بكل تخصصاتهم لتحذير الشباب من كل ما من شأنه أن يستهدف أخلاقهم ، ومن أمثلة ذلك عقد اللقاءات المشتركة بين المدرسة والشئون الصحية ومكافحة المخدرات لتحذير الشباب من براثن وباء المخدرات القاتل .

٣١ ـ مد الجسور مع الجامعات وعقد اللقاءات تلو اللقاءات مع المفكرين والتربويين للمساهمة في النهوض بمستوى المدرسة الثانوية سواء كان ذلك في جانب المعلم أو المناهج أو المناشط .

٣٢ ـ استحداث مادة يدرسها طلاب المرحلة الثانوية تسمى بـ (التربية الوقائية) ينتقى لها من الموضوعات ما يتناسب مع عقول الناشئة في مثل هذا السن ، وما يحتاجونه من القضايا التي تبني شخصياتهم بناء وقيا ، يصد عنهم الشر ، ويربي فيهم القدرة على حل المشكلات واتقاء الأزمات .

وإن كان هذا الدور لا يقتصر على هذه المادة فحسب ، إنما هو دور جميع المواد التي يدرسها الطالب، ولكن أن تخصص مادة تجمع فيها شتات هذه الأفكار، فإن ذلك سيكون له أبلغ الأثر في بناء شخصيات المتعلمين .

فهرس الآيـــات

الآيــــــــة	رقمها	السورة	رقم الصفحة
يمحق الله الربا	٢٧٦	البقــرة	٢٧٠
أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى	٢٨٢	البقــرة	٣٦٠
زين للناس حب الشهوات	١٤	آل عمران	٢٧
قل أؤنبئكم بخير من ذلكم	١٥	آل عمران	٢٨ - ٤٠٨
شهد الله أنه لا إله إلا هو	١٨	آل عمران	٦٤٥
إن الدين عند الله الإسلام	١٩	آل عمران	٨٨
قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني	٣١	آل عمران	١٥٧ - ٥٩٧
قل أطيعوا الله والرسول	٣٢	آل عمران	١٥٦
وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان	٣٦	آل عمران	٤١٣
هنالك دعا زكريا ربه	٣٨	آل عمران	٣٣٩
إن هذا لهو القصص الحق	٦٢	آل عمران	٢٤٨
وقال الذين كفروا من أهل الكتاب آمنوا	٧٢	آل عمران	٥١٦
ولكن كونوا ربانيين	٧٩	آل عمران	٦٤٣
ومن يبتغ غير الإسلام دينا	٨٥	آل عمران	٢٤-٥٩-٤٤٨
فيه آيات بينات مقام إبراهيم	٩٧	آل عمران	١٦١
واعتصموا بحبل الله جميعا	١٠٣	آل عمران	١٤١
ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير	١٠٤	آل عمران	١٤٢-٤١٣-٤٩٦
ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا	١٠٥	آل عمران	١٤٢
كنتم خير أمة أخرجت للناس	١١٠	آل عمران	٢٦-١٤٢-٤٨١
ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة	١١٣ - ١١٤	آل عمران	٤٨١-٤٨٥
ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة	١٢٣	آل عمران	٢٨٩
إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان	١٥٥	آل عمران	٢٨٨
فبما رحمة من الله لنت لهم	١٥٩	آل عمران	٢٠٦
إن في خلق السموات والأرض	١٩٠ - ١٩١	آل عمران	٥٦٨-٦٨٩
وآتوا النساء صدقاتهن نحلة	٤	النســاء	٣٩٧
ولكم نصف ما ترك أزواجكم	١٢	النســاء	٤٠٥
ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات	١٣	النســاء	١٥٦
ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده	١٤	النســاء	١٥٦-٤٠٧
يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن	١٩	النســاء	٣٤٩
وأحل لكم ما وراء ذلكم	٢٤	النســاء	١٦١

الآيـــــــــة	رقمها	السورة	رقم الصفحة
ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله	١٠٨	الأنعـام	١٣٩
وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا	١١٢	الأنعـام	٥٧
وذروا ظاهر الإثم وباطنه	١٢٠	الأنعـام	٦٦٠
ذلك جزيناهم ببغيهم	١٤٦	الأنعـام	١٢٧
قل تعالوا أتل ما حرم ربكم	١٥١ - ١٥٣	الأنعـام	٤٦-٥٧-٣٧٥
قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله	١٦٢ - ١٦٣	الأنعـام	٥٣-٥٤-١٤١
ولا تكسب كل نفس إلا عليها	١٦٤	الأعراف	٤٩٩
وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين	٢١	الأعراف	٩٣
قل إنما حرم ربي الفواحش	٣٣	الأعراف	١٢٧
ولكل أمة أجل	٣٤	الأعراف	٢٦
ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم	٥٢	الأعراف	١٢١
اعبدوا الله ما لكم من إله غيره	٥٩	الأعراف	٤٩
فتولى عنهم وقال يا قوم لقد ابلغتكم	٧٩	الأعراف	٤٦٠
ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا	٩٦	الأعراف	٢٨٠-٤٦٠
تلك القرى نقص عليك من أنبائها	١٠١	الأعراف	٢٤٨
الذين يتبعون الرسول النبي الأمي	١٥٧	الأعراف	٤٨٤
وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما	١٦٤	الأعراف	٤٩٩
فملا نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم	١٦٥	الأعراف	٥٠٣
فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم	١٦٦	الأعراف	٥٠٤
ولو شئنا لرفعناه بها	١٧٥ - ١٧٦	الأعراف	٢٦١ - ٤٦٨
فلما تغشاها حملت حملا خفيفا	١٨٩ - ١٩٠	الأعراف	٦٧٣
خذ العفو وامر بالمعروف	١٩٩	الأعراف	٤٨٣
يسألونك عن الأنفال	١	الأنفـال	٢٨٩
يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله ورسوله	٢٠	الأنفـال	١٥٦
وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة	٣٩	الأنفـال	٢٩٧
وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة	٦٠	الأنفـال	١٦٧-٣١٤-٦٩٢
ماكانَ لنبي أن يكون له أسرى	٦٧ - ٦٨	الأنفـال	٢٨٩
قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله	٢٩	التوبـة	٢٩٧
ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة	٤٦	التوبـة	٥٤٦
فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم	٥٥	التوبـة	٧٨

الآيـــــــة	رقمها	السورة	رقم الصفحة
المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض	٦٧	التوبـة	٤٨٦
والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض	٧١	التوبـة	٤٨٥
والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار	١٠٠	التوبـة	١٧٨
التائبون العابدون الحامدون السائحون	١١٢	التوبـة	٤٨٥
لقد جاءكم رسول من أنفسكم	١٢٨	التوبـة	٢٠٦
يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم	٢٣	يونس	٥١٠
قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق	٥٩	يونس	١٢٨
آمنت أنه لا إله إلا الذين آمنت به	٩٠	يونس	٥٣
وما من دابة في الأرض الا على الله رزقها	٦	هود	٩٤
إن موعدهم الصبح	٨١	هود	٢٣٠
وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه	٨٨	هود	٢١٩ - ٢٢١
فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية	١١٦ - ١١٧	هود	٥٠٢
وكلا نقص عليك من أنباء الرسل	١٢٠	هود	٢٦٢
نحن نقص عليك أحسن القصص	٣	يوسف	١١٠-٢٤٨-٢٤٩
يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك	٥	يوسف	٢٥٧
قال معاذ الله إنه ربي	٢٣	يوسف	٢٥٧
إن كان قميصه قد من قبل	٢٦ - ٢٧	يوسف	٢٥٧
وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن	٣٣	يوسف	٢٥٧ - ٤٩١
إني تركت ملة قوم	٣٧ - ٣٨	يوسف	٢٥٨
يا بني لا تدخلوا من باب واحد	٦٧	يوسف	٢٥٨
ولا تيأسوا من روح الله	٨٧	يوسف	٢٥٨ - ٢٧٧
إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجرا	٩٠	يوسف	٢٥٨
من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي	١٠٠	يوسف	٢٥٨
قل هذه سبيلي أدعوا الى ا الله على بصيرة	١٠٨	يوسف	١٨٣ - ٤٦٠
لقد كان في قصصهم عبرة	١١١	يوسف	٢٤٩-٢٦٣-٥٦٨
أنزل من السماء ماء فسالت أودية	١٧	الرعد	٢٣٢ - ٢٤٥
ولو أن قرآنا سيرت به الجبال	٣١	الرعد	٢٣٣ - ٢٤٥
مثل الجنة التي وعد المتقون	٣٥	الرعد	٢٧٣
ولقد أرسلنا رسلا من قبلك	٣٨	الرعد	٣٣٣
وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه	٤	إبراهيم	١٢٨

الآيـــــــة	رقمها	السورة	رقم الصفحة
وما أرسلنا قبلك إلا رجالا	٧	الأنبياء	٦٧٤
لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم	١٠	الأنبياء	١٢٠
قلنا يا نار كوني بردا وسلاما	٦٩ - ٧٠	الأنبياء	٤٦٩
فنادي في الظلمات أن لا إله إلا أنت	٨٧ - ٨٨	الأنبياء	٤٦٩
وزكريا إذ نادى ربه	٨٩ - ٩٠	الأنبياء	٣٣٩
كما بدأنا أول خلق نعيده	١٠٤	الأنبياء	٢٤٥
ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر	١٠٥	الأنبياء	١٣٥
وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين	١٠٧	الأنبياء	١٣٥-٢٠٦-٤٤٩
إن زلزلة الساعة شيء عظيم	١	الحج	٤٦
يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث	٥	الحج	٩٢ - ٩٣
ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء	٣١	الحج	٢٣٩
الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة	٤١	الحج	٤٨٥
أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب	٤٦	الحج	٥٦٩
اعبدوا لاله مالكم من إله غيره	٢٣	المؤمنون	٦١٣
وقل ربي أنزلني منزلا مباركا	٢٩	المؤمنون	٣١٥
ولو اتبع الحق أهواءهم	٧١	المؤمنون	٨٧
أفحسبتم إنما خلقناكم عبثا	١١٥	المؤمنون	٩٤
الزاني والزانية فاجلدوا كل واحد منهما	٢	النور	٥٠٥
الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة	٣	النور	٥٥٩
إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم	١١ - ٢٠	النور	٢٩٩ - ٣٠٤
ومن يتبع خطوات الشيطان	٢١	النور	٦٦٣
قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم	٣٠ - ٣١	النور	٣٨٢-٢٢٣-٦٩٠
وأنكحوا الأيامى منكم	٣٢	النور	١٤٠
ولا تكرهوا فيتاتكم على البغاء	٣٣	النور	٣٩٢ - ٤٠٢
والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة	٣٩	النور	٢٤٦
لقد أنزلنا آيات مبينات	٤٦	النور	٩٤
إنما كمان قول المؤمنين إذا دعوا إلى ا الله	٥١	النور	١٥٦ - ٥٩٩
قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول	٥٤	النور	١٢٨ - ٤٥٨
وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات	٥٥	النور	٢٥
يا أيها لاذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت	٥٨ - ٥٩	النور	١٤٠ - ٤٣١

الآيــــــــة	رقمها	السورة	رقم الصفحة
أفمن يمشي مكمبا على وجهه	٢٢	الملك	٢٤٠
قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا	٣٠	الملك	٦٢١
وإنك لعلى خلق عظيم	٤ - ٦	القلم	١٥١-٢٠٦-٣٧٣
فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت	٤٨ - ٤٩	القلم	٢١٠
وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم	٧	نوح	٢٨٣ - ٤٥٩
إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا	٥	المزمل	٣٧٠
وألوا استقاموا على الطريقة	١٦	الجن	٤٦٠
يا أيها المدثر ، قم فأنذر	١ - ٢	المدثر	٤٥٥ - ٤٦١
كل نفس بما كسبت رهينة	٣٨	المدثر	٥١٠
إن علينا جمعه وقرآنه	١٨	القيامة	١١٣
فقال أنا ربكم الأعلى	٢٤	النازعات	٥٣
فأما من طغى	٣٧ - ٤١	النازعات	٩٥ - ٢٧٣
وإذا المؤودة سئلت	٨ - ٩	التكوير	٣٧٥
يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم	٦ - ٨	الانفطار	٩٢
إن الأبرار لفي نعيم	١٣ - ١٤	الانفطار	٢٧٣
فلينظر الإنسان مم خلق	٥ - ٧	الطارق	٤٠٤
فأما من أعطى واتقى	٥	الليل	٦٨٠
ألم نشرح لك صدرك	١ - ٤	الشرح	٢٠٦
لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم	٤	التين	٩٢
ثم رددناه أسفل سافلين	٥	التين	٢٢
أقرأ باسم ربك ا لذي خلق	١ - ٥	العلق	١٤١ - ٥٤٠
فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره	٧ - ٨	الزلزلة	٩٥
يوم يكون الناس كالفراش المبثوث	٤ - ٥	القارعة	٢٣٠
تبت يدا أبي لهب وتب	١	المسد	٤٦٢

فهرس الأحاديث

رقم الصفحة	طرف الحديث
٩٥	خط النبي صلى الله عليه وسلم خطا مربعا
٢٣٨	خط النبي صلى الله عليه وسلم خطوطا فقال
٥٦	خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا
١٨٢-١٨٠-١٧٦	خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم
٣٠٨	خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهله
١٣٠ - ١٠٢	خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم
١٧٣	دع ما يريبك إلى ما لا يريبك
٢٠٦	دعوه واهريقوا على بوله سجلا
٣٠٩	دونك فانتصري
٣٩٧	دينار أنفقته في سبيل الله
٥٢١	رأى ثقبا مثل التنور
٣١٠	رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقبِّل
١٧٩	ربح البيع صهيب
٦٢٣	سبحان الله هذا كما قال قوم موسى
٢٩٦	صبرا آل ياسر
٦٤٣	صدقك وهو كذوب
٦٢٤	صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على إثر سماء
٥٢٣	صفنان من أهل النا ولم أرهما
٦٣٧	عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط
٤٣٦	علقوا السوط حيث يراه أهل البيت
٦٨٩	عينان لا تمسهما النار
٣٧٢	غارت أمكم
٤١٥	غير اسم عاصية
٦٢٤	فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يقولوا ورب الكعبة
٦٣٥	فأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل النساء والصبيان
٣١٢	فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح التراب
٣٩٠	فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاشة العرس
٢١٦	فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه حجرين
٣٤٧	فصعد النظر إليها وصوبه
٢٤١	فعليك بالجماعة

طرف الحديث	رقم الصفحة
وإني خلقت عبادي حنفاء	٢١ - ٥٦ - ٤١٠
واهدني لأحسن الأخلاق	٦٢٦
وأول ربا أضع ربا عباس	٦٤٣
ورأيت النار فلم أر كاليوم منظرا قط	٣٩٥
وصلوا كما رأيتموني أصلي	١٤٤ - ١٦٠
ولا تسافرن امرأة إلا مع	٥٢٣
ولا والله ما مست يده يد امرأة قط	٣٨٦
وما عبدت امرأة ربها مثل	٣٧٨ - ٣٧٩
ومن يتقبل لي بواحدة أتقبل له بالجنة	٥٩٨
يا أبا ذر أعيرته بأمه	١٧٠
يا أم المومنين أنبئني عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم	١٥٠
يا أمة محمد والله ما من أحد أغير من الله	٥٢١
يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز	٣١٢
يا بني فهر	٤٦٢
يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار	٤٨٧
يا حصين كم تبعد	٤٤٣
يا حنظلة ساعة وساعة	٣١٧
يا رب أصحابي	٢٧٤
يا رسول الله ألك بي حاجة	٣٤٦
يا غلام إني أعلمك كلمات	٤٢٣
يا ليتني فيها جذع	١٥١
يا معشر الشباب	٢٤٢-٤٠١-٥٦٠
يا معشر المهاجرين خمس اذا ابتليتم بهن	٥٢٨
يا معشر النساء تصدقن	٣٥٩
يا معشر من آمن بلسانه	٥٠
يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة	٥١٩

قائمة المصادر والمراجع

أولا : القرآن الكريم وعلومه :

١- ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم ، دقائق التفسير ، مؤسسة علوم القرآن ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٦هـ .

٢- ابن جرير ، محمد ، جامع البيان في تفسير القرآن ، دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٠هـ .

٣- ابن عاشور ، محمد الطاهر ، تفسير التحرير والتنوير ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ، لم تذكر الطبعة ولا تاريخ النشر .

٤- ابن القيم ، محمد بن أبي بكر ، بدائع التفسير ، دار ابن الجوزي ، الدمام ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ .

٥- ابن كثير ، أبي الفداء الحافظ ، تفسير القرآن العظيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ .

٦- أبو شهبة ، محمد بن محمد ، المدخل لدراسة القرآن الكريم ، مكتبة السنة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ .

٧- الأبياري ، تاريخ القرآن ، دار الكتاب المصري ، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ .

٨- الألوسي، شهاب الدين محمود، روح المعاني، دار الفكر، بيروت ، ١٤٠٨هـ . لم تذكر الطبعة .

٩- الأندلسي ، محمد بن يوسف أو حيان ، تفسير البحر المحيط ، تحقيق عبد الموجدود وآخرون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ .

١٠- بازمول ، محمد بن عمر بن سالم ، تهذيب وترتيب الإتقان في علوم القرآن ، دار الهجرة ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ .

١١- البغوي ، الحسين بن مسعود ، تفسير البغوي ، تحقيق النمر وآخرون ، دار طيبة ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٤١٤هـ .

١٢- البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ .

١٣- البيانوني ، عبد المجيد ، ضرب الأمثال في القرآن أهدافه التربوية وآثاره ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الأولى ،١٤١١هـ .

١٤- الترمذي ، محمد بن علي الحكيم ، الأمثال من الكتاب والسنة ، تحقيق البجاوي ، مكتبة دار التراث ، القاهرة .لم تذكر الطبعة ولا تاريخ النشر .
١٥- الجصاص ، أبي بكر أحمد بن على الرازي ، الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق قمحاوي ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ١٤٠٥هـ .لم تذكر الطبعة .
١٦- جمال ، أحمد محمد ، القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٤١٢هـ .
١٧- الجمل ، سليمان بن عمر العجيلي ، الفتوحات الإلهية ، مطبعة عيسى البابي وشركاه ، مصر . لم تذكر الطبعة ولا تاريخ النشر .
١٨- الحسن ، محمد علي ، المنار في علوم القرآن ، مطبعة الشرق ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣م .
١٩- الخالدي ، صلاح عبد الفتاح ، مع قصص السابقين في القرآن، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ، ١٣٠٩هـ .
٢٠- الرازي ، محمد ، تفسير الفخر الرازي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٠هـ .لم تذكر الطبعة .
٢١- الزحيلي ، وهبة ، القصة القرآنية هداية وبيان ، دار الخير ، بيروت ، ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ .
٢٢- الزرقاني ، محمد عبد العظيم ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ
٢٣- الزركشي ، محمد بن عبد الله ، البرهان في علوم القرآن ، دار الفكر ، بيروت، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ .
٢٤- الزمخشري، جابر محمد بن عمر ، الكشاف، دار بولاق، القاهرة ، ١٣١٨هـ.لم تذكر الطبعة .
٢٥- السعدي ، عبدالرحمن بن ناصر ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، تحقيق النجار ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثالنية ، ١٤١٤هـ .
٢٦- السيوطي ، جلال الدين ، الإتقان في علوم القرآن ، دار الفكر . ، لم يذكر البلد ولا الطبعة ولا تاريخ النشر .

٢٧- شديّد ، محمد ، منهج القصة في الرآن ، شركة مكتبات عكاظ ، جدة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ .
٢٨- ======= منهج القرآن في التربية ، مؤسسة الرسالة ، لم يذكر البلد ولاالطبعة ولا تاريخ النشر .
٢٩- الشنقيطي ، عبد الله بن الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار ، علاج القرآن الكريم للجريمة ، مكتبة بن تيمية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ،١٤١٣هـ .
٣٠- الشنقيطي ، محمد الأمين بن محمد المختار ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ١٤١٣هـ .لم تذكر الطبعة .
٣١- الطبري ، محمد بن جرير ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٥هـ.لم تذكر الطبعة .
٣٢- =========== جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الثانية .لم يذكر تاريخ النشر .
٣٣- القاسمي ، محمد جمال الدين ، محاسن التأويل ، دار الفكر ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٨هـ .لم يذكر بلد النشر .
٣٤- القرطبي ، محمد بن أحمد الأنصاري ، الجامع لأحكام القرآن ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨٧هـ .
٣٥- القطان ، مناع خليل ، مباحث في علوم القرآن ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثالثة ، ٦١٤٠٦هـ.لم يذكر بلد النشر .
٣٦- قطب ، سيد ، التصوير الفني في القرآن ، دار الشروق ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٣٩٩هـ
٣٧- ======= في ظلال القرآن ، دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة التاسعة ، ١٤٠٠هـ .
٣٨- الميداني ، عبد الرحمن حسن حبنكه ، أمثال القرآن الكريم ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٤١٢هـ .
٣٩- الواحدي ، على بن أحمد ، أسباب النزول ، دار عالم الكتب ، بيروت .، لم تذكر الطبعة ولا تاريخ النشر .
٤٠- الوادعي ، مقبل بن هادي ، الصحيح المسند من أسباب النزول ، دار الأرقم ، الكويت ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٥ هـ .

ثانيا : كتب السنة النبوية :

١- ابن حجر ، أحمد بن علي ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، تحقيق ابن باز ، دار الفكر، لم يذكر البلد ولا الطبعة ولا تاريخ النشر .

٢- ابن حنبل، احمد، مسند الإمام أحمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت، الطبعة الثانية ، ١٣٩٨هـ .

٣- ======= مسند الإمام أحمد ، دار الفكر ، بيروت ، لم تذكر الطبعة ولاتاريخ النشر .

٤- ========= الزهد ، دار البيان للتراث ، القاهرة ،١٤٠٨هـ .

٥- ابن رجب ، عبد الرحمن بن شهاب الدين ، جامع العلوم والحكم ، تحقيق الأرناؤوط وباجس ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٢هـ .

٦- ابن ماجة ، محمد بن يزيد القزويني ، سنن ابن ماجة ، دار إحياء الكتب العلمية ، لم تذكر الطبعة ولا البلد ولا تاريخ النشر .

٧- أبو داود، سنن أبي داود ، دار الجنان ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ .

٨- الألباني ، محمد ناصر الدين ، إرواء الغليل ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ .

٩- ============== صحيح الجامع الصغير وزيادته ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦هـ .

١٠- ============== صحيح سنن الترمذي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ .

١١- ============= صحيح سنن ابن ماجة ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ،١٤٠٨هـ .

١٢- ============= صحيح سنن النسائي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ .

١٣- ============= صحيح سنن أبي داود ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ .

١٤- ============= صحيح الترغيب والترهيب ، مكتبة المعارف ، الرياض ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٩هـ .

١٥- =========== ضعيف سنن الترمذي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ .

١٦- ========== ضعيف سنن أبي داود ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ ٠
١٧- =========== سلسلة الأحاديث الصحيحة ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٤١٥هـ ٠ لم تذكر الطبعة ٠
١٨- البخاري ، محمد بن إسماعيل ، الأدب المفرد، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ ٠
١٩- =========== ، صحيح البخاري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، لم تذكر ا الطبعة ولا تاريخ النشر٠
٢٠- ============ ، صحيح البخاري مع الفتح ، دار الفكر ٠ ، لم يذكر البلد ولا الطبعة ولا تاريخ النشر ٠
٢١- البغوي ، الحسين بن مسعود ، شرح السنة ، تحقيق الشاويش والأناووط ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ ٠
٢٢- الترمذي ، محمد بن على الحكيم ، مختصر الشمائل المحمدية ، تحقيق الألباني ، مكتبة المعارف ، الرياض ، الطبعة الرابعة ، ١٤١٣هـ ٠
٢٣- ============= الجامع الصحيح ، دار الكتب العلمية ، بروت ، لبنان ، لم تذكر الطبعة ولا تاريخ النشر ٠
٢٤- الخطيب ، محمد عجاج ، أصول الحديث علومه ومصطلحه ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٩هـ ، لم تذكر الطبعة ٠
٢٥- الزبيدي ، أحمد بن عبد اللطيف ، مختصر صحيح البخاري ، دار النفائس ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٩هـ ٠
٢٦- السندي ، أبي الحسن الحنفي ، شرح سنن ابن ماجة القزويني ، دار الجيل ، بيروت، لم تذكر الطبعة ولا تاريخ النشر ٠
٢٧- الشافعي ، محمد بن علان ، دليل الفالحين شرح رياض الصالحين ، دار الكتاب العربي ، بيروت ٠لم تذكر الطبعة ولا تاريخ النشر ٠
٢٨- الصنعاني ، عبد الرزاق بن همام ، مصنف عبد الرزاق ، تحقيق الأعظمي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ ٠
٢٩- الطبراني ، سليمان بن أحمد ، المعجم الكبير ، تحقيق حمدي السلفي ، مطبعة الزهراء ، الموصل ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ٠

٣٠- العدوي ، صفاء الضوي أحمد ، إتحاف القاري باختصار فتح الباري ، دار ابن الجوزي ، الدمام ، ١٤١٤هـ.لم تذكر الطبعة .

٣١- العظيم آبادي ، محمد شمس الحق ، عون المعبود شرح سنن أبي داود ، دار الفكر، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٣٩٩هـ .

٣٢- العلواني ، محمد جابر فياض ، الأمثال في الحديث النبوي ، مكتبة المؤيد ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ .

٣٣- المباركفوري ، محمد بن عبد الرحمن ، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ، دار الفكر . ، لم يذكر البلد ولا الطبعة ولا تاريخ النشر .

٣٤- المروزي ، محمد بن نصر ، السنة ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ .

٣٥- النسائي ، سنن النسائي ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٠٧هـ ، لم تذكر الطبة .

٣٦- عبد المجيد ، عبد المجيد محمود ، نظرات فقهية وتربوية في أمثال الحديث ، مكتبة البيان ، الطائف ، الطبعة الثانية ، ١٤١٣هـ .

ثالثا : مصادر ومراجع أخرى :

١- ابن أبي الدنيا ، أبي بكر عبد الله بن محمد ، العيال ، تحقيق خلف ، دار ابن القيم ، الدمام ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ .

٢- ابن أبي الدنيا ، أبي بكر عبد الله بن محمد ، قصر الأمل ، دار ابن حزم ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ .

٣- ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم ، السياسة الشرعية ، تحقيق عيون ، دار البيان ، دمشق ، ١٤٠٥هـ ، لم تذكر الطبعة .

٤- ================== الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تحقيق الجليند، دار المجتمع ، جدة ، ١٤٠٦هـ ، لم تذكر الطبعة .

٥- ================ مجموع فتاوى ابن تيمية ، مكتبة ابن تيمية .لم يذكر البلد ولا الطبعة ولا تاريخ النشر .

٦- ابن جماعة ـ بدر الدين ، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم ، دار رمادي ، الدمام ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ .

٧- ابن الجوزي ، جمال الدين أبي الفرج ، صفة الصفوة ، تحقيق الفاخوري ، دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٦هـ ٠
٨- ابن حجر ، أحمد بن على ، الإصابة في تمييز الصحابة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ ٠
٩- ابن حزم ، على بن أحمد ، فصل في الملل والأهواء والنحل ، دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٥هـ ٠
١٠- ابن خلدون ، عبد الرحمن ، مقدمة ابن خلدون ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ
١١- =========== مقدمة ابن خلدون ، تحقيق الجويدي ، المكتبة العصرية ، ، لم يذكر البلد ولا الطبعة ولا تاريخ النشر
١٢- ابن زكريا ، أحمد بن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، دار الفكر ،١٣٩٩هـ ، لم يذكر البلد ولا الطبعة ٠
١٣- ابن سعد ، محمد ، الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٥هـ ، لم تذكر الطبعة ٠
١٤- ابن عابدين ، رد المحتار على الدر المختار ، دار إحياء التراث ، بيروت ، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ ٠
١٥- ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، تحقيق قميحه ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ ٠
١٦-ابن عبدالبر ، جامع بيان العلم وفضله ، تحقيق وتصحيح الزهيري ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ ٠
١٧- ابن عبد الوهاب ، محمد ، التوحيد الذي هو حق الله على العبيد ، تصحيح ومراجعة شاكر ، دار عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ ٠
١٨- ابن قدامة ، أحمد بن عبد الرحمن ، مختصر منهاج القاصدين ، تحقيق رضوان جامع ، المكتبة التجارية ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ،١٤١٥هـ ٠
١٩- ابن القيم ، محمد بن أبي بكر ، الفوائد ، دار النفائس ، بيروت ، الطبعة السابعة ، ١٤٠٦هـ ٠

٢٠- ============= زاد المعاد في هدي خير العباد ، تحقيق الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الرابعة عشرة ، ١٤٠٧هـ ٠

٢١- ============= تحفة المودود في أحكام المولود، تحقيق الأرناؤوط ، دار عالم الكتب ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ ٠

٢٢- ============= إعلام الموقعين عن رب العالمين ، تحقيق الوكيل ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤١٣هـ٠

٢٣- ============= إعلام الموقعين عن رب العالمين ، تحقيق الصبابطي ، دار الحديث ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ ٠

٢٤- ============= إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، دار المعرفة ، بيروت ، لم تذكر الطبعة ولا تاريخ النشر ٠

٢٥- ============= مدارج السالكين ، تهذيب العربي ٠، لم يذكر البلد ولاالطبعة ولا تاريخ النشر ٠

٢٦- ابن كثير ، أبي الفداء الحافظ ، البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، بيروت ، الطبعة السادسة ، ١٤٠٦هـ ٠

٢٧- ابن المقفع ، عبد الله ، الأدب الصغير، مطبعة محمد صبيح، القاهرة ، ١٣٠٨هـ٠

٢٨- ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ ٠

٢٩- ابن هشام ، عبدالملك ، السيرة النبوية ، تحقيق السقا وآخرون ، مؤسسة علوم القرآن ٠، لم يذكر البلد ولا الطبعة ولا تاريخ النشر ٠

٣٠- أبو زهرة ، محمد ، تاريخ المذاهب الإسلامية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، طبعة دار الثقافة ، مصر ٠ لم تذكر الطبعة ولا تاريخ النشر

٣١- أبو العينين ، على خليل ، بحث ضمن مجموعة بحوث في كتاب من أعلام التربية العربية الإسلامية ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، ١٤٠٩هـ

٣٢- أبوماضي ، إيلياء ، ديوان الجداول ، دار العلم للملايين ، الطبعة الخامسة عشرة ، ١٩٨٢م ٠لم يذكر بلد النشر ٠

٣٣- أحمد ، مهدي رزق الله ، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ ٠
٣٤- الأزهري ، محمد بن أحمد ، تهذيب اللغة ، تحقيق الأبياري ، دار الكتاب العربي، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٧م ٠
٣٥- الأشقر ، محمد سليمان عبد الله ، الواضح في أصول الفقه ، دار النفائس ، الأدرن ، الطبعة الرابعة ، ١٤١٢هـ ٠
٣٦- الأصفهاني ، ال~ظحسين بن محمد المعروف بالراغب ، الذريعة إلى مكارم الشريعة ، تحقيق العجمي ، دار الوفاء ، المنصورة ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٨هـ ٠
٣٧- آل الشيخ ، عبدالرحمن بن حسن ، فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، دار الخير ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ ٠
٣٨- إلهي ، فضل ، التدابير الوقائية من الزنا في الفقه الإسلامي ، دار المعارف ، الرياض، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٨هـ ٠
٣٩- أمين ، أحمد ، مبادىء الفلسفة، دار الكتاب العربي، بيروت ، ١٩٧٩م ٠لمتذكر الطبعة ٠
٤٠ - أنيس ، إبراهيم وآخرون ، المعجم الوسيط ، المكتبة الإسلامية ، تركيا ، الطعة الأولى ٠، لم يذكر تاريخ النشر ٠
٤١- إيدجارد فور وآخرون ، تعلم لتكون ، ترجمة حنفي بن عيسى ، الشركة الوطنية ، الجزائر ، ١٩٧٤م ٠
٤٢- البار والصافي ، محمد على، محمد أيمن ، الآيدز وباء العصر ، دار المنارة ، جدة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ ٠
٤٣- بدير ، بدير محمد ، منهج السنة النبوية في تربية الإنسان ، مكتبة الضياء ، جدة ، الطبعة الثانية ، ١٤١٣هـ ٠
٤٤- ========= ، منهج السنة النبوية في رعاية الصحة وقاية وعلاجا ، مكتبة الدعوة الإسلامية ، المنصورة ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٣هـ
٤٥- برس ، علم النفس والتربية الحديثة ، ترجمة أحمد زكي ، ١٩٥٤م ٠، لم يذكر البلد ولا الطبعة
٤٦- البستاني ، عبد الله ، الوافي ، مكتبة لبنان ، ١٩٨٠م ٠، لم تذكر الطبعة ٠

٤٧- البشر ، محمد بن سعود ، السقوط من الداخل ، دار العاصمة ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ ٠
٤٨- البغدادي ، أحمد بن علي بن ثابت ، الفقيه والمتفقه ، دار إحياء السنة النبوية ، دمشق ، ١٣٩٥هـ ٠لم تذكر الطبعة ٠
٤٩- ==================== ، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، تحقيق الطحان ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٤٠٣هـ ٠
٥٠- البلالي ، عبد الحميد ، فقه الدعوة في إنكار المنكر ، دار الدعوة ، الكويت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٧هـ ٠
٥١- البهوتي ، منصور بن يونس بن إدريس ، شرح منتهى الإرادات ، دار الفكر ، القاهرة ٠، لم تذكر الطبعة ولا تاريخ النشر ٠
٥٢- البوطي ، محمد سعيد رمضان ، الإسلام ومشكلات الشباب ، مؤسسة الفارابي ، دمشق ،١٩٧٣م ٠لم تذكر الطبعة ٠
٥٣- التونسي ، محمد خليفة ، ترجمة بروتوكولات حكماء صهيون ، دار التراث ، القاهرة ٠لم تذكر الطبعة ولا تاريخ النشر ٠
٥٤- الجاحظ ، عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٥هـ ٠
٥٥- الجاحظ ، عمرو بن بحر ، الحيوان ، دار الفكر ، ١٤٠٨هـ ٠لم يذكر البلد ولا الطبعة ٠
٥٦- جبر ، دندل ، الزنا ، مكتبة المنارة ، الأردن، الطبعة الثانية ، ١٤٠٧هـ ٠
٥٧- جلبي ، خالص ، الطب محراب الإيمان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة السابعة ، ١٤٠٧هـ
٥٨- جمال ، أحمد محمد ، نحو تربية إسلامية ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، الطبعة الرابعة ،١٤١٠هـ
٥٩- الجندي ، أنور ، تصحيح المفاهيم في ضوء الكتاب والسنة ، دار الاعتصام ٠، لم يذكر البلد ولا الطبعة ولا تاريخ النشر ٠

٦٠- الجوهري ، إسماعيل بن حماد ، الصحاح ، تحقيق العطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٤هـ ٠
٦١- خالد ، خالد محمد ، رجال حول الرسول ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الرابعة ،١٤٠٦هـ ٠
٦٢- الخلاَّل ، أحمد بن محمد بن هارون ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تحقيق عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ
٦٣- خليل ، محمد رشاد ، علم النفس الإسلامي العام والتربوي ، دار القلم ، الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ ٠
٦٤- دوبوا ، رينيه ، الحيوانات البشرية ، لندن ، ١٩٦٨م .لم تذكر الطبعة ولا دار النشر ٠
٦٥- الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ، سير أعلام النبلاء ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ ٠
٦٦- راجح ، أحمد عزت ، أصول علم النفس ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ٠لم تذكر الطبعة ولا تاريخ النشر ٠
٦٧- الرازي ، محمد بن أبي بكر عبد القادر ، مختارالصحاح ، دراسة وتقديم البركاوي ، دار المنار ٠، لم يذكر البلد ولا الطبعة ولا تاريخ النشر ٠
٦٨- الراوي ، محمد ، الدعوة الإسلامية ، مكتبة الرشد ، الرياض ، الطبعة الثالثة ، ١٤١١هـ ٠
٦٩- الزحيلي ، وهبة ، أصول الفقه الإسلامي ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ ٠
٧٠- الزرقا ، مصطفى أحمد ، شرح القواعد الفقهية ، دار العلم ، دمشق ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٣هـ
٧١- الزرقاني ، عبد الباقي ، شرح الزرقاني على مختصر سيدي خليل ، دار الفكر ، بيروت ٠، لم تذكر الطبعة ولا تاريخ النشر ٠
٧٢- الزركشي ، المنثور في القواعد ، تحقيق محمود ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢هـ ٠، لم يذكر بلدالنشر ٠

٧٣- الزعبلاوي ، محمد السيد محمد ، تربية المراهق بين الإسلام وعلم النفس ، مكتبة التوبة ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ .

٧٤- زنجير ، محمد رفعت ، أهمية الإيمان وآثاره في بناء الفرد والمجتمع ، دار الثقة ، مكة المكرمة ، ١٤٠٩هـ .لم تذكر الطبعة .

٧٥- الزنداني ، عبدالمجيد بن عزيز ، توحيد الخالق ، مكتبة جدة ، جدة ، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ

٧٦- زهران ، حامد عبد السلام ، علم نفس النمو ، دار عالم الكتب القاهرة ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٧م.

٧٧- زيدان ، عبدالكريم ، الوجيز في أصول الفقه ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧٨م .لم تذكر الطبعة .

٧٨- الزيد ، عبد الله محمد ، التعليم في المملكة العربية السعودية ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٤هـ .لم يذكر بلد النشر .

٧٩- السباعي ، مصطفى ، من روائع حضارتنا ، المكتب الإسلامي ، دمشق ، الطبعة الثانية ،١٣٩٧هـ .

٨٠- ========== المرأة بين الفقه والقانون ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة السادسة ،١٤٠٤هـ .

٨١- السراج ، عبود ، علم الإجرام وعلم العقاب ، جامعة الكويت ، ١٩٨١م .، لم يذكر البلد ولا الطبعة .

٨٢- سلطان ، جمال ، جذور الانحراف في الفكر الإسلامي الحديث ، مركز الدراسات العلمية ، بريطانيا ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ .

٨٣- السنبل ، عبد العزيز وآخرون ، نظام التعليم في المملكة العربية السعودية ، مكتبة الخريجي ، الرياض ، الطبعة الثالثة ،١٤١٢هـ .

٨٤- سويد ، محمد نور، منهج التربية النبوية للطفل ، مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت، الطبعة الرابعة ، ١٤١٢هـ .

٨٥- السيلي ، سيد عبد العزيز ، العقيدة السلفية بين الإمام أحمد والإمام ابن تيمية ، دار المنار ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ .

٨٦- شادي ، صلاح ، تأملات في كتاب مدراج السالكين ، دار الوفاء ، المنصورة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ .

٨٧- الشاطبي ، إبراهيم بن موسى ، الاعتصام ، دار المعرفة ، بيروت، ١٤٠٦هـ .لم تذكر الطبعة .

٨٨- شاكر ، أحمد محمد ، مقدمة مسند الإمام أحمد ، دار المعارف ، مصر ، ١٣٧٧هـ .لم تذكر الطبعة .

٨٩- الشامي ، صالح أحمد ، من معين السيرة ، المكتب الإسلامي ، بيرو ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ .

٩٠- الشريف ، عبد السلام محمد ، المبادىء الشرعية ، الغرب الإسلامي ، بيروت، ١٤٠٦هـ .لم تذكر الطبعة .

٩١- الشريف ، نايف بن حامد بن همام ، التربية الإسلامية وقضية التفكير العلمي ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية التربية ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ١٤١٢هـ .

٩٢- الشوكاني ، محمد بن على بن محمد ، إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول ، تحقيق البدري ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ .

٩٣- الشويعر، محمد بن سعد، الوقاية من الجريمة ، دار معاذ ، الرياض ، ١٤١٣هـ.لم تذكر الطبعة .

٩٤- الطبري ، أبي جعفر أحمد بن جرير ، الرياض النضرة في مناقب العشرة المبشرين بالجنة ، دار الندوة الجديدة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ .

٩٥- =============== ، الرياض النضرة في مناقب العشرة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ .

٩٦- ============= تاريخ الرسل والملوك ، تحيق أبو الفضل ، دار المعارف ، القاهرة ، ، لم تذكر الطبعة ولا تاريخ النشر .

٩٧- الطنطاوي، على ، صور وخواطر ، دار المنارة ، جدة ، الطبعة الثانية ، ١٤١٢هـ .

٩٨- عبد الحميد ، على بن حسن ، التصفية والتربية وأثرهما في استئناف الحياة الإسلامية ، دار التوحيد ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٤١٤هـ .

٩٩- عبد المعطي ، يوسف ، مقدمة كتاب أمة معرضة للخطر ، دار الصحوة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ .

١٠٠- عبد الله ، عبد الرحمن صالح ، المنهاج الدراسي أسسه وصلته بالنظرية التربوية الإسلامية ، مركز الملك فيصل للبحوث ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ .

١٠١- عزام ، عبد الله ، العقيدة وأثرها في بناء الجيل ، مكتبة الرسالة الحديثة ، عمان ، الطبعة الثالثة .لم يذكر تاريخ النشر .

١٠٢- العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل ، جمهرة الأمثال ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ .

١٠٣- العسكري ، أبي هلال وآخرون ، الجامع في الحث على طلب العلم ، تحقيق الحداد ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ .

١٠٤- عطا ، عبد القادر أحمد ، مقدمة كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للخلال ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ .

١٠٥- عفيفي ، محمد عبد الله ، النظرية الخلقية عند ابن تيمية ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ

١٠٦- العقاد ، عباس ، مقدمة كتاب برتوكولات حكماء صهيون ، دار التراث ، القاهرة .لم تذكر الطبعة ولا تاريخ النشر .

١٠٧- علوان ، عبد الله ناصح ، تربية الأولاد في الإسلام ، دار السلام ، ، حلب ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠١هـ .

١٠٨- عمر ، الفاضل العبيد ، أمراض الجراثيم بين الوقاية والعلاج في الطب الإسلامي ، مكتبة الطالب الجامعي ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ .

١٠٩- العمر، ناصر بن سليمان ، البث المباشر ، مؤسسة الجريسي ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ .

١١٠- الغمري، جلال الدين ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ترجمة الإصلاحي ، شركة الشعاع ، الكويت ، ١٤٠٠هـ .

١١١- العودة ، خالد بن فهد ، الترويح التربوي رؤية إسلامية ، دار المسلم ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ .

١١٢- عوده ، عبدالقادر ، التشريع الجنائي الإسلامي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثامنة ، ١٤٠٦هـ .
١١٣- الغزالي ، أبي حامد محمد بن محمد ، إحياء علوم الدين ، دار قتيبة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ .
١١٤- الغزالي ، محمد ، فقه السيرة ، دار العلم ، بيروت الطبعة الأولى ، ١٤٠٢هـ .
١١٥- ====== ، هموم داعية ، دار إحياء التراث الإسلامي ، قطر ، ١٤٠٣هـ .لم تذكر الطبعة .
١١٦- ======= ، سر تأخر العرب والمسلمين ، دار الصحوة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ .
١١٧- فروخ ، عمر ، الأسرة في الشرع الإسلامي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤٠٨هـ .لم تذكر الطبعة .
١١٨- فهمي ، مصطفى ، علم النفس أصوله وتطبيقاته التربوية ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٦هـ .
١١٩- الفيروزابادي ، محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط ، مؤسسة الحلبي وشركاه ، القاهرة .لم تذكر الطبعة ولا تاريخ النشر .
١٢٠- فينكس ، فيليب ، فلسفة التربية ، ترحمة النجيحي ، دار النهضة العربية ، القاهرة .، لم تذكر الطبعة ولا تاريخ النشر .
١٢١- القاضي ، يوسف ، و ياجن ، مقداد ، علم النفس التربوي في الإسلام ، دار المريخ ، الرياض ، ١٤٠١هـ لم تذكر الطبعة .
١٢٢- القاعود ، حلمي محمود ، الصحافة المهاجرة ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٨٣م .لم تذكر الطبعة .
١٢٣- القحطاني ، محمد بن سعيد ، الولاء والبراء ، دار طيبة ، مكة المكرمة ، الطبعة السادسة ، ١٤١٣هـ
١٢٤- ـ القرافي ، أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن ، الفروق ، دار عالم الكتب ، بيروت .، لم تذكر الطبعة ولا تاريخ النشر .

١٢٥- القرطبي ، ابن عبد البر ، المنتقى ، دار رمادي ، الدمام ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ .
١٢٦- القرطبي ، محمد بن وضاح ، البدع والنهي عنها ، تحقيق عمرو سليم ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ.
١٢٧- - قطب ، سيد ، نحو مجتمع إسلامي ، دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة الثامنة ، ١٤٠٨هـ .
١٢٨- قطب ، محمد، منهج التربية الإسلامية، دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة التاسعة، ١٤٠٩هـ.
١٢٩- ====== مذاهب فكرية معاصرة ، دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة السابعة ، ١٤١٣هـ.
١٣٠- ====== الإسلام كبديل عن الأفكار والعقائد المستوردة ، مكتبة السنة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ .
١٣١- ====== الإنسان بين المادية والإسلام ، دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة الحادية عشرة ، ١٤١٣هـ .
١٣٢- قلعه جي ، محمد رواس ، موسوعة فقه عمر بن الخطاب ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ .
١٣٣- كارل ، إلكسيس ، الإنسان ذلك المجهول ، تعريب فريد ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ١٤٠٩هـ .لم تذكر الطبعة .
١٣٤- الكاساني ، علاء الدين أبي بكر بن مسعود ، بدائع الصائع في ترتيب الشرائع ، المكتبة العلمية ، بيروت ، ١٣٩٤هـ .لم تذكر الطبعة .
١٣٥- الكفوي ، أيوب بن موسى الحسيني ، الكليات ، تحقيق الداية ، دار الفكر ، سورية ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ .
١٣٦- الكيلاني ، ماجد عران ، أهداف التربية الإسلامية ، مكتبة دار التراث ، المدينة المنورة ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٨هـ .
١٣٧- =========== فلسفة التربية الإسلامية ، مكتبة هادي ، مكة المكرمة ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٩هـ .
١٣٨- اللخمي، إبراهيم بن موسى ، الموافقات في أصول الشريعة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ، لم تذكرالطبعة ولا تاريخ النشر.

١٣٩- الماردي ، أبي الحسن على بن محمد بن حبيب ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ، لم تذكر الطبعة ولا تاريخ النشر ٠
١٤٠- =================== نصيحة الملوك ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، ١٩٨٨م ٠لم تذكر الطبعة٠
١٤١- المباركفوري ، صفي الرحمن ، الرحيق المختوم ، دار القلم ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ ٠
١٤٢- المرداوي، على بن حسن ، الإنصاف ، تحقيق الفقي ، مكتبة بن تيمية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٧٤هـ ٠
١٤٣- المسعود ، عبد العزيز بن أحمد ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثرهما في حفظ الأمة ، دار الوطن ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٤١٤هـ ٠
١٤٤- المسلاتي ، مختار خليل ، أمريكا كما رأيتها ، مكتبة المعارف ، الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ ٠
١٤٥- المقدم ، محمد بن أحمد بن إسماعيل ، عودة الحجاب ، دار طيبة ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ ٠
١٤٦- المقري ، أحمد بن محمد بن على ، المصباح الكبير في غريب الشرح الكبير للرافعي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ ٠
١٤٧- مكتب التربية العربي ، التعليم في اليابان ، من أصدارات مكتب التربية العربي لدول الخليج ٠، لم يذكر البلد ولا الطبعة ولا تاريخ النشر
١٤٨- المناوي ، محمد المدعو عبد الرؤوف ، فتح القدير شرح الجامع الصغير ، دار المعرفة ، بيروت ، لم تذكر الطبعة ولا تاريخ النشر ٠
١٤٩- المنذري ، زكي الدين عبد العظيم ، مختصر صحيح مسلم ، تحقيق الألباني ، مكتبة المعارف ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٤١٢هـ ٠
١٥٠- ================= الترغيب والترهيب ، تحقيق عمارة ، دار إحياء التراث ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨٨هـ
١٥١- الميداني ، عبد الرحمن حسن حبنكه ، مجمع الأمثال ، دار الكتاب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ ٠
١٥٢- الميداني ، عبدالرحمن حسن حبنكه ، الأخلاق الإسلامية ، دار العلم ، دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٤١٣هـ ٠

١٥٣- الناصر ، محمد حامد . ودرويش ، خوله ، المرأة بين الجاهلية والإسلام ، دار الرسالة ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ .
١٥٤- النحلاوي ، عبدالرحمن ، أصول التربية الإسلامية ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ .
١٥٥- ============ التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٨هـ .
١٥٦- الندوي ، على الحسني ، السيرة النبوية ، دار الشروق ، جدة ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٩هـ .
١٥٧- =========== ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثامنة ، ١٤٠٤هـ .
١٥٨- النشمي ، عجيل جاسم ، معالم في التربية ، مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠ هـ .
١٥٩- النغيمشي ، عبد العزيز بن محمد ، المراهقون ، دار المسلم ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٤١٤هـ .
١٦٠- النووي ، يحي بن شرف ، شرح صحيح مسلم ، دار القلم ، بيروت ، الطبعة الأولى.لم يذكر تاريخ النشر .
١٦١- النيسابوري ، مسلم بن الحجاج ، الجامع الصحيح ، دار الفكر ، بيروت ، ، لم تذكر الطبعة ولا تاريخ النشر .
١٦٢- الهاشمي ، عبد الحميد ، علم النفس التكويني ، دار المجمع العلمي ، جدة ، ١٤٠٠هـ .لم تذكر الطبعة .
١٦٣- هوايت ، ميري ، التربية والتحدي ، دار عالم الكتب ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١م .
١٦٤- الهيثمي، على بن أبيي بكر ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٤٠٨هـ .لم تذكر الطبعة .
١٦٥- وزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية ، دليل النشاط ، ١٤٠٦هـ .لم تذكر الطبعة
١٦٦- الوادعي ، مقبل بن هادي ، الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين ، مكتبة دار القدس ، صنعاء ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ .

١٦٧- الواعي ، توفيق ، الدعوة إلى الله ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ .

١٦٨- الوكيل ، حلمي أحمد . المفتي ، محمد أمين ، أسس بناء المناهج وتنظيماتها ، ١٩٨٧م . ، لم يذكر البلد ولا الطبعة .

١٦٩- ياجن ، مقداد ، التربية الإسلامية ودورها في مكافحة الجريمة ، مطابع الفرزدق ، الرياض ، ١٤٠٨هـ .لم تذكر الطبعة .

١٧٠- ====== معالم بناء نظرية التربية الإسلامية ، دار عالم الكتب ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٤١١هـ .

١٧١- يكن ، فتحي ، كيف ندعو إلى الإسلام ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٤هـ

١٧٢- ====== التربية الوقائية في الإسلام ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٢هـ .

مطابع جامعة أم القرى